تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي أثري مدني عصري إرشادي اجتماعي سياسي

هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور، وصريح المعقول، وتحقيق الفروع والاصول، وحل المشكلات، ودحض الشبهات، واقامة حجج الاسلام، وبيان سياسته في اصلاح الانام مع حكم التشريع وسنن الله في الاجتماع، وكون القرآن هداية عامة للبشر في كل زمان ومكان، وحجة الله وآيته المعجزة للانس والجان، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر من الضعف والعجز وقد أعرض أكثرهم عنها، وما كان عليه سلفهم من السيادة والعزة اذ كانوا معتصمين بحبلها، بما يثبت انها هي السبيل لسعادة الدنيا والدين، مراعى فيه السهولة في التعبير، مجتنبا كثرة مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون، بحيث تهتدي به العامة، وهو منتهى طلبة الخاصة. وهذه هي الطريقة التي توخاها في دروسه في الازهر حكيم الاسلام الاستاذ الامام

الشيخ محمد عبده قدس الله روحه

الجزء الحادي عشر

« تأليف »

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

﴿ بدئ به في ذي القعدة سنة ١٣٤٩ وحقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف ﴾

﴿ الطبعة الاولى ﴾

مطبعة المنار بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الحادى عشر من تفسير القرآن الحكيم

(٩٤) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ، قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ، وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٥) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ، فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ .

هذه الآيات بيان لما سيكون من أمر المنافقين الذين تخلفوا في المدينة وما حولها عن غزوة تبوك مع الرسول ﷺ والمؤمنين بعد عودتهم اليهم ، قال عز وجل :

﴿ يعتذرون اليكم ﴾ يعتذر اليكم أيها المؤمنون أولئك الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وهم اغنياء أصحاء لاعذر لهم ﴿ إذا رجعتم اليهم ﴾ من سفركم هذا عن جميع سيئاتهم ﴿ قل ﴾ أيها الرسول لهم حينئذ ﴿ لا تعتذروا لن نؤمن لكم ﴾ لن نصدقكم

تصديق جموح واثمان لكم بتلبسكم بالاسلام تحسينا للظن ، ولا عملا بالظواهر ،

ولماذا ؟ ﴿ قد نبأنا الله ﴾ بوحيه إلى رسوله المهم ﴿ من اخباركم ﴾ التي تسرونها في ضمائركم ، وهي مخالفة لظواهركم التي تعتذرون بها ، ونبأ الله هو الحق اليقين ومن عرف الحق لا يقبل الباطل ، ولا يصدق الكاذب ، ولم يقل « نبأني » وهو ﷺ المنبأ من الله وحده لأن المراد انه أمره أن ينبيء بذلك أصحابه ، ولم يكن هذا النبأ خاصاً به. واعتذارهم للجميع يقتضي أن يعلموا أن الجميع عالمون بما فضحهم الله به ، وان كان المبلغ لهم هو الرسول ﷺ بما له من الرياسة ، وما لخبره من الثقة التي لا يشك فيها أحد ، والتأثير الذي يحسب له كل حساب ، فهو من قبيل التبليغات الرسمية العليا الصادرة عن الملوك والسلاطين ، دع كونه اسمى واعلى

لأنه نبأ الرسول المعصوم عن الله عز وجل ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ بعد الآن . وهو الذي يدل إما على الاصرار على النفاق ، وإما على التوبة والاذعان في الايمان ، الذي تترتب عليه الاعمال . وأما أقوالكم فلا قيمة لها وان أكدتموها بالأيمان . فان تبتم وأنبتم ، وشهد لكم عملكم بصلاح سريرتكم ، فان الله يقبل توبتكم ، ويعاملكم رسوله بما يعامل به المؤمنين الذين تشهد لهم أعمالهم باخلاصهم وصدقهم ، وان أبيتم إلا الاصرار على نفاقكم ، والاعتماد على نفاق سوق كذبكم بأعذاركم وأيمانكم ، فسيعاملكم رسوله بما أمره الله به في هذه السورة من جهادكم والاغلاظ عليكم كاخوانكم الكفار المجاهرين ، وعدم السماح لكم بالخروج معه أبداً ، ولا بان تقاتلوا معه عدواً ،

وما يتعلق بذلك من اهانة واحتقار ﴿ ثم تردون ﴾ من هذه الحياة على الذل

والموت عليه ﴿ الى عالم الغيب والشهادة ﴾ الذي يعلم ما تسرون وما تعلنون ، وما تكتمون وما تظهرون . والغيب ما غاب عن المخاطبين علمه ، والشهادة

ما يشهدونه ويعرفونه[١] ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ عندما تحشرون وتحاسبون، ويجازيكم عليه بما تستحقون، وهو ما أوعدكم به في هذه السورة وفي غيرها كقوله (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار)

ومن الفقه في الآية ان من آداب الاسلام تحامي كل ذنب أو تقصير يحتاج فاعله الى الاعتذار، وورد في بعض الاحاديث المرفوعة «إياك وكل أمر يعتذر منه» رواه الضياء في الاحاديث المختارة عن انس وروى غيره مثله في أثناء حديث آخر

﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم ﴾ سيؤكدون لكم اعتذارهم بالأيمان الكاذبة إذا انقلبتم وتحولتم اليهم من سفركم لاجل ان تعرضوا عن عتبهم وتوبيخهم على قعودهم مع الخالفين من النساء والاطفال والعجزة، وبخلهم بالنفقة، ولم يذكر المحلوف عليه للدلالة على شموله لكل ما يعتذر عنه

﴿ فأعرضوا عنهم ﴾ إعراض إهانة واحتقار، لا إعراض صفح وإعذار، وهذا التعبير من أسلوب الحكيم وهو قبول ما يبغون من الاعراض عنهم ولكن على غير الوجه الذي يرجونه منه بل على ضده، وقد علل الامر بقوله ﴿ انهم رجس ﴾ أي قذر معنوي يجب الاعراض عنه تنزها عن القرب منه باشد مما يتنزه الطاهر الثوب والبدن عن ملابسة الارجاس والاقذار الحسية. وهذا بمعنى ما تقدم من قوله (٢٨ انما المشركون نجس) وسبق بيان معنى الرجس في تفسير آية (٥:٩٣ إنما الخمر والميسر) من سورة المائدة[٢] ﴿ ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ أي وملجؤهم الاخير نار جهنم جزاء بما كانوا يكسبون في الدنيا من أعمال النفاق التي دنست أنفسهم، والاعراض عن آيات الله الذي زادهم رجسا على رجسهم، كما تراه في الآية (١٢٥) الآتية

(١) تقدم تحقيق معنى الغيب المطلق والمقيد مفصلا في تفسير (٦ : ٥٠و٥٩) من الجزء السابع (٢) يراجع معني الرجس منه في ص ٥٧ ج ٧

﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم ﴾ فتستديموا معاملتهم السابقة بظاهر اسلامهم ، وهذا غرض آخر وراء غرض الاعراض عنهم لا يهنأ عيشهم بدونه، ولا حظ لهم من إظهار الاسلام غيره ، ولو كان إسلامهم عن إيمان لكان غرضهم الاول إرضاء الله ورسوله كما تقدم في آية (٦٢ يحلفون بالله لكم ليرضوكم) الخ وليس لكم أن ترضوا عنهم وهذه حالتهم ﴿ فان ترضوا عنهم ﴾ فرضا وقد أعلمكم الله بحالهم ﴿ فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ عن أمره منهم ولا من غيرهم ، فان هذا الفسوق سبب او علة لسخط الله تعالى فالحكم بعدم رضاه متعلق به لا بذواتهم وشخوصهم ، ومقتضاه أنه اذا فرض أن بعض المؤمنين رضي عنهم وآمن لهم باعتذارهم بعد النهي عنه كان فاسقا مثلهم ، محروما من رضاته تعالى ، كما أن من يتوب منهم ويرضي الله ورسوله يخرج من حدود سخطه عز وجل ويدخل في حظيرة مرضاته إذ لا يعد بعد ذلك فاسقاً . فأحكام الله العامة ووعده ووعيده تتعلق بالاعمال والصفات النفسية والبدنية لا بالذوات والاعيان ، ولو قال « فان الله لا يرضى عنهم » لما أفاد التعبير هذه الحقائق والمعاني ، بل كان يكون حكما على أفراد معينين ، مسجلا عليهم الموت على كفرهم وعدم قبول توبة أحد منهم ، وما أبعد هذا عن حكمة الله وعن هداية كتابه العزيز !

ولا ينافي هذا التحقيق ما يروى عن ابن عباس من نزول هذه الآيات في الجد بن قيس ومعتب بن قشير واصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلا امر النبي ﷺ المؤمنين لما رجعوا الى المدينة بأن لا يجالسوهم ولا يكلموهم. اذ لا دليل على ان هؤلاء مقصودون من الآيات بذواتهم وشخوصهم كالذين نهي عن الاستغفار لهم وعلله بموتهم على كفرهم ، كعبد الله بن أبي، وقد قال قتادة ان هذه الآيات نزلت فيه ، فانه حلف للنبي ﷺ بعد عودته ان لا يتخلف عنه وطلب ان يرضى عنه فلم يفعل . والآيات اعم من هذا وذاك . وهي من أنباء الغيب بما فيها من بيان مقاصدهم الخفية ، وان كان الاعتذار والحلف من سجاياهم المعروفة . وأن من علامات النفاق كثرة الحلف، لشعور المنافق دائما بأنه متهم بالكذب

ويجب التنبيه في هذا المقام لجهل فظيع وقفنا عليه عدا كرة بعض المشتغلين بعلوم الدين التقليدية مخالف لهذه الآية وامثالها من كتاب الله تعالى وهو زعمهم أن ماعابه الكتاب الحكيم على المشركين والكافرين من أعمال الشرك والكفر كدعاء غير الله واتخاذ أولياء من دونه يقربونهم اليه ويشفعون لهم عنده فيما يطلبون من دفع ضر وجلب نفع مما لا ينال بالكسب فهو خاص بهم وبأوليائهم وشفعائهم، وان وقوع مثله من المسلمين لاينافي صحة إيمانهم، والاعتداد باسلامهم، للفرق الواضح بين من يدعو الاصنام والاوثان ويجعلها واسطة بينه وبين الله تعالى تشفع له عنده وتقربه اليه زلفى، ومن يدعو الانبياء والاولياء لذلك وهم عباد الله المكرمون، الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون !!

جهل هؤلاء ان الشرك والكفر لا يختلف حكمه باختلاف متعلقه فمن يدعو مع الله صنما او كوكبا، كمن يدعو نبيا أو ملكا، على أن الاوثان والاصنام كانت تماثيل لذكرى بعض الاولياء والصالحين كالقبور المنسوبة إلى بعضهم نسبة صحيحة اومزورة، ولكن ماذا يقول هؤلاء الجاهلون المدافعون عن الشرك وأهله في أهل الكتاب الذين يدعون ويستغيثون الانبياء والصالحين، متوسلين بهم ومستشفعين، وهم الذين اتبع القبوريون من المسلمين سننهم في شركهم كما أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك تحذيراً وانذاراً بقوله « لتتبعن سنن من قبلكم » الحديث وهو متفق عليه وتقدم ذكره مراراً، وفصلت هذه المسألة في تفسير الآية (٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا) فيراجع تفسيرها (١)

ويذكر هؤلاء الجاهلون بالقرآن وتاريخ الاسلام فرقا آخر بين شرك المسلمين وشرك من قبلهم، وهو أن المشركين السابقين اتخذوا أوثانهم وانبياءهم وأولياءهم آلهة وأربابا، وان المسلمين الذين يدعون الاولياء ويستغيثونهم في الشدائد طلبا لشفاعتهم لم يتخذوهم آلهة ولا أربابا وانما يتخذونهم وسائل ووسائط ويعتقدون انهم مخلوقون مثلهم

---

(١) صفحة ٣٦٣ من الجزء العاشر

والجواب عن هذا انه لا فرق بين عمل الفريقين إلا في التسمية ولكن من بعض الوجوه ، فمشركو العرب لم يكونوا يسمون أصنامهم أربابا بل كانوا يعتقدون ويقولون ان رب العالمين وخالقهم ومدبر أمورهم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله وحده، لان هذا مقتضى لغتهم ، وإنما كانوا يسمونها آلهة لان الاله في لغتهم هو المعبود ، والمعبود هو من يتوجه اليه ويدعى فيما لا يقدر عليه الناس بكسبهم في دائرة الاسباب المعروفة لهم ، ويعظم ويتقرب اليه بالذبائح وغيرها لاجل ذلك، سواء كان سلطانه على النفع ودفع الضر بذاته لذاته وهو الله تعالى ، أو بشفاعته عند الله. وقد تقدم بسط هذا المعنى مرارا ، وسيعاد في تفسير سورة يونس للنصوص الصريحة فيه . فتسمية هذه العبادة لغير الله توسلا في عرف بعض الناس لايخرجها عن حقيقتها ، ولا عن كون اسمها في اللغة العربية عبادة وهو ما كان يسميها به أهل هذه اللغه . وانما التوسل الشرعي التقرب الى الله تعالى بما شرعه من الاعمال الصالحة ، لا بالاهواء المبتدعة، ولا بالتقاليد المتبعة

---

(٩٧) ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٨) وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَائِرَ . عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ ، وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٩) وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ، وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ، أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

هذه الآيات الثلاث في بيان حال الأعراب منافقيهم ومؤمنيهم، والظاهر انها قد نزلت هي وما بعدها الى آخر السورة بعد وصول النبي ﷺ والمؤمنين الى المدينة ، فهي بدء سياق جديد في تفصيل احوال المسلمين في ذلك العهد، بدىء

بذكر الاعراب من المنافقين لمناسبة ماقبله وفصل عنه لانسياق جديد مع ما بعده:

﴿ الاعراب أشد كفراً ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ بيان مستأنف لحال سكان البادية من المنافقين ، لانه مما يسئل عنه بعد ما تقدم في منافقي الحضر من سكان المدينة وغيرها من القرى . فالأعراب اسم جنس لبدو العرب ، واحده أعرابي ، والانثى اعرابية ، والجمع اعاريب. والعرب اسم جنس لهذا الجيل الذي ينطق بهذه اللغة ، بدوه وحضره واحده عربي . وقد وصف الاعراب بأمرين اقتضتها طبيعة البداوة [الاول] أن كفارهم ومنافقيهم أشد كفراً ونفاقا من أمثالهم من أهل الحضر - ولا سيما الذين يقيمون في المدينة المنورة نفسها - لانهم أغلظ طباعا ، وأقسى قلوبا ، وأقل ذوقا وآدابا ، - كدأب امثالهم من بدو سائر الأمم - بما يقضون جل أعمارهم في رعي الانعام وحمايتها من ضواري الوحوش . ومن تعدي أمثالهم عليها وعلى نسائهم وذراريهم ، فهم محرومون من وسائل العلوم الكسبية ، والآداب الاجتماعية [الثاني] انهم أجدر اي أحق وأخلق من أهل الحضر بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله من البينات والهدى في كتابه ، وما آتاه من الحكمة التي بين بها تلك الحدود بسنن أقواله وأفعاله . وفهم ألفاظ القرآن اللغوية ، لا يكفي في علم حدوده العملية . كان أهل المدينة وما حولها من القرى يتلقون عنه (ص) كل ماينزل من القرآن وقت نزوله ، ويشهدون سنته في العمل به ، وكان يرسل العمال الى البلاد المفتوحة يقيمون فيها يبلغون القرآن ، ويحكمون بين الناس به وبالسنة المبينة له ، فيعرف اهلها تلك الحدود التي حدها الله تعالى ونهاهم ان يعتدوها . ولم يكن هذا كله ميسوراً لاهل البوادي ، وهم مأمورون بالهجرة ، لاجل العلم والنصرة ، لأن الاسلام دين علم وحضارة

فالاعراب اجدر بالجهل من الحضر بطبيعة البداوة لا بضعف أفهامهم ، أو بلادة أذهانهم ، او ضيق نطاق بيانهم ، فقد كانوا مضرب الامثال في قوة الجنان ، ولوذعية الاذهان ، وذرابة اللسان ، وسعة بيداء البيان ، وعنهم أخذ رواة العربية اكثر مفردات العربية وأساليبها

والجدارة بالشيء قد تكون طبعية ، وقد تكون باسباب كسبية ، من فنية

وشرعية وأدبية ، وقد تكون بأسباب سلبية اقتضتها حالة المعيشة والبيئة ، قيل أنها مشتقة من الجدار وهو الحائط الذي يكون حداً للبستان أو الدار ، وقيل من جدر الشجرة ، ويرادف الجدير بالشيء والاجدر، الحقيق والاحق، والخليق والاخلق ، وقد يستعمل أفعل في كل منها للتفضيل مع التصريح بالمفضل عليه غالبا ، كحديث « والثيب أحق بنفسها من وليها » ومع تركه للعلم به أحيانا ، ومنه قوله تعالى (ورضوان من الله أكبر)

﴿ والله عليم حكيم ﴾ واسع العلم بامور عباده وصفاتهم وأحوالهم الظاهرة من بداوة وحضارة وعلم وجهل ، والباطنة من إيمان وكفر ، واخلاص ونفاق، تام الحكمة فيما يحكم به عليهم ، وما يشرعه لهم ، وما يجزيهم به ، من نعيم مقيم ، أو عذاب أليم .

روى احمد وأصحاب السنن ـ ماعدا ابن ماجه ـ والبيهقي في الشعب عن ابن عباس يرفعه « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث الثوري.

وروى ابو داود والبيهقي عن ابي هريرة مرفوعا « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد أحد من سلطانه قربا إلا ازداد من الله بعداً » وسبب الاخير ان السلاطين قلما يرضون عمن يلتزم الحق والصدق والنصح الصريح ، وقلما يأتيهم ويزداد قربا منهم الا المرائي الذي يمدحهم بالباطل ويعينهم على الظلم ولو بالتأول لهم ، وقد بينا هذا المعنى في تفسير (٦١ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن)

﴿ ومن الاعراب من يتخذ ماينفق مغرما ﴾ تقدم في الآية [٩٠] ان بعض الاعراب جاءوا النبي صلى الله عليه وسلم معذرين ليأذن لهم في القعود عن غزوة تبوك ، وذكر في هذه الآية حال الذين كانوا ينفقون بعض أموالهم في سبيل الجهاد رياء وتقية فيعدون ماينفقونه من المغارم وهي ما يلزمه المرء مما يثقل عليه فيلتزمه كرها او طوعا لدفع مكروه عن نفسه أو عن قومه وليس له فيه منفعة ذاتية . ولم يكن هؤلاء الاعراب المنافقون يرجون بهذه النفقة جزاء في الآخرة لانهم لا يؤمنون بالبعث .

ولهذا قال الضحاك: يعني بالمغرم انه لا يرجو ثوابا عند الله ولا مجازاة وانما يعطي ما يعطي من الصدقات كرها. وعن ابن زيد انما ينفقون رياء اتقاء أن يغزوا ويحاربوا ويقاتلوا و يرون نفقاتهم مغرما [قال] وهم بنو أسد وغطفان

﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ اي ينتظرون دوائر الزمان اي تصاريفه ونوائبه التي تدور بالناس وتحيط بهم بشرورها أن تنزل بكم فتبدل قوتكم ضعفاء وعزكم ذلا، وانتصاركم هزيمة وكسراً، فيستريحوا من اداء هذه المغارم لكم، بالتبع للخروج من طاعتكم، و لاستغناء عن اظهار الاسلام نفاقا لكم، كانوا أولا يتوقعون ظهور المشركين واليهود على المؤمنين، فلما يئسوا من ذلك صاروا ينتظرون موت النبي ﷺ ويظنون ان الاسلام يموت بموته صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله. وهكذا يعلل الجاهل الضعيف نفسه الخبيثة بالاماني والاوهام

واذا كان منافقو المدينة الذين هم أجدر من هؤلاء الاعراب أن يعلموا مافي الاسلام من القوة الذاتية، وما في اعتصام المؤمنين الصادقين به من القوة الحربية، كانوا يتربصون بالمؤمنين الهزيمة من الروم في تبوك، وكانوا إن أصاب النبي ﷺ مصيبة مما لا يخلو عنه البشر يفرحون ويقولون (قد أخذنا أمرنا من قبل) أي احتطنا لهذه العاقبة قبل وقوعها، فهل يستغرب مثل هذا التربص من الاعراب سكان البادية الذين يجهلون ماذكر؟ (راجع تفسير الآيات ٥٠ - ٥٤ من هذه السورة)

﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ دعاء عليهم بما يتربصونه بالمؤمنين، أو خبر بحقيقة حالهم معهم، ومآل الاحتمالين واحد، لان الخبر في كلامه تعالى حق ومضمونه كضمون الدعاء واقع، ماله من دافع، والدعاء منه عز وجل يراد به مآله وهو وقوع السوء عليهم واحاطته بهم. والسوء بالفتح في قراءة الجمهور وهو مصدر ساءه الامر ضد سره، وقرأه ابن كثير وابو عمرو ههنا وفي سورة الفتح بالضم وهو اسم لما يسوء. والاضافة: كرجل صدق وقدم صدق. وتقديم الخبر يفيد الحصر أي عليهم وحدهم الدائرة السوءى تحيط بهم دون المؤمنين الذين يتربصونها بهم، فان هؤلاء لاعاقبة لهم تتربص بهم إلا مايسرهم ويفرحهم من نصر الله

وتوفيقه لهم ومايسوء أعداءهم من خذلان وخيبة وتعذيب لهم في الدنيا قبل الآخرة حتى بأموالهم وأولادهم ، كما تقدم في قوله تعالى (٥٢ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) وقوله (٥٥ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم)

﴿ والله سميع عليم ﴾ لايخفى عليه شيء من أقوالهم المعبرة عن شعورهم واعتقادهم في نفقاتهم إذا تحدثوا بها فيما بينهم ، وأقوالهم التي يقولونها للرسول أو لعماله على الصدقات ، او لغيرهم من المؤمنين مراءاة لهم ، ولا من أعمالهم التي يعملونها ، ومن نياتهم وسرائرهم التي يخفونها ، فهو سيحاسبهم على ما يسمع ويعلم - اى على كل قول وفعل - ويجزيهم به

ولما ذكر حال هؤلاء الاعراب المنافقين عطف عليه بيان حال المؤمنين الصادقين منهم (١) فقال

﴿ ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ إيمانا صادقا اذعانيا تصدر عنه آثاره من العمل الصالح . قال مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة وهم الذين قال الله فيهم (٩٢ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) الآية . وقال الكلبي : هم أسلم وغفار وجهينة ومزينة ، وثم روايات أخرى فيهم ، والنص يشمل جميع المؤمنين الصادقين منهم ومن غيرهم من الاعراب . وقد ذكر من وصفهم ضد ماذكره في وصف من قبلهم في أمر النفقة في سبيل الله فقال ﴿ ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ﴾ أي يتخذ ماينفقه وسيلة لأمرين عظيمين أولها القربات والزلفى عندالله عز وجل، وثانيهما صلوات الرسول، أي أدعيته لانه صلى الله عليه وسلم كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم ، ولم يثبت في النص انتفاع احد بعمل غيره الا الدعاء وما يكون المرء سببا فيه كالولد الصالح والسنة الحسنة يتبع فيها . فهذا

(١) مما تواتر عن جهلة الترك الذين يبغضون العرب انهم يحفظون قوله تعالى (الاعراب اشد كفرا ونفاقاً) الآية ويظنون ان المراد بالاعراب جنس العرب فيعيرون به من يفاخرونهم منهم ولا يحفظون الآية التالية في مدح الاعراب ولا آية (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار) وهم صميم العرب !!

القصد في اتخاذ الصدقات ضد اتخاذ المنافقين إياها مغرما . والقربات كالقرب جمع قربة (بضم القاف) وهي في المنزلة والمكانة ، كالقرب في المكان والقرابة، والقربى في الرحم ، والاصل في الكل واحد وهو الدنو من الشيء مطلقا ، فقصد القربة في العمل هو الاخلاص وابتغاء مرضاة الله ورحمته ومثوبته فيه . وجمعها باعتبار تعدد النفقات ففيه إيماء الى اخلاصهم في كل فرد منها . والصلوات جمع صلاة ومعناها ، أو أحد معانيها في أصل اللغة الدعاء واطلاقها على العبادة المخصوصة من أركان الاسلام شرعي وجهه ان الدعاء هو روحها الاعظم لانه مخ العبادة وسرها الذي تتحقق به العبودية على أكمل وجوهها ، وهو في الفاتحة فريضة ، وفي السجود فضيلة ، ويأتي قريبا بيان هذه الصلوات على المتصدقين في تفسير الآية (١٠٣)

وقد بين الله تعالى جزاء هؤلاء الاعراب على ماشهد لهم به من صدق الايمان واخلاص النية في الانفاق في سبيل الله ، وادائهم به حق الله ، وهو قصد القربة عنده ، وحق الرسول وهو طلب دعائه لهم بقبول نفقتهم وإثابتهم عليها ، فقال

باسلوب الاستئناف المشعر بالاهتمام ﴿ ألا انها قربة لهم ﴾ وهو إخبار بقبوله تعالى لنفقتهم مؤكد بافتتاحه باداة التنبيه الدالة على الاهتمام بما بعدها وهي (ألا) وبـ[إن] الدالة على تحقيق مضمون الجملة وبالجملة الاسمية فقوله تعالى [انها قربة] راجع الى النفقة الماخوذة من قوله [ما ينفق] فافراد القربة لأنها خبر لضمير المفرد

وقوله ﴿ سيدخلهم الله في رحمته ﴾ تفسير لهذه القربة والمراد بالرحمة هنا الرحمة الخاصة بمن رضي الله عنهم وهي هداية الصراط المستقيم وماتنتهي اليه من دار النعيم ، ومعنى إدخالهم فيها أن يكونوا مغمورين فيها وتكون هي محيطة بهم شاملة لهم ، وهذا أبلغ من مثل (يبشرهم ربهم برحمة منه) والسين في قوله [سيدخلهم] لتأكيد الوعد وتحقيقه وتقدم مثله . وعلله بقوله : ﴿ أن الله غفور رحيم ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة يغفر للمخلصين في أعمالهم ما يلمون به من ذنب أو تقصير ، ويرحم الصادقين في ايمانهم فيهديهم به إلى أحسن العمل وخير المصير ، وفي الاية من بلاغة الايجاز مايدل على علو مقام هؤلاء الاعراب

(١٠٠) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٠١) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ، لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠٢) وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا، عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

هذا تقسيم آخر للمؤمنين الصادقين والمنافقين من أهل الحضر والبدو جميعاً عطف على تقسيم الاعراب لمشاركته له في بيان حقيقة جماعات المسلمين في ذلك العهد، قال

﴿ والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان ﴾ هذه طبقات ثلاث هي خير هذه الامة التي هي في جملتها خير أمة اخرجت للناس (فالاولى) السابقون الاولون من المهاجرين قيل هم الذين صلوا إلى القبلتين وروي عن أبي موسى الاشعري وسعيد بن المسيب وابن سيرين والحسن وقتادة وغيرهم . وقيل هم اهل بدر وروي عن محمد بن كعب وعطاء بن يسار، وقيل هم الذين شهدوا بيعة الرضوان في الحديبية وعليه الشعبي ، ولكن هذا القول وما قبله في السابقين من المهاجرين والانصار جميعا : وأما السابقون من المهاجرين وحدهم فهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية لان المشركين كانوا الى ذلك الوقت يضطهدون المؤمنين في بلادهم ويقاتلونهم في دار الهجرة وما حولها ، ولا يمكنون أحداً من الهجرة ما وجدوا إلى صده سبيلا ، ولا منجاة للمؤمن من شرهم إلا بالفرار أو الجوار ، فالذين هاجروا قبل صلح الحديبية وجاهدوا بأموالهم

وأنفسهم كانوا كلهم من المؤمنين الصادقين ، ليس فيهم منافق كما قلنا من قبل ؛ إذ لم يكن للنفاق في ذلك الوقت مقتض ولا سبب ، ولا للهجرة والجهاد داع غير الاخلاص في الايمان وإقامة بناء الاسلام ، وإن كان هؤلاء يتفاضلون في السبق وفي غيره من الاعمال ، فأفضلهم الخلفاء الاربعة فسائر الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة بأشخاصهم ، وما كل سابق أفضل من كل مسبوق ، ومن السابقين بالايمان من سبقه غيره بالهجرة ، وأول من آمن على الاطلاق خديجة [رض] لانه ﷺ بلغها خبر بعثته قبل كل أحد فصدقت وآمنت ، ويليها من كان معه ﷺ في بيتها ، وهم علي وكان ابن ١٠ سنين ، وزيد بن حارثة ، ومن خارجه أبو بكر الصديق [رض] والمشهور انه اول من آمن من الرجال ، ولا خلاف في أنه آمن عند مادعاه النبي ﷺ بغير ادنى تريث اوتردد ، ولا في انه أول المهاجرين مع الرسول كما تقدم في تفسير آية الغار ، وأول الدعاة إلى الاسلام مع النبي ﷺ

(الطبقة الثانية) السابقون الاولون من الانصار وهم الذين بايعوا النبي ﷺ عند العقبة في منى في المرة الاولى سنة احدى عشرة من البعثة وكانوا سبعة ، وفي المرة الثانية وكانوا سبعين رجلا وامرأتين ، ويليهم الذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير بن هاشم من قبل النبي ﷺ يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين وارسله مع اهل العقبة الثانية سنة اثنتي عشرة من البعثة وكذا من آمن عند قدوم النبي ﷺ وقبل أن تكون للمسلمين قوة غالبة تتقى وترتجى ، وهذه القوة رسخت عقب هجرته ﷺ وصار بعض أهل المدينة يظهرون الاسلام نفاقا بدليل قوله تعالى في الآيات التي نزلت في شأن غزوة بدر وكانت في السنة الثانية (٨ : ٤٩ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم) ولم يكن فيهم أحد من المهاجرين ولا من الانصار السابقين وان كانوا كلهم من الأوس والخزرج

(الطبقة الثالثة) الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الاولين من المهاجرين والانصار في الهجرة والنصرة اتباعاً باحسان ، أو محسنين في الافعال والاقوال ، فتضمن هذا القيد الشهادة للسابقين بكمال الاحسان لانهم صاروا فيه أئمة متبوعين ، وخرج به من اتبعوهم في ظاهر الاسلام مسيئين غير محسنين في هذا الاتباع وهم المنافقون ،

ومن اتبعوهم محسنين في بعض الاعمال ومسيئين في بعض وهم المذنبون والآيات الآتية مبينة حال الفريقين

هؤلاء الطبقات الثلاث ﴿ رضي الله عنهم ﴾ في إيمانهم وإسلامهم واحسانهم، وأعلاه ما كان من هجرتهم وجهادهم، فقبل طاعاتهم، وغفر سيئاتهم، وتجاوز عن زلاتهم، اذ بهم اعز الاسلام، ونكل باعدائه من المشركين واهل الكتاب.

﴿ ورضوا عنه ﴾ بما وفقهم له، وأسبغه عليهم من نعمه الدينية والدنيوية، فأنقذهم من شرك، وهداهم من ضلال، وأغناهم من فقر، وأعزهم من ذل.

﴿ وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ﴾ تقدم مثل هذا الوعد الكريم في الآية (٧٢) وفي آيات أخرى ومعناه ظاهر، وأي فوز اعظم من نعيم الجنة الخالد من بدني وروحاني؟

قرأ الجمهور (والانصار) بالخفض عطفا على المهاجرين وقرأها يعقوب بالرفع عطفا على (السابقون) وروي عن الحسن البصري، بل روي أيضا — وفيه نظر عندي — أن عمر (رض) قرأها كذلك مع جعل (الذين اتبعوهم) صفة للانصار وأنكر على رجل قرأها بالخفض فأخبره انه تلقاها عن أبي بن كعب كاتب الوحي وجامع القرآن، فسأل عمر أبيا فصدقه وأخبره انه هكذا سمعها من النبي ﷺ، وفي رواية أنها هكذا أنزلها الله على جبريل ونزل بها جبريل على قلب رسول الله ﷺ قال عمر: لقد كنت أرى انا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا — يعني المهاجرين الاولين — فقال ابي: تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة (وآخرون منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم)

ولفظ الاتباع فيها نص في الصحابة المتاخرين الذين اتبعوا الاولين من المهاجرين والانصار في صفتيهم: الهجرة والنصرة، وهو بصيغة الماضي فلا يدخل في عمومه التابعون الذين تلقوا الدين والعلم من الصحابة ولم ينالوا شرف الصحبة والهجرة والنصرة وتسمية هؤلاء بالتابعين اصطلاحية حدثت بعد نزول القرآن وانتقال النبي ﷺ الى الرفيق الاعلى

وقد ورد ذكر الطبقات الثلاث من الصحابة في آخر سورة الانفال وعبر فيه عن الطبقة الثالثة بقوله (٨: ٧٥ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) وذكرت في تفسيرها آيات سورة الحشر وقد عبر فيها عن الطبقة الثالثة بقوله (٥٩ : ١٠ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) الخ [١] ولا شك في مشاركة سائر المؤمنين لاولئك الصحب الكرام في رضاء الله وثوابه بقدر اتباعهم لهم في الهجرة ان وجدت اسبابها والجهاد بالاموال والانفس لنصرة الاسلام ، ومنها نصرته بالحجة والبرهان ، وفي سائر اعمال البر والاحسان ، وان الآيات تدل على ذلك في كل موضع ، لان الجزاء في حكم الله الحق وشرعه العدل على الاعمال ، وللسابقين في كل عصر فضيلة السبق والامامة في كل عصر ، ويمتاز عصر الرسول الذي وجد فيه الاسلام وأقيم بنيانه ، ورفعت أركانه ، ونشرت في الخافقين أعلامه ، على كل عصر بعده ، وهم الاقلون المقربون كما قال تعالى (٥٦ : ١٠ والسابقون السابقون ١١ أولئك المقربون في جنات النعيم ١٢ * ثلة من الاولين ١٣* وقليل من الآخرين)

هذه الشهادة من رب العالمين للطبقات الثلاث من أصحاب رسول الله ﷺ يدمغ حقها باطل الروافض الذين يطعنون فيهم ، ويحثو التراب في افواههم ، والذين سن لهم هذا الطعن في جمهورهم الاعظم عبدالله بن سبأ اليهودي الذي أظهر الاسلام لاجل ايقاع الشقاق بين المسلمين وإفساد أمرهم ، ثم نظم الدعوة لذلك زنادقة المجوس بعد فتح المسلمين لبلادهم ، كما بيناه مراراً . ثم جعل الرفض مذهباً ، له فرق ذات عقائد ، منها ماهو كفر صريح ، ومنها ماهو ابتداع قبيح . ومنها ماهو دون ذلك .

وروي عن أبي صخر حميد بن زياد قال أتيت محمد بن كعب القرظي فقلت له ماقولك في أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فقال : جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنة محسنهم ومسيئهم . فقلت من أين تقول هذا ؟ قال اقرأ قول الله تعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار – الى أن قال – رضي الله عنهم ورضوا

(١) راجع ص١١٣ ج ١٠

عنه) وقال (والذين اتبعوهم باحسان) شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أفعالهم الحسنة دون السيئة . قال أبو صخر: فكأني لم أقرأ هذه الآية قط

والتحقيق ماقلناه، فان هذه الآيات وما بعدها في بيان حال المسلمين في عهد ها مؤمنيهم ومنافقيهم ، ومحسنيهم ومسيئيهم، والذين خلطوا منهم عملا صالحا ... سيئاً ، والذين تاب الله عليهم والذين ارجأ توبتهم . وهذه الآية نص أن الطبقات الثلاث من السابقين الاولين والذين اتبعوهم في الايمان والهجرة الجهاد عند ما بيحت الهجرة وتيسرت أسبابها بصلح الحديبية قد فازوا كلهم ضاء الله ووعده لهم بالجنة ، وأنه ليس فيهم احد من المنافقين بل كان جميع لمنافقين من أهل المدينة وما حولها الى ان فتحت مكة واعتق النبي ﷺ أهلها اظهروا الاسلام والسيوف تقطر من دمائهم فكان منهم المنافقون، وضعفاء الايمان لمقلدون ،وهم الذين كانوا سبب الهزيمة في حنين كما تقدم في تفسير الآيات ٢٥_٢٧ ثم حسن اسلام الاكثرين ، ففتحوا الفتوحات ونشروا الاسلام في العالمين

وجملة القول أن جميع افراد هذه الطبقات الثلاث ، قد جازوا القنطرة واستبقوا الصراط ، وما عاد يؤثر في كمال إيمانهم شيء، لان نورهم يمحو كل ظلمة تطرأ على أحد منهم بإلمامه بذنب . واذا كان بعض المحدثين يقول: ان من اتفق الشيخان على تعديله في الرواية _ أي اعتمدا عليه في اصولهما المسندة _ قد جاز قنطرة الجرح ، فماذا يقال فيمن عدلهم الله عز وجل، وشهد لهم بأنه رضي عنهم ورضوا عنه؟ وسيأتي ان الله تعالى تاب على المذنبين والمقصرين وغفر لهم

وللشيخ محيي الدين بن عربي مناظرة مع نفسه بسطها في كتابه (روح القدس) ذكر فيها انه في أثناء مجاورته بمكة المكرمة حدث لنفسه من الاعجاب بعبادتها ومعرفتها مادعاه الى مناظرتها واقامة الحجة عليها بغرورها ، فعرضها أولا على القرآن ، فاعترفت بضعفها عن بلوغ ماقرره من أوج الكمال ، فعرضها على سيرة النبي ﷺ فاعتذرت بحديث عائشة « كان خلقه القرآن » وهو مايعجز عنه من دونه

كل انسان ، فعرضها على فضائل الصحابة فأقرت بعجزها عن الرجحان في هذا الميزان ،ومسابقة من رباهم المصطفى بكتاب الله وآياته ،وزكاهم بحكمته فاقتبسوا نوره من مشكاته ، ولكنها أبت أن تعترف لكبار التابعين بمثل هذا السبق ، وكان له معها حجاج في أويس القرني هو من اعلى حقائق علم النفس [1]

﴿ وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة ﴾ بعد أن بين تعالى حال كملة المؤمنين كلهم فيما عليه بذكر مردة المنافقين من أهل البدو والحضر، وعطفهم عليهم من باب عطف الضد على الضد ،فهو يقول ان بعض الاعراب الذين حولكم أيها المؤمنون منافقون . قال البغوي وهم من مزينة وجهينة واشجع وأسلم وغفار، كانت منازلهم حول المدينة ،أي كما كان فيهم مؤمنون صادقون دعا لهم النبي ﷺ ـ وان من أهل المدينة نفسها منافقين أيضا من الاوس والخزرج غير من أعلم الله رسوله بهم في هذه السورة بما صدر عنهم من الاقوال والافعال المنافية الايمان ، وقد وصف هؤلاء بقوله ﴿ مردوا على النفاق ﴾ أي مرنوا عليه وحذقوه حتى بلغوا الغاية من اتقانه وجعله بحيث لا يشعر أحد به لاتقائهم جميع الامارات والشبهات التي تدل عليه . يقال مرد على الشيء يمرد (كقعد يقعد) مرودا اذا مرن عليه . واذا عتا واشتد فيه حتى يتعذر ارجاعه عنه . ومن الأول الغلام الامرد الذي لم ينبت الشعر في وجهه ، والشجرة المرداء التي لاورق فيها، ومنه مرد الشيء تمريداً اذا صقله وملسه حتى صار أملس لاحرشة فيه ولا خشونة ومنه (صرح ممرد من قوارير) قال في اللسان وتأويل المرود ان يبلغ الغاية التي تخرج من جملة ماعليه الصنف . ثم قال : والمرود على الشيء المرون عليه ، ومرد على الكلام أي مرن عليه لايعبأ به [أي لايعنى أن يتكلف له] قال الله تعالى (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) قال الفراء يريد مرنوا عليه وجربوا ، كقولك تمردوا ،وقال ابن الاعرابي المَرْدُ التطاول بالكبر والمعاصي ومنه قوله (مردوا على النفاق) أي تطاولوا اه

(١) ويجده مقتني المنار في المجلد الثاني منه

﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ أي لا تعرفهم أيها الرسول بفطنتك ودقة فراستك التي تنظر فيها بنور الله لحذقهم في التقية وتجنب مثارات الشبهة، وأكد هذا النفي باثبات العلم بأعيانهم له وحده عز وجل، ولعلهم أخفى نفاقاً وأشد تقية ممن قال فيهم (٤٧: ٢٨ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج أضغانهم ٢٩ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم، ولتعرفنهم في لحن القول)

فهؤلاء ممن لم يعلمه الله باعيانهم كما أعلمه بمن اشير اليهم في الآية [٧٤] ولا فضحهم باقوال قالوها ولا بافعال فعلوها كما فضح غيرهم في هذه السورة، لانهم بمرودهم على النفاق يتحامون مايكون شبهة على إيمانهم، فضرره قاصر عليهم، وحكمة اخباره تعالى إياه بذلك أن يعلموا هم ان الله عليم بما يسرون من نفاقهم، ويحذروا ان يفضحهم كما فضح غيرهم، ليتوب المستعد للايمان منهم وهو في ستر الله تعالى قبل أن ينجز ما أوعدهم بقوله ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ أي في الحياة الدنيا احداهما مايصيبهم من المصائب وتوبيخ الضمائر، وانتظار الفضيحة بهتك استار السرائر، ومايتلو ذلك من جهادهم اذا ظهر نفاقهم كغيرهم، والثانية آلام الموت وزهوق أنفسهم وهم كافرون وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند موتهم، فأقرب ما يفسر به العذاب مرتين هو ماتقدم في تفسير الآيات ٥٥ و٧٣ و ٧٤ و ٨٢ و٨٣ ففيه بيان لكل مايصيب المنافقين في الدنيا من عذاب الوجدان الباطن، وعذاب من يفتضح أمرهم في الظاهر، وورد في التفسير المأثور أقوال في هاتين المرتين بعضها في معنى ماذكرنا وبعضها مردود ومتناقض.

﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ أي في الآخرة وهو عذاب جهنم، وهم في الدرك الاسفل منها كما تقدم.

جاء في كتب التفسير المأثور ان رسول الله (ص) خطب الناس مرة فحمد الله واثني عليه ثم قال «ان منكم منافقين فمن سميته فليقم» ثم قال قم يافلان — حتى سمى ٣٦ رجلا، فان صح فهو عدد الذين سبق تهديدهم في هذه السورة لظهور نفاقهم دون الذين مردوا على النفاق، ولكن لم يرو لنا ما كان من امر هؤلاء بعد هذه الفضيحة بكفرهم ومنعهم من الصلاة، ومقتضاه ان تجري عليهم احكام المرتدين، ومثل هذا لا يخفى وتتوفر الدواعي على نقله بالتواتر او الاستفاضة ولم يرو

لنا المحدثون شيئا فيه والذي اراه ان الرواية غير صحيحة والله اعلم

والعبرة في هذا السياق أن هؤلاء المنافقين فريقان: فريق عرفوا باقوال قالوها وأعمال عملوها ، وفريق مردوا على النفاق وحذقوه حتى صار أملس ناعما لا يكاد يشعر أحد بشيء يستنكره منه فيظهر عليه ، وكل من الفريقين يوجد في كل عصر، ولا سيما منافقي السياسة في هذا العهد ، ، وهم الذين اتخذهم الاجانب المعتدون على بلاد الاسلام دعاة وولائج وأعوانا على استعباد أمتهم واستعمار أوطانهم ، فما من قطر من هذه الاقطار التي رزئت بالاجانب الا ولهم فيها أعوان وأنصار من أهلها يزعمون انهم يخدمون أمتهم ووطنهم من طريق استمالتهم واسترضائهم ، وانهم لولاهم لما وقفوا من الظلم وهضم الحقوق عند الحد الذي هم عليه ، ومنهم من يخدمون الاجانب خدما خفية لا تشعر بها الامة لانهم مردوا على النفاق ، وانما يحتاج الخونة الخادمون للاجانب الى النفاق ، وتلبيس خيانتهم واخفائها بالكذب والاختلاق ، اذا كان للرأي العام فطنة وقوة يخشونها ، وأما البلاد التي استحوذ عليها الجهل والضعف فلا يبالي الخائنون برضاء أهلها ولا بسخطهم

واشد المنافقين مروداً واتقاناً للنفاق اعوان الملوك والامراء المستبدين، وشرهم واضرهم الذين يلبسون لباس علماء الدين

﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ أي وثم آخرون أو ممن حولكم من الاعراب ومن أهل المدينة أناس آخرون ليسوا من المنافقين ، ولا من السابقين الاولين ، ولا من الذين اتبعوهم باحسان لا إساءة فيه ، بل من المؤمنين المذنبين

﴿ خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئا ﴾ أي خلطوا في اعمالهم بأن عملوا عملا صالحا وعملا سيئا ، وقيل معناه خلطوا صالحا بسيء وسيئا بصالح ، او خلطوا في كل منهما ماليس منه فكان ناقصا ولكنه لم يغلب الآخر ويندغم فيه ، فلم يكونوا من الصالحين الخلص ولا من الفاسقين أو المنافقين ، ذلك بأنهم آمنوا وعملوا الصالحات ، واقترفوا بعض السيئات ، وهم أو منهم بعض الذين تخلفوا عن النفر والخروج إلى غزوة تبوك من غير عذر صحيح كالضعفاء والمرضى وغير الواجدين ، ولا استئذان كاستئذان المرتابين ، ولا اعتذار كاذب كالمنافقين ، ثم كانوا ناصحين لله في أثناء قعودهم ،

شاعرين بذنبهم ، خائفين من ربهم ، فكان كل من قعودهم ونصحهم مقترنا بالآخر ، كالذي يدخل أرضا مغصوبة فيصلح فيها ، ويعترف بأنه مذنب بدخولها، ويأتي بالاصلاح لتكفير ذنب الاعتداء . وهذا المعنى لا يؤديه قولك : خلط العمل الصالح بالسيء ، كما تقول خلط القمح بالشعير أو الماء باللبن ، لان هذا الضرب من الخلط يصير فيه المخلوط والمخلوط به شيئا واحداً أو كالشيء الواحد فلا يقول صاحبه عندي ماء فرات ولا لبن محض وأما الضرب الاول المراد من الآية فقد بقي فيه كل من النوعين ممتازاً بنفسه، وإنما خلطه مع الآخر عبارة عن الجمع بينهما ، وعدم انفراد أحدهما دون الآخر ، والواو العاطفة هي التي تؤدي هذا المعنى من الجمع ، وهو من دقائق بلاغة القرآن بالعدول عن التعدية بالباء إلى العطف

﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ أي هم محل الرجاء لقبول الله توبتهم، التي يشير الى وقوعها اعترافهم بذنوبهم، وقد تقدم (في ص ٢١٠ ج ١٠) ان كلمة « عسى » وضعت للتقريب والاطماع ثم استعملت في الرجاء كامل، وقول بعضهم انها من الله للايجاب غير صحيح، او لتوفيقهم للتوبة الصحيحة التي هي سبب المغفرة والرحمة. وانما تتحقق التوبة بالعلم الصحيح بقبح الذنب وسوء عاقبته، وألم الوجدان من تصور سخط الله والخوف من عقابه، والاقلاع عن الذنب أو الذنوب بباعث هذا الالم الذي هو ثمرة ذلك العلم ، والعزم على عدم العود إلى اقترافها ،ثم العمل بضدها ، ليمحى من النفس أثرها، والروايات صريحة بأن اعتراف من ذكر بذنوبهم قد استتبع كل هذا

﴿ ان الله غفور رحيم ﴾ تعليل لرجاء قبول توبتهم ، إذ معناه انه كثير المغفرة للتائبين واسع الرحمة للمحسنين، كما قال (٢٠: ٨٢ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وكما قال (٧: ٥٦ إن رحمة الله قريب من المحسنين) وكما قص علينا من خبر استغفار الملائكة للمؤمنين قولهم(٤٠: ٧ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ـ إلى قوله ـ ٨ وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته)

قال بعض العلماء ان هذه الآية أرجى آية في القرآن وقال آخرون أرجى الآيات قوله تعالى (٣٩: ٥٣ قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من

رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم) وانما هذا علاج لمن اشتد عليهم الخوف من اسرافهم في شهواتهم، حتى كادوا يقنطون من رحمة ربهم، لا للمصرين على ذنوبهم بغير مبالاة، ولذلك قال بعدها (٥٤ وانيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون) الى آخر الايات

ومن العبرة في هـذه الاقسام المسلمين ان قسم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا يوجد في كل زمان ومكان، كقسم الذين اتبعوا السابقين الاولين من المهاجرين والانصار ،وأما المهاجرون والانصار الاولون الذين أقام الرسول صلى الله عليه وسلم بهم بناء الاسلام فهم الذين لا يلزُّ بهم قرين ، ولا يلحقهم لاحق من العالمين ، ولعل أكثر المسلمين الصادقين في هـذا الزمان من الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، ولعل أسوأ سيئاتهم ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ،فيجب أن يسترشدوا بهذه الآية،وبما ورد في سبب نزولها من توبة أبي لبابة وأصحابه. ولا تتم العبرة بها ، الا بتدبر ما بعدها ، وهو تطهير النفس من النفاق وضعف الايمان، ببذل الصدقات وغيره من صالح الاعمال

وقد روى البخاري في تفسير الآية في صحيحه عن سمرة بن جندب مرفوعا «أتاني الليلة (أي في النوم) ملكان فابتعثاني فانتهيا بي الى مدينة بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشطر كأقبح ما أنت راء . قالا لهم اذهبوا فقعوا في ذلك النهر ، فوقعوا فيـه ثم رجعوا الينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة، قالا لي هذه جنة عدن وهذا منزلك، قالا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم» اهـ

فهذا تمثيل في الرؤيا لتحسين العمل الصالح وتجميله للنفس وتشويه العمل القبيح لها، ولتطهيرها بالتوبة والعمل الصالح حتى تكون كلها حسنة جميـلة وأهلا لدار الكرامة ، بعد ان تبعث في الصورة التي كانت عليها قبل التوبة. وقد قال تعالى (١١: ١١٤ ان الحسنات يذهبن السيئات) وشبه النبي صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس بنهر يفيض على عتبة الانسان خمس مرات كل يوم «فهل يبقى عليها وسخا أو قذراً ؟ »

(١٠٣) خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٤) أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ؟ (١٠٥) وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

هذه الآيات الثلاث في بيان فوائد صدقة الاموال ومنافعها ، والحث عليها ، وعلى التوبة لمن قصر في الجهاد في سبيل الله بما له ونفسه ، أو في غير ذلك من أمور دينه . وفي الحث على العمل ، وكونه هو الذي عليه المعول .

أخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة ان أبا لبابة وأصحابه جاؤا رسول الله ﷺ حين أطلقوا فقالوا : يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا ، فقال « ما امرت أن آخذ من أموالكم شيئا » فأنزل الله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وأخرج مثله عنه من طريق محمد بن سعد عن آبائه وزاد : فلما نزلت هـذه الآية اخذ رسول الله ﷺ جزءاً من أموالهم فتصدق بها عنهم . وله في سبب النزول روايات اخرى . وهذا النص حكمه عام وإن كان سببه خاصاً ، عام في الآخذ يشمل خلفاء الرسول من بعده ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، وفي المأخوذ منهم وهم المسلمون الموسرون ، قال العماد ابن كثير : وهذا عام وإن عاد الضمير في (أموالهم) إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا . ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الامام لايكون وإنما كان هذا خاصا بالرسول ﷺ واحتجوا بقوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الآية . وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم

الفاسد ابو بكر الصديق وسائر الصحابة (رض) وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ حتى قال الصديق: والله لو منعوني عناقا — وفي رواية عقالا — كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه اه. وهذا مشهور في الصحاح والسنن والسير ومجمع عليه، وهاك معنى الآية:

﴿ خذ من اموالهم صدقة ﴾ أي خذ أيها الرسول من أموال من ذكر، ومن سائر اموال المؤمنين — على اختلاف انواعها، ومنها مال التجارة — صدقة معينة كالزكاة المفروضة أو غير معينة وهي التطوع - فالصدقة ماينفقه المؤمن قربة لله كما تقدم في نفقة مؤمني الاعراب ﴿ تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ أي تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء البائسين وما يتصل بذلك من الرذائل، وتزكي أنفسهم بها اي تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية، حتى تكون بها اهلا للسعادة الدنيوية والاخروية. فالمطهر هنا الرسول والمطهر به الصدقة. والتزكية صيغة مبالغة من الزكاء وهو نماء الزرع ونحوه، قال في مجاز الاساس: رجل زكي زائد الخير والفضل بين الزكاء والزكاة (وحنانا من لدنا وزكاة) اه

والتزكية للأنفس بالفعل تسند الى الله تعالى، لانه هو الخالق المقدر الموفق للعبد لفعل ما تزكو به نفسه وتصلح قال تعالى (٢٤: ٢٠ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من احد ابداً ولكن الله يزكي من يشاء) وتسند الى الرسول ﷺ لانه هو المربي للمؤمنين على ما تزكو به أنفسهم ويعلو قدرها بسنته العملية والقولية في بيان كتاب الله وما لهم فيه من الاسوة الحسنة ومنه هذه الآية وقال تعالى (٦٢: ٢ هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) فتزكيته ﷺ للامة من مقاصد البعثة [1] وتسند الى العبد لكونه هو الفاعل لما جعله الله سببا لطهارة نفسه وزكائها كالصدقات وغيرها من أعمال البر ومنه قوله تعالى (٩١: ٩ قد افلح من زكاها (١٠) وقد خاب من دساها) وقوله (٨٧: ١٤ قد افلح من تزكى (١٥) وذكر اسم ربه فصلى) وأما قوله تعالى

(١) راجع تفسير آية البقرة الثانية في هذا المعنى ص ٢٩ ج ٢ تفسير

(٤ :٤٨ ألم تر الى الذين يزكون انفسهم بل الله يزكي من يشاء) وقوله (٥٣: ٣٢ فلا تزكوا انفسكم هو أعلم بمن اتقى) فهو في زكاء النفس بدعوى اللسان، فالتزكية تطلق على الفعل المزكي وهو الاصل وعلى القول الدال عليه ومنه تزكية الشهود

﴿ وصلّ عليهم ان صلاتك سكن لهم ﴾ قرأ حمزة والكسائي و حفص (صلاتك) بالمفرد أي جنسها والباقون (صلواتك) بالجمع وهو باعتبار جماعة المتصدقين . والصلاة اسم من صلى يصلي تصلية وقد هجر لفظ التصلية في الاسلام ومنه:

تركت الدنان وعزف القيان وأدمنت تصلية وابتهالا

ومعناها الاصلي الدعاء وهو المراد من الآية ، وسميت العبادة الاسلامية المخصوصة صلاة من تسمية الشيء بأهم أجزائه، فان الدعاء مخ العبادة وروحها . وقيل في التعليل غير ذلك . والصلاة من الله على عباده الرحمة والحنان ، ومن ملائكته الدعاء والاستغفار قال تعالى (٣٣ :٤٣ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما)ثم قال (٥٥ ان الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وصلاتنا على نبينا ﷺ دعاؤنا له بما أمرنا به في الصلاة بعد التشهد الاخير وما في معناه كقولنا في دعاء الاذان المأثور « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته » رواه الجماعة الا مسلما . والسكن ماتسكن اليه النفس وترتاح من اهل ومال ومتاع ودعاء وثناء

والمعنى ادع ايها الرسول للمتصدقين واستغفر لهم عاطفا عليهم إن دعاءك واستغفارك سكن لهم يذهب به اضطراب أنفسهم إذا أذنبوا ، وتطمئن قلوبهم بأن تقبل توبتهم إذا تابوا ، ويرتاحون إلى قبول الله صدقاتهم بأخذك لها، ووضعك إياها في مواضعها ﴿ والله سميع عليم ﴾ اي سميع لدعائك سماع قبول وإجابة ، عليم بما فيه من الخير والمصلحة ، فالمراد من السماع والعلم لازمهما . وسميع لاعترافهم بذنوبهم ، عليم بندمهم وتوبتهم منها ، وباخلاصهم في صدقتهم وطيب أنفسهم بها، فهو الذي يثيبهم عليها ، فجملة (ان صلاتك) تعليل للامر بالدعاء ، وتذييلها

بالتذكير بسمع الله وعلمه إشعار بقبول الدعاء وقبول الطاعات والجزاء عليها، وتصرح به الآية التالية

روى الشيخان من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال كان النبي ﷺ اذا أتاه قوم بصدقتهم قال «اللهم صل على فلان» فأتاه أبي بصدقته فقال «اللهم صل على آل أبي أوفى» فقوله: بصدقته، صريح في ان المراد بها زكاة الفريضة. وهو يدل على ان المراد بالآية صدقة الفريضة او مايعم الفريضة وغيرها، وعلى أنه ﷺ كان مواظبا على هذا الدعاء، ولذلك قيل ان الامر في الآية للوجوب وهو خاص به ﷺ وقال بعض الظاهرية بوجوب الدعاء على آخذي الزكاة من الأئمة أيضا، والجمهور على انه مستحب لهم. وقد بوب البخاري للحديث بقوله: (باب صلاة الامام ودعائه لصاحب الصدقة، وقوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة – إلى قوله – سكن لهم) والجمهور على أن الدعاء بلفظ الصلاة خاص بدعائه (ص) لغيره وبدعاء المسلمين له، وقيد الاول بعض العلماء بما عدا هذا اللفظ الذي كان يدعو به للمتصدقين «اللهم صل على فلان» عند اعطاء الصدقة. وقد ثبت انه ﷺ كان يدعو بغيره أيضاً فقد روى النسائي من حديث وائل بن حجر انه ﷺ قال في رجل بعث بناقة حسنة في الزكاة «اللهم بارك فيه وفي ابله» وقال الشافعي: السنة للامام اذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق ويقول آجرك الله فيما أعطيت، وبارك لك فيما أبقيت.

والأفضل الجمع بين الصلاة والسلام عليه (ص) وعلى آله، وأكثر المسلمين يخص بالسلام الانبياء والملائكة، وكذا جماعة آل بيته ﷺ والشيعة يلتزمون السلام على السيدة فاطمة وبعلها وولديهما والأئمة المشهورين من ذرية السبطين ويوافقهم كثير من اهل السنة وغيرهم في الزهراء والسبطين ووالدهما سلام الله ورضوانه عليهم إذا ذكروا جماعة أو أفرادا، وأما الصلاة والسلام على الآل بالتبع للرسول ﷺ فهو مجمع عليه، ومنه صلاة التشهد، وكذا عطف الصحابة والتابعين على الآل ذائع في الكتب والخطب والاقوال

﴿ فصل في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والاصلاح المالي البشر ﴾
وامتياز الاسلام بذلك على جميع الاديان

ماذكره الله تعالى من تطهير الصدقة للمؤمنين وتزكيتهم بها يشمل أفرادهم وجماعتهم، فهي تطهر أنفس الافراد من أرجاس البخل والدناءة والقسوة والاثرة والطمع والجشع ،ومن أكل أموال الناس بالباطل من خيانة وسرقة وغصب وربا وغير ذلك ، فان الذي يتربى بالايمان على بذل بعض مافي يده أو ما أودعه في خزانته وصندوقه في سبيل الله ابتغاء مرضاته ومغفرة ذنوبه ورفع درجاته ، جدير بأن ينزه نفسه عن أخذ مال غيره بغير حق . وهذا التطهير لأنفس الافراد وتزكيتها بالعلم والعرفان ، والتقوى التي هي مجموع ثمرات الايمان ، يستلزم تطهير جماعة المؤمنين (ومايعبر عنه في عرف هذا العصر بالهيئة الاجتماعية) من أرجاس الرذائل الاجتماعية التي هي مثار التحاسد والتعادي والبغي والعدوان والفتن والحروب

ذلك بأن الاموال قوام حياة الناس [١] وقطب الرحى لمعايشهم ومرافقهم العامة والخاصة ، وهم متفاوتون في الاستعداد للكسب والتثمير ، والاسراف والتقتير ،والقصد والتدبير ، والجود والبخل ،والتعاون على البر، فلا ينفك بعضهم محتاجا إلى بعض في كسب الرزق وفي إنفاقه ، وأشدهم استعداداً لجمع الثروة الذين يغلب على طباعهم الحرص والبخل حتى على أنفسهم وأولي قرباهم ، وبهذا يكون بعضهم فتنة — اي امتحانا — لبعض ومثاراً للتنازع والتخاصم كما قال تعالى (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون؟) أي ذلك مقتضى سنته في تفاوت البشر في الاستعداد والاخلاق والاعمال . وقد بينا حكمة ذلك من قبل

ولما كان الدين مرشداً للبشر إلى تزكية أنفسهم وتقويم أخلاقهم بما تصلح به فطرتهم ، ويرتقي به أفرادهم وجماعتهم — شرع الله فيه من الاحكام التعبدية والعملية مايقيهم شر هذه الفتنة ،وينقذهم مما يترتب على إهمالها من المحنة، فأوجب

(١) قوام الشيء بالفتح والكسر عماده الذي يقوم به وينتظم، وتقلب واو المكسور ياء جوازا ومنه « ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما»

على أصحاب الاموال من النفقات والصدقات ، ما يبدل سيئات الثروة في الاسلام حسنات ، وانا لم نجد في كتب التفسير ولا كتب الفقه ولا دواوين التاريخ الاسلامي بيانا علميا لحكمة الشريعة في السياسة المالية وما انفردت به من الاصلاح المعقول فيها ، وكنت عازما على شرح ذلك في تفسير هذه الآية فلما وصلت اليه وفكرت في أصول هذه المسألة وفروعها تبين لي أنه لا يمكن تفصيل القول فيها الا بتأليف سفر مستقل ، ورأيت أن أكتفي هنا بايراد أهم الحقائق التي تشير إلى عظم شأن هذه المسألة واصلاح الاسلام فيها فأقول:

ان اتساع دوائر العلوم والفنون والمصالح العامة في هذا العصر قد اضطر الباحثين إلى انفراد بعض الافراد والجماعات للاخصاء في كل فرع من فروعها لتمحيص مسائلها والاحاطة بها بقدر الامكان ، حتى ان الرجال الماليين لا يستحقون هذا اللقب فيه (أي لقب المالي) إلا بعد إتقان عدة علوم منها ، والتمرن بالعمل في بعض فروعها ، وانا نرى بعض الاجتماعيين منهم يجزمون بان جميع الثورات والحروب السياسية والدينية ذات الشأن في تاريخ البشر قد كان المال سببها الصحيح ، او أحد الاسباب المؤثرة فيها أشد التأثير ، ولم يستثنوا من ذلك حروب اوربة الدينية ولا حروبها الصليبية للاسلام

بل نشر منذ سنتين كتاب عربي طبع في القدس موضوعه (الحركات الفكرية في الاسلام) زعم مؤلفه (١) تابعا لبعض مؤرخي الافرنج: ان الاسلام لم يكن فكرة دينية محضا بل كان مسألة اقتصادية واجتماعية أيضا ، او كان هذا هو الغرض الاول المقصود بالذات منه ولم يكن الدين الا وسيلة له ونقل عن (كايتاني) المؤرخ الايطالي المشهور ان الاسلام لم يكن دينيا إلا في الظاهر ، وان جوهره كان سياسيا واقتصاديا (قال) « ومن فضل مؤسس الدين الاسلامي ومظاهر عبقريته انه أدرك مصدر الحركة الاقتصادية والاجتماعية التي ظهرت في أيامه بمكة عاصمة الحجاز ، وعرف كيف يستفيد منها ويسخرها لأغراضه السامية دينية كانت او اجتماعية » ثم بسط ذلك من طريق ظواهر التاريخ بما هو باطل في نفسه ، خادع

«١» هو بندلي جوزي السوري الرومي التابعية أحد أساتذة جامعة باكو الروسية

ببعض مظاهره ، وما أظن ان الناقل عنه ــ وهو نصراني الديانة ، شيوعي السياسة ــ يعتقد اعتقاده هذا ، وانما يريد فيما يظهر نشر الشيوعية التي تبدعها بلاشفة دولته الروسية في العرب ، وزلزلة العقائد الاسلامية في المسلمين ، وربما نجد فرصة للرد على كتابه في المنار ، وحسبي هنا أن أقول لو كان الاسلام كما ذكر لظهر أثره في أعلم الناس بحقيقته ، وأصدقهم في إقامة أركانه بالعلم والعمل ، وفي طليعتهم الخلفاء الراشدون ، والأئمة المجتهدون ، وقد قال عمر بن عبد العزيز الجامع بين الامامتين في كتاب له الى بعض عماله الماليين « إن محمداً (ص) بعث هاديا ، ولم يبعث جابيا »

والحق ان الاسلام هو الدين الوسط ، الجامع بين مصالح الروح والجسد ، للسيادة في الدنيا والسعادة في الآخرة ، فهو وسط بين اليهودية المالية الدنيوية ، والنصرانية الروحانية الزهدية (١) وان من مقاصده الاصلاحية في الاجتماع البشري هداية الناس إلى العدل والفضل في أمر المال ، ليكتفي الناس شر طغيان الاغنياء ، وذلة الفقراء ، ونصوص القرآن والسنة في هذا هي الغاية القصوى في الاصلاح ، وهي هادمة لمزاعم هؤلاء المفتاتين على الاسلام بالجهل والهوى ،

غلا عباد المال من اليهود والافرنج في جمعه واستغلاله ، واستعباد الالوف والوف الالوف من العمال الفقراء به ، بجعله دُولة بينهم ، وغلا خصومهم من الاشتراكيين في مقاومتهم ومحاولة جعل الناس فيه شرعا ، وجعله بينهم حقا شائعا ، فانتهى هذا الغلو بالشيوعية الروسية في عصرنا أن استعبدت أكثر من مائة الف من البشر تسخرهم في تنفيذ مذهبها كالانعام والدواب ، وتبذل جل ما تنتزعه من ثروتهم في بث الدعاية له في جميع الاقطار . ويخشى العقلاء من عاقبة هذا الاسراف والغلو من الجانبين حربا عامة طامة ، وفتنة لا تصيبن الذين ظلموا منهم خاصة

ولا منقذ للامم من هذه الفتنة وعواقبها إلا بدين الاسلام ــ أعني بالتدين به والعمل بأحكامه المالية وغيرها ، ولا يمكن التزامها بالعمل إلا باذعان الدين ، وقد بدأ عقلاء الافرنج يشعرون بالحاجة إلى دين معقول يصلح بالتزامه فساد هذه المدنية المادية ، ولن يجدوا حاجتهم إلا في دين القرآن ، وسنة خاتم النبيين

(١) راجع تفسير (٢ : ١٤٣ وكذلك جعلناكم أمة وسطا) ص٣ ج ٢ تفسير

عليه الصلاة والسلام ، وأخشى ألا يهتدوا اليه الا بعد البطشة الكبرى ، والطامة العظمى ، وهي حرب التدمير المنتظرة من تنازع البلشفية والرأسمالية ، وانني أذكر هنا أهم أصول الاصلاح الاسلامي في المسألة المالية التي تبتدر فكري وتبدهه فأقول :

(الاول) اقرار الملكية الشخصية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل

(٢) تحريم الربا والقمار

(٣) منع جعل المال دولة بين الاغنياء - أي يتداولونه بينهم من دون الفقراء ، ولم يكن هذا التداول في عصر من أعصار البشر كما في عصر النظام المالي المتبع في الحضارة الغربية نظام البيوت المالية (المصارف) والشركات والاحتكارات التي يحاربها العمال ، ويعادون لاجلها أرباب الاموال

(٤) الحجر على السفهاء في أموالهم حتى لا يضيعوها فيما يضرهم ويضر أمتهم

(٥) فرض الزكاة المطلقة في أول الاسلام ، وكانت اشتراكية باعثها إذعان الوجدان لا اكراه الحكام ، ثم نسخت او قيدت بالمعينة الاجبارية عند ماصار للاسلام دولة ، ولو وجدت تلك الحال التي كان عليها المسلمون في مكة قبل الهجرة لوجبت عليهم فيها تلك الزكاة الاشتراكية ، أعني انه إذا وجد في مكان جماعة محصورون منهم الموسر والمعسر ، وصاحب الثروة وذو الفقر المدقع ، وجب أن يقوم اغنياؤهم بكفاية فقرائهم وجوبا دينياً إذا كانت الزكاة المعينة لا تكفيهم

(٦) جعل الزكاة المعينة ربع العشر في النقدين والتجارة ، والعشر او نصف العشر في الغلات الزراعية التي عليهــا مدار الاقوات . وزكاة الانعام معروفة في كتب الحديث والفقه

(٧) فرض نفقة الزوجية والقرابة

(٨) إيجاب كفاية المضطر من كل جنس ودين ، وضيافة الغريب حيث لا مأوى ولا فنادق للمسافرين ، إلا إذا كان مهدور الدم أو محاربا للمسلمين

(٩) جعل بذل المال كفارة لبعض الذنوب (ومنها الظهار وإفساد صيام يوم من رمضان بشروطها المعروفة)

(١٠) ندب صدقات التطوع والترغيب فيها

(١١) ذم الاسراف والتبذير، والبخل والشح والتقتير، وعده من أسباب الهلكة وسوء المصير، أي اللافراد وللامة والدولة

(١٢) إباحة الزينة والطيبات من الرزق بشرط اجتناب الاسراف والخيلاء الموقعين في الامراض والادواء البدنية، المضيعين للثروة المالية، المثيرين للحسد والعداوة والمفاسد الاجتماعية، وهي من أعظم اسباب ترقي الثروة

(١٣) مدح القصد والاعتدال، في النفقة على النفس والعيال .

(١٤) تفضيل الغني الشاكر، على الفقير الصابر، بجعل اليد العليا، خيراً من اليد السفلى، وأعمال البر المتعدي نفعها إلى الناس، أفضل من الاعمال القاصر نفعها على فاعلها، وجعل الصدقة الجارية، من المثوبات الدائمة الباقية

أرأيت أمة من الامم تقيم هذه الاركان ويوجد فيها فقر مدقع، أو غرم موجع، أو شقاء مفظع ؟

ألم تر أن زكاة النقدين الواجبة ـ وهي ربع العشر ـ هي أوسط ربح تدفعه المصارف المالية لمودعي نقودهم فيها للاستغلال، وقد يقل عن ذلك ؟

قدر الثروة القومية في النقد والتجارة للشعب المصري وانظر مقدار ربع عشرها الواجب دفعه في كل عام لفقرائها ومصالحها، وارجع البصر الى سائر أنواع الزكاة ومقاديرها، تعرف قدر سعادته اذا وضعها في مواضعها، وتعلم صدق ماقلناه في تفسير آية مصارف الصدقات، من ان أداء الزكاة وحده كاف لاعادة مجد الاسلام الذي أضاعه المسلمون

اقرأ (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بايديكم إلى التهلكة) واقرأ (ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) وتدبر جد التدبر (هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء . وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم، ثم لايكونوا أمثالكم)

وقد جاء في الكتاب والسنة من الترغيب في بذل المال في سبل البر، وجعله من أكبر آيات الايمان، وموجبات الثواب والرضوان، وتبوىء غرف الجنان، وتسميته اقراضا للرحمن، مالم يجيء مثله في أي عمل من أعمال البر والاحسان.

وتجد أكثر الشواهد على ذلك في سورة البقرة (*) ثم في هذه السورة (براءة) ما تقدم تفسيره منها وما تاخر.

﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ أي ألم يعلم أولئك التائبون من ذنبهم ان الله هو الذي يقبل توبة التائبين من عباده ، ولم يجعل ذلك لرسوله ، بلهَ من دونه من خلقه ، فالاستفهام لتقرير مادل عليه القرآن وكونه هو الذي حملهم على التوبة ، — أو ألم يعلم المؤمنون كافة هذا وهو مقتضى الايمان وموجبه ؟ والاستفهام على هذا تحضيض على هذا العلم وما يستلزمه من التوبة . وقبول التوبة عنهم ، قيل انه بمعنى قبولها منهم ، نحو : لاصدقة إلا عن غنى ومن غنى ، وقيل ان القبول هنا قد تضمن معنى التجاوز والصفح ، أي هو الذي يقبلها منهم متجاوزاً عن ذنوبهم عفواً عنها وهذا أبلغ ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ أي يتقبلها بأنواعها ويثيب عليها ، ويعدها اقراضا له فيضاعف ثوابها ، بمقتضى وعده في مثل قوله (ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم) وقوله (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) فأخذ الصدقات له ثلاث صور (احداها) أخذ الفقراء والمساكين وغيرهم إياها من المستحقين من يد المتصدق (الثانية) أخذ النبي ﷺ في عهده والأئمة من بعده إياها لاجل وضعها في مصارفها التي أمر الله بها (الثالثة) أخذ الله عز وجل اياها وهو قبولها للاثابة عليها بالمضاعفة التي وعدها. وفي التعبير باخذ الله تعالى بعد قوله للنبي (خذ من أموالهم صدقة) تشريف للنبي ﷺ بكونه تعالى هو الذي يأخذ ما أمره بأخذه ﴿ وان الله هو التواب الرحيم ﴾ أي وانه هو الذي يقبل التوبة بعد التوبة من كل مذنب يشعر بضرر ذنبه ، ويتوب عنه منيبا الى ربه ، مهما يتكرر ذلك — الرحيم بالتائبين الذي يثيبهم . فصيغة المبالغة (التواب) تتحقق بكثرة التائبين وبتكرار التوبة من المذنب الواحد الذي يمنعه

(*) راجع صفحة ٢٩٣ من الجزء الاول وص ١٢٦ — ١٥٩ وص ٤٥٦ ج ٢ وص ١٥ و ٥٩ و ٦٧ و ٧٨ — ٩٢ و ٣٧١ ج ٣ و ١٣٢ ج ٤ — و ٩٧ — ٤٠١ و ٣٢٧ و ٤٠٥ ج ٥ وراجع ألفاظ الزكاة والصدقات والمال في فهرس الجزء العاشر وغيره

الخوف من ربه ، أن يصر على ذنبه ، كما قال تعالى في وصف المتقين (٣ : ١٣٥ والذين اذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون) وفي الحديث « ما أصر من استغفر وان عاد في اليوم سبعين مرة » (١) روى الشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعا « ماتصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب — ولا يقبل الله الا الطيب — الا أخذها الرحمن بيمينه وان كانت تمرة ، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله » (٢) والحديث تمثيل لمضاعفته تعالى للصدقة المقبولة

وهذه الجملة الاسمية المؤكدة بان وبضمير الفصل الدالة على الحصر، وما فيها من صيغة المبالغة بمعنى الكثرة من التوبة ، ومبالغة الصفة الراسخة من الرحمة، تفيد أعظم البشرى للتائبين، وأبلغ الترغيب في التوبة المذنبين، كما لايخفى على المتدبرين.

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ هذا عطف على قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الخ أي وقل لهم أيها الرسول اعملوا لدنياكم وآخرتكم ولأنفسكم وامتكم (حذف متعلق العمل يدل على العموم، وقدره بعضهم اعملوا ماشئتم) فانما العبرة بالعمل لا بالاعتذار عن التقصير، ولا بدعوى الجد والتشمير، وخير الدنيا والآخرة منوطان بالعمل ، وهو لا يخفى على الله ولا على الناس أيضا، فسيرى الله عملكم خيراً كان أو شراً ، فيجب عليكم أن تراقبوه تعالى في أعمالكم، وتتذكروا انه ناظر اليكم ، عليم بمقاصدكم ونياتكم ، لا تخفى عليه منكم خافية، وجدير بمن يؤمن برؤية الله لعمله أن يتقنه ، وأن يخلص له النية فيه ، فيقف فيه عند حدود شرعه ، ويتحرى به تزكية نفسه والخير لخلقه ، ولا يكتفي فيه بترك معاصيه ، واجتناب مناهيه ، راود رجل امرأة عن نفسها في فلاة قائلا انه لايرانا هنا إلا الكواكب ، قالت فأين مكوكبها ؟ فخجل وانصرف . وسيراه رسوله

«١» رواه أبو داود والترمذي عن أبي بكرة مرفوعا «٢» الفلو بتشديد الواو (كعدو) المهر، أي ولد الفرس يفصل عن امه، والفصيل ولد الناقة حين يفصل عن أمه

والمؤمنون ، ويزنونه بميزان الايمان، المميز بين الاخلاص والنفاق، وهم شهداء الله على الناس ، قال رسول الله ﷺ فيما رواه احمد وابو يعلى وابن حبان والبيهقي « لو ان أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائناما كان » وقال زهير:

ومهما تكن عند امريء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

فاذا كانت الخلائق النفسية، والاعمال السرية ، لاتخفى على الناس مهما يكن من محاولة صاحبها الاخفائها، فماذا يقال في الاعمال التي هي مقتضى العقائد والاخلاق، وما انطبعت عليه النفس من الملكات ، ومرنت عليه من العادات؟ نرى المؤمنين الصادقين يخفون بعض أعمال البر التي يستحب اخفاؤها كالصدقة على الفقير المتعفف سترا عليه، ومبالغة في الاخلاص لله تعالى الذي ينافيه الرياء وحب السمعة، ولكنهم لايلبثون أن يشتهروا بها، ونرى بعض المنافقين يخفون بعض أعمال النفاق خوفا من الناس لا من الله ، ولكنهم لايلبثون أن يفتضحوا بها . ومن أمثال العوام : ان الذي يختفي هو الذي لايقع

والآية تهدينا الى أن مرضاة جماعة المؤمنين القائمين بحقوق الايمان ، المقررة صفاتهم في القرآن ، تلي مرضاة الله ورسوله ، وانهم لا يجتمعون على ضلالة . وفي معناه حديث أنس في الصحيحين قال : مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال النبي ﷺ «وجبت» ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا فقال « وجبت » فقال عمر ابن الخطاب (رض) ما وجبت ؟ قال «هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار، انتم شهداء الله في الارض » وفي لفظ مسلم تكرار « وجبت » ثلاث مرات في الموضعين ، وكذا تكرار « أنتم شهداء الله في الارض» وفي معناه حديث ابن عمر مرفوعا « إن الله لايجمع أمتي — أو قال أمة محمد — على ضلالة ، ويد الله على الجماعة ومن شذ شذ الى النار » أخرجه الترمذي من طريق سليمان المديني وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه وسليمان المديني عندي هو سليمان بن سفيان اه أقول وهو ضعيف منكر الحديث باتفاقهم ويعزى الحديث الى الطبراني بلفظ «لاتجتمع أمتي على ضلالة» والعلماء يستدلون به على حجية

الاجماع لصحة معناه بموافقته للآيات والصحاح من الاخبار ، وإنما يدل على اجماع الامة، أمة الاجابة وأهل الاستقامة، لا على الاجماع المصطلح عليه عند الاصوليين . وفي معناه قول ابن عباس «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » رواه عنه احمد في السنة لا في المسند، ومن الناس من يظن انه حديث مرفوع ، ويستدل به الجهال حتى من المعممين ادعياء العلم على استحسان البدع الفاشية حتى في العقائد الثابتة، كبدع القبور التى كان يلعن النبي ﷺ فاعليها في مرض موته ، من بناء المساجد عليها، والصلاة اليها، وايقاد السرج والمصابيح عندها ، بل ما هو شر من ذلك، وهو عبادتها بالطواف حولها ، ودعاء اصحابها، والنذر لهم، والاستغاثة بهم، حتى في الشدائد وهو ما لم يكن يفعله عباد الاصنام في مثل هذه الحال ، بل كانوا فيه يخلصون الدعاء لله ، فلا حول ولا قوة إلا بالله

بعد هذا الارشاد الى ما يقتضي الاحسان في الاعمال من مراقبة الله وتحري مرضاته ومرضاة رسوله وجماعة المؤمنين والخير لعباده بها، ذكرهم تعالى بما يقتضي ذلك من جزاء الآخرة عليها ، فقال ﴿ وستردون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ في الدنيا مما كان مشهوداً للناس منه ، وما كان غائبا عن علمهم منه ومن نياتكم فيه ، ينبئكم به عند الحساب، وما يترتب عليه من الجزاء بحسن الثواب ، أو سوء العذاب

---

(١٠٦) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

هذه الآية عطف على قوله تعالى (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) وهؤلاء هم القسم الاخير من المتخلفين عن غزوة تبوك . فقد علم مما تقدم أن المتخلفين منهم المنافقون وهم أكثرهم ، وقد تقدم بيان أقسامهم ومن اعتذر ومن لم يعتذر منهم ، ومنهم المؤمنون وهم قسمان (أحدهما) الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا وزكوا توبتهم بالصدقة وطلب دعاء الرسول

واستغفاره فتاب الله عليهم ، و (ثانيهما) الذين حاروا في أمرهم ولم يعتذروا للرسول (ص) لانهم لاعذر لهم ، وارجأوا توبتهم فأرجأ الله الحكم القطعي في أمرهم للحكمة التي يأتي بيانها قريبا . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم : هم الثلاثة الذين خلفوا أي عن التوبة ، وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلا وميلا إلى الدعة والحظ وطيب الثمار والظلال لاشكا ونفاقا ، فكانت طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل ابو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة اولئك قبل توبة هؤلاء ، وارجيء هؤلاء عن التوبة حتى نزلت آيتا التوبة الآتيتين (١١٧ و ١١٨)

﴿ وآخرون مرجون لأمر الله ﴾ أي وثم أناس آخرون من المتخلفين مؤخرون لحكم الله في أمرهم ، اولأمره لرسوله بما يعاملهم به . قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم (مرجون) بحذف الهمزة للتخفيف ، والآخرون (مرجؤن) بالهمزة على الاصل ، فهو اسم مفعول من أرجأه إذا أخره ، وقيل هما لغتان . رجاه يرجوه وأرجأه يرجئه . وروي انهذا الإرجاء كان ٥٠ يوما

﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾ أي ابهم الامر عليهم وعلى الناس ، لا يدرون ماينزل فيهم ، هل تنصح توبتهم فيتوب الله عليهم كما تاب على الذين اعترفوا بذنوبهم ، أم يحكم بعذابهم في الدنيا والآخرة كما حكم على المخالفين من المنافقين ؟ فالترديد بين الامرين هو بالنسبة الى الناس لا إلى الله عز وجل ، وحكمة إبهام امر هؤلاء عليهم إثارة الهم والخوف في قلوبهم لتصح توبتهم ، وحكمة إبهامه على الرسول ﷺ والمؤمنين تركهم مكالمتهم ومخالطتهم ، تربية للفريقين على مايجب في أمثالهم من الذين يؤثرون الراحة ونعمة العيش ، على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله لاعلاء كلمة الحق والعدل ، ودفع عدوان الكفار عن المؤمنين ، حتى ما كان من امرهم مابينه في الآية (١١٨) ﴿ والله عليم حكيم ﴾ عليم بحال عباده و مربيهم ويزكيهم ويصلح حال أفرادهم ومجموعهم ، حكيم فيما يشرعه لهم من

الاحكام المفيدة لهذا الصلاح ما عملوا بها . ومن آثار علمه وحكمته إرجاء النص على توبتهم في كتابه ، ومن هذه الحكمة تكرار تأثير تلاوة المؤمنين الآيات في ذلك في الاوقات المتفرقة ، فانها من اعظم آيات القرآن ترهيبا وتخويفا ، وعظة وتهذيبا

---

(١٠٧) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٨) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٩) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ؟ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١١٠) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

نزلت هذه الآيات الاربع في واقعة حال من مكايد المنافقين للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، لم أر أحداً بين حكمة خاصة لتأخيرها عن أمثالها مما نزل في أعمال المنافقين ، ووضعها هنا في سياق توبة المذنبين من المؤمنين : ما تقدم منها فقبل ، وما تأخر فأرجيء ، وقد بينا الحكمة العامة في تفريق الآيات في الوضوع الواحد — وهو تجديد الذكرى والعظة ، وما تقتضيه من التأثير والعبرة — في مواضع متعددة من الكلام على التناسب ووجوه الاتصال بين الآيات . ولعل بعض ضعفاء المؤمنين كانوا قد شايعوا اولئك المنافقين الاثني عشر الذين بنوا مسجد الضرار في عملهم جاهلين مقاصدهم منه ، فأريد بوضع القصة هنا وإبهام عطفها على من ارجأ الله الحكم

في امرهم، ان يتعظ اولئك الغافلون من المؤمنين المغرورين بمسجد الضرار ومتخذيه ويخافوا أن يؤاخذوا بمشايعتهم لهم، ولو بصلاتهم معهم في مسجدهم.

روي ان مجمع بن حارثة كان امامهم في مسجد الضرار فكلم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته بان يأذن لمجمع فيؤمهم في مسجدهم، فقال لا ولا نعمة عين، أليس بامام مسجد الضرار؟ فقال يا أمير المؤمنين لا تعجل علي، فوالله لقد صليت بهم والله يعلم اني لا اعلم ما أضمروا فيه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلاما قارئا للقرآن وكانوا شيوخا لا يقرءون من القرآن شيئا. فعذره وصدقه وأمره بالصلاة بقومه قال تعالى

﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقا بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ﴾ يحتمل أن تكون هذه الجملة ابتدائية معطوفة على ماقبلها من السياق في جملته حذف خبرها للعلم به، ويبعد ان تكون معطوفة على قوله (وآخرون مرجون) إلا على قول ضعيف روي عن الحسن وهو انه في المنافقين، والافصح أن يكون لفظ « الذين » منصوبا على الاختصاص بالذم، وجعله محتملا لما ذكر ولغيره نراه من الابهام الذي تقتضيه البلاغة في هذا المقام، لما أشرنا اليه آنفا من الايهام، وقد قرر علماء البيان ان البلاغة تقتضي أحيانا ايراد عبارة تذهب النفس في فهمها عدة مذاهب محتملة فيها. وقرأ نافع وابن عامر (الذين) بغير واو. وهي أقرب الى قول الحسن منها الى قول الجمهور، وما أشرنا اليه من حكمة وضع الآيات هنا أظهر في هذه القراءة منه في قراءة جمهور القراء (فتأمل)

ذكر المفسرون أن هؤلاء الذين اتخذوا هذا المسجد كانوا اثني عشر رجلا من منافقي الاوس والخزرج وسموهم باسمائهم، وقد بين الله تعالى ان الاغراض التي بنوه لاجلها أربعة ذكرت منصوبة على المفعول لأجله وهي:

(١) انهم اتخذوه لمضارة المؤمنين أي محاولة إيقاع الضرر بهم ، وهم أهل مسجد قباء (الذي بناه لهم رسول الله ﷺ مقدمه من مكة مهاجراً وقبل وصوله إلى المدينة) إذ بنوه بجواره مضادة لهم في الاجتماع للصلاة فيه

(٢) الكفر أو تقوية الكفر، وتسهيل أعماله من فعل وترك، كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هنالك مع خفاء ذلك على المؤمنين لعدم اجتماعهم في مسجد واحد ، والتشاور بينهم في الكيد لرسول الله ﷺ وغير ذلك، قيل لا بد هنا من تقدير مضاف لان بناء المسجد نفسه ليس كفراً ، ولكن التعليلات الاربعة في الآية هي للقصد من البناء المعبر عنه بالاتخاذ ، والكفر يطلق على الاعتقاد وعلى العمل المنافيين للايمان

(٣) التفريق بين المؤمنين الذين هنالك، فانهم كانوا يصلون جميعا في مسجد قباء ، وفي ذلك من مقاصد الاسلام الاجتماعية مافيه ، وهو التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة ، ولذلك كان تكثير المساجد وتفريق الجماعة منافياً لمقاصد الاسلام ، ومن الواجب على المسلمين في كل بلد أن يصلوا الجمعة في مسجد واحد إذا تيسر، فان تفرقوا عمداً وصلوا في عدة مساجد والحالة هذه كانوا خاطئين، وذهب بعض الائمة الى أن الجمعة الصحيحة تكون حينئذ لاهل المسجد الذين سبقوا بالتجميع

وهذا يدل على أن بناء المساجد لا يكون قربة مقبولة عند الله الا إذا كان بقدر حاجة المؤمنين المصلين ، وغير سبب لتفريق جماعتهم ، ومنه يعلم أن كثيراً من مساجد مصر القريب بعضها من بعض — وكذا أمثالها في الامصار الاخرى — لم تبن لوجه الله تعالى ، بل كان الباعث على بنائها الرياء ، واتباع الاهواء ، من جهلة الامراء والاغنياء .

(٤) الارصاد لمن حارب الله ورسوله من قبل اتخاذ هذا المسجد، أي الانتظار والترقب لمن حارب الله ورسوله أن يجيء محارباً، فيجد مكانا مرصدا له ، وقوما راصدين مستعدين للحرب معه ، وهم هؤلاء المنافقون الذين بنوا هذا المسجد مرصداً لذلك . يقال: رصدته أي قعدت له على طريقه أترقبه ، وراصدته راقبته ،

وأرصدت هذا الجيش للقتال، وهذا الفرس للطراد اه ملخصاً من الاساس، واتفق المفسرون على ان الذي أغراهم ببناء هذا المسجد لهذا الغرض رجل من الخزرج يعرف بأبي عامر الراهب، وعدهم بان سيأتيهم بجيش من الروم لقتال النبي ﷺ واصحابه

﴿ وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ﴾ إخبار مؤكد بالقسم أنهم سيحلفون إنهم ماأرادوا ببنائه إلا الخصلة أو الخطة التي تفوق غيرها في الحسن، وهي الرفق بالمسلمين وتيسير صلاة الجماعة على أولي العجز والضعف ومن يحبسهم المطر منهم، ليصدقهم الرسول صلى الله عليه وسلم ويصلي لهم فيه ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ في قولهم، حانثون بيمينهم. قال العماد ابن كثير :

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ اليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير. فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للاسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر، شرق اللعين ابوعامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش، فألبهم لحرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في احداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم ابو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الانصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق ياعدو الله، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه الى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فنالته

هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب الى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه، وأقام عنده وكتب الى جماعة من قومه من الانصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم انه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم ان يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لاداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك. فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ الى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ ان يأتي اليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا انهم انما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال «إنا على سفر ولكن إذا رجعنا ان شاء الله» فلما قفل عليه السلام راجعا الى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها الا يوم او بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم (مسجد قباء) الذي اسس من اول يوم على التقوى، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية - وذكر روايته بمعنى ماذكر مختصرة اهـ

وذكر البغوي في خبر ابي عامر الفاسق هذا انه مازال يقاتل النبي ﷺ ويحرض عليه المشركين الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يئس وخرج هاربا الى الشام، وأرسل الى المنافقين ان استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجداً فاني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآت بجند من الروم الخ ماتقدم آنفا

﴿ لاتقم فيه أبدا ﴾ هذا نهي للرسول ﷺ والمؤمنين بالتبع له عن الصلاة فيه مؤكد بلفظ الابد الذي يستغرق الزمن المستقبل، وتفسير القيام بالصلاة هنا مروي عن ابن عباس وهو معهود في التنزيل كقوله (وقوموا لله قانتين) وقوله (قم الليل إلا قليلا) والنهي عن القيام المطلق يتضمن النهي عن القيام للصلاة، ولكنها

هي المقصودة بالنهي لطلبهم لها منه ﷺ ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ﴾ اللام الداخلة على المسجد للقسم او للابتداء . والتأسيس وضع الاساس الاول للبناء الذي يقوم عليه ويرفع ، والمراد منه هنا القصد والغرض من البناء ، والتقوى الاسم الجامع لما يرضي الله ويقي من سخطه ، أي ان مسجداً قصد ببنائه منذ وضع أساسه في أول يوم تقوى الله تعالى باخلاص العبادة له وجمع المؤمنين فيه على ما يرضيه من التعارف والتعاون على البر والتقوى هو أحق أن تقوم فيه أيها الرسول مصليا بالمؤمنين من غيره ، ولا سيما ذلك المسجد الذي وضع أساسه على المقاصد الاربعة الخبيثة ، والسياق يدل على ان المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم مسجد قباء ، وقد صح في أحاديث رواها الامام احمد ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم ان النبي ﷺ سئل عنه فأجاب بانه مسجده الذي في المدينة ففي رواية مسلم عن أبي سعيد انه لما سأله أخذ ﷺ كفا من حصباء فضرب به الارض ثم قال « هو مسجدكم هذا » وفي رواية لاحمد عنه وعن سهل بن سعد « هو مسجدي هذا » ولفظ الآية لا يمنع من ارادة كل من المسجدين ، لان كلا منهما قد بناه النبي ﷺ ووضع أساسه على التقوى من أول يوم شرع فيه ببنائه أو من أول يوم وجد في موضعه (والتحقيق أن « من » تدخل على الزمان والمكان)

﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ هذه جملة وصف بها المسجد الذي أسس على التقوى تؤكد ترجيح القيام مع أهله المطهرين في مقابل أهل مسجد الضرار وهم رجس والمعنى : فيه رجال يعمرونه بالاعتكاف وإقامة الصلاة ، وذكر الله وتسبيحه فيه بالغدو والآصال ، يحبون أن يتطهروا بذلك من كل ما يعلق بأنفسهم من درن الآثام ، أو التقصير في إقامة دعائم الاسلام ، كما تطهر المتخلفون منهم عن غزوة تبوك بالتوبة والصدقات ، ومن لوازم عمارته المعنوية والعكوف فيه طهارة الثوب والبدن الحسية ، وطهارة الوضوء والغسل الحكمية ، فالتطهر صيغة مبالغة تشمل الطهارتين النفسية والبدنية ، ووردت الروايات بكل منهما ، ولكل من الاستعمالين موضع من التنزيل ، والجمع بينهما هو الاولى

﴿ والله يحب المطهرين ﴾ أي المبالغين في الطهارة الروحية والجسدية، وانما يبالغون فيها اذا أحبوها ، وحينئذ تكمل انسانيتهم المؤلفة من الروح والجسد . ولا يطيق نجاسة البدن وقذارته إلا ناقص الفطرة والادب، وأنقص منه من يطيق خبث النفس بالاصرار على المعاصي والعادات القبيحة ، والتخلق بالاخلاق الذميمة. دع رجس المنافقين المرائين في الاعمال، الاشحة الباخلين بالاموال. وأصحاب الله المستحقين لحبه، فهو من صفات كماله، لان العالم بتفاوت الاشياء في الحسن والقبح، والكمال والنقص، يكون من أفضل صفاته حب الجمال والكمال والحق والخير وبغض اضدادها أو كراهتها. وحبه اللائق بربوبيته منزه عن مشابهة حبنا، كتنزه ذاته وسائر صفاته عن مشابهة ذواتنا وصفاتنا، ولكن يظهر أثره في المحبوبين من عباده في أخلاقهم وأعمالهم ، ومعارفهم وآدابهم، واعلاه ما أشار اليه حديث البخاري القدسي «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» الخ(١)

وقد قال الله تعالى معللا ما وعظ به نساء نبيه ﷺ من أمره ونهيه لهن بما يليق بمكانتهن من رسوله (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)

وقد فسر بعض المفسرين محبته تعالى للمطهرين برضاه عنهم واحسانه اليهم، وهو تأويل فسر به اللفظ ببعض لوازمه ، فان كان هربا من نظرية من قال من المتكلمين ان اتصاف الله تعالى بالحب محال، لأنه انفعال نفسي يستحيل على ذي الجلال ، فيجب تفسيره بلازمه المذكور كما قال بعضهم في الرحمة وغيرها من الصفات — فهو هروب من مذهب السلف الحق، ووقوع فيما فروا منه بالتأويل ، وهو تشبيه الله بخلقه . إذ يقال لهم إن الرضا عاطفة نفسية كالحب ، والاحسان عمل بدني كبسط اليد بالبذل ، وهما يسندان الى الناس فلا يصح أن يوصف بهما الخالق عز وجل، لانه تشبيه له بالخلق ، وكذا العلم والقدرة والمشيئة والكلام ، وغيرهما من صفات الذات، فان كلا منها وضعت في اللغات، لمعانيها المعروفة في المخلوقات، ككون العلم صور المعلومات المنتزعة منها في الذهن ، وهو بهذا المعنى محال على الله عز وجل. وإذا كان الامر كذلك فالحق أن يوصف تعالى بما وصف به نفسه على ظاهره بقيوده

«١» راجع هذا البحث في ص ٢٣٩ ج ١٠ تفسير

الثلاثة التي قررها السلف الصالح : اي بلاتعطيل ولا تمثيل ولا تأويل. فعلمه تعالى انكشاف يليق به ، وحبه معنى نفسي يليق به الخ

ذكر السيوطي في الدر المنثور عدة روايات حاصلها ان النبي ﷺ سأل أهل قباء عن سبب ثناء الله تعالى عليهم بهذه الآية فأجابوه بأنهم يستنجون بالماء وفي بعضها انهم يتبعون الحجارة بالماء. وذكر ان ابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني والحاكم وغيرهم رووا عن طلحة بن نافع قال حدثني ابو أيوب وجابر بن عبدالله وأنس بن مالك (رض) ان هذه الآية لما نزلت (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) قال رسول الله ﷺ « يامعشر الانصار ان الله قد أثنى عليكم خيراً في الطهور فما طهوركم هذا ؟ » قالوا نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة. قال « فهل مع ذلك غيره ؟ قالوا ان أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء قال « هو ذاك فعليكموه »

أقول طلحة بن نافع هذا ثقة روى عنه الجماعة كلهم ولكن رواية البخاري عنه مقرونة بغيره وهي أربعة أحاديث رواها عن جابر. ولعله اقتصر عليها لقول شيخه علي بن المديني إنه لم يرو عن جابر غيرها ، أي لم يصح عنده غيرها. وقال ابوحاتم انه لم يسمع من أبي ايوب ، ولكنه هنا صرح بالسماع منه فيما رواه من ذكر وغيرهم. وحديثه هذا على كل حال أقوى من أحاديث سؤال النبي ﷺ أهل مسجد قباء وجعله الثناء عليهم ، وهو في سؤال الانصار ، والمسؤلون منهم كلهم من سكان المدينة ، ويؤيده الاحاديث الصحيحة الناطقة بان المسجد الذي أثنى الله عليه وعلى أهله هو مسجده فيها. وقد قلنا انه لا مانع من ارادة كل منهما ، وهو أولى من القول بتعارضهما ، كما أن الروايات فيهما لا تنافي ارادة نوعي الطهارة كليهما ، ويؤيد إرادة الطهارة المعنوية قوله تعالى .

﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ؟ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به في نار جهنم ؟ ﴾ هـذا بيان مستأنف للفرق بين أهل المسجدين في مقاصدهما منهما : أهل مسجد الضرار الذي زادوا به رجساً إلى

رجسهم ، وأهل مسجد التقوى وهم الرسول ﷺ وانصاره الذين يحبون أكمل الطهارة لظاهرهم وباطنهم ، فاستفادوا بذلك محبة الله لهم ، وورد بصيغة استفهام التقرير ، لما فيه من تنبيه الشعور وقوة التأثير ، والبنيان مصدر كالعمران والغفران ، ويراد به المبني من دار أو مسجد وهو المتعين هنا. وتقدم آنفا معنى التأسيس والشفا (بالفتح والقصر) الحرف والشفير للجرف والنهر وغيره. والجرف (بضمتين) جانب الوادي ونحوه الذي يتحفر أصله بما يجرفه السيل منه فيجتاح أسفله فيصير مائلا للسقوط. والهار الضعيف المتصدع المتداعي للسقوط[1] وهذا التعبير يضرب مثلا لما كان في منتهى الضعف والاشراف على الزوال ، وهو من أبلغ الامثال ، لمنتهى الوهي والانحلال

المراد بالمثل هنا بيان ثبات الحق الذي هو دين الاسلام وقوته ودوامه ، وسعادة أهله به ، وذكره بأثره وثمرته في عمل أهله وجماعها التقوى ، وبجزائهم عليه وأعلاه رضوان الله تعالى ، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله ، ووهيه وقرب زواله ، وخيبة صاحبه وسرعة انقطاع آماله ، وشر أهله المنافقين ، وشر أعمالهم ما اتخذوه من مسجد الضرار للمفاسد الاربعة المبينة في الآية الاولى من هذا السياق

وقد ذكر في وصف بنيان الفريق الاول وهم المؤمنون المشبه دون المشبه به لانه المقصود بالذات ولم يذكر فيما قبله من عملهم إلا المبالغة في الطهارة . وذكر من وصف بنيان الفريق الثاني الهيئة المشبه بها دون المشبه ، لانه ذكر فيما قبل مقاصدهم منها كلها ، وهذا من دقائق إيجاز القرآن

تقول في المعنى الجامع بين المشبه به في الفريقين : أفمن اسس بنيانه الذي يتخذه مأوى وموئلاله ، يقيه من فواعل الجو وعدوان كل حي ، وموطنا لراحته ، وهناء معيشته ، على أمتن أساس وأثبته ، وأقواه على مصابرة العواصف والسيول ، وصد الهوام والوحوش ـ هو خير بنيانا ، وراحة وأمانا ؟ أم من اسس بنيانه على أوهى القواعد وأقلها بقاء واستمساكا ، فهي عرضة للانهيار ، في كل لحظة من ليل او نهار ؟

وأما معنى المشبه المقصود بالذات في كل منها فيصور هكذا : أفمن كان مؤمنا صادقا يتقي الله في جميع أحواله ، ويبتغي رضوانه في أعماله ، بتزكية نفسه بها ونفع

(١) اصله هائر من هار يهور فهو هائر وهار ، ومثله شائك وشاك ، وصائت وصات

عياله ، (والخلق كلهم عيال الله كما ورد في الخبر عن رسوله ﷺ) ـ افمن كان كذلك خير عملا ، وأفضل عاقبة وأملا ، وممن نزل فيهم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) أم من هو منافق مرتاب ، مراء كذاب ، يبتغي بأفضل مظاهر اعماله الضرر والضرار ، وتقوية أعمال الكفر وموالاة الكفار ، وتفريق جماعة المؤمنين الاخيار ، والارصاد لمساعدة من حارب الله ورسوله من الاشرار ، وما يكون من عاقبة ذلك في الدنيا من الفضيحة والعار ، والخزي والبوار ، وفي الآخرة من الانهيار في نار جهنم وبئس القرار ؟

وفي معنى هذا المثل (١٣ : ١٧ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) الآية . وخلاصة المثلين ان الايمان الصادق ، وما يلزمه من العمل الصالح . هو المثمر الثابت ، وان النفاق وما يستلزمه من العمل الفاسد ، هو الباطل الزاهق ، وهذا المعنى يوافق قول علماء الكون إنه لا يتنازع شيئان في الوجود إلا ويكون الغالب هو الاصلح منهما . ويسمون هذه السنة (ناموس الانتخاب الطبيعي وبقاء الامثل) وسبق بيانه في هذا التفسير (١)

صدق الله العظيم ، فقد ثبت الله المؤمنين بالقول الثابت ، وهداهم بإيمانهم إلى العمل الصالح ، ففتحوا البلاد ، وأقاموا الحق والعدل في العباد ، وأهلك الله المنافقين ، فلم يكن لهم من أثر صالح في العالمين ، هكذا كان وهكذا يكون ، ولكن المنافقين لا يفقهون ولا يعتبرون ، وشر النفاق وأضره نفاق العلماء ، للملوك والامراء (٢)

﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي مضت سنته في ارتباط العقائد والاخلاق بالاعمال ، بان الظالم لا يكون مهتديا في أعماله إلى الحق والعدل ، فضلا عن الرحمة والفضل . ولا أظلم في الناس من المنافقين (٣ : ٨٦ كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين)

﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ﴾ الريبة اسم من الريب وهو ما

---

(١) تجده في مواضع من اجزائه أولها آخر صفحة من الجزء الثاني

(٢) راجع ص ٥١٧ و٥٣٩ ج ١٠ تفسير

تضطرب فيه النفس ، ويتردد الوهم ويسوء الظن ، فيكون صاحبه منه في شك وحيرة إن لم يكن مثاره الشك . قال قوم صالح عليه السلام له، منكرين دعوته إياهم إلى عبادة الله وحده (١١ : ٦٢ وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب) ولهذا الاستعمال أمثال في التنزيل ، وهو صريح في ان الشك مثار للريب وموقع فيه لا انه عينه ، وقد يفسر به باعتبار لزومه له وايقاعه فيه . قال الشاعر:

وكنت إذا ماجئت ليلى تبرقعت وقد رابني منها الغداة سفورها

والظاهر ان ارتيابهم فيه كان منذ بنوه الى أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهدمه فهدم ، وذلك انهم لسوء نيتهم في بنائه كانوا يخافون ان يطلع الله رسوله على مقاصدهم السوءى فيه ، وكان ذلك شان سائر اخوانهم كما تقدم في قوله تعالى (٦٤ يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم) وذكرنا في تفسيرها قوله تعالى (يحسبون كل صيحة عليهم) (ص ٥٢٥ - ٥٢٨ ج ١٠) وأجدر بهم أن يكونوا بعد هدمه أشد ارتيابا ، وأكثر اضطرابا ، بما يحذرون من عقابهم في الدنيا كما أنذرتهم هذه السورة مرارا ، وأن يستمر ذلك

ملازمالهم ﴿ إلا ان تقطع قلوبهم ﴾ قرأ ابن عامر وحفص عن نافع وحمزة (تقطع) بفتح التاء وتشديد الطاء من التقطع ، وقرأ الباقون بضم التاء من التقطيع ، أي إلا أن تقطع الريبة قلوبهم أفلاذاً ، فتتقطع بها وتكون جذاذا ، وقرأ يعقوب (إلى) بدل (إلا) وفسر ذلك بالموت والهلاك ، وبالحسرة والندم المقتضي للتوبة ، وقال الزمخشري وتبعه معتادو الاخذ عنه : لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم ، لا يزول وسمه عن قلوبهم ، ولا يضمحل أثره (إلا أن تقطع قلوبهم) قطعا ، وتفرق أجزاء ، فحينئذ يسلون عنه ، واما مادامت سالمة مجتمعة ، فالريبة باقية فيها متمكنة ، فيجوز أن يكون ذكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة عنهم ، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم ، أو في القبور أو في النار . وقيل معناه الا

ان يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم اه ﴿ والله عليم حكيم ﴾ فحكم في أمرهم وبين من حالهم ما اقتضته الحكمة والعلم المحيط بكل شيء .

(١١١) إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ؟ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦ، وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١٢) ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

هاتان الآيتان في بيان حال المؤمنين حق الايمان ، البالغين فيه ماهو غاية له من الكمال ، وضعتا بعد بيان حال المنافقين ، وأصناف المؤمنين المقصرين ، ومنهما تعرف جميع درجات المسلمين ، ولا سيما المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله

﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة ﴾ هذا تمثيل لاثابة الله المؤمنين على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله بتمليكهم الجنة دار النعيم الابدي، والرضوان السرمدي ، تفضل جل جلاله وعم نواله بجعلها من قبيل من باع شيئاً هوله لآخر، لطفاً منه تعالى وكرما وتكريما لعباده المؤمنين بجعلهم كالمتعاقدين معه كما يتعاقد البيعان على المنافع المتبادلة وهو عز وجل المالك لانفسهم اذ هو الذي خلقها ، والمالك لاموالهم اذ هو الذي رزقها ، وهو غني عن أنفسهم وأموالهم، وانما المبيع والثمن له وقد جعلهما بكرمه لهم، وقوله ﴿ يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ بيان لصفة تسليم المبيع وهو انهم يقاتلون في سبيل الحق والعدل الموصلة إلى مرضاته تعالى فيبذلون أنفسهم وأموالهم فيكونون اما قاتلين لاعدائه الصادين عن سبيله ، وإما مقتولين شهداء في هذه السبيل – قرأ الجمهور بتقديم (يقتلون) المبني للفاعل، وحمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول، فدلت القراءتان على أن الواقع هو أن

يقتل بعضهم ويسلم بعض ، وانه لافرق بين القاتل والمقتول في الفضل ، والمثوبة عندالله عزوجل، إذ كل منهما في سبيله لاحباً في سفك الدماء ، ولا رغبة في اغتنام الاموال ، ولا توسلا الى ظلم العباد ، كما يفعل عباد الدنيا من الملوك ورؤساء الاجناد

﴿ وعداً عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ﴾ أي وعدهم بذلك وعداً أوجبه لهم على نفسه ، وجعله حقا عليه أثبته في الـكتب الثلاثة المنزلة على أشهر رسله ، ولا تتوقف صحة هذا الوعد على وجوده في التوراة والانجيل الذين في أيدي أهل الـكتاب بنصه لما أثبتناه من ضياع كثير منهما ، وتحريف بعض ما بقي لفظا ومعنى ، بل يكفي اثبات القرآن لذلك وهو مهيمن عليها . (راجع ص٣٤٢ج١٠)

﴿ ومن أوفى بعهده من الله ؟ ﴾ أي لا أحد أوفى بعهده وأصدق في انجاز وعده من الله عز وجل ، إذ لا يمنعه من ذلك عجز عن الوفاء ، ولا يمكن أن يعرض له فيه التردد او البداء ، (١) ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ﴾ الاستبشار الشعور بفرح البشرى أو استشعارها ، الذي تنبسط به بشرة الوجه فيتألق نورها ، والجملة تقرير لتمام صفقة البيع من الجانبين ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ الذي لا يتعاظمه فوز ، دون ما يتقدمه من النصر والسيادة والملك، الذي لا يعد فوزاً إلا بجعله وسيلة لاقامة الحق والعدل . أعلى الله تعالى مقام المؤمنين المجاهدين في سبيله بجعلهم بفضله مالكين معه، ومبايعين له، ومستحقين للثمن الذي بايعهم به، وأكد لهم أمر الوفاء به وانجازه، ويروى عن جدنا الامام جعفر الصادق عليه السلام في معنى الآية

أثامن بالنفس النفيسة ربها فليس لها في الخلق كلهم ثمن
بها أشتري الجنات، إن أنا بعتها بشيء سواها إن ذلـكم غبن (٢)
إذا ذهبت نفسي بدنيا أصبتها فقد ذهبت مني وقد ذهب الثمن

«١» البداء بالفتح أن يبدو لك في الامر ما لم يكن في علمك ولا حسابك فترجع عما كنت تريد امضاءه فيه (٢) الغبن بالتحريك وبفتح فسكون واحد من غبنه في البيع إذا غلبه بغش أو خديعة

ويروى عنه انه قال : ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها .
ومعناه ان الذى يقتل أويموت في سبيل الله كان باذلا لبدنه الفاني لالروحه الباقية،
وليس معناه أن يبيع لربه جسده دون نفسه الناطقة كما توهم بعض المتفلسفين .

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبدالله قال نزلت هذه الآية
على رسول الله ﷺ وهو في المسجد فكبر الناس في المسجد فأقبل رجل من
الانصار ثانياً طرفي ردائه على عاتقه فقال يارسول الله أنزلت فينا هذه الآية ؟ قال
« نعم » فقال الانصاري بيع ربيح ، لانقيل ولا نستقيل - يعني البيع -

وأخرج ابن جرير ان عبدالله بن رواحة قال لرسول الله ﷺ اشترط لنفسك
ولربك فقال « أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسي
أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا فاذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال
« الجنة » قال : ربح البيع لانقيل ولا نستقيل . فنزلت الآية . وظاهر هذا انها
نزلت في مبايعة الانصار للنبي ﷺ وتفصيله فيما يلي وان لم يصرح بانه سبب النزول

وأخرج ابن سعد عن عباد بن الوليد بن عبادة بن الصامت ان سعد بن
زرارة أخذ بيد رسول الله ﷺ ليلة العقبة فقال : ياأيها الناس هل تدرون علام
تبايعون محمداً ؟ انكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والعجم والجن والانس كافة .
فقالوا نحن حرب لمن حارب ، وسلم لمن سالم . فقال أسعد بن زرارة يارسول الله
اشترط علي فقال « تبايعوني على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله واني رسول الله
ﷺ ، وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة ، ولاتنازعوا الامر أهله
وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم » قالوا نعم ، قال قائل الانصار : نعم هذا لك
يارسول الله فما لنا ؟ قال « الجنة والنصر »

وأخرج ابن سعد عن الشعبي قال : انطلق النبي ﷺ بالعباس بن عبدالمطلب
وكان ذا رأي إلى السبعين من الانصار عند العقبة فقال العباس ليتكلم متكلمكم
ولا يطيل الخطبة فان عليكم للمشركين عينا ، وان يعلموا بكم يفضحوكم . فقال
قائلهم : وهو ابو امامة أسعد - يامحمد سل لربك ما شئت ثم سل لنفسك ولاصحابك
ماشئت ، ثم أخبرنا مالنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك ، فقال « أسألكم

لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ،وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم» (١) قال فمالنا إذا فعلنا ذلك؟ قال الجنة» فكان الشعبي إذا حدث هذا الحديث قال ما سمع الشيب والشباب بخطبة أقصر ولا أبلغ منها

ومعنى نزولها في مبايعة الانصار انها تدخل في عموم الآية دخولا أولياً لا انها خاصة بها . وقد روى ابن مردويه من حديث أبي هريرة مرفوعا « من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله » وروى ابن أبي حاتم وابو الشيخ عن الحسن قال : ماعلى ظهر الارض مؤمن إلا وقد دخل في هذه البيعة . وفي لفظ : اسعوا إلى بيعة بايع الله بها كل مؤمن (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) ولكن العجب ممن يدعون الايمان وهم ينكثون بيعة الله عز وجل فهم لايبذلون أنفسهم ولا شيئاً من أموالهم في سبيل الله ، وانما يطلبون الجنة بغير ثمنها كما يطلبون سعادة الدنيا وسيادتها من غير طريقها ، ولا طريق لها إلا الجهاد بالمال والنفس . والقرآن حجة عليهم وهو حجة الله البالغة التي لايدحضها شيء وهي تدحض كل شيء .

ثم وصف الله تعالى هؤلاء المؤمنين البائعين أنفسهم وأموالهم لله تعالى بجنته ودار

كرامته ، فقال ﴿ التائبون ﴾ أي هم التائبون الكاملون في توبتهم وهي الرجوع إلى الله تعالى عن كل ما يبعد عن مرضاته ، وتختلف باختلاف احوال أهلها ، فتوبة الكفار الذين يدخلون في الاسلام هي الرجوع عن الكفر الذي كانوا عليه من شرك وغيره كما تقدم في قوله تعالى (١١ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين) وتوبة المنافق من النفاق وتقدم ذكرها في هذه السورة أيضاً ، وتوبة العاصي من المعصية ، ومنه توبة من تخلف عن غزوة تبوك من المؤمنين ، وتقدم قريباً ذكر من تاب منهم ومن أرجيء أمره ، ــ وتوبة المقصر في شيء من البر وعمل الخير انما تكون في التشمير فيه والاستزادة منه ــ وتوبة من يغفل عن ربه ، انما تكون في الاكثار من ذكره وشكره ، وسيأتي ذكر توبة الله تعالى على الجميع في الآيتين (١١٧ و ١١٨)

(١) المنع الحماية والدفاع

﴿ العابدون ﴾ لله ربهم وحده مخلصين له الدين في جميع عباداتهم في عامة أوقاتهم ، لا يتوجهون إلى غيره بدعاء ولا استعانة، ولا يتقربون إلى سواه بعمل مما يقصد به القربة ومثوبة الآخرة

﴿ الحامدون ﴾ لله ربهم في السراء والضراء بالثناء عليه بلفظ الحمد وغيره من الذكر المشروع الدال على الرضاء منه تعالى. ومهما يصب الانسان من مصائب الدنيا فانه يبقى له من النعم فيها وفي الدين بل يبقى له من اللطف الالهي في نفس المصائب ما يجب عليه أن يحمد الله ويشكره عليه (وتقدم بيان الحمد والعبادة في تفسير سورة الفاتحة وغيرها)

﴿ السائحون ﴾ في الارض يجوبون الاقطار لغرض صحيح من علم أو عمل كالجهاد في سبيل الله ، وروي عن عطاء، أو للهجرة حيث تشرع الهجرة وروي عن عبد الرحمن بن زيد، قال السائحون هم المهاجرون ليس في أمة محمد سياحة إلا الهجرة . او لطلب العلم النافع للسائح في دينه أو دنياه او النافع لقومه وأمته وروي عن عكرمة وخصه بعضهم بطلب الحديث (لانهم كانوا يسافرون من مصر إلى أخرى للرواية) او للنظر في خلق الله وأحوال الشعوب والامم للاعتبار والاستبصار ومعرفة سنن الله تعالى وحكمه وآياته ، وهذا ما تدل عليه الآيات المتعددة في الحث على السير في الارض كما بيناه في الاصلين (١٣ و ١٤) من الاصول العلمية التي استنبطناها من سورة الانعام (ص ٢٨٩ ج ٨)

وروي عن عبد الله بن مسعود ان المراد بالسائحين الصائمون وقاله في تفسير (سائحات) من سورة التحريم ، وتعلق به مصنفو التفاسير لاستبعادهم مدح الله تعالى النساء بالسياحة في الارض، وانما يحظر في الاسلام سفر المرأة منفردة دون زوجها او أحد محارمها، واما إذا كانت تسيح مع الزوج والمحرم حيث يسيح لغرض صحيح من علم نافع او عمل صالح او طلب الصحة او الرزق فلا اشكال في مدحها بالسياحة . بل ينبغي اشتراك الرجال والنساء في جميع أعمال الحياة النافعة ، وأزيد على ذلك السياحة والسفر لطلب الرزق الحلال من تجارة وغيرها.

وإذا صح ان النبي ﷺ وأصحابه كانوا يصحبون نساءهم في غزواتهم عند الامكان ، وهن غير مكلفات بالقتال ، بل يساعدن عليه بتهيئة الطعام والشراب ، وتضميد الجراح وغير ذلك كما تقدم في تفسير (٧١ـ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) (٥٤١ ج ١٠) فلأن يصحبنهم في سائر الاسفار أولى ، وفي سفر المرأة مع زوجها احصان له ولها ، فهو مانع المسلم من التطلع في السفر إلى غيرها

وعلل سفيان بن عيينة تفسير السائحين بالصائمين بان الصائم يترك اللذات كلها كالسائح للتعبد ، ومثله أو منه قول الازهري : يسمى الصائم سائحاً لأن الذي يسيح في الارض متعبداً لا يحمل زاداً فكان ممسكا عن الاكل . ولهذا التعليل خص بعضهم اطلاق وصف السائحين على الصائمين بالذين يديمون الصيام ، وأخذ بعضهم بظاهر اللفظ ، فقال يكفي في صحة الوصف صيام الفرض ، وكل ذلك ضعيف

والصوفية يخصون السائحين الممدوحين بالذين يهيمون في الارض لتربية إرادتهم ، وتهذيب أنفسهم باحتمال المشاق ، والبعد عن مظان السمعة والرياء ، وجمع القلب على الرب عز وجل بالاخلاص في عبادته ، والتكمل في منازل معرفته ، كالسياحين من الامم قبلهم ، وقد كان اطلاق السياحة بهذا المعنى ذائعاً من قبل الاسلام حتى قال صاحب القاموس : السياحة الذهاب في الارض للعبادة ومنه سمي المسيح الخ واعترضوه فيه فانما هو عرف ليس من أصل اللغة ، وتقدم معنى السياحة اللغوي في تفسير قوله تعالى (فسيحوا في الارض أربعة أشهر) وهو أول آية من هذه السورة (ص ١٥٢ ج ١٠)

وقد حدث للمتصوفة بدع في السياحة كقصد مشاهد القبور المنسوبة إلى الانبياء والصالحين للتبرك بها ، والاستمداد من أرواح من دفنوا فيها ، وكثير منهم يكون له هوى في التنقل من بلد إلى آخر فيظل هائما في الاسفار ، وينقطع بذلك عن الاعمال التي تنفع الناس وعن الزواج ، ويرتكب بعضهم فيها كثيراً من المنكرات ، ويكون لهم طمع في استجداء الناس ، والسؤال حرام إلا لضرورة ، والفقهاء ينكرون عليهم سياحتهم هذه

قال ابن الجوزي : السياحة في الارض لا لمقصود ولا إلى مكان معروف

منهي عنها . وقد روينا ان النبي ﷺ قال « لارهبانية في الاسلام ولاتبتل ولا سياحة في الاسلام » وقال الامام احمد ماالسياحة من الاسلام في شيء ولا من فعل النبيين والصالحين ، ولان السفر يشتت القلب فلا ينبغي المريد أن يسافر إلا في طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدي به اهـ

وأقول روى ابن جرير من حديث أبي هريرة مرفوعا وموقوفا حديث «السائحون هم الصائمون» ولا يصح رفعه وروي عن عائشة وابن عباس ومجاهد وغيرهم من أقوالهم ، ومن مرسل عمرو بن دينار عن عبيد بن عميره وروى ابو داود من طريق القاسم أبي عبد الرحمن عن ابي امامة ان رجلا قال يارسول الله ائذن لي بالسياحة ؟ قال النبي ﷺ « إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله عز وجل » قال الحافظ المنذري: القاسم هذا تكلم فيه غير واحد. إه أقول منهم الامام احمد كان يقول فيما يروى عنه من المناكير. إنها من قبله ، ويقول بعضهم إنها ممن روى عنه من الضعفاء، لامنه ، وقال ابن حبان : كان يروي عن الصحابة المعضلات .
وللامام الغزالي في كتاب السفر من الاحياء كلام نفيس في فوائد السياحة والاعتبار بآيات الله تعالى فيها لا يوجد في غيره مثله

﴿ الراكعون الساجدون ﴾ لله تعالى في صلواتهم . والصلاة تذكر تارة بلفظها وتارة ببعض أركانها كالقيام والركوع والسجود . وهذا الوصف يفيد التذكير بهذه الهيئة وتمثيلها للقاريء والسامع

﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴾ تقدم معنى هذا الامر والنهي ومكانته من صفات المؤمنين في تفسير الآية (٧١) من هذه السورة (ص ٥٤١ ج ١٠) وهذه الصفة وما بعدها من الصفات المتعلقة بجماعة المؤمنين فيما يجب على بعضهم لبعض وكل ماقبلهما من صفات الافراد

﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ أي شرائعه وأحكامه التي حدد فيها مايجب وما يحظر على المؤمنين من العمل بها ومايجب على أئمة المسلمين وأولي الامر وأهل الحل والعقد منهم إقامتها وتنفيذها بالعمل في أفراد المسلمين وجماعتهم إذا أخلوا بما يجب عليهم من

الحفظ لها ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي وبشر أيها الرسول المؤمنين الموصوفين بهذه البضع الصفات. ولم يذكر مايبشرهم به لتعظيم شأنه وشموله لخير الدنيا وسعادة الآخرة

ومن مباحث اللغة ان المعدودات تسرد بغير عطف وانما عطف النهي عن المنكر على الامر بالمعروف للايذان بانهما فريضة واحدة لتلازمهما في الغالب. واما عطف « الحافظون لحدود الله » على جملة ماتقدم فقيل لان التعداد قد تم بالوصف السابع من حيث إن السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء عدد آخر معطوف عليه وان هذه الواو تسمى واو الثمانية. وأنكر هذه الواو النحاة المحققون، وقيل لأنه اجمال لما تقدم من التفصيل قبله، فلا يصح أن يجعل فرداً من أفراده فيسرد معه. وأقوى منه عندي أنه وصف جامع للتكاليف عامة، والمنهيات خاصة، والسبعة المسرودة قبله من المأمورات، ولا يحصل الكمال للمؤمن بها إلا مع اجتناب المنهيات، وهو اول مايلاحظ في حفظ حدود الله قال تعالى (تلك حدود الله فلا تقربوها * تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون * وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) وعلى هذا يكون معنى نظم الآية ان المؤمنين الكاملين الذين باعوا أنفسهم لله تعالى هم المتصفون بالصفات السبع، والحافظون مع ذلك لجميع حدود الله في كل أمر ونهي، ويعبر عن هذا في عرف هذا العصر بقولهم: « المثل الاعلى » ويطلقونه على الافراد النابغين في بعض الفضائل العامة، وعلى الجماعات والامم الراقية، ويكفي ان يقال فيه « المثل » في كذا. كما قال تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلا) وقال (وجعلناه مثلا لبني اسرائيل) اويقال: مثل عال، اومثل شريف. واما الاعلى فهو الله عز وجل كما قال عن نفسه (ولله المثل الاعلى) وقال (وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم)

وجملة القول فيهم أنهم الحافظون لجميع حدود الله تعالى. وخصت تلك الخلال السبع بالذكر لانها هي التي تمثل في نفس القاريء أكمل مايكون المؤمن به محافظا على حدود الله تعالى

(١١٣) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٤) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٥) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٦) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

تقدم في الآية الثمانين من هذه السورة ان الله تعالى لا يغفر للمنافقين لانهم كفروا بالله ورسوله الخ، فاستغفار الرسول لهم وعدمه سيان. وتقدم في سورة النساء (إن الله لا يغفر أن يشرك به (٤: ٤٨ و ١١٦) وقد شرع الله المؤمنين في أوائل سورة الممتحنة التأسي بابراهيم صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه في البراءة من قومهم المشركين ومن معبوداتهم واستثنى من هذه الاسوة استغفار ابراهيم صلى الله عليه وسلم لأبيه فقال (إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء) وقد بين هنا حكم الاستغفار لمن ذكر وقفى عليه بقاعدة التشريع العامة التي يبنى عليها الجزاء فقال عز وجل

﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ هذا نفي بمعنى النهي، فهو أبلغ من النهي المجرد، وهذا التعبير فيه يسمي نفي الشأن، وهو أبلغ من نفي الشيء نفسه، لانه نفي معلل بالسبب المقتضي له. والمعنى: ماكان من شأن النبي ولا مما يصح أن يصدر عنه من حيث هو نبي — ولا من شأن المؤمنين ولا مما يجوز أن يقع منهم من حيث هم مؤمنون — أن يدعوا الله طالبين منه المغفرة للمشركين ﴿ ولو كانوا أولي قربى ﴾ لهم في الاصل حق البر وصلة الرحم. وكانت عاطفة

القرابة تقتضي الغيرة عليهم وحب المغفرة لهم «ولو» هذه تفيد الغاية لمعطوف عليه يحذف حذفا مطرداً للعلم به ، والمراد انه ليس مما تبيحه النبوة ولا الايمان ولا مما يصح وقوعه من أهلهما : الاستغفار للمشركين في حال من الاحوال، حتى لو كانوا أولي قربى ، فان لم يكونوا كذلك فعدم جوازه أولى . ثم قيد الحكم بقوله تعالى

﴿ من بعد ماتبين لهم أنهم اصحاب الجحيم ﴾ أي من بعد ماظهر لهم بالدليل أنهم من أهل النار الخالدين فيها بأن ماتوا على شركهم وكفرهم ولو بحسب الظاهر كاستصحاب حالة الكفر الى الموت ، أو نزل وحي يسجل عليهم ذلك كاخباره تعالى عن أناس من الجاحدين المعاندين من اصحاب النار خالدين فيها، أو انهم طبع قلوبهم وختم عليها . وقوله لرسوله ﷺ (سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون) ومثله في المنافقين (سواء عليهم أستغفرت لهم) الخ

وقد ورد في الصحيحين وغيرهما ان هذه الآية نزلت في أبي طالب، اذ دعاه صلى الله عليه وسلم عند ما حضره الموت الى قول (لا إله إلا الله) فامتنع وأبو طالب مات بمكة قبل الهجرة ، فهل نزلت الآية عقب موته ثم الحقت بهذه السورة المدنية لمناسبتها لاحكامها ، أم نزلت مع غيرها من براءة مبينة لحكم استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم له ؟ وروي من طرق انها نزلت حين زار ﷺ قبر أمه واستغفر لها (١) والله أعلم والآية نص في تحريم الدعاء لمن مات على كفره بالمغفرة والرحمة وكذا وصفه بذلك كقولهم المغفور له المرحوم فلان ، كما يفعله بعض المسلمين الجغرافيين الآن ، لعدم تحققهم بمقتضى الايمان، وتقيدهم بأحكام الاسلام، ومنهم بعض المعممين والحاملين لدرجة العالمية من الازهر

أخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وغيرهم من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة فقال « أي عم : قل لااله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية : أترغب عن ملة

(١) راجع هذا البحث في تفسير (٦ : ٣٥ واذ قال ابراهيم لابيه آزر) ص ٥٣٧ـ ٥٥٣ ج ٧ تفسير

عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال ابو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب . وأبى ان يقول لا اله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ « والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك » فأنزل الله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ (انك لاتهدي من أحببت ولـكن الله يهدي من يشاء)

هذا لفظ البخاري في تفسير الآية الاخيرة من سورة القصص وأخرجه في تفسير آية براءة وفي الجنائز أيضا .

قال الحافظ في شرحه للحديث : ووقع في رواية مجاهد قال : يا ابن أخي ملة الاشياخ. ووقع في حديث أبي حازم عند مسلم والترمذي والطبري قال : لولا أن تعيرني بها قريش يقولون ماحمله على ذلك إلا جزع الموت لأقررت بها عينك . ثم قال الحافظ وروى الطبري من طريق شبل عن عمرو بن دينار قال قال النبي ﷺ « استغفر ابراهيم لابيه وهو مشرك فلا ازال أستغفر لابي طالب حتى ينهاني عنه ربي » فقال أصحابه لنستغفرن لآبائنا كما استغفر نبينا لعمه ، فنزلت

(قال) وهذا فيه إشكال لان وفاة ابي طالب كانت بمكة قبل الهجرة اتفاقا، وقد ثبت ان النبي ﷺ أتى قبر امه لما اعتمر فاستأذن ربه ان يستغفر لها فنزلت هذه الآية ـ والاصل عدم تكرار النزول وقد أخرج الحاكم وابن أبي حاتم من طريق أيوب بن هانيء عن مسروق عن ابن مسعود قال خرج رسول الله ﷺ يوما إلى المقابر فاتبعناه فجاء حتى جلس الى قبر منها فناجاه طويلا ثم بكى فبكينا لبكائه فقال « ان القبر الذي جلست عنده قبر امي واني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي فأنزل علي (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) » وأخرج أحمد من حديث ابن بريدة عن ابيه نحوه ، وفيه نزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب ولم يذكر نزول الآية ، وفي رواية الطبري من هذا الوجه لما قدم مكة أتى رسم قبر ومن طريق فضيل بن مرزوق عن عطية لما قدم مكة وقف على قبر أمه حتى سخنت عليه الشمس رجاء ان يؤذن له فيستغفر لها، فنزلت . وللطبراني من طريق عبد الله بن كيسان عن عكرمة عن ابن عباس نحو حديث ابن

مسعود وفيه: لما هبط من ثنية عسفان. وفيه نزول الآية في ذلك — فهذه طرق يعضد بعضها بعضا وفيها دلالة على تأخير نزول الآية عن وفاة ابي طالب. ويؤيده ايضا انه ﷺ قال يوم احد بعد ان شج وجهه «رب اغفر لقومي فانهم لا يعلمون» لكن يحتمل في هذا أن يكون الاستغفار خاصاً بالاحياء وليس البحث فيه — ويحتمل أن يكون نزول الآية تأخر وان كان سببها تقدم ويكون لنزولها سببان متقدم وهو امر أبي طالب ومتأخر وهو امر آمنة، ويؤيد تأخير النزول ماتقدم في تفسير براءة من استغفاره ﷺ للمنافقين حتى نزل النهي عن ذلك، فان ذلك يقتضي تأخير النزول وان تقدم السبب، ويشير الى ذلك أيضا قوله في حديث الباب «وأنزل الله في أبي طالب (انك لا تهدي من أحببت)» لانه يشعر بأن الآية الاولى نزلت في ابي طالب وفي غيره، والثانية نزلت فيه وحده، ويؤيد تعدد السبب ما أخرج أحمد من طريق ابي اسحاق عن ابي الخليل عن علي قال سمعت رجلا يستغفر لوالديه وهما مشركان فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله (ما كان للنبي) الآية وروى الطبري من طريق ابن ابي نجيح عن مجاهد قال قال المؤمنون ألا نستغفر لآبائنا كما استغفر ابراهيم لابيه؟ فنزلت. ومن طريق قتادة قال ذكرنا له ان رجالا فذكر نحوه. وفي الحديث ان من لم يعمل خيراً قط اذا ختم عمره بشهادة أن لا إله الا الله حكم باسلامه، وأجريت عليه احكام المسلمين، فان قارن نطق لسانه عقد قلبه نفعه ذلك عند الله تعالى بشرط أن لا يكون وصل الى حد انقطاع الامل من الحياة وعجز عن فهم الخطاب، ورد الجواب، وهو وقت المعاينة، واليه الاشارة بقوله تعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن) والله أعلم اه كلام الحافظ وقد تعددت الروايات في استغفار بعض الصحابة لآبائهم وأولي قرباهم من المشركين تأسيا به ﷺ حين استغفر لعمه حتى نزل النهي فكفوا

﴿ وما كان استغفار ابراهيم لأبيه ﴾ مما يدخل في عموم تأسيكم به على إطلاقه، فانه ما كان وما وقع لسبب ولا علة ﴿ إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ في حياته

إذ كان يرجو ايمانه فقال له (٦٠: ٤ لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء) أي لا أملك لك هداية ولا نجاة وانما أملك دعاء الله تعالى ، وقد وفى بوعده وما كان إلا وفياً كما شهد له تعالى بقوله (وابراهيم الذي وفّى) فكان من دعائه (٢٦ :٨٦ واغفر لابي انه كان من الضالين ٨٧ ولا تخزني يوم يبعثون ٨٨ يوم لاينفع مال ولا بنون ٨٩ إلا من أتى الله بقلب سليم) اي من الشرك والكفر والشك المقتضي للنفاق ، فمن استغفر لحي يرجو إيمانه يقصد سؤال الله ان يهديه لما يكون به أهلا للمغفرة فلا بأس

﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ قال ابن عباس : لم يزل ابراهيم يستغفر لأبيه حتى مات فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه . وفي رواية عنه: فلما تبين له انه عدو لله يقول لما مات على كفره . وقال قتادة تبين له حين مات، وعلم أن التوبة انقطعت عنه . وقيل انه تبين له ذلك بوحي من الله تعالى، فحينئذ تبرأ منه ومن قرابته ، وترك الاستغفار له كما هو مقتضى الايمان (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم) الآية

ورد أن ابراهيم يعد من الخزي له يوم القيامة أن يكون أبوه في النار كما رواه البخاري من حديث رؤيته في النار وأنه يقول « يارب انك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد» فيمسخ الله أباه ذيخا ــ وهو ذكر الضباع الكثير الشعر ــ حتى لايخزى ابراهيم ابنه برؤيته في النار على صورته المعروفة له ولقومه. وقد تقدم لفظ الحديث في قصة ابراهيم مع أبيه من تفسير سورة الانعام (ص ٥٣٩ ج ٧)

﴿ ان ابراهيم لأواه حليم ﴾ هذه الجملة المؤكدة بوصف ابراهيم صلى الله عليه وسلم بالمبالغة في خشية الله والخشوع له ، وبالحلم والثبات في أموره كلها ، تعليل لامتناعه عن الاستغفار لابيه بعد العلم برسوخه في الشرك وعداوة الله عز وجل. الأواه الكثير التأوه والتحسر وانما يتأوه ابراهيم من خشية الله ويتحسر على المشركين من قومه ولاسيما أبيه ، ويطلق الاواه على الخاشع الكثير الدعاء والتضرع لله ــ وأصل التأوه قول « أوّه » اوآه (بالكسر منونا وغير منون) أو واه ، أو اوه ، . وفي

حديث مرفوع في التفسير المأثور « الأواه الخاشع المتضرع » وعن ابن عباس فيه روايات منها انه المؤمن أو الموقن بلسان الحبشة ، والحليم الذي لا يستفزه الغضب ولا يعبث به الطيش ، ولا يستخفه الجهل أو هوى النفس ، ومن لوازمه الصبر والثبات والصفح والتأني في الأمور واتقاء العجلة في كل من الرغب والرهب وذهب الزمخشري الى ان الجملة تعليل لما كان من استغفاره لابيه ، قال بعد تفسير الاواه بالذي يكثر التأوه : ومعناه أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على ابيه الكافر ويستغفر له مع شكاسته عليه وقوله (لارجمنك) اه

﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم ﴾ أي وما كان من شأن الله تعالى في حلمه ورحمته ، ولا من سننه في خلقه التي هي مظهر عدله وحكمته ، أن يصف قوما بالضلال ، ويجري عليهم أحكامه بالذم والعقاب ، بعد إذ هداهم الى الايمان ، وشرح صدروهم بالاسلام ، بمجرد قول أو عمل صدر عنهم بخطأ الاجتهاد ﴿ حتى يبين لهم ما يتقون ﴾ من الاقوال والافعال ، بيانا جليا واضحا لا شبهة فيه ولا إشكال ﴿ ان الله بكل شيء عليم ﴾ فهو يشرع لهم من الاحكام ما تكمل به فطرتهم ، ويستقيم به رأيهم وفهمهم ، فيبين لهم مهمات الدين بالنص القاطع حتى لا يضل فيه اجتهادهم باهواء نفوسهم ، ويترك لهم مجالا للاجتهاد فيما دون ذلك من مصالحهم ، فهو لهذا لم يؤاخذ ابراهيم في استغفاره لابيه قبل أن يتبين له حاله ، وكذلك لايؤاخذ النبي والذين آمنوا بما سبق لهم من الاستغفار لوالديهم وأولي القربى منهم قبل هذا التبيين لحكم الله في ذلك ، وان كان من شأنه أن يعلم أنه من لوازم الايمان ، قال مجاهد في تفسير الجملة : بيان الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة ، وفي بيان طاعته ومعصيته عامة ، مافعلوا أو تركوا . اه

يعني ان الآية عامة وان نزلت في مسألة استغفارهم للمشركين . وعن ابن عباس انها نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الاسارى قال : لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم . ولكن ماكان الله ليعذب قوما بذنب أذنبوه حتى يبين لهم مايتقون ، قال حتى ينهاهم قبل ذلك اه

وأقول الآية متأخرة النزول عن غزوة بدر ولكنها شاملة لحكمها فقد تقدم أن أخذ الفداء من الأسرى هو في معنى الاستغفار للمشركين هنا من حيث انه خلاف ما يقتضيه شأن النبوة والايمان لقوله تعالى (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض) فهذا نفي للشأن كنفي الاستغفار هنا . ثم قال تعالى هنالك بعد عتابهم الشديد (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب أليم) فابن عباس يفسر هذا الكتاب بحكمه تعالى في هذه الآية بأنه لايحكم بضلال قوم في شيء فيعاقبهم عليه إلا بعد أن يبين لهم مايتقون بيانا واضحا تاما لا مجال معه للاجتهاد الذي يكون عذراً في المخالفة، سواء كانت هذه الآية نزلت وقتئذ أم لا ــ فهذا حكم الله تعالى .

أخرج ابن المنذر أن عبدالله بن مسعود (رض) كان يخطب أصحابه كل عشية خميس ثم يقول : فمن استطاع منكم أن يغدو عالما أو متعلما فليفعل ولا يغدو لسوى ذلك ، فان العالم والمتعلم شريكان في الخير . أيها الناس : إني والله ما أخاف عليكم أن تؤخذوا بما لم يبين لكم وقد قال الله تعالى (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون) فقد بين لكم ماتتقون .

ويؤخذ من هذا كله قاعدة أن أحكام الاسلام العامة التي عليها مدار الجزاء في الآخرة ، ويكلف العمل به كل من بلغه إن كان من الاحكام الشخصية وتؤخذ بها الامة كلها وينفذه أئمتها وأمراؤها فيها هو ما كان قطعي الدلالة ببيان الله تعالى ورسوله لا حجة معه لأحد في تركه . وان ماعداها منوط بالاجتهاد ، فمن ظهر له من نص ظني الدلالة حكم واعتقد أنه مراد الله من الآية وجب عليه اتباعه ، ومن لا فلا . كما وقع عند نزول آية البقرة في الخمر والميسر إذ فهم بعض الصحابة من قوله تعالى (وإثمهما اكبر من نفعهما) تحريمهما فتركه ، وبقي من لم يفهم هذا يشرب الخمر حتى بين الله تحريمها مع الميسر بياناً قطعياً بآيات المائدة .
وأصل مذهب الحنفية أن الفرائض والتحريم الديني لا يثبتان إلا بالنص القطعي أو بنص القرآن القطعي بل هذا ما كان عليه علماء السلف . وتقدم تحقيق المسألة (في ص ٣٧١ ج ١٠ تفسير)والآية تدل على بطلان قول بعض المبتدعة بالمؤاخذة على مايجب بحكم

العقل كالصدق والأمانة صرح به مفسرهم الزمخشري واستثناه من حكم الآية بأنه غير موقوف على التوقيف » نعم ان حسنه يعلم بالعقل ، ولكن التكاليف الذي يبنى عليه جزاء الآخرة لا يصح إلا بالشرع ، كما تدل عليه الآية وغيرها ، وقد أمر الله بالصدق والأمانة وأوجبهما وحرم الكذب والخيانة . كما بين كل ما أراد جعله ديناً للناس . وقد أخبرنا رسوله ﷺ ان ما سكت عنه فلم يبينه لنا فهو عفو منه تعالى غير نسيان، فليس لنا ان نسأل عنه ولا أن نضع له احكاما بآراء عقولنا . وقد بسطنا هذه المسألة في تفسير (٥ : ١٠٤ يا أيها الذين امنوا لا تسألوا) الخ (راجع ص١٣٠ ج٧)مع الفصل الملحق به (١٣٨) الخ

﴿ ان الله له ملك السموات والارض ﴾ لا شريك له في خلقهما ولا في تدبير شؤونهما ولا في التشريع الديني للمكلفين فيهما ﴿ يحيي ويميت ﴾ أي يهب الحياة الحيوانية والحياة المعنوية الروحية بمحض قدرته ومشيئته ومقتضى سننه في التكوين والهداية الفعلية ويميت ما شاء من الابدان بانقضاء آجالها المقدرة في علمه، ومن الانفس بنكوبها عن صراط هدايته ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ أي وليس لكم أيها المؤمنون أحد غير الله يتولى أمركم ، ولا نصير ينصركم على عدوكم ، فلا تحيدوا عن هدايته فيما نهاكم عنه من الاستغفار لأولي القربى الذين هم أهل الولاية والنصرة من عصباتكم في الانساب . ولا في غير ذلك من أوامره ونواهيه

(١١٧) لَقَدْ تَابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٨) وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ

عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١١٩) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ

هـذه الآيات تتمة ما تقدم من موضوع توبة المتخلفين عن غزوة تبوك، أخرت على سنة القرآن في تفريق الآيات في الموضوع الواحد لانه أدنى أن لا يسأم التالي لها في الصلاة وغيرها ، وأقوى في تجديد الذكرى والتأثير في النفس كما بيناه مراراً ، وهو مناسب لما قبله من النهي عن الاستغفار للمشركين وهو مما يتاب منه

﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار ﴾ هذا خبر مؤكد بلام القسم على حرف التحقيق بين به تعالى فضل عطفه على نبيه وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والانصار وتجاوزه عن هفواتهم في هذه الغزوة وفي غيرها ، لاستغراقها في حسناتهم الكثيرة على كونهم لا يصرون على شيء منها ، وانما كانت هفواتهم هذه مقتضى الطباع البشرية واجتهاد الرأي فيما لم يبينه الله تعالى لهم بياناً قطعياً يعد مخالفه عاصياً . وقد بينا في تفسير الآية (١٠٤) أن للتوبة درجات تختلف باختلاف طبقات التوابين الرجاعين الى الله من كل اعراض عنه. وتوبته تعالى على عباده لها معنيان عطفه عليهم وهذا أعلاها ـ وتوفيقهم للتوبة وقبولها منهم ، وانما يتوبون من ذنب ، وما كل ذنب معصية لله عز وجل ، وقد فسر ابن عباس التوبة على النبي ﷺ هنا بقوله تعالى في سياق هذه الغزوة (٤٣ عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم ؟) الآية وحققنا في تفسيرها مسألة ذنوب الانبياء وكونها من الاجتهاد الذي لم يقرهم الله عليه لان غيره خير منه[1] وأما المهاجرون والانصار (رض) وهم خلص المؤمنين ﴿ الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ فمنهم من كان ذنبه التثاقل في الخروج حتى ورد الامر الحتم فيه والتوبيخ على التثاقل الى الارض، ومنهم من كان ذنبهم السماع للمنافقين فيما كانوا يبغون من فتنة المؤمنين بالقوة والاستدراك ، وبالفعل

(١) راجع ص ٤٦٤ ج ١٠ تفسير

فأما العسرة فهي الشدة والضيق . وكانت عسرة في الزاد اذ كانت عند انتهاء فصل الصيف الذي نفدت فيه مؤنتهم من التمر، وأول فصل الخريف الذي بدأ فيه ارطاب الموسم الجديد ولا يمكن حمل شيء منه ، فكان يكتفي الواحد منهم او الاثنان بالتمرة الواحدة من التمر القديم ومنه المدود واليابس ، وقد تزود بعضهم أيضا بالشعير المسوس والاهالة الزنخة - وعسرة في الماء حتى كانوا ينحرون البعير على قلة الرواحل ليعتصروا الفرث الذي في كرشه ويبلوا به ألسنتهم - وعسرة في الظَّهر حتى كان العشرة يعتقبون بعيراً واحداً - وعسرة في الزمن اذ كان في حمارة القيظ وشدة الحر ، ولعل التعبير بساعة العسرة للتذكير بذلك الوقت العصيب ، قال جابر بن عبدالله (رض) في ساعة العسرة: عسرة الظَّهر وعسرة الزاد وعسرة الماء ، وقال ابن عباس لعمر (رضي الله عنهم) حدثنا من شأن ساعة العسرة ، فقال: خرجنا مع رسول الله ﷺ الى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا فأصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا ان رقابنا ستقطع حتى ان كان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده فقال ابو بكر الصديق (رض) يارسول الله ان الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا ، فرفع يديه فلم يرجعها حتى قالت السماء ، فأهطلت ثم سكبت فملؤا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر ، أخرجه ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في دلائلهما والضياء في المختارة

﴿ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ﴾ أي اتبعوه من بعد ماقرب أن يزيغ قلوب فريق منهم عن صراط الاسلام، بعصيان الرسول حين أمر بالنفير العام ، إذ تثاقل بعضهم عن النفر ووبخهم الله تعالى في الآيات ٣٨ و ٣٩ و ٤٠(*) أو المعنى انه تاب على المؤمنين كافة من بعد ما كاد يزيغ بعضهم عن الايمان، والمراد بهم الذين تخلفوا بالفعل منهم لغير علة النفاق، وهم الذين خلطوا عملا

*) راجع تفسيرها في ٤٢٣ - ٤٣٤ ج ١٠

صالحا وآخر سيئاً واعترفوا بذنوبهم تائبين فقبل الله توبتهم كما تقدم ، وقال هنا فيهم ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ وهو الظاهر من العطف بثم ، وأما على التوجيه الآخر فهو تأكيد لما في أول الآية من التوبة على الجميع ﴿ انه بهم رءوف رحيم ﴾ وهذا تعليل لقبول توبتهم فالرأفة العناية بالضعيف والرفق به والعطف عليه . والرحمة أعم وأوسع وتقدم تحقيق معناها في تفسير الفاتحة . قرأ (كاد يزيغ) بالياء التحتانية حمزة وحفص ، وقرأها الباقون (تزيغ) بالفوقانية ، والمعنى واحد فيهما الا ان في هذه من احتمال الاعراب النحوي ما ليس في تلك

﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ أي وتاب أيضا على الثلاثة الذين خلفوا عن الخروج الى تبوك معه ﷺ وهم المرجون لأمر الله في الآية (١٠٦) او خلفوا بمعنى أرجئوا حتى ينزل فيهم امر الله ، وهم كعب بن مالك من بني سلمة وهلال ابن أمية من بني واقف ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف ﴿ حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ﴾ اي خلفوا وأبهم الله أمرهم الى ان شعروا بأن الارض قد ضاقت عليهم برحبها أي بما وسعت من الخلق خوفا من العاقبة وتألما وامتعاضاً من إعراض النبي ﷺ والمؤمنين عنهم وهجرهم اياهم في المجالسة والمحادثة والتحية ﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ اي وضاقت أنفسهم على انفسهم ، وانما كان ذلك بما كانوا يشعرون به من ضيق صدورهم بامتلاء قلوبهم من الهم والغم حتى لا متسع فيها لشيء من البسط والسرور ، فكأنهم لا يجدون لأنفسهم مكانا ترتاح اليه وتطمئن به ﴿ وظنوا ان لا ملجأ من الله إلا اليه ﴾ واعتقدوا انه لا ملجأ لهم من سخط الله يلجؤن اليه الا اليه تعالى بان يتوبوا اليه ويستغفروه ويرجون رحمته فان الرسول البر الرؤف الرحيم باصحابه ما عاد ينظر اليهم ولا يكلمهم حتى يطلبوا دعاءه واستغفاره ، وهو ﷺ لا يشفع في الدنيا ولا في الآخرة إلا لمن ارتضى الله أن يشفع لهم ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ اي بعد ذلك كله عطف تعالى ورجع عليهم وأنزل قبول توبتهم

أو وفقهم للتوبة المقبولة عنده ﴿ ليتوبوا ﴾ ويرجعوا اليه بعد إعراضهم عن هدايته واتباع رسوله ﷺ ﴿ ان الله هو التواب الرحيم ﴾ انه تعالى هو كثير القبول لتوبة التائبين، الواسع الرحمة للمحسنين ، وتقدم مثله قريبا

وان العبرة بهذه القصة لاتتم إلا بذكر أصح الروايات وأوسعها في شرح ما بين الله من حالهم فيها وهو حديث كعب بن مالك (رض)

أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأشهر مدوني التفسير المأثور من طريق الزهري قال أخبرني عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك ـ وكان قائد كعب من بنيه حين عمي ـ قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال كعب لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أني تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها انما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الاسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر ، وكان من خبري حين تخلفت عن رسـول الله ﷺ في غزوة تبوك اني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ماجمعت قبلهـا راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً ، واستقبل عدواً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لايجمعهم كتاب حافظ — يريد الديوان

قال كعب رضي الله عنه : فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه مالم ينزل فيه وحي من الله عز وجل . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين

طابت الثمار والظلال، وأنا اليها أصعر، فتجهز اليها رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولا أقضي شيئاً، فأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إن أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، وقلت الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت ان أرتحل فادركهم، وليت أني فعلت، ثم لم يقدر لي ذلك فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني اني لا أرى لي أسوة إلا رجلا مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلا ممن عذر الله[1] ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك « مافعل كعب ابن مالك ؟ » فقال رجل من بني سلمة: يارسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه. فقال له معاذ بن جبل، بئسما قلت، والله يارسول الله ماعلمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضرني بثي فطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل ان رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل حتى عرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادما، وكان اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعا وثمانين رجلا، فقبل رسول الله ﷺ منهم علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي « تعال » فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي « ماخلفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك ؟ » فقلت يارسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت اني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلا، ولكني والله لقد

(١) يعني الضعفاء والمرضى والذين لايجدون ماينفقون

علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله يسخطك علي ، ولئن حدثتك بحديث صدق تجد علي فيه ، اني لأرجو فيه عقبى من الله ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال ﷺ «أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك » فقمت وبادرني رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي والله ماعلمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، لقد عجزت أن لاتكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ قال فوالله مازالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع الى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي، ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا ما قلت ، وقيل لهما مثل ماقيل لك فقلت من هما؟ قالوا مرارة بن الربيع وهلال بن أميـة الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا لي فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لي

قال ونهى رسول الله ﷺ النـاس عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس ــ او قال تغيروا لنا ــ حتى تنكرت لي في نفسي الارض فما هي بالارض التي كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما. وأما أنا فكنت اشد القوم وأجلدهم ،فكنت أخرج فاشهد الصـلاة مع المسلمين وأطوف بالاسواق فلا يكلمني أحد ،وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة وأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر ، فاذا اقبلت على صلاتي نظر إلي فاذا التفت نحوه اعرض عني ، حتى اذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة ـ وهو ابن عمي واحب الناس إلي ـ فسلمت عليه ، فوالله مارد علي السلام . فقلت له ياابا قتادة انشدك الله تعالى هل تعلم اني احب الله ورسوله ؟ قال فسكت ، قال فعدت فنشدته فسكت، فعدت فنشدته. قال الله ورسوله اعلم . ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار .

وبينا أنا امشي بسوق المدينة اذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلي

حتى جاءني فدفع إلي كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا، فقرأته فإذا فيه :

أما بعد فانه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت حين قرأتها وهذه أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرتها

حتى اذا مضت أربعون ليلة من الخمسين اذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال ان رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال بل اعتزلها ولا تقربنها ، وأرسل الى صاحبي مثل ذلك ، فقلت لامرأتي إلحقي باهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الامر ، فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله إن هلالا شيخ ضائع وليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ قال « لا ولكن لايقربنك » فقالت انه والله مابه من حركة الى شيء ، ووالله مازال يبكي من لدن ان كان من أمرك ما كان الى يومه هذا ، فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه. فقلت والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري مايقول اذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ،

قال فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، قال ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الارض بما رحبت سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك ابشر ، فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء الفرج، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر . فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرسا وسعى ساع من اسلم قبلي وأوفى على الجبل فكان الصوت اسرع من الفرس ، فلما جاء الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته، والله ماأملك غيرهما يومئذ ؟ فاستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أؤم رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجا بعد فوج يهنئوني بالتوبة ويقولون ليهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد فاذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس ، فقام

إلي طلحة بن عبيد يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ماقام إلي رجل من المهاجرين غيره، قال فكان كعب رضي الله عنه لاينساها لطلحة.

قال كعب رضي الله عنه: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور «ابشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قلت أمن عندك يارسول الله أم من عند الله ؟ قال «لا بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ اذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت يارسول الله ان من توبتي أن انخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ قال «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» فقلت اني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت يارسول الله انما أنجاني الله بالصدق، وان من توبتي أن لاأحدث إلا صدقا مابقيت، قال فوالله ماأعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ماتعمدت كلمة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ الى يومي هذا كذبا واني لارجو أن يحفظني الله فيما بقي، وأنزل الله (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار — الى قوله — وكونوا مع الصادقين)

قال كعب فوالله ماأنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني الله للاسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فان الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ماقال لاحد فقال (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم انهم رجس — إلى قوله — الفاسقين)

قال كعب وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر اولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه فلذلك قال الله (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) وليس الذي ذكر مما خلفنا تخلفنا عن الغزو وانما هو تخليفه إيانا وارجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر اليه فقبل منه اه

(أقول) ان في هذه القصة لأكبر عبرة تفيض لها عبرات المؤمنين، وتخشع لها قلوب المتقين، وكان الامام احمد لايبكيه شيء من القرآن كما تبكيه هذه الآيات وحديث كعب في تفصيل خبرهم فيها. وأي مؤمن يملك عينيه أن تفيض من الدمع، وقلبه

أن يجف ويرجف من الخوف إذا قرأ أو سمع هذا الخبر ، وتأمل ما فيه من العبر ، التي لا يمكن بسطها إلا في كتاب مستقل ،ولا ادري ماعسى أن ينال من قسوة قلوب المقلدين ، وجهل المغرورين ، الذين يقترفون الفواحش والمنكرات ، ويتركون الفرائض والواجبات ، ويصرون على مافعلوا وهم يعلمون . فلا يتوبون ولا هم يذكرون ، وإذا وعظهم واعظ أو ذكرهم مذكر ، وجد اللابسين لباس الاسلام منهم بين جازم بالمغفرة والعفو عنه ،وبين متكل على شفاعة الشافعين له ، ومنهم من يحفظ من أخبار المكفرات للذنوب ما لايصح له سند، ولا يستقيم له على أصول الدين متن ، وما له أصل من هذه الاخبار يراد به تكفير الصغائر ، بشرط اجتناب الكبائر ، لقوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وما كان العمل الصالح فيه مقرونا بالتوبة أخذاً من قوله تعالى (١٦ : ١١٩ ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا . ان ربك من بعدها لغفور رحيم) وتقدم بيان هذه المسألة في مواضع(آخرها ص١٧٥ ج ١٠)

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ باتباع ما أمر به بقدر الاستطاعة ، وترك مانهى عنه وبين تحريمه مطلقا ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ أي مع جماعة الصادقين او منهم (وفاقا لقراءة ابن مسعود وقد تكون تفسيراً) دون المنافقين الذين يتنصلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالحلف . والصادقون هم المعتصمون بالصدق والاخلاص في جهادهم إذا جاهدوا ، وفي عهودهم إذا عاهدوا ، وفي أقوالهم ووعودهم إذا حدثوا ووعدوا ، وفي توبتهم إذا أذنبوا اوقصروا والمنافقون ضدهم في ذلك وغيره

تقدم في آخر حديث كعب بن مالك المتفق عليه ان هذه الآية نزلت فيه وفي أصحابه بما صدقوا رسول الله ﷺ ولم ينتحلوا لأنفسهم عذراً كاذبا في التخلف عن النفر معه . وبه قال نافع والسدي. وقال عبد الله بن عمر [رض] (وكونوا مع الصادقين) مع محمد ﷺ وأصحابه . وقال سعيد بن جبير والضحاك: مع أبي بكر وعمر، وابن عباس وأبو جعفر : مع علي . والحق انها عامة كما قال ابن عمر في عهده ، ومثله

يقال في الصادقين من بعده ، وان الثلاثة الذين نزلت في قصتهم يدخلون في عمومها دخولا أولياً . وان أبا بكر وعمر وعلياً أفضل من هؤلاء الثلاثة وأعرق في الصدق وأكمل . ولكني أشم من الروايتين رائحة وضع النواصب والروافض ، وقيل ان المراد بالصادقين المهاجرون وان أبا بكر احتج بالآية على الانصار يوم السقيفة. وهذا القول لا وجه له والاحتجاج به لا يصح ، ووجهه القائلون به بانه جعل الصادقين هنا هم الصادقين في آية سورة الحشر (٨٩ : ٩ للفقراء المهاجرين — الى قوله — اولئك هم الصادقون) ومقتضاه أن يكون هذا الوصف خاصا بالمهاجرين ، حيث وجد في القرآن معرَّفا كآية (٤٩ : ١٥ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله — إلى قوله — اولئك هم الصادقون) وقوله (ليسأل الصادقين — ليجزي الله الصادقين) وغيرهن—وهو باطل ولم يقل به أحد ، ومع هذا لايدل على وجوب اتباع الانصار وغيرهم لهم في الامامة كما قال الطوفي

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأشهر رواة التفسير والبيهقي في الشعب عن عبدالله بن مسعود (رض) لايصلح الكذب في جد ولا هزل ، ولا يعِدْ أحدكم صبيه شيئا ثم لا ينجزه ، اقرؤا إن شئتم (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) فهل تجدون لأحد رخصة في الكذب ؟ وأخرجه عنه الحاكم وصححه ، والبيهقي مرفوعا الى النبي ﷺ بلفظ « ان الكذب لايصلح منه جد ولا هزل ، ولا يعد الرجل ابنه ثم لا ينجز له ، أن الصدق يهدي الى البر ، وان البر يهدي الى الجنة ، وان الكذب يهدي إلى الفجور ، وان الفجور يهدي الى النار ، انه يقال للصادق : صدق وبر ، ويقال للكاذب : كذب وفجر . وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، ويكذب حتى يكتب عند الله كذابا » وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عنه قال قال رسول الله ﷺ « عليكم بالصدق فان الصدق يهدي إلى البر وان الرجل ليصدق — الخ ما تقدم آنفا — وإياكم والكذب فان الكذب يهدي الى الفجور ، وان الرجل ليكذب» — الخ ما تقدم فيما قبله — والاحاديث في فضيلة الصدق ورذيلة الكذب وكونها من صفات المنافقين كثيرة تقدم بعضها ، وفي روايات عديدة « ان المؤمن قد يطبع على كل

خلق إلا الكذب والخيانة» وانه لا رخصة في الكذب إلا لضرورة من خديعة حرب او اصلاح بين اثنين او رجل يحدث امرأته ليرضيها — يعني في مثل التحبب اليها بوصف محاسنها ورضاه عنها، لا في مصالح الدار والعيال وغيرها ، والرواية في هذا على علاتها تقيد بحديث « ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب — وفي رواية — ما يغني الرجل العاقل عن الكذب » روى ابن عدي الاول عن عمران ابن حصين والثاني عن علي رضي الله عنهما

(١٢٠) مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ *

(١٢١) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

هاتان الآيتان في تأكيد وجوب الغزو مع رسول الله ﷺ وما فيه من الأجر العظيم، وحظر تخلف أحد عنه إلا باذنه، بما فيه من تفضيل أنفسهم على نفسه

﴿ ماكان لاهل المدينة ﴾ ما كان بالذي يصح لأهل المدينة عاصمة الاسلام ومقر الرسول ﷺ ولا بالذي يستقيم او يحل لهم ﴿ ومن حولهم من الاعراب ﴾ كمزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار ﴿ أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ إذا خرج غازيا في سبيل الله كما فعل بعضهم في غزوة تبوك ولا في غير هذا من أمور الملة ومصالح الامة

﴿ ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ أي ولا ان يفضلوا أنفسهم على نفسه فيصونوها ويرغبوا بايثار راحتها وسلامتها عن بذلها فيما يبذل فيه نفسه الشريفة القدسية

من احتمال الجهد والمشقة في سبيل الله عز وجل . يقال رغب في الشيء إذا أحبه وآثره ، ورغب عنه إذا كرهه وأعرض عنه ، وقد جمع هنا بينهما بهذه العبارة المؤثرة الدالة على أن المتخلف يفضل نفسه ويؤثرها على نفس رسول الله ﷺ التي لا يكمل ايمان أحد حتى يحبه أكثر من حبه لنفسه ، وهذا يصح بعده ﷺ في كل راغب عن سنته والتأسي به ، كالملاحدة الذين يقولون لا يجب اتباعه بعد موته ، والمبتدعة والمقلدة الذين يؤثرون بدعهم ومذاهبهم على سنته

قال الزمخشري - ونعم ماقال : أمروا أن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الاهوال برغبة ونشاط واغتباط ، وان يلقّوا أنفسهم من الشدائد ماتلقاه نفسه، علما بأنها أعز نفس على الله وأكرمها . فاذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول وجب على سائر الانفس أن تتهافت فيما تعرضت له ولا يكترث لها أصحابها ولا يقيمون لها وزنا، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلا عن أن يربؤا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه . وهذا نهي بليغ مع تقبيح لامرهم ، وتوبيخ لهم عليه ، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية اهـ

﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ﴾ أي ذلك الذي دل عليه النفي من النهي عن التخلف عنه، ووجوب الاتباع له، بسبب أن كل مايصيبهم في جهادهم من أذى وان قل، ومن إيذاء للعدو وان صغر ، فهو عمل صالح لهم به أكبر الاجر ، فلا يصيبهم ظمأ لقلة الماء - أو نصب لبعد الشقة أو قلة الظهر - أو مجاعة لقلة الزاد - في سبيل إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ﴿ ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ﴾ وطؤهم إياه لانه من دارهم ، ويعدون وطأه اعتداء عليهم واستهانة بقوتهم ، فيغيظهم أن تمسه اقدام المؤمنين او حوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم، فكيف إذا يسر الله فتحه لهم

﴿ ولا ينالون من عدو نيلا ﴾ أي ولا يبلغون من أي عدو من أعداء الله ورسوله شيئا مما أرادوا من جرح أو قتل او أسر او هزيمة او غنيمة ﴿ إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ أي كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح مرضي لله تعالى مجزي عليه بالثواب العظيم ، فما اكثر هذه الاعمال الصالحات التي تعم الامور العارضة كالجوع

والعطش ، وتشمل كل حركة من بطشة يد أو وطئة قدم ؟ ﴿ ان الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ هذا تعليل لهذا الاجر العظيم يدل على عموم الحكم ، وإن كان من المعلوم بالضرورة ان هذا الجهاد مع رسول الله ﷺ أعظم اجراً ، وأنفس ذخرا ، قال قتادة : أن حكم الآية خاص به ﷺ ومن جاهد معه ، وقال الاوزاعي وعبد الله بن المبارك وغيرهما من علماء التابعين: هذه الآية للمسلمين الى ان تقوم الساعة. وهذا القول اصح ، على مالا يخفى من التفاوت في الاجر ، فالجهاد في سبيل الله إحسان ، و (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) ؟ في كل زمان ومكان

﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ﴾ أي كذلك شأنهم فيما ينفقون في سبيل الله صغر أم كبر ، قل أم كثر ، وفي كل واد يقطعونه في سيرهم غادين أو رائحين (وهو مسيل الماء في منفرجات الجبال وأغوار الآكام ، خصه بالذكر لما فيه من المشقة) لا يترك شيء منه أو ينسى بل يكتب لهم

﴿ ليجزيهم الله ﴾ بكتابته في صحف أعمالهم ﴿ احسن ما كانوا يعملون ﴾ وهو الجهاد ، فانه عند وجوبه وفرضيته بالاستنفار له يكون أحسن الاعمال ، إذ يتوقف عليه حفظ الايمان ، وملاك الاسلام ، وجميع ما يتبعهما من فضائل الاعمال ، يقال جزاه العمل وجزاه به. كما قال (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) والنص على جزائهم احسن ما كانوا يعملون لا ينافي جزاءهم بما دونه وقد قال آنفا (ان الله لا يضيع أجر المحسنين) وهو فيه ، وانما المراد النص على أن هذا العمل أحسن أعمالهم أو من أحسنها لانه جمع بين الجهاد بالمال والجهاد بالنفس وما قبله من الثاني فقط ، والجزاء على الاحسن يكون أحسن منه على قاعدة (من جاء بالحسنة فله خير منها) وبيان ذلك بقاعدة (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)وقال بعضهم إن معنى الجملة أنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر احسن جزاء على أعمالهم الحسنة ، اي في غير الجهاد بالمال والنفس ، بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة في غيره من المبرات ، والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكثيرة فيما عداه من الاعمال الصالحات .

(١٢٢) وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً ، فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ

هذه الآية من تتمة أحكام الجهاد بالقتال، مع زيادة حكم طلب العلم والتفقه في الدين وهو آلة الجهاد بالحجة والبرهان، الذي عليه مدار الدعوة الى الايمان، وإقامة دعائم الاسلام ، وانما جهاد السيف حماية وسياج . وسببها أن ما ورد في فضل الجهاد وثوابه وفي ذم القاعدين عنه وكونه من شأن المنافقين دون المؤمنين الصادقين ، قوى رغبة المؤمنين فيه حتى كانوا إذا أراد الرسول ﷺ ارسال سرية للقاء بعض المشركين وان قلوا ينتدب لها جميع المؤمنين ويتسابقون إلى الخروج فيها، ويدعون الرسول ﷺ وحده أو مع نفر قليل كما ورد، وانما يجب هذا في النفير العام اذا وجد سببه بقدر الحاجة لا في كل استنفار لمقاومة الكفار ، على ان النفر العام قد يتعذر او تكثر فيه الاعذار ، وقيل انه لم يكن واجبا على عمومه إلا في عهده ﷺ او على الانصار بمقتضى مبايعتهم له (راجع ص ٣٠٨ ج ١٠)

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ أي ما كان شأن المؤمنين ولا مما يجب عليهم ويطلب منهم ، أن ينفروا جميعاً في كل سرية تخرج للجهاد، فان هذه السرايا من فروض الكفاية لا من فروض الاعيان ، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستنفرهم للخروج ﴿ فلولا نفرَ من كل فرقة ﴾ لولا حرف تحضيض وحث على ما تدخل عليه ، أى فهلا نفر للقتال من كل فرقة كبيرة ﴿ منهم ﴾ كالقبيلة أو أهل المدينة ﴿ طائفة ﴾ أي جماعة بقدر الحاجة ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ أي ليتأتى لهم أي المؤمنين في جملتهم التفقه في الدين بأن يتكلف الباقون في المدينة الفقاهة في الدين بما يتجدد نزوله على الرسول ﷺ من الآيات، وما يجري عليه ﷺ

من بيانها بالقول والعمل، فيعرف الحكم مع حكمته ، ويفصل العلم المجمل بالعمل به

﴿ ولينذروا قومهم ﴾ الذين نفروا للقاء العدو ﴿ اذا رجعوا اليهم ﴾ أي يجعلوا جل همهم من الفقاهة بأنفسهم ارشاد هؤلاء وتعليمهم ما علموا ، وانذارهم عاقبة الجهل، وترك العمل بالعلم ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ أي رجاء أن يخافوا الله ويحذروا عاقبة عصيانه . ويكون جميع المؤمنين علماء بدينهم قادرين على نشر دعوته ، وإقامة حجته ، وتعميم هدايته ، فهذا ما يجب أن يكون غاية العلم والتفقه في الدين والغرض منه ، لا الرياسة والعلو بالمناصب ، والتكبر على الناس وطلب المنافع الشخصيه منهم

والآية تدل على وجوب تعميم العلم والتفقه في الدين والاستعداد لتعليمه في مواطن الاقامة وتفقيه الناس فيه على الوجه الذي يصلح به حالهم ، ويكونون به هداة لغيرهم ، وان المتخصصين لهذا التفقه بهذه النية ، لا يقلون في الدرجة عند الله عن المجاهدين بالمال والنفس لاعلاء كلمة الله والدفاع عن الملة والامة . بل هم أفضل منهم في غير الحال التي يكون فيها الدفاع فرضا عينيا والدلائل على هذا كثيرة ، وما قاله بعض الاصوليين من دلالة الآية على الاحتجاج بخبر الواحد متكلف بعيد عن معنى النظم الكريم ، ومبني على أن لفظ طائفة يطلق على الواحد كاقيل وهو باطل

كنت أطلب العلم في طرابلس وكان حاكمها الاداري (المتصرف) فيها مصطفى باشا بابان من سروات الكرد ، وكان من اهل العلم والفقه في مذهب الشافعية ، وقد قال لي مرة في دارنا بالقلمون : لماذا تستثني الدولة العلماء وطلاب العلوم الدينية من خدمة العسكرية وهي واجبة شرعا وهم أولى الناس بالقيام بهذا الواجب ؟ ـ يعرض بي ـ أليس هذا خطأ لا أصل له في الشرع ؟ فقلت له على البداهة بل لهذا أصل في نص القرآن الكريم وتلوت الآية ، فاستكثر الجواب على مبتديء مثلي لم يقرأ التفسير وأثنى ودعا . وقد تعارضت الروايات المأثورة في هذه الآية فاختلفت الاقوال في تفسيرها والحق فيها ما قلنا وعليه الجمهور

أخرج أبو داود في ناسخه ، وابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (رض) قال نسخ هؤلاء الآيات (انفروا خفافا وثقالا ـ وإلا تنفروا

يعذبكم عذاباً أليما) قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) يقول لتنفر طائفة ولتمكث طائفة مع رسول الله ﷺ فالماكثون مع رسول الله ﷺ هم الذين يتفقهون في الدين وينذرون اخوانهم اذا رجعوا اليهم من الغزو لعلهم يحذرون مانزل من بعدهم من قضاء الله في كتابه وحدوده .

واخرج ابن المنذر وابن ابي حاتم وابن مردويه والبيهقي في المدخل عنه في الآية : يعني ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده ـ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعني عصبة يعني السرايا فلا يسيرون الا باذنه . فاذا رجعت السرايا وقد نزل قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ قالوا ان الله أنزل على نبيكم بعدكم قرآناً وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم ﷺ بعدهم ، ويبعث سرايا أخر ، فذلك قوله (ليتفقهوا في الدين) يقول يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم ويعلمونه السرايا إذا رجعت اليهم (لعلهم يحذرون)

فاما قوله في الرواية الأولى بان هذه الآية نسخت آيات النفير العام فهو قد يوافق إطلاق السلف في النسخ ومنه عندهم تخصيص العام وتقييد المطلق ، ولا يصح هنا النسخ المصطلح عليه في اصول الفقه ، لان موضع النفر الخاص غير موضع النفير العام ، فلا تنافي بين الاحكام . وبهذا يقول جمهور العلماء

وأخرج ابن جرير عن الحسن البصري انه جعل الضمير في قوله تعالى (ليتفقهوا في الدين) للطائفة التي تنفر للغزو لا للتي تبقى مع النبي ﷺ في المدينة وذلك قوله : ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم . وزعم الطبري ان هذا القول أولى بالصواب ، واوضح ذلك بأن هذه الطائفة النافرة تتفقه بما تعاين من نصر الله اهل دينه وأصحاب رسوله على أهل عداوته والكفر به فيفقه بذلك من معاينة حقيقة علم أمر الاسلام وظهوره على الاديان من لم يكن فقهه (ولينذروا قومهم) فيحذروهم أن ينزل بهم من بأس الله مثل الذي نزل بمن شاهدوا ممن ظفر بهم المسلمون من اهل الشرك (إذا) هم (رجعوا اليهم) من غزوهم (لعلهم يحذرون) يقول لعل قومهم إذا هم حذروهم ما عاينوا من ذلك يحذرون فيؤمنون بالله ورسوله حذراً ان ينزل بهم ما نزل

بالذين أخبروهم خبرهم اه وهذا تاويل متكلف ينبو عنه النظم الكريم فان اعتبار طائفة السرية بما قد يحصل لها من النصر ـ وهو غير مضمون ولا مطرد ـ لا يسمى تفقها في الدين وإن كان يدخل في عموم معنى الفقه ، فان التفقه هو التعلم الذي يكون بالتكلف والتدرج والمتبادر من الدين علمه . ولا يصح هذا المعنى في ذلك العهد إلا في الذين يبقون مع النبي ﷺ فيزدادون كل يوم علما وفقها بنزول القرآن كما تقدم آنفا في تفسير (وأجدر أن لا يعلموا حدود ما انزل الله) وما يأتي قريبا فيما ينزل من السور فيزداد به الذين آمنوا إيمانا . واخذ بعضهم من قول الحسن أنه يشمل السفر لاجل طلب العلم لما في الرحلة من اسباب زيادة الاستفادة بالانقطاع للعلم ولقاء اساطينه ، وعلل بعضهم فضيلة السياحة بذلك كما تقدم قريبا

وقد بينا معنى الفقه في عرف اللغة واستعمال القرآن ، وانه اخص من العلم بفروع الاحكام ، وحققناه بشواهد الآيات في تفسير (٧ : ١٧٩ لهم قلوب لا يفقهون بها) — (صفحة ٤٢٠ ج ٩ تفسير)

---

(١٢٣) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ

اعلم أن هذه الآية قاعدة من قواعد القتال الذي نزلت أهم قواعده وأحكامه في هذه السورة والتي قبلها ، وانما وضعت ههنا على سنة القرآن في تفريق الموضوع الواحد الكثير الاحكام في مواضع متفرقة وبينا حكمته آنفاً عوداً على بدء

﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ اي الذين يدنون منكم وتتصل بلادهم ببلادكم ، وذلك أن القتال شرع لتأمين الدعوة إلى الاسلام وحرية الدين والدفاع عن أهله ، وقد كانت الدعوة موجهة الى الاقرب فالاقرب من الكفار كما قال تعالى لرسوله (لتنذر ام القرى ومن حولها) وقال لاهل مكة (واوحي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) اي وكل من بلغته دعوته. بل أمره أن يخص

الاقرب اليه في النسب من اهل بلده ام القرى فقال (وانذر عشيرتك الاقربين)
أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال : كان الذين يلونه من الكفار العرب فقاتلهم حتى فرغ منهم - وعن قتادة قال : الادنى فالادنى - وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر انه سئل عن غزو الديلم فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) قال « الروم » اهـ يعني ان الروم هم المراد بالكفار في الآية لانهم كانوا عند نزولها في هذه السورة بعد الفراغ من أمر يهود المدينة وخيبر هم الذين يلونهم في تبوك وسائر بلاد الشام

وترجيح البدء بالاقرب فالاقرب معقول من وجوه كثيرة كالحاجة والامكان والسهولة والنفقة ، ولذلك كانت القاعدة فيه عامة في الدعوة والقتال والنفقات والصدقات ، وكذا ما يدار في المجالس من شراب ونحوه فكان ﷺ يعطي من على يمينه وإن لم يكن افضل الجالسين ثم الذي يليه فالذي يليه ، وأمر بان يأكل الانسان مما يليه . وانما تطرد القاعدة في الحالة العادية . وأما ما يعرض من ضرورة في كل ذلك فله حكمه فاحكام الضرورات مستثناة في الواجبات والمحرمات والآداب .

﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي وليجدوا فيكم شدة وخشونة في القتال ومتعلقاته كما تقدم في تفسير آية (٧٣ يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) (ص ٥٤٩ ج ١٠) والغلظة على المقاتلين في زمن الحرب من مقتضيات الطبيعة والمصلحة وتنكيرها في الآية يدل على ان لأولي الامر أن يحددوها في كل زمن وكل حال بما يتفق مع المصلحة ، وانما أمروا بها على كونها طبيعية لتقييد ما أمروا به في الاحوال العامة من الرفق والعدل والبر في معاملة الكفار حتى صار ذلك من أخلاق الاسلام . وامر القتال مبني على الشدة والغلظة في كل الامم وقد حرم فظائعها الاسلام كما تقدم في تفسير سورة الانفال. وقد بلغت فظائعها عند الافرنج في هذا العصر ما يخشى ان يفضي الى تدمير العمران كله ﴿ واعلموا ان الله مع المتقين ﴾ له في مراعاة أحكامه وسننه بالمعونة والنصر ، وأهمها ما يجب اتقاؤه في الحرب ، من التقصير في أسباب النصر والغلب ، التي بينها في كتابه ، والتي تعرف بالعلم والتجارب ، كاعداد ما يستطاع من قوة ، والصبر والثبات ، والطاعة والنظام ،

وترك التنازع والاختلاف، وكثرة ذكر الله، والتوكل عليه فيما وراء الاسباب.
وقد بينا حقيقة معنى التقوى وانواعها واختلاف المراد منها باختلاف مواضعها في تفسير (٨ : ٢٩ ص ٦٤٨ ج ٩)

(١٢٤) وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٥) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ (١٢٦) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٧) وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ : هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ، صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ

هذه الآيات الاربع آخر مانزل في المنافقين، وتأثير نزول القرآن فيهم وفي المؤمنين، ومن قام الدليل على اليأس من ايمانهم، واخبار الله بموتهم على كفرهم

﴿ وإذا ما أنزلت سورة ﴾ كلمة «ما» بعد «إذا» تفيد التأكيد لمضمون شرطها، يعني واذا تحقق انزال الله تعالى على رسوله سورة من القرآن ﴿ فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ﴾ أي فمن المنافقين من يتساءل مع اخوانه للاختبار، او مع من يلقاه من المسلمين كافة للتشكيك، قائلا أيكم زادته هذه السورة إيمانا؟ أي يقيناً بحقية القرآن والاسلام، وصدق الرسول ﷺ فان في كل سورة من القرآن آيات على صدقه ﷺ بما فيها من ضروب الاعجاز العامة الدالة على أنها من عند الله تعالى، وكون محمد ﷺ لا يستطيع ان يأتي بمثلها من تلقاء نفسه، فالسؤال عن الايمان باصل الاسلام وصدق الرسول (ص) في تبليغه عن الله عز وجل. وهو التصديق الجازم المقترن باذعان النفس وخضوع الوجدان الذي يستلزم العمل،

لا مجرد اعتقاد صدق الخبر، الذي يقابله اعتقاد كذبه، فان أشد الناس كفراً اولئك المصدقون الجاحدون الذين قال الله لرسوله فيهم (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) ومثله قوله (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) ولا شك ان الايمان بمعناه الذي قلناه يزيد بنزول القرآن في عهد الرسول وناهيك بمن يحضر نزوله عليه ويسمعه منه، وكذا يزيد بتلاوته وبسماعه من غيره أيضاً ثباتا في قلب المؤمن وقوة اذعان، وصدق وجدان، ورغبة في العمل والقرب من الله. قال الله تعالى في جواب هذا السؤال وهو العليم الخبير ﴿ فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا ﴾ فاثبت تعالى للمؤمن زيادة الايمان بزيادة نزول القرآن وهو يشمل الزيادة في حقيقته وصفته من اليقين والاذعان واطمئنان القلب، وفي متعلقه وهو ما في السورة من مسائل العلم، وفي أثره من العمل والتقرب إلى الرب. وانما يتساءل المنافقون عن الاول وهو الذي يفقدونه، وإنما غيره تابع له. ﴿ وهم يستبشرون ﴾ أي والحال انهم يسرون بنزولها وتستدعي زيادة الايمان في قلوبهم البشرى والارتياح بما يرجون من خير هذه الزيادة بتزكية أنفسهم، وأثر ذلك في أعمالهم في الدنيا والآخرة

﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض ﴾ اي شك وارتياب، يدعو إلى النفاق باسرار الكفر واظهار الاسلام ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ اي كفراً ونفاقا مضموما إلى كفرهم ونفاقهم السابق الذي هو اقذر الرجس النفسي وشر انواعه ﴿ وماتوا وهم كافرون ﴾ اي واستحوذ ذلك عليهم ورسخ فيهم، فكان مقتضى سنة الله تعالى في تأثير الاعمال في صفات النفس ان من مات منهم مات على كفره، وسيموت من بقي منهم وهم متلبسون بالكفر. وهاك الدليل على ذلك:

﴿ أو لا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ﴾ الاستفهام لتقرير مضمون الحكم عليهم والحجة عليه وهو داخل على فعل محذوف للعلم به من المقام، والمعنى أيجهلون هذا ويغفلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاما بعد عام من تكرار الفتون والاختبار، الذي يظهر به استعداد الانفس للايمان او الكفر، والتمييز بين الحق والباطل،

كالآيات الدالة على صدق الرسول ﷺ في كل ما اخبر به من نصر الله له ولمن اتبعه ، وخذلان اعدائه من الكفار والمنافقين ووقوع ما انذرهم ، ومن إنباء الله رسوله بما في قلوبهم، وفضيحتهم بما يسرون من اعمالهم، كما فصل في هذه السورة وذكر بعضه في غيرها — وقرأ حمزة ويعقوب (او لا ترون) على ان الخطاب للمؤمنين الذين قد يروعهم الخبر المؤكد وقوعه بموتهم على كفرهم ، كأنه يقول أتعجبون من الحكم عليهم بهذه العاقبة السوءى ولا ترون الدلائل الدالة عليها من فتنتهم وابتلائهم المرة بعد المرة سنة بعد سنة ، بما من شأنه ان يذهب بشكهم ويشفي مرض قلوبهم، من آيات الله فيهم وفي غيرهم ﴿ ثم لايتوبون ولا هم يذكرون ﴾ أي ثم تمر الاعوام على ذلك ولا يتوبون من نفاقهم ، ولا يتعظون بما حل بهم مما أنذرهم الله تعالى به ، وهل بعد هذا من برهان على انطفاء نور الفطرة والاستعداد للايمان أقوى من هذا ؟ ان كان وراءه برهان أقوى منه فهو أنهم يفرون من العلاج الذي من شأنه أن يشفيهم من مرض قلوبهم وهو ما أكد به ماقبله بقوله:

﴿ واذا ما انزلت سورة نظر بعضهم الى بعض ﴾ هذا بيان لحال المنافقين الذين كانوا يكونون في مجلس الرسول (ص) عند نزول سورة وما يكون من فعلهم وقولهم عند تلاوته لها ، وما قبلها في بيان حالهم اذا بلغهم نزول سورة من حيث البحث عن تأثيرها ، وقد يقال ان الاولى تشمل من سمع منه ومن بلغ عنه ، والعبرة بموضوعها ، لا بطريقة العلم بها ، وان هذه أدل على رسوخهم في الكفر وعدم الطمع في رجوعهم عنه ، باثباتها انهم يكرهون سماع القرآن من الرسول ﷺ وهو اشد تأثيراً من سماعه من غيره في الهداية ، ولذلك كان المشركون يمنعونه من تلاوته على الناس لئلا يهتدوا بسماعه منه، فان لم يتمكنوا من اسكاته اعرضوا عن سماعه ولغوا فيه . ومنعوا صاحبه الصديق أيضا من الصلاة في المسجد الحرام ثم من مسجده الخاص لما رأوا النساء والصبيان يجتمعون لسماع القرآن منه ويتأثرون بخشوعه فيه ؛ يقول : واذا انزلت سورة وهم في المجلس تسارقوا النظر، وتغامزوا بالعيون، على حين تخشع ابصار المؤمنين ، وتنحني رءوسهم ، وتجب

قلوبهم، وترامقوا بالعيون يتشاورون في الانسلال من المجلس خفية لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من الانكار والسخرية بالوحي، قائلا بعضهم لبعض بالاشارة او العبارة: ﴿ هل يراكم من احد ﴾ أي من الرسول والمؤمنين اذا نحن انصرفنا كارهين لسماعها ﴿ ثم انصرفوا ﴾ يتسللون لواذاً الى مجامعهم الخاصة بهم، والتعبير بثم لبيان تراخي فعلهم عن وقت قولهم، الى سنوح فرصة الغفلة عنهم ولو افرادا، فكلما لمح احد منهم غفلة من المؤمنين عنه انصرف ﴿ صرف الله قلوبهم ﴾ هذه الجملة تحتمل الدعاء والخبر ومضمونهما النهائي في كلام الله واحد كما تقدم نظيره قريبا. والمعنى صرف الله قلوبهم عن صدق الايمان، والاهتداء بآيات الله في القرآن، المرشدة الى آياته في الاكوان ﴿ بانهم قوم لا يفقهون ﴾ اي بسبب انهم قوم فقدوا صفة الفقاهة الفطرية وفهم الحقائق وما يترتب عليها من الاعمال، لعدم استعمال عقولهم فيها، فهم لا يفقهون ما يسمعون من هذه الآيات لعدم تدبرها، والاعراض عن النظر والتأمل في معانيها، وموافقتها للعقل، وهدايتها الى الحق والعدل، ذلك بانهم اتخذوا انفسهم اعداء وخصوما للرسول، فوطنوا انفسهم على الاعراض عن كل ماجاء به من غير بحث ولا تأمل فيه أمعقول ام غير معقول؟ احق ام باطل؟ اخير ام شر؟ اهدى ام ضلال، انافع ام ضار؟ فأنى يرجى لهم وهذه حالهم ان يهتدوا بتعدد نزول الآيات والسور؟ انما مثلهم كمثل اعداء الاسلام من اهل الملل التي جروا على نظام تعليمي وتربية وجدانية عملية في عصبيتهم الدينية والقومية وارتباط منافعهم الاجتماعية والسياسية بها: لقنهم رؤساؤهم انه يوجد دين اسمه الاسلام بني أساسه على عداوتكم لذاتكم، فيجب عليكم أن لا تنظروا فيه إلا أن يكون للبحث عن مطعن ولو متكلف تلمزونه به، ولا تفكروا في شيء من حال أهله في دينهم ودنياهم إلا للعداوة والتحقير لهم، وتدبير المكايد للعدوان عليهم، واذا ظهر لكم شيء حسن من دينهم فوجهوا كل قواكم العقلية وبلاغتكم الكلامية الى تشويهه وذمه والصد عنه، وهذا ما يفعله رجال الكنائس النصرانية على اختلاف مذاهبهم كما بيناه في غير هذا الموضع

ومن المباحث الكلامية في الآيات الخلاف في زيادة الايمان ونقصه،

على مذهبين في اثبات ذلك ونفيه ، وجمهور السلف من الصحابة والتابعين وحفاظ السنة على الاثبات . وهذه المسألة من اغرب مسائل عصبيات المذاهب عند النظار الجدليين ومقلديهم ، وما كان ينبغي لمسلم أن يجعل هذا موضع خلاف لبحث بعض من ينتسب اليهم في مفهوم لفظ الايمان الذي يتحقق باعتقاده الدخول في الملة هل يقبل الزيادة والنقصان في ذاته؟ أم المراد من هذه الآية وما في معناها متعلق الايمان من العقائد والاحكام التي كانت تشتمل عليها السورة ؟ واستبعاد ان يكون التصديق الذي يكون به الكافر مؤمنا قابلا للزيادة والنقصان ، وهي نظرية باطلة ، وقد بينا معنى الآية بما يدل على ان قصر زيادة الايمان فيها على التصديق بزيادة العلم بما تضمنته باطل ، لأن هذا بديهي لا يمكن ان يكون هو الذى سال عنه المنافقون ، ونصوص القرآن الكثيرة صريحة في زيادة الايمان ونقصه ، وكذلك الاحاديث الصحيحة التي صرح فيها الرسول ﷺ بأن اقل الايمان وهو المنجي من الخلود في النار كالذرة او الخردلة من الايمان الكامل الذي لا يمس اهله من عذاب النار شيء ، كالذين وصفهم الله بقوله (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الخ وقوله (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) الخ

والتحقيق ان اليقين في الايمان وغيره له درجات متفاوتة في القوة والضعف. واليقين الذي يصح به الايمـان هو اليقين اللغوي وهو الاعتقاد الجازم في غـير الحسيات والضروريات كما بيناه في مواضع اولهـا تفسير (٢ : ٣ وبالآخرة هم يوقنون) وهو درجات ، منها التقليد الجازم ومنها المعلوم بالنظر والاستدلال ، وقد يطرأ عليهما الشك والزوال ، ولولا ذلك ما تصور ارتداد مؤمن عن دينه ، ومنها مايصير وجدانا ضروريا بشرح الصدر ، والنور الالهي بكثرة الذكر والفكر والعبادة ،

وأما اليقين المنطقي العلم القطعي بالبرهان بأن هذا الشيء كذا مع العلم القطعي باستحالة ان يكون غير كذا ، فهو هو الذي قالوا انه لا يقبل الزيادة والنقصان ، ولـكنه نادر الوقوع في غير الضروريات ولا تتوقف عليه صحة الايمان ، ومع هذا يمكن ان يقال انه قابل للزيادة في وصفه وطمأنينة القلب به ، وفي ترتب آثاره عليه . ومثال الاول أن ترى شبحا في سدفة الفجر فتعلم انه انسان في انتصاب قامته ثم

تزداد علما به كلما انتشر الضياء حتى يكون العلم به تفصيليا. والبرهان المنطقي المفيد لهذا اليقين عندهم لاتكون مقدماته النظرية في درجة الضروريات قوة وثباتا. وقد قسم بعضهم اليقين الى ثلاث درجات علم اليقين وهو مايعلم بالدليل، وعين اليقين وهو مايكون بالمشاهدة والكشف، وحق اليقين وهو مايكون بالذوق والوجدان. ومثل لها بعضهم بالفناء عند الصوفية، وبعضهم بالموت، فكل أحد عنده علم اليقين بأنه يموت فاذا عاين ملائكة الموت عند الحشرجة وقبل قبض الروح كان عين اليقين، فاذا مات بالفعل وصل الى درجة حق اليقين، لكن هذه الدرجة وماقبلها لا يتعلق بهما التكليف.

---

(١٢٨) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

ختم الله تعالى هذه السورة بهاتين الآيتين اللتين قال أبي بن كعب (رض) انهما آخر مانزل وبينا في الكلام على السورة قبل الشروع في تفسيرها مايعارضه وسنحقق المسألة بعد الفراغ من تفسير الآيتين

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ جمهور المفسرين على ان الخطاب هنا للعرب فهو في معنى قوله (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم) فالمنة به (ص) على قومه أعظم، والحجة عليهم به وبكتابه أنهض، وأخص قومه به قبيلته قريش فعشيرته الاقربون بنو هاشم وبنو المطلب، ولو لم يؤمن به وبكتابه العرب لما آمن العجم، وهو مبعوث إلى جميع الناس كما تقدم في قوله (٧:١٥٨ قل ياأيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا) ولكنه وجه دعوته الى الاقرب فالاقرب على القاعدة التي بيناها آنفا في قتال الاقرب فالاقرب، فالعرب آمنوا بدعوته مباشرة والعجم آمنوا بدعوة العرب، العرب آمنوا بفهم القرآن وبيانه ﷺ له بالتبليغ والعمل، وبما شاهدوا من آيات الله تعالى في شخصه، والعجم آمنوا بدعوة العرب وما

شاهدوا من عدلهم وفضائلهم ، ثم بدعوة بعضهم لبعض بعد انتشار الاسلام فيهم ؛

وقال الزجاج: ان الخطاب للعالم كله لعموم بعثته فيكون بمعنى ما يأتي في أول السورة التالية (أكان للناس عجباً أن أوحينا الى رجل منهم) الخ ولكن آية اول سورة يونس هذه في الرد على منكري كون البشر رسولا من الله وهو المحكي عن جميع كفار الامم ، وآية آخر سورة براءة في امتنان الله عز وجل على من أرسل اليهم الرسول من أنفسهم وصميم قومهم ، لتأييد الحجة بالمنة ، والترغيب في اجابة الدعوة ، فان من طبع كل قوم حب الاختصاص بالفضل والشرف على غيرهم ، كما قال تعالى في امتنانه عليه بالقرآن المجيد (وانه لذكر لك ولقومك) أي شرف لك ولهم ، تذكرون به في العالم ، ويدوّن لكم في التواريخ ، وانما قاومه وعانده أكابر قومه حتى من بني هاشم انفة واستكباراً عن اتباعه وهم يرونه دونهم ، ولما يتضمن اتباعه من الاقرار بكفرهم وكفر آبائهم وأجدادهم الذين يفاخرون بهم ، مع عدم ثقتهم بفوزه وبأنهم ينالون باتباعه من مجد الدنيا فوق ما كانوا عليه بمسافات تطاول السماء رفعة وشرفاً ، دع ما هو فوق مجد الدنيا من سعادة الآخرة ، ثم انهم صاروا يفتخرون بكونه صلى الله عليه وسلم منهم ، بأكثر مما يبيحه دينه لهم ، حتى صار أقربهم يتكل على نسبه فيقصر في العلم والعمل ، وقد أكد تعالى هذه المنة الخاصة بوصفه هذا

الرسول بقوله ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ الخ العنت المشقة ولقاء المكروه الشديد وقيده الراغب بما يخاف منه الهلاك ، وعز على فلان الأمر: ثقل واشتد عليه ، وقالوا هو كناية عن الأنفة عنه ، وما مصدرية - أي شديد على طبعه وشعوره القومي عنتكم لانه منكم ، وهذا يشمل ما يكون في الدنيا وما يكون في الآخرة ، فلا يهون عليه أن يكونوا في دنياهم أمة ضعيفة ذليلة يعنتها أعداؤها بسيادتهم عليها وتحكمهم فيها ،

ولا أن يكونوا في الآخرة من أصحاب النار ﴿ حريص عليكم ﴾ الحرص شدة الرغبة في الحصول على المفقود ، وشدة العناية بحفظ الموجود ، وكان (ص) حريصا على اهتداء قومه به بايمان كافرهم وثبات مؤمنهم في دينه كما قال تعالى له (١٦: ٣٧ إن تحرص على هداهم) الآية وقال (١٢: ١٠٣ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)

﴿ بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ أي شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين فكل مايدعوهما اليه من العمل بشرائع الله تعالى فهو دليل على ثبوت هذه الصفات الكاملة والعواطف السامية له ﷺ بنص الله تعالى وهو أرحم بالمؤمنين وأرأف ، وكل شاق منها كالجهاد فهو منجاة مما هو أشق منه ، ولا شيء من الشاق منها ببالغ حد العنت ، للقطع في هذا الدين بنفي العسر والحرج .

وصف الله تعالى رسوله بصفتين من صفاته العلى ، وسماه باسمين من أسمائه الحسنى ، بعد وصفه بوصفين هما أفضل نعوت الرؤساء والزعماء المدبرين لأمور الامم بالحق والعدل والفضل ، وفي الصحاح والقاموس ان الرأفة أشد الرحمة . وجعلهما بعض اللغويين والمفسرين بمعنى واحد. وقال بعضهم ان الرأفة أخص لاتكاد تقع في الكراهية ، والرحمة قد تقع في الكراهية للمصلحة ، واختار الرازي انها مبالغة في رحمة مخصوصة من دفع المكروه وإزالة الضرر . وقال أستاذنا انها لا تستعمل إلا في حق من وقع في بلاء ، اختياراً لقول الرازي (ص١٢ج٢ تفسير) وأصح منه انها تستعمل في مكان الضعف والشفقة والرقة كقولهم رأف بولده وترأف به. وتقديمه على الرحيم هو الواجب كأنه قال رءوف بضعفاء المؤمنين وأولي القربى منهم ، ورحيم بهم كلهم وتخصيص رأفته ورحمته (ص) بالمؤمنين ، في مقابلة ماأمر به من الغلظة على الكفار والمنافقين ، لايعارض كون رسالته رحمة للعالمين ، كما هو ظاهر ، فان هذه الرحمة مبذولة لجميع الامم لعموم بعثته (ص) ولكن منهم من قبلها ومنهم من ردها ، وقد بينا في تفسير (واغلظ عليهم) انه انما أمر بذلك صلوات الله تعالى عليه لان الغالب على طبعه الشريف الرقة والرحمة والادب في المقابلة والمعاشرة . وقد قال تعالى (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك)

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس (رض) في الآية (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي (ص) مضريها وربيعيها ويمانيها . يعني ان نسبه متشعب في جميع قبائل العرب وبطونها . وعنه في (عزيز عليه ماعنتم) قال شديد عليه ماشق عليكم (حريص عليكم) أن يؤمن كفاركم .

ومن القراءة الشاذة في الآية قراءة (أنفسكم) بفتح الفاء من النفاسة رواها ابن مردويه من حديث علي مرفوعا وقرأ بها ابن عباس والزهري وابن محيصن ورويت عن الامام جعفر الصادق عن ابيه الامام محمد الباقر ، وهي خبر واحد لا يثبت بها القرآن، وفيها ان المعهود في فصيح الكلام ان النفيس والانفس مما يوصف به الاشياء لا الاشخاص

﴿ فان تولوا فقل حسبي الله ﴾ هذا التفات عن خطاب أمة الرسول او قومه الذين امتن الله تعالى عليهم بمجيئه رسولا اليهم من انفسهم وبفضائله العائدة عليهم، إلى خطابه ﷺ وبيان مايجب عليه في حال إعراضهم عن الاهتداء والانتفاع بما خاطبهم به ربهم في شأنه . يقول : فان تولوا وانصرفوا عن الايمان بك والاهتداء بما جئتهم به، فقل حسبي الله أي هو حسبي الذي يكفيني أمر توليهم وإعراضهم، وما يعقبه من عداوتهم لي وصدهم عن سبيله وقد بلغت وما قصرت ﴿ لا اله الا هو ﴾ أي لا معبود غيره ألجأ اليه بالدعاء والاستعانة كما يلجئون إلى آلهتهم المنتحلة ﴿ عليه توكلت ﴾ وحده ، فلا أكل أمري فيما اعجزعنه إلى غيره ، وكيف لا اخصه بالتوكل ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ الذي هو مركز تدبير أمور الخلق كلها كما قال الآية الثالثة من السورة التالية (ثم استوى على العرش يدبر الامر) قرأ جمهور القراء العظيم بالخفض على انه صفة للعرش . وقرىء بالرفع على انه صفة لرب ، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير . وعظمة العرش بعظمة الرب الذي استوى عليه ، وعظمة الملك الكبير الذي هو مركز تدبيره ووحدة النظام فيه ، وعظمتهما في الملأ الأعلى وفيما دونه هي المظهر الوجودي لعظمة هذا الرب التي لا تحد ، ولا يدرك كنهها احد ، ودليل على انه الاله الحق الذي لا يصح أن يعبد غيره ولا يتوكل على سواه ، وكيف يعبد غيره بالدعاء أو غيره أو يتوكل على سواه من يعلم أنه هو الرب المالك للعالم كله والمدبر لاموره . ويراجع هنا تفسير (٨ : ٦٤ يا أيها النبي حسبك الله) [في ص ٧٤ ج ١٠] وفسر بعضهم العرش هنا

بالملك (بالضم) لانه يطلق عليه تجوزا ،وهو خطأ منهم لان هذا التجوز لا مسوغ له ، ولا يصح في كل الآيات التي ورد فيها اللفظ ، والمعنى الحقيقي أبلغ منه وأعم، فانه يدل على المعنى المجازي وزيادة إذ ليس لكل ملك في الارض عرش حقيقي هو المركز الوحيد لتدبير كل شيء فيه . فالعرش العظيم يدل على الملك العظيم وعلى وحدة النظام والتدبير فيه ، ولفظ: الملك العظيم لايدل على هذا، لاحتمال وجود الخلل فيه وكون تدبيره ليس له مرجع وحدة تكفل النظام ، وتمنع الخلل والفساد ، ونظار المتكلمين ومفسروهم يتأولون العرش والاستواء عليه فراراً من التشبيه الذي يستلزمه بزعمهم المبني على قياس عالم الغيب على عالم الشهادة ،وقياس الخالق على المخلوق ، وهو قياس باطل باجماعهم ، وقال ابن عباس سمي العرش عرشا لارتفاعه ، وفي الدر المنثور روايات في وصف العرش ومادته هي من الاسرائيليات لا يصح فيها شيء مرفوع .

ونختم تفسير الآيتين بتحقيق مسألتين ذكرنا في تفسيرهما المأثور ولم نر احدا حققهما:

﴿ الاولى ماورد في كتابة الآيتين عن النبي ﷺ وكونهما آخر مانزل ﴾

إن معنى هاتين الآيتين لايظهر إلا في دعوته ﷺ الى الاسلام بمكة في أول زمن البعثة . وقد ذكرت في الكلام على هذه السورة قبل البدء بتفسيرها ان ابن أبي الفرس قال انهما مكيتان،وأنه يرد قوله ماورد من انهما آخر مانزل من القرآن، ثم ذكرت هنالك أصح ماورد في آخر مانزل من القرآن وهو غير هاتين الآيتين .

وأقول الآن إن قول ابن أبي الفرس هو الوجيه من جانب المعنى فهو يؤيد الرواية وأما القول بأنهما آخر ما نزل فقد أخرج في بعض المسانيد والتفاسير المأثورة عن أبي بن كعب بألفاظ متقاربة (منها) عن ابن عباس عنه : ان آخر آية أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وفي لفظ ان آخر ما انزل من القرآن (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الخ الآية (ومنها) عن الحسن عنه انه كان يقول : إن احدث القرآن عهداً بالله ــ وفي لفظ بالسماء ــ هاتان الآيتان (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الخ السورة (ومنها) من طريق أبي العالية عنه انهم جمعوا القرآن في مصحف في

خلافة أبي بكر فكان رجال يكتبون ويملّ عليهم أبي بن كعب حتى انتهوا الى هذه الآية من سورة براءة (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) فظنوا ان هذا آخر ما نزل من القرآن فقال أبي بن كعب ان النبي ﷺ قد أقرأني بعد هذا آيتين (لقد جاءكم ـ الى ـ رب العرش العظيم) قال فختم الامر بما فتح به: بلا إله الا الله. اه وهو صريح في انهما آخر ما نزل من هذه السورة، لا من القرآن مطلقا الا اذا صح أن سورة براءة آخر سورة نزلت والصحيح في الرواية أن آخر ما نزل من السور سورة النصر ومن الآيات (٢٨١:٢ واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله) كما تقدم في محله

وفي حديث زيد بن ثابت في جمع القرآن المكتوب الذي كان متفرقا في عهد أبي بكر عند ابن سعد وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم ـ انه قال : حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت الانصاري لم أجدهما مع احد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الى آخرهما اه والمراد انه لم يجدهما مكتوبتين عند ما جمع المكتوب في الرقاع والاكتاف والعسب في هذه السورة إلا عند خزيمة ، وفي رواية في البخاري وغيره عند ابي خزيمة وهي أرجح كما سيأتي ، الا ان تكونا وجدتا عند كل منهما ـ وكانتا محفوظتين معروفتين للكثيرين كما صرح به في الروايات الأخرى. فقد أخرج ابن اسحاق واحمد وابن أبي داود في المصاحف عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال :أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة (لقد جاءكم رسول ـ الى قوله ـ وهو رب العظيم) الى عمر فقال من معك على هذا ؟ فقال : لا أدري والله الا اني اشهد لسمعتهما من رسول الله ﷺ ووعيتهما وحفظتهما ،فقال عمر وأنا اشهد لسمعتهما من رسول الله ﷺ لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن فألحقوها بها ، فألحقت في آخر براءة .وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ان رجلا من الانصار جاء بهما عمر فقال عمر لا أسألك عليها بينة ابداً كذلك كان رسول الله ﷺ يقرأها

وأخرج ابن ابي داود في المصاحف ان خزيمة بن ثابت جاء عثمان حين تصدى لكتابة القرآن بعد مقتل عمر فقال اني رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما ، فقالوا ما هما ؟ قال تلقيت من رسول الله ﷺ (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز

عليه ما عنتم) الخ السورة . فقال عثمان : وأنا أشهد انهما من عندالله فأين ترى ان نجعلهما؟ قال اختم بهما آخر ما نزلت من القرآن فختمت بهما براءة

فيؤخذ من مجموع الروايات ان الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين الا انهم اختلفوا في موضعهما ، ففي بعضها انهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبي ﷺ ، وفي بعضها انهما وضعتا بالرأي والاجتهاد ، والمعتمد الاول قطعا لان من حفظ التوقيف حجة على من لم يحفظ . والظاهر ان سبب الاختلاف في موضعهما ان موضوعهما يدل على انهما مكيتان ، ولم تصح لجماعة جامعي المصحف رواية بكتابتهما في إحدى السور المكية ، ولكن وجدتا عند أبي خزيمة مكتوبتين في آخر براءة . وفي الصحيح ان زيد بن ثابت - الذي كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ وهو الذي امره أبو بكر بجمع القرآن مع آخرين وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون . قال : فوجدت آخر براءة مع خزيمة بن ثابت او ابي خزيمة . بالشك وهو من الراوي لا من زيد ، وفي رواية عنه مع خزيمة ، والتحقيق الذي قرره الحافظ ابن حجر ان آخر التوبة وجد عند ابي خزيمة ، وأما الذي وجد مع خزيمة فهو آية الاحزاب . وذلك ما رواه البخاري في تفسير سورتها عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الاحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم اجدها مع احد الا مع خزيمة الانصاري الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين من المؤمنين (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) قال الحافظ في شرحه : هذا يدل على أن زيداً لم يكن يعتمد في جمع القرآن على علمه ولا يقتصر على حفظه . لكن فيه إشكال لان ظاهره انه اكتفى مع ذلك بخزيمة وحده والقرآن انما يثبت بالتواتر . والذي يظهر في الجواب ان الذي اشار اليه انه فقده فقد وجودها مكتوبة لا فقد وجودها محفوظة ، بل كانت محفوظة عنده وعند غيره ، ويدل على هذا قوله في حديث جمع القرآن « فجعلت أتتبعه من الرقاع والعسب كما سيأتي مبسوطا في فضائل القرآن اه

وأقول انني قد ذكرت آنفا ان هذا هو المراد منه وهو ما كنت افهمه دون غيره وأجيب به من سألني عنه مستشكلا . فقول الحافظ : والذي يظهر الخ

كان يجب أن يكون : والذي يتعين القطع به كذا ؛ وحسبك دليلا على هذا انه قال انهم كانوا يسمعون رسول الله ﷺ يقرؤها فهو صريح في أن البحث كان عمن كتبها فقط. وجملة القول ان الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين ومعروفتين لكثير من الصحابة وانما اختلفوا عند الجمع في موضع كتابتهما حتى شهد من شهد ان النبي ﷺ هو الذي وضعهما في آخر سورة براءة وفاقا لقول أبي بن كعب الذي ثبت في الصحيح أنه أحد الذين تلقوا القرآن كله مرتبا عن النبي ﷺ وكذا زيد بن ثابت . وكان عدد المختلفين في موضعهما قليلا فلما كتبتا في المصاحف وافق الجميع على وضعهما ههنا ، ولم يرو أي اعتراض على ذلك عمن كتبوا لانفسهم مصاحف اعتمدوا فيها على حفظهم كابن مسعود (رض)

بقي البحث في حكمة وضعهما في آخر هذه السورة المدنية وموضوعهما مكي يؤيده كون الخطاب فيهما لقومه ﷺ على ماجزم به جماهير المفسرين، وماهما بأول ما وضع من الآيات المكية في السور المدنية لمناسبة اقتضت ذلك . واما الحكمة في ذلك ان يفيدا بموضعهما صحة الخطاب بهما لكل من تبلغه الدعوة من أمة الاجابة ، وهو ماذهب إليه الخطابي، كما دل موضوعهما ونزولهما بمكة _ كما قال ابن أبي الفرس _ على كون الخطاب فيهما لقومه ﷺ وهو ماجزم به الجماهير. ويكون ماقلناه جامعا بين الاقوال كلها

(طهارة نسبه ﷺ وفضل قومه واصطفاؤه من خيارهم)

من المأثور في تفسير الآيتين ما ذكروا في قوله تعالى (رسول من أنفسكم) من الاحاديث المرفوعة في طهارة نسبه ﷺ من سفاح الجاهلية ومن فضل قومه وعشيرته وعترته واهل بيته على غيرهم. وأصح ماورد في هذا مارواه مسلم والترمذي من حديث واثلة (رض) مرفوعا « ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » ولم أر لاحد من العلماء بيانا لمعنى هذا الاصطفاء بم كان ؟ وقد وفقني الله لاستنباطه من التاريخ العام، وبينته في المنار وفي خلاصة السيرة المحمدية في

جواب السؤال عن حكمة بعثة خاتم النبيين، بالرسالة العامة للناس أجمعين ، بالدين العام للبدو والحضر ـ من العرب الذين غلبت عليهم جهالة البدو ، وبعد عهدهم بما سبق لامتهم من الحضارة والعلم ، ولم يبعث من بعض شعوب الحضارة القريبة كالفرس والروم والهند والصين ، ويليه السؤال عن مزية كنانة في العرب من آل اسماعيل، الذين امتازوا على سائر العرب بانهم ممن اصطفى الله من آل ابراهيم، ثم عن مزية قريش في بني كنانة وفضل بني هاشم على سائر قريش ؟

خلاصة ما بينته في فضل العرب على سائر الامم، الذي أعدهم به الله لبعثة سيد البشر من العرب والعجم ، بالدين العام الباقي هي ان جميع شعوب الحضارة المشار اليها وغيرها كانت قد فسدت غرائزها وأخلاقها الفطرية، وعقائدها الدينية، وآدابها التقليدية، بفساد رؤساء الدين والدنيا فيها، وتعاون الفريقين على استعبادها واستذلالها لها ، وتسخيرها لتوفير لذاتهما وتشييد صروح عظمتهما ، بسلب حريتهم العقلية بالتقاليد الدينية التي يفرض عليهم الكهنة والاحبار والقسوس الخضوع لها ، بدون أن يكون لهم أدنى رأي أو اختيار او فهم فيها ، وسلب حرية ارادتهم في حياتهم الشخصية والاجتماعية ، بما يضع لهم الملوك والحكام من القوانين والنظم الادارية والعسكرية الاستبدادية، وبتحكمهم فيهم بدون قانون ولا نظام ايضا، فجميع الامم والشعوب كانت مرهقة مستعبدة في دينها ودنياها الا العرب ولا سيما عرب الحجاز

واما العرب فلم يكن عندهم رياسة حكم استبدادية تستذلهم وتفسد بأسهم وتقهر ارادتهم على ما لا يريدون، ولا رياسة دينية تقهرهم على اتباع تقاليد تعبدية لا يعقلونها ، بل كانوا على أتم الحرية العقلية واستقلال الارادة في دينهم ودنياهم، وفي أعلى ذروة من عزة النفس ، وشدة البأس ، فبحرية عقولهم كانوا على أتم الاستعداد لفهم دين العقل والفطرة ، وباستقلال ارادتهم كانوا على أكمل الاستعداد للنهوض بما اعتقدوا حقيته وصلاحه وخيريته ، ولاقامته في قومهم ، ونشره في غيرهم ، والدفاع عنه باختيارهم ، وتصرفهم في كل ذلك بمقتضى الوازع النفسي، دون تحكم رئيس ديني ولا دنيوي ، فان هذا الدين انما أوجب طاعة الأئمة والقواد بالمعروف والاذعان للشرع ، وما تضعه الامة لنفسها من النظام بالشورى بين ممثليها من اهل الحل

والعقد ، حتى فرض الله على الرسول ﷺ مشاورتها في أمورها ، وقال له ربه في صيغة مبايعة نسائها له (ولا يعصينك في معروف) وبها كان يبايع الرجال كالنساء ولذلك قال ﷺ « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق انما الطاعة في المعروف » رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث علي كرم الله وجهه

وأما كنانة فقد كان أشهر ذرية اسماعيل في العلم والحكمة ، والكرم والنبل ، حتى كانت العرب تحج اليه ، وينقلون عنه حكما رائعة ، وكفى بهذا اصطفاء عليهم ، وامتيازاً فيهم ،

واما امتياز قريش على سائر العرب فهو معروف متواتر وأهمه أن ما ذكرناه من عزة النفس ، واستقلال الارادة والعقل ، كان اكمل فيهم ، فان بعض العرب في اطراف جزيرتهم خضعوا لسيادة الفرس والروم خضوعا ما ، وجملته انهم كانوا أصرح ولد اسماعيل أنسابا ، وأشرفهم احسابا ، وأعلاهم آدابا ، وأفصحهم ألسنة ، وهم الممهدون لجمع الكلمة العامة ، بعد أن جمع قصي جميع قبائلهم بمكة ، واستقلوا بخدمة المسجد الحرام من الحجابة وسقاية الحاج والرفادة وهي اسعاف الفقراء والمساكين من الحجاج وغيرهم ، وأسسوا دار الندوة لاجل الشورى في الامور المهمة ، وكانوا أعرف العرب ببطون العرب في جميع جزيرتهم بما كانوا يتناوبونه من رحلة الشتاء والصيف ، وبذلك كانوا أغنى العرب أيضاً واشرفهم بلا منازع ، وناهيك بما عقدوا من حلف الفضول في حداثة سن الرسول وهو انهم تعاقدوا وتعاهدوا أن لا يجدوا بمكة مظلوما إلا اقاموا معه ، وكانوا عونا له على من ظلمه . إلى أن ترد مظلمته ، وفي حديث الزبير بن العوام وأم هانيء عن الطبراني وتاريخ البخاري « فضل الله قريشاً بسبع خصال : فضلهم بانهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبد الله إلا قرشي (أي لا يعبده وحده من العرب إلا قرشي) وفضلهم بانه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون (أي نصرهم على قوة تفوق قوتهم كثيراً بما يشبه نصره لرسله في كونه بدون استعداد كسبي يقرب من استعداد عدوهم) وفضلهم بانه نزل فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين وهي (لايلاف قريش) وفضلهم بان فيهم النبوة والخلافة والحجابة والسقاية »

وأما اصطفاؤه تعالى لبني هاشم على قريش فقد كان بما امتازوا به من الفضائل والمكارم فقد كان جدهم هاشم هو صاحب إيلاف قريش الذي أخذلهم العهد من قيصر الروم على حمايتهم في رحلة الصيف إلى الشام، ومن حكومة اليمن في رحلة الشتاء، وهو أول من هشم الثريد للفقراء من قومه ولاهل موسم الحج كافة ، وقد أربى عليه في السخاء والكرم ولده عبدالمطلب ، وجملة القول ان بني هاشم كانوا أكرم قريش أخلاقا وأبعدهم عن الكبر والاثرة ،لا ينازعهم أحد في ذلك ، وقد قال أبوجهل في حسده إياهم على كون الرسول ﷺ منهم: تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا ، واعطوا فاعطينا . . . حتى إذا زاحمناهم بالمناكب قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه ؟ ويؤخذ منه أنهم كانوا يعلمون ان النبوة لا يمكن أن تكون بالاجتهاد والمباراة الكسبية في الفضائل، وان القرآن لا يمكن أن يعارضه أحد في بلاغته ولا هدايته ، لانه من الله لا من علم محمد ﷺ وفصاحته وبلاغته، ولولا ذلك لعارضه من كانوا أشهر العرب في ذلك ولم يكن محمد منهم

وقد ورد في فضل هذه الخاتمة لهذه السورة المباركة مارواه أبو داود عن أبي الدرداء موقوفا وابن السني عن أبي الدرداء مرفوعا قال قال رسول الله ﷺ «من قال حين يصبح وحين يمسي : حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ـ سبع مرات ـ كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة » كذا في الدر المنثور ويراجع ما قاله ابن كثير آخر في تفسير السورة فيه ، وهو لا يمنع العمل به ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ والحمد لله رب العالمين

(تم تفسير سورة براءة بفضل الله وتوفيقه في شهر صفر سنة خمسين وثلاثمائة والف وبقي تلخيص ما فيها من أصول الدين وأحكامه وحكمه وسياسته وآدابه وسنن الله في ذلك ، فنسأله تعالى توفيقنا فيه للحق الذي يرضاه وينفع عباده)

خلاصة سورة براءة (التوبة)

﴿ وهي خمسة أبواب وفيها فصول ﴾

(هذه السورة آخر السور المدنية الطول نزولا فيقل فيها ذكر أصول الدين وما يناسبها من الحجج العقلية والسنن الكونية وكذا أحكام العبادات البدنية . — راجع مقدمة خلاصة سورة الانفال في ص ١١٨ والتناسب بين السورتين في ص ١٤٧ ج ١٠)

الباب الاول

(في صفات الله تعالى وأفعاله وشؤونه في خلقه وأحكامه وسننه فيها)

وفيه أربعة فصول

(الفصل الاول في الاسماء والصفات الالهية والاضافات اليه تعالى)

(١ — الاسماء والصفات)

في هذه السورة من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى : الغفور الرحيم ، الرؤف الرحيم ، العليم الحكيم ، العزيز الحكيم ، السميع العليم ، عالم الغيب والشهادة . ومنها المكرر مرتين وثلاثا أو أكثر ، وكل منها موضوع في موضعه المناسب لمعناه في السياق أو الآية . وأما الفائدة العامة لذكر أسماء الله تعالى وصفاته وتكرارها في المواضع المختلفة فهي تذكير تالي القرآن وسامعه المرة بعد المرة بربه وخالقه وما هو متصف به من صفات الكمال الذي يثمر له زيادة تعظيمه وحبه ، والرجاء في رحمته وإحسانه ، والخوف من عقابه ، لمن أعرض عن هداية كتابه ، أو خالف حكمته وسننه في خلقه ، وهذا أعلا مقاصد القرآن ، في إكمال الايمان ، وإعلاء شأن الانسان (فراجعه في ص ١١٩ ج ١٠)

ومما ورد فيها في العلم الالهي قوله تعالى (٧٨ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب) وقوله (١٦ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم — الى قوله — والله خبير بما تعملون) وهما أعظم ما يجدد في القلب مراقبته عز وجل عند كل قول وعمل ، وحسبك بهما وازعا ورافعا

(٢ ـ المعية الالهية)

في هذه السورة من المعية العليا قوله تعالى في آية الغـار عن رسوله ﷺ (٤٠ إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) وهي معية النصر والمعونة ، والحفظ والعصمة ، والتأييد والرحمة، كما يقتضيه المقام في حال الهجرة ، وهذه المعية أفضل من كل ما ورد في معناها ، ومن أعظمه قوله تعالى لكليمه موسى وأخيه هارون عليهما السلام (لا تخافا انني معكما أسمع وأرى) فراجع (ص ٤٢٧ ج ١٠) وفي الآية ١٢٣ (واعلموا أن الله مع المتقين) وهذه معية النصر لانها معطوفة على الامر بالقتال ويقال في كل منها مع العلم بمعناها انها معية تليق به تعالى

(٣ ـ الدرجة والعندية الالهية وسكينته تعالى)

قال تعالى (٢٠ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله أعظم درجة عند الله) الآية . وقد قلنا في تفسير هذه العندية [ص ٢٢٠ ج ١٠] انها حكمية [بضم الحاء] شرعية ، ومكانية جزائية ، أي هم أعظم درجة في الفضل والكمال في حكم الله، وأكبر مثوبة في جوار الله

وقال بعد بشارتهم بالرحمة والرضوان والجنات والنعيم المقيم والخلود فيها من الآية (٢٢ ان الله عنده أجر عظيم) وهو استئناف بياني فالعندية فيه مفسرة لما قبلها. وقال (٣٦ ان عدة الشهور عنـد الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض) فالعندية هنا يفسرها مابعدها وهو كتاب الله الذي كتب فيه مقادير السموات والارض ونظام الايام والليالي والشهور والسنين . وقيل كتابه المنزل الذي فيه حكمه التشريعي في الشهور وهو قوله بعد ماذكر [منها أربعة حرم] الخ

وفي الاية (٥٢ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) فعندية العذاب عبارة عن كونه بفعله تعالى دون كسب للمؤمنين وهو ما يسمى بالمصائب السماوية بدليل مقابلته بقوله [أو بأيدينا] والاضافة في العندية الحكمية للتوقيف والتعريف، وفي العندية المكانية للتشريف، ومثلها إضافة السكينة اليه تعالى

٤ ـ حب الله ورضاه وكرهه وسخطه وغضبه

قال تعالى (٧ ان الله يحب المتقين) وقال في المهاجرين والانصار [١٠٠ رضي الله عنهم ورضوا عنه] وقال في جزاء المهاجرين المجاهدين [٧٢ ورضوان من الله أكبر] ويدخل في معناه ماصح في الاحاديث من مقام الرؤية كما بيناه في تفسيرها وقال في شأن المنافقين [٩٦ فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين] أسند الله تعالى الى نفسه الحب والرضى في هذه الآيات وفي سور أخرى ، كما أثبت لنفسه الكره في قوله من هذه السورة [٤٧ ولكن كره الله انبعاثهم] والسخط والغضب في سور أخرى . والمتكلمون يتأولون هذه الصفات بالاثابة والاحسان من لوازم الحب والرضى ، وبالعقاب من لوازم السخط والكره والغضب ، فراراً من تشبيه الخالق بعبيده الذين تعد هذه الصفات انفعالات نفسية لهم يتنزه الله عنها . ومذهب السلف الصالح إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه وأثبته له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل ، فيقولون ان حب الله تعالى وكرهه ورضاه وغضبه صفات تليق به تترتب عليها آثارها ، وهي لا تماثل ما سمي باسمها من صفات البشر ، كما ان ذاته ونفسه وعلمه وقدرته لا تماثل ذوات البشر وعلمهم وقدرتهم بلا فرق . بل نقول ان من خلق الله في عالم الغيب من الجن والملائكة لا تماثل في إدراكاته ولا في غيرها ما في عالم الشهادة ، بل روي في ثمر الجنة أنه يشبه ثمر الدنيا وليس مثله وعن ابن عباس [رض] انه ليس في الجنة من أطعمة الدنيا الا الاسماء . وقال تعالى في نعيم الآخرة [فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين] وقال النبي ﷺ في تفسيره له « قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وأمر بقراءة الآية متفق عليه

وأما الكلام مع أهل التأويل من ناحية الادلة العقلية التي يزعمون الانفراد بها دون علماء السلف فهو أن حب الحق والخير كالايمان والعدل وأهلها ، وكراهة الباطل كالكفر ، والشر كالظلم ومجترحيها ، كلاهما من صفات الكمال المحض ، وكل ما كان كمالا محضا فالعقل يوجبه لواجب الوجود بأعلا مما يكون

منه للوجود الممكن - فقد اتفق العقل مع النقل على إثبات هذه الصفات لله بمعنى أكمل مما هي في خيار الناس ، ولكن لا يمكن وضع أسماء لها من كلام الناس تدل على الفرق بين مسمياتها في الخالق والمخلوق ، فوجب الرجوع في ذلك إلى الوحي الفاصل وهو قوله تعالى [ليس كمثله شيء وهو السميع البصير] فالتنزيه في الجملة الاولى السالبة أزال ما يستلزمه التشبيه في الجملة الثانية الموجبة ، بل قال الشيخ محيي الدين بن عربي في تفسير هذه الآية ان الايمان الصحيح هو الجمع بين التنزيه والتشبيه

(الفصل الثاني)

﴿ أفعال الله في تصرفه وتدبيره لامور خلقه بمقتضى سننه ، لا يجعلهم مجبرين بقدرته ﴾

قال تعالى (١٤ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم) الآية. يتوهم أهل الجبر انها تدل على جبرهم ، ويرده انه تعالى أمرهم بقتال المشركين ، ولو كانوا مجبرين لكان أمرهم لغواً وعبثا . وقوله (يعذبهم الله بأيديكم) معناه يعذبهم بتمكين أيديكم من رقابهم قتلا ، ومن صدورهم ونحورهم طعنا ، ويؤكده الوعد بعده بنصرهم وفي معناه قوله (٥٢ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا)

وقال تعالى في آية (١٩ والله لا يهدي القوم الظالمين * وقال في آيتي ٢٤ و ٨٠ والله لا يهدي القوم الفاسقين * وقال (٣٧ والله لا يهدي القوم الكافرين) وليس معنى هذه الآيات ان الله تعالى منعهم من الهداية بقدرته فصاروا عاجزين عنها ومجبرين على الفسق والظلم والكفر إجباراً ، وإنما معناها ما بيناه في تفسيرها وهو ان هذه الصفات التي رسخت في انفسهم بكسبهم منافية لهدى الله تعالى الذي بعث به رسله بحسب سنته تعالى في الاسباب والمسببات (راجع ص ٢١٩ و ٢٣٦ و ٤١٩ و ٥٦٧ ج ١٠) ويقابله قوله تعالى قبل الآية الاولى من هذه الآيات فيمن ترجى لهم الهداية بحسب سنن الله تعالى (١٨ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين)

ويدخل في هذا الباب من بيان السنن وطبائع البشر قوله في خوالف المنافقين (٨٧ وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) ثم قوله فيهم (٩٣ وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) فهو بيان لسنة الله في تأثير أعمالهم التي منها رضاهم بخطة الخسف والذل وهو التخلف عن الجهاد ان قلوبهم كالمطبوع عليها التي لا تفقه كنه حالها ولا تعلم سوء مآلها (ص ٥٩٠ ج ١٠) وفي معناه قوله في الذين ينصرفون منهم متسللين من مجلس القرآن (١٢٧ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) أي بسبب انهم قوم فقدوا صفة الفقاهة الفطرية وفهم الحقائق وما يترتب عليها من الاعمال لعدم استعمال عقولهم فيها الخ مافصلناه في تفسيرها (ص ٨٥ ج ١١)

وبهذه المرآة ترى حقيقة المراد من قوله تعالى فيهم(٤٦ ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم) وراجعه في ص ٤٧١ ج ١٠ وقوله (٦٧ نسوا الله فنسيهم) وراجعه في ص ٥٣٤ ج ١٠

﴿ الفصل الثالث ﴾

في تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه وسننه فيهما

١ — ترى تعليل الامر باتمام العهود الموقتة بقوله تعالى (ان الله يحب المتقين)

٢ — « « « بتخلية سبيل التائبين من المشركين بقوله تعالى (ان الله غفور رحيم)

٣ — « « « باجارة المشرك المستجير لسماع كلام الله بقوله (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون)

٤ — « « « بقتال المشركين الناكثين للعهد بقوله (لعلهم ينتهون)

٥ — « « عدم قبول صدقات المنافقين بفسقهم ثم بكفرهم في آيتي ٥٣ و ٥٤

٦ — « « « المغفرة لهم بكفرهم بالله ورسوله وفسقهم في الآية ٧٩

٧ — « « « النهي عن الصلاة على موتاهم بكفرهم بالله ورسوله في الآية ٨٤

٨ — « « « الامر بأخذ الصدقة من المؤمنين بتطهيرهم وتزكيتهم بها [١٠٣]

٩ — « « « فتنة المنافقين في كل عام بأمل التوبة والتذكر [١٢٦]

فيعلم من كل تعليل ان حكمته تعالى في أفعاله وأحكامه منفعة عباده ومصلحتهم وخيرهم

سننه تعالى في أفراد البشر وأقوامهم وأممهم

بينا سنن الله تعالى في تأثير العقائد والصفات النفسية في الاعمال وترتب الاعمال عليها في مواضع [منها] إخزاء الكافرين في الآية الاولى [ومنها] نفي هداية الله تعالى للظالمين والفاسقين والكافرين في الآيات ١٩ و٢٤ و٣٧ و٨٠ [ومنها] كراهته تعالى انبعاث المنافقين للقتال وتثبيطهم وقوله [اقعدوا مع القاعدين] في الآية ٤٦ [ومنها] طبعه على قلوبهم في الآيتين ٨٧ و٩٣ وفي معناه صرف قلوبهم عن الايمان بالقرآن في الآية ١٢٧ وتقدم بيان هذا في الفصل الذي قبل هذا

ومن بيان سننه تعالى في الامم قوله تعالى (٣٩ إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم) فبقاء الامم وعزتها يتوقفان على قوة الدفاع الحربية [راجع تفسيرها في ص ٤٢٥] ومنها قوله [٤٧ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا] فراجع تفسيرها في ص ٧٢ ومنها قوله (١١٥ وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يتبين لهم ما يتقون

﴿ الفصل الرابع ﴾

في قضاء الله وقدره وولايته للمؤمنين وتوكلهم عليه

هذه عدة عقائد من أصول الايمان، وكمال التوحيد والايقان، جمعت كلها في آية واحدة من هذه السورة أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يرد بها على المنافقين الذين أخبره عنهم بأنهم تسوءهم كل حسنة تصيبه كالنصر والغنيمة في غزوة بدر، وتفرحهم كل مصيبة تصيبه كالنكبة التي وقعت في غزوة أحد وهي (٥١ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فتصور حال مؤمن يوقن أنه لن يصيبه الا ما كتبه الله له - وأنه ان لم يكن يعرف هذا المكتوب له بعينه فهو يعتقد أنه لا يعدو في جملته وعده تعالى له من حيث هو مؤمن من الخير والنصر والشهادة في سبيل الله المعبر عنهما بالحسنيين في الآية التي بعد هذه [أي آية ٥٢] ويعتقد أن الله تعالى هو مولاه الذي يتولى نصره وتوفيقه، فهو بمقتضى إيمانه يتوكل عليه ويفوض أمره اليه، تصور حال مؤمن تمكنت هذه العقائد من نفسه، وملكت عليه وجدانه، هل يخاف من غير الله ؟ هل ييأس من روح الله ؟

هل يمنعه أي خطب من الخطوب عن الجهاد لاعلاء كلمة الله ، واقامة دين الله ، وبذل الجهد ، في اقامة الحق والعدل ، ومد بساط البر والفضل ؟؟ وتصور حال أمة يغلب على أفرادها ماذكر ألا تكون أعز الامم نفساً، وأشدها بأسا ؟

ويؤيد هذه العقائد ويزيدها رسوخا في قلب تالي هذه السورة ختمها بقوله عز وجل (١٢٩ فان تولوا فقل حسبي الله لا إله الا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) فينبغي للمؤمن أن يتأمل معناها ويطالب نفسه بالتحقق به، فانه يجد به من حلاوة الايمان وعزة النفس ما يحتقر به خسائس المادة التي يتكالب الماديون عليها، ويبخعون أنفسهم انتحارا اذا فاتهم أو أعياهم شيء منها، وقد ورد في ذلك عن أم الدرداء عن أبي الدرداء [رض] من قال إذا أصبح وإذا أمسى « حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله ما أهمه » وقد تقدم هذا في تفسير الاية (ص ٩٧)

الباب الثانى

(في مكانة محمد رسول الله وخاتم النبيين عند ربه وفي هداية دينه وحقوقه على أمته)

وفيه ثلاثة فصول

﴿ الفصل الاول في اقتران اسمه باسم ربه وحقه ﷺ بحقه عز وجل ﴾

وفيه أربعة عشر شاهدا

(١ و ٢) افتتحت هذه السورة بقوله تعالى (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين) وعطف عليها قوله تعالى (وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر) الخ فقرن تعالى اسم نبيه باسمه في تبليغ أحكامه وتنفيذها

(٣) قال تعالى في وصف كملة المؤمنين من الآية (١٦ — ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) أي دخيلة وبطانة من غيرهم يطلعونهم على الاسرار ، ولهذا أشرك المؤمنين في هذا لانه يتعلق بحقوقهم في ولاية بعضهم لبعض دون أعدائهم ، ويضرهم أن يكون بينهم ولائج ودخائل من غيرهم . دون

ما قبله الذي هو تشريع هو حق الله تعالى وتبليغ وتنفيذ : هما حق رسوله ﷺ في عهده، وورثته من بعده

(٤) قوله تعالى (٢٤ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) فجعل كمال الايمان مشروطا بتفضيل حب الله تعالى ورسوله على كل ما يحب في هذا العالم من الناس والمصالح والمنافع، ولكنه جعل الجهاد في سبيل الله وحده دون رسوله لانه عبادة يتقرب بها الى الله وحده وليس الرسول ﷺ أدنى حق ولا شركة مع الله عز وجل في عبادته

(٥) قوله تعالى في صفات أهل الكتاب الذين شرع قتالهم من الآية (٢٩ — ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) على القول بأن « رسوله » في الآية هو الفرد الاكمل خاتم النبيين وهو قول المفسرين يقابله أن المراد به رسوله تعالى اليهم وهو موسى (ع . م) لليهود وعيسى (ع . م) للنصارى

وهل العطف في الآية يدل على أن الرسول قد أعطاه الله حق التحريم من تلقاء نفسه أم حظه منه التبليغ عن الله تعالى نصاً ولو في غير القرآن أو استنباطا ؟ اختلف علماؤنا في التشريع الدنيوي في هذه المسألة دون الديني المحض فذهب بعضهم الى الاول وجعلوا منه تحريمه ﷺ المدينة كمكة أن يصاد صيدها أو يختلى خلاها الخ وذهب آخرون الى الثاني ومنهم الامام الشافعي وقد بينا هذه المسألة في موضع آخر بالتفصيل

(٦) قوله تعالى في سبب منع المنافقين أن تقبل منهم نفقاتهم من الآية ٥٤ (انهم كفروا بالله ورسوله) ومثله في سبب عدم انتفاعهم باستغفار النبي ﷺ من الآية (٧٩ ـ ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) وهذا ظاهر فان الدين انما يكون بالجمع بين الايمان بالله والايمان برسوله وما جاء به، وأنى يعرف الله وما يرضيه من عبادته إلا من طريق رسله وما أوحاه اليهم ؟

(٧) قوله تعالى في الذين لمزوا النبي ﷺ أي عابوه في قسمة الصدقات وكانوا يرضون اذا أعطوا ويسخطون اذا منعوا (٥٩ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله

ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا الى الله راغبون)والجمع فيها بين اسم الله واسم رسوله في موضعين أحدهما الرضاء بما آتيا وأعطيا بالفعل ، والثاني الرجاء فيما يؤتيان من بعد ، فأما العطاء من الله تعالى فهو انه هو الذي أنعم وينعم بالغنائم في الحرب وهو الذي شرع قسمتها بين الغانمين ، وجعل خمسها فيما تقدم في أول الجزء العاشر في مصالح المسلمين ، ومنها مواساة الفقراء والمساكين ، وهو المنعم بسائر الاموال ، والذي فرض فيها ماتقدم تفصيله من الصدقات ، وأما الرسول ﷺ فهو القاسم للغنائم والصدقات باعطائها لمستحقيها بالحق والعدل ، ولذلك خص الله تعالى في الآية بالفضل ، وفيها من أصول التوحيد ، والتمييز بين مالله وحده وماله وللرسول أمران (أحدهما) أن الحسب الكافي للعباد هو الله وحده ، ولهذا أرشدهم أن يقولوا « حسبنا الله » ولم يقل ورسوله كما قال في الايتاء (وثانيهما) ان توجه المؤمن فيما يرغبه ويرجوه من الرزق وغيره يجب أن ينتهي الى الله تعالى وحده وهو نص قوله (إنا إلى الله راغبون) ومنه (والى ربك فارغب) أي دون غيره (راجع ص ٤٨٨ ج ١٠)

(٨) قوله تعالى (٦٢ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) فمقتضى الايمان الذي لا يصح بدونه تحري المؤمن إرضاء الله ورسوله في المرتبة الاولى ، وإرضاء المؤمنين بما يتعلق بمعاملتهم في المرتبة الثانية التابعة للاولى ، ذلك بأن كل ما يرضي الله عز وجل يرضي رسوله ، وكل ما يرضي رسوله ﷺ يرضيه ، فهما متلازمان ، وأما المؤمنون فقد يرضي بعضهم مالا يرضي الله ورسوله لجهله بما يرضيهما أو غفلته عنه أو اتباعه لهواه فيه . ومنه في موضوع الآية ان بعض المؤمنين من الصحابة الكرام ربما كانوا يصدقون أولئك المنافقين الذين يحلفون لهم بأنهم صادقون في اعتذارهم عما اتهموا به في غزوة تبوك ، لانهم لا يعلمون ما يعلمه الله تعالى من باطن أمرهم وما أعلم به رسوله منه ، ولذلك قال في آية أخرى (يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين)

(٩) قوله تعالى (٦٣ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم)

الآية وهذه مقابلة لما قبلها فان من يحادد الله أي يعاديه يعادي رسوله كما أن من يرضي أحدهما يرضي الآخر ، ومن ثم كان الجزاء واحداً

(١٠) قوله تعالى في المنافقين الذين كانوا يخوضون في مسألة غزوة تبوك ويهزؤن بمحاولة غزو الروم ورجاء الرسول ﷺ النصر عليهم وبما كان وعد به أصحابه من الظفر بملكهم (٦٥ ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب .قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) ؟ فحكم الاستهزاء بالله وآياته الكفر ، وهو حكم الاستهزاء برسوله ، لان الله تعالى هو الذي وعد رسوله بالنصر وأمره بالغزو ، ورسوله انما بلغ عنه آياته ووعده في ذلك .

(١١) قوله تعالى (٩٠ وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) الآية . معنى كذبهم إياهما إظهار الايمان بهما كذباً وخداعاً ومن كذب الرسول في دعوى الايمان فقد كذب الله ـ وان لم يشعر بذلك ـ واستحق الجزاء الذي في الآية

(١٢) قوله تعالى في أصحاب الاعذار الصادقة في التخلف عن الجهاد الواجب (٩١ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله) فاشترط لقبول عذرهم في القعود عن القتال النصح لله ورسوله في كل قول وعمل يقدرون عليهما في مقاومة الاعداء ومساعدة المؤمنين وغير ذلك فالنصح من أعظم شعب الايمان ، وراجع تفسير الآية

(١٣) قوله تعالى في المعتذرين من المنافقين عن الخروج إلى تبوك (٩٤ يعتذرون اليكم إذا رجعتم اليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم ، وسيرى الله عملكم ورسوله) الآية . والمراد من ذكر رؤية الرسول لها إعلامهم انه هو الذي سيعاملهم بمقتضاها في الدنيا ، دون أقوالهم في الاعتذار عن تخلفهم وغيره من سيئاتهم . وأما رؤية الله تعالى لها فهي التي عليها مدار الجزاء في الآخرة كما صرح به في تتمة الآية (ص٣ ج ١١) وفي معناها قوله تعالى (١٠٥ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) هذه الآية حث على العمل النافع للدنيا والآخرة وإنما ذكر المؤمنون هنا بعد ذكر الله ورسوله لتذكير العاملين

بأن الله يرى أعمالهم وهو الذي يجازيهم عليها فيجب عليهم الاحسان والاخلاص له والوقوف عندحدود شرعه فيها. وبأن رسوله يراها ويعاملهم بمقتضاها ـ وهذا خاص بحال حياته ﷺ ـ وهو الشهيد عليهم فيها عند الله تعالى ليتحروا أن يشهد لهم لا عليهم ـ ثم لتذكيرهم بان المؤمنين يرونها فينبغي لهم أن يتبعوا فيها سبيلهم ويتحروا فيها مايوافق المصلحة العامة التي يشتركون فيها وجماعة المؤمنين شهداء بعضهم على بعض وشهاداتهم مقبولة عند الله تعالى (راجع تفسير الاية في ص٣٣ ج ١١)

(١٤) قوله تعالى (٩٩ ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) فهذا ضرب من اقتران اسم الرسول ﷺ باسم الله تعالى في موضوع واحد مع الفصل فيه بين ما له تعالى وما لرسوله. فالذي لله عز وجل من هذه العبادة هو قصد القربة وابتغاء المرضاة والمثوبة، والذي للرسول ﷺ هو طلب صلواته أي أدعيته إذ كان يدعو المتصدقين كما بيناه في تفسير الآية (ص ١١ ج ١١)

وكل هذه الآيات مما يفند دعوى بعض الملاحدة ان دين الاسلام هو القرآن وحده دون سنة رسوله، وكذلك ماترى في الفصلين اللذين بعده

﴿ الفصل الثاني ﴾

﴿ في علو مكانته وعناية الله تعالى به وتكريمه وتأديبه وتكميله إياه ﴾

(وفيه ١١ منقبة بالاجمال وأضعاف ذلك بالتفصيل)

(المنقبة الاولى) جعل الايمان به وطاعته وحبه وارضائه مقرونة في المرتبة والثناء والثواب بما له عز وجل من ذلك على عباده — وجعل ما يقابل ذلك من الكفر به وعصيانه وبغضه واغضابه وإيذائه مقرونة في الحظر والكفر والوعيد واستحقاق العذاب الاليم بالكفر بالله وعصيانه الخ وتجدما في السورة من الامرين مفصلا في الفصل الاول الذي قبل هذا، فهي بضع عشرة لامنقبة واحدة

(الثانية) إنزال الله سكينته عليه وتأييده بجنوده من الملائكة في يوم حنين

حين انهزم المؤمنون وولوا مدبرين كما هو مبين في الآيتين ٢٥و٢٦ (ويراجع تفسيرها في ص ٢٤٣ ـ ٢٤٨ ج ١٠)

(الثالثة) نصر الله له عند خروجه للهجرة مع صاحبه الصديق ومعيته الخاصة لهما وانزال سكينته عليهما وتأييدهما بجنوده من الملائكة ، وفيها عدة مناقب كما تراه في آية الغار (٤٠) وتفسيرها البديع من ص ٤٢٦ ـ ٤٥٩

(الرابعة) إتمام الله تعالى نوره به كما تراه في الآية ٣٢ وقال بعض المفسرين إنه هو ﷺ نور الله المراد من الآية فانظر تفسيرها في ٣٨٣ ج ١٠

(الخامسة) قوله تعالى بعدها (٣٣ هو الذي أرسل رسوله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله) الآية وهي مشتملة على عدة مناقب فانظر تفسيرها في ص ٣٨٨ ـ ٣٩٤ ج ١٠

(السادسة) قوله تعالى له (٤٣ عفا الله عنك لم أذنت لهم) الآية وفيها من لطفه تعالى به وتكريمه إياه ان أعلمه بعفوه عنه قبل اعلامه بخطا الاجتهاد في اذنه لبعض المنافقين بالتخلف عن الخروج معه الى تبوك . وتجد في تفسيرها تحقيق الكلام في ذنوب الانبياء عليهم السلام [ص ٤٦٤]

[السابعة] إعلامه تعالى إياه بأن استغفاره للمشركين وعدمه سيان في جانب حكم الله فيهم وهو انه لا يغفر المصرين على نفاقهم . وذلك في الآية [٧٠] وهذا تقييد لنفع الدعاء والشفاعة

(الثامنة) اعلامه تعالى بأنه ليس من شأن النبي من حيث هو نبي ولا من شأن المؤمنين أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى بعد العلم بموتهم على كفرهم بعد ان فعلوا ذلك . وهذا نص الاية ١١٣ وهي ارشاد من الله لهم فيما يجب أن يقفوا عنده من مودة القرابة والنسب (راجع ص ٥٦ ج ١١)

(التاسعة) نهيه تعالى إياه عن الصلاة على المنافقين أو القيام على قبورهم عند الدفن بعد صلاته على زعيمهم الاكبر الأكفر عبدالله بن أبي بن سلول والقيام على قبره عند دفنه تكريما لنجله المؤمن الصادق وتأليفا لقومه وكان أكثر المنافقين منهم، وهذا النهي يتضمن الانكار والتأديب والحد الذي يجب الوقوف عنده في معاملة المنافقين ، وسيأتي تفصيله

[العاشرة] نهيه عن الاعجاب بأموالهم وأولادهم وإعلامه بأن الله يعذبهم في الدنيا قبل الآخرة، وهو في الآيتين ٥٥ و ٨٥ على القول بأن الخطاب فيهما له ﷺ ويجوز أن يكون عاما لكل من يسمع القرآن أو يقرؤه ، وهو على كل تقدير تأديب من الله تعالى وتكميل للنبي والمؤمنين بالسمو بانفسهم عن تعظيم شأن قوة الاموال وعزة الاولاد وزينتهما يكونان للمحرومين من قوة الايمان وعزته وهما اللتان لا يعلوهما شيء ـ وتعليمهم مالم يكونوا يعلمون من أن النعم الصورية الدنيوية لا تتم لاهلها النعمة بها الا باطمئنان القلوب بنعمة الايمان ، وتزكي الانفس باعمال الاسلام، وان السعادة الحقيقية انما هي سعادة النفس بالعلم والعرفان وعلو الاخلاق، ومن متممانها الدنيوية كثرة الاموال والاولاد ، وان هؤلاء المنافقين بفقدهم لهذه النعم الباطنة ، لاسعادة لهم بتلك النعم الظاهرة ، وانما هي منغصات لهم في الدنيا نفسها بما بيناه في تفسير الآيتين [في ص ٤٨٢ و ٥٧٤ ج ١٠]

(الحادية عشرة) توبته تعالى عليه وعلى خيار أصحابه المؤمنين وهذا منتهى التطهير والتزكية لهم من ربهم عز وجل في اثر غزوة تبوك التي أرهقوا فيه أشد العسرة، وقاسوا أعظم الجهد ، من الجوع والظمأ والنصب، ومفارقة موسم الرطب ، في شدة الحر ، وقلة الزاد والظهر ، [الرواحل] فكان لابد أن يعرض لهم بعض الهفوات الجديرة برأفة الله ورحمته في جانب تلك الحسنات ، التي أشير الى مضاعفة أجرها فيما يلي الاخيار بالتوبة عليهم من الآيات، وهو قوله عز وجل [١١٧ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم] ثم ذكر فيما يليها توبته على الذين خلفوا من هؤلاء الصادقين عن تبوك بغير عذر [حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم] الخ

والتوبة من العبد إلى ربه هي رجوعه اليه عن كل ما لا يرضيه وتحريه ما يرضيه وهي تختلف باختلاف حال التائبين فيما يتوبون عنه حتى ان منهم من يتوب اليه ويستغفره من الغفلة ، ومن التقصير في استكمال الجهد في الطاعة

وأما التوبة من الرب على عبده فهي قبول توبته ، والتجاوز عن ذنبه أو هفوته،

أوعن تقصيره في عبادته والخطأ في الاجتهاد في إقامة سنته، وتنفيذ شريعته، وعطفه عليه بما يكون مزيد كمال في إعلاء درجته ، ولذلك قال بعض المحققين : ان التوبة هي أول درجات الطاعة والمعرفة وهي آخر درجات الكمال في الايمان وثمراته ، وانها كالطهارة في الصلاة لابد من استمرارها من اول سن التكليف إلى آخرها [راجع ص ٦٤ ـ ٧٢ ج ١١]

(الفصل الثالث)

﴿ في فضله ﷺ على أمته، وحقوقه الواجبة عليها، وحكم إخلالها بها وتقصيرها فيها ﴾

﴿ وهي ثلاثة أقسام ﴾

(القسم الاول في صفاته الخاصة وفيه بضع مزايا وفضائل)

(الاولى) وصف الله تعالى إياه بانه صلوات الله وسلامه عليه في الا ية ٦١ (أذن خير) في الرد الحكيم على قول بعض المنافقين (هو أذن) يعنون انه يصدق كل مايقال له فيسهل عليهم خداعه ، وقد فسر وصفه بانه اذن خير بقوله تعالى [يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين] ووجه الرد عليهم بهذا انه ﷺ انما يؤمن بالله ويصدق ما يوحيه اليه في شأن المنافقين وغيرهم، وهو التصديق القطعي اليقيني ، ويليه انه يصدق المؤمنين بالله تعالى وبرسالته تصديق ثقة بهم وائتمان لهم فيما هو خير في نفسه، وخير للناس حتى المنافقين منهم، لانه لا يسمع سماع قبول الا ماكان حقاً وخيراً ، دون الكذب والغيبة والنميمة ـ راجع تفسيرها في ص ٥١٦ ج ١٠

[الثانية] وصفه تعالى اياه بعد ما ذكر بقوله [ورحمة للذين آمنوا منكم]، أي بما كان سبباً لهدايتهم وإسباغ الله عليهم سعادة الدنيا والآخرة بإيمانهم به وعملهم بما دعاهم اليه من أسبابها ، دون المنافقين المكذبين أو المرتابين فيها ، وأما قوله تعالى في سورة الانبياء [وما أرسلناك الا رحمة للعالمين] فهو في معنى إرساله للناس كافة بما هو سبب الرحمة والسعادة . وما يأتي قريباً من وصفه بانه رحيم بالمؤمنين فهو معنى آخر وستعرف الفرق بينهما

[الثالثة] وصفه في آية ١٠٣ بتطهير المؤمنين وتزكيتهم بما يأخذه منهم من الصدقات . وذلك انه صلوات الله وسلامه عليه لم يكن مثله في تبليغه لفرض الصدقات والنفقات ، وفي أخذه لها وقسمتها على مستحقيها كمثل الملوك والحكام الذين يجعلون المفروض على الناس من الاموال أتاوات وضرائب قهرية يؤدونها كما يؤدون سائر المغارم ، ويعتقدون أنها تنفق بحسب أهواء الملوك والحكام ، ويكون لهم منها أكبر نصيب بغير استحقاق ، وإنما كان ﷺ يبين للمؤمنين حكمة ما فرضه الله تعالى عليهم ، وان فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة لهم في أفرادهم وجماعتهم ، وكان يقسمه بين مستحقيه بالعدل ، ويحرم باذن الله على نفسه وعلى أهل بيته أخذ شيء منه ، فبهذا وذاك أسند الله تعالى اليه فعل التطهير والتزكية لهم ، وهو داخل في حكمة بعثته في قوله [يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة] وتجد التفصيل في تفسير الآية [ص ٢٤ ج ١١]

[الرابعة] وصف دعائه للمتصدقين بعد ما ذكر بأنه سكن لهم تطمئن به قلوبهم ، وترتاح إليه أنفسهم ، ويثقون بقبول الله لصدقاتهم ، ونقول ان كل مؤمن متصدق مخلص ينا له حظ من دعائه ﷺ المتصدقين الى يوم القيامة ، ولكن لم يرد في القرآن ولا في السنة ولا في سيرة الصحابة والتابعين ان النبي ﷺ يطلب منه بعد وفاته الدعاء لأحد

[الخامسة] وصفه تعالى إياه بما امتن به على قومه من قوله في خاتمة السورة ١٢٨ [لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم] فاثبت له شدة الحب لهم والحرص على هدايتهم وسعادتهم ، وانه يعز ويشق عليه أن يصيبهم العنت والارهاق في دينهم أو دنياهم

[السادسة] وصفه بعد ما تقدم بقوله [بالمؤمنين رءوف رحيم] وهاتان الصفتان من أعظم صفات الربوبية غير الخاصة بالله عز وجل الا في كمالهما ، ورأفته ورحمته ﷺ بالمؤمنين غير ارسال الله تعالى إياه رحمة لهم خاصة ، وغير ارساله رحمة للناس كافة ، فان رحمته بهم من صفات نفسه الشريفة القدسية التي ظهر أثرها في سياسته ومعاشرته لهم ، وتأديبه إياهم ، وتنفيذ حكم الله تعالى فيهم ، كما ترى في هذه

السورة كثيرها، وشواهد سيرته صلى الله عليه وسلم في تفسيرها، فتأمل خطبته صلى الله عليه وسلم في الانصار في أثر إنكار بعض شبانهم وعوامهم حرمانه إياهم من غنائم حنين [ص٢٥٨ ـ ٢٦٠ ج١٠] فهي العجب العجاب، والكمال، الذي لم يتم لبشر كما تم له عليه الصلاة والسلام

وأما ارساله رحمة للعالمين والمؤمنين فهو بيان لحكمة رسالته وفوائدها فيما اشتملت عليه من الحق والعدل والخير التي هي أسباب رحمة الله ومثوبته ورضوانه لمن اهتدى بها كما تقدم بيانه في محله

﴿ القسم الثاني فيما يجب له على أمته وفيه خمس واجبات ﴾

[الاول] وجوب حبه صلى الله عليه وسلم بالتبع لحب الله تعالى وفي الدرجة التي تلي درجته في ثمرة الايمان، وتفضيل نوع حبها على كل ما يحب بمقتضى الفطرة ومصالح الدنيا، فراجع بيان ذلك في تفسير الآية (٢٥) تجد فيه مالا تجدمثله في تفسير آخر [ص ٢٢٥ ج ١٠]

[الثاني] وجوب تحري مرضاته بالتبع لمرضاة الله عز وجل في الآية ٦٢

[الثالث] وجوب طاعته بالتبع لطاعة الله في صفات المؤمنين من الآية ٧١

[الرابع] وجوب النصح له بالتبع للنصح لله عز وجل في صفات المعذورين في التخلف عن القتال من الآية (٩١)

وهذه الواجبات له قد ذكرت في الفصل الاول من هذا الباب في سياق آخر

[الخامس] وجوب نصره كما يؤخذ من آية [٤٠ إلا تنصروه فقد نصره الله] ويؤيدها مايأتي في القسم الثالث من حظر التخلف عنه

﴿ القسم الثالث فيما يحظر عليهم من ايذاء وتقصير في حقه وهو خمسة محظورات ﴾

[الاول] حظر إيذائه فداؤه أبي وأمي ونفسي والوعيد عليه في الآية [٦١]

[الثاني] حظر محادته أي معاداته والوعيد عليها في الآية [٦٣]

[الثالث] الكفر الصريح بالاستهزاء به في الآية [٦٥]

[الرابع] حظر القعود عن الخروج معه للجهاد في الآيتين [٨١ و ٩٠]

[الخامس] حظر تخلفهم عنه والرغبة بانفسهم عن نفسه في الآية [١٢٠] وهذا تعبير بليغ جدا يتضمن ان كل من يصون نفسه عن جهاد وعمل بذل الرسول ﷺ نفسه فيه فهو مفضل لنفسه على نفسه الكريمة في عهده ، ويمكن أن يقال ذلك فيمن بعده وان كان الفرق بين الحالين ظاهراً من ناحية ملاحظة ذلك وعدمها ، ومن ناحية قيام الحجة على من كان معه بما لا تقوم به على من لم يكن معه فضلا عن بعده . وإنما نعني بالامكان انه ينبغي لكل مؤمن أن يتأسى به ﷺ في بذله ماله ونفسه لله والجهاد في سبيل الله بقدر إمكانه [لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا] فراجع تفسير الاية [ص ٧٤ ج ١١]

الباب الثالث

في دين الاسلام وما في السورة من حججه وأصوله وصفات أهله وفيه ٣ فصول

﴿ الفصل الاول في حجج الاسلام من البشارات والنذر والاخبار بالغيب وهي عشر ﴾

(الاولى) قوله تعالى للمشركين في الآية الاولى (واعلموا انكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين)

(الثانية) قوله (١٤ قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم)

(الثالثة) قوله للمؤمنين (٢٨ وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله)

(الرابعة) بشارته بخذل اليهود والنصارى فيما يحاولون من اطفاء نوره تعالى (الاسلام) ووعده باتمامه واظهار دينه على الدين كله وذلك في الآيتين (٣٢و٣٣ يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ـ إلى قوله ـ ولو كره المشركون)

(الخامسة) قوله تعالى (٦٤ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم)

(السادسة) قوله (٦٥ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) الآية ولذلك كله ولما سيأتي قال (٧٨ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب)

(السابعة والثامنة والتاسعة) قوله (٩٤ يعتذرون اليكم إذا رجعتم اليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم) الآية وقوله (٩٥ سيحلفون

بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم - وقوله - (٩٦ يحلفون لكم لترضوا عنهم) الآيات وهي أظهر في خبر الغيب من قوله (٥٦ ويحلفون بالله انهم لمنكم) وقوله (٦٢ يحلفون بالله لكم ليرضوكم) لاحتمال أن يكون الاخبار بهذين الحلفين بعد وقوعهما لبيان غرضهم وما في باطنهم وهو عين تعليل حلفهم في الاية ٩٦

(العاشرة) قوله (١٠١ وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين) أي في الدنيا

وقد تم كل ذلك وصدق وعد الله ووعيده وخبره

وفي السورة أخبار أخرى بالغيب يحتمل أن تكون من باب طبيعة العمران وسنن الله في البشر وترى مثاله في الفصل الثالث من الباب الأول

(الفصل الثاني)

﴿ في صفة الاسلام ومدخله واهم أصول التشريع فيه - وفيه عشرة أصول ﴾

(الاصل الاول) أن دين الاسلام هو نور الله تعالى العام، وهداه الكامل التام، الذي نسخ به ماتقدمه من الاديان ، ووعد الله عز وجل باتمامه ، وخذلان مريدي إطفائه ، وذلك نص الآيتين (٣٢ و ٣٣) وتجد في تفسيرهما [من ص٣٨٣- ٣٩٤ج١٠] ما لاتجد مثله في شيء من كتب التفسير الاخرى من إظهاره على جميع الاديان، بالحجة والبرهان ، والهداية والعرفان، والعلم والعمران، والسيادة والسلطان،

(الاصل الثاني) مدخل الاسلام ومفتاحه وما يتحقق به وهو قوله تعالى في المشركين (٥ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) ويؤكدها قوله (١١ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين) والمراد التوبة من الشرك وتحصل بالاقرار بالشهادتين ، وتجد في تفسيرهما خلاف العلماء في كفر تارك الصلاة ومانع الزكاة من أفراد المسلمين(ص ١٦٨ و ١٨٧ ج ١٠)

(الاصل الثالث) بناء الاسلام على العلم الصحيح دون التقليد الذي ذمه القرآن في آيات كثيرة وشنع به على المشركين . ودليله في هذه السورة قوله تعالى في تعليل الامر باجارة المشرك الحربي في دار الاسلام ليسمع القرآن (٦ ذلك بأنهم

قوم لايعلمون) وقوله في الآية (١١ونفصل الآيات لقوم يعلمون) وأصرح منهما قوله في مقلدة أهل الكتاب (٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)مع تفسير النبي صلى الله عليه وسلم ذلك باتباعهم إياهم فيما يحلون لهم ويحرمون عليهم [ص٣٦٣ج ١٠]

[الاصل الرابع] ان التكليف العام من العبادات والحلال والحرام الديني لا يثبت الا بنص قطعي وهو ما كان عليه السلف الصالح وأصل مذهب الحنفية وشاهده في هذه السورة قوله تعالى [١١٥ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون] وبيانه في تفسيرها [ص٦١ ج١١]

(الاصل الخامس) جهاد المشركين في سبيل الله وعدم السماح لهم بالاقامة في بلاد العرب أويدخلوا في الاسلام وهو في آيات منها الآية التي سموها آية السيف وهي الخامسة (فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وهي غير ناسخة لآيات العفو والصفح والاعراض عن المشركين كما قيل وترى في تفسيرها تحقيق الآيات الناسخة والمنسوخة (ص١٦٦ ج ١٠) وستأتي أحكام القتال وقواعده في الباب الرابع الآتي

(الاصل السادس)جعل الغاية من قتال أهل الكتاب أداء الجزية لنا بشرطها إلا ان يدخلوا في الاسلام . وهو في الاية ٢٩ وستذكر في أحكام القتال

[الاصل السابع) المساواة بين الرجال والنساء في ولاية الايمان المطلقة وصفاته الشخصية والعامة المشتركة في قوله(٧١ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله) ويدخل في إطلاق الولاية ولاية النصر والدفاع عن الامة والبلاد ، إلا انه لايجب على النساء القتال الا في حال النفير العام (ص ٥٤١ ج ١٠)

(الاصل الثامن) المساواة بين الرجال والنساء في جميع نعيم الآخرة تبعاً للمساواة في التكليف ، وهو نص قوله تعالى(٧٢ وعدالله المؤمنين والمؤمنات جنات)الخ

(الاصلان التاسع والعاشر) وجوب طلب العلم والتفقه في الدين ـ ووجوب بث العلم مقرونا بالوعظ والانذار الذى يرجى تأثيره النافع ـ وهما في الآية ١١٦

وفي السورة من أصول الايمان عقيدة البعث وجزاء المؤمنين والكافرين والمنافقين

في آيات كثيرة كسائر القرآن (تراجع الآيات ٣ و ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢١ و ٢٢ و ٣١ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٩ و ٦١ و ٦٣ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٤ و ٨١ و ٩٥

وفائدة هذا التكرار أن ترسخ هذه العقيدة في قلوب المتعبدين بتلاوة القرآن بكثرة تذكرها في المواضع المختلفة من ذكر الاعمال التي يترتب عليها ذلك الجزاء وان من ضروب إعجاز القرآن أن يرد فيه المعنى الواحد في العشرات أو المئات من المواضع ، ولا يمل تكراره القاريء ولا السامع

﴿ الفصل الثالث ﴾

(في آيات الايمان الصادق وصفات أهله وطبقاتهم وفيه ٣٢ شاهداً)

(الشاهد الاول) آية صدق الايمان المميزة بين الصادقين والمنافقين ومرضى القلوب التي تظهر بالامتحان وهو الجهاد وحفظ أسرار الملة والدولة أن يفضى بها إلى وليجة أو بطانة من دون المؤمنين ومنهم جواسيس الاعداء . وهو نص الآية ١٦ (ص ٢٠٢ ج ١٠)

(٢) آية صدق الايمان وما ينافيه من ولاية الآباء والاخوان الذين يستحبون الكفر على الايمان في الآية ٢٣ (ص ٢٢٣ ج ١٠)

(٣) آية صدق الايمان تفضيل حب الله ورسوله والجهاد في سبيله على حب الآباء والابناء والاخوان والعشيرة والمال والتجارة والمساكن المرضية . وذلك مفصل في الآية ٢٤ وتجد من بيان معانيها في تفسيرها مالا تجد مثله في شيء من كتب التفسير (ص ٢٢٥ ـ ٢٤٢ منه)

(٤) أخوة الاسلام الدينية في الآية ١١ وتفسيرها في (ص ١٨٧ و ١٩٠)

(٥و٦) عمارة مساجد الله حسا ومعنى وعدم خشية أحد إلا الله في الآية ١٨

(٧) ولاية بعض المؤمنين لبعض ذكوراً وإناثا (٨) الامر بالمعروف والنهي عن المنكر (٩) طاعة الله ورسوله ـ في الآية ٧١ (*)

(*) وفي هذه الآية اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وهما أهم أركان الاسلام العملية كما تقدم في ذكر أصوله.

(١٠) صفات المؤمنين المميزة لهم من المنافقين في المقابلة بين الآيتين ٤٤ و٤٥ (ص ٤٦٨ و٤٦٩) وبين الآية ٦٨ ومابعدها (ص ٥٣٣) والآية ٧١ وما بعدها (ص ٥٤١)والآية ٨٦ وما بعدها (ص ٥٨١) والآية ٨٨ وما بعدها (ص٥٨٢) وبين الآيتين ٩٨و٩٩(ص٩-١٢ج١١) وبين الآيات ١٢٤ـ ١٢٧ (ص٨٢ منه)

(١١) طبقات خيار المؤمنين الثلاث: المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان في الآية المتممة للمائة(ص١٣ منه)وفي الآية ١١٧ (ص٦٤ منه)

(١٢) المؤمنون الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا في الآية ١٠٢ (ص٢٠ منه) والمؤمنون الذين أرجأ الله قبول توبتهم في الآية ١٠٦ (ص٣٥ منه)

(١٣) الاخلاص في الانفاق في سبيل الله ابتغاء القربات عند الله ، وصلوات الرسول أي أدعيته ـ الآية ٩٩

(١٤) العمل النافع للدنيا والدين الذي يرضي الله ورسوله والمؤمنين ـ الآية ١٠٥

(١٥) حب التطهر من الادران الحسية والارجاس المعنوية ـ الآية ١٠٨

(١٦) بيع المؤمنين أنفسهم وأموالهم لله تعالى بالجنة في الآية ١١١

(١٧ـ٢٥) صفات هؤلاء المؤمنين : التوبة. العبادة الخالصة . الحمد لله على كل حال . السياحة . ركوع الخضوع . سجود الخشوع . الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحفظ لحدود الله في الآية ١١٢

(٢٦) آية المؤمنين عدم الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى ـ الآية ١١٣

(٢٧) تقوى الله عزوجل (٢٨) ملازمة الصادقين ـ الاية ١١٩

(٢٩) التفقه في الدين (٣٠) إنذار الناس وتعليمهم ـ الآية ١٢٢

(٣١) الغلظة في القتال على الكفار المحاربين ـ الآية ١٢٣

(٣٢) زيادة الايمان بنزول القرآن في الآيتين ١٢٤و١٢٥

الباب الرابع

(في المسائل المالية والعسكرية والسياسية ، ومافيها من احكام القتال والعهود . وفيه ٣فصول)

﴿ الفصل الاول في احكام الاموال ﴾

(تقدم في سورة الانفال أحكام الغنائم وما في معناها من أموال الحرب وفرض الخمس فيها ومصارفه وحق آل الرسول ﷺ فيه وحكمته وما للامة فيه من المصلحة، وبيان أنواع الاموال الشرعية في الاسلام وامهات مقاصدها في الدولة الاسلامية . فما في هذه السورة متمم لما قبله في الاموال كما انها متممة لما فيها من احكام القتال وشؤون المنافقين والكفار

والكلام في هذا الموضوع ثلاثة أقسام (١) المسائل الدينية والاجتماعية في الاموال (٢) أنواع الاموال ومصارفها (٣) فوائد اصلاح الاسلام المالي للبشر

(القسم الاول)

﴿ في مكان انفاق المال من الايمان، والبخل به من النفاق، وفيه ١٠ مسائل ﴾

(المسألة الاولى) كون الزكاة المعينة أحد أركان الاسلام لا تقبل دعواه من الكفار بدون التزامها، ولا تحصل اخوته الدينية الا بأدائها ، واعتبار ما نعيها من الجماعات مرتدين تجب مقاتلتهم . وفي الافراد خلاف تقدم تحقيق الكلام فيه . ونص ذلك في قوله تعالى (٥ ـ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وقوله (١١ ـ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين) ويؤكده عد الزكاة كالصلاة من صفات المؤمنين الراسخة في آية (٧١ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) الخ

(م ٢) كون بذل الاموال في سبيل الله آية الايمان الصحيح وقوام الدين، ومن شواهده الآيتان المشار اليهما آنفا في فريضة الزكاة ، ومنها الآية (٢٠ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله) إلى قوله في الاية (٢٢) إن الله عنده أجر عظيم * ومنها الوعيد الشديد لمن أمواله وتجارته وسائر حظوظه أحب اليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، وهو في

الآية(٢٤)ومنها قوله تعالى في آية النفير العام (٤١ انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) وقوله (٤٤ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) ويتم معناها الآيتان بعدها. ومنها قوله تعالى(٥٥فلاتعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا)

(م ٣) كون البخل والامتناع عن الانفاق في سبيل الله آية الكفر والنفاق فمن شواهده عدم قبول نفقة المنافقين وكون أموالهم بلاء ووبالا عليهم في الدنيا والاخرة في الآيات٥٣و٥٤و٥٥(ومنها) لمز المنافقين للنبي ﷺ في قسمة الصدقات للطمع في المال في الاية ٥٨ (ومنها) وصف المنافقين بالبخل وقبض الايدي عن الانفاق في قوله (٦٨ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض-إلى قوله-ويقبضون أيديهم) ويؤكدها ضرب المثل لهم في الاية ٧٠ بعدها بالذين من قبلهم من المغرورين بالقوة والمال،ووصف المؤمنين بعدها بصفات منها (إيتاء الزكاة)

(ومنها) قوله تعالى (٧٥ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) الاية والوعيد الشديد على البخل في الايات التي بعدها (ومنها) لمز المنافقين المتطوعين من المؤمنين في الصدقات في الاية ٧٦ ومنها (٨١ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) الاية

(م ٤) وصف كثير من رؤساء الدين من أهل الكتاب بأكل أموال الناس بالباطل تحذيراً من فعلتهم، ورفعا لقدر كل مسلم أن يسف ويسفل الى دركتهم

(م ٥) الوعيد على كنز الاموال وعدم انفاقها في سبيل الله في الآيتين (٣٤ و ٣٥ يأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل — الى قوله — فذوقوا ما كنتم تكنزون)

(م ٦) آية (٩٨ ومن الاعراب من يتخذ ماينفق مغرما) وهم منافقوهم كبني أسد وغطفان كانوا يعطون الصدقات رياءوخوفا لا يرجون منها نفعا بتأييد الاسلام ولا ثوابا في الآخرة لعدم ايمانهم، فهي في نظرهم مغارم يلتزمونها ليصدقوا بما يظهرون من اسلامهم،وهكذا شأن المنافقين في الدين وفي القومية والوطنية لايبذلون شيئا من مالهم لاجل المصلحة العامة ، بل للرياء والسمعة ،وهو في نظرهم غرامة

(م ٧) آية (٩٩ ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) وهم بنو أسلم وغفار وجهينة وحسبك شهادة الله تعالى لهم بصدق إيمانهم وحسن نيتهم في نفقاتهم ، وحكمها عام

(م ٨) الترغيب في الصدقات بالتعبير عن قبولها والاثابة عليها باخذ الله عز وجل لها كما في الآية (١٠٤)

(م ٩)الترغيب فيها بقوله تعالى (١١١ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بان لهم الجنة) الآية

(م ١٠) فضل النفقة في الجهاد قلت او كثرت وكون الجزاء عليها احسن الجزاء وهو نص الآية (١٢١) وتفسيرها في ص ٧٦ ج ١١

(القسم الثاني)

(أنواع الاموال الشرعية وأحكامها بالاجمال ومصارفها وفيه ١٤ مسألة)

(١) مال الجزية — وقد بينا معناها وتاريخها وأحكامها وشروطها في تفسير آية الجزية(٢٩) وهو في ص ٢٨١ — ٣٠٦ ج ١٠

(٢) أنواع الصدقات الواجبة المقدرة الموقوتة وهي النقدان من الذهب والفضة والتجارة في استغلالها والأنعام والزرع الذي عليه مدار الاقوات والركاز وهو المدفون في الارض يعثر عليه والمعدن (ص ٤٨٩ و٥٠٨ ج ١٠)

(٣) سهم الفقراء والمساكين وهل هما صنفان أو صنف واحد ينقسم بالوصف الى قسمين ؟ (راجع ص ٤٩٠ ج ١٠)

(٤) سهم العاملين على الصدقات من جباة وخزنة وكتبة (ص ٤٩٣)

(٥) سهم المؤلفة قلوبهم وهم ستة أصناف (ص ٤٩٤)

(٦) سهم الرقاب أي تحرير الرقيق باعانته على شرائه لنفسه المعبر عنه بالكتابة أو شرائه من مالكه وعتقه (ص ٤٩٧)

(٧) سهم الغارمين الذين ركبتهم ديون تعذر عليهم أداؤها والذين يغرمون

عمدا ما ينفقونه لاصلاح ذات البين ومنع الفتن الثائرة (ص ٤٩٨)

(٨) سهم الانفاق في سبيل الله على الغزاة والمرابطين الذين لا نفقة لهم من بيت المال ، وما يدخل في عموم ذلك من المصالح العامة (ص ٤٩٩ — ٥٠٤

(٩) سهم ابن السبيل وهو المنقطع عن بلده في سفر لا يتيسر له فيه الوصول الى ماله ان كان له مال فيعطى لفقره العارض ما يستعين به على اتمام سياحته والعود الى بلده وأهله (ص ٥٠٤)

(١٠) الدليل على كون عروض التجارة مما تجب فيه الزكاة (ص ٥٠٨)

(١١) توزيع الصدقات على الاصناف كلهم أو بعضهم (ص ٥٠٩)

(١٢) الزكاة المطلقة والمعينة ومكانتها في الدين وحكم دار الاسلام ودار الكفر فيها والبلاد المذبذبة بين الدارين (ص ٥١١)

(١٣) لا تعطى الزكاة للمرتدين ولا للاباحيين والملاحدة (ص ٥١٣)

(١٤) التزام أداء الزكاة كاف لاعادة مجد الاسلام (ص ٥١٤)

﴿ فصل في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات واصلاح الاسلام المالي للبشر ﴾

(وامتياز الاسلام بذلك على جميع الاديان)

وفيه مقدمة في منافع المال وارتباط جميع مصالح البشر الدنيوية والدينية به وشأنهم في حبه وكسبه وانفاقه وامساكه ، وارشاد الدين فيه ، وكون الاسلام وسطا بين اليهودية والمادية فيه ، وغلو عباده من اليهود والافرنج في جمعه واستغلاله ــ وبين بدعة البلشفية الاشتراكية في مقاومة الشعوب والدول المالية وغلوها في ذلك وفي هدم الاديان . وتلخيص الاصلاح الاسلامي المالي في أربعة عشر أصلا (فتراجع في ص ٢٧ ـ ٣١ ج ١١)

(الفصل الثاني في أحكام القتال والمعاهدات والصلح وهي ٢٠ حكما)

(الحكم الاول) البراءة من المشركين ونبذ عهود المعاهدين منهم، ذلك أن مشركي مكة قد ناصبوا النبي ﷺ العداوة منذ دعا الى التوحيد وتبعهم سائر العرب فكانوا حربا له ولمن آمن به يقتلون كل من ظفروا به منهم أو يعذبونه اذا لم يكن له من يحميه من المشركين، ولما هاجروا من مكة صاروا يقاتلونهم في دار هجرتهم وكان الله ينصر رسوله والمؤمنين عليهم كما وعده . حتى اذا ما كثروا وصارت لهم شوكة اضطر المشركون الى عقد أول صلح معهم في الحديبية فعاهدوهم سنة ست للهجرة على السلم والامان مدة عشر سنين ولم تلبث قريش مع أحلافها من بني بكر أن غدروا ونقضوا العهد، فكان ذلك سببا لفتح النبي ﷺ مكة سنة ثمان ، ثم جمع المشركون جموعهم لقتاله في حنين والطائف فنصره الله عليهم ، وأمره في السنة التالية بأن ينبذ للمشركين عهودهم ويتبرأ منهم في موسم الحج (ص ١٩ ج ١٠)

(الثاني) أذان المشركين (إعلامهم) بذلك أذانا عاما في يوم الحج الاكبر وهو عيد النحر الذي تجتمع به وفود الحاج من جميع القبائل في منى بحيث يعم هذا البلاغ جميع قبائل العرب في اقرب وقت ، لان الاسلام يحرم الغدر وأخذ المعاهدين على غرة . فكان لا بد من اعلامهم بذلك بما ينتشر في جميع قبائلهم ، وكانت تلك الوسيلة الوحيدة لعلم كل فرد منهم بعود حالة الحرب بينهم وبين المسلمين، وهذا من عدل الاسلام ورحمته لان المشركين لم تكن لهم دولة ولا رئيس عام يبلغهم مايتعلق بشؤونهم ومصالحهم العامة فيكتفى بابلاغه مثل هذا كما هو المعهود في الدول الملكية أو الجمهورية المدنية، ولم يكن في عصرهم صحف منتشرة عامة ولا آلات للاخبار البرقية تنشر مثل هذا البلاغ

(الثالث) منحهم هدنة اربعة أشهر يسيحون في الارض حيث شاؤا آمنين مطمئنين أحراراً في سيرهم وإقامتهم وسائر اعمالهم الدينية والدنيوية ليتروَّوا في امرهم، ويتشاوروا في عاقبتهم . وفي هذا من رحمة القادر بعدوه مايفتخر به المسلمون بحق . وهذه الاحكام صريحة في الآيات الثلاث الاولى من السورة (ص١٤٩ ج ١٠)

(الرابع) وعظهم بأنهم إن تابوا من شركهم وما يغريهم به من عداوة المؤمنين

وقتالهم والغدر بهم فهو خير لهم، لانهم لن يعجزوا الله في الارض ولن يعجزوه هربا منها، وقد وعد بنصر رسوله عليهم من قبل ان يكثر أتباعه ويبايعه انصاره، وأنجز له وعده في جملة غزواته معهم، وسبب هذا الوعظ ان الايمان امر اختياري طريقه الموصل اليه الدعوة ودلائل الاقناع، وذلك قوله في بقية الآية الثالثة (فان تبتم فهو خير لكم) الخ وفيها من الإخبار عن المستقبل ماصدقه الواقع

(الخامس) استثناء بعض المشركين من نبذ عهدهم وهم الذين عاهدهم المؤمنون عند المسجد الحرام في الحديبية سنة ست ولم ينقصوهم من شروط العهد ومواده شيئاً، ولم يظاهروا او يعاونوا عليهم احداً من أعدائهم المشركين ولا اهل الكتاب، كما نقض اهل مكة العهد بمظاهرة أحلافهم بني بكر على احلاف النبي ﷺ بني خزاعة، والامر باتمام عهدهم إلى نهاية مدته، وتعليله بأنه من التقوى التي يحبها الله تعالى. وهذا نص الآية الرابعة بشرط ان يظلوا مستقيمين عليه كما بينه في الآية السابعة

(السادس) الامر في الاية الثامنة باستعمال جميع اسباب القتال معهم بعد انسلاخ أشهر الهدنة التي ضربت له وحرم فيها، وهي القتل والاسر والحصر والقعود لهم في جميع المراصد لمراقبتهم ومنعهم من التجوال والتقلب في البلاد، وهو يدل على شرعية استعمال ما يتجدد بين البشر من وسائل القتال الموافقة لاصول الاسلام العادلة الرحيمة — فان استعمل العدو ماهو مخالف لها قابلناه بالمثل لعموم قوله تعالى (ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله)

(السابع) تخلية سبيل من يتوبون من الشرك بالنطق بالشهادتين ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، لانهم بهذا يدخلون في الاسلام، ومن قبل الصلاة والزكاة والتزمهما فلابد أن يلتزم غيرهما. وهذا نص الآية الخامسة

(الثامن) ايجاب إجارة من يستجير النبي ﷺ منهم — وفي حكمه الامام الاعظم ونائبه والقائد العام في حال الحرب — لاجل ان يسمع كلام الله ويقف على دعوة الاسلام وإبلاغه بعد ذلك المكان الذي يأمن فيه على نفسه من سلطان المسلمين

(التاسع) تعليل نبذ عهد المشركين السابق وعدم استئنافه معهم بالاسباب الآتية

(١) انهم نقضوا عهد الحديبية بالغدر فلم يخبروا المؤمنين بذلك ليأخذوا اهبتهم

(ب) ان من دأبهم وشأنهم انهم إذا ظهروا على المؤمنين برجحان قوتهم لا يرقبون فيهم عهداً ولا ذمة ولا قرابة، بل يفتكون بهم بدون رحمة

(ج) انهم ينافقون ويكذبون عليهم في حال الضعف فيرضونهم بأفواههم، ويقولون بألسنتهم لهم ما ليس في قلوبهم ، وأكثرهم اي السواد الاعظم منهم فاسقون اى خارجون من قيود العهود والمواثيق والصدق والوفاء.

(د) انهم يصدون عن سبيل الله ويعادون الاسلام وأهله لاجل منفعة قليلة يتمتعون بها ويخافون ان تسلب منهم بالتزام شريعته التي تحرم اكل اموال الناس بالباطل كالربا والقمار والغصب والغزو لاجل الكسب وكانوا يستبيحون كل ذلك

(ه) أنهم ـ على كونهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة في حال القوة ولا في حال الضعف ـ هم المعتدون على المسلمين بالقتال، فلا يمكن أن يظلوا معهم كذلك في كل حال

(و) انهم نكثوا عهودهم السابقة، فكذلك ينكثون غيرها فلا ثقة بها فتراعى

(ز) انهم هموا باخراج الرسول من وطنه ، بل هم الذين اضطروه الى الخروج هو وسائر من آمن معه ، وذلك بعد ان تواطؤا على قتله

(ح)انهم هم الذين بدؤا المؤمنين بالقتال أول مرة، وبقيت الحرب مستمرة ، فلما أنهت معاهدة الحديبية حالة القتال أعادوها بغدرهم فيها ونقضهم لها ، وهذه الاسباب الثمانية صريحة في الآيات ٧ — ١٠

(الحكم العاشر)وجوب قتال مشركي العرب كافة الا أن يسلموا وهو نص الاية الخامسة المعروفة بآية السيف ، وقوله في الاية ٣٦ (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) ووجهه ما علم من جملة الايات في قتال مشركي العرب وهو عدم قبول الجزية منهم وعدم إقرارهم على السكنى والمجاورة للمسلمين في بلادهم مع بقائهم على شركهم لانهم لا أمان لهم ولا عهود فيمكن ان يعيش المؤمنون معهم بسلام

(الحكم ١١) تحريم ولاية الكفار من الآباء والاخوان كفيرهم على المؤمنين وكونها من الظلم العظيم في الآية ٢٣

(الحكم ١٢) حكم قتال أهل الكتاب بشرطه حتى يعطوا الجزية في الآية (٢٩)

ومن فروع هذه المسألة الفرق في القتال بين مشركي العرب وسائر الوثنيين. ومنها أن مافي هذه السورة من قتالهم وقتال أهل الكتاب انما هو في بيان غايته لا في بدايته ، وان أول ما نزل من التشريع في القتال آيات سورة الحج (٢٢ : ٣٩)ثم آيات سورة البقرة التي أولها ٢ : ١٩٠ (راجع آخر ص٢٧٩ ج ١٠ ومابعدها وص٢٨٩) ويليها آيات سورة الانفال فسورة آل عمران فسورة محمد فهذه السورة.

(الحكم ١٣) وصف أهل الكتاب الذين بين حكم قتالهم هنا بأربع صفات سلبية هي علة عداوتهم للاسلام ووجوب خضوعهم لحكمه ليأمن اهله على أنفسهم وحرية دينهم معهم (فيراجع تفسير آية الجزية في ص ٢٨١ وما بعدها)

(فصل في حقيقة الجزية لغة وشرعا وتاريخها وشروطها وأحكامها وسيرة الصحابة فيها) ص ٢٩٠ — ٣٠٦ ج ١٠

﴿استطراد في حقيقة معنى الجهاد والحرب والغزو وإصلاح الاسلام فيه ﴾ ص ٣٠٦ — ٣١٢ ج ١٠

﴿ فصل في دار الاسلام والعدل . ودار الحرب والبغي ، وحقوق الاديان والاقوام في هذا العصر ﴾ ص ٣١٣ — ٣٢١ ج ١٠

(الحكم ١٤) ابطال النسيء في الاشهر لاجل القتال وكونه تشريعا جاهليا وهو نص الآية ٣٧

(الحكم ١٥) النفير العام، وهومايكون القتال به واجبا بشرطه على الاعيان كما فصل في الآيات ٣٨و ٣٩و٤١ وأما النفير الخاص فهو في الاية ١٢٢

(الحكم ١٦) الاستئذان في التخلف عن الجهاد بالمال والنفس من علامات النفاق ومنافيات الايمان بالله واليوم الآخر كما ترى في الآيتين ٤٤ و ٤٥ وما قبلهما وبعدهما من أحوال المنافقين وتتمة ذلك في الآيات ٨٦ — ٩٣

(الحكم١٧) وجوب مجاهدة الكفار والمنافقين في المعاملات المدنية والادبية وهم الخاضعون لأحكام الاسلام كما في الآية (٧٣)

(الحكم ١٨) الاعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد في قوله تعالى (٩١ ليس على الضعفاء ولا على المرضى) الى آخر الآية ٩٣

(الحكم ١٩) وجوب بذل الانفس والاموال في القتال المشروع لاعلاء كلمة الله وهي الحق والعدل باشتراء الله إياهما من المؤمنين بأن لهم الجنة ، وهو نص الآية ١١١ وتقدم تحريم الفرار من الزحف في سورة الانفال

(الحكم ٢٠) قتال الاقرب فالاقرب من الكفار الحربيين وهو نص الآية ١٢٣

﴿الفصل الثالث﴾

في القواعد والاصول السياسية والحربية المأخوذة من المسائل والاحكام السابقة

وهي ١٣ أصلا

(١) جواز البراءة من العهود ونبذها للمعاهدين لدفع المفاسد المترتبة على بقائها . وهو في الآيتين الأولى والثانية من السورة

(٢) عقد المعاهدات مع الدول والأمم من حقوق الامة لأن لها غنمها وعليها غرمها ، وإنما يعقدها الامام أو نائبه من حيث إنه هو الممثل لوحدة الامة . وهو منطوق إسنادها الى المؤمنين في قوله في الآية الأولى (عاهدتم من المشركين) مع العلم بأن الذي تولى العقد وكتب باسمه في الحديبية هو النبي ﷺ

(٣) نبذ المعاهدات يجب أن يذاع وينشر بحيث يعرفه المخاطبون بالعمل به كما أمر الله بالاذان به يوم الحج الاكبر ، والاذاعة تختلف باختلاف الازمنة والامكنة وأحوال البشر في حضارتهم وبداوتهم

(٤) وجوب الوفاء بالمعاهدة ما دام الطرف الآخر من الاعداء يفي بها ولا ينقص منها شيئاً كما ترى في الآيات ٤ و٧ و١٢ و٣ إكمالا لما تقدم في سورة الانفال

(٥) المعاهدة الموقوتة تنتهي بانتهاء مدتها بنص قوله تعالى (فأتموا اليهم

عهدهم الى مدتهم) وقوله — (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم)

(٦) ان القبائل والشعوب التي ليس لها دين ولا شرع يحرم عليها نقض العهود وجرب عليها نكثها للايمان لا يجب التزام معاهداتها السابقة ولا تجديد ما انتهت مدته منها كما تراه مفصلا في الآيات الثلاث عشرة الأولى من السورة ، ودول الافرنج تعمل بهذه القاعدة فلا تعقد المعاهدات الا مع الدول المنظمة التي تلتزم الشرائع والقوانين الدولية

(٧) الهدنة بين المحاربين مشروعة وللمسلمين أن يبدأوا بها اذا اقتضت ذلك المصلحة ومنها الرحمة بالمشركين فيما لا يضر المؤمنين ، وهو نص قوله تعالى في الآية الأولى (فسيحوا في الارض أربعة أشهر)

(٨) تأمين الحربي بالاذن له بدخول دار الاسلام جائز للمصلحة فاذا استأمن لأجل سماع كلام الله أو الوقوف على حقيقة الاسلام وجبت إجارته ثم إبلاغه مأمنه عند الخروج من دار الاسلام ، وهو في الآية السادسة

(٩) انتهاء قتال مشركي العرب منوط بالدخول في الاسلام ومفتاحه التوبة من الشرك والتزام أحكام الاسلام وأهمها ركنا الصلاة والزكاة

(١٠) انتهاء قتال أهل الكتاب ومن في معناهم يناط بالاسلام أو باعطاء الجزية مع الخضوع لأحكام شرعنا كما ترى في آية الجزية ٢٩ وفي تفسيرها بيان حكم سائر الملل

(١١) النفير العام الذى يكون به الجهاد فرضاً على الاعيان في الآية ٤١ وترى في تفسيرها ما تكون به فرضيته ، وما يكون به فرض كفاية

(١٢) امتناع نفر المؤمنين كلهم للجهاد في غير حال النفير العام في الآية ١١٦

(١٣) العجز عن القتال أو عن الخروج اليه عذر في التخلف عنه وتجد بيان أنواعه الشخصية والمالية في الآيات الثلاث ٩١ — ٩٣ وهي تختلف باختلاف أحوال الزمان والمكان والاستعداد للقتال

الباب الخامس

(في شؤون الكفار والمنافقين وحكم الاسلام عليهم وسياسته فيهم وفيه فصول)

(الفصل الاول في ذم القرآن للكفار والمنافقين ونزاهته فيه عن السب والشتم)

(تنبيه وتمهيد)

الذم الوصف بالقبيح ، والسب والشتم ما يقصد به التعيير والتشفي من الذم سواء كان معناه صحيحاً واقعاً أو افكا مفترى ، والقرآن منزه عن ذلك ، قال تعالى (٨:١٠٨ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) فنهى عن سب آلهة الكفار ومعبوداتهم ومنها الاصنام ، وقال النبي ﷺ « المستبان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان » رواه أحمد والبخاري في الادب المفرد من حديث عياض بن حمار بسند صحيح . فما في القرآن من ذم الكفار والمنافقين بيان لحقيقة حالهم وقبح أعمالهم ، وما يعقبها من الفساد والضرر بهم وسخط الله تعالى عليهم ، واستحقاقهم لعقابه ، وبعدهم من رحمته وثوابه ، بقصد الانذار والوعظ ، لاجل التنفير والزجر ، ولذلك تراها موجهة اليهم بوصفهم أو الى وصفهم العام: المشركين ، الكافرين ، المنافقين ، الفاسقين ، الظالمين ، المجرمين ، المفسدين . أو الخاص بطائفة منهم كبعض الاحبار والرهبان لا كلهم دون الاشخاص المعينين باسمائهم وألقابهم ، مهما يكن من شدة كفرهم وايذائهم للنبي ﷺ والمؤمنين كعبد الله ابن أبي بن سلول رئيس المنافقين الذي كان شرهم وأجرأهم على الضرر ، فقد كان ضرره في المدينة أشد من ضرر أئمة الكفر والشرك في مكة (كابي جهل)

ومن اطلع على شيء من هجاء العرب وسبابهم البذيء ، وقذعهم الفاحش أدرك نزاهة القرآن ، وعلوه عن مثل بذاءتهم في الكلام

ويستثنى من هذه القضية الكلية في ذم الشخص المعين من أعداء الاسلام والرسول (ص) ما نزل في ذم أبي لهب وامرأته في سورة وجيزة لما بيناه من حكمة ذلك في قصة ابراهيم مع أبيه آزر والاستطراد إلى آباء الانبياء وأولي قرباهم

وما صح في الاحاديث في أبوي النبي ﷺ وعميه أبي طالب وأبي لهب ، لاثبات قاعدة عظيمة في الفرق بين دين الله تعالى على ألسنة أنبيائه ورسله والاديان الوثنية ، وهي أن دين الله تعالى مبني على أن مدار السعادة والنجاة من عذاب الآخرة والفوز بنعيمها انما هو الايمان الصحيح والاعمال الصالحة التي تتزكى بها الانفس وتكون بصفاتها العالية أهلا لجوار الله تعالى ومرضاته . وأن الاديان الوثنيه مبنية على أن السعادة والنجاة والفوز إنما تكون بوساطة بعض المخلوقات التي توصف بالولاية والقداسة أو النبوة ويدعى لها التأثير في النفع والضر بأنفسها أو بالشفاعة عند الله تعالى وكونها تحابي بشفاعتها ووساطتها أولي القرابة منها والمتقربين اليها بالمدح لها والاستغاثة بها ودعائها من دون الله أو مع الله عز وجل

وقد كان ابو لهب اغنى بني هاشم ومن اكثر المشركين غروراً بماله وثروته ونشبه ونسبه وكان بهذا الغرور اول من جاهر بعداوة ابن اخيه (محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه) محتقراً له لانه كان هو وابوه الذي لم يدركه وعمه الذي كفله بعد جده افقر بني هاشم ، وقال له حين جمع عشيرته وبلغهم دعوة ربه امتثالا لامره (وانذر عشيرتك الاقربين) : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ وكان يقول لقريش : خذوا على يديه ، قبل أن تجتمع العرب عليه . وكان أشد المشركين صدا للناس عنه وتكذيباً له كلما دعا أحداً منهم إلى الاسلام ، وكان كلامه مقبولا عندهم أكثر من كلام سائر الرؤساء الذين جاهروا بعداوته كابي جهل وعقبة بن أبي معيط وأبي سفيان بن حرب لقرابته ، وكذلك كانت امرأته أم جميل أخت أبي سفيان مسرفة في عداوته وذمه والصد عن دعوته بالنميمة ونقل الاخبار الكاذبة عنه لتبغيضه للناس ، وهو المراد من كنيتها « حمالة الحطب » كما هو معروف عند العرب . وروي انها كانت تجمع الحطب الشائك وتلقيه في طريقه بالفعل ، ومع هذا كله لم تكن السورة التي نزلت فيه الادعاء عليه بالتباب وهو الخسار المفضي إلى الهلاك أو اخبارا به ، وبكونه لا يغني عنه ماله الكثير وما كسبه من الجاه والولد شيئاً ـ في مقابلة قوله للرسول ﷺ تبا لك سائر اليوم — فهو إخبار بعاقبة أمرهما ومو تهما على كفرهما ، وخسرانهما سعادة الدنيا والآخرة ، وقد صدق

خبر الله ووعيده له، فهو قد مات بعد وقعة بدر التي ساعد عليها بماله، آسفاً لعجزه عن الخروج اليها بنفسه ، فذاق وبال امره بخذلان اقرانه من صناديد قريش ورءوس الشرك ، وخسران ماله الذي أنفقه فيها ، مصداقا لقوله تعالى (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) ورأي بصداقها مبادىء عز الاسلام ونصره . مات بعدها بأيام قليلة بالعدسة شر ميتة، وترك ميتاحتى أنتن ، ثم استؤجر بعض السودان حتى دفنوه . وكان فجع بعد نزول السورة بولده عتبة الذي كان يعتز به، افترسه أسد في طريق الشام ، ولو أسلم كما أسلم أخوه وثانيه في جمع المال (العباس رضي الله عنه) لرأى مثل ما رأى هو وذريته من عز الاسلام، وصدق ابن أخيه عليه أفضل الصلاة والسلام، في وعده لهم بأن كلمة «لا إله إلا الله» تجمع عليهم العرب ، وتدين لهم بها العجم .

ذكرت هذا التنبيه الطويل لبيان غلط بعض العلماء في قولهم إن القرآن اشتمل على سبهم وسب آلهتهم، وتفنيداً لما يهذي به بعض ملاحدة الكتاب في المقارنة بين أدبه والأدب الجاهلي. وما روي من قول رءوس المشركين للنبي ﷺ لقد سببت الآباء وعبت الدين وسفهت الاحلام وشتمت الآلهة - فذكر السب والشتم فيه مبالغة في الانكار على أنه مرسل ضعيف السند وفيه رجل مبهم . وهاك ما وصف الله تعالى به أعداءه وأعداء رسوله والمؤمنين من هؤلاء المنافقين والكافرين في هذه السورة وهو اشده.

﴿ شواهد ذم القرآن النزيه للكفار والمنافقين ﴾

(١-٤) وصف المشركين في الآيات (٨و٩و١٠) بأنهم لا يرقبون ولا يراعون في أحد من المؤمنين إلا ولا ذمة، حتى قطعوا أرحامهم بهم خلافا لمادتهم في عصبية النسب، وانهم يصدون عن سبيل الله، وأن اكثرهم فاسقون وأنهم هم المعتدون.

(٥) قوله تعالى في منعهم عن عمارة المسجد الحرام وغيره ومن التعبد فيه (١٧ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ، أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون)

(٦) قوله تعالى (٢٨ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) وكانت نجاستهم معنوية وهي الشرك وخرافاته ، وحسية إذ كانوا يأكلون الميتة ولا يدينون بالطهارة من النجاسة ولا الحيض والجنابة

(٧ - ١٠) وصف كفار أهل الكتاب في الآية (٣٠) بأنهم باتخاذ ابن لله سبحانه يضاهئون قول الذين كفروا من قبلهم كوثنيي قدماء الهند والمصريين وقوله (قاتلهم الله أنى يؤفكون) ووصفهم في الآية (٣١) بأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، وفي الآية (٣٢) بأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم أي بكلامهم الباطل في الصد عن الاسلام - وفي الآية (٣٤) بأن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . وكل هذه الصفات ظاهرة معروفة في تاريخهم الماضي وسيرتهم في هذا الزمان ، ومن دقائق الصدق في القرآن الحكم في مثل هذا على الكثير منهم دون الجميع كما قال في المشركين (وأكثرهم فاسقون) ولم يعهد مثل هذا التحري في كلام البشر

وأما وصفه لشرور المنافقين وذمهم فيها فنلخصه فيما يأتي تابعاً في العدد لما قبله

(١١) ذكر في استئذان المنافقين واعتذارهم عن الخروج إلى غزوة تبوك وبيان ما يكون شأنهم لو خرجوا من ابتغاء الفتنة والافساد بين المؤمنين بالتثبيط وغيره ولم يزد فيها على قوله فيهم (والله عليم بالظالمين) وقوله (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) (راجع الآيات ٤٢ — ٤٩)

(١٢ و١٣) تعليل عدم قبول نفقاتهم في الآية ٥٣ بفسقهم وقوله بعده (٥٤ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون)

(١٤ و١٥) وصفهم بعد اثبات استهزائهم فيما بينهم بالله وآياته ورسله واعتذارهم عنه بقولهم « انما كنا نخوض ونلعب » بأنهم كفروا بعد ايمانهم وأنهم كانوا مجرمين ثم قال بعد ذكر صفاتهم العامة من الآية ٦٧ (نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون) اي الخارجون من محيط هداية الدين وسلامة الفطرة

(١٦) قوله في لمزهم وعيبهم للمتطوعين من المؤمنين في الصدقات وسخريتهم

منهم في الآية ٧٩ (سخر الله منهم ولهم عذاب اليم) وهذا التعبير يسمى بالمشاكلة اي عاقبهم بمثل جرمهم فجعلهم سخرية للمؤمنين بما فضح به نفاقهم الذي كانوا يخفونه

(١٧) قوله في تعليل عدم غفران الله لهم (٨٠ ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين) وقوله في هذا المعنى (٨٤ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وقد نزل هذا في زعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول ولكن جعل حكم النهي عاما

(١٨و١٩) أشد ماوصفهم به في الآية (٩٥) أنهم رجس وانه كلما نزلت سورة من القرآن زادتهم رجسا إلى رجسهم، حتى ماتوا على كفرهم كما في الآية ٥٢ وانهم عند نزولها ينصرفون من مجلس النبي ﷺ عند غفلة المؤمنين عنهم ثم قال (صرف الله قلوبهم بانهم قوم لا يفقهون) أي صرف الله قلوبهم عن الاهتداء بها بسبب انهم لا يفقهون ما فيها من البينات والهدى بمقتضى سنته في ارتباط الاسباب بمسبباتها وهذا آخر ماذكروا به في هذه السورة من الآية ١٢٧

فانت ترى ان كل ما وصفوا به بيان لحقيقة حالهم بأنزه تعبير يدل عليه مقرونا بتلك الاعمال القبيحة والاخلاق السافلة والسرائر التي هي شر منها — وأن المراد بوصفهم التنفير منه لاعداد من فيه استعداد لقبول الحق بالرجوع اليه وقد تاب أكثرهم ولله الحمد

﴿ الفصل الثاني ﴾

(في المنافقين وصفاتهم واعمالهم وسياسة الاسلام فيهم)

النفاق خلق رديء ووصف خبيث تتلوث به الانفس الدنيئة الفاسدة الفطرة فلا يرى اهلها وسيلة الى مطامعهم في المال ومطامحهم الى الجاه الا الكذب والرياء، ولقاء الناس بالوجوه المختلفة، والتصنع والخداع ولين القول، كما قال تعالى فيهم (واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم) وهم يوجدون في كل شعب وكل قبيلة، لا تخلو منهم بادية ولا حاضرة . والنفاق قسمان : خاص وعام، فالخاص هو الشخصي الذي يحاول صاحبه لقاء كل أحد بما يرضيه

عنه ويحببه اليه ولا سيما الحكام وأصحاب الجاه والمناصب والثراء الذين يرجى الانتفاع منهم او يخشى ضرهم . فهو يلبس للصالحين منهم لباس التقوى والصلاح ، ويخلع للفساق جلباب الحياء ، ويفرغ على المستكبرين حلل الاطراء ، وهو اهون النفاقين

واما النفاق العام فهو مايكون في الدين والدولة ، وخيانة الامة والملة ، وما وجد النفاق في عهد الرسول ﷺ الا بعد الهجرة ، لما صار للاسلام قوة ودولة ، اذ اسلم اكثر الانصار بظهور نور هذا الدين القويم لهم ، ولم يكن لهم مصلحة دنيوية تحجب هذا النور عن بصائرهم ، او تحملهم على مكابرة الحق وجحوده ، ككبراء قريش المغرورين بثروتهم الواسعة ، وجاههم في العرب بسدانة البيت الحرام ، واستكبارهم على سائر الناس ، واسرافهم في التمتع بالسكر والزنا واكل الربا والشهوات ، فكانوا يرون أن الاسلام يساوي بينهم وبين سائر الناس في جميع الحقوق ، ويفضل الفقير المتقي لله تعالى على الغني المسرف في الفسوق ، ويقتص للسوقة من الامراء والملوك ، ويحقر المتكبرين ، ويكرم المتواضعين ، ويزدري الظالمين والفاسقين ، فيسلبهم بهذا جميع مايمتازون به على دهماء الناس . ولهذا كان اكثر من اهتدى به في مكة الفقراء وبعض اصحاب الفطرة السليمة والعقول الحرة من الطبقة الوسطى وكان اعلاهم فطرة وأزكاهم نفسا أبو بكر الصديق وسائر العشرة الكرام المبشرين بالجنة

آمن بعض الاوس والخزرج أولا بلقاء النبي ﷺ في موسم الحج ودعوا قومهم الى الاسلام بعد عودتهم الى المدينة فصادفت دعوتهم رواجا لقوة المقتضي وهو التوحيد وفضائل الاسلام ، فلما كثروا هاجر الرسول ﷺ اليهم اذ عاهده نقباؤهم في منى على نصره ومنعه (اي حمايته والذب عنه) مما يمنعون انفسهم وأهليهم ، ومن المعقول ان يكون نور الاسلام لم يظهر لكل فرد منهم على سواء ، وان يكون منهم من اضطر الى الدخول فيما دخل فيه قومهم مواتاة لهم ، مع عدم وجود نظام لديانتهم الوثنية يرتبط به بعضهم ببعض فيقيمونه ويذبون عنه ، فكان منافقو المدينة من هؤلاء وممن حولهم من قبائل الاعراب الذين لم يعقلوا الاسلام ، كاسد وغطفان .

وكان هنالك يهود كثيرون يقيم اكثرهم في حصون لهم بالقرب من المدينة كبني قريظة وبني النضير ، وقد عاهدهم النبي ﷺ على حريتهم في دينهم وأنفسهم وأموالهم، ولكنهم كانوا ينقضون عهده ويظاهرون عليه المشركين كلما جاؤا لقتاله ، بل كانوا يغرونهم ويحرضونهم عليه، فكانوا في اظهار الوفاء بعهده منافقين ، وكان لهم احلاف من عرب المدينة تحافظ على مودتهم منافقوها بالسر كما بينا ذلك كله في محله

فكانت سياسة الاسلام في الفريقين أن من اظهر الاسلام يعامل كما يعامل سائر المسلمين ، لان قاعدة الاسلام ان الحكم على الظواهر، وان الله تعالى وحده هو الذي يحاسب ويعاقب على السرائر ، وأن من حافظ على الوفاء بعهده من أهل الكتاب يوفى له ، وكان اليهود ينقضون عهدهم مع النبي ﷺ سرا ، فاذا ظهر شيء من خيانتهم وغدرهم اعتذروا عنه ، حتى اذا ما افتضح امرهم حاربهم ﷺ وأجلاهم عن البلاد ، كما ترى في تفسير الآيات ٥٥ ـ ٥٨ من سورة الانفال (ص ٤٨ ـ ٦٠ ج ١٠)

وقد قص الله علينا في سورة الحشر ماكان بين اليهود والمنافقين من الاخاء والولاء وانه لاخير فيه لاحد منهما على ان اليهود ظاهروا المشركين على النبي ﷺ ولكن المنافقين لم يفوا لليهود بما وعدوهم به من نصرهم اذا هم اظهروا عداوتهم لان المنافق القح دون المتدين الكافر همة وشرفا وخلقا . قال تعالى (٥٩: ١١ ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب : لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ١٢ لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لا ينصرون)

كان سبب معاهدة النبي ﷺ لليهود واقراره إياهم على دينهم ان الاسلام دين حرية وعدل ، ودعوته قائمة على البرهان والحجة ، ولذلك منع المسلمين من أخذ أولادهم الذين تهودوا وانضموا الى اليهود بالقوة ، وأمرهم بأن يخيروهم اذ نزل فيهم قوله تعالى (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)

وقد تقدم ان سبب معاملة المنافقين بظاهر اسلامهم هو ان امر السرائر لله وحده ، فهو الذي يعلمها ، وهو الذي يجازي عليها ، ولا يباح لحاكم ولا لنبي ان يحكم على إنسان بأنه يسر الكفر في نفسه ولا أن يتهمه بذلك ويعاقبه عليه . ولا يثبت الكفر على من ظاهره الاسلام الا باقرار صريح منه أو صدور قول أو فعل يدل عليه دلالة قطعية لا تحتمل التأويل كتكذيب القرآن أو النبي ﷺ او جحود كونه خاتم النبيين لا نبي بعده ، والشرك بالله بدعاء غيره ، وغير ذلك مما هو مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة لا يقبل فيه تأويل ، كجحود فرضية الصلاة والزكاة والصيام والحج ، أو استحلال الزنا والربا وشرب الخمر

وأما حكمة ذلك وفائدته فهي أن من يلتزم شعائر الاسلام وأحكامه ولو بغير ايمان يقيني فانه يرجى له بطول العمل ان ينشرح صدره للايمان ويطمئن به قلبه ، ويوقن به عقله ، وإلا كانت استفادته وافادته للامة دنيوية فقط

(فان قيل) إن مقتضى حرية الدين التي امتاز بها الاسلام في معاملة أهل الكتاب ـ إذ أقرهم على العمل بدينهم حتى فيما بين لهم أنهم خالفوا فيه ما جاء به رسلهم ـ ان يسمح للمنافقين بان يظهروا كفرهم (قلنا) ان الجمع بين اظهار كفرهم وحسبانهم من المسلمين لهم مالهم من الحقوق وليس عليهم ما عليهم من الواجبات ، تناقض لا يقول به عاقل ، ولا يحكم به عادل ، ومثلهم فيه كمثل من يسمح له بحقوق الجنسية السياسية الوطنية ولا يطالب بالخضوع لقوانينها ، ولا يعاقب على انتهاكها ومخالفة أحكامها ، وانما تكون حرية الدين المقولة لاهله في دائرة محيطة بأن لا يحاسب أحدهم أحد على عقيدته ووجدانه فيه ، ولا اجتهاده في فهمه ، الا من طريق البحث العلمي ، وليس منها إن يخالف اصوله القطعية التي لا يكون المسلم مسلما بدونها ويعد مع ذلك مسلما ، وإذاً ليس لاحد أن يطالب حكومته المتدينة بالسماح له بالخروج على دينها ، كما لا يصح له أن يطالبها بالسماح له بالخروج على قوانينها ، فتكون حريته هنا متعارضة مع حريتها هي وحرية أمتها

(فان قيل) ان القرآن قد فضح بعض المنافقين في هذه السورة وحكم بكفرهم ولم ينفذ النبي ﷺ عليهم أحكام المرتدين عن الاسلام ، بل بقي يعاملهم هو وأصحابه

معاملة المسلمين (قلنا) ان ما بينه الله تعالى من حال المنافقين انما كان وصفاً لأناس غير معينين بأشخاصهم، انذاراً وزجراً لهم ليعرفوا حقيقة حالهم، ويخشوا سوء مآلهم، عسى أن يتوب المستعدون للتوبة منهم ، وقد تاب الكثيرون منهم، بما ظهر لهم من إخبار القرآن عنهم، بما لا يعلمه إلا الله تعالى من أمرهم

و كان الذين عرف النبي ﷺ بعض أصحابه أشخاصهم قليلين جدا كالذين هموا باغتياله ﷺ بتشريد راحلته في عقبة في الطريق منصرفهم من تبوك ليطرحوه منها ، وقال بعضهم لبعض : لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير . وفيهم نزل (٧٤ يحلفون بالله ماقالوا . ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا) ولما استأمره أصحابه بقتلهم قال « اكره أن يتحدث الناس ويقولوا ان محمداً قد وضع يده في أصحابه » أي في رقابهم بقتلهم، وهذا أكبر منفر عن الايمان، فان كثيرا من الناس كان يستحسن هذا الدين ويفضله على ما كانوا عليه من الشرك في أحكامه وآدابه لذاتها، قبل أن تقوم عندهم الحجة على اليقين بكونه وحيا من الله تعالى، فيدخلون فيه، ثم بعد زمن قليل أو كثير من معرفته التفصيلية تطمئن قلوبهم بالايمان اليقيني، ومنهم من كان يدخل فيه تبعا لأكثر قومه من غير نظر الى تفصيله لقلة علمه بدعوته، وكل هؤلاء يقبل إسلامهم ويعتد به شرعا، وفيهم نزل قوله تعالى من سورة الحجرات (قالت الاعراب آمنا . قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم . وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا) ولو سمع أمثال هؤلاء ان النبي ﷺ يقتل بعض من اتبعه وصحبه لظهور شيء يدل على عدم ايمانهم في الباطن، أو لاعلام الله تعالى إياه بما في قلوبهم، لنفروا من الاسلام وخافوا عاقبة الدخول فيه

وثم مفسدة أخرى في هذه الاشاعة وهي أن المنافقين والكفار يذيعون فيها ماشاؤا من التهم الباطلة والافك المفتري، كزعمهم أنه انما قتل من ظهر لهم منه مادلهم على بطلان دينه بعد أن صدقوه وجاهدوا معه

على أن الله تعالى قال فيهم بعد وصفهم بالكفر بالقول وبالهم بشر نتائجه من الفعل (فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة)

الآية ، فليراجع تفسير الآية وماقبلها من الامر بجهاد الكفار والمنافقين في (ص ٥٤٨ — ٥٥٨ ج ١٠)

ويلي هذا في السورة خبر الذي عاهد الله لئن أتاه من فضله ليصدقن (في الآيات ٧٤ — ٧٧) وما رووا في سبب نزولها خاصة وانه شخص يقال له ثعلبة، وانه بعد أن نزلت فيه الآيات تاب وأراد أن يؤدي زكاة ماله فلم يقبلها منه النبي ﷺ ثم لم يقبلها منه أبو بكر ولا عمر ولا عثمان من بعده، وانه هلك في خلافة عثمان . وقد بينا في تفسيرها أن في حديث سبب نزولها اشكالات في سنده وفي متنه فانه مخالف لاصل الشريعة القطعي المجمع عليه من العمل بالظاهر فهو باطل قطعاً بما فصلوه به تفصيلا (راجع ٥٥٨ — ٥٦١)

ويقرب منه في المعنى ماروي في الصحاح من نزول قوله تعالى (٨٤ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وأنه في عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين الاكبر وقد بينا في تفسيرها مافي الحديث من التعارض مع القرآن فراجعه (في ص ٥٧٣ - ٥٨١)

ومن المشكل في هذا الباب قصة مسجد الضرار في الآيات (١٠٧ - ١١٠) فقد بين الله تعالى فيها انهم اتخذوه لأربعة أغراض منها الكفر وسائرها أقبح مقاصد أعداء الله ورسوله والمؤمنين . وقد أمر النبي ﷺ بهدمه فهدم ولم يأمر بقتلهم، وقد شهد الله بكذبهم فيما حلفوا عليه من حسن نيتهم . وسبب ذلك ان الذين بنوه للمقاصد الاربعة المذكورة في الآيات كانوا كما قال المفسرون اثني عشر رجلا من منافقي الاوس والخزرج أتباع أبي عامر الراهب الذي وعدهم بان يتوسل بنصرانيته الى قيصر الروم في الشام فيرسل معه جنداً يكفيهم أمر الرسول ومن اتبعه من المؤمنين ، ولكن صدقهم في ظاهر عملهم وما زعموه من حسن النية فيه كثير من المؤمنين وشاركوهم وصلوا معهم فيه ، وكان التمييز بينهم متعذرا، فصح أن يأتي في الفريقين قوله تعالى في المسلمين المستخفين من المشركين في مكة عام الحديبية (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما)

والسبب الخاص لعدم عقاب أصحاب مسجد الضرار على الكفر الذي أثبته

النص الصريح أمران [أحدهما] أن الآيات في قصتهم قد بدئت بما يحتمل أن يكون ذكرهم فيها معطوفا على الذين أرجأ الله البت في أمرهم وجعل التوبة عليهم مرجوة وهو قوله تعالى (وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) والثاني ختم قصتهم بقوله تعالى (لايزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) فيظهر في معنى تقطع قلوبهم احتمال هو أحد الاقوال في تفسيره، وهو تقطعها من الاسف والحزن على ما فرط منهم، ووقوع هذا الاستثناء محتمل، واذاً يكون أقوى الادلة على توبتهم وأصدقها، ويكفي الاحتمال لمنع الحكم عليهم بالكفر

وجملة القول في هذا الباب ان سياسة الاسلام في المنافقين أن يعاملوا بحسب ظواهرهم وما يبدو من أعمالهم ، وان للامام الاعظم أو عليه — ومثله نوابه من أولياء الامور — أن يعرّض في الخطب العامة والتصريحات الرسمية بتقبيح مايعلم من سوء أعمالهم والانذار بسوء عواقبها ليعدهم للتوبة منها ، أو الحذر من إظهار مايضمرونه من الشر الذي يترتب عليه العقاب. وتتضمن هذه السياسة الاصول الآتية

﴿ الاصول الثلاثة في حرية الدين ، ومعاملة المنافقين ﴾

١ ـ ان حرية الاعتقاد والوجدان مرعية لاسيطرة عليها للرؤساء الحاكمين، ولا للمعلمين والمرشدين، وانما لهؤلاء حق في التربية والتعليم، فليس لأحد أن يتهم إنسانا باضمار الكفر ولا بنية الخيانة لملته أو دولته، ولا بارادة السوء لقومه وأمته، ولا أن يعاقبه على ذلك بعقاب بدني ولا مالي، ولا بحرمانه من الحقوق التي يتمتع بها غيره من أفراد الامة

٢ ـ انه ليس لمن يضمر الكفر بالله أو بما جاءت به رسله أن يكون فتنة للناس باظهار ذلك لهم ودعوتهم اليه ، أو الطعن في عقائدهم ، أو إظهار ما ينافيها من قول أو عمل ، وان لم يكن دعوة ولا طعنا ، فان فعل ذلك وكان يدعي الاسلام يحكم بارتداده وخروجه من الملة ، إن كان ما اظهره من الكفر صريحاً قطعياً مجمعاً عليه لايحتمل التأويل، ويترتب عليه ماهو مقرر في الشرع من استتابته وعقابه إن لم يتب (ومنه منع التوارث بينه وبين المسلمين وفسخ نكاحه بالمسلمات ، وعدم تشييع جنازته والصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين) لان حرية كل احد في اعتقاده تقف

عند حد حرية غيره ، ولاسيما احترام عقائد الملة التي يعيش في ظل شريعتها ، وسائر شعائرها وعباداتها

وليعلم القارىء أن كثيراً من الفقهاء قد أسرفوا في أبواب الردة في المسائل التي يحكم فيها بالكفر المخرج من الملة ، وبنوا كثيراً منه على اللوازم البعيدة ، والمحتملة للتأويلات القريبة ، وما ورد في صفات المنافقين في هذه السورة حجة عليهم ، وان قال بعض العلماء المتقدمين: إن ما كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم نفاقا لاينافي ظاهر الاسلام ، هو الآن كفر محض لاتقبل معه دعوى الايمان ، فهذا قول باطل ، فكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هما الحجة في الدين ، والاهتداء بهما هو الواجب الى يوم الدين ، فيجب قبول قول كل من أظهر الاسلام ولم يصرح بما ينافيه بما لايحتمل التأويل ، ومما يحتمل التأويل احتمالا ظاهراً جميع المباحث العلمية المخالفة لظواهر النصوص كما هو مقرر في الاصول .

٣ - ان من ظهر منه شيء من أمارات النفاق العملي في الدين ، او الخيانة للامة والملة بما هو غير صريح ، مما لايعاقب عليه في الشرع بحد ولا تعزير ، فلولي الامر أن يعظه بالتعريض ، ثم بالتصريح والتكشيف ، وله أن يعاقبه بما يرجى أن يزعه عن غيه من التأديب ، كالحرمان من مظاهر التشريف ، او الازورار والتقطيب ، او التأنيب والتعنيف ، كما بيناه في تفسير (٧٣ جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) ومنه حرمان النبي صلى الله عليه وسلم للذين تخلفوا عن غزوة تبوك من الخروج معه الى غزوة أخرى بقول الله تعالى (٨٣ فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً) الآية . ولكن الملوك المستبدين يقربون اليهم المنافقين فيزيدونهم فساداً ، ويجرؤن غيرهم بل يرغبونه في النفاق وخيانة الامة جهارا ، حتى إن المناصب الدينية المحضة صارت تنال بالنفاق ، ويذاد عنها أهل الصدق والاخلاص ، وإلى الله المشتكى ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

﴿ انتهى بيان ما فتح الله به علينا من خلاصة هذه السورة ﴾

﴿ وكتب في أوقات متقطعة في سنة عسرة شديدة ﴾

﴿ وتم في ذي الحجة سنة ١٣٥٠ ﴾

١٠ ـ سورة يونس

(السورة العاشرة في المصحف وآياتها ١٠٩ عند الجمهور وعند الشامي ١١٠)

هي مكية نزلت بعد سورة الاسراء (بني اسرائيل) وقبل سورة هود . وما رواه ابن مردويه من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس من كونها مدنية غلط مخالف للروايات الكثيرة عنه وعن غيره بل للاجماع الذي يؤيده موضوع السورة من أولها إلى آخرها فهو يدور على اثبات اصول التوحيد وهدم الشرك واثبات الرسالة والبعث والجزاء ودفع الشبهات عنها وما يتعلق بذلك من مقاصد الدين الاصلية التي هي موضوع السور المكية ، وعثمان بن عطاء ضعيف متروك لا يحتج بروايته فيما يحتمل الصواب فكيف ينظر اليها في مثل هذه المسألة، ولكن الرواة لم يتركوا ما تردما وقال السيوطي في الاتقان: استثني منها (فان كنت في شك) الآيتين ٩٤ و٩٥ـ وقوله (٤٠ ومنهم من يؤمن به) الآية قيل نزلت في اليهود ، وقيل من أولها إلى رأس أربعين مكي والباقي مدني حكاه ابن الفرس والسخاوي في جمال القراء اه وأقول ان موضوع السورة لا يقبل هذا من جهة الدراية، وهو مما لم تثبت به رواية . وكون المراد بالذين يقرؤن الكتاب (في الآية ٩٤) اليهود لا يقتضي أن تكون نزلت في المدينة . وبيانه من وجهين (أحدهما) أن المراد بالشرطية فيها الفرض لا وقوع الشك حقيقة ولذلك قال ﷺ «لا أشك ولا أسأل» وهو مرسل يؤيده قول ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري كما سيأتي في تفسيرها (وثانيهما) ان هذا المعنى نزل في سور مكية أخرى كقوله تعالى في سورة الاسراء (فاسأل بني اسرائيل إذ جاءهم)

وقوله في سورتي النحل والانبياء (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)

ووجه مناسبتها لما قبلها أن تلك ختمت بذكر رسالة النبي ﷺ وهذه افتتحت بها ، وان جل تلك في بيان أحوال المنافقين ومنه ما كانوا يقولونه وما كانوا يفعلونه عند نزول القرآن كالآيات ١٢٤ ـ ١٢٧ وهذه في أحوال الكفار ومنها ماكانوا يقولونه في القرآن كالآيات ١٥ و١٦ و١٧ و ٣٧ ـ ٤٠ .

واعلم أن التناسب الذي يوجد بين السور ليس سببا في هذا الترتيب الذي بينها ، فرب سورتين بينهما أقوى التناسب في موضوع الآيات ومسائلها يفصل بينهما تارة ويجمع بينهما أخرى فمن الاول الفصل بين سورتي الهمزة واللهب وموضوعهما واحد . والفصل بين السور المبدوءة بالتسبيح بسورة المنافقين . ويقابلها من الوجه الثاني الوصل بين سور الطواسين وسور آل حاميم وبين سورتي المرسلات والنبأ وسورتي التكوير والانفطار ، وربما يقال ان التناسب بين أكثر السور المكية أقوى منه بينها وبين السور المدنية ومن حكمة الفصل بين القوية التناسب في المعاني كالمكية التي موضوع أكثرها العقائد والاصول العامة والزواجر الصادعة والمدنية التي موضوع أكثرها الاحكام العملية أنه أدنى إلى تنشيط تالي القرآن بالترتيب وأنأى به عن الملل ، وأدعى له إلى التدبر ، فهذه الحكمة تشبه حكمة تفريق مقاصد القرآن في السورة الواحدة من عقائد وقواعد ، وأحكام عملية ، وحكم أدبية ، وترغيب وترهيب ، وبشارات ونذر ، وأمثال وقصص ، والعمدة في كل ذلك التوقيف والاتباع

وهاءنذا أشرع في تفسير السورة ملتزما فيها القصد والاختصار في كل ماسبق له بيان مفصل في تفسير السور السابقة ولاسيما السورتين المكيتين من السور الطول : الانعام والاعراف : وإنما أبسط القول فيما لم أبسطه فيه تمام البسط من قبل ، وأهمه في هذه السورة مسألة الوحي

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) الٓر، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ

﴿ الر ﴾ تقرأ هذه الحروف الثلاث بأسمائها ساكنة غير معربة هكذا : ألف ، لام ، را . والحرف الاخير غير مهموز . وفائدة النطق بها وبأمثالها هكذا تنبيه الذين تتلى عليهم السورة لما بعدها لاجل العناية بفهمه حتى لا يفوتهم من سماعه شيء . وهي اقوى في هذا التنبيه من حرف الهاء الموضوع له في اسم الاشارة ، ومن كلمة «ألا» الافتتاحية، وقد فصلنا هذه المسألة في أول تفسير سورة الاعراف[١]

﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ أي تلك الآيات البعيدة الشأو ، الرفيعة الشأن ، التي تألفت منها هذه السورة، أو القرآن كله ، هي آيات الكتاب الموصوف بالحكمة في معانيه ، والاحكام في مبانيه، الحقيق بهداية متدبره وواعيه .

﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ﴾ الاستفهام للتعجيب من عجب الكفار واستنكارا إنكارهم للوحي إلى رجل من جنسهم ، والوحي الاعلام الخفي

---

١) زعم بعض ملاحدة مصر ان هذه الاحرف كانت تكتب في بعض مصاحف الصحابة رمزاً لاصحابها فادخلت في القرآن عند كتابة المصاحف الرسمية ظنا انها من السور . وفي هذا الزعم اكبر جرأة على الافتراء والافتجار ورد النقل المتواتر بدون ادنى شبهة غير وسوسة الشيطان، وعداوة الرحمن ،

الخاص لامرىء بما يخفى على غيره ـ اي أكان إيحاؤنا إلى رجل من الناس أمراً نكراً اتخذوه أعجوبة بينهم يتفكهون باستغرابها؟ كأن مشاركتهم له في البشرية يمنع اختصاص الله إياه بما شاء من العلم. والمراد بالناس كفار مكة ومن تبعهم في إنكار نبوة محمد ﷺ، وعبر عنهم بالناس لأن هذه الشبهة على الرسالة قد سبقتهم اليها أقوام الانبياء قبله كما تقدم في قصة نوح وهود من سورة الاعراف (٧ : ٦٢ و٦٨ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم؟) وهذا المعنى مكرر في القرآن وقد دحضنا هذه الشبهة في آخر تفسير سورة الانعام[١] ﴿ أن أنذر الناس ﴾ «أن» هذه مفسرة لما قبلها، والانذار الاعلام بالتوحيد والبعث وسائر مقاصد الدين المقترن بالتخويف من عاقبة الكفر والمعاصي، أي أوحينا اليه بأن أنذر الناس كافة

﴿ وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ التبشير مقابل الانذار، أي الاعلام المقترن بالبشارة بحسن الجزاء على الايمان والعمل الصالح. والمعنى وبشر الذين آمنوا منهم خاصة بأن لهم قدم صدق عند ربهم يجزيهم به في الآخرة ـ والصدق في اصل اللغة ضد الكذب ثم أطلق على الايمان وصدق النية والوفاء وسائر مواقف الفضائل، ومنه في التنزيل : مقعد صدق، ومدخل صدق، ومخرج صدق، وقدم صدق. والقدم ههنا السابقة والتقدم. قال البيضاوي : سابقة ومنزلة رفيعة سميت قدماً لان السبق بها كما سميت النعمة يداً لانها تعطى باليد، وإضافتها إلى الصدق لتحققها، والتنبيه على انهم انما ينالونها بصدق القول والنية

﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ قرأ ابن كثير والكوفيون (لساحر) يعنون النبي ﷺ، والباقون (لسحر) ويعنون به القرآن، وكلا من القولين قد قالوا، وكل من القولين يشير الى إثبات رسالته ﷺ فان قولهم ان القرآن سحر جاء به ساحر يتضمن اعترافهم بانها فوق المعهود والمعلوم للبشر في عالم الاسباب المقدورة لهم. وتاكيد قولهم بالجملة الاسمية وإن واللام وبوصف السحر أو الساحر

١) راجع ص٢٧٨ ج ٨ تفسير

بالمبين الظاهر يفيد الحصر كقول ابو نيد (إن هذا إلا سحر يؤثر) يعني القرآن . وسموه سحراً لانه خارق للعادة بقوة تاثيره في القلوب وجذبه للنفوس الى الايمان وحملها على احتقار الحياة ولذاتها في سبيل الله ، حتى انه يفرق بين المرء وأخيه ، وأمه وأبيه ، وزوجه وبنيه ، وفصيلته التي تؤويه ، وتمنعه وتحميه . وانما السحر ما كان باسباب خفية خاصة ببعض الناس يتعلمها بعضهم من بعض ، وهي إما حيل وشعوذة ، وإما خواص طبيعية علمية مجهولة للجماهير ، واما تاثير قوى النفس وتوجيه الارادة . وكلها من الامور المشتركة بين الكثيرين من العارفين بها (١) وقد استبان لعامة العرب ثم لغيرهم من شعوب العجم أن القرآن ليس بسحر يؤثر بالتعليم والصناعة ، بل هو مجموعة علوم عالية في العقائد والآداب والتشريع والاجتماع مرقية للعقول ، مزكية للانفس ، مصلحة للناس ، وانه معجز للبشر في اسلوبه ونظمه ومعانيه وهدايته وتشريعه وإخباره بالغيب (٢) وأن محمدا ﷺ مبلغ له ، ولم يكن ليقدر على شيء منه ، وقد عجز عنه غيره ، فثبت انه نبي الله ورسوله ، وان ماجاء به وحي منه تعالى .

وقد بينا حقيقة الوحي لغة وشرعا وإثباته لنبينا ﷺ في مواضع منها مافي بحث دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ وهو في (ص ٢١٦ ـ ٢٢٤ ج ١ تفسير) ومنها تفسير (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح) الآية وهو في (ص ٦٧ ج ٦ تفسير) ومنها رد شبهات الكفار عليه في سورة الانعام (ص ٣٠٩ ـ ٣٢٠ ج ٧ تفسير) ومنها في خلاصتها (ص ٢٧٤ ـ ٢٨٠ ج ٨) ومنها تحقيق القول في مسألة الكلام الالهي بمناسبة تكليم الله لموسى عليه السلام (ص ١٧٨ ـ ١٩١ ج ٩) وبقي علينا بسط القول في نبوة محمد مع مثبتي الوحي ونفاته ، وشبهة النفاة لعالم الغيب عليها وتصويرهم للوحي اليه بغير صورته ، فنعقد له الفصل التالي :

---

١) راجع حقيقة السحر في ص ٣٩٩ ـ ٤٠٥ ج ١ تفسير

٢) راجع إعجاز القرآن ص ١٩٠ ـ ٢١٥ ج ١ تفسير

فصل فى اقامة الحجة على مثبتى الوحى ونفاته

(في إثبات نبوة محمد ﷺ)

الـكلام في الوحي لمحمد ﷺ مع مثبتي الوحي

أما الفريق الاول فهم أهل الكتاب ، وان من اطلع على كتبهم المقدسة المعبر عنها بكتب العهدين العتيق والجديد وعلى القرآن وكتب السنة والسيرة المحمدية علم علماً عقلياً وجدانياً انه لا يستطيع أحد أن يؤمن إيماناً علمياً بأن تلك كتب وحي من الله ، وان الذين كتبوها أنبياء معصومون فيما كتبوه ، ثم لا يؤمن بأن القرآن وحي من الله وان محمداً نبي معصوم فيما بلغه عن الله تعالى ، كالا يستطيع فقيه أن ينكر فقه أبي حنيفة والشافعي ، ولا نحوي أن يجحد نحو سيبويه وابن جني ، ولا شاعر أن ينفي شاعرية الرضي والبحتري ، بل كما لا يستطيع بصير أن يكابر حسه فيفضل نور القمر والكوكب على ضوء الشمس ، أو نور السراج على نور النهار ، ولله در البوصيري حيث قال :

الله أكبر ان دين محمـــد وكتابه اقوى وأقوم قيـلا
لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفيء القنديلا

وقد صرح بهـذا المعنى علماء الافرنج الذين نشؤا في النصرانيـة وأحاطوا بها علماً وخبراً ثم عرفوا الاسلام معرفة صحيحة ولو غير تامة . وهاك شهـادة حديثة لعالم مستشرق منهم

كتب الاستاذ أدوار مونتيه المستشرق مدرس اللغات الشرقية في مدرسة جنيف الجامعة في مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن ماترجمته بالعربية :

« كان محمد نبيا صادقا كما كان انبياء بني اسرائيل في القديم ، كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى اليه ، وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الالوهية متمكنتين فيه كما كانتا متمكنتين في أولئك الانبياء أسلافه فتحدث فيه كما كانت تحدث فيهم

ذلك الالهام النفسي، وهذا التضاعف في الشخصية اللذين يحدثان في العقل البشري المرائيّ والتجليات والوحي والاحوال الروحية التي من بابها » اهـ

فهذا العالم الاوربي المستقل الفكر يقول ان كل ما كان به انبياء بني اسرائيل انبياء كان ثابتا لمحمد . ونحن نقول ان جميع خصائص النبوة التي كانت فيه هي اكمل شكلا وموضوعا وأصح رواية وأبعد عن الشبهات كما سنوضحه ، وأما ما فسر به هذه الخصائص فهو التعليل الذي يعلل به الماديون الوحي المطلق، وسنتكلم عليه في القسم الثاني من هذا الفصل

وقد لخص هذا العالم خبر نزول الوحي على محمد ﷺ من كتب إسلامية مذعنا لصحة روايتها . وفصلها بعده العالم المستشرق الفرنسي أميل درمنغام[1] في كتابه (حياة محمد) مذعنا لصحة الرواية ولموضوعها مفصلا لتأثير نبوته في إصلاح البشر متمنيا الاتفاق بين المسلمين والنصارى آسفا للشقاق بينهم

وانا نقل هنا تعريف الوحي والنبوة والآيات (العجائب) عن احد علماء الافرنج الجامعين بين العلوم العصرية والدينية والتواريخ ، هو الدكتور جورج بوست الشهير مؤلف كتاب (قاموس الكتاب المقدس) بالعربية ليبني عليها الباحث المستقل العقل حكمه في نبوة انبياء بني اسرائيل ووحيهم ونبوة محمد رسول الله وخاتم النبيين والوحي الذي انزل عليه

تعريف الوحي عندهم

جاء في تفسير كلمة «وحي» من قاموس الكتاب المقدس ما نصه مع حذف رموز الشواهد:

«تستعمل هذه اللفظة الدلالة على نبوة خاصة بمدينة أو شعب . وجاء في (حز ١٢ : ١) «هذا الوحي هو الرئيس» اي انه آية للشعب . وعلى العموم يراد بالوحي الالهام . وعلى ذلك يقال «ان كل الكتاب هو موحى به من الله» والوحي بهذا المعنى هو حلول روح

(١) يكتب هذا الاسم في مجلة السياسة (درمنجم) بالجيم المصرية حيث ينشر فيها كتابه (حياة محمد) مترجما بالعربية . وانما اخترنا كتابته بالغين لكتاب جاءنا من المؤلف بالعربية كتب فيه امضاءه (اميل درمنغام) ونشرناه في الجزء الاول من مجلد المنار الثلاثين

الله في روح الكتاب الملهمين وذلك على انواع (١) إفادتهم بحقائق روحية او حوادث مستقبلة لم يكن يمكنهم التوصل اليها إلا به (٢) ارشادهم الى تأليف حوادث معروفة أو حقائق مقررة والتفوه بها شفاها او تدوينها كتابة بحيث يعصمون من الخطأ. فيقال «تكلم اناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس» وهنا لا يفقد المتكلم او الكاتب شيئا من شخصيته وانما يؤثر فيه الروح الالهي بحيث يستعمل ماعنده من القوى والصفات وفق إرشاده تعالى. ولهذا نرى في كل مؤلف من الكتاب الكرام ما امتاز به من المواهب الطبيعية ونمط التأليف وماشابه ذلك وفي شرح هذا التعليم دقة. وقد اختلف العلماء فيما اوردوه من شرحه، غير ان جميع المسيحيين يتفقون على ان الله قد اوحى لأولئك الكتاب ليدونوا إرادته ويفيدوا الانسان ما يجب عليه من الايمان والعمل لكي ينال الخلاص الابدي» اه

تعريف النبوة والانبياء عندهم

وجاء في تفسير «نبي أنبياء نبوة» منه ما نصه:

« النبوة لفظة تفيد معنى الاخبار عن الله وعن الامور الدينية ولا سيما عما سيحدث فيما بعد. وسمي هارون نبيا لانه كان المخبر والمتكلم عن موسى نظرا لفصاحته. أما انبياء العهد القديم فكانوا ينادون بالشريعة الموسوية، وينبئون بمجيء المسيح. ولما قلت رغبة الكهنة وقل اهتمامهم بالتعليم والعلم في ايام صموئيل أقام مدرسة في الرامة وأطلق على تلامذتها اسم بني الانبياء فاشتهر من ثم صموئيل باحياء الشريعة وقرن اسمه باسم موسى وهارون في مواضع كثيرة من الكتاب وتأسست أيضا مدارس أخرى للانبياء في بيت ايل وأريحا والجلجال وأماكن اخرى. وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى ابا اوسيدا، وكان يعلم في هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر، ولذلك كان الانبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرنمون ويلعبون على آلات الطرب. وكانت الغاية من هذه المدارس أن يرشح الطلبة فيها لتعليم الشعب. أما معيشة الانبياء وبني الانبياء فكانت ساذجة للغاية، وكثير منهم كانوا متنسكين او طوافين يضافون عند الاتقياء

« ويظهر ان كثيرين من الذين تعلموا في تلك المدارس لم يعطوا قوة على الانباء بما سيأتي ، انما اختص بهذه الخصوصية اناس منهم كان الله يقيمهم وقتا دون آخر حسب مشيئته، ويعدهم بتربية فوق العادة لواجباتهم الخطيرة. على ان بعض الانبياء الملهمين كان يختصهم الله بوحيه ولم يتعلموا من قبل ولا دخلوا تلك المدارس كعاموس مثلا فانه كان راعيا وجاني جميز . اما النبوة فكانت على انواع مختلفة كالاحلام والرؤى والتبليغ . وأحيانا كثيرة كان الانبياء يرون الامور المستقبلة بدون تمييز ازمنتها فكانت تقترن في رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة كاقتران نجاة اليهود من الاشوريين بخلاص العالم بواسطة المسيح ، وكانتصار اسكندر ذي القرنين باتيان المسيح ، وكاقتران انسكاب الروح القدس يوم الخميس بيوم الحشر . ومن هذا القبيل اقتران خراب اورشليم بحوادث يوم الدينونة

«وقد ارسل الله الانبياء الملهمين ليعلنوا مشيئته وليصلحوا الشؤون الدينية وعلى الاخص ليخبروا بالمسيح الآتي لتخليص العالم . وكانوا القوة العظيمة الفعالة في تعليم الشعب وتنبيههم وارشادهم الى سبيل الحق . وكان لهم دخل عظيم في الامور السياسية اه بنصه

مايرد على نبوتهم من تعريفها

أما تفسيره الالهام بحلول روح الله في روح الملهم فهو تحكم للنصارى لايعرفه ولا يعترف به أنبياء بني اسرائيل ولا علماؤهم . ولا يمكنهم إثباته ولا دفع ما يرد عليه من وقوع التعارض والتناقض والخلاف فيما كتبه أولئك الملهمون وماخالفوا فيه الواقع ، وقد أشار الى ذلك بقوله : ان في شرح ذلك التعليم دقة وان العلماء اختلفوا في شرحه الخ ، ومن حل فيه روح الله صار الها اذ المسيح لم يكن الها عند النصارى الا بهذا الحلول فكيف يقع في مثل ماذكر ويتخلف وحيه او يخالف الواقع؟

وأما كلامه في النبوة والانبياء فيؤخذ منه مايأتي :

«١» ان أكثر أنبياء بني اسرائيل كانوا يتخرجون في مدارس خاصة بهم يتعلمون فيها تفسير شريعتهم التوراة والموسيقى والشعر وأنهم كانوا شعراء ومغنين وعزافين على آلات الطرب وبارعين في كل مايؤثر في الانفس ويحرك الشعور

والوجدان ، ويثير روا كـد الخيال ، فلا غرو أن يكون عزرا ونحميا من أعظم أنبيائهم ساقيين من سقاة الخمر لملك بابل (ارتحششتا) ومغنين له، وان يكونا قد استمالا بتأثير غنائهما في نفسه على سماحه لهما بالعودة بقومهما الى وطنهما واقامة دينهما فيه

فالنبوة على هذا كانت صناعة تعلم موادها في المدارس ويستعان على الاقناع بها بالتخييلات الشعرية والالهامات الكلامية ، والمؤثرات الغنائية والموسيقية . والمعلومات المكتسبة . فأين هي من نبوة محمد الأمي الذي لم يتعلم شيئاً ولم يقل شعراً ، وقد جاء بأعظم مما جاءوا به كلهم ؟

«٢» ان كثيراً من هؤلاء الانبياء وأولادهم كانوا متنسكين أوطوافين على الناس يعيشون ضيوفا عند الاتقياء المحبين لرجال الدين كما هو المعهود من دراويش المتصوفة أهل الطرق في المسلمين ، ومن المعلوم أن هؤلاء هم الذين يقبلون من رجال التنسك كل مايقولون ، ويسلمون لهم مايدعون ، ويذيعون عنهم كل مايقبلون منهم ، ومن غير هؤلاء الكثيرين من الانبياء من نقلت عنهم كتبهم المقدسة بعض كبائر المعاصي ، وان من أخبار الصوفية والنساك والسياح عند المسلمين من تفضل سيرتهم سيرة هؤلاء الانبياء في كتبهم ، فكيف يصح أن يرتفع أحد منهم الى درجة محمد ﷺ في نشأته الفطرية ومعيشته من كسبه ، وكونه لم يكن عالة على الناس في شيء قبل النبوة ولا بعدها

«٣» أشهر أنواع نبوتهم الاحلام والرؤى المنامية والتخيلات المبهمة وكلها تقع لغيرهم ، وقد كانت الرؤيا الصادقة مبدأ نبوة محمد ﷺ قبل وحي التشريع الذي كان له صور أعلى منها سنبينها بعد . والرؤى صور حسية في الخيال تذهب الآراء والافكار في تعبيرها مذاهب شتى قلما يعرف تأويل الصادق منها غير الانبياء كرؤيا ملك مصر التي عبرها يوسف عليه السلام ، ورؤياه هو في صغره

«٤» ان نبوة الاخبار عن الامور المستقبلة وهي التي يستدلون بها على كونهم مخبرين عن الله تعالى كانت أحيانا كثيرة بدون تمييز أزمنتها ولا حوادثها فكان بعضها يختلط ببعض فلا يكاد يظهر المراد منها إلا بعد حملها على شيء واضح بعد وقوعه كما يعهد في كل عصر من أخبار العرافين والمنجمين، بله الروحانيين المكاشفين،

ومنها ما ظهر خلافه كما أشار اليه ولم يشرحه ولكن التاريخ شرحه. وكان أعظم نبوات هؤلاء الانبياء إخبارهم عن المسيح (مسيا) وملك اسرائيل ثم اخبار المسيح نفسه عن خراب العالم ومجيء الملكوت لاجل دينونية العالم وانه لا ينقضي الجيل الذي خاطبه حتى يكون ذلك كله . وقد مر أجيال كثيرة ولم يكن من ذلك شيء

امتياز نبوة محمد على نبوة من قبله

فأنى تضاهي هذه الاخبار (النبوات) وهي كما علمت أنباء القرآن الكثيرة بالمغيبات كالذي بيناه في خلاصة تفسير السورة السابقة مما وقع من المنافقين وما هو في سورة الفتح . وقوله تعالى في أول سورة الروم (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) الآية ، وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض) وأين هي من إنباء النبي ﷺ أصحابه بأنهم سيفتحون بعده بلاد الشام وبلاد الفرس ومصر وسيتولون على ملك كسرى وقيصر حتى انه سمى كسرى عصره باسمه كما رواه البخاري عن عدي بن حاتم الخ ؟

هذا ما يقال بالاجمال في أحد موضوعي النبوة وهو الاخبار عما سيكون في مستقبل الزمان ، فما جاء به محمد ﷺ منها في وحي القرآن وغيره أظهر وأوضح وأبعد عن احتمال التأويل ، وأعصى على إنكار المرتابين ، ويزيد عليه ما جاء به من أنباء الغيب الماضية ، وسأذكر ما يتأوله به الجاحدون للنبوة والوحي في بيان بطلان شبهتهم

وأما الموضوع الثاني للنبوة وهو الأهم الاعظم أي عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه فالنظر فيه من وجهين (أحدهما) ماذكروه من كونه لا يمكن أن يصل اليه عقل من جاء به وفكره ولا علومه ومعارفه الكسبية فيتعين أن يكون بوحي من الله (وثانيهما) أن يكون ما فيه من هداية الناس وصلاح أمورهم في دينهم ودنياهم أعلى في نفسه من معارف البشر في عصره ، فيتعين أن يكون وحياً

فأما الاول الخاص بشخص الرسول فان العاقل المستقل المفكر إذا عرف تاريخ محمد ﷺ وتاريخ أنبياء بني اسرائيل عليهم السلام فانه يرى أن محمداً ﷺ قد نشأ أمياً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة ، وان قومه الذين نشأ فيهم كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الامم وعلوم التشريع والفلسفة ، حتى إن مكة عاصمة بلادهم ، وقاعدة

دينهم، ومثوى كبرائهم ورؤسائهم ، ومثابة الشعوب والقبائل للحج والتجارة فيها ، والمفاخرة بالفصاحة والبلاغة في أسواقها التابعة لها ، لم يكن يوجد فيها مدرسة ولا كتاب مدون قط، فما جاء به من الدين التام الكامل ، والشرع العام العادل، لا يمكن ان يكون مكتسباً ولا ان يكون مستنبطاً بعقله وفكره كما بيناه من قبل ، وسندفع مايرد من الشبهة عليه في القسم الثاني من هذا الفصل

ويرى تجاه هذا أن موسى أعظم اولئك الانبياء في عمله وفي شريعته وفي هدايته قد نشأ في اعظم بيوت الملك لأعظم شعب في الارض وأرقاه تشريعا وعلما وحكمة وفنا وصناعة ، وهو بيت فرعون مصر ، ورأى قومه في حكم هذا الملك القوي القاهر مستعبدين مستذلين، تذبح أبناؤهم وتستحيا نساؤهم، تمهيداً لفنائهم ومحوهم من الارض ، ثم انه مكث بضع سنين عند حميه في مدين وكان نبيا ـ او كاهنا كما يقولون ـ فمن ثم يرى منكرو الوحي ان ماجاء به موسى من الشريعة الخاصة بشعبه ليس بكثير على رجل كبير العقل عظيم الهمة، ناشىء في بيت الملك والتشريع والحكمة الخ

ثم ظهر في أوائل هذا القرن الميلادي ان شريعة التوراة موافقة في اكثر أحكامها لشريعة حمورابي العربي ملك الكلدان الذي كان قبل موسى وقد قال الذين عثروا على هذه الشريعة من علماء الالمان في حفائر العراق انه قد تبين أن شريعة موسى مستمدة منها لاوحي من الله تعالى كما شرحنا ذلك في مجلد المنار السادس وذكرنا خلاصته في تفسير سورة التوبة (٩: ٣٠) وهو في [ص٣٤٨ ج ١٠] وأقل ما يقوله مستقل الفكر في ذلك انه ان لم تكن التوراة مستمدة منها فلا تعد أحق منها بأن تكون وحيا من الله تعالى ، ولم ينقل ان حمورابي ادعى ان شريعته وحي من الله تعالى

ثم يرى الناظر سائر أنبياء العهد القديم كانوا تابعين للتوراة متعبدين بها ، وانهم كانوا يتدارسون تفسيرها في مدارس خاصة بهم وبأبنائهم مع علوم أخرى، فلا يصح أن يذكر أحد منهم مع محمد، ويرى أيضا أن يوحنا المعمدان الذي شهد المسيح بتفضيله عليهم كلهم لم يأت بشرع ولا بنبأ غيبي ـ بل يرى ان عيسى عليه السلام وهو أعظمهم قدراً وأعلاهم ذكراً ، وأجلهم أثراً، لم يأت بشريعة جديدة بل كان تابعاً لشريعة التوراة مع نسخ قليل من أحكامها، وإصلاح روحي أدبي لجمود اليهود المادي على ظواهر ألفاظها، فأمكن لجاحدي الوحي أن يقولوا انه لايكثر على رجل مثله ذكي

الفطرة ذكي العقل ناشيء في حجر الشريعة اليهودية، والمدنية الرومانية، والحكمة اليونانية ، غلب عليه الزهد والروحانية ، أن يأتي بتلك الوصايا الادبية ، ونحن المسلمين لا نقول هـذا وإنما يقوله الماديون والملحدون والعقليون وألوف منهم ينسبون إلى المذاهب النصرانية

وأما الوجه الثاني وهو عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه فلا يرتاب العقل المستقل المفكر غير المقلدين من الاديان أن عقائد الاسلام من توحيد الله وتنزيهه عن كل نقص، ووصفه بصفات الكمال، والاستدلال عليها بالدلائل العقلية والعلمية الكونية، ومن بيان هداية رسله ، ومن عباداته وآدابه المزكية للنفس المرقية للعقـل ، ومن تشريعه العادل وحكمـه الشوري المرقي للاجتماع البشري ـ كل ذلك أرقى مما في التوراة والاناجيل وسائر كتب العهد القديم والجديد ، بل هو الاصلاح الذي بلغ به دين الله أعلى الكمال ، ويشهد بهذا علماء الافرنج وقد شرحناه من وجهة نظرنا ووجهة نظرهم في مواضع من المنار والتفسير [آخرها ص ٣٥٩ ج ١٠ تفسير]

ومن نظر في قصة آدم ونوح وابراهيم ولوط واسحاق ويعقوب ويوسف من سفر التكوين وسيرة موسى وداود وسليمان وغيرهم من الانبياء في سائر أسفار العهد القديم ، ثم قرأ هذه القصص في القرآن يرى الفرق العظيم في الاهتداء بسيرة هؤلاء الانبياء العظام ، ففي أسفار العهد القديم يرى وصف الله تعالى بما لا يليق به من الجهل والندم على خلق البشر والانتقام منهم ، ووصف الانبياء ايضاً بما لا يليق بهم من المعاصي مما هو قدوة سوءى ، من حيث يجد في قصص القرآن من حكمة الله تعالى ورحمته وعدله وفضله وسننه في خلقه ، ومن وصف انبيائه ورسله بالكمال وأحاسن الاعمال ، ما هو قدوة صالحة وأسوة حسنة تزيد قارئها إيمانا وهدى ، فأخبار الانبياء في كتب العهدين تشبه بستانا فيه كثير من الشجر والعشب والشوك ، والثمار والازهار والحشرات ، وأخبارهم في القرآن تشبه العطر المستخرج من تلك الازهار ، والعسل المشتار من تلك الثمار ، ويرى فيه رياضاً أخرى جمعت جمال الكون كله

وندع هنا ذكر ما كتبه علماء الافرنج الاحرار في نقد هذه الكتب والطعن فيها ، ومن أخصرها وأغربها كتاب (أضرار تعليم التوراة والانجيل) لاحد علماء الانكليز ، وما فيها من مخالفة العلم والعقل والتاريخ ، والقرآن خال من مثل ذلك

﴿ صد الكنيسة عن الاسلام وبغيه عوجا ﴾

ان رجال الكنيسة لم يجدوا مايصدون به اتباعها عن الاسلام بعد أن رأوه قد قضى على الوثنية والمجوسية وكاد يقضي على النصرانية في الشرق ثم امتد نوره إلى الغرب الا تأليف الكتب ونظم الاشعار والاغاني في ذم الاسلام ونبيه وكتابه بالافك والبهتان وفحش الكلام الذي يدل على أن هؤلاء المتدينين اكذب البشر واشدهم عداوة للحق والفضيلة في سبيل رياستهم التي يتبرأ منها المسيح عليه صلوات الله وسلامه

وقد كان أتباعهم يصدقون ما يقولون ويكتبون ، ويتهيجون بما ينظمون وينشدون، حتى اذا ما اطلع بعضهم على كتب الاسلام ورأوا المسلمين وعاشروهم فضحوهم اقبح الفضائح ، كما ترى في كتاب (الاسلام خواطر وسوانح) للكونت دي كاستري وكما ترى في الكتاب الفرنسي الذي ظهر في هذا العهد باسم (حياة محمد) للموسيو درمنغام وهذان الكاتبان افرنسيان من طائفة الكاثوليك اللاتين، وقد صرحا كغيرهما بأن كنيستهم هي البادئة بالظلم والعدوان، والافك والبهتان، وبأدب المسلمين في الدفاع (*)

(*) قال موسيو درمنغام ما ترجمته العربية بقلم الدكتور محمد بك حسين هيكل : لما نشبت الحرب بين الاسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدة ويجب أن يعترف الانسان بأن الغربيين كانوا السابقين الى أكبر الخلاف . فمن المجادلين البيزنطيين الذين أوقروا الاسلام احتقاراً من غير أن كلفوا أنفسهم ـ فيما خلا جان داماسين ـ مؤنة دراسته ولم يحارب الكتاب والنظامون (يعني الشعراء) مسلمي الاندلس الا بأسخف المثالب. فقد زعموا محمداً لص نياق (؟) وزعموه متهالكا على اللهو وزعموه ساحراً وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق بل زعموه قساً رومانياً مغيظاً ان لم ينتخب لكرسي البابوية .. وحسبه بعضهم الها زائفاً «يقرب له عباده الضحايا البشرية» وان جيبر دنوجين نفسه وهو رجل جد ليذكر أن محمداً مات في نوبة سكر بين (كذا) وان جسده وجد ملقى على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير وذلك ليفسر السبب الذي من أجله حرم الخمر وحرم لحم ذلك الحيوان . . . وذهبت الاغنيات الى حد أن جعلت محمداً صنماً من ذهب وجعلت المساجد الاسلامية براني (معابد أصنام) ملأى بالتماثيل والصور. وقد تحدث واضع أغنية أنطاكية حديث من رأى صنم «ماحوم» مصنوعاً من ذهب ومن فضة خالصين وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء وأما أغنية رولان التي تصور فرسان شارلمان يحطمون الاوثان الاسلامية فتزعم أن مسلمي الاندلس يعبدون ثالوثاً مكوناً من ترفاجان وماهوم (هو ماحوم ويعنون به محمد) وابولون. وتحسب «قصة محمد» ان الاسلام يبيح للمرأة تعدد الازواج.

وقد ظلت حياة الاحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة . فمنذ رودلف دلوهيم الى وقتنا الحاضر قام نيكولا دكيز وفيفس ومراتشي وهوتنجر وبيليا نلار وبريدو وغيرهم فوصفوا محمداً بأنه دجال والاسلام بأنه مجموعة من الهرطقات (الكفر) كلها وأنه من عمل الشيطان والمسلمين بأنهم وحوش والقرآن بأنه نسيج من السخافات . اهـ المراد منه على كثرته وابهام في ترجمته، وهو قليل من اسرافهم

ولما ظهرت طائفة البروتستان وغلب مذهبها في شعوب الانجلوسكسون والجرمان، وكان الفضل في دعوتهم الاصلاحية لما انعكس على أوربة من نور الاسلام، لم يتعفف قسوسهم ودعاتهم (المبشرون) عن افتراء الكذب، ولا تجملوا فيه بشيء من النزاهة والادب، والذي نراه في هذا العصر من مطاعنهم وافترائهم وسوء أدبهم أشد مما نراه من غيرهم، ولكن الذين أنصفوا الاسلام من أحرار علمائهم اصرح قولا، واعلاهم أكثر من اللاتين عدداً، وكذلك الذين اهتدوا به، وسبب ذلك أن الحرية والاستقلال في تربيتهم أقوى، وسيكونون هم الذين ينشرون الاسلام في أوربة والولايات المتحدة الاميركانية ثم في سائر العالم كما جزم العلامة برناردشو الانكليزي في كتابه الحياة الزوجية

مسألة الآيات والعجائب أي الخوارق

بقي الكلام في مسألة العجائب التي بنيت على أساسها الكنائس النصرانية على اختلاف مذاهبها، وفيما يدعونه من تجرد محمد ﷺ من لباسها، وهي قد أصبحت في هذا العصر حجة على دينهم لا له، وصادة للعلماء والعقلاء عنه لا مقنعة به، ولولا حكاية القرآن لآيات الله التي ايد بها موسى وعيسى عليهما السلام لكان إقبال أحرار الافرنج عليه اكثر، واهتداؤهم به أعم وأسرع، لان أساسه قد بني على العقل والعلم وموافقة الفطرة البشرية، وتزكية أنفس الافراد، وترقية مصالح الاجتماع، وأما آيته التي احتج بها على كونه من عند الله تعالى هي القرآن، وأمية محمد عليه الصلاة والسلام، فهي آية علمية تدرك بالعقل والحس والوجدان

كفاك بالعلم في الامي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتم

واما تلك العجائب الكونية فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها. وأمثال هذه الامور تقع من اناس كثيرين في كل زمان والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين اكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد وعن مناقب القديسين وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر، وسنبين ما جاء به الاسلام فيها من الفصل

العجائب وما للمسيح منها

جاء في تعريف العجائب وأنواعها من قاموس الكتاب المقدس ما نصه :

« عجيبة: حادثة تحدث بقوة الهية خارقة مجرى العادة الطبيعية لاثبات ارسالية من جرت على يده او فيه. والعجيبة الحقيقية هي فوق الطبيعة لا ضدها تحدث بتوقيف نواميس الطبيعة لا بعما كستها ، وهي اظهار نظام اعلى من الطبيعة يخضع له النظام الطبيعي، ولنا في فعل الارادة مثال يظهر لنا حقيقة امر العجائب اذ بها نرفع اليد وبذلك نوقف ناموس الثقل . ويتسلط الله على قوى الطبيعة ويرشدها ويعد مدارها اويحصره لانها عوامل لمشيئته. ويناط فعل العجائب بالله وحده او بمن سمح له بذلك

«واذا آمنا بالاله القادر على كل شيء لم يعسر علينا التسليم بامكان العجائب وكانت العجيبة الاولى خليقة الكون من العدم بارادته تعالى . اما المسيح فاقنومه عجيبة ادبية عظيمة، وعجائبه لم تكن الا اظهار هذا الاقنوم واعماله، واذا آمنا بالمسيح ابن الله العديم الخطية لم يعسر علينا تصديق عجائبه . اما الشيطان فعجائبه كذابه

«ولا بد من العجائب لتعزيز الديانة فكثيرا ما يستشهد المسيح بعجائبه لاثبات لاهوته وكونه المسيح، وكان يفعلها لتمجيد الله ولمنفعة نفوس الناس وابدانهم، وكان يفعلها ظاهراً امام جماهير اصحابه واعدائه ولم ينكرها اعداؤه غير انهم نسبوها لبعلزبول(١) وسواء امتحناها بالشهادة من الخارج وبمناسبتها الى ارساليته الالهية ظهرت لكل من كان خاليا من الغرض صحيحة . فاذا لم نسلم بصحتها التزمنا ان نقول بان مقرريها كذابون الامر الذي لا يسوغ ظنه بالمسيح والرسل

«وبقيت قوة العجائب في عصر الرسل ولما امتدت الديانة المسيحية زال الاضطرار اليها(٢) ولا يلزمنا الآن سوى العجائب الادبية الحاصلة من هذه الديانة مع الشواهد الداخلية على صحتها غير انه يمكن لله تعالى ان يجددها في اي وقت شاء » اهـ

ثم وضع المؤلف جدولا احصى فيه عجائب العهد القديم من خراب سدوم

---

(١) اي الى الشيطان والاناجيل تثبت العجائب للشيطان كما صرح به آنفا

(٢) هذا مذهب البروتستانت واما الكاثوليك فيدعون وجودها في كل عصر

وعمورة على قوم لوط الى «خلاص يونان (يونس) بواسطة حوت» فبلغت ٦٧ عجيبة وقفى عليه بجدول العجائب المقرونة بحياة المسيح من الحبل به «بفعل الروح القدس» الى «الصعود إلى السماء» فبلغت ٣٧ . وعزز الجدولين بثالث في «العجائب التي جرت في عصر الرسل» اي الذين بثوا دعوة المسيح من تلاميذه وغيرهم من «انسكاب الروح القدس يوم الخمسين» الى «شفاء أبي بوبليوس وغيره» فكانت عشرين . وقد صرح بان يوحنا المعمدان لم يرد في الكتاب انه صنع عجائب

بحث في عجائب المسيح عليه السلام

اقول : ان ٢٧ من عجائب المسيح المذكورة شفاء مرضى ومجانين لابستهم الشياطين وثلاث منها إقامة موتى عقب موتهم ومابقي فمسألة الحبل به وتحويله الماء الى خمر وسحب الشبكة في بحر الجليل، واشباع خمسة آلاف مرة واربعة آلاف مرة أخرى، وضرب التينة العقيمة بما أيبسها ، وقيامة المسيح وصيد السمك والصعود . واننا نلخص رواية الاناجيل لأهمها وهو إحياء الموتى ونذكر مايقوله فيها منكرو العجائب

الميت الاول شاب من مدينة نايين كان محمولا في جنازة وأمه تبكي فاستوقف النعش وقال له: أيها الشاب لك أقول قم . فجلس وابتدأ يتكلم فدفعه إلى أمه فأخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه (لوقا ٧: ١١ـ١٦)

الثاني صبية ماتت فقال له أبوها وكان رئيساً : ابنتي الآن ماتت لكن تعال فضع يدك عليها فتحيا. فجاء بيت الرئيس ووجد المزمرين والجمع يضجون فقال لهم « تنحوا فان الصبية لم تمت لكنها نائمة » فضحكوا عليه فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية (مت ٩: ١٨ ـ ٢٤)

فمنكرو العجائب يقولون ان كلا من الشاب والشابة لم يكونا قد ماتا بالفعل وان كثيراً من الناس في كل زمان قد قاموا من نعوشهم بل من قبورهم بعد أن ظن الناس انهم ماتوا . ولذلك تمنع الحكومات المدنية دفن الميت إلا بعد أن يكتب أحد الاطباء شهادة بموته . وللمؤمنين بالآيات أن يجزموا أيضاً بأن الصبية لم تكن ميتة أخذا بظاهر قوله عليه السلام

وأما الثالث فهو « ايعازر » حبيبه وأخو مرثا ومريم حبيبتيه : مرض في قريتهم «بيت عنيا» فأرسلتا الى المسيح قائلتين « هو ذا الذي تحبه مريض» فمكث يومين وحضر فوجد انه مات منذ اربعة أيام فلاقته مرثا وقالت :ياسيد لو كنت هنا لم يمت أخي،ثم دعت أختها مريم فلما رأته خرت عند رجليه قائلة كما قالت مرثا وكانوا قد ذهبوا الى عند القبر للبكاء، فلما رآها تبكي واليهود الذين جاءوا معها يبكون «انزعج بالروح واضطرب » وقال « أين وضعتموه؟» فدلوه عليه فبكى وانزعج في نفسه وجاء إلى القبر وكان مغارة وقد وضع عليه حجر، فأمر برفع الحجر فرفعوه «ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: ايها الاب أشكرك لانك سمعت لي ، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي ، ولكن لاجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا انك أرسلتني » ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم « لعازر ! هلم خارجا » فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطتان بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل ، فقال لهم يسوع : حلوه ودعوه يذهب .اه ملخصاً من الفصل ١١ من انجيل يوحنا

أتدري أيها القارىء ما يقول منكرو العجائب والآيات في هذه القصة على تقدير صحة الرواية ؟ انني سمعت طبيباً سوريا بروتستنتياً يقول انها كانت بتواطؤ بينه وبين حبيبتيه وحبيبه لاقناع اليهود بنبوته . وحاشاه عليه السلام . وانما نقل هذا لنبين أن النصارى لايستطيعون إقامة البرهان في هذا العصر على نبوة المسيح فضلا عن ألوهيته بهذه الروايات التي تدل على النبوة وتنفي الالوهية ، كما فهم الذين شاهدوها ، لانه ليس لها أسانيد متصلة الى كاتبيها، ولا دليل على عصمتهم من الخطأ في روايتها ، دع قول المنكرين باحتمال الاحتيال والتلبيس أو المصادفة فيها، أو عدهم اياها على تقدير ثبوتها من فلتات الطبيعة

واذا كان اعظمها وهو احياء الميت يحتمل ماذكروا من التأويل فما القول في شفاء المرضى واخراج الشياطين الذي يكثر وقوع مثله في كل زمان والاطباء كلهم يقولون ان مايدعي العوام من دخول الشياطين في اجساد الناس ماهو الا أمراض عصبية تشفى بالمعالجة او بالوهم والاعتقاد. ودونها مسألة الخمر والسمك ويبس التينة

آية نبوة محمد عقلية علمية وسائر آياته الكونية

هذا وان مارواه المحدثون بالاسانيد المتصلة تارة وبالمرسلة اخرى من الآيات الكونية التي أكرم الله تعالى بها رسوله محمدا ﷺ هي اكثر من كل ماروا. الانجيليون وأبعد عن التأويل، ولم يجعلها برهاناً على صحة الدين ولا أمر بتلقينها للناس.

ذلك بأن الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها، لان البشر قد بدؤا يدخلون في سن الرشد والاستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون، بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم بذلك بل هو من موانعه، فجعل حجة نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وعلومه وإعجازه اللفظي والمعنوي (كما بيناه في تفسير سورة البقرة) ليربي البشر على الترقي في هذا الاستقلال، إلى ما هم مستعدون له من الكمال

هذا الفصل بين النبوات الخاصة الماضية، والنبوة العامة الباقية، قد عبر عنه النبي ﷺ بقوله « مامن الانبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات مامثله آمن عليه البشر . وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» متفق عليه من حديث أبي هريرة (رض)

وقص الله تعالى علينا في كتابه ان المشركين اقترحوا الآيات الكونية (العجائب) على رسوله فاحتج عليهم بالقرآن في جملته وبما فيه من أخبار الرسل والكتب السابقة التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه، وبهدايته وبعلومه وإعجازه، وعدم استطاعة احد ولا جماعة ولا العالم كله على الاتيان بمثله (١٧ : ٨٨ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)

وأما ما أكرمه الله تعالى به من الآيات الكونية فلم يكن لاقامة الحجة على نبوته ورسالته بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد كنصرهم على المعتدين عليهم من الكفار الذين يفوقونهم عدداً وعدداً واستعداداً بالسلاح والطعام وناهيك بغزوة بدر والنصر فيها، ثم بغزوة الاحزاب إذ تألب المشركون واليهود

على المسلمين وأحاطوا بمدينتهم فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال من تلك الآيات شفاء المرضى وابصار الاعمى وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل في هذه الغزوة وفي غزوة تبوك كما وقع للمسيح عليه السلام . ومنه تسخير الله السحاب لأسقاء المسلمين وتثبيت أقدامهم التي كانت تسيخ في الرمل ببدر ولم يصب المشركين من غيثها شيء . ومثل ذلك في غزوة تبوك إذ نفد ماء الجيش في الصحراء والحر شديد حتى كانوا يذبحون البعير ويخرجون الفرث من كرشه ليعتصروه ويبلوا به ألسنتهم على قلة الرواحل معهم ، وكان يقل من يجد من عصارته ما يشربه شربا ، فقال أبو بكر يا رسول الله ان الله عودك في الدعاء خيرا فادع لنا ، فرفع يديه فدعا فلم يرجعهما حتى كانت السماء قد سكبت لهم ماملأوا مامعهم من الروايا ولم تتجاوز عسكرهم

تأثير العجائب في الافراد والامم

لقد كانت آيات المرسلين حجة على الجاحدين المعاندين استحقوا بجحودها عذاب الله في الدنيا والآخرة ، ولم يؤمن بها ممن شاهدوها إلا المستعدون للايمان بها : ان فرعون وقومه لم يؤمنوا بآيات موسى ، وإن أكثر بني اسرائيل لم يعقلوها ، وقد اتخذوا العجل وعبدوه بعد رؤيتها . وقال اليهود في المسيح لولا انه رئيس الشياطين لما اخرج الشيطان من الانسان . وقالوا ان ابليس أو بعلزبول يفعل اكبر من فعله ، وما كان اكثرهم مؤمنين . وقال المنافقون وقد رأوا بأعينهم سحابة واحدة في ابان القيظ قد مطرت عسكر المؤمنين وحده عند دعاء النبي ﷺ : انما مطرنا بتأثير النوء لا بدعائه .

وقد كان اكثر من آمن بتلك الآيات انما خضعت أعناقهم واستخذت انفسهم لما لا يعقلون له سبباً وقد انطوت الفطرة على أن كل مالا يعرف له سبب فالآتي به مظهر للخالق سبحانه ان لم يكن هو الخالق نفسه ، وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين ولا يزالون كذلك وقد نقلوا عن المسيح عليه السلام انه سيأتي بعده مسحاء كذبة وأنبياء كذبة

ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً (متى ٢٤ : ٢٤) وقد ذكر في قاموس الكتاب المقدس عدداً كثيراً منهم وأسماء بعضهم . وأقول : ان منهم القادياني الذي ظهر من مسلمي الهند ، وتذكر صحف الأخبار ظهور هندي آخر يريد اظهار عجائبه في أمريكا في هذا العام ونقلوا عن المسيح أنه قال: «الحق اقول لكم ليس كل نبي مقبولا في وطنه » وجعل القاعدة لمعرفة النبي الصادق تاثير هدايته في الناس لا الآيات والعجائب فقال « من ثمارهم تعرفونهم » ولم يظهر بعده - ولا قبله - نبي كانت ثماره الطيبة في هداية البشر كثمار محمد ﷺ ولا احد يصدق عليه قوله في انجيل يوحنا (١٦ : ١٢ ان لي أمورا كثيرة ايضا ولكن لاتستطيعون أن تحتملوا الآن وأما متى جاء ذاك (أي البارقليط) روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق) الخ وما جاء بعده نبي أرشد الناس الى جميع الحق في الدين من توحيد وتشريع وحكمة وتأديب غير محمد رسول الله وخاتم النبيين

ومن استقرأ تواريخ الامم علم ان أهل الملل الوثنية اكثر اعتمادا على العجائب من أهل الاديان السماوية ، ورأى الجميع ينقلون منها عن معتقديهم من الاولياء والقديسين اكثر مما نقلوا عن الانبياء المرسلين، وان اكثر المصدقين بها من الخرافيين

ثبوت نبوة محمد بنفسها واثباتها لغيرها

وجملة القول ان نبوة محمد ﷺ قد ثبتت بنفسها ، أي بالبرهان العلمي والعقلي الذي لاريب فيه لا بالآيات والعجائب الكونية، وان هذا البرهان قائم ماثل للعقول والحواس في كل زمان، وانه لايمكن اثبات آيات النبيين السابقين إلا بثبوت نبوته ﷺ وهذا القرآن الذي جاء به ، فالحجة الوحيدة عليها في هذا الطور العلمي الاستقلالي من اطوار النوع البشري هو شهادته لها . فان الكتب التي نقلتها لايمكن اثبات عزوها الى من عزيت اليهم، اذ لا يوجد نسخ منها منقولة عنهم باللغات التي كتبوها بها لا تواترا ولا آحادا ، ولايمكن إثبات عصمتهم من الخطأ فيما كتبوه على اختلافه وتناقضه ، وتعارضه ، ولا اثبات صحة التراجم التي نقلت بها ، كما قلنا آنفاً وبيناه بالتفصيل مرارا

الكتاب الالهي الوحيد الذي نقل بنصه الحرفي تواترا عمن جاء به بطريقتي

الحفظ والكتابة معا هو القرآن ، والنبي الوحيد الذي نقل تاريخه بالروايات المتصلة الاسانيد حفظا وكتابة هو محمد (ص) فالدين الوحيد الذي يمكن للعلماء المستقلين في الفهم والرأي ان يعقلوه ويبنوا عليه حكمهم هو الاسلام . وأما خلاصة ما يمكن الاعتراف به من الاديان السابقة لثبوت قضاياه الاجمالية بالتواتر المعنوي ، فهو انه وجد في جميع امم الحضارة القديمة دعاة الى عبادة الله تعالى والى العمل الصالح والى ترك الشرور والرذائل منهم انبياء مبلغون عن الله تعالى مبشرين ومنذرين ، كما انه وجد فيهم حكماء يبنون ارشادهم على الاحتجاج بما ينفع الناس ويضرهم بحكم العقل والتجربة ـ ووجد في جميع ما نقل عن الفريقين أمور مخالفة للعقل ولما ينفع الناس ، وأمور خاصة بأهلها وبزمانهم ، وخرافات ينكرها العقل وينقضها العلم

واذ كان الاسلام ونبيه هو الدين الوحيد الذي عرفت حقيقته وتاريخه بالتفصيل فاننا نذكر هنا شبهة علماء الافرنج الماديين ومقلدتهم عليه ، بعد مقدمة في شهادتهم الاجمالية له ، تمهيداً لدحض الشبهة ، ونهوض الحجة ، فنقول :

(درس علماء الافرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصدقه ﷺ)

درس علماء الافرنج تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده على طريقتهم في النقد والتحليل ، ودرسوا السيرة النبوية المحمدية وفلوها فليا ونقشوها بالمناقيش ، وقرؤا القرآن بلغته وقرؤا ما ترجم به بأقوامهم ، وكانوا على علم محيط بكتب العهدين القديم والجديد ، وتاريخ الأديان ولا سيما الديانتين اليهودية والنصرانية ، وبما كتبه المتعصبون للكنيسة من الافتراء على الاسلام والنبي والقرآن مما أشرنا إلى بعضه آنفاً ، فخرجوا من هذه الدروس كلها بالنتيجة الآتية :

﴿ ان محمداً كان سليم الفطرة ، كامل العقل ، كريم الاخلاق ، صادق الحديث ، عفيف النفس ، قنوعا بالقليل من الرزق ، غير طموع بالمال ولا جنوح الى الملك ، ولم يعن بما كان يعنى به قومه من الفخر ، والمباراة في تحبير الخطب وقرض الشعر ، وكان يمقت ما كانوا عليه من الشرك وخرافات الوثنية ، ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية ، كالخمر والميسر ﴾

﴿ وأكل أموال الناس بالباطل ، وبهذا كله وبما ثبت من سيرته ويقينه بعد ﴾
﴿ النبوة جزموا بانه كان صادقا فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنه من ﴾
﴿ رؤية ملك الوحي ، واقرائه اياه هذا القرآن ، وإنبائه بأنه رسول من الله ﴾
﴿ لهداية قومه فسائر الناس ﴾

وزادهم ثقة بصدقه ان كان أول الناس ايمانا به واهتداء بنبوته أعلمهم بدخيلة أمره ، وأولهم زوجه خديجة المشهورة بالعقل والنبل والفضيلة ، ومولاه زيد بن حارثة الذي اختار أن يكون عبدا له على أن يلحق بوالده وأهل بيته ويكون معهم حرا، ثم أن كان الذين آمنوا به من اعظم العرب حرية واستقلالا في الرأي ولاسيما أبي بكر وعمر

فاما المؤمنون بالله وملائكته وبان للبشر أرواحا خالدة من هؤلاء الافرنج فقد آمنوا بنبوة محمد ﷺ على علم وبرهان ، وهم يزيدون عاما بعد عام ، بقدر مايتاح لهم من العلم بالاسلام ، وأما الماديون فلم يكن لهم بد من تفسير لهذه الحادثة أوالظاهرة التي لاريب في صحتها وثبوتها ، وبتصويرها بالصورة العلمية التي يقبلها العقل، الذي لايؤمن بما وراء المادة أوالطبيعة من عالم الغيب

قدحوا زناد الفكر ، واستوروا به نظريات الفلسفة ، فلاح لهم منه سقط أبصروا في ضوئه الضئيل الصورة الخيالية التي أجملها الاستاذ مونتيه في عبارته التي نقلناها عنه آنفاً وفصلها أميل درمنغام وغيره بما نشرحه ههنا .

(شبهة منكري عالم الغيب على الوحي الالهي)

(وتصويرهم لنبوة محمد ﷺ)

خلاصة رأي هؤلاء الماديين أن الوحي إلهام يفيض من نفس النبي الموحى اليه لا من الخارج، ذلك أن نفسه العالية، وسريرته الطاهرة، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية، وتقاليد وراثية ، يكون لها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الرؤى والاحوال الروحية ، فيتصور مايعتقد وجوبه إرشاداً الهياً نازلا عليه من السماء بدون واسطة ، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب وقد يسمعه يقول ذلك، وانما يرى ويسمع مايعتقده في اليقظة

كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الانبياء ، فكل ما يخبر به النبي من كلام ألقي في روعه أو ملك ألقاه على سمعه فهو خبر صادق عنده

يقول هؤلاء الماديون: نحن لانشك في صدق محمد في خبره عما رأى وصمم ، وانما نقول ان منبع ذلك من نفسه ، وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي وراء عالم المادة والطبيعة الذي يعرفه جميع الناس، فان هذا شيء لم يثبت عندنا وجوده كما أنه لم يثبت عندنا ما ينفيه ويلحقه بالمحال ، وإنما نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون مالم يثبت

ويضربون مثلا لهذا الوحي قصة جان دارك الفتاة الافرنسية التي قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها بعد موتها بزمن، وهذا التصوير الذي يصورون به ظاهرة الوحي قد سرت شبهته الى كثير من المسلمين المرتابين الذين يقلدون هؤلاء الماديين في نظرياتهم المادية أو يقتنعون بها. وانني أفتتح الكلام في ابطال هذه الصورة الخيالية بالكلام على جان دارك فقد ألقي الي سؤال عنها نشرته مع الجواب عنه في صفحة ٧٨٨ من المجلد السادس من المنار (سنة ١٣٢١) وهذا نصه

﴿ شبهة على الوحي ﴾

حضرة الاستاذ الرشيد

عرضت لي شبهات في وقوع الوحي (وهو أساس الدين) فعمدت الى رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ـ حيث وقع اختياري عليها ـ وقرأت في بابي (حاجة البشر الى الوحي) و (إمكان الوحي) فوجدت الكلام وجيهاً معقولا، غير ان الحاجة الى الشيء لاتستلزم وقوعه، وكذا إمكانه وعدم استحالته عقلا لا يقتضي حصوله . ثم ماذكر بعد من أن حالة النبي وسلوكه بين قومه وقيامه بجلائل الاعمال وبوقوع الخير للناس على يديه هو دليل نبوته وتأييد بعثته، فليس شيئا، فانه قد يكون (كون) النبي حميد السيرة في عشيرته صادقا في دعوته ـ اعني معتقدا في نفسه ـ سببا في نهوض أمته ، ولا يكون كل ذلك مدعاة الى الاعتقاد به والتسليم له

ولقد حدث بفرنسا في القرن الخامس عشر الميلادي اذ كانت مقهورة للانكليز

ان بنتا تدعى (جان دارك) من اجمل النساء سيرة وأسلمهن نية اعتقدت وهي في بيت اهلها بعيدة عن التكاليف السياسية انها مرسلة من عند الله لانقاذ وطنها ودفع العدو عنه، وصارت تسمع صوت الوحي فأخلصت في الدعوة للقتال، وتوصلت بصدق إرادتها الى رئاسة جيش صغير وغلبت به العدو فعلا، ثم ماتت غب نصرتها موتة الابطال من الرجال، إذ خذلها قومها، ووقعت في يد عدوها فألقوها في النار حية، فذهبت تاركة في صحائف التاريخ اسما يعبق نشره وتضوع رياه. وهي الآن موضع إجلال القوم وإعظامهم، فلقد تيسرت لهم النهضة بعدها وجروا في العلم والرقي بعيداً.

فهل نجزم لذلك ان تلك البنت نبية مرسلة ؟؟ ربما تذهبون الى ان عملها لا يذكر مقارنا بما اتت به الرسل وما وصل للناس من الخير بسببهم، فأقول هل هناك من ميزان نزن به الاعمال النافعة لنعلم إن كانت وصلت الى الدرجة التي يجب معها ان نصدق دعوة صاحبها ؟ وهل لو ساعدت الصدف (كذا) رجلا على ان يكون اكبر الناس فعلا وأبقاهم أثرا واعتقد برسالة نفسه لوهم قام (عنده) يفضي بنا ذلك الى التيقن من رسالته ؟

اظن أن هذا كله مضافا لغيره يدعو الى الترجيح ولا يستلزم اليقين ابدا. على اني أنتظر ان تجدوا في قولي هذا خطأ تقنعوني به أو تزيدوني ايضاحا ينكشف به الحجاب وتنالون به الثواب. هذا واني اعلم من فئة مسلمة ما أعلمه من نفسي ولكنهم يتحفظون في الكتمان، ويسألون الكتب خشية سؤال الانسان، ولكنني لا اجد في السؤال عارا، وكل عقل يخطيء ويصيب، ويزل ويستقيم . (احد قرائكم)

﴿ جواب المنار ﴾

لقد سرنا من السائل انه على تمكن الشبهة من نفسه لم يذعن لها تمام الاذعان، فيسترسل في تعدي حدود الدين الى فضاء الاهواء والشهوات التي تفسد الارواح والاجسام، بل أطاع شعور الدين الفطري، ولجأ الى البحث في الكتب، ثم السؤال ممن يظن فيهم العلم بما يكشف الشبهة، ويقيم الحجة، وان كثيرا من الناس لينصرفون عن طلب الحق عند اول قذعة من الشبه تلوح في فضاء أذهانهم، لانهم شبوا على حب التمتع والانغماس في اللذة، ويرون الدين صاداً لهم عن

الانهاك والاسترسال فيها ، فهم يحاولون إماتة شعوره الفطري ، كما امات النشوء في الجهل برهانه الكسبي

ارى السائل نظر من رسالة التوحيد في المقدمات ووعاها ولكنه لم يدقق النظر في المقاصد والنتائج ، لذلك نراه مسلما بالمقدمات دون النتيجة مع اللزوم بينهما ، فاذا هو عاد الى مبحث (حاجة البشر الى الرسالة) وتدبره وهو مؤمن بالله وانه أقام الكون على اساس الحكمة البالغة والنظام الكامل فانني ارجو له أن يقتنع . ثم انني آنست منه انه لم يقرأ مبحث (وقوع الوحي والرسالة) او لعله قرأه ولم يتدبره ، فانه لم يذكر البرهان على نفس الرسالة ويبني الشبهة عليه وانما بناها على جزء من أجزاء المقدمات ، وهي القول في بعض صفات الرسل عليهم السلام . واني اكشف له شبهته أولا فأبين انها لم تصب موضعها ثم أعود إلى رأيي في الموضوع

ان [جان درك] التي اشتبه عليه امرها بوحي الانبياء لم تقم بدعوة الى دين او مذهب تدعي ان فيه سعادة البشر في الحياة وبعد الموت كما هو شأن جميع المرسلين ، ولم تأت بآية كونية ولا علمية لا يعهد مثلها من كسب البشر تتحدى بها الناس ليؤمنوا بها . وانما كانت فتاة ذات وجدان شريف هاجه شعور الدين وحركته مزعجات السياسة ، فتحرك ، فنفر ، فصادف مساعدة من الحكومة ، واستعداداً من الامة للخروج من الذل الذي كانت فيه ، وكان التحمس الذي حركته سببا للحملة الصادقة على العدو وخذلانه . وما اسهل تهييج حماسة أهل فرنسا بمثل هذه المؤثرات وبما هو أضعف منها ، فان نابليون الاول كان يسوقهم الى الموت مختارين بكلمة شعرية يقولها ككلمته المشهورة عند الاهرام

وأذكر السائل الفطن بأنه لم يوافق الصواب في إبعاد الفتاة عن السياسة ومذاهبها فقد جاء في ترجمتها من دائرة المعارف (العربية للبستاني) ما نصه :

« كانت متعودة الشغل خارج البيت كرعي المواشي وركوب الخيل الى العين ومنها الى البيت ، وكان الناس في جوار دومرمي [اي بلدها] متمسكين بالخرافات ، ويميلون الى حزب اورليان في الانقسامات التي مزقت مملكة فرنسا ، وكانت جان

تشترك في الهياج السياسي والحماسة الدينية، وكانت كثيرة التخيل والورع تحب ان تتأمل في قصص العذراء وعلى الاكثر في نبوة كانت شائعة في ذلك الوقت، وهي ان احدى العذارى ستخلص فرنسا من أعدائها . ولما كان عمرها ١٣ سنة كانت تعتقد بالظهورات الفائقة الطبيعة وتتكلم عن اصوات كانت تسمعها ورؤى كانت تراها . ثم بعد ذلك ببضع سنين خيل لها انها قد دعيت لتخلص بلادها وتتوج ملكها . ثم أوقع البرغنيور تعديا على القرية التي ولدت فيها فقوى ذلك اعتقادها بصحة ماخيل لها »

ثم ذكر بعد ذلك توسلها الى الحكام وتعيينها قائدة لجيش ملكها وهجومها بعشرة آلاف جندي ضباطهم ملكيون على عسكر الانكليز الذين كانوا يحاصرون أورليان، وانها دفعتهم عنها حتى رفعوا الحصار في مدة اسبوع، وذلك سنة ١٤٢٩ ثم ذكر انها بعد ذلك زالت خيالاتها الحماسية، ولذلك هوجمت في السنة التالية سنة ١٤٣٠ فانكسرت وجرحت وأسرت

فمن ملخص القصة يعلم ان ما كان منها انما هو تهيج عصبي سببه التألم من تلك الحالة السياسية التي كان يتألم منها من نشأت بينهم مع معونة التحمس الديني والاعتقاد بالخرافات الدينية التي كانت ذائعة في زمنها . وهذا شيء عادي معروف السبب وهو من قبيل الذين يقومون باسم المهدي المنتظر كمحمد احمد السوداني والباب (وكذا البهاء والقادياني) بل الشبهة في قصتها ابعد من الشبهة في قصة هذين الرجلين، وان كانت اسباب النهضة متقاربة فان هذين كانا كأمثالها يدعوان الى شيء (ملفق) يزعمان انه اصلاح للبشر في الجملة

أين هذه النوبة العصبية القصيرة الزمن، المعروفة السبب ، التي لادعوة فيها الى علم ولا إصلاح اجتماعي إلا المدافعة عن الوطن عند الضيق التي هي مشتركة بين الانسان والحيوان الاعجم، التي لاحجة تعمدها، ولا معجزة تؤيدها ، التي اشتعلت بنفخة وطفئت بنفخة ؟ أين هي من دعوة الانبياء التي بين الاستاذ الامام انها حاجة طبيعية من حاجات الاجتماع البشري، طلبها هذا النوع بلسان استعداده فوهبها له المدبر الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فسار الانسان بذلك إلى كماله ، فلم يكن أدنى من سائر المخلوقات الحية النامية بل أرقى وأعلى . وأين دليلها من أدلة

النبوة وأين أثرها من أثر النبوة ؟ إن الامم التي ارتقت بما أرشدها اليه تعليم الوحي انما ارتقت بطبيعة ذلك التعليم وتأثيره، وان فرنسا لم ترتق بارشاد (جان درك) وتعليمها ، وانما مثلها مثل قائد انتصر في واقعة فاصلة بشجاعته وبأسباب أخرى ليست من صنعه، واستولت أمته بسبب ذلك على بلاد رقيها بعلوم علمائها وحكمة حكمائها وصنع صناعها، ولم يكن القائد يعرف من ذلك شيئاً ولم يرشد اليه، فلا يقال ان ذلك القائد هو الذي أصلح تلك البلاد ، وعمرها ومدنها ، وإن عد سبباً بعيداً فهو شبيه بالسبب الطبيعي ، كهبوب ريح تهيج البحر فيغرق الاسطول وتنتصر الامة

أين حال تلك الفتاة التي كانت كبارقة خفت (أي ظهرت وأومضت) ثم خفيت، وصيحة علت ولم تلبث أن خفتت ، من حال شمس النبوة المحمدية التي أشرقت فأنارت الأرجاء ، ولا يزال نورها ولن يزال متألق السناء ، أمي يتيم قضى سن الصبا وسن الشباب هادئاً ساكناً لا يعرف عنه علم ولا تخيل، ولا وهم ديني، ولا شعر ولا خطابة، ثم صاح على رأس الاربعين بالعالم كله صيحة « انكم على ضلال مبين ، فاتبعون أهدكم الصراط المستقيم» فأصلح وهو الامي أديان البشر عقائدها وآدابها وشرائعها ، وقلب نظام الأرض فدخلت بتعليمه في طور جديد ؟ لاجرم أن الفرق بين الحالين عظيم إذا أمعن النظر فيه العاقل

لاسعة في جواب سؤال لتقرير الدليل على النبوة وإنما أحيل السائل على التأمل في بقية بحث النبوة في رسالة التوحيد ومراجعة ما كتبناه أيضاً من الامالي الدينية في المنار لاسيما الدرس الذي عنوانه (الآيات البينات ، على صدق النبوات)وان كان يصدق على رسالة التوحيد المثل « كل الصيد في جوف الفرا » فان بقي عنده شبهة فالاولى أن يتفضل بزيارتنا لأجل المذاكرة الشفاهية في الموضوع، فان المشافهة أقوى بياناً ، وأنصع برهاناً ، ونحن نعاهده بأن نكتم أمره وإن أبى فليكتب الينا مايظهر له من الشبهة على مافي الرسالة والامالي من الاستدلال على وقوع النبوة بالفعل، وعند ذلك نسهب في الجواب بما نرجو أن يكون مقنعاً ، على أن المشافهة أولى كما هو معقول وكما ثبت لنا بالتجربة مع كثير من المشتبهين والمرتابين اه

هذا وان ما بينه الاستاذ الامام في اثبات وقوع الوحي لا يستطيع أحد فهمه حق الفهم وهو يؤمن بوجود الله العليم الحكيم الفاعل المختار الا أن يقبله ويذعن له ، فانه بين أن الوحي والرسالة بالمعنى الذي قرره لازم عقلي لعلمه تعالى وحكمته وكونه هو (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ولا يفهمه حق الفهم الامن أوتي نصيبا من علم الاجتماع وحكمة الوجود وسننه وأصول العقائد ، ونصيبا آخر من بلاغة اللغة العربية . وان نبوة محمد ﷺ ورسالته يمكن اثباتها بما دون هذه الفلسفة والبلاغة وهو ما قهر عقول علماء الافرنج على تصديق دعوته ، وحمل الماديين على تصويرها بما نبسطه فيما يأتي وننقفي عليه باثبات بطلانه

تفصيل الشبهة ودحضها بالحجة

قد فصل أميل درمنغام الشبهة التي اجملها مونتيه بما لم نر مثله لغيره من كتاب الافرنج حتى اغتر بكلامه كثير من المسلمين ، فان كان حكيمنا السيد جمال الدين قال لبعض مجادلي النصرانية : انكم فصلتم قميصاً من رقاع العهد القديم وألبستموها للمسيح عليه السلام ـ فنحن نقول لهم انكم فصلتم قميصا آخر مما فهمتم من تاريخ الاسلام لا من نصوصه وحاولتم خلعها على محمد ﷺ ، وانني أشرح هذه الشبهة بأوضح مما كتبه درمنغام وما بلغني عن كل احد منهم ، ثم أكر عليها بالنقض والدحض فأقول :

(١) قالوا ان محمداً قد لقي بحيرا الراهب في مدينة بصرى بالشام ، وقالوا انه كان نسطوريا من أتباع آريوس في التوحيد وينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث وان محمدا لابد أن يكون علم منه عقيدته ، وقالوا في بحيرا ايضا انه كان عالما فلكيا منجما وحاسبا ساحرا ، وانه كان يعتقد أن الله ظهر له وأنبأه بأن سيكون هاديا لآل اسماعيل إلى الدين المسيحي . بل سمعنا من بعض الرهبان انه كان معلماً لمحمد ومصاحباً له بعد رسالته ، وان محمداً ماحرم الخمر إلا لانه قتل أستاذه بحيرا وهو سكران ، وأمثال هذا من الافتراء والبهتان ، وكل ماعرفه المسلمون من رواة السيرة النبوية ان النبي ﷺ لما خرج مع عمه أبي طالب الى الشام وهو ابن تسع سنين

وقيل ١٢ سنة رآه هذا الراهب مع قريش ورأى سحابة تظلله من الشمس وذكر لعمه انه سيكون له شأن وحذره عليه من اليهود ـ وفي المسألة روايات أخرى بعضها ضعيفة الاسانيد إلا رواية للترمذي ليس فيها اسم بحيرا وفيها غلط في المتن، وليس في شيء منها انه ﷺ سمع من بحيرا شيئاً من عقيدته أو دينه

(٢) قالوا ان ورقة بن نوفل كان من متنصرة العرب العلماء بالنصرانية وأحد أقارب خديجة ـ يوهمون القارئ انه ﷺ اخذ عنه شيئاً من علم اهل الكتاب ـ والذي صح من خبر ورقة هذا هو ما رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما من أن خديجة أخذته ﷺ عقب إخباره إياها برؤية الملك في حراء إلى ورقة هذا وأخبرته خبره وكان شيخاً قد عمي ولم يلبث بعد ذلك أن توفي ولم يثبت ان النبي ﷺ رآه قبل ذلك (وسأذكر نص الحديث في آخر هذا المبحث) وقد استقصى المحدثون والمؤرخون كل ما عرف عن ورقة هذا مما صح سنده ومما لم يصح له سند كدأبهم في كل ماله علاقة بالنبي ﷺ والاسلام فلم يذكر احد منهم انه عرف عنه دعوة إلى النصرانية او كتابة فيها . وإنما ورد في بعضها انه قال حين علم من خديجة خبر محمد : انه هو النبي المنتظر الذي بشر به المسيح عيسى بن مريم . وفي بعضها انه عاش حتى رأى بلالا يعذبه المشركون ليرجع عن الاسلام ولكن هذه الرواية شاذة مخالفة لحديث عائشة الصحيح انه كان عند بدء الوحي اعمى ولم ينشب أي لم يلبث أن مات ، وقد كان تعذيب بلال بعد إظهار دعوة النبوة ودخول الناس فيها وقد كان هذا بعد بدء الوحي بثلاث سنين ـ وأميل درمنغام قد غلط فيما نقله من خبر فترة الوحي لاختلاط الروايات عليه فيها وعدم اطلاعه على مادوّن في كتب الحديث منها . وإنما كان هم المحدثين في خبر ورقة أن يعلموا انه كان صحابياً ام لا، فان الصحابي هو من لقي النبي ﷺ بعد البعثة مؤمنا به، ولو بلغهم عنه أي شيء من علمه بالتوراة أو الانجيل لنقلوه

(٣) ذكروا ما كان من انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب قبل الاسلام وتنصر بعض فصحاء العرب وشعرائهم كقس بن ساعدة الايادي وأمية بن أبي الصلت وإشادة هؤلاء بما كانوا يسمعون من علماء أهل الكتاب عن قرب ظهور النبي الذي بشر به موسى وعيسى وغيرهما من الانبياء . وقد نشرنا بعض ما نقل عنهم في

التوراة والاناجيل وكتب النبوات في تفسير (١٥٧ الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) من سورة الاعراف

فاما قس فقد مات قبل البعثة . وروي ان النبي ﷺ رآه قبل البعثة بزمن طويل يخطب الناس في سوق عكاظ على جمل له اورق، بكلام له مونق، قال فيه : ان لله ديناً خيراً من دينكم الذي أنتم عليه، ونبياً قد أظلكم زمانه، وأدرككم اوانه، فطوبى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن خالفه ـ والروايات في هذا ضعيفة، وتعددها يدل على أن لها أصلا

وأما امية بن ابي الصلت الثقفي فهو شاعر مشهور . قال ابو عبيدة اتفقت العرب على ان امية أشعر ثقيف، وقال الزبير بن بكار حدثني عمي قال : كان امية في الجاهلية نظر الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً وكان يذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية، وحرم الخمر وتجنب الاوثان وطمع في النبوة لانه قرأ في الكتب ان نبيا يبعث بالحجاز فرجا أن يكون هو، فلما بعث النبي ﷺ حسده فلم يسلم . وهو الذي رثى قتلى بدر (المشركين) بالقصيدة التي اولها

ماذا ببدر والعقنـ ـقل من مرازبة جحاجح

وفي المرآة عن ابن هشام انه كان آمن بالنبي ﷺ فقدم الحجاز ليأخذ ماله من الطائف ويهاجر فعلم بغزوة بدر وقتل صناديد قريش فيها فجدع أنف ناقته وشق ثوبه وبكى لان فيهم ابني خاله وعاد إلى الطائف ومات فيها . وصح ان النبي ﷺ استنشد الشريد بن عمرو من شعره فأنشده فقال «كاد ان يسلم» ولكنه كان حنيفيا على ملة ابراهيم ولم يتنصر ومن شعره

كل دين يوم القيامة عند اللـــــه الا دين الحنيفة زور

(٤) إسلام سلمان الفارسي (رض) كان فارسيا مجوسيا فتنصر على يد بعض الرهبان وصحب غير واحد من عبادهم وسمع منهم أو من آخرهم بقرب ظهور النبي الذي بشر به عيسى والانبياء من العرب فقصد بلاد العرب وبيع لبعض يهود يثرب ظلماً وعدوانا ولم ير النبي ﷺ إلا بعد الهجرة فأسلم وكاتب سيده . وفي قصته روايات متعارضة هذا هو المراد منها لدرمنغام وغيره

(٥) ذكروا ما كان من رحلة تجار قريش في الشتاء الى اليمن وفي الصيف الى الشام واجتماعهم بالنصارى في كل منهما كلما مروا بدير أو صومعة الرهبان ، وكان هؤلاء النصارى يتحدثون بقرب ظهور نبي من العرب

(٦) زعم درمنغام انه كان يوجد بمكة نفسها اناس من اليهود والنصارى ولكنهم كانوا عبيداً وخدما لان رؤساء قريش لم يكونوا يسمحون لهم أن يسكنوا في مكة حرمهم المقدس الخاص بوثنيتهم وأصنامهم . وكان هؤلاء يسكنون في أطراف مكة «في المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء »!! وكانوا يتحدثون بقصص عن دينهم لاتصل الى مسامع رؤساء قريش وعظمائهم أو ما كانوا يحفلون بها لسماع أمثالها في رحلاتهم الكثيرة. ولكنه ذكر ان اباسفيان عتب على أمية بن أبي الصلت كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الامر

فهذه مقدمات يذكرها كتاب الافرنج لتعليل ماظهر به محمد ﷺ من دعوى النبوة على طريقتهم في الاستنباط وما يسمونه النقد التحليلي ، ويقرنون بها مقدمات أخرى في وصف حالته النفسية والعقلية وحالة قومه وما استفاده منهامن تأثير وعبرة ، فنلخصها مضمومة الى ماقبلها مع الالمام بنقدها

(٧) قال درمنغام في كفالة أبي طالب لمحمد بعد وفاة جده: انه لم يكن غنياً فلم يتح له تعليم الصبي الذي بقي أمياً طول حياته (يوهم القارىء ان أولاد الموسرين بمكة كانوا يتعلمون كأن هنالك مدارس يعلم فيها النشء بالاجور كمدارس بلاد الحضارة وهذا باطل لاأصل له — ثم قال)

« ولكنه كان يستصحبه وإياه في التجارة فيسير والقوافل خلال الصحراء يقطع هذه الابعاد المتنائية وتحدق عيناه الجميلتان بمدين ووادي القرى وديار ثمود وتستمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب والبادية عن هذه المنازل وحديثها وماضي نبيها . ويقال انه في إحدى هذه الرحلات الى الشام التقى بالراهب بحيرا في جوار مدينة بصرى وأن الراهب رأى فيه علامات النبوة على ما تدله عليه أنباء كتبه . وفي الشام عرف محمد احبار الروم ونصرانيتهم وكتابهم ومناوأة الفرس من عباد النار لهم وانتظار الوقيعة بهم »

كل ماذكره درمنغام هنا فهو من مخترعات خياله ومبتدعات رأيه الا مسألة بحيرا الراهب فأصلها ماذكرنا، وكأنه لم يحفل باثباتها لما يعلمه من مفتريات رجال الكنيسة فيها

فمحمد ﷺ لم يذهب مع عمه الى التجارة في الشام إلا وهو طفل كما تقدم وقد أعاده إلى مكة قبل إتمام رحلته . ثم سافر اليها في تجارة خديجة وهو شاب مرة واحدة ولم يتجاوز سوق بصرى في المرتين . والقوافل التي تذهب الى الشام لم تكن تمر بمدين وهي في ارض سيناء . ولم تكن هذه القوافل تضيع شيئاً من وقتها للبحث مع العرب او الاعراب في طريقها عن أنبائها والتاريخ القديم لبلادها ،ولم يعرف عن تجارها انهم كانوا يعنون بلقاء احبار النصارى ومباحثتهم في دينهم وكتبهم ، فمن أين جاء لدرمنغام أن محمداً هو الذي كان يشتغل في تلك التجارة بالبحث عن الامم والتواريخ والكتب والاديان ويعني بلقاء رؤسائها والبحث معهم ؟ انما اخترع هذا لانه لا يستطيع تعليل ما جاء في القرآن من قصص الرسل إلا به وكذلك الانباء بغلب الروم للفرس كما سيأتي . وسترى مانفند به تعليله وتحليله وتركيبه على تقدير صحة مازعمه كله

(٨) ثم ذكر درمنغام أن العرب ولاسيما أهل مكة كانوا يصرفون معظم أوقاتهم بعدما يكون من تجارة أو حرب في الاستمتاع باللذات من السكر والتسري وغير ذلك ،وان التاريخ يشهد بان محمداً كان يراهم ولم يكن يشاركهم في ذلك لالفقره وضيق ذات يده قال « لكن نفس محمد كانت شغفة بان ترى وأن تسمع وأن تعرف ، وكأن حرمانه من التعليم الذي كان يعلمه أنداده جعله أشد للمعرفة شوقا وبها تعلقاً ، كما أن النفس العظيمة التي تجلت من بعد آثارها ، وما زال يغمر العالم سلطانها ، كانت في توقها إلى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذي يطمح اليه أهل مكة ـ إلى نور الحياة المتجلي من كل مظاهر الحياة لمن هداه الحق اليها لاستكناه ماتدل هذه المظاهر عليه وماتحدث الموهوبين به »

هذا الخبر من مخترعات درمنغام فمحمد لم يكن شغوفا بان يرى مايفعله فساق قومه من فسق وفجور ، ولا أن يسمع ذلك ، ولايتحرى أن يعرفه ، وقد ثبت عنه أنه لم يحضر سمرهم ولهوهم إلا مرتين ألقى الله عليه النوم في كل منهما حتى طلعت

الشمس فلم ير ولم يسمع شيئاً ، وقد بطل بهذا ماعلل به الخبر على مافيه من المدح المتضمن لدسيستين (احداهما) أن أنداده في قريش كانوا متعلمين وكان هو محروما مما لقنوه من العلم وكان حرمانه هذا يزيده شغفاً بالبحث والاستطلاع (والثانية) أن نفسه كانت بسبب هذا تزداد طموحا إلى نور الحياة المتجلي في جميع مظاهرها لاستكناه ماتدل عليه هذه المظاهر ، فهذه مدحة غرضه منها تعليل ماانبثق في نفسه بعد ذلك من الوحي ، وسترى بطلانه

(٩) ثم ذكر درمنغام مسألة أبناء النبي ﷺ القاسم والطيب والطاهر وهو يشك في وجودهم ويقول إن تكنيته بأبي القاسم لاتدل على وجود ولد له بهذا الاسم وانه ان صح انهم ولدوا فقد ماتوا في المهد ، والتحقيق أنه ولد له غلام سماه القاسم وكني به وانه مات طفلا وقيل عاش إلى أن ركب الدابة وان الطيب والطاهر لقبان للقاسم . ولكن درمنغام قد كبر مسألة موت هؤلاء الاولاد الذين يشك في وجودهم، وبنى عليها حكماً ،وأثار وهماً ، قال بعد أن زعم ان محمداً تبنى زيد بن حارثة لانه لم يطق على الحرمان من البنين صبراً :

« فمن حق المؤرخ أن يجمل لهذا الحادث بل الحوادث الثلاثة التي أصابت محمداً في بنيه ماهي جديرة بأن تتركه في حياته وفي تفكيره من أثر . والامر كذلك بنوع خاص أن كان محمد أمياً ،فلم تكن المضاربات الجدلية (كذا) لتصرفه عن التأثير بعبر الحوادث ودروسها ،وحوادث أليمة كوفاة أبنائه جديرة بأن تستوقف تفكيره وأن تلفته في كل واحدة منها لما كانت خديجة تتقرب به إلى اصنام الكعبة وتنحر لهبل واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى تريد أن تفتدي نفسها من ألم الثكل فلا تفيد القربان ولا تجدي النحور »

« والامر كان كذلك لا ريب أن كانت عبادة الاصنام قد بدأت تتزعزع في النفوس تحت ضغط النصرانية الآتية من الشام منحدرة اليها من الروم ومن اليمن متخطية اليها من خليج العرب (البحر الاحمر) من بلاد الحبشة»

غرض درمنغام من تكبير المصيبة بموت الابناء المشكوك في ولادتهم هو أن يجعلها مسوغة لما اختلقه من توسل خديجة الى الاصنام بالقرابين لينقذوها من

مصيبة الثكل، ثم يستنبط من ذلك زعزعة ايمانها وايمان بعلها بعبادتها الذي كان سببه تأثير النصرانية في مكة وغيرها من بلاد العرب، ثم ليجعل ذلك من الاسباب التحليلية لتعليل الوحي لمحمد ﷺ - والحق أنه ما تبنى زيداً الا لانه آثر أن يكون عبداً له على أن يكون حراً مع والده وعمه عندما جاءا مكة لافتدائه بالمال فقال لهما «ادعوه فخيروه فان اختاركم فهو لكم بغير فداء» ثم دعاه فسأله عن أبيه وعمه فعرفهما قال «فانا من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما» فقال زيد ما أنا بالذي أختار عليك أحداً. أنت مني بمكان الاب والعم. فقالا ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً. فلما رأى رسول الله (ص) ذلك أخرجه إلى الحجر فقال «اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه» فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما. فدعي زيد بن محمد حتى جاء الله بالاسلام. رواه ابن سعد ونحوه في سيرة ابن اسحق

هذا وان محمدا لم يكن جزوعا عند موت ولد ولا غيره بل كان أصبر الصابرين، وان خديجة لم تيأس بموت القاسم من الله ان يمن عليها بولد آخر، ولم تنحر للاصنام شيئاً - وان اللات كانت صخرة في الطائف تعبدها ثقيف ولم تكن من أصنام قريش، والعزى كانت شجرة ببطن نخلة تعبدها قريش وكنانة وغطفان، ومناة كانت صنما في قديد لبني هلال وهذيل وخزاعة. وقد كان ما ذكره من ضعف الوثنية في ذلك العهد - وزعم انه سببه انتشار النصرانية - جديراً بأن يمنع خديجة وهي من أعقل العرب وأسلمهم فطرة وأقربهم الى الحنيفة ملة ابراهيم أن تهاجر الى هذه الاصنام لتنحر لها وتتقرب اليها لترزقها غلاما، فان لم يمنعها عقلها وفطرتها فأجدر ببعلها المصطفى أن يمنعها من ذلك وهو عدو الوثنية والاصنام من طفولته كما يعترف درمنغام - ولكن اتباع الهوى ينسي صاحبه ما لم يكن لينساه لولاه

(١٠) زعم درمنغام أن ما ذكره من تغلغل النصرانية في بلاد العرب اوجد فيها حالة نفسية أدت الى زيادة إمعانهم فيما كانوا يسمونه في الجاهلية التحنث او التحنف وفرع على ذلك قوله :

« وكان محمد يجد في التحنث طمأنينة لنفسه أن كان له بالوحدة شغف، وأن

كان يجد فيها الوسيلة الى مابرح شوقه يشتد اليه من نشدان المعرفة واستلهام مافي الكون من اسبابها ، فكان ينقطع كل رمضان طول الشهر في غار حراء بجبل أبي قبيس مكتفياً بالقليل من الزاد يحمل اليه ليمضي أياما بالغار طويلة في التأمل والعبادة بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة »

وأقول: ان روايات المحدثين تفيد انه حبب اليه التحنث في غار حراء في العام الذي جاءه فيه الوحي وكان هو يحمل الزاد وماكان أحد يحمله اليه، وما ذكره ابن اسحاق من تعبده فيه في شهر رمضان كل سنة انما كان في زمن فترة الوحي كما سيأتي

وههنا وصل درمنغام إلى آخر المقدمات التي تتصل بالنتيجة المطلوبة له فأرخى لخياله العنان ، ونزع من جواده اللجام ، ونخسه بالمهماز ، فعدا به ضبحاً ، وجمح به جمحاً ، وقدحت حوافره له قدحا ، وأثارت له نقعاً ، وأذن لشاعريته الفرنسية أن تصف محمداً عند ذلك الغار بما تحدثه في نفسه مشاهد نجوم الليل، وماتسفعه به شمس النهار ، وماتصور أنه كان يراه في تلك القنة من الجبل من صحارى وقفار ، وخيام وآبار ، ورعاة تهش على غنمها حيث لا أشجار ، حتى ذكر البحار على بعد البحار وقد أتقن التخيل الشعري ، ولكنه لم يوافق به الوصف الموضعي ، ثم قال مصوراً لما يبتغيه من مشاهداته ﷺ

« وهذه النجوم في ليالي صيف الصحراء كثيرة شديدة البريق حتى ليحسب الانسان أنه يسمع بصيص ضوئها وكأنه نغم نار موقدة

« حقا ! ان في السماء لشارات للمدركين . وفي العالم غيب بل العالم غيب كله . لكن ! ألايكفي أن يفتح الانسان عينيه ليرى، وأن يرهف أذنه ليسمع؟ ليرى حقا، وليسمع الكلم الخالد ! لكن للناس عيوناً لاترى وآذانا لاتسمع .. أما هو فيحسب أنه يسمع ويرى . وهل تحتاج لكي تسمع ماوراء السماء من أصوات إلا الى قلب خالص ونفس مخلصة وفؤاد مليء إيمانا؟

« ومحمد في ريب من حكمة الناس فهو لايريد أن يعرف إلا الحق الخالص الذي لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه باطل، وهو لا يستطيع العيش إلا بالحق، والحق ليس فيما يرى حوله ، فحياة القرشيين ليست حقا ، وربا المرابين ونهب البدو ولهو

الخلفاء وكل ما إلي ذلك لاشيء من الحق فيه. والاصنام المحيطة بالكعبة ليست حقا وهبل الاله الطويل الذقن الكثير العطور والملابس ليس آلها حقا

« إذن فاين الحق وماهو »

«وظل محمد يتردد على حراء في رمضان من كل عام سنوات متتالية وهناك كان يزداد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لكان ينسى نفسه، وينسى طعامه، وينسى كل مافي الحياة، لان هذا الذي يرى في الحياة ليس حقا. وهناك كان يقلب في صحف ذهنه كل ماوعى، فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الظن رغبة وازورارا . وهو لم يكن يطمع في أن يجد في قصص الاحبار وفي كتب الرهبان الحق الذي ينشد، بل في هذا الكون المحيط به: في السماء ونجومها وقمرها وشمسها .وفي الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاء، وساعات صفوها البديع إذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندي، وفي البحر وموجه وفي كل ماوراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود ـ في هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا وابتغاء إدراكها كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق شغاف الحجب الى مكنون سره

قال درمنغام : فلما كانت سنة ٦١٠ او نحوها كانت الحال النفسية التي يعانيها محمد على أشدها فقد أبهظت عاتقه العقيدة بأن أمراً جوهريا ينقصه وينقص قومه، وان الناس نسوا هذا الامر الجوهري وتشبث كل بصنم قومه وقبيلته ، وخشي الناس الجن والاشباح والبوارح وأهملوا الحقيقة العليا ، ولعلهم لم ينكروها ولكنهم نسوها نسيانا هو موت الروح . وقد خلصت نفس محمد من كل هذه الآراء التافهة، ومن كل القوى التي تخضع لقوة غيرها ومن كل كائن ليس مظهراً للكائن الواحد

ولقد عرف ان المسيحيين في الشام ومكة لهم دين اوحي به، وان اقواما غيرهم نزلت عليهم كلمة الله وانهم عرفوا الحق ووعوه أن جاءهم علم من انبياء أوحي اليهم به ، وكلما ضل الناس بعثت السماء اليهم نبياً يهديهم الى الصراط المستقيم ويذكرهم

بالحقيقة الخالدة . وهذا الدين الذي جاء به الانبياء في كل الازمان دين واحد ، وكلما افسده الناس جاءهم رسول من السماء يقوم عوجهم . وقد كان الشعب العربي يومئذ في اشد تيهاء الضلال . أفما آن لرحمة الله أن تظهر فيهم مرة أخرى وأن تهديهم الى الحق ؟ »

« وتزايدت رغبة محمد عن الاجتماع بالناس ، ووجد في وحدة غار حراء مسرة تزداد كل يوم عمقا ، وجعل يقضي الاسابيع ومعه قليل من الزاد وروحه تزداد بالصوم والسهر والادمان على تقليب فكرته صقالا وحدة . ونسي النهار والليل والحلم واليقظة ، وجعل يقضي الساعات الطوال جاثياً في الغار ، اومستلقياً في الشمس ، او سائرا بخطى واسعة في طرق الصحراء الحجرية ، وكأنه يسمع الاصوات تخرج من خلال أحجارها تناديه مؤمنة برسالته

« وقضى ستة أشهر في هذه الحال حتى خشي على نفسه عاقبة أمره فأسر بمخاوفه الى خديجة فطمأنته وجعلت تحدثه بأنه الامين وان الجن لا يمكن أن تقترب منه . وفيما هو يوما نائم بالغار جاءه ملاك فقال له اقرأ ، قال « ما أنا بقاريء » وكان هذا أول الوحي وأول النبوة

« وهنا تبدأ حياة حدة روحية قوية غاية القوة ، حياة تأخذ بالابصار والالباب ولكنها حياة تضحية خالصة لوجه الله والحق والانسانية »

أقول ان كل ماهنا من خبر أو جله فهو غير صحيح ، فمن أين علم هذا الافرنسي أن محمداً نسي الليل والنهار ، والحلم واليقظة ، وانه كان يقضي الساعات الطوال جاثياً في الغار أومستلقياً في الشمس الخ وانه قضى ستة أشهر في هذه الحال — قد افترى في الاخبار ليستنبط منها انه صار صلوات الله عليه مغلوبا على عقله ، غائباً عن حسه . وانما ننقل هنا أصح الاخبار في خبر تحنثه في الغار الليالي ذوات العدد – من شهر رمضان في تلك السنة لا فيما قبلها – لتفنيد مفترياته وللاستغناء بها عما نقله من الخلط في صفة الوحي من الفصل الآتي – وهو مارواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما . وهذا نص رواية البخاري رضي الله عنه

باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله ﷺ

افتتح الباب بل الكتاب كله بروايته لحديث « انما الاعمال بالنيات » ثم قال :

حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال يارسول الله كيف يأتيك الوحي (١) قال رسول الله ﷺ «أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس (٢) وهو أشده علي فيفصم (٣) عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا (٤) فيكلمني فأعي مايقول » قالت عائشة رضي الله عنها ، ولقد

(١) للوحي معنى عام يطلق على عدة صور من الاعلام الخفي الخاص الموافق لوضع اللغة منها الرؤيا الصادقة والنفث في الروع والالهام و إلقاء الملك ، وله معنى خاص هو أحد الاقسام الثلاثة للتكليم الالهي الوارد في قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء إنه علي حكيم) وهذا الحديث فيه وصف القسم الاول وذكر الثالث ، وأما الثاني وهو الكلام الالهي من وراء حجاب بدون واسطة فقد ثبت للنبي (ص) في ليلة الاسراء والمعراج ولموسى عليهما الصلاة والسلام . وغير هذه الثلاثة من الوحي العام لا يعد من كلام الله تعالى التشريعي ، والرؤيا الصادقة والالهام مما وقع و يقع لغير الانبياء

(٢) المراد من التشبيه أنه صوت كصلصلة الحديد المتصلة المتداركة التي تسمع من الجلاجل ونحوها ليس بكلام مؤلف من الحروف والاقرب أن سببه وجود الملائكة وإن لم ير أحدا منهم في حال سماعه . وكانت هذه الحالة أشد الحالتين عليه لانها كما قال الحكيم ابن خلدون انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية والحالة الاخرى عكسها لانها انتقال الملك من الروحانية المحضة الى البشرية الجسمانية

(٣) يفصم وزان يضرب ينفك و ينجلي

(٤) أي يظهر بصفة رجل ومثاله ، وذلك أن الملك روح عاقل مريد له قوة التصرف في المادة فهو يأخذ من مادة الكون الصورة التي يريدها وان علم الكيمياء في هذا العصر يقرب إلى التصور هذا التصرف بما ثبت فيه من تحول كل مادة من الكثافة إلى اللطافة وما بينهما بقوة الحرارة وأقواها حرارة الكهربائية ، والملك يتصرف في الكهربائية كما يشاء ، وقد شرحنا هذا المعنى في تفسير قوله تعالى (٧:١٤٣ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) — راجع ص ١٦٢ — ١٦٧ ج ٩ تفسير

رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا(١)

حدثنا يحي بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة ابن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت أول مابديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم(٢) فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه(٣) ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق(٤) وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ماأنا بقاريء(٥) قال

(١) كان من هذه الشدة عليه ماقاله العلامة ابن القيم في زاد المعاد : حتى ان راحلته لتبرك به الى الارض اذا كان راكبها ولقد جاءه مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها اه

(٢) أكثر الرؤى أضغاث أحلام لها أسباب تثيرها في خيال النائم ، والرؤيا الصالحة عبارة عن نوع من انكشاف الحقائق للنفس المستعدة لادراكها تما يكون وقت النوم من صفائها بعدم اشتغالها بمدركات الحواس وما تثيرها من الخواطر والافكار ، ورؤيا الانبياء قبل وحي التشريع تمهيد وتأنيس للنفس تقوي استعدادها لتلقي الكلام الالهي

(٣) أصل التحنث اتقاء الحنث أي الذنب أو مقلوب التحنف وهو اتباع الحنيفية ملة ابراهيم . وهو رواية ابن هشام . وقوله وهو التعبد ، جملة تفسيرية لراوي الحديث وهو ابن شهاب الزهري فهو مدرج في الحديث والليالي ظرف متعلق بيتحنث

(٤) وفي رواية فجئه الحق أي بغته والمراد به الوحي الصريح الذي هو من كلام الله تعالى ، وهذه الرواية الثابتة في الصحيحين صريحة في أن هذا كان في اليقظة ، وفي سيرة ابن هشام أن جبريل جاءه في المنام ، وهي من مراسيل عمرو بن عبيد وهو ثقة وله صحبة ولكن رواية الصحيحين المسندة هي المعتمدة ، وجمع بعضهم بين الروايتين بأنه رآه أولا في المنام فاستقرأه ثم رآه في اليقظة ، ولو وقع هذا في المنام لزال خوفه ورعبه ﴿ص﴾ بمجرد اليقظة ولم يذهب إلى خديجة يرجف فؤاده

(٥) الظاهر أن الامر بالقراءة أمر تكوين لا تكليف ـ أي كن قارئا ، ولذلك قال له في الثالثة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ أي كن قارئا باسمه ومن قبله وباقداره اياك على القراءة لا بحولك وقوتك فهو يعلم أنك أمي لا يتعلق كسبك واستطاعتك بالقراءة أما وقد شاء ربك ـ الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، وهو الحيوان المنوي أو أول ما تتحول اليه نطفة الزوجين بعد العلوق فجعله بشراً سويا يسمع ويبصر ويعقل ـ أن يجعلك قارئا لما يوحيه اليك لتقرأه على الناس فأنت تكون قارئا

فأخذني فغطني(١) حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ، قلت ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلت ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق* خلق الانسان من علق* اقرأ وربك الاكرم) (٢) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال « زملوني زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر «لقد خشيت على نفسي» (٣) فقالت خديجة كلا والله مايخزيك الله أبداً (٤) إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري

(١) فسروا الغط بالضم الشديد الضاغط فقالوا أي ضمني وعصرني وفي رواية الطبري للحديث فغتني بالمثناة الفوقية وعليها ابن هشام وهي بمعنى غطني واصل معناها الغمس في الماء وضيق النفس وحكمة هذا الغط تقوية روحانية النبي (ص) حتى يقوى على الاتصال بالملك والفهم منه

(٢) اختصره هنا وزاد في التفسير (الذي علم بالقلم* علم الانسان مالم يعلم)

(٣) اختلف العلماء في خوفه (ص) على نفسه فقيل خشي الجنون وان يكون ما رآه من الجن وقد أنكره ورده القاضي أبو بكر بن العربي ووافقه الحافظ ابن حجر ولكن الحافظ قال انه روي من عدة طرق أقول وهو الظاهر مما أجابته به خديجة واستشكل بان الوحي يكون مقترنا بعلم قطعي بأنه من الله وان الملقن له من الملائكة وأجيب بأن هذا العلم الضروري يحصل باستعراف الملك له واعلامه إياه بذلك عند تلقينه الامر بالتبليغ وانما كان ظهور الملك له هي المرة لاجل الايناس والاعداد لتلقي وحي الاحكام، والامر فيه بالقراءة للتكوين لا للتكليف، والا كان من تكليف مالايطاق . وقيل انه خاف على نفسه الموت أو الهلاك وهو قريب وثم اقوال اخرى متكلفة. وهو على كل حال يدل على انه (ص) لم يفهم من هذه الرؤية انه صار نبيا ولا ان الذي رآه هو ملك الوحي جبريل عليه السلام ويؤيد ذلك مسألة ورقة

(٤) الخزي الذل والهوان واخزاه أذله واهانه. والكل بالفتح المتعب (بفتح العين) ومن هو عالة على غيره، وحمله اعطاؤه راحلة يركبها اوحمل اثقاله، وتكسب بفتح التاء وضمها لغة ورواية، والمعدوم المفقود ولا يظهر معناه الا بتكلف وقال الخطابي الصواب المعدم وهو الفقير الفاقد لما يكفيه، والاعانة على نوائب الحق كلمة جامعة لكل اعمال البر والنجدة والمروءة فيما عدا الباطل

الضيف وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب (١) وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى، فقال له ورقة هذا الناموس (٢) الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا. ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ أومخرجيّ هم ؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي (٣)

---

(١) وفي رواية التفسير يكتب من الانجيل بالعربية، وفي معناها رواية مسلم: فكان يكتب الكتاب العربي. ولا تنافي بين الروايات اذ كان يعرف اللغتين وورقة ابن عم خديجة، واما قولها له اسمع من ابن اخيك فهو من باب التوقير لسنه واستعطاف الرحم

(٢) الناموس في اللغة صاحب السر والمراد به امين الوحي جبريل وقوله نزل على موسى ولم يقل وعيسى لان الشبه بين الوحي الى موسى ومحمد عليهما السلام اتم لأن كلا منهما اوتي شريعة تامة مستقلة في عباداتها ومعاملاتها وسياستها وقوتها العسكرية وعيسى عليه السلام كان تابعا لشريعة التوراة وناسخا لبعض الاحكام التي يقتضيها الاصلاح ومبشرا بالنبي الذي يأتي من بعده بالشرع الكامل العام الدائم وهو محمد رسول الله وخاتم النبيين ، وفي بعض الروايات الضعيفة ان ورقة قال ناموس عيسى وفي رواية اخرى حسنة الاسناد في دلائل النبوة لابي نعيم ان خديجة جاءت ورقة وحدها اولا فذكرت له الخبر فقال لها : لئن كنت صدقتني انه ليأتيه ناموس عيسى الذي لايعلمه بنو اسرائيل ابناءهم اه والناموس واحد على كل حال . ولكن رواية الصحيحين « فانطلقت به » تدل على التعقيب اي انها ذهبت به عقب تحديثها بما رأى

(٣) لم ينشب بفتح الشين المعجمة أي لم يلبث بعد هذا أن توفي ولم ينل مايتمناه من إدراك زمن تبليغ الرسالة لينصر النبي (ص) ولكن في سيرة ابن اسحاق وتبعه غيره أن ورقة كان يمر ببلال وهو يعذب، ومقتضاه انه أدرك زمن البعثة واضطهاد المشركين للمؤمنين . والمعتمد ما في الصحيح من انه توفي عقب هذا الحديث بقليل

وفتر الوحي (١)

قال ابن شهاب وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الانصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه «بينا أنا ماش إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فاذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني فأنزل الله تعالى (ياأيها المدثر قم فأنذر) إلى قوله (والرجز فاهجر) فحمي الوحي وتتابع (٢) اه

(وأقول) اخرج البخاري حديث جابر في تفسير سورة المدثر من طرق في بعضها أن أولها أول ماأنزل مطلقا وفي البعض الآخر انها من حديث النبي ﷺ عن فترة الوحي كالتي هنا وقد عبر ﷺ عن رعبه من رؤية الملك بقوله « فجئثت منه

---

(١) فتر الوحي انقطع موقتا ليعود. وكانت فترة الوحي ثلاث سنين ـ وهي ما بين بدئه بأمر جبريل له بالقراءة وبين نزول أول سورة المدثر التي أمر فيها بانذار الناس

(٢) أي اتصل مدة التبليغ كلها وهي عشرون سنة ولكنه كان نجوما متفرقة حسب الحاجة، فتارة تنزل السورة دفعة واحدة، وتارة تنزل الآيات المتفرقة، وقد يكون بين ذلك فترات قصيرة، كالذي ورد في سبب نزول سورة الضحى . وقد اختلط الامر في هذا على درمنغام فظن انها هي التي نزلت بعد فترة الوحي، والمروي انه نزل قبلها بضع سور : وكان سبب نزولها كما في الصحيحين من حديث جندب بن سفيان ان النبي (ص) اشتكى (أي وجع) فلم يقم ليلتين أو ثلاثا (أي إلى تهجده وتلاوته) فقالت امرأة يا محمد اني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث. فأنزل الله عز وجل (والضحى والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى) اه تقرأ ودعك بالتشديد والتخفيف ومعناهما واحد وهو الترك، والقلى بالكسر والقصر البغض، أي ماتركك ربك وما أبغضك ـ وهذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب وبنت أبي سفيان كما رواه الحاكم عن زيد بن أرقم . وكان هذا بعد نزول سورة (تبت يدا أبي لهب) وروى ابن جرير من طريقين مرسلين أن جبريل أبطأ على النبي (ص) فجزع جزعا شديدا فقالت خديجة اني أرى ربك قد قلاك مما يرى من جزعك فنزلت ـ ومعارضة رواية الصحيحين لهاته الرواية المرسلة تسقط اعتبارها وإن جمع الحافظ بينهما بأن خديجة قالت ماقالت توجعا ، وحمالة الحطب قالته شماتة

رعبا »وفي رواية أخرى «فجئثت منه حتى هويت الى الارض» أي فزعت وخفت وهو بضم الجيم وكسر الهمزة بالبناء للمفعول

هذا هو المعتمد عند المحدثين في أول ما نزل من القرآن والمشهور أنه نزل بعد أول المدثر سورة المزمل تامة وبعدها بقية سورة المدثر . وقال مجاهد أول ما نزل سورة (ن والقلم) وهو غلط وروي عن علي كرم الله وجهه أن أول ما نزل سورة الفاتحة واعتمده شيخنا في توجيه كونها فاتحة الكتاب ويمكن أن يراد انها أول سورة تامة نزلت بعد بدء الوحي بالتمهيد التكويني ثم بالامر بالتبليغ الاجمالي وتلاها فرض الصلاة ونزول سورة المزمل أو نزلتا في وقت واحد

(بسط ما يصورون به الوحي النفسي لمحمد ﷺ)

هاءنذا قد بسطت جميع المقدمات التي استنبطوها من تاريخ محمد ﷺ وحالته النفسية والعقلية، وحالة قومه ووطنه، وما تصوروا انه استفاده من اسفاره، وما كان من تأثير خلواته وتحنثه وتفكره فيها ، وقفيت عليها بأصح ما رواه المحدثون في الصحاح من صفة الوحي وكيف كان بدؤه وفترته ، ثم كيف أمر ﷺ بتبليغه ودعوة الناس الى الحق وكيف حمي وتتابع

وأبين الآن كيف يستنبطون من ذلك أن هذا الوحي قد نبع من نفس محمد وأفكاره بتأثير ذلك كله في وجدانه وعقله ، بما لم أر ولم أسمع مثله في تقريبه الى العقل ، ثم أقفي عليه بما ينقضه من اساسه بادلة العقل والنقل والتاريخ والصحيح من وصف حالته ﷺ فأقول

يقولون ان عقل محمد الهيولاني قد أدرك بنوره الذاتي بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الاصنام كما أدرك ذلك أفراد آخرون من قومه — آمنا وصدقنا — وان فطرته الزكية قد احتقرت ما كانوا يتنافسون فيه من جمع الاموال بالربا والقمار — آمنا وصدقنا — وان فقره وفقر عمه (ابي طالب) الذي كفله صغيرا قد حال دون انغماسه فيما كانوا يسرفون فيه من الاستمتاع بالشهوات، من السكر والتسري وعزف القيان — الصحيح أنه ترك ذلك احتقاراً له لا عجزاً عنه —

وانه طال تفكره في إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات ـ لامانع من ذلك — وانه استفاد من أسفاره وممن لقيه فيها وفي مكة نفسها من النصارى كثيراً من المعلومات عن النبيين والمرسلين الذين بعثهم الله في بني اسرائيل وغيرهم فأخرجوهم من الظلمات الى النور — هذا لم يصح عندنا ولا يضرنا — وان تلك المعلومات لم تكن كلها مقبولة في عقله لما عرض للنصرانية من الوثنية بألوهية المسيح وأمه وغير ذلك وبما حدث فيها من البدع — هذا مبني على ما قبله فهو معقول غير منقول — وانه كان قد سمع ان الله سيبعث نبياً مثل أولئك الانبياء من العرب في الحجاز قد بشر به عيسى المسيح وغيره من الانبياء — وأن هذا علق بنفسه فتعلق رجاؤه بان يكون هو ذلك النبي الذي آن أوانه — وهذا استنباط لهم مما قبله وسيأتي مافيه — ونتيجة ما تقدم أنه توسل الى ذلك بالانقطاع الى عبادة الله تعالى والتوجه اليه في خلوته بغار حراء فقوي هنالك ايمانه ، وسما وجدانه ، فاتسع محيط تفكره ، وتضاعف نور بصيرته ، فاهتدى عقله الكبير الى الآيات البينات في ملكوت السموات والارض على وحدانية مبدع الوجود ، وسر النظام الساري في كل موجود ، بما صار به اهلا لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات الى النور ، وما زال يفكر ويتأمل ، وينفعل ويتململ ، ويتقلب بين الآلام والآمال ، حتى أيقن انه هو النبي المنتظر ، الذي يبعثه الله لهداية البشر ، فتجلى له هذا الاعتقاد في الرؤى المنامية ، ثم قوي حتى صار يتمثل له الملك يلقنه الوحي في اليقظة

وأما المعلومات التي جاءته في هذا الوحي فهي مستمدة الاصل من تلك المعلومات التي ذكرناها ، ومما هداه اليه عقله وتفكره في التمييز بين مايصح منها وما لايصح ، ولكنها كانت تتجلى له نازلة من السماء ، وأنها خطاب الخالق عزوجل بواسطة الناموس الاكبر ملك الوحي جبريل الذي كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى بن مريم وغيرهما من النبيين عليهم السلام

وقال أحد ملاحدة المصريين إن سولون الحكيم اليوناني وضع قانونا وشريعة لقومه فليس بدعا في العقل أن يضع محمد شريعة أيضا ، وسأبين فساد هذا الرأي

﴿ تفنيد تصورهم للوحي النفسي وإبطاله من وجوه ﴾

(الوجه الاول) ان اكثر المقدمات التي أخذوا منها هذه النتيجة هي آراء متخيلة ، أو دعاوي باطلة ، لا قضايا تاريخية ثابتة ، كما بيناه عند ذكرها ، وإذا بطلت المقدمات بطل التسليم بالنتيجة

مثال ذلك زعمهم ان محمداً ﷺ سمع من نصارى الشام خبر غلب الفرس وظهورهم على الروم ، ليوهموا الناس ان ما جاء في أول سورة الروم من الانباء بالمسألة وبان الروم سيغلبون الفرس بعد ذلك — هو مستمد مما سمعه ﷺ من نصارى الشام . وهذا مردود بدلائل التاريخ والعقل . فأما التاريخ فانه يحدثنا بأن ظهور الفرس على الروم كان في سنة ٦١٠ م وذلك بعد رحلة محمد الاخيرة الى الشام باربع عشرة سنة وقبل بدء الوحي بسنة . ثم ان التاريخ أنبأنا ان دولة الروم كانت مختلة معتلة في ذلك العهد بحيث لم يكن أحد يرجو ان تعود لها الكرة والغلب على الفرس . حتى ان أهل مكة أنفسهم هزئوا بالخبر وراهن أبو بكر أحدهم على ذلك وأجازه النبي ﷺ فربح الرهان . وأما العقل فانه يحكم بان مثل محمد في سمو إدراكه المتفق عليه لا يمكن أن يجزم بان الغلب سيعود للروم على الفرس في مدة بضع سنين ـ لا من قبل الرأي ولا من الوحي النفسي المستمد من الاخبار غير الموثوق بها . وقد صح أن انتصار الروم حصل سنة ٦٢٢ م وكان وحي التبليغ للنبي ﷺ سنة ٦١٤ فاذا فرضنا أن سورة الروم نزلت في هذه السنة يكون النصر قد حصل بعد ثماني سنين وان كان في السنة الثانية تكون المدة سبع سنين ، وهو المعتمد في التفسير والبضع يطلق على ما بين الثلاث والتسع . والحكمة في التعبير عن هذا النبأ بقوله تعالى (غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) ولم يقل بعد سبع سنين أو ثمان مثلا ـ هي إفادة أن الغلب يكون في الحرب الممتدة في هذه المدة . وأنباء الوحي والعبر لا تكون باسلوب التاريخ الذي يحدد الوقائع بالسنين ، وليس في وعود القرآن الكثيرة للمسلمين بالنصر وغيره من أنباء الغيب ذكر السنين ولا الشهور فهذه الآية فريدة في بابها

ومثال آخر ما زعموه من مروره ﷺ في رحلته الى الشام بارض مدين وحديثه مع أهلها ، الذي أرادوا به ان يجعلوه أصلا لما جاء في القرآن من أخبارها والخبر باطل كما بيناه عند نقلنا إياه في المقدمات ، ولو صح لما كان من المعقول أن يكون ماسمعه في الطريق من أناس مجهولين ومعارفهم لا يوثق بها أصلا للوحي الذي جاءه في قصة موسى وفي قصة شعيب عليهما السلام

(الوجه الثاني) لو كان النبي ﷺ تلقى عن علماء النصارى في الشام شيئا او عاشرهم لنقل ذلك اتباعه الذين لم يتركوا شيئا علم عنه اوقيل فيه ولو لم يثبت الا ودونوه ووكلوا أمر صحته أوعدمها الى اسناده

(الوجه الثالث) لو وقع ماذكر لاتخذه أعداؤه من كبار المشركين شبهة يحتجون بها على ان مايدعيه من الوحي قد تعلمه في الشام من النصارى ، فانهم كانوا يوردون عليه ماهو اضعف واسخف من هذه الشبهة وهو انه كان في مكة قين (حداد) رومي يصنع السيوف وغيرها فكان النبي ﷺ يقف عنده احيانا يشاهد صنعته فاتهموه بانه يتعلم منه ، فرد الله عليهم بقوله (١٦ : ١٠٣ ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر. لسان الذى يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين)

(الوجه الرابع) نصوص القرآن صريحة في انه ﷺ لم يكن يعرف شيئا من اخبار الرسل وقصصهم قبل الوحي ، وهم متفقون معنا على انه ﷺ لم يكن يكذب على احد فضلا عن الكذب على الله عزوجل ، كما اعترف بذلك أعدى أعدائه أبو جهل ، كما أنهم متفقون معنا على قوة إيمانه بالله عزوجل ويقينه بكل ما أوحاه اليه

ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى عقب قصة موسى في مدين وما بعدها من سورة القصص (٢٨ : ٤٤ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ٤٥ ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكنا كنا مرسلين) وقوله بعد قصة نوح من سورة هود (١١ : ٤٩ تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) ونحوها في قصة يونس من سورته

(الوجه الخامس) انه لم يرد في الاخبار الصحيحة ولا الضعيفة ان محمداً ﷺ

كان يرجو أن يكون هو النبي المنتظر الذي كان يتحدث عنه بعض علماء اليهود والنصارى قبل بعثته ، ولو روي عنه شيء من ذلك لدونه المحدثون لانهم ماتركوا شيئاً بلغهم عنه إلا ودونوه كما رووا مثله عن امية بن ابي الصلت

(الوجه السادس) ان حديث بدء الوحي الذي أثبته الشيخان في الصحيحين وغيرهما من المحدثين صريح في انه ﷺ خاف على نفسه لما رأى الملك أول مرة ولم تجد زوجه خديجة بنت خويلد العاقلة المفكرة وسيلة يطمئن بها على نفسه وتطمئن هي عليه إلا استفتاء أعلم العرب بهذا الشأن وهو ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان تنصر وقرأ كتب اليهود والنصارى

(الوجه السابع) لو كانت النبوة أمراً كان يرجوه محمد ويتوقعه ، وكان قد تم استعداده له باختلائه وتعبده في الغار ، وما صوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب ، والوجدان الملتهب ، والقلب المتقلب ، حتى إذا كمل استعداده تجلى له رجاؤه واعتقاده ، بما تم به مراده ، لظهر عقب ذلك كل ما كانت تنطوي عليه نفسه الوثابة ، وفكرته الوقادة ، في سورة أو سور من أبلغ سور القرآن ، في بيان أصول الايمان ، وتوحيد الديان ، واجتثاث شجرة الشرك وعبادة الاوثان ، وإنذار رءوس الكفر والطغيان ، ماسيلقون في الدنيا من الخزي والنكال ، وفي الآخرة من عذاب النار ، كسور المفصل ولا سيما [ق والقرآن المجيد] والذاريات والطور والنجم والقمر ، ثم الحاقة والنبأ — او في سورة من السور الوسطى التي تقرعهم بالحجج ، وتأخذهم بالعبر ، وتضرب لهم المثل بسنن الله في الرسل ، كسور الانبياء والحج والمؤمنون ، ولكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة ، ولم يدعهم الى شيء ، ولا تحدث إلى اهل بيته ولا إلى أصدقائه بمسألة من مسائل الاصلاح الديني الذي توجهت اليه نفسه ، ولا من ذم خرافات الشرك الذي ضاق به ذرعه ، اذ لو تحدث بذلك لنقلوه عنه ، وناهيك بألصق الناس به خديجة وعلي وزيد بن حارثة في بيته ، وأبي بكر الصديق الذي عاشره طول عمره — فهذا السكوت وحده برهان قاطع على بطلان ماصوروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه ، واستمداده لعلومه من التلقي والاختبار الذي توهموه

(الوجه الثامن) ان ما نقل من ترتيب نزول الوحي بعد ذلك موافقاً لماجريات الوقائع والحوادث يؤيد ذلك، فقد نزل ما بعد صدر سورة المدثر عقب قول الوليد بن المغيرة المخزومي الذي قاله في القرآن — فقد أراده ابوجهل أن يقول فيه قولا يبلغ قومه انه منكر له وانه كاره له، بعد ان علم انه تحرى استماعه من محمد ﷺ واعجب به . قال له الوليد وماذا اقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر لا برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن، والله مايشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وان عليه لطلاوة، وانه لمنير أعلاه، مشرق اسفله(١) وانه ليعلو وما يعلى، وانه ليحطم ما تحته . قال ابوجهل لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . فقال دعني حتى أفكر، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت الآيات (٧٤ : ١١ ذرني ومن خلقت وحيداً) الخ رواه الحاكم عن ابن عباس باسناد صحيح على شرط البخاري

(الوجه التاسع) ان هذه المعلومات المحمدية التي تصورها هؤلاء المحاولون لمسألة الوحي قليلة المواد، ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحي القرآن

وان القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثل بحيرا ونسطور وكل نصارى الشام ونصارى الارض ويهودها، دع الاعراب الذين كان يمر بهم النبي ﷺ بالطريق إلى الشام

وان القرآن نزل مصدقا لكتب أهل الكتاب من حيث كونها في الاصل من وحي الله الى موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم ـ ونزل أيضا مهيمنا عليها أي رقيبا وحاكما كما نصت عليه الآية (٤٨) من سورة المائدة (٦) ومما حكم به على أهلها من اليهود والنصارى انهم أوتوا نصيباً من الكتاب (٥:٤٤و٥١) ونسوا نصيباً أوحظاً آخر منه وانهم حرفوا وغيروا وبدلوا (٦:١٢و١٣) وبين كثيراً من المسائل الكبرى مما خالفوا واختلفوا فيه من العقائد والاحكام والاخبار، ومثل هذه الاحكام العليا عليهم لايمكن أن تكون مستمدة من أفراد من الرهبان أو غير الرهبان، أفاضوها على محمد في رحلته التجارية الى الشام، سواء أ كان عنده

(١) وفي رواية : وان اعلاه لمثمر، وان اسفله لمغدق.

بعضهم بقية من التوحيد الموسوي والعيسوي الذي كان يقول به آريوس وأتباعه أم لا، وسواء اكان لدى بعضهم بقية من الاناجيل التي حكمت الكنيسة الرسمية بعدم قانونيتها (ابو كريف) كانجيل طفولة المسيح وانجيل برنابا ام لا ، فمحمد لم يعقد في الشام ولا في مكة مجمعاً مسيحياً كمجامع الكنيسة للترجيح بين الاناجيل والمذاهب المسيحية ويحكم بصحة بعضها دون بعض

ان وقوع مثل هذا منه في تلك الرحلة مما يعلم واضعو هذه الاخبار ببداهة العقل مع عدم النقل انه محال ، وعلى فرض وقوعه يقال كيف يمكن أن يحكم بين تلك الاناجيل وتلك المذاهب برأيه في تلك الخلسة التجارية للنظر فيها ويأمن على حكمه الخطأ ؟ وقد صح عنه أنه قال لاصحابه في شأن أهل الكتاب « لا تصدقوهم ولا تكذبوهم » يعني فيما سكت عنه القرآن لئلا يكون ما كذبوهم فيه مما حفظوا ، ويكون ماصدقوهم به مما نسوا حقيقته أو حرفوا أو بدلوا

(العاشر) إن في القرآن ماهو مخالف للعهدين العتيق والجديد وهو مما لا يعلم الى الآن أن احداً من اليهود والنصارى قال به ، كمخالفة سفر الخروج فيمن تبنت موسى ففيه أنها ابنة فرعون وفي القرآن أنها امرأته — وفيما قرره من عزو صنع العجل الذي عبده بنو اسرائيل الى هارون عليه السلام بعزوه إياه الى السامري واثباته لانكار هارون عليهم فيه وغير ذلك ،

بل ماجاء به محمد أكبر وأعظم من كل مافي الكتب الالهية ماصح منها ومالم يصح كما سنبينه

رويدكم أيها المفتاتون ، الذين يقولون مالا يعلمون ، إن وحي القرآن أعلى مما تزعمون ، وأكبر مما تتصورون وتصورون ، وإن محمداً أقل علماً كسبياً مما تدعون ، وأكمل استعداداً لتلقي كلام الله عن الروح القدس مما تستكبرون

وإذا كان وحي القرآن أعلى وأكمل من جميع ما حفظ عن أنبياء الله ورسله لأنه الخاتم لهم المكمل لشرائعهم الخاصة الموقوتة ، فأجدر به أن يكون أكمل مما وضعه سولون الفيلسوف اليوناني الذي شبه محمداً به احد ملاحدة عصرنا في مصرنا ، مع بعد الشبه بين أمي نشأ بين الاميين ، وفيلسوف نشأ في أمة حكمة وتشريع ودولة

وسياسة ، ودخل في كل أمور الامة والدولة (١)

القول الحق في استعداد محمد ﴿ص﴾ للنبوة

التحقيق في صفة حال محمد ﷺ من أول نشأته، وإعداد الله تعالى إياه لنبوته ورسالته، هو أنه خلقه كامل الفطرة ، ليبعثه بدين الفطرة ، وانه خلقه كامل العقل الاستعدادي الهيولاني، ليبعثه بدين العقل والنظر العلمي، وانه كمله بمعالي الاخلاق ، ليبعثه متمما لمكارم الاخلاق ، وانه بغض اليه الوثنية وخرافات اهلها ورذائلهم من صغر سنه، وحبب اليه العزلة حتى لا تأنس نفسه بشيء مما يتنافسون فيه من الشهوات واللذات البدنية ، او منكرات الوحشية ، كسفك الدماء والبغي على الناس ، او المطامع الدنيئة كأكل أموال الناس بالباطل - ليبعثه مصلحاً لما فسد من أنفس الناس، ومزكياً لهم بالتأسي به، وجعله المثل البشري الاعلى، لتنفيذ مايوحيه اليه من الشرع الاعلى ، فكان من عفته أن سلخ من سني شبابه خمساً وعشرين سنة مع زوجه خديجة كانت في ١٥ منها عجوزا يائسة من النسل، فتوفيت في الخامسة والستين وهي أحب الناس اليه، وظل يذكرها ويفضلها على جميع من تزوج بهن من بعدها، حتى عائشة بنت صاحبه الصديق على جمالها وحداثتها وذكائها وكمال استعدادها للتبليغ عنه — وظل طول عمره يكره سفك الدماء ولو بالحق فكان على شجاعته

---

(١) سولون أحد فلاسفة اليونان السبعة في القرن السابع قبل المسيح ووالدته من انسباء بستراتوس آخر ملوك اثينا ،وكان من رجال المال ورجال الحرب وتولى في بلاده بعض الاعمال الادارية والعسكرية وقيادة الجيش .وقد انتخب في سنة ٥٩٤ ق.م «ارخونا» اي رئيسا على الامة باجماع احزابها كلهم وقلدوه سلطة مطلقة لتغيير ماشاء من نظم البلاد وقانونها الذي وضعه «زراكوت» من قبله فوضع لهم نظاما جديدا قررت الحكومة والامة اتخاذه دستورا متبعا مدة عشر سنين. فسولون كان في قانونه منقحا ومجددا لقانون اعظم امة من امم الحكمة والحضارة نشأ فيها فكان متعلما وفيلسوفا رحالة وقائدا ورئيسا، أفيقاس عليه محمد ﴿ص﴾ الامي الذي لم يقرأ سطرا ولم ير كتابا، ولا تولى عملا اداريا ولا سياسيا، ثم إن ما جاء به لم يكن قانونا موضعيا منقحا لقوانين أخرى قبله ، بل كان اصلاحا لجميع البشر في عقائدهم وآدابهم واحكامهم وحروبهم الخ ؟ تأمل ايها القارىء الى شبهات ملاحدة المسلمين على دينهم ونبيهم!!

الكاملة يقود أصحابه لقتال أعداء الله وأعدائه المعتدين عليه وعليهم لاجل صدهم عن دينهم ، ولكنه لم يقتل بيده إلا رجلا واحدا منهم (هو أبي بن خلف) كان موطنا نفسه على قتله ﷺ فهجم عليه وهو مدجج بالحديد من مغفر ودرع فلم يجد ﷺ بدا من قتله فطعنه في ترقوته من خلال الدرع والمغفر ، وظل طول عمره وبعد ما أفاء الله عليه من غنائم المشركين واليهود يؤثر التقشف وشظف العيش على نعمته ، مع إباحة شرعه لا كل الطيبات ونهيه لمن كان يتركها تدينا ، ويرقع ثوبه ويخصف نعله ، مع إباحة دينه للزينة وأمره بها عند كل مسجد ، وكان يأكل ما وجد لا يعيب طعاما قط ، الا أنه كان لايشرب إلا الماء العذب النقي

وأكمل الله تعالى استعداده الذاتي «لا الكسبي» للبعثة باكمال دين النبيين والمرسلين ، والتشريع الكافي الكافل لاصلاح جميع البشر الى يوم الدين ، وجعله حجة على جميع العالمين ، بأن أنشأه كأكثر قومه أميا وصرفه في أميته عن اكتساب أي شيء من علوم البشر من قومه العرب الاميين ومن أهل الكتاب ، حتى انه لم يجعل له أدنى عناية بما يتفاخر به قومه من فصاحة اللسان ، وقوة البيان ، من شعر وخطابة ، ومفاخرة ومنافرة ، إذ كانوا يؤمون أسواق موسم الحج وأشهرها عكاظ من جميع النواحي لاظهار بلاغتهم وبراعتهم ، فكان ذلك أعظم الاسباب لارتقاء لغتهم ، ولوجود الحكمة في شعرهم ، فكان من الغريب أن يزهد في مشاركتهم فيه بنفسه ، وفي روايته لما عساه يسمعه منه ، وقد سمع بعد النبوة زهاء مائة قافية من شعر أمية فقال «ان كاد ليسلم» وقال « آمن شعره وكفر قلبه» وقال « أن من البيان لسحرا ، وان من الشعر حكما » رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عباس ، وأما قوله « ان من البيان لسحرا » فقد رواه مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي من حديث ابن عمر

قلنا إن استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة فطري لم يكن فيه شيء من كسبه بعلم ولا عمل لساني ولا نفسي ، ولم يرو عنه انه كان يرجوها كما روي عن أمية ابن أبي الصلت ، بل روي عن خديجة (رض) انها لما سمعت من غلامها ميسرة أخبار أمانته وفضائله وكراماته وما قاله بحيرا الراهب فيه تعلق أملها بأن يكون

هو النبي الذي يتحدثون عنه ، ولكن هذه الروايات لايصل شيء منها الى درجة المسند الصحيح كحديث بدء الوحي الذي أوردناه آنفا ، فان قيل انه يقويه حلفها بالله ان الله تعالى لا يخزيه أبدا، قلنا انها عللت ذلك بما ذكرته من فضائله، ورأت انها في حاجة الى استفتاء ابن عمها امية في شأنه .

واما اختلاؤه ﷺ وتعبده في الغار عام الوحي فلا شك في انه كان عملا كسبيا مقويا لذلك الاستعداد الفطري، ولذلك الاستعداد السلبي من العزلة وعدم مشاركة المشركين في شيء من عباداتهم ولاعاداتهم ، ولكنه لم يكن بقصد الاستعداد للنبوة، لانه لو كان لاجلها لاعتقد حين رأى الملك او عقب رؤيته حصول مأموله وتحقق رجائه ، ولم يخف منه على نفسه، وانما كان الباعث لهذا الاختلاء والتحنث اشتداد الوحشة من سوء حال الناس والهرب منها الى الانس بالله تعالى ، والرجاء في هدايته الى المخرج منها، كما بسطه شيخنا الاستاذ الامام في تفسير قوله تعالى من سورة الضحي (ووجدك ضالا فهدى) ومايفسره من قوله عزوجل في سورة الشورى (٤٢ :٥١ وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ، ما كنت تدري ماالكتاب ولاالايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا. وانك لتهدي الى صراط مستقيم * ٥٢ صراط الله الذي له مافي السموات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور) وألم به في رسالة التوحيد الماما مختصراً مفيداً ، فقال رحمه الله تعالى :

«من السنن المعروفة أن يتيما فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لاسيما ان كان من ذوي قرابته، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا أستاذ ينبهه، ولا عضد إذا عزم يؤيده، فلو جرى الامر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع الى مخالفتهم، اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده (١) ولكن الامر لم يجر على سنته، بل بغضت اليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره

(١) كامية بن أبي الصلت وعمرو بن نفيل

حسن الخليقة ، وما جاء في الكتاب من قوله (ووجدك ضالا فهدى) لايفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم ، حاش لله ان ذلك لهو الافك المبين ، وانما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل الى ماهدوا اليه من انقاذ الهالكين، وارشاد للضالين ،وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته» اه

(أقول)وجملة القول ان استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة عبارة عن جعل الله تعالى روحه الكريمة كمرآة صقيلة حيل بينها وبين كل مافي العالم من التقاليد الدينية ، والآداب الوراثية والعادات المكتسبة، الى ان تجلى فيها الوحي الالهي باكمل معانيه ، وابلغ مبانيه ، لتجديد دين الله المطلق الذي كان يرسل به رسله الى اقوامهم خاصة بما يناسب حالهم واستعدادهم ، وجعل بعثة خاتم النبيين به للبشر عامة دائمة لايحتاجون بعدها الى وحي آخر، فكان في فطرته السليمة وروحه الشريفة، وما نزل عليها من المعارف العالية، وما أشرق فيها من نور الله عز وجل الذي تلوته عليك من آخر سورة الشورى — هو مضرب المثل في قوله تعالى في سورة النور (٢٤ : ٣٥ الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة، الزجاجة كانها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لاشرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ،نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم)

فزيت مصباح المعارف المحمدية، يوقد من زيتونة لاشرقية ولا غربية، ولا يهودية ، ولا نصرانيـة ، بل هي الهية علوية

هذا مانراه كافيا لتفنيد مزاعم مصوري الوحي النفسي من ناحية شخص محمد واستعداده، ويتلوه ماهو أقوى دليلا ، واقوم قيلا ، وهو تفنيده بموضوع الوحي الذي هو آية نبوته الخالدة ، وحجته الناهضة ، وهو القرآن العظيم

آية الله الكبرى - القرآن العظيم

﴿ القرآن الكريم ، القرآن الحكيم ، القرآن المجيد ، الكتاب العزيز ﴾

الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

هو كتاب لا كالكتب ، هو آية لا كالآيات ، هو معجزة لا كالمعجزات ، هو نور لا كالانوار ، هو سر لا كالاسرار ، هو كلام لا كالكلام ، هو كلام الله الحي القيوم الذي ليس لروح القدس جبريل الامين عليه السلام منه إلا نقله بلفظه العربي من سماء الافق الأعلى إلى هذه الارض ، ولا لمحمد رسول الله وخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله منه الا تبليغه للناس ليهتدوا به ، فهو معجز للخلق بلفظه ونظمه وأسلوبه وعلومه وهدايته ، لم يكن في استطاعة محمد ﷺ أن يأتي بسورة من سوره بكسبه ومعارفه ، وفصاحته وبلاغته ، وهو (ص) لم يكن عالما ولا بليغا ممتازا الا به ، بل فيه آيات صريحة في معاتبته على بعض اجتهاده كفداء اسرى بدر (راجع ص ٨٣ و٩٤ و٤٦٤ و٤٧٣ ج ١٠ تفسير)

قد بينت في تفسير آية التحدي بالقرآن من سورة البقرة (٢ : ٢٣) أهم وجوه الاعجاز اللفظي والمعنوي بالاجمال والايجاز ، وأعود هنا الى الكلام في علوم القرآن المصلحة للبشر بما يحتمله المقام من البسط والتفصيل ، وهو القدر الذي يعلم منه أن هذه العلوم أعلى من كل ماحفظه التاريخ عن جميع الانبياء والحكماء ، وواضعي الشرائع والقوانين ، وساسة الشعوب والامم

فمن كان يؤمن بأن للعالم رباً عليما حكيما رحيما مريدا فاعلا مختارا فلا مندوحة له ولا مناص من الايمان بأن هذا القرآن وحي من لدنه عز وجل أنزله على خاتم انبيائه المرسلين رحمة بهم ليهتدوا به إلى تكميل فطرتهم ، وتزكية أنفسهم ، وإصلاح مجتمعهم من المفاسد التي كانت عامة لجميع أممهم ، فيكون اتباع محمد فرضا إلهياً لازباً عاما كما قال تعالى (٧ : ١٥٨ قل ياأيها الناس اني رسول الله اليكم

جميعا الذي له ملك السموات والارض لا إله الا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون)

ومن كان لا يؤمن بوجود هذا الرب العليم الحكيم فلا مندوحة له عن الجزم بأن محمدا أكمل وأفضل وأعلم وأحكم من كل من عرف في هذا العالم من الحكماء الهادين المهديين ، ويكون الواجب بمقتضى العقل ان يعترف له هؤلاء بأنه سيد البشر على الاطلاق وأولاهم بالاتباع بعنوان (سيد البشر وحكيمهم الاعظم)

واننا رأينا بعض المنصفين من الواقفين على السيرة المحمدية الذين يفهمون القرآن في الجملة يعترفون بهذا قولا وكتابة (منهم) الاستاذ مولر الانكليزي المشهور ، ومنهم ذلك الفيلسوف الطبيب السوري الكاثوليكي النشأة الذي رأى في مجلة المنار بعض المناقب المحمدية فكتب الينا كتابا يقول في اوله : أنت تنظر الى محمد كنبي فتراه عظيما ، وأنا أنظر اليه كرجل فأعده اعظم وذكر ابياتا في وصفه ووصف القرآن وما فيه من محكم الآيات ، المانعة لمن عقلها من تقييد العمران بالعادات ، وإصلاحه للبشر بحكمة بيانه وقوة بنانه ، وختمها بقوله :

ببيانه أربى على أهل النهى   وبسيفه أنحى على الهامات
من دونه الابطال في كل الورى   من سابق أو حاضر أو آت

والمؤمنون بهذه الحقيقة من أحرار مفكري الشعوب كلها كثيرون ، ولكن الجاحدين لوجود رب مدبر للعالمين قايلون ، وان محمدا ﷺ لحجة عليهم في نشأته وتربيته وما علم بالضرورة من صدقه الفطري المطبوع ، ثم بما جاء به في سن الكهولة من هذه العلوم المصلحة لجميع شؤون البشر في كل زمان إذا عقلوها واهتدوا بها ، وإسناده إياها الى الوحي الالهي ، فهو ﷺ بمزاياه هذه حجة وبرهان على وجود الرب الخالق الحكيم بل مجموعة حجج عقلية وطبيعية ـ وهاك أيها القارىء ما أزفه اليك من قواعد تلك العلوم الاصلاحية بعد تمهيد وجيز في أسلوب القرآن وحكمة جعل تلك العلوم الكلية متفرقة في سوره بأسلوبه الغريب العجيب ، وهذا المعنى قد بيناه من قبل وإنما نعيده مع زيادة مفيدة وإيضاح اقتداء بأسلوب القرآن نفسه في تكرار المعنى الواحد في المواقع المقتضية له من ايجاز أو إسهاب ، وتفصيل او إجمال

﴿أسلوب القرآن الخاص وحكمته واعجازه به﴾

لو أن عقائد الاسلام المنزلة في القرآن من الايمان بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء ودار الثواب ودار العقاب جمعت وحدها مرتبة في ثلاث سور أو اربع اوخمس مثلا ككتب العقائد المدونة — ولو ان عباداته من الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والدعاء والاذكار وضع كل منها في بضع سور أيضا ككتب الفقه المصنفة — ولو أن آدابه وحكمه وفضائله الواجبة والمندوبة ، وما يقابلها من الرذائل والاعمال المحرمة والمكروهة ، أفردت هي وما يقتضيه الترغيب والترهيب من المواعظ والنذر والامثال الباعثة لشعوري الخوف والرجاء في بضع سور أخرى ككتب الاخلاق والآداب المؤلفة — ولو ان قواعده التشريعية وأحكامه الشخصية والسياسية والحربية والمدنية وحدوده وعقوباته التأديبية رتبت في عدة سور خاصة بها كأسفار القوانين الوضعية — ثم لو ان قصص النبيين المرسلين ومافيها من العبر والمواعظ والسنن الالهية سردت في سورها مرتبة كدواوين التاريخ — لو أن كل ماذكر وما لم يذكر من مقاصد القرآن التي أراد الله بها اصلاح شؤون البشر جمع كل نوع منها وحده كترتيب أسفار التوراة التاريخي الذي لا يعلم احد مرتبه أو كتب العلم والفقه والقوانين لفقد القرآن بذلك اعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الاول للغاية التي انتهت اليها ، وهو التعبد به واستفادة كل حافظ للقليل من سوره كثيرا من مسائل الايمان والفضائل والاحكام والحكم المنبثة في جميع السور لان السورة الواحدة لا يوجد فيها في هذا الترتيب إلا مقصد واحد من تلك المقاصد ، وقد يكون أحكام الطلاق أو الحيض فهو يتعبد بها ولا شك انه عملها ، وأما سوره المنزلة ففي كل منها حتى أقصرها عدة مسائل من الهداية فترى في سورتي الفيل وقريش (المتعلقة احداها بالاخرى حتى في الاعراب) ذكر مسألتين تاريخيتين قد جعلتا حجة على مشركي قريش فيما يجب عليهم من توحيد الله وعبادته بما من عليهم من عنايته بحفظ البيت الذي هو مناط عزهم وفخرهم وشرفهم وتأمين تجارتهم وحياتهم — ولفقد بهذا الترتيب أخص أنواع إعجازه ايضا

يعلم هذا وذاك مما نبينه من فوائد نظمه وأسلوبه الذي أنزله به رب العالمين، العليم الحكيم الرحيم ، وهو مزج تلك المقاصد كلها بعضها ببعض وتفريقها في السور الكثيرة ، الطويلة منها والقصيرة ، بالمناسبات المختلفة ، وتكرارها بالعبارات البليغة المؤثرة في القلوب ، المحركة للشعور ، النافية للسآمة والملل من المواظبة على ترتيلها بنغمات نظمه الخاص به وفواصله المتعددة القابلة لأنواع من التغني الذي يحدث في القلب وجدان الخشوع، وخشية الاجلال للرب المعبود ، والرجاء في رضوانه ورحمته ، والخوف من عقوبته، والاعتبار بسننه في خلقه ، بما لا نظير له في كلام البشر من خطابة ولا شعر ولا رجز ولا سجع ، فبهذا الاسلوب الرفيع في النظم البديع، وبلاغة التعبير السنيع ، كان كما ورد في وصفه : لا تبلى جدته ولا تخلقه كثرة الترديد. وحكمة ذلك وغايته تعلم مما وقع بالفعل وهاك بيانه بالاجمال

الثورة والانقلاب الذي أحدثه القرآن في البشر

القرآن كتاب أنزل على قلب رجل أمي نشأ على الفطرة البشرية سليم العقل صقيل النفس طاهر الاخلاق لم تملكه تقاليد دينية ولا أهواء دنيوية، لأجل إحداث ثورة وانقلاب كبير في العرب فسائر الامم يكتسح من العالم الانساني مادنس فطرته من رجس الشرك والوثنية الذي هبط بهذا الانسان من أفقه الأعلى في عالم الارض إلى عبادة مثله وما هو دونه من هذه المخلوقات ، وما أفسد عقله وذهب باستقلال فكره من البدع الكنسية ، والتقاليد المذهبية ، التي أحالت توحيد الانبياء الأولين شركا وحقهم باطلا ، وهدايتهم غواية ـ وما أفسد بأسه ، وأذل نفسه، وسلبه ارادته، من استبداد الملوك الظالمين ، والرؤساء القاهرين ، ثورة تحرر العقل البشري والارادة الانسانية من رق المتحلين لانفسهم صفة الربوبية أو النيابة عنها في التحكم في الناس واستذلالهم ، فيكون كل امرىء اهتدى به حرا كريماً في نفسه ، عبدا خالصا لربه وإلهه ، يوجه قواه العقلية والبدنية الى تكميل نفسه وجنسه

مثل هذه الثورة الانسانية لا يمكن أن تحدث الا على قاعدة القرآن في قوله تعالى (ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) وكيف يكون تغيير الاقوام

لما بأنفسهم من العقائد والاخلاق والصفات ، التى طبعتها عليها العبادات الموروثة والعادات الراسخة ؟

هل يكفي في ذلك قيام مصلح فيهم يضع لهم كتابا تعليمياً جافا ككتب الفنون يقول فيه انكم أيها الناس ضالون فاسدون ، ومضلون مفسدون ، فاعملوا بهذا الكتاب تهتدوا وتصلحوا ، أو قانونا مدنيا يقول في مقدمته نفذوا هذا القانون تحفظ حقوقكم ، وتعتز أمتكم وتقو دولتكم ؟ أنى وقد عهد من الناس الفاسدين المفسدين سوء التصرف بكتب أنبيائهم المرسلين، وإهمال قوانين حكمائهم المصلحين، (كما فعل المسلمون المتأخرون) وإنما توضع القوانين للحكومات المنظمة ذات السلطان والقوة التي تكفل تنفيذها ، وأنى لمحمد فعل هذا في الامة العربية وقد بعث بالحجة والبرهان، فريداً وحيداً لاعصبة له من قومه ولا سلطان؟ على انه جاء بأعدل الأصول التي تبني عليها امته قوانينها عند تكوين دولتها في الاحوال الملائمة لها كما يعلم مما يأتي

كلا ان هذه الثورة ما كان يمكن أن تحدث إلا بما حدثت به وهو تأثير هذا القرآن في الامة العربية التي كانت أشد الامم البدوية والمدنية استعدادا فطريا لظهور الاسلام فيها بالاقناع كما بيناه بالتفصيل في كتابنا (خلاصة السيرة المحمدية) وسنلم به قريبا

ذلك بان من طباع البشر في معرفة الحق والباطل والخير والشر ، والعمل بمقتضى المعرفة وان خالف مقتضى الاهواء والشهوات ، والتقاليد والعادات ، ان مجرد البيان والاعلام والامر والنهي لا يكفي في الحمل على التزام الحق ونصره على الباطل ، ولا في أداء الواجب من عمل الخير وترك الشر اذا عارض المقتضي العلمي لهما ما أشرنا اليه آنفا من الموانع النفسية والعملية ، إلا في بعض الافراد من الناس دون الجماعات والاقوام . بل مضت سنة الله في تثبيت الحق والخير في النفس وصدور آثارهما عنهما بالعمل ، أنه يتوقف على صيرورة الايمان بهما اذعانا وجدانياً حاكما على القلب، راجحا على ما يخالفه من رغب ورهب وألم وأمل، وانما يكون هذا في الاحداث بالتربية العلمية العملية والاسوة الحسنة لهم فيمن ينشؤن بينهم من الوالدين والاقربين والمعاشرين

وأما كبار السن فلا سبيل إلى جعل الايمان بالحق المطلق والخير العام اذعانا

وجدانيا لجمهورهم إلا بالاسلوب الذي نزل به القرآن فقلب به طباع الكهول والشبان وأخلاقهم وتقاليدهم وعاداتهم وحولها إلى ضدها علما وعملا بما لم يعهد له نظير في البشر ، فكان القرآن آية خارقة المعهود من سنن الاجتماع البشري في تأثيره ، بالتبع لكونه آية معجزة للبشر في لغته وأسلوبه

واعتبر هذا ببني اسرائيل سلالة النبيين ، فان كل مارأوه بمصر من آيات موسى عليه السلام، ثم مارأوه في برية سينا مدة التيه منها، ومن عناية الله تعالى بهم ، ومن سماعهم كلام الله تعالى بآذانهم في لهيب النار المشتعلة على ماترويه توراتهم ـ ولم يثبت عندنا التكليم الا لنبيهم ـ لم يتغير به ما كان بانفسهم من تأثير الوثنية المصرية وخرافاتها ومهانتها واخلاقها، فقدعذبوا موسى عذابا نكرا، وعاندوه في كل ما كان يأمرهم به ،وعبدوا صنم العجل الذهبي في أثناء مناجاته لربه، حتى وصفهم الله في التوراة بالشعب الصلب الرقبة ، وهو كناية عن البلادة والعناد ، وعصل الطباع المانع من الانقياد ، وظل ذلك كذلك إلى أن باد ذلك الجيل الفاسد بعد أربعين سنة ونشأ فيهم جيل جديد ممن كانوا أطفالا عند الخروج من مصر وممن ولد في التيه أمكن أن يعقلوا التوحيد والشريعة ، وأن يعملوا بها ، ويجاهدوا في سبيلها ، وانما كان ذلك بعد موت موسى عليه السلام

فأين بنو اسرائيل من أصحاب محمد ﷺ الذين ربوا بسماع القرآن وترتيله وتدبره في رسوخهم في الايمان، وصبرهم على أذى المشركين واضطهادهم إياهم ليفتنوهم عن دينهم ، ثم في مجاهدتهم لهم عند الامكان بعد الهجرة ، ومجاهدة اعوانهم من أهل الكتاب (اليهود) وتطهيرهم الحجاز وسائر جزيرة العرب من كفر الفريقين في عهده ﷺ وقد كانت مدة البعثة المحمدية كلها عشرين سنة أي نصف مدة التيه ، وكان ذهب نصفها في الدعوة وتبليغ الدين للافراد بمكة ، والنصف الآخر هو الذي تم فيه الانقلاب العربي من تشريع وتنفيذ وجهاد

ثم تأمل ماكان من تدفقهم انفسهم كالسيل الأتيّ على الاقطار من نواحي الجزيرة كلها ، والظهور على ملكي قيصر وكسرى أعظم ملوك الارض وإزالة الشرك والظلم منهما ، ونشر التوحيد والحق والعدل فيهما ، ودخول الامم في دين الله

أفواجا مختارين اهتداء بهم ، وعنايتهم بتعلم العربية بالتبع لعنايتهم بالدين ، حتى فتحوا هم وتلاميذهم نصف كرة الارض في زهاء نصف قرن ، أو ثلاثة أرباعها في ثلاثة أرباعه وكانوا مضرب المثل في الرحمة والعدل وموضع الحيرة لعلماء الاجتماع وقواد الحرب

وأنى يبلغ الشعب الذي وصفه ربه في كتابه بالشعب الصلب الرقبة رتبة الذين وصفهم رب العالمين بقوله (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) الآيات ، فكان عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين الذي طبع وشب على الشدة والقسوة يطبخ الطعام هو وزوجه ليلا لامرأة فقيرة تلد وبعلها حاضر لا يساعدهما اذ لم يكن يعلم انه امير المؤمنين

لاجرم أن سبب هذا كله تأثير القرآن بهذا الاسلوب الذي نراه في المصحف فقد كان النبي ﷺ يجاهد به الكافرين كما أمره الله بقوله (٢٥ : ٥٢ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً) ثم كان به يربي المؤمنين ويزكيهم ، وبهدايته والتأسي بمبلغه ﷺ ربوا الامم وهذبوها ، وقلما يقرؤه احد كما كانوا يقرءون ، إلا ويهتدي به كما كانوا يهتدون ، على تفاوت في الاستعداد النفسي واللغوي واختلاف الزمان لا يخفى . ولو كان القرآن باسلوب الكتب العلمية والقوانين الوضعية لما كان له ذلك التأثير الذي غير ما بأنفس العرب فغيروا به أمم العجم ، فكانوا كلهم كما وصفهم الله عز وجل بقوله (٣ : ١١٠ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)

ولم يكن عندهم شيء من العلم بسياسة الامم وإدارتها إلا هذا القرآن ، والاسوة الحسنة بمبلغه ومنفذه الأول عليه الصلاة والسلام ، ولن يعود للمسلمين مجدهم وعزهم الا اذا عادوا الى هدايته ، وتجديد ثورته ، ولعنة الله على من يصدونهم عنه زاعمين استغناءهم عن العمل به وبسنة مبينه ، بكتب مشايخهم الجافة الخاوية من كل ما يحيي الايمان وينهض الهمم ، ويزكي الانفس ويبعث على العمل

(فعل القرآن في أنفس العرب المستعدة له نوعان)

بيان ذلك ان فعل القرآن في أنفس العرب وإحداثه تلك الثورة الكبرى فيهم قد كان على نوعين أولهما جذبه الناس الى الاسلام، وثانيهما تزكيتهم وتغيير كل ما كان بانفسهم من جهل وفساد الى ضده ، حتى اعقب ما أعقب من الاصلاح في العالم كله . وهاك التفصيل الذي يحتمله المقام لذلك

بينا مرارا ان الله تعالى قد أعد الامة العربية ولا سيما قريش ومن حولها لما أراده من الاصلاح العام للبشر بكونهم كانوا اقرب الامم الى سلامة الفطرة، وأرقاهم لغة وأقواهم استقلالا في العقل والارادة، لعدم وجود ملوك مستبدين ورؤساء دين أولي سلطان روحي يتحكمون في عقائدهم وأفكارهم ويسخرونهم لشهواتهم

فلما بعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن الداعي الى الحق والى صراط مستقيم كانوا على أتم الاستعداد الفطري لقبول دعوته، ولكن رؤساء قريش كانوا على مقربة من ملوك شعوب العجم في التمتع بالثروة الواسعة والعظمة الكاذبة والشهوات الفاتنة والسرف في الترف ، وعلى حظ مما كان عليه رؤساء الاديان فيها من المكانة الدينية بسدانتهم لبيت الله الحرام الذي أودع الله تعظيمه في القلوب من عهد ابراهيم واسماعيل - فرأوا ان هذا الدين يسلبهم الانفراد بهذه العظمة الموروثة، وقد يفضل عليهم بعض الفقراء والموالي ، وانه يحكم عليهم وعلى من يفاخرون بهم من آبائهم بالكفر والجهل والظلم والفسوق ويشبههم بسائمة الانعام — فوجهوا كل قواهم ونفوذهم الى صد محمد عن دعوته ولو بتمليكه عليهم، وجعله أغنى رجل فيهم، ولكن تعذر إقناعه بالرجوع عنها بالترغيب ، حتى التمويل والتمليك ، فقد أجاب عمه ابا طالب لما عرض عليه ما أرادوه من ذلك بتلك الكلمة العليا « ياعم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله او أهلك فيه ما تركته » حينئذ أجمعوا أمرهم على صده عن تبليغها بالقوة ، والحيلولة بينه وبين جماهير الناس في الاسواق والمجامع والبيت الحرام ، وبصد الناس عنه أن يأتوه ويستمعوا له ، وباضطهاد من اتبعه بالدعوة الفردية ، الا أن يكون له من يحميه منهم لقرابة او

جوار او ذمة ، فهؤلاء الرؤساء المترفون المسرفون المتكبرون كانوا أعلم الناس بصدق محمد وفيهم نزل قوله تعالى (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) فقد كابروا الحق بغيا واستكبارا للحرص على رياستهم وشهواتهم ، وكانوا اجدر العرب بقبول دعوة القرآن (وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً) كفرعون وقارون وهامان

فعل القرآن في مشركي العرب

قلنا ان فعل القرآن في أنفس العرب كان على نوعين : فعله في المشركين ، وفعله في المؤمنين ، فالأول تأثير روعة بلاغته ودهشة نظمه وأسلوبه ، الجاذب لفهم دعوته والايمان به ، اذ لا يخفى حسنها على أحد فهمها ، وكانوا يتفاوتون في هذا النوع تفاوتاً كبيراً لاختلاف درجاتهم في بلاغة اللغة وفهم المعاني العالية

فهذا التأثير هو الذي أنطق الوليد بن المغيرة المخزومي بكلمته العالية فيه لابي جهل التي اعترف فيها بانه الحق الذي يعلو ولا يعلى ، والذي يحطم ما تحته ، (راجع ص١٨٩) وكانت كلة فائضة من نور عقله وصميم وجدانه ، وما استطاع أن يقول كلة أخرى في الصد عنه بعد إلحاح أبي جهل عليه باقتراحها إلا بتكلف لمكابرة عقله ووجدانه . وبعد أن فكر وقدر ، ونظر وعبس وبسر ، وأدبر واستكبر ، كما يعلم من سورة المدثر وسبب نزول قوله تعالى (ذرني ومن خلقت وحيدا) الآيات منها

وهذا التأثير هو الذي كان يجذب رءوس أولئك الجاحدين المعاندين ليلا لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ في بيته ، على ما كان من نهيهم عنه ونأيهم عنه ، وتواصيهم وتقاسمهم لا يسمعن له ، ثم كانوا يتسللون فرادى مستخفين ، ويتلاقون في الطريق متلاومين ،

وهذا التأثير هو الذي حملهم على منع أبي بكر الصديق (رض) من الصلاة والتلاوة في المسجد الحرام ليلا لما كان لتلاوته وبكائه في الصلاة من التأثير الجاذب الى الاسلام ، وعللوا ذلك بانه يفتن عليهم نساءهم وأولادهم ، فاتخذ مسجداً له بفناء داره فطفق النساء والاولاد الناشئون ينسلون إلى بيته ليلا لاستماع القرآن ، فنهاه أشراف المشركين بان العلة لا تزال ، وانهم يخشون أن يغلبهم نساؤهم وأولادهم على الاسلام ، وكانوا ألجأوه إلى الهجرة فهاجر فلقي في طريقه ابن الدغنة سيد قومه

فسأله سبب هجرته فأخبره الخبر وهو يعرف فضائل أبي بكر من قبل الاسلام فاجاره وأعاده إلى مكة بجواره ، فعاد إلى قراءته ، وعاد النساء والنشء الحديث إلى الاستماع له ، حتى اضطر المشركون ابن الدغنة إلى اقناعه بترك رفع صوته بالقرآن أو يرد عليه جواره ، فرد أبو بكر جواره اكتفاء بجوار الله تعالى ، وخبره هذا رواه البخاري في باب الهجرة وأوردناه بطوله في تفسير آية الغار (ص ٤٣٦ من الجزء العاشر)

بل هذا التأثير هو الذي حملهم على صد النبي (ص) بالقوة عن تلاوة القرآن في البيت الحرام وفي أسواق الموسم ومجامعه ، وعلى تواصيهم بما حكاه الله تعالى عنهم في قوله (وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)

وقد أدرك هذا أحد فلاسفة فرنسة فذكر في كتاب له قول دعاة النصرانية إن محمداً لم يأت بآية على نبوته كآيات موسى وعيسى وقال في الرد عليهم : ان محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً أواها متألها فتفعل قراءته في جذب الناس إلى الايمان مالم تفعله جميع آيات الانبياء الاولين (أقول) ولو كان القرآن ككتب القوانين المرتبة وكتب الفنون المبوبة ، لما كان لقليله وكثيره من التأثير ما كان لسوره المنزلة

كان كل مايطلبه النبي ﷺ من قومه أن يمكنوه من تبليغ دعوة ربه بتلاوة القرآن على الناس . قال تعالى مخاطباً له (٦ : ١٩ قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) أي وأنذر به كل من بلغه من غيركم من الناس . وقال في آخر سورة النحل (٢٧ : ٩١ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وامرت أن أكون من المسلمين (٩٢) وأن أتلو القرآن : فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين (٩٣) وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون)

ان رؤساء قريش عرفوا من قوة جذب الناس الى الاسلام بوقعه في أنفسهم ما لم يعرفه غيرهم ، وعرفوا أنه ليس لجمهور العرب مثل مالهم من أسباب الجحود والمكابرة ، فقال لهم عمه أبو لهب من أول الامر : خذوا على يديه ، قبل أن تجتمع العرب عليه » ففعلوا . وكان من ثباته على بث الدعوة واحتمال الاذى ماأفضى بهم إلى الاضطهاد وأشد الايذاء له ولمن يؤمن به ، ثم اجماع الرأي على قتله ، حتى

ألجؤهم الى الهجرة بعد الهجرة. ثم صاروا يقاتلونه في دار هجرته وما حولها، وينصره الله عليهم، إلى أن اضطروا إلى عقد الصلح معه في الحديبية سنة ست من الهجرة وكان أهم شروط الصلح السماح للمؤمنين بمخالطة المشركين الذي كان سبب سماعهم للقرآن، ودخولهم بتأثيره في دين الله أفواجا، فكان انتشار الاسلام في أربع سنين بالسلم والامان، أضعاف انتشاره في ست عشرة سنة من أول الاسلام

فعل القرآن في أنفس المؤمنين

كان كل من يدخل في الاسلام قبل الهجرة يلقن ما نزل من القرآن – ليعبد الله بتلاوته – ويعلم الصلاة ولم يفرض في مكة من أركان الاسلام غيرها، فيرتل ما يحفظه في صلاته اقتداء بالنبي ﷺ إذ فرض الله عليه التهجد بالليل من أول الاسلام قال تعالى في أول سورة المزمل – التي قيل إنها أول ما نزل بعد فترة الوحي وبعدها المدثر وقيل بالعكس – وتقدم الجمع بين الاقوال (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا *) ثم قال في آخرها (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤا ما تيسر من القرآن) أي في صلاة الليل وغيرها ، ثم ذكر الاعذار المانعة من قيام الليل كله ما كان منها في ذلك العهد كالمرض والسفر ، وما سيكون بعد سنين وهو القتال في سبيل الله

ومما ورد في صفة الصحابة (رض) أن الذي كان يمر ببيوتهم ليلا يسمع منها مثل دوي النحل من تلاوة القرآن ، وقد غلا بعضهم فكان يقوم الليل كله حتى شكا منهم نساؤهم فنهاهم النبي (ص) عن ذلك ، وكان هو يصلي في كل ليلة ثلاث عشرة ركعة يوتر بواحدة منهن ، وما قبلها مثنى مثنى ، وكان هو يطيل فيهن حتى تورمت قدماه من طول القيام فأنزل الله عليه مرفها ومسلياً (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)

فتربية الصحابة التي غيرت كل ما كان بأنفسهم من مفاسد الجاهلية وزكتها تلك التزكية التي أشرنا اليها آنفا وأحدثت أعظم ثورة روحية اجتماعية في التاريخ

إنما كانت بكثرة تلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة وتدبره ، وربما كان احدهم يقوم الليلة بآية واحدة يكررها متدبراً لها، وكانوا يقرؤنه مستلقين ومضطجعين كما وصفهم الله بقوله (الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم) وأعظم ذكر الله تلاوة كتابه المشتمل على ذكر أسمائه الحسنى وصفاته المقدسة وأحكامه وحكمه ، وسننه في خلقه وأفعاله في تدبير ملكه ، ولو كان القرآن ككتب القوانين والفنون لما كان لتلاوته كل ذلك التأثير في قلب الطباع، وتغيير الاوضاع ، بل لكانت تلاوته تمل فتترك ، فأسلوب القرآن الذي وصفناه آنفاً من أعظم أنواع اعجازه اللغوي ، وتأثيره الروحي ، ومن ارتاب في هذا فلينظر في المسائل التي تشتمل عليها السورة منه وليحاول كتابتها نفسها أومثلها بأسلوب تلك السورة ونظمها أو أسلوب سورة أخرى، كالسور التي يتكرر فيها الموضوع الواحد بالاجمال الموجز تارة وببعض التفصيل تارة وبالاطناب فيه أخرى ، ـ كالاعتبار بقصص الرسل مع أقوامهم في سور المفصل(كالذاريات والقمر والحاقة) وفيما فوقها(كالمؤمنون والشعراء والنمل) وفيما هو أطول منها (كالاعراف وهود) ـ ثم لينظر مايفضي اليه عجزه من السخرية

وقد بين بعض علماء الاجتماع في هذا العصر ان تكرار الدعوات الدينية والسياسية والاجتماعية هي التي تثير الجماعات وتدعهم إلى الانهماك والتفاني فيها دعًا ، وما كان محمد ولا أحد من أهل عصره يعلمون هذا ، ولكن الله يعلم من طباع الجماعات والاقوام فوق مايعلمه حكماء عصرنا وسائر الاعصار ، وانما القرآن كلامه ، وليس فيه من التكرار، الا ماله أكبر الشأن في انقلاب الافكار، وتحويل مافي الانفس من العقائد والاخلاق إلى خيرمنها ، وهومالا تمكن احداث الانقلاب الاصلاحي بدونه كما تعلم من التفصيل الآتي

مقاصد القرآن ، في ترقية نوع الانسان، ومافيه من التكرار

ان مقاصد القرآن من اصلاح أفراد البشر وجماعاتهم وأقوامهم وادخالهم في طور الرشد وتحقيق اخوتهم الانسانية ووحدتهم وترقية عقولهم وتزكية أنفسهم منها مايكفي بيانه لهم في الكتاب مرة أومرتين أومرارا قليلة ، ومنها مالاتحصل

الغاية منه إلا بتكراره مرارا كثيرة لاجل أن يجتث من أعماق الانفس كل ما كان فيها من آثار الوراثة والتقاليد والعادات القبيحة الضارة ويغرس في مكانها أضدادها، ويتعاهد هذا الغرس بما ينميه حتى يؤتي أكله ويينع ثمره ، ومنها ما يجب أن يبدأ بها كاملة ، ومنها ما لا يمكن كماله إلا بالتدريج ، ومنها ما لا يمكن وجوده إلا في المستقبل فيوضع له بعض القواعد العامة ومنها ما يكفي فيه الفحوى والكناية

والقرآن كتاب تربية عملية وتعليم لا كتاب تعليم فقط فلا يكفي أن يذكر فيه كل مسألة مرة واحدة واضحة تامة كالمعهود في كتب الفنون والقوانين ، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله في موضوع البعثة المحمدية (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) واننا نذكر هنا أصول هذه المقاصد كما وعدنا عند قولنا إن ماجاء به محمد (ص) هو أعلى وأكمل مما جاء به من قبله جميع الانبياء والحكماء والحكام فهو برهان على أنه من عند الله تعالى لامن فيض استعداده الشخصي ، وإننا نقسم هذه المقاصد إلى أنواع ونبين حكمة القرآن ، وما امتاز به في كل نوع منها بالاجمال لان التفصيل لا يتم الا اذا يسر الله لنا ماوعدنا به من تفسير مقاصد القرآن كلها في أبواب نبين في كل باب منها وجه حاجة البشر الى ذلك المقصد وكون القرآن وفى بهذه الحاجة بما نأتي به من جملة آياته فيه

﴿ النوع الاول من مقاصده الاصلاح الديني لاركان الدين الثلاثة ﴾

ان أركان الدين الاساسية التي بعث بها جميع رسل الله تعالى وناط بها سعادة البشر هي الثلاثة المبينة بقوله (٦٢:٢ ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهاك الكلام على كل منها بالايجاز

﴿ الركن الاول للدين الايمان بالله تعالى ﴾

فالركن الاول الاعظم من هذه الاركان - وهو الايمان بالله تعالى - قد ضل فيه جميع الاقوام والأمم حتى أقربهم عهداً بهداية الرسل ، فاليهود جعلوا الله كالانسان يتعب ويندم على ما فعل كخلقه للانسان لانه لم يكن يعلم أنه سيكون مثله ، « او مثل الآلهة » وزعموا انه كان يظهر في شكل الانسان حتى إنه صارع اسرائيل ولم يقدر على التفلت منه حتى باركه فأطلقه ! وعبدوا بعلا وغيره من الاصنام . والنصارى جددوا من عهد قسطنطين الوثنيات القديمة ، فغمر الشرك بالله هذه الارض بطوفانه ، وطغت الوثنية على أهلها ، حتى صارت كنائس النصارى كهياكل الوثنية الاولى مملوءة بالصور والتماثيل المعبودة - على أن عقيدة التثليث والصلب والفداء هي عقيدة الهنود في كرشنة وثالوثه في جملتها وتفصيلها ، وهي مدعومة بفلسفة خيالية غير معقولة وبنظام يقوم بتنفيذه الملوك والقياصرة ، ويبذل في سبيله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ويربى عليه الاحداث من الصغر تربية وجدانية خيالية لا تقبل حجة ولا برهانا ، فهدم معاقل هذه الوثنية وحصونها المشيدة في الافكار والقلوب ما كان ليتم باقامة برهان عقلي أو عدة براهين على توحيد الله عز وجل ، بل لا بد فيه من دحض الشبهات وتفصيل الحجج العقلية والعلمية والخطابية بالعبارات المختلفة وضرب الامثال ، لذلك كان أكثر المسائل تكرارا في القرآن مسألة توحيد الله عز وجل في ألوهيته بعبادته وحده ، واعتقاد أن كل ما سواه من الموجودات سواء في كونهم ملكا وعبيداً له لا يملكون من دونه نفعاً ولا ضرا لأحد ولا لانفسهم إلا فيما سخره من الاسباب المشتركة بين الخلق كما شرحناه مرارا . واما تكرار توحيد الربوبية وهو انفراده تعالى بالخلق والتقدير والتدبير والتشريع الديني فليس سببه كثرة المشركين بربوبيته تعالى ، بل سببه إقامة الحجة به على بطلان شرك العبادة بدعاء غير الله تعالى لأجل التقرب اليه بأولئك الاولياء وابتغاء شفاعتهم عنده ، فشر الشرك وأعرقه في الكفر وأكثره في ضعفاء العقول انما هو توجه العبد إلى غير الله تعالى فيما يشعر بالحاجة اليه من كشف ضر وجلب نفع من غير طريق الاسباب ، فقد ذكر الدعاء في القرآن أكثر من سبعين مرة ،

بل زهاء سبعين بعد سبعين مرة ، لأنه روح العبادة ومخها ، بل هو العبادة التي هي دين الفطرة كله ، وما عداه من العبادات فوضعي تشريعي

بعض آيات الدعاء أمر بدعائه تعالى ، وبعضها نهي عن دعاء غيره مطلقاً ، ومنها حجج على بطلان الشرك أو على إثبات التوحيد، ومنها أمثال تصور كلا منهما بالصور اللائقة المؤثرة ، ومنها إخبار بأن دعاء غيره لا ينفع ولا يستجاب ، وان كل من يدعى من دونه تعالى فهو عبد له، وان أفضلهم وخيارهم كالملائكة والانبياء يدعونه هو ويبتغون الوسيلة اليه، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، وانهم يوم القيامة يكفرون بشرك الذين يدعونهم من دون الله أو مع الله ـ وأمثال ذلك مما يطول تلخيصه

وثم انواع أخرى من آيات الايمان بالله تعالى تغذي التوحيد وتصعد بأهله درجات متفاوتة في السمو بمعرفته تعالى والتأله والتوله في حبه من التنزيه والتقديس والتسبيح، وذكر أسمائه الحسنى ممزوجة ببيان الاحكام الشرعية المختلفة حتى أحكام الطهارة والنساء والارث والاموال، وبحكم الخلق والتدبير لامور العالم، وسننه في طباع البشر وفي شؤونهم الاجتماعية . ووضع كل اسم منها في الموضع المناسب له من رحمة وعلم وحكمة وقدرة ومشيئة وحلم وعفو ومغفرة وحب ورضا وما يقابل ذلك ، ومن الامر بالتوكل عليه والخوف منه والرجاء في فضله الخ وناهيك بما سرد منها سرداً لجذب الارواح العالية إلى كماله المطلق وفنائها فيه كما تراه في خاتمة سورة الحشر فتأملها ، وفي فاتحة سورة الحديد (سبح لله ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم * هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) ومنها استمد الاولياء العارفون والأئمة الربانيون تلك الكتب العالية في معرفته تعالى وأسرار خلقه ، بعد ان تربوا بكثرة ذكره ، وتلاوة كتابه

بهذا التكرار الذي جعله أسلوب القرآن المعجز مقبولا غير مملول طهر الله عقول العرب وقلوبهم من رجس الشرك وخرافات الوثنية ، وزكاها بالاخلاق العالية والفضائل السامية ، وكذا غير العرب ممن آمن بالله وأتقن لغة كتابه وصار يرتله في عبادته ويتدبر آياته، حتى إذا دب في الامة دبيب الجهل بلغة القرآن وقل

تدبره واعتمد المسلمون في فهم عقيدتهم على الكتب الكلامية المصنفة ضعف التوحيد. واتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعا بذراع اعتقاداً وعملا ، وتأولا وجدلا ، فصار أدعياء العلم يتأولون تلك الآيات الكثيرة على التوحيد بشبهاتهم وأهوائهم كما هو مشاهد ومعلوم

على أن بعض المتكلمين والصوفية قد بالغوا في التوحيد حتى أنكر بعضهم تأثير الاسباب في مسبباتها ، وقال بعضهم بوحدة الوجود ، وانتهى بهم ذلك الى بدعة الجبر التي أفسدت على أهلها كل شيء ، بيد أن الاولين منهم كانوا يقولون بما يهديهم اليه النظر العقلي ، أو رياضة النفس وما تثمره من الشعور الوجداني ، ثم خلف من بعدهم خلف من المقلدين لاحظ لهم من القرآن ولا من البرهان ولا من الوجدان ، وإنما يتبعون العوام ويتأولون لهم بكلام امثالهم من المصنفين الجاهلين . ولو فقهوا أقصر سورة في التوحيد والتنزيه كما يجب ــ وهي سورة الاخلاص ــ لما وجد الشرك الى أنفسهم سبيلا

قد كان توحيد المسلمين الاولين لله ومعرفتهم به وحبهم له وتوكلهم عليه هو الذي زكى أنفسهم ، وأعلى هممهم ، وكلهم بعزة النفس ، وشدة البأس ، وإقامة الحق والعدل ، ومكنهم من فتح البلاد وسياسة الامم ، واعتاقها من رق الكهنة والاحبار والرهبان والبوذات والموبذانات الروحي والعقلي ، وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم ، وإقامة دعائم الحضارة ، وإحياء العلوم والفنون الميتة وترقيتها فيهم ، وقد تم لهم من كل ذلك مالم يقع مثله ولا مايقاربه لأمة من امم الارض ، حتى قال الدكتور غوستاف لوبون المؤرخ الاجتماعي الشهير : ان ملكة الفنون لم يتم تكوينها لأمة من الامم الناهضة إلا في ثلاثة أجيال ، أولها جيل التقليد وثانيها جيل الخضرمة وثالثها جيل الاستقلال والاجتهاد ــ قال : إلا العرب وحدهم فقد استحكمت لهم ملكة الفنون في الجيل الاول الذى بدؤا فيه بمزاولتها

وأقول ان سبب ذلك تربية القرآن لهم على استقلال العقل والفكر واحتقار التقليد ، وتوطين انفسهم على إمامة البشر وقيادتها في أمور الدين والدنيا معا ، وقد خفي كل هذا على سلائلهم بعد ذهاب الخلافة الاسلامية وزوال النهضة العربية

وتحول السلطان الى الاعاجم الذين لم يكن لهم من الاسلام الا الظواهر التقليدية المنفصلة عن هداية القرآن

﴿ الركن الثاني من اركان الدين عقيدة البعث والجزاء ﴾

وأما الركن الثاني وهو الايمان باليوم الآخر ومايكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الاعمال، فقد كان جل مشركي العرب ينكرونه اشد الانكار، ولا يكمل الايمان بالله تعالى ويكون باعثاً للامة على العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات والبغي والعدوان بدونه ، وكان أهل الكتاب وغيرهم من الملل التي كان لها كتب وتشريع ديني ومدني ثم فقدت كتبهم أو حرفت واستحوذت عليهم الوثنية يؤمنون بحياة بعد الموت وجزاء على الاعمال ، ولكن ايمانهم هذا قد شابه الفساد ببنائه على بدع ذهبت بجل فائدته في إصلاح الناس، وأساسها عند الهنود وغيرهم من قدماء الوثنيين وخلف النصارى وجود المخلص الفادي الذي يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه ، وهو الاقنوم الثاني من الثالوث الالهي الذي هو عين الاول والثالث ، وكل واحد منها عين الآخر . وكل مايقوله النصارى في فداء المسيح للبشر وغير ذلك فهو نسخة مطابقة لما يقوله الهنود في كرشنة في اللفظ والفحوى كما تقدم ، لا يختلفان إلا في الاسمين كرشنة ويسوع .

وأما اليهود فكل ديانتهم خاصة بشعب اسرائيل ومحاباة الله تعالى له على سائر الشعوب في الدنيا والآخرة ويسمونه إله اسرائيل كأنه ربهم وحدهم لا رب العالمين ، وديانتهم أقرب إلى المادية منها إلى الروحية ، فكان فساد الايمان بهذا الركن من أركان الدين تابعاً لفساد الركن الاول وهو الايمان بالله تعالى ومعرفته ومحتاجا إلى الاصلاح مثله

جاء القرآن للبشر بهذا الاصلاح، فقد أعاد دين النبيين في الجزاء إلى أصله المعقول وهو ما كرم الله تعالى به الانسان من جعل سعادته وشقائه منوطين بإيمانه

وعمله ، اللذين هما من كسبه وسعيه لا من عمل غيره ، وان الجزاء على الكفر والمعاصي يكون بعدل الله تعالى بين جميع خلقه بدون محاباة شعب على شعب، والجزاء على الايمان والاعمال الصالحة يكون بمقتضى الفضل ، فالحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعفها الله تعالى أضعافا كثيرة

ومدار كل ذلك قاعدة قوله تعالى (ونفس وماسواها * فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) أي إن الله الذي خلق هذه النفس وسواها بما وهبها من المشاعر والعقل ، قد جعلها بالهام الفطرة والغريزة مستعدة للفجور الذي يرديها ويدسيها ، والتقوى التي تنجيها وتعليها ، ومتمكنة من كل منهما بارادتها ، والترجيح بين خواطرها ومطالبها، ومنحها العقل والدين يرجحان الحق والخير على الباطل والشر، فبقدر طهارة النفس وأثر تزكيتها بالايمان ومكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال يكون ارتقاؤها في الدنيا وفي الآخرة، والضد بالضد .
فالجزاء أثر طبيعي للعمل النفسي والبدني الذي يزكي النفس او يدسيها ويدنسها ، وهذا هو الحق الذي يثبته من عرف حقيقة الانسان ، وحكمة الديان ، وهو مما أصلحه القرآن من تعاليم الاديان

فاذا علمت ما كان من انكار مشركي العرب للبعث والجزاء ، ومن فساد إيمان أهل الكتاب وسائر الملل في هذه العقيدة ، وعلمت أنها مكملة للايمان بالله تعالى، وان تذكرها هو الذي يقوي الوازع النفسي الذي يصد الانسان عن الباطل والشر والظلم والبغي ، ويرغبه في التزام الحق والخير وعمل البر - علمت أن ذلك ما كان ليفعل فعله العاجل في شعب كبير الا بتكراره في القرآن بالاساليب العجيبة التي فيه من حسن البيان ، وتقريب البعيد من الاذهان ، تارة بالحجة والبرهان ، وتارة بضرب الامثال ، وقد تكرر في آيات بينات ، لعلها تبلغ المثات، ومن اعجازه انها لا تمل ولا تسأم

الايمان بالبعث والجزاء وهو الركن الثاني في جميع الاديان، من لوازم الركن الأول وهو الايمان بالله المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن العبث في أفعاله وأحكامه ، ولهذا كان من أظهر أدلة القرآن عليه قوله (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً

وأنكم إلينا لا ترجعون) وقوله (أيحسب الانسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والانثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) فكفر الانسان بهذا الركن من أركان الايمان يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله في خلقه ، وكفره بنعمته بخلقه في أحسن تقويم ، وتفضيله على أهل عالمه (الارض) حيث سخرها وكل ما فيها لمنافعه ، وعلى كثير ممن خلق في عالم الغيب الذي وعده بمصيره اليه ، وجهله بما وهبه من المشاعر والقوى والعقل ، وجهله بحكمته في خلقه مستعداً لما ليس له حد ونهاية من العلم ، الدال على انه خلق لحياة لا حد لها ولا نهاية ، — ومن لوازم هذا الكفر والجهل كله ، احتقاره لنفسه باعتقاده انه خلق عبثاً لا لحكمة بالغة ، وأن وجوده في الارض موقوت محدود بهذا العمر القصير المنغص بالهموم والمصائب والظلم والبغي والآثام ، وانه يترك سدى لا يجزى كل ظالم من افراده بظلمه ، وكل عادل بعدله وفضله ، وإذ كان هذا الجزاء غير مطرد في الدنيا لجميع الافراد ، تعين ان يكون جزاء الآخرة هو المظهر الاكبر للعدل العام

ومما جاء في القرآن مخالفاً لما عند النصارى من عقيدة البعث والجزاء ان الانسان في الحياة الآخرة يكون انسانا كما كان في الدنيا إلا أن أصحاب الأنفس الزكية والارواح العالية يكونون أكمل أرواحا وأجساداً مما كانوا بتزكية أنفسهم في الدنيا ، وأصحاب الانفس الخبيثة والارواح السافلة يكونون انقص وأخبث مما كانوا بتدسية أنفسهم في الدنيا ، ويعلم مما ثبت عن قدماء المصريين وغيرهم من الأقدمين أن الاديان القديمة كانت تعلم الناس عقيدة البعث بالروح والجسد

ولو كان البعث للارواح وحدها لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم من الخلق المؤلف من روح وجسد ، فهو يدرك اللذات الروحية واللذات الجثمانية ويتحقق بحكم الله (جمع حكمة) وأسرار صنعه فيهما معاً ، من حيث حرم الحيوان والنبات من الاولى والملائكة من الثانية ، وما جنح من جنح من أصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحاني المجرد إلا لاحتقارهم للذات الجسدية

وتسميتها بالحيوانية مع شغف أكثرهم بها ، وإنما تكون نقصاً في الانسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها حتى يصرفه اشتغاله بها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان - وأصل هذا الافراط والتفريط غلو الهنود في احتقار الجسد وتربية النفس بالرياضة وتعذيب الجسد وتبعهم فيه نساك النصارى كما تبعوهم في عقيدة الصلب والفداء والتثليث على أنهم نقلوا ان المسيح عليه السلام شرب الخمر مع تلاميذه لما ودعهم في الفصح وقال لهم : اني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا الى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدا في ملكوت أبي (متى ٢٦ : ٢٩) وجرى اليهود على عكس ذلك. وجاء الاسلام بالاعتدال فاعطى الانسان جميع حقوقه ، وطالبه بما يكون بها كاملا في انسانيته .

وقد بينا كل ما يتعلق بهذه المسألة من جميع اطرافها العلمية والدينية وكشف شبهاتها في تفسير سورة الانعام التي هي اجمع سور القرآن لمسائل الايمان بالله وتوحيده والبعث والرسالة ودحض شبهات المشركين عليها (ص ٤٧٠ - ٤٨١ ج ٨ تفسير)

ويؤخذ مما ورد من الآيات والاحاديث النبوية من صفة حياة الآخرة ان القوى الروحية تكون هي الغالبة والمتصرفة في الاجساد فتكون قادرة على التشكل بالصور اللطيفة وقطع المسافات البعيدة في المدة القريبة ، والتخاطب بالكلام بين اهل الجنة وأهل النار — وان ترقي البشر في علم الكيمياء وخواص الكهرباء والصناعات والآلات في عصرنا قد قرب كل هذا من حس الانسان بعد أن كان الماديون الملحدون يعدون مثل قوله تعالى (٧ : ٤٤ ونادى أصحاب الجنة اصحاب النار أن قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم : ان لعنة الله على الظالمين)من تخيلات محمد صلوات الله وسلامه عليه - وها نحن أولاء نخاطب من مصر اهل عواصم اوربة بآلة التلفون ، ونسمع خطبهم ومعازفهم بآلة الراديو ،وسنراهم ويروننا بآلة التليفزيون مع التخاطب حينما يتم انتشارها

وأما علماء الروح من الافرنج وغيرهم فقد قرروا أن الارواح البشرية قادرة على التشكل في أجساد تأخذها من مادة الكون كما يقول الصوفية. وهذه مسألة اومسائل قد شرحناها من قبل في هذا التفسير وانما نذكرها هنا بالاجمال رداً على من زعموا ان القرآن مستمد من كتب اليهود والنصارى ومن عقل محمد ﷺ وإلهاماته الروحية

ويناسب هذا ماجاء في القرآن من نبأ خراب العالم وقيام الساعة التي هي بدء ما يجب الايمان به من عقيدة البعث والجزاء ولم يوجد له اصل عند اهل الكتاب ولا غيرهم ولا هو مما يمكن أن يكون قد عرفه محمد ﷺ بذكائه او نظرياته العقلية. وجملته ان قارعة ـ والظاهر انها كوكب ـ تقرع الارض وتصخها صخا وترجها رجا فتكون هباء (غباراً رقيقا) منبثا في الفضاء . وحينئذ يختل مايسمى في عرف العلماء بالجاذبية العامة فتتناثر الكواكب الخ وهذا المعنى لم يكن يخطر ببال احد من علماء الكون ولا من علماء الدين فلا يمكن أن يقال ان محمداً ﷺ سمعه من احد في بلده او في سفره ، ولا يعقل أن يكون قاله برأيه وفكره، فهو من أنباء القرآن الكثيرة التي تدحض زعم القائلين بالوحي النفسي. وقد صرح غير واحد من علماء الهيئة الفلكية المعاصرين بأن خراب العالم بهذا السبب هو أقرب النظريات العلمية لخرابه

﴿ الركن الثالث للدين العمل الصالح ﴾

وأما الركن الثالث من مقاصد بعثة الرسل وهو العمل الصالح فهو مكرر في القرآن في سور كثيرة لاصلاح ماأفسده البشر فيه بجعله تقليديا غير مزك للنفس ولا مصلح لشؤون الاجتماع ، ولكن دون تكرار توحيد الله وتقديسه الذي هو الاصل الذي يتبعه غيره، ولولا الحاجة الى هذا التكرار في التذكير والتأثير لكانت سورة العصر كافية في الاصلاح العلمي العملي على قصرها ، كسورة الاخلاص في الركن الاول الاعتقادي ، وكل منهما تكتب في سطر واحد فهما من معجزات ايجاز القرآن وهدايته

ثم ان العمل الصالح من لوازم الايمان بالله في الدرجة الاولى لأن من عرف الله عرف استحقاقه للحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم ، وهو من لوازم الايمان بالجزاء على الاعمال في الدرجة الثانية خوفا من العقاب ورجاء في الثواب

ويدخل في الاعمال الصالحة العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى ، وسائر أعمال البر التي ترضيه بما لها من التأثير في صلاح البشر كبر الوالدين وصلة الرحم واكرام اليتامى والمساكين. ومن أصوله الوصايا الجامعة في آيات سورة الاسراء

(١٧ : ٢٣ وقضى ربك ـ الى قوله ـ ٣٩ ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة) الخ وهي اجمع واعظم من الوصايا العشر التي في التوراة. وآيات سورة الانعام (٦: ١٥١ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) الخ ـ وغير ذلك مما ينفع الناس من الحث على الفضائل والزجر عن الرذائل والمعاصي الضارة بالابدان والاموال والاعراض والعقول والاديان ، ومثارها الاكبر اتباع الهوى وطاعة وسوسة الشيطان. ويضادهما ملكة التقوى فهي اسم جامع لما يقي النفس من كل مايدنسها وتسوء به عاقبتها في الدنيا او الآخرة ، ولهذا تذكر في المسائل الدينية والزوجية والحربية وغيرها ، وقد فصلناها هذا في (ص ٦٤٨ ج ٩ تفسير) ولا حاجة الى التطويل بالشواهد على ما في القرآن منها

وسنة القرآن في الارشاد إلى الاعمال الصالحة بيان أصولها ومجامعها وتكرار التذكير بها بالاجمال ، وأكثر مايحث عليه من العبادات الصلاة التي هي العبادة الروحية العليا والاجتماعية المثلى ، والزكاة التي هي العبادة المالية الاجتماعية الكبرى ، كرر الامر بهما في آيات كثيرة وبين أهم منافعهما بقوله (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر) وقوله (ان الانسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين) الآيات وقوله (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)

ولم يكرر ما يحفظ بالعمل والاقتداء بالرسول من أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج بل لم يذكر منها إلا لما لذكره فائدة خاصة . وذكرت فيه احكام الصيام في موضع واحد ، ولم يذكر فيه عدد الركعات في كل صلاة ولا عدد الركوع والسجود ، ولا نصاب الزكاة في كل نوع مما تجب فيه . لان كل هذا يؤخذ من بيان الرسول ويحفظ بالعمل وليس في ذكره تزكية للنفس ولا تغذية للايمان

ترجيح فضائل القرآن على فضائل الانجيل

واذكر فضيلتين من فضائله يزعم النصارى أن ماهو مأثور عندهم فيها أكمل وأفضل مما جاء به الاسلام (الاولى) قول المسيح عليه السلام : أحبوا اعداءكم باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى من أساء اليكم . ومن ضربك على خدك الايمن

فأدر له الايسر » ومن المعلوم بالبداهة أن امتثال هذه الاوامر يتعذر على غير الاذلة المستعبدين من الناس، وأنه قد يكون من أكبر المفاسد باغراء الاقوياء بالضعفاء الخاضعين ، وانك لتجد أعصى الناس لها من يسمون أنفسهم بالمسيحيين

أمثال هذه الاوامر لاتأتي في دين الفطرة العام لان امتثالها من غير المستطاع، والله تعالى يقول (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) وإنما قرر القرآن في موضوعها الجمع بين العدل والفضل والمصلحة .قال تعالى(٤٢: ٤٠ وجزاء سيئة سيئة مثلها . فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين (٤١) ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ماعليهم من سبيل (٤٢) إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم (٤٣) ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور) ولايخفى ان العفو والمغفرة للمسيء انما تكون من القادر على الانتصار لنفسه، وبذلك يظهر فضله على من عفا عنه ، فيكون سببا لاستبدال المودة بالعداوة ، في مكان الاغراء بالتعدي ودوام الظلم ، ولذلك قال (٤١: ٢٤ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة .ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٢٥) ومايلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلاذو حظ عظيم) فانظر كيف بين مراتب الكمال ودرجاته من العدل والفضل، وكيف استدل عليه بما فيه من المصلحة وحكم العقل ، أفليس هذا الاصلاح الاعلى على لسان أفضل النبيين والمرشدين ، دليلا على أنه وحي من الله تعالى قد أكمل به الدين ؟ بلى وانا على ذلك من الشاهدين، ولا يجحده إلا من سفه نفسه فكان من الجاهلين

(الثانية) مبالغة المسيح عليه السلام في التزهيد في الدنيا والامر بتركها وذم الغنى، حتى جعل دخول الجمل في ثقب الابرة أيسر من دخول الغني ملكوت السماوات، ونقول ان هذه المسألة وسابقتها انما كانتا اصلاحا موقتاً لاسراف اليهود وغلوهم في عبادة المال حتى أفسد أخلاقهم وآثروا دنياهم على دينهم .والغلو يقاوم موقتاً بضده، وكذلك كانت دولة الرومان السالبة لاستقلال اليهود وغيرهم دولة مسرفة في الظلم والعدوان

وأما الاسلام فهو دين البشر العام الدائم فلايقرر فيه إلا ماهو لمصلحة الناس كلهم في دينهم ودنياهم .وهو في هذه المسألة ذم استعمال المال فيما يضر من الاسراف

والطغيان، وذم أكله بالباطل ومنع الحقوق المفروضة فيه والبخل به عن الفقراء والضعفاء - ومدح أخذه بحقه وبذله في حقه، وانفاقه في سبيل الله بما ينفع الناس ويعز الملة ويقوي الامة، ويكون عونا لها على حفظ حقيقتها واستقلالها - فهذه المسألة وما قبلها مما أكمل الله تعالى به الدين، مما أوحاه من كتابه إلى محمد رسول الله وخاتم النبيين، وما كان لرجل أمي ولا متعلم أن يصل بعقله الى أمثل هذا الاصلاح لتعاليم الكتب السماوية التي يتعبد بها الملايين من البشر، ولكتب الحكماء والفلاسفة أيضاً، فهل الاقرب إلى العقل أن يكون بوحي من الله عز وجل أم من نفس محمد (ص)

وعلى ذكر الفلاسفة أذكر شبهة لمقلدتهم على الفضائل وعمل الخير الدينية يلوكونها بألسنتهم ولا يعقلون فسادها، وهي أن الكمال البشري أن يعمل الانسان الخير لذاته أو لانه خير لا لعلة، ويعدون من أكبر العلل أن يعمله رجاء في ثواب الآخرة أو خوفا من عقابها، ومعنى هذا أن كانوا يفقهون ان من يقصد بعمل الخير والبر ما أرشد اليه الاسلام من تزكية نفسه وترقية روحه بحيث تكون راضية مرضية عند رب العالمين ذي الكمال المطلق الاعلى — وأهلا لجواره في دار كرامته يكون ناقصا، وانما يكون كاملا اذا خرج عن طبعه، وقصد النفع بعمله لغيره دون نفسه، ودون ارضاء ربه، ومن ذا الذي يحد حقيقة هذا الخير للبشر ويحملهم عليه ؟

وجملة القول أن أركان الدين الثلاثة مأثورة عن جميع الامم القديمة وذلك دليل على أن أصلها واحد وهو الوحي وهداية الرسل، وأنه كان قد دب اليها الفساد بتعاليم الوثنية وبدعها، فجاء محمد النبي الامي بهذا القرآن من عند الله تعالى فأصلح ما كان من فسادها الذي جعلها غير كافلة لسعادة البشر الآخذين بها، من شوب الايمان بالله بالشرك والتشبيه بالخلق، وجعل الجزاء بالمحاباة والفداء، لا بالحق والعدل، وجعل العبادات تقاليد كاللعب واللهو، غير مثمرة لتزكية النفس، ولا راجحة في ميزان العقل، وعبادات الاسلام وآدابه كلها معقولة مكملة لفطرة الانسان

وانما نقفي على هذا ببيان القرآن لما جهله البشر من أمر النبوة ووظائف الرسل. ثم نعود إلى بيان ما في وحي القرآن من قواعد الاصلاح العام الدائم للبشر الدال على كونه من عند الله لا من معارف محمد (ص) النابعة من نفسه

المقصد الثاني من مقاصد القرآن

﴿ بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل ﴾

كانت العرب تنكر الوحي والرسالة إلا أفرادا من بقايا الحنفاء في الحجاز وغيره ومن دخل في اليهودية والنصرانية لمجاورته لأهلها وقليل ماهم ، وكانت شبهة مشركي العرب وغيرهم على الوحي استبعاد اختصاص الله تعالى بعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم ، وهم متساوون في الصفات البشرية بزعمهم ، ويقرب منهم اليهود الذين أنكروا أن يختص تعالى بهذه الرحمة والمنة من يشاء من عباده وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة في شعب اسرائيل وحده ، كأن بقية البشر ليسوا من عباده الذين يستحقون من رحمته وفضله ما أعطاه لليهود من هداية النبوة . على أنهم وصفوا الانبياء بالكذب والخداع والاحتيال على الله ومصارعته وارتكاب كبائر المعاصي كما تقدم في القسم الاول من هذا البحث ، ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم ، وأثبتوا قداسة غير الانبياء من رسل المسيح وغيرهم وعبدوهم أيضاً ، على انهم نقلوا عن بعض خواص تلاميذه إنكاره إياه في وقت الشدة ، وعن بعضهم انه أسلمه لأعدائه ، وانه قال لهم « كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة » واتخذ كل من الفريقين أحبارهم ورهبانهم وقسوسهم أربابا من دون الله تعالى بأن نحلوهم حق التشريع الديني من وضع العبادات والتحليل والتحريم (١) وكل ذلك من الكفر بالله وانكار عدله ، وعموم رحمته وفضله ، ومفسدات نوع الانسان ، وجعل السواد الاعظم منه مستعبداً لافراد من أبناء جنسه ، فأبطل الله تعالى كل ذلك بما أنزله من كتابه على خاتم النبيين ، وأثبت بعثة الرسل والمنذرين لجميع شعوبه بقوله (١٦: ٣٦ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) وقوله (٣٥: ٢٤ إنا ارسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وان من أمة إلا خلا فيها نذير) وكرم الانسان بجعل التشريع الديني

(١) راجع تفصيل هذا في (ص ٢٦٣) من جزء التفسير العاشر

من حقوق الله وحده ، وانما النبيون والرسل مبلغون عنه وليسوا بمسيطرين على الاقوام ، وطاعتهم تابعة لطاعته فقد أبطل مانحلهم الناس من ربوبية التشريع ، كما أبطل عبادتهم وعبادة من دونهم من القديسين ، وبذلك تحرر الانسان من الرق الروحي والعقلي الذي منيت به الامم المتدينة ولاسيما النصارى

واضلال جميع أهل الملل والنحل في ذلك كرر هذا الاصلاح في كثير من السور بالتصريح بان الرسل بشر مثل سائر البشر يوحي اليهم ، وبانهم ليسوا إلا مبلغين لدين الله تعالى الموحى اليهم ، قال تعالى لخاتمهم المكمل لدينهم في خاتمة سورة الكهف (١٨ : ١١٠ قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما إلهكم إله واحد) الآية وقال في جماتهم من وسطها (٥٦ ومانرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) ومثلها في سورة الانعام (٦ : ٤٨) وفي معناها آيات أخرى – بعثهم مبشرين ومنذرين بالقول والعمل والتنفيذ ، وبانهم لا يملكون للناس ولا لانفسهم نفعا ولا ضرا ولا هداية ولا نجاة من العقاب على مخالفة شرع الله وسننه في خلقه في الدنيا ولا في الآخرة. وقد شرحنا ذلك في تفسير قوله تعالى (٧:١٨٧ قل لاأملك لنفسي نفعا ولاضرا الا ماشاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسني السوء . إن انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وسيأتي نظيرها في الآية ٤٩ من هذه السورة التي نفسرها ، وقد بين ذلك النبي ﷺ باقواله وأعماله وأخلاقه في العبودية والتواضع بما لايدع لتأويل الآيات سبيلا . حتى فطن لذلك بعض علماء الافرنج الاحرار فقال ان محمداً لما رأى خزي النصارى بتأليه نبيهم وعبادته لم يكتف بتلقيب نفسه برسول الله حتى أمرهم بان يقولوا « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله »

وأما مسألة الشفاعة التي كان مشركو العرب يثبتونها لمعبوداتهم في الدنيا وأهل الكتاب يثبتونها لأنبيائهم وقديسيهم في الدنيا والآخرة فقد نفاها القرآن وأبطلها وأثبت أن الشفاعة لله جميعا وانه لايشفع عنده أحد إلا باذنه (٢١ . ٢٨ يعلم

ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (٢٩) ومن يقل منهم اني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين) وقد فصلنا ذلك في تفسير سورة البقرة وغيره مرارا (ومنه ان الشفاعة الثابتة في الاحاديث غير الشفاعة الوثنية المنفية في القرآن) . وقد كرر هذه المسألة دون تكرار ما قبلها لانها فرع لها فالاقناع بها أسهل

فأنت ترى ان القرآن قد بين حقيقة هذه المسألة التي ضل فيها الملايين من البشر فأشركوا بالله مالا يضرهم ولا ينفعهم، فهل كان هذا مما استمده محمد صلى الله عليه وسلم من علماء أهل الكتاب فجادوا به عليه وبخلوا به على اقوامهم ؟ ام هو تابع من نفسه وهو يقتضي ان ما ينبع منها اعلى من وحي الله لغيره على حسب دعوى أتباع هؤلاء الرسل ؟ كلا إنما هي من وحي الله تعالى له

الايمان بجميع الرسل وعدم التفرقة بينهم

ومما بينه القرآن في مسألة الانبياء والرسل أنه يجب الايمان بجميع رسل الله تعالى وعدم التفرقة بينهم في الايمان، وان الايمان ببعضهم والكفر ببعض كالكفر بهم كلهم، لان اضافتهم الى الله تعالى وحده ووظيفتهم في ارشاد المكلفين تبليغ رسالته وشرعه واحدة . قال تعالى في خواتيم سورة البقرة (آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لا نفرق بين احد من رسله) وبين في سورة النساء أن التفرقة بينهم في الايمان هو الكفر حق الكفر ، وأن الايمان بالجميع بغير تفرقة هو الايمان حق الايمان وهو في الآيات (٤ : ١٥٠ ــ ١٥٢)

وهذا مبني على الايمان بان دين الله تعالى الذي ارسل به جميع رسله واحد في مقاصده من هداية البشر واصلاحهم وإعدادهم لسعادة الدنيا والآخرة، وانما تختلف صور العبادات والشرائع باختلاف استعداد الاقوام ومقتضيات الزمان والمكان . فالايمان ببعضهم دون بعض اتباع للهوى في الايمان وجهل بحقيقة الدين فلا يعتد به لانه عين الكفر

وقد انفرد بهذه الحقيقة العادلة المسلمون دون اهل الكتاب الذين لا يؤمنون إلا بانبياء بني اسرائيل وابيهم وجدهم على ما يذكرون في كتبهم من عيوب ومنكرات وفواحش يرمونهم بها

واما المسلمون فيؤمنون بان رب العالمين ارسل في كل الامم رسلا هادين مهديين يؤمنون بهم اجمالا وبما قصه القرآن عن بعضهم تفصيلا، فقد كرم الاسلام بهذا نوع الانسان، ومهد به السبيل للالفة والاخوة الانسانية العامة التي نبينها بعد

ومن المعلوم ببداهة العقل وبنص القرآن ان بعض الانبياء افضل من بعض بتخصيص الله تعالى وبما كان لكل من نفع العباد وهدايتهم وهي متفاوتة جدا. قال الله تعالى (٢:٢٥٢ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ،وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس)

ومن المعلوم بالدلائل العقلية والنقلية ان محمدا خاتم النبيين الذي اكمل الله به الدين، وارسله رحمة للعالمين،هو الذي رفعه الله عليهم كلهم درجات كما بيناه في تفسير تلك الآية بالاجمال وفصلناه في هذا البحث أقصد التفصيل

وانك لتجد مع هذا انه ﷺ قال لاتباعه « لا تفضلوا بين انبياء الله» قاله انكارا على رجل من المسلمين لطم يهوديا لانه قال :لاوالذي اصطفى موسى على البشر. فشكاه الى النبي ﷺ فغضب غضبا شديدا على صاحبه المسلم وقاله – وبين مزية لموسى عليهما الصلاة والسلام في الآخرة ثم قال«ولا اقول ان احدا افضل من يونس ابن متى» والحديث رواه الشيخان في الصحيحين. وفي روايات أخرى للبخاري «لا تخيروا بين الانبياء » وفي بعضها «لا تخيروني على موسى» والغرض من ذلك كله منع المسلمين من تنقيص احد من الانبياء عليهم السلام ومن التعادي بين الناس ومن الغلو فيه ﷺ والا فهو قد قال في تعليل نهيه عن سؤال أهل الكتاب عن شيء« والله لو كان موسى حيا بين اظهركم ما حل له الا أن يتبعني» رواه ابو يعلى من حديث جابر.

فصل فى الآيات الكونية التى ايد الله بها رسله

(ومايشبه بعضها من الكرامات، وما يشتبه بها من خوارق العادات، وضلال الماديين والخرافيين فيها)

تكلمنا في القسم الأول من هذا البحث في آيات الانبياء التي تسميها النصارى بالعجائب ويسميها علماء الكلام منا بالمعجزات ، ويعدونها قسما من خوارق العادات التي جعلوها عدة أقسام ، ونقول هنا كلمة وجيزة في إصلاح الاسلام لضلال البشر فيها ، والصعود بهم أعلى مراقي الايمان، اللائق بطور الرشد العقلي لنوع الانسان ، والعلم الواسع بسنن الاكوان ، الذي منحوه برسالة محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، فنقول :

آيات الله نوعان

آيات الله تعالى في خلقه نوعان : (النوع الأول) الآيات الجارية على سننه تعالى في نظام الخلق والتكوين وهي أكثرها وأظهرها وأدلها على كمال قدرته وارادته ، وإحاطة علمه وحكمته ، وسعة فضله ورحمته ، (والنوع الثاني) الآيات الجارية على خلاف السنن المعروفة للبشر وهي أقلها وربما كانت أدلها عند أكثر الناس على اختياره عز وجل في جميع ماخلق ومايخلق ، وكون قدرته ومشيئته غير مقيدتين بسنن الخلق التي قام بها نظام الكون، فالسنن مقتضى حكمته واتقانه لكل شيء خلقه، وقد يأتي بما يخالفها لحكمة أخرى من حكمه البالغة، ولولا هذا الاختيار لكان العالم كالآلات التي تتحرك بنظام دقيق لاعلم لها ولا إرادة ولا اختيار فيه ، كآلة الساعة الصغيرة التي تعرف بها أوقات الليل والنهار ، وآلات البواخر والمعامل الكبيرة ، والماديون المنكرون لوجود الخالق والفلاسفة الذين يسمونه العلة الفاعلة للوجود يعبرون عن هذا النظام بنظرية (الميكانيكية) وهم يتكلفون اختراع العلل

والاسباب لكل ما يرونه مخالفا لسننه المعروفة ، ويسمون هذه الامور المخالفة لها بفلتات الطبيعة ، ويقيسون ما لم يظهر لهم تعليله على ما قننوا بتعليل له وان لم يقم عليه دليل يثبته ، ويقولون ان ما لم يظهر لنا اليوم فلا بد أن يظهر لنا أو لمن بعدنا غداً

سنن الله في عالم الشهادة وعالم الغيب

ونحن معشر المؤمنين بعالم الغيب وما فيه من الملائكة وهم جند الله الاكبر ، وما لهم من التأثير والتدبير في عالم الشهادة المادي بإذن الله تعالى وتسخيره ، نعتقد أن لله تعالى سننا في نظام ذلك العالم غير سننه الخاصة بعالم المادة ، وان الانسان هو حلقة الاتصال بين العالمين بجسده ووظائفه الحيوية من عالم الشهادة وروحه من عالم الغيب ، وأنه ما دام في عالم الجسد المادي فان جميع مداركه تكون مشغولة من المادة وسننها وحاجاته الشخصية والنوعية منها بما يحجبه عن عالم الروح الغيبي حتى روحه المتمم لحقيقته ، وانما يكون الظهور والسلطان للروح على الجسد في الحياة الآخرة ، الا من اصطفى الله تعالى من رسله وأنبيائه فاعدهم بفضله ورحمته للاتصال بملائكته والتلقي عنهم ، وأظهرهم على ماشاء من غيبه ليبلغوا عباده عنه ما أمرهم به

الغيب قسمان حقيقي وإضافي

الغيب ما غاب علمه عن الناس وهو قسمان : غيب حقيقي لا يعلمه الا الله ، وغيب اضافي يعلمه بعض الخلق دون بعض لاسباب تختلف باختلاف الاستعداد الفطري والعمل الكسبي ، ومن أظهره الله على بعض الغيب الحقيقي من رسله فليس لهم في ذلك كسب لأنه من خصائص النبوة غير المكتسبة (١)

ومن دونهم أفراد من خواص أتباعهم أوتوا نصيباً من الاشراف على ذلك العالم بانكشاف ما الحجاب ، وإدراك ما لشيء من تلك الانوار ، كان بها ايمانهم برسلهم فوق إيمان أهل البرهان ، وقد روي عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه أنه قال : لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا

(١) يراجع تحقيق هذا الموضوع بالتفصيل في الصفحة ٤٢١ و ٤٥٦-٤٦٩ من جزء التفسير السابع وملخصه في ص ٥١٣ من الجزء التاسع

ومن دون هؤلاء أفراد آخرون قد يكون لهم من سلامة الفطرة ، أو معالجة النفس بانواع من الرياضة ، أو من طروء مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد ، أو من سلطان ارادة قوية على إرادة ضعيفة ، تصرفها عن حسها ، وتوجه قواها النفسية الى ماشاءت أن تدركه لقوتها الخاصة بها — قد يكون لهؤلاء الافراد في بعض الاحوال من قوة الروح مايلمحون به بعض الاشياء او الاشخاص البعيدة عنهم ، وتتمثل لهم بعض الأمور قبل وقوعها مرتسمة في خيالهم ، فيخبرون بها فتقع كما أخبروا

الخوارق الحقيقية والصورية عند الامم

ان الامور التي تأتي في الظاهر على غير السنن المعروفة ، أو الخارقة للعادات المألوفة ، منقولة عن جميع الامم في جميع العصور نقلا متواتراً في جنسه دون افراد وقائعه ، وليست كلها خوارق حقيقية ، فان منها ماله أسباب مجهولة للجمهور ، وان منها لما هو صناعي يستفاد بتعليم خاص ، وان منها لما هو من خصائص قوى النفس وتأثير أقوياء الارادة في ضعفائها ، ويدخل في هذين المكاشفة في بعض الامور والتنويم المغناطيسي ، وشفاء بعض المرضى ولا سيما المصابين بالأمراض العصبية التي يؤثر فيها الاعتقاد والوهم ، ومنها بعض أنواع العمى والفالج ، فان من الناس من يفقد بصره بمرض يطرأ على أعصاب عينيه وهما صحيحتان تلمعان في وجهه ، أو يغشاهما بياض عارض مع بقاء طبقاتهما صحيحة ، وليس منه الكمه والعمى الذي يقع بطمس العينين وغؤورهما كالذي أبرأه المسيح عليه السلام باذن الله تعالى . وقد بينا هذه الانواع من الخوارق الصورية في بحث السحر من تفسير سورة الاعراف (١) وفي المقالات التي عقدناها للكرامات وأنواعها وتعليلها في المجلد الثاني من المنار وأتممناها في المجلد السادس منه

إن عوام الشعوب الذين يجهلون تواريخ الامم وماوجد عند كل منها من هذه الغرائب وما كشفه العلماء من حيل فيها وعلل يغترون بما عندهم منها ، ويخضعون

(١) راجع ص ٤٥ — ٦٠ ج ٩ من تفسير المنار

للدجالين والمحتالين الذين ينتحلونها ، ويمكنونهم من أموالهم فيسلبونها ، ويأتمنونهم على أعراضهم فينتهكونها ، ولاسيما إذا كانوا يأتون ما يأتون منها على أنه من كرامات الاولياء وعجائب القديسين ، ويقل تصديق هذا والانقياد لأهله حيث ينتشر تعليم التواريخ وما عند جميع الامم من ذلك ، على أنه لا يزال كثيراً في جميع بلاد أوربة وأمريكة ولعله دون ما في بلاد الشرق ولاسيما القرى وهمج الزنوج وغيرهم

بيد أن آيات الله الحقيقية التي نسميها المعجزات هي فوق هذه الاعمال الصناعية الغريبة لا كسب لأحد من البشر ولاصنع لهم فيها ، وإن ما أيد به رسله منها لم يكن بكسبهم ولا علمهم ولا تأثيرهم ، حتى ما يكون بدؤه بحركة إرادية بأمرهم الله تعالى بها . ألم يهد لك كيف خاف موسى عليه السلام حين تحولت عصاه حية تسعى ، فولى مدبرا ولم يعقب لشدة خوفه منها ، حتى هدأ الله روعه وأمن خوفه ؟ أولم تقرأ قوله لمحمد ﷺ (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ؟) أو لم تفهم ما أمره الله تعالى أن يجيب مقترحي الآيات عليه من قومه بقوله (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) وقوله (قل إنما الآيات عند الله) وما في معناهما

جهل هذا الاصل المحكم من عقائد الاسلام أدعياء العلم من سدنة القبور المعبودة وغيرهم فظنوا أن المعجزات والكرامات أمور كسبية كالصناعات العادية ، وان الانبياء والصالحين يفعلونها باختيارهم في حياتهم وبعد مماتهم متى شاؤا ، ويغرون الناس باتيان قبورهم ولو بشد الرحال اليها لدعائهم والاستغاثة بهم عند نزول البلاء والشدائد التي يعجزون عن دفعها بكسبهم وكسب أمثالهم من البشر بالاسباب العادية كالأطباء مثلا ، وبالتقرب اليهم بالنذور والقرابين كما كان المشركون يتقربون الى آلهتهم من الاصنام وغيرها ، وهم يأكلونها سحتاً حراما ، ويخبرونهم بان دين الله تعالى يأمرهم أن يعتقدوا أنهم يقضون حوائجهم ، حتى قال بعضهم انهم يخرجون من قبورهم باجسادهم ويتولون قضاء الحاجات ، وكشف الكربات ، ولو كانت كذلك لما كانت من خوارق العادات . وقال بعضهم في كتاب مطبوع ان فلانا من الاقطاب يميت ويحيي ، ويسعد ويشقي ، ويفقر ويغني

الفرق بين المعجزة والكرامة

ان الله تعالى لم يؤيد رسله بما أيدهم به من المعجزات الا لتكون حجة لهم على أقوامهم يهدي بها المستعد للهداية ، وتحق بها الكلمة على الجاحدين المعاندين فتقع عليهم العقوبة ، وذلك لايكون إلا باظهارها فهو واجب لاتمام تبليغ الدعوة التي أرسلوا لتبليغها ، وما كان الانبياء يدعون الله تعالى بشيء من خوارق العادات غير حجة الرسالة إلا لضرورة كالاستسقاء ، وكان خاتمهم وأكرمهم على الله تعالى يصبر هو وأهل بيته وأصحابه على المرض والجوع والعطش ولايدعو لهم ﷺ بما يزيل ذلك الا نادراً ، وقد سألته المرأة التي كانت تصرع أن يدعو الله لها بالشفاء فأرشدها إلى أن الصبر على مصيبتها خير لها . فشكت اليه أنها تتكشف عند النوبة وأن يدعو لها ألا تتكشف فدعا لها واستجاب الله دعاءه

والأصل في الكرامة الاخفاء والكتمان ، وكثيراً مايكون ظهورها فتنة للناس ، وما كان أهلها يظهرون مالهم كسب فيه منها كالمكاشفة إلا لضرورة ، وقد صرح بهذا العلماء والصوفية فهو متفق عليه بينهم خلافا للمشهور بين العامة

قال التاج السبكي في سياق حجج منكري جواز وقوع الكرامات من طبقات الشافعية

(الحجة الثانية) قالوا لو جازت الكرامة لاشتبهت بالمعجزة ، فلا تدل المعجزة على ثبوت النبوة . والجواب منع الاشتباه بقرن المعجزة بدعوى النبوة دون الكرامة فهي انما تقترن بكمال اتباع النبي من الولي – وأيضا فالمعجزة يجب على صاحبها الاشتهار والكرامة مبناها على الاخفاء ، ولا تظهر إلا على الندرة والخصوص ، لاعلى الكثرة والعموم ، وأيضا فالمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات ، والكرامة تختص ببعضها كما بيناه من كلام القشيري وهو الصحيح اه ثم قال

(الحجة الرابعة) قالوا لوجاز ظهور خوارق العادات على أيدي الصالحين لما أمكن أن يستدل على نبوة الانبياء بظهورها على أيديهم لجواز أن تظهر على يد الولي سراً فان من أصول معظم جماعتكم أن الاولياء لايظهرون الكرامات ولا يدعون بها ، وإنما تظهر سراً وراء ستور ، ويتخصص بالاطلاع عليها آحاد الناس ،

ويكون ظهورها سراً مستمراً بحيث لا يلتحق بحكم المعتاد ، فاذا ظهر نبي وتحدى بمعجزة جاز أن تكون مما اعتاده أولياء عصره من الكرامات فلا يتحقق في حقه خرق العادة، فكيف السبيل إلى تصديقه مع عدم تحقق خرق العوائد في حقه ؟ وأيضا تكرر الكرامة يلحقها بالمعتاد في حق الاولياء وذلك يصدهم عن تصحيح النظر في المعجزة اذا ظهر نبي في زمنهم »

وقال في الجواب : لأئمتنا وجهان الاول منع توالي الكرامات واستمرارها حتى تصير في حكم العوائد وإنما يجوز ظهورها على وجه لا تصير عادة فلا يلزم ماذكروه . والثاني — وهو لمعظم أئمتنا — قالوا انه يجوز توالي الكرامات على وجه الاختفاء بحيث لا يظهر ولا يشيع ولا يعتاد لئلا تخرج الكرامات عن كونها كرامات اه من مجلد المنار الثاني

وأقول إن المحققين من الصوفية يوافقون علماء الكلام والاصول على منع توالي الكرامات وتكرارها ، ومنع اظهارها ، وقال الشيخ محيي الدين بن عربي ان مايتكرر لايكون كرامة لانه يكون عادة وإنما الكرامة من خوارق العادات، وقال الشيخ أحمد الرفاعي ان الاولياء يستترون من الكرامة كما تستتر المرأة من دم الحيض ، فأين هذه الاقوال مما عليه الدجالون الخرافيون وسدنة القبور المعتقدة من زعمهم أن الكرامة الواحدة تتكرر لاولياء كثيرين من الاحياء والاموات مرارا كثيرة وكلها ظاهرة ذائعة شائعة ، بل صناعة ذات بضاعة رابحة ؟

الكافرون بالآيات صنفان: مكذبون ومشركون وعلاج كل منها

الكافرون بآيات الله تعالى صنفان : صنف يكذبها كلها ولا يؤمنون بشيء منها ، وصنف يشرك بالله غيره فيها، فينحله ما هو خاص به عز وجل لا يقدر عليه سواه، ويشرع للناس أن يعبدوا هؤلاء الاغيار بدعائهم من دونه واستغاثتهم فيما لا يقدر عليه غيره ، بدعوى أن الله تعالى هو الذي أعطاهم القدرة الغيبية على ذلك لمحبته لهم وجاههم عنده، ومعناه انه سبحانه هو الذي أشركهم معه فأعطاهم هذا التصرف في عباده، وانما يتحامون ألفاظ العبادة والشرك والخلق دون معانيها ، فيكذبون على الله تعالى وعليهم بما يكذبهم به كتابه المنزل ، ونبيه المرسل ، ولكنهم يحرفون

آيات الكتاب فيحتجون بها على جهلهم ، فيذكرون ان الله كان يرزق مريم عليها السلام بغير حساب ، وما كان رزقها من فعلها ، ولايدري أحد كيف سخره الله لها ، وروي انه كان بتسخير بعض الناس لها ، ووحيه إلى أم موسى وما هو من فعلها . وقد قيل بنبوتها

وان افساد هؤلاء الخرافيين للبشر في دينهم ودنياهم لاشد من إفساد المنكرين للآيات المكذبين بها، بأنهم أكبر أسباب هذا الانكار والتكذيب بزعمهم أن الانبياء ومن دونهم من الصالحين يتصرفون في الخلق بما يخالف سنن الله تعالى فيه أو يبدلها بغيرها ويحولها عما وضعت له، وزعمهم أن الله هو الذي دعا الناس إلى هذا الاعتقاد وجعله أساس دينه، فكذبوا بالدين من أساسه ، فتكون فتنتهم شاملة لفريقي الكفار بالآيات – فريق المكذبين وفريق المشركين، وهو مع هذا قول على الله بغير علم ، وافتراء على الله بكونه شرعاً لم يأذن به الله ، وهو أشد انواع الكفر بالله ، لان ضرره متعد بما فيه من إضلال الناس باعتقاد باطل يتبعه عبادة باطلة غير مشروعة (١)

علاج خرافة تصرف الاولياء في الكون

أما الذين يشركون بالله في عبادته بجهلهم لآياته وتقليد أمثالهم من الجاهلين في خرافاتهم ، فلا علاج لهم إلا تعليمهم توحيد الله الخالص في ربوبيته وألوهيته بآيات القرآن، دون نظريات كتب الكلام ، وتعليمهم وظائف الرسل وكونهم بشراً اختصهم الله تعالى بوحيه لتبليغ عباده ما ارتضاه لهم من الدين بالقول والعمل، وحصر اختصاصهم بالتعليم والارشاد تبشيراً وانذاراً ، وتنفيذ أحكام شرعه فيهم بالعدل والمساواة، ولم يؤتهم من التصرف الفعلي في خلقه ما يقدرون به على هداية أقرب الناس وأحبهم اليهم بالطبع كالوالد والولد والزوجة ومن دونهم من أولي القربى ، فوالد ابراهيم الخليل عاش كافراً ومات كافراً عدوا لله ورسوله وخليله ، وولد نوح أول الرسل إلى الامم مات كافراً ولم يأذن الله تعالى له بحمله في السفينة فكان من الكافرين المغرقين ، وكان ابو لهب عم محمد حبيب الله ورسوله أشد أعدائه الصادين عنه المؤذين له ، وأنزل الله في ذمه ووعيده سورة من القرآن يتعبد بها

(١) راجع تحقيق هذا المعنى في ص ٣٩٧–٤٠١ ج ٩ من التفسير

المؤمنون إلى يوم القيامة لم ينزل مثلها في أحد من أعدائه وأعداء رسوله ﷺ بل كان من كمال حكمة الله تعالى أن عمه الذي كفله ورباه وكف عنه أذى المشركين ما استطاع لم يؤمن به وقد عرض عليه أن ينطق بكلمة « لا إله إلا الله » ليشهد له بها يوم القيامة فامتنع فأنزل الله تعالى فيه (انك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) رواه مسلم في صحيحه ، وقد شرحنا هذا الموضوع في تفسير قوله تعالى (٦ : ٧٤ وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر) الآيات (١) ثم بينا في خلاصة هذه السورة (الانعام) وظائف الرسل عليهم السلام بما يحسن أن يراجعه من يحب استيفاء هذا الموضوع (٢) وإذا كان الانبياء المرسلون لم يؤتوا القدرة على التصرف في الكون فكيف يؤتاه الاولياء وغيرهم

المنكرون للمعجزات وشبهة الخوارق الكسبية عليها

وأما المنكرون لها فلا يمكن أن تقوم عليهم الحجة إلا بالقرآن كما تقدم ، فهم لا يصدقون ما ينقله اليهود والنصارى من آيات موسى وعيسى وغيرهما من النبيين (ع • م) ولا يسلمون صحة تواترها ، إذ يقيسون نقلهم لها على ما ينقله العوام في كل عصر عن بعض المعتقدين في بلادهم من الخوارق الخادعة التي مثارها الوهم والتخييل ، ويحتجون على ذلك بان يوسيفوس المؤرخ اليهودي المعاصر للمسيح (ع.م) لم ينقل للناس أخبار عجائبه التي تقصها الاناجيل التي ألفت بعده ، ويعللونها على تقدير صحة النقل بما يعللون به الخوارق الصورية التي يشاهدونها في كل عصر ، فان لم يستطيعوا تعليلها قالوا انه لابد لها من سبب كسبي يظهر لنا أو يعترف به فاعلوها كما وقع في أمثالها من صوفية الهندوس (الفقراء) كالارتفاع في الهواء وغير ذلك مما هو أغرب منه

روت إحدى الجرائد المصرية في هذه الايام (٣) من أخبار سائحي الافرنج في الهند حادثة لفقير من هؤلاء الفقراء اسمه سارجو هارديا سوقعت في سنة ١٨٢٧ خلاصتها أن هذا الفقير جاء قصر المهراجا رانجيت سنجا أمير بنجاب وعرض

(١) ص ٥٣٤ – ٥٦٥ ج ٧ تفسير (٢) ص ٢٧٥ – ٥٧٨ ج ٨ تفسير
(٣) هي جريدة الاتحاد

عليه أن يريه بعض كراماته، وكان المهراجا لا يصدق ما ينقل من خوارق هؤلاء الفقراء فسأله عما يريد اظهاره فقال انه يدفن أربعين يوما ثم يعود اليهم حياً ، فاحضر المهراجا نفراً من أطباء الانكليز والفرنسيس وأمراء بنجاب فجلس الفقير القرفصاء أمامهم فكفنوه بعد أن وضعوا القطن والشمع على أذنيه وأنفه — كما أوصاهم — وخاطوا عليه الكفن ووضعوه في صندوق من الخشب السميك وسمروا غطاءه ووضع المهراجا عليه ختمه ، ودفنوه في قبو داخل حجرة صغيرة في حديقة القصر وأقفلوا بابهـا ووضع المهراجا ختمه بالشمع على قفلهـا ، وأمر اثنين من رجال حرسه الامناء بحراستها وطائفة من جنده بمعاونتهما، وكان ذلك كله بمشهد من حضر من الاوربيين والبنجابيين وحاشية المهراجا .

ولما تمت الاربعون حضر هؤلاء كلهم قصر المهراجا وشاهدوا ختم الحجرة كما كان ، والعشب أمامها في الحديقة لم تطأه قدم أحد ، ثم فتحوا باب الحجرة وامتحنوا أختام القبو ثم أخرجوا الصندوق وامتحنوا أختامه فوجدوها كلها على حالها ففتحوه وأخرجوا الفقير منه فاذا هو كما وصفه أحد أولئك من الانجليز . قال :

لما فتحوا الصندوق وأخرجوا الفقير منه وجدت الذراعين والساقين صلبة والرأس مائلا على إحدى الكتفين فخلتني أمام جثة هامدة فارقتها الحياة منذ امد بعيد، فطلبت من طبيبي أن يفحصها فانحنى عليها وجس القلب والصدغين والذراعين وقال انه لم يجد أثراً للنبض البتة ولكنه شعر بحرارة في منطقة الدماغ الخ

ثم نفذ ما أوصى الفقير أن يعمل بعد اخراجه فغسل الجسم بالمـاء الحار فرد على الاوصال لينها السابق بالتدريج، وأزيل القطن والشمع عن الاذنين والانف ووضعت أكياس دافئة على الرأس فدبت الحيـاة في الجسد المسجى، وتقلصت الاعصاب والاطراف ثم اضطربت فسال منها عرق غزير وعادت الاعضاء إلى حالتها الاولى، وبعد دقائق اتسعت حدقتا العينين وعاد اليهما لونهما الطبيعي، فلما رأى الفقير المهراجا شاخصاً اليه دهشا متحيراً قال له « أرأيت يامولاي صدق قولي وفعلي ؟ وبعد نصف ساعة خرج من التابوت وأنشأ يحدث الحاضرين أحسن حديث ويطرفهم بما يحير العقول . اه

إن هذه الحادثة من آيات الله التي أظهرتها الرياضة المكتسبة ، وهي أعجب من رواية الانجيل لموت ليعازر ثم حياته بدعاء المسيح بعد أربعة أيام كما تقدم في بحث عجائبه (ع.م) وأغرب من حادثة أصحاب الكهف أيضا من بعض الوجوه فان الفقير الهندي قد سد أنفه ولف في كفن ووضع في تابوت دفن تحت الارض فحيل بينه وبين الهواء الذي لا يعيش أحد بدونه عادة ، وأهل الكهف ناموا في فجوة واسعة من كهف بابه إلى الشمال مهب الهواء اللطيف وكانت الشمس تصيب مدخله من جانبيه عند شروقها وعند غروبها مائلة متزاورة عنهم ، فتلطف هواءه من حيث لا تصيبهم ، وانما كان أكبر الغرابة في نومهم طول مدة لبثهم فيه ، وكانت طويلة جداً حتى على نقل البيضاوي وغيره من المفسرين ان قوله تعالى (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين) الآية حكاية عن بعض المختلفين في أمرهم فان كان خلاف ظاهر السياق فقد يقويه قوله تعالى في الآية بعدها (قل الله أعلم بما لبثوا) والله أعلم بكل حال على كل حال ، وإن خفي سر آياته على خلقه ولا شيء من الامرين بمحال . وقد نام بعض أهل العصر بمرض النوم عدة أشهر .

ولكن ماجرى للفقير الهندي مخالف لسنة الحياة العامة في الناس فاذا ثبت أنه وقع بطريقة كسبية من طرائق رياضة هؤلاء الصوفية لابدانهم وأنفسهم بما تبقى به الحياة كامنة في أجسادهم مثل هذه المدة الطويلة مع انتفاء أسبابها العامة في أحوال الناس الاعتيادية من دورة الدم والنفس وغير ذلك ، فلا وجه لاتخاذ أحد من العقلاء انكار كل ما يخالف السنن العامة قاعدة عامة ، ولا سيما فعل الخالق عز وجل لها وهو خالق كل شيء بقدرته ، وواضع نظام السنن والاسباب بمشيئته ، وأكثر منكري الخوارق يؤمنون به ، وانما ينكرون وقوع شيء مخالف لسننه بانه مناف لحكمته ، ومن ذا الذي أحاط بحكمه أو بسننه علما ؟ وانما الذي يقضي به العقل أن لا نصدق بوقوع شيء على خلاف السنن الثابتة المطردة في نظام الاسباب العامة إلا اذا ثبت ثبوتاً قطعياً لا يحتمل التأويل ؛ وهذا هو المعتمد عند المحققين من المسلمين وعلماء المادة وعلماء النفس وغيرهم ، وقد ثبت في هذا العصر من خواص

الكهرباء وغيرها مالو قيل لعقلاء الناس وحكمائهم قبل ثبوته بالفعل إنه من الممكنات ، لحكموا على مدعي امكانه بالجنون لا بتصديق الخرافات ، كما قلنا من قبل

الفرق بين الخوارق الكسبية والحقيقية

وجملة القول ان أسرار هذا الكون لا يحيط بها إلا خالقه عز وجل - وانه قد وجد في كل عصر وقائع غريبة تعد من هذه الاسرار الجارية على غير نظام السنن الالهية في الخلق، بحسب مايتراءى للجمهور بادي الرأي ، وان ما يتناقله الجمهور المولع بالغرائب منها منه ماهو كذب محض ، ومنه ماله أسباب علمية او صناعية خفية يجهلها الاكثرون ، ومنه مايظن انه من خوارق العادات وليس منها ، ومنه ماسببه الوهم كشفاء بعض الامراض ، أو انخداع البصر بالتخييل الذي يحذقه المشعوذون، ومنه مافعله سحرة فرعون المبين بقوله تعالى (فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى) ومنه انخداع السمع كالذي يفعله الذين يدعون استخدام الجن إذ يتكلمون ليلا بأصوات غريبة غير أصواتهم المعتادة فيظن مصدقهم ان ذلك صوت الجني، وقد يتكلمون نهاراً من بطونهم من غير أن يحركوا شفاههم، فلا يوثق بشيء من أخبارهم ولا من نقلهم — ومن الدلائل على كذب المنتحلين لهذه الغرائب انهم جعلوها وسيلة لمعايشهم الدنيئة ، وانهم لو كانوا صادقين فيها لتنافس الملوك وكبار علماء الكون في صحبتهم والاهتداء بهم

المعجزات قسمان : تكوينية وروحانية تشبه الكسبية

المعجزات كلها من الله تعالى لا من كسب الانبياء كما نطق به القرآن ولكنها بحسب مظهرها قسمان : قسم لا يعرف له سنة إلهية يجري عليها فهو يشبه الاحكام الاستثنائية في قوانين الحكومات أو ما يكون بارادة سنية من الملوك لمصلحة خاصة - ولله المثل الاعلى - وقسم يقع بسنة إلهية روحانية لا مادية .

أما المأثور من آيات الله التي أيد بها موسى (ع م) وأثبتها القرآن له كالآيات التسع بمصر فهي من القسم الاول، ولم يكن شيء منها بكسب له حقيقي ولا صوري، وكذلك الآيات الاخرى التي ظهرت في أثناء خروجه ببني اسرائيل ومدة التيه ،

بل كل ذلك كان بفعل الله تعالى بدون سبب كسبي لموسى (ع . م) إلا ما يأمره الله تعالى به من ضرب البحر أو الحجر بعصاه التي هي آيته الكبرى . ولم يرد لاحد من الانبياء آية كهذه الآيات فضلا عن دونهم، ولا هي مما يحتمل أن يكون بسبب من الاسباب التي تكون لاحد من الناس بالرياضة الروحية أو خواص المادة وقواها

وأما المسيح (ع.م) فالآيات التي أيده الله تعالى بها ـ على كونها خارقة للعادات الكسبية وعلى خلاف السنن المعروفة للناس ـ قد يظهر فيها انها كلها او جلها حدث على سنة الله في عالم الارواح كما كان خلقه كذلك ، فقد حملت أمه به بنفخة من روح الله عز وجل فيها ــ وهو الملك جبريل عليه السلام ــ كانت سبب علوقها به بفعلها في الرحم ما يفعل تلقيح الرجل بقدرة الله عز وجل . فلا غرو أن كانت مظاهر آياته أعظم من مظاهر سائر الروحيين من الانبياء والاولياء كالكشف وشفاء بعض المرضى وغير ذلك من التأثير في المادة الذي اشتهر عن كثير منهم . والفرق بينه وبين الروحانيين من صوفية الهنود والمسلمين أن روحانيته عليه السلام أقوى وأكمل، وانها لم تكن بعمل كسبي منه بل من اصل خلق الله عز وجل له بآية منه كما قال (٢١ : ٩١ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين * ٢٣ : ٥٠ وجعلنا ابن مريم وأمه آية) فآيتهما هي الحمل به وخلقه بنفخ الروح الالهي، لا بسبب التلقيح البشري ولا بما قيل من احتمال وجود مادتي الذكورة والانوثة في رحمها

وأعظم آياته الروحانية التي أثبتها له التنزيل ولم ينقلها مؤلفو الاناجيل الاربعة (وروي أنها منصوصة في انجيل الطفولية الذي نبذته المجامع الكنسية قبل البعثة المحمدية ففقد من العالم) هي أنه كان يأخذ قطعة من الطين فيجعلها بهيئة طير فينفخ فيه أي من روحه فيكون طيراً باذن الله تعالى ومشيئته . والمروي أنه كان يطير قليلا ويقع ميتاً . ودون هذا إحياء الميت الصحيح الجسم القريب العهد بالحياة فان توجيه سيال روحه القوي إلى جثة الميت مع توجيه قلبه إلى الله عز وجل ودعائه كان يكون سبباً روحانيا لاعادة روحه اليه باذن الله ومشيئته ، كما يمس النور ذبال السراج المنطفيء فتشتعل أو كما يتصل السلك الحامل للكهربائية الايجابية بالسلك الحامل للكهربائية السلبية بعد انقطاعها فيتألق النور منها . وقد ثبت عن بعض اطباء هذا العصر إعادة الحياة

الحيوانية الى فاقدها عقب فقدها بعملية جراحية أو معالجة للقلب

ومن دون هذا وذاك شفاء بعض الامراض ولا سيما العصبية سواء كان سببها مس الشيطان وتلبسه بالمجنون كما في الاناجيل أم غيره ، فان الشيطان روح خبيث لا يستطيع البقاء مع توجه الروح الطاهر الذي هو شعلة من روح القدس جبريل عليه السلام واتصاله بمن تلبس به، وقد وقع مثل هذا لشيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من الروحانيين وما من مرض عصبي أو غيره إلا وهو ضعف في الحياة حقيق بأن يزول باتصال هذا الروح بالمصاب به لأنه أعظم أسباب الحياة والقوة

ومن دون هذا وذاك المكاشفات المعبر عنها فيما حكاه تعالى عنه بقوله (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) وقد أنبأ غيره من أنبياء بني اسرائيل وغيرهم بما هو أعظم من هذا من الامور المستقبلة ، وكذا غيرهم من الروحانيين ولاسيما صالحي أمة محمد ﷺ ولكنها درجات متفاوتة في القوة والضعف ، وطول المدة وقصرها ، والثقة بالمرئي وعدمها ، وإدراك الحاضر الموجود ، والغائب المفقود ، وما كان في الازمنة الماضية ، وما يأتي في الازمنة المستقبلة ، فأعلاها خاص بالانبياء إذ لم يوجد ولن يوجد بشر يعلم بالكشف ما وقع منذ القرون الاولى كأخبار القرآن عن الرسل الاولين مع أقوامهم ، أو ما يقع بعد سنين في المستقبل كأخباره عن عود الكرة للروم على الفرس ، وأخباره ﷺ بفتح الامصار واتباع الامم لامته ، ثم بتداعيهم عليها ومن المكاشفات الثابتة في هذا العصر ما يسمونه قراءة الافكار وقد شاهدنا من فعله ، ومنها مراسلة الافكار

فتبين بهذا وذاك أن آيات الله تعالى المشهورة لموسى (ع م) بمحض قدرته تعالى دون سنة من سننه الظاهرة في قواه الروحية ، وأن آياته لعيسى (ع.م) بخلاف ذلك . والنوع الاول أدل على قدرة الله تعالى ومشيئته واختياره في أفعاله في نظر البشر لبعدها عن نظام الاسباب والمسببات التي تجري عليها أفعالهم

عبادة بعض الناس للمسيح وللاولياء دون موسى

وانما عبد بعض البشر عيسى واتخذوه إلها ولم يعبدوا موسى كذلك وآياته أعظم لأنهم جهلوا أن آيات عيسى جارية على سنن روحية عامة قد يشاركه فيها غيره فظنوا

أنه يفعلها بمحض قدرته التي هي عين قدرة الخالق سبحانه لحلوله فيه واتحاده به بزعمهم ، وآيات موسى بمحض قدرة الله وحده ، ولم يفطنوا لاتباع عيسى لموسى في شرعه (التوراة) إلا قليلا مما نسخه الله على لسانه من إحلال بعض ماحرم عليهم بظلمهم عقوبة لهم ، ومن تحريم ماكانوا عليه من الغلو في عبادة المال والشهوات

ومثل النصارى في هذا من يفتنون من المسلمين بعبادة الصالحين بدعائهم في الشدائد لاعتقادهم أنهم يدفعون عنهم الضر ويجلبون لهم النفع بالتصرف الغيبي الخارج عن سنن الله في الاسباب والمسببات الداخل عندهم في باب الكرامات ، وهو خاص بالرب تعالى ، ولكنهم لايطلقون على أحد منهم اسم الرب ولا الاله ولا الخالق ، إذ الاسماء اصطلاحية ، وانما الفرقان بين الخالق والمخلوق والرب والمربوب أن الرب الخالق هو القادر على النفع والضر لمن شاء وصرفهما عمن شاء بما يسخره من الاسباب وبدونها ان شاء — وان المخلوق المربوب هو المقيد في أفعاله الكسبية الاختيارية في النفع والضر بسنن الله تعالى في الاسباب والمسببات التي سخرها تعالى لجميع خلقه ، ولكنهم يتفاوتون في العلم والعمل بها كما يتفاوتون في الاستعداد لها بقوى العقل والحواس والاعضاء وفي وسائلها ، وقد بلغ البشر بالعلم والعمل الكسبيين من المنافع ودفع المضار مالم يعهد مثله لاحد من خلق الله قبلهم لا الانبياء ولا غيرهم ، لان الانبياء المرسلين لم يبعثوا لهذا وإنما بعثوا لهداية الناس الى معرفة الله وعبادته وتهذيب أخلاقهم بها . فمنافع الدنيا لا تطلب منهم أحياء ولا أمواتا ، وانما تطلب من أسبابها . وماوراء الاسباب لايقدر عليه إلا الله عز وجل . وقد قتل الظالمون بعض الانبياء والاولياء ، وآذوا بعضهم بضروب من الايذاء ، ولم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم . ولذلك تكرر في القرآن الحكيم نفي هذا النفع والضر عن كل ماعبد ومن عبد من دون الله بالذات أو بالشفاعة عند الله تعالى كما قال (١٠ : ١٨ ويعبدون من دون ما لايضرهم ولا ينفعهم ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله) الآية ومثلها آيات ، وأمر خاتم رسله أن يعلم الناس ذلك كما فعل من قبله من الرسل فقال (٧ : ١٨٨ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً الا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وقال

﴿ قل اني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ﴾ الآيات . وقد فصلنا هذه المسألة مراراً ونلخص الموضوع هنا في المسائل الآتية :

(١) ان الله تعالى قد أتقن كل شيء خلقه فجمله بإحكام ونظام لا تفاوت فيه ولا اختلال ، وسنن مطردة ربط فيها الاسباب بالمسببات . فمخلوقاته العليا والسفلى ، هي مظهر أسمائه وصفاته العلى . ولهذا قال حجة الاسلام الغزالي : ليس في الامكان أبدع مما كان . وهذا النظام المطرد في الاكوان ، الثابت بالحس والعقل ونصوص القرآن ـ هو البرهان الاعظم على وحدانية خالق السموات والارض ﴿ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ﴾

(٢) إن سنن الله تعالى في إبداع خلقه ونظام الحركة والسكون والتحليل والتركيب فيه لا يحيط بها علماً غيره عز وجل . وكلما ازداد البشر فيها نظراً وتفكراً واختباراً وتدبراً وتجربة وتصرفا ظهر لهم من أسرارها وعجائبها ما لم يكونوا يعلمون ولا يظنون ، ومن منافعها مالم يكونوا يتخيلون ولا يتوهمون ، وها نحن أولاء نرى مراكبهم الهوائيـة من تجارية وحربيـة تحلق في الجواء ، حتى تكاد تتجاوز محيط الهواء ، ومراكبهم البحرية تغوص في لجج البحار ، ونراهم يتخاطبون من مختلف الاقطار ، كما نطق الوحي بتخاطب أهل الجنة مع أهل النار ، فيسمع أهل المشرق أصوات أهل المغرب ، وأهل الجنوب حديث أهل الشمال وخطبهم وأغانيهم ، قبل أن يسمعها بعض أهل البلد أو المكان الذي يصدر عنه الكلام(*) وقد يغمز أحـدهم زراً كهربائياً في قارة أوربة فتتحرك بغمزته آلات عظيمة في قارة أخرى في طرفة عين ، وبينهما المهامه الفيح ، والجبـال الشاهقة ، ومن دونهما البحار الواسعة ، والجاهلون بهذه السنن الالهية ، والعلوم العملية ، لا يزالون يلجئون في طلب المنافع ودفع المضار من غـير طريق الاسباب ـ التي ضيق الجهل عليهم سبلها ـ إلى قبور الموتى من الصالحين المعروفين والمجهولين ، ليقضوا لهم حاجهم ، ويشفوا

(*) روي لنا ان آلة الراديو الناقلة للاصوات من أوربة يصل الكلام الذي تحمله إلى مصر وغيرها فتعكسه الآلات التي فيها ويسمعه أهلها قبل أن يسمعه من في الصفوف الخلفية من المكان الذي ألقي فيه

مرضاهم ، ويعينوهم على أعدائهم من زوج وقريب وجار ووطني ، وأعداؤهم من الاجانب قد سادوا حكومتهم ، واستذلوا أمتهم ، واستأثروا بجل ثروتهم ، ولا يتصرف فيهم هؤلاء الاولياء بما يدفع عن المسلمين ضررهم وتحكمهم

(٣) ان الاصل في كل مايحدث في العالم ان يكون جاريا على نظام الاسباب والمسببات ، وسنن الله التي دل عليها العلم ، وأخبرنا الوحي بأنه لاتغيير فيها ولا تبديل لها ولا تحويل ، فكل خبر عن حادث يقع مخالفا لهذا النظام والسنن فالاصل فيه ان يكون كذبا اختلقه المخبر الذي ادعى شهوده أو خدع به وابس عليه فيه ، فان كان قد وقع فلا بد أن يكون له سبب من الاسباب الخفية التي يجهلها المخبر، كما حققه علماء الاصول في بحث الخبر وما يقطع بكذبه منه

(٤) ان آيات الله التي تجري على غير سننه الحكيمة في خلقه لايمكن العلم بها إلا بدليـل قطعي وقد كان من حكمته ان أيد بعض النبيين المرسلين بشيء منها لاقامة حجتهم وتخويف المعاندين لهم ، وقـد انقطعت هـذه الآيات بختم النبوة والرسالة بمحمد ﷺ وسبب ذلك أو حكمته ختم النبوة برسالته ، وجعل ماأوحاه اليه آية دائمة وهداية عامة لجميع البشر مدة بقائهم في هذه الدنيا وأنزل عليه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) لعلمه تعالى بأنهم لايحتاجون بعد هذا الوحي إلى وحي آخر ، ولا إلى آية على كونه من عند الله تعالى إلا هذا القرآن نفسه ، وقد تقدم بيان دلالته العقلية العلمية على كونه من عند الله تعالى

ختم النبوة وانقطاع الخوارق بها ومعنى الكرامات

(٥) لو كان للبشر حاجة بعـد القرآن ومحمد ﷺ الى الآيات كما يدعي المفتونون بالكرامات ومخترعو الاديان والنحل الجديدة لما كان لختم النبوة معنى، ولذلك ينكر البهائية والقاديانية ختم النبوة وانقطاع الوحي، ويدعونهما للباب والبهاء، ولغلام احمد القادياني وخلفائه بلا انقطاع ، حتى سامها المرتزقة منهم والرعاع

وقد بين شيخنا الاستاذ الامام في رسالة التوحيد كيف ارتقى التشريع الديني في الامم بارتقاء نوع الانسان في الادراك والعقل كارتقاء الافراد من طفولة إلى شباب إلى كهولة بلغ فيها رشده واستوى، وصار يدرك بعقله هذه الهداية العقلية

العليا (هداية القرآن) بعد ان كان لاسبيل إلى إذعانه لتعاليم الوحي، إلا مايدهش حسه ويعي عقله من آيات الكون

بين في الكلام على وجه الحاجة إلى الرسالة ان سمو عقل الانسان وسلطانه على قوى الكون الاعظم بما هي مسخرة له تنافي خضوعه واستكانته لشيء منها، إلا ماعجز عن إدراك سببه ومنشأه فاعتقد انه من قبل السلطان الغيبي الأعلى لمدبر الكون ومسخر الاسباب فيه ، فكان من رحمة الله تعالى به « انه أتاه من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين، وميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لايشركهم فيها سواهم ، وأيد ذلك زيادة في الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخذي الطامح ، ويذل الجامح ، ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه »

ثم قال في رسالة محمد ﷺ : نبي صدق الانبياء ولكنه لم يأت في الاقناع برسالته بما يلهي الابصار ، أو يحير الحواس ، او يدهش المشاعر ، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له، واختص العقل بالخطاب، وحاكم اليه الخطأ والصواب، وجعل في قوة الكلام ، وسلطان البلاغة ، وصحة الدليل ، مبلغ الحجة وآية الحق الذي (لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

لايمكن اثبات معجزات الانبياء إلا بالقرآن

(٦) انه لايمكن إثبات معجزات الانبياء في هذا العصر بحجة لايمكن لمن عقلها ردها إلا هذا القرآن العظيم، وما ثبت فيه بالنص الصريح منها ، بناء على إنكار العلماء الواقفين على كتب الاديان التي قبل الاسلام — حتى كتب اليهود والنصارى — وعلى تواريخها لتواتر ما ذكر فيها من الآيات والاشتباه في كونها خوارق حقيقية ، وحجتهم ان التواتر الذي يفيد العلم القطعي غير متحقق في نقل شيء منها ، وهو نقل الجمع الكثير الذين يؤمن تواطؤهم على الكذب لخبر أدركوه بالحس وحمله عنهم مثلهم قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل بدون انقطاع ، وإنما يكون استحالة تواطؤهم على

الكذب بأمور أهمها عدم التحيز والتشيع لمضمون الخبر وعدم تقليد بعضهم لبعض فيه . وآية صحة هذا التواتر حصول العلم القطعي به وإذعان النفس له، وعدم إمكان رده اعتقاداً ووجداناً، وهذا غير حاصل في آيات الأنبياء الاولين عندهم.

وأما آية القرآن فهي باقية ببقائه إلى يوم القيامة، وكل واقف على تاريخ الاسلام يعلم علماً قطعياً أنه متواتر تواتراً متصلا في كل عصر ، من عصر الرسول الذي جاء به إلى الآن ، وأما الذي يخفى على كثير منهم فهو وجوه إعجازه وقد شرحنا شبهتهم عليه وبينا بطلانها في هذا البحث ، وإذ قد ثبت بذلك كونه وحياً من الله تعالى فقد وجب الايمان بكل ما أثبته من آياته في خلقه سواء أكانت لتأييد رسله وإقامة حجتهم أم لا ، وكما يجب على كل مؤمن به أن يؤمن بها ، يجب أن يؤمن بانقطاع معجزات الرسل بعد ختم النبوة بمحمد ﷺ

واذ كان لا يجب على مسلم أن يعتقد بوقوع كرامة كونية خارقة للعادة بعد محمد خاتم النبيين ﷺ فلا يضر مسلما في دينه أن يعتقد كما يعتقد أكثر عقلاء العلماء والحكماء من أن مايدعيه الناس من الخوارق في جميع الامم أكثره كذب وبعضه صناعة علمية أو شعوذة سحرية وأقله من خواص الارواح البشرية العالية

(٧) إن الثابت بنصوص القرآن من آيات الانبياء المرسلين المعينة قليل جداً . فما كانت دلالته قطعية من هذه النصوص فصرفه عنها بالتحكم في التأويل الذي تأباه مدلولات اللغة العربية ، وينقض شيئاً من قواعد الشرع القطعية ارتداد عن الاسلام ، وما كانت دلالته ظاهرة غير قطعية وجب حمله على ظاهره إن لم يعارضه نص مثله أو أقوى منه ، فان عارضه فحينئذ ينظر في الترجيح بين المتعارضين بالادلة المعروفة ، والخروج عن ذلك ابتداع

﴿ خلاصة الخلاصة لهذا الفصل ﴾

اننا نؤمن بان الله تعـالى هو خالق كل شيء بقدرته وارادته ، واختياره وحكمته ، وانه « أحسن كل شيء خلقه » كما قال في سورة الم السجدة ، فهو « صنع الله الذي أتقن كل شيء » كما قال في سورة النمل ، وانه ليس في خلقه تفاوت ولا فطور ، كما قال في سورة الملك، وانه خلقه بنظام وتقدير لاجزافا ولا انفا[١] كما قال في سورة القمر (إنا كل شيء خلقناه بقدر) وقال في سورة الفرقان (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) وقال في سورة الحجر (وأنبتنا فيها من كل شيء موزون[٢] وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم)

وان له تعالى في نظام التكوين والابداع ، وفيما هدى اليه البشر من نظام الاجتماع ، سننا مطردة تتصل فيها الاسباب بالمسببات ، لاتتبدل ولا تتحول محاباة لأحد من الناس ، وانها عامة في عالم الاجسام وعالم الارواح ، وقد ورد ذكر هذه السنن باللفظ في عدة سور

ونؤمن بان له تعالى في خلقه آيات بينات ، وان له في آياته حكما جليـة أو خفية ، وان مامنحنا إياه من العقل والشرع يأبيان علينا أن نثبت وقوع شيء في الخلق على خلاف ماتقدم بيانه من نظام التقدير وسنن التدبير ، إلا ببرهان قطعي يشترك العقل والحس في اثباته وتمحيصه، وانه لابد ان يكون وقوعه لحكمة بالغة لاعن خلل ولا عبث ، وان ماخفي علينا من حكمه كسائر مايخفى علينا من أمور خلقه ، نبحث عنهما لنزداد علما بكماله ونكمل به أنفسنا بقدر استطاعتنا ، ولا نتخذها حجة ولا عذراً على الكفر به لجهلنا ، وقد ثبت لأعلم العلماء منا أن ما نجهل من هذا الكون أكثر مما نعلم ، ويستحيل أن يحيط البشر به علماً.

---

(١) الانف بضمتين هو الذي يفعل ابتداء من غير سبق تقدير ولا نظام فهو ضد المقدر (٢) وصف النبات بالموزون من عجائب تعبير القرآن التي اظهرتها العلوم الحديثة فكل نوع منه مؤلف من عناصر بمقادير معينة يمكن ضبطها بالوزن الدقيق في النسبة المئوية

ونؤمن بان الله تعالى قد منحنا رسلا هدونا بآياته إلى الخروج من مضيق مدارك الحس ، وما يستنبطه الفكر منها بادي الرأي ، إلى ماوراءها من سعة عالم الغيب ، ولولا هدايتهم لظل البشر ألوف الالوف من السنين ينكرون وجود مالم يكونوا يدركونه بحواسهم من الاجسام وأعراضها ، وبقياسهم ما جهلوا على ما علموا منها .

وقد علمنا من التاريخ ان الايمان بالله وبآياته لرسله وباليوم الآخر وبما يكون فيه من الحساب والجزاء على الاعمال هو الذي وجه عقول البشر إلى البحث في أسرار الوجود حتى وصلوا إلى ماوصلوا اليه من الارتقاء في العلوم والفنون والصناعات في الاجيال المختلفة ، ولم يكن لغير المؤمنين بالغيب نصيب في ذلك — فهذا الايمان بالاركان الثلاثة من الغيب هو الذي أوصل البشر الى علوم وأعمال كان يعدها غير المؤمنين بالغيب من محالات العقول كالغيب الذي أنكروه ، حتى لم يعد شيء من أخبار الغيب بعيداً عن العقل بعد ثبوتها

فتبين لنا بهذا وبما قبله انه كان للبشر بآيات الانبياء ثلاث فوائد هي من حكم نصبه تعالى لتلك الآيات (الاولى) جعلها دليلا حسياً على اختياره تعالى في جميع أفعاله وكون سنن النظام في الخلق خاضعة له لا حاكمة عليه ولا مقيدة لارادته وقدرته (الثانية) جعلها دليلا على صدق رسله فيما يخبرون عنه بوحيه ونذراً للمعاندين لهم من الكفار ، ولو كانت مما يقدر عليه البشر بكسبهم أو تقع منهم باستعداد روحي لما كانت آية على صدقهم (الثالثة) هداية عقول البشر برؤيتها إلى سعة دائرة الممكنات ، وضيق نطاق المحال في المعقولات ، وإلى ان كون الشيء بعيداً عن الاسباب المعتادة والامور المعهودة والسنن المعروفة ، لا يقتضي أن يكون محالا يجزم بعدم وقوعه ، وبكذب المخبر به ، مع قيام الدليل على صدقه ، وإنما غايته أن يكون الاصل فيه عدم الثبوت فيتوقف ثبوته على الدليل الصحيح وهذه قاعدة كبار علماء الكون في هذا العصر ، فلا ينقصهم لتكميل علمهم إلا ثبوت آية لله تعالى لا يمكن أن يكون لها علة من سنن الكون

ولكن الامر قد انقلب إلى ضده فان كثيراً من الذين وصلوا إلى هذه العلوم

والاعمال المقربة لآيات الرسل وما دعوا اليه من الايمان بالغيب من المعقول قد صارت هذه العلوم نفسها سببا لانكارهم ما كان سببا لها وموصلا اليها (وهو الآيات والايمان بالغيب) — لا إنكار امكانه بل إنكار ثبوته بالفعل ، فهم ينكرون أن يكون الخالق قد فعل ماصاروا يفعلون باقداره وتوفيقه نظيراً له في الغرابة ، وكان ينبغي لهم أن يجعلوه دليلا عليه مبيناً لحقيته كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) ولكنهم كلما أراهم آية من آياته الروحية في انفسهم او من آياته الكونية في الآفاق التمسوا لها سنة بقياس مالم يعرفوا على ماعرفوا ، فأخرجوها عن كونها بمحض قدرته وإبداعه ، وظلوا على لبسهم ، كالذين طلبوا ان ينزل عليهم ملكا رسولا فقال فيهم (٦ : ٩ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) أي لما كانوا لا يمكن لهم أن يدركوا الملك ويتلقوا عنه إلا إذا كان بصورة رجل مثلهم وهو ما استنكروه من كون الرسل بشراً مثلهم ، ولو جعل الله الملك رجلا مثلهم لالتبس عليهم أمره بما يلبسونه على أنفسهم من استنكار كون الرسول بشراً مثلهم وهكذا يفعلون الآن : ظهرت لهم في عصرنا عدة آيات روحية من المكاشفات والتأثير في المادة فشبهوها بما عرفوا من نقل الكلام بالسيال الكهربائي وغير ذلك ، حتى لا يعترفوا بآية إبداعية من الخالق لا تخضع لعلمهم

الخطر على البشر من ارتقاء العلم بدون الدين

ان حرمان هؤلاء العلماء من الايمان بآية لله تعالى من هذا النوع قد جعل حظ البشر من هذا الارتقاء العجيب في العلم انهم ازدادوا به شقاء حتى صارت حضارتهم مهددة بالتدمير العلمي الصناعي في كل يوم ، وجميع علمائهم المصلحين وساستهم الدهاقين في حيرة من تلافي هذا الخطر وان يتلافى إلا بالجمع بين العلم والدين ، وهذا ماجاءهم به محمد خاتم النبيين ، ولأجله أثبت الآيات بكتابه وفي كتابه المبين ، إذ لا يمكن ان يخضع البشر إلا لما هو فوق استطاعتهم ، بقيام الدليل على انه من السلطان الغيبي الالهي الذي فوق استعدادهم ، وسنبين هذا الجمع فيما يأتي من هذا البحث المثبت لاعجاز القرآن

المقصد الثالث من مقاصد القرآن

﴿ بيان أن الاسلام دين الفطرة السليمة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة ، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال ﴾

قد أتى على البشر حين من الدهر لا يعرفون من الدين إلا أنه تعاليم خارجة عن محيط العقل كاف البشر بها[1] مقاومة فطرتهم ، وتعذيب أنفسهم ، ومكابرة عقولهم وبصائرهم ، خضوعا للرؤساء الذين يلقنونهم إياها ، فإن انقادوا لسيطرتهم عليهم بها كانوا من الفائزين ، وإن خالفوهم سراً أو جهراً كانوا من الهالكين

حتى إذا بعث الله محمداً خاتم النبيين، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم مما كانوا فيه من الضلال المبين — بين لهم ان دين الله الاسلام هو دين الفطرة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة ، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال ، وان لاسيطرة على روح الانسان وعقله وضميره لأحد من خلق الله ، وإنما رسل الله هداة مرشدون ، مبشرون ومنذرون ، كما تقدم بيانه في المقصد الذي قبل هذا ، ونبين هذه المزايا بالشواهد المختصرة من القرآن فنقول :

(١) الاسلام دين الفطرة

قال الله تعالى (٣٠: ٣٠ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ـ ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) الحنيف صفة من الحنف (بالتحريك) وهو الميل عن العوج إلى الاستقامة ، وعن الضلالة إلى الهدى ، وعن الباطل إلى الحق ، ويقابله الزيغ وهو الميل عن الحق الى الباطل الخ وفطرة الله التي فطر الناس عليها هي الجبلة الانسانية ، الجامعة بين الحياتين: الجسمانية الحيوانية ، والروحانية الملكية ، والاستعداد لمعرفة عالم الشهادة وعالم الغيب فيهما ، وما أودع فيها من غريزة الدين المطلق الذي هو الشعور الوجداني بسلطان غيبي

(١) الظرف متعلق بالمصدر الذي بعده وفعل التكليف يتعدى بنفسه وعلماء الاصول والفقه يعدونه بالباء

فوق قوى الكون والسنن والاسباب التى قام بهما نظام كل شيء في العالم ، فرب هذا السلطان هو فاطر السموات والارض وما فيها ، والمصدر الذاتي للنفع والضر المحركين لشعور التعبد الفطري ، وطلب العرفان الغيبي ، فالعبادة الفطرية هي التوجه الوجداني إلى هذا الرب الغيبي في كل ما يعجز الانسان عنه من نفع يحتاج اليه ويعجز عنه بكسبه ، ودفع ضر يمسه أو يخافه ويرى انه يعجز عن دفعه بحوله وقوته ، وفي كل ما تشعر فطرته باستعدادها لمعرفته والوصول اليه مما لا نهاية له. وأعني بالانسان جنسه فما يعجز عنه المرء بنفسه دون أبناء جنسه فانه يعده من مقدوره ، ويعد مساعدة غيره له من جنس كسبه، فطلبه للمساعدة من أمثاله ليس فيها معنى التعبد عند أحد من البشر — فتعظيم الفقير للغني بوسائل استجدائه ، وخضوع الضعيف للقوي لاستنجاده واستعدائه على أعدائه ، وخنوع السوقة للملك أو الامير لخوفه منه أو رجائه — لا يسمى شيء من ذلك عبادة في عرف أمة من الامم ولا ملة من الملل ، وإنما روح العبادة الفطرية ومخها هو دعاء ذي السلطان العلوي والقدرة الغيبية التي هي فوق ما يعرفه الانسان ويعقله في عالم الاسباب ، ولا سيما الدعاء عند العجز والشدائد قال ﷺ « الدعاء هو العبادة » (١) هكذا بصيغة الحصر أي هو الركن المعنوى الاعظم فيها لانه روحها المفسر برواية « الدعاء مخ العبادة » (٢) وكل تعظيم وتقرب قولي أو عملي لصاحب هذه القدرة والسلطان فهو عبادة له — هذا أصل دين الفطرة الغريزي في البشر

وعلى هذا الاصل يبني الدين التعليمي التشريعي الذي هو وضع إلهي يوحيه الله الى رسله لئلا يضل عباده بضعف اجتهادهم واختلافهم في العمل بمقتضى غريزة الدين كما وقع بالفعل، ولا يقبله البشر بالاذعان والوازع النفسي إلا إذا كان الملقن لهم إياه مؤيداً في تبليغه وتعليمه من صاحب ذلك السلطان الغيبي الأعلى والتصرف الذاتي المطلق في جميع العالم ، الذي تخضع له الاسباب والسنن فيه وهو لا يخضع لها ، وهو الله رب العالمين ، وقد شرحنا هذه الحقيقة مراراً وبينا في مواضع من

---

(١) رواه أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في الادب المفرد وأصحاب السنن الاربعة وغيرهم عن النعمان بن بشير (٢) رواه الترمذي عن انس

التفسير والمنار معنى كون الاسلام دين الفطرة، وانه شرع لتكميل استعداد البشر للرقي في العلم والحكمة، ومعرفة الله عز وجل المعدة إياهم لسعادة الاخرة، فليس فيه شيء يصادمها

فهذا الدين التعليمي حاجة من حاج الفطرة البشرية لا يتم كمالها النوعي بدونه، فهو لنوع الانسان كالعقل لأفراده كما حققه شيخنا الاستاذ الامام

(٢) الاسلام دين العقل والفكر

تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة « العقل » ولا ما في معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التي فضل الانسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحي كاللب والنهى ، ولا أسماء التفكر والتدبر والنظر في العالم التي هي أعظم وظائف العقل ؛ ولا ان الدين موجه اليه ، وقائم به وعليه . اما ذكر العقل باسمه وأفعاله في القرآن الحكيم فيبلغ زهاء خمسين مرة ، وأما ذكر أولي الالباب ففي بضع عشرة مرة ، وأما كلمة أولي النهى اي العقول فقد جاءت مرة واحدة من آخر سورة طه

أكثر ماذكر فعل العقل في القرآن قد جاء في الكلام على آيات الله وكون المخاطبين بها والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء ، ويراد بهذه الآيات في الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ومشيئته وحكمته ورحمته ، كقوله تعالى (٢ : ١٦٤ إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) ويلي ذلك في الكثرة آيات كتابه التشريعية ووصاياه كقوله في تفصيل الوصايا الجامعة من أواخر سورة الانعام (٦ : ١٥١ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) وكرر قوله (أفلا تعقلون) أكثر من عشر مرار كأمره لرسوله أن يحتج على قومه بكون القرآن من عند الله لا من عنده بقوله (١٠ : ١٦ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله في أهل النار من سورة الملك (٦٧ : ١٠ وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وفي معناه قوله تعالى من سورة الاعراف (٧ : ١٧٩ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم

آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وقوله في سورة الحج (٢٢ : ٤٦ أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) الآية

كذلك آيات النظر العقلي والتفكر والتفكير كثيرة في الكتاب العزيز، فمن تأملها علم ان أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكر والعقل والتدبر، وان الغافلين الذين يعيشون كالانعام لا حظ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التي لا تزكي الانفس ولا تصعد بها في معارج الكمال، بعرفان ذي الجلال والجمال ، ومنها قوله تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا) وقوله (٣٠: ٨ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) وقوله في صفات العقلاء أولي الالباب(٣: ١٩١ ويتفكرون في خلق السموات والارض) وقوله بعد نفي علم الغيب والتصرف في خزائن الارض عن الرسول ﷺ وحصر وظيفته في اتباع الوحي(٦ : ٧ قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلا تتفكرون)

وقد صرح بعض حكماء الغرب، بما لا يختلف فيه عاقلان في الارض، من أن التفكر هو مبدأ ارتقاء البشر، وبقدر جودته يكون تفاضلهم فيه . اه وقد كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكر واستقلال العقل على البشر حتى جاء الاسلام فأبطل بكتابه هذا الحجر ، وأعتقهم من هذا الرق ، وقد تعلم هذه الحرية امم الغرب من المسلمين ثم نكس هؤلاء المسلمون على رءوسهم فحرموها على أنفسهم ، حتى عاد بعضهم يقلدون فيها من أخذوها عن أجدادهم

(٣) الاسلام دين العلم والحكمة

ذكر اسم العلم معرفة ونكرة في عشرات من آيات القرآن الحكيم، وذكرت مشتقاته أضعاف ذلك، وهو يطلق على علوم الدين والدنيا بأنواعها فمن العلم المطلق قوله تعالى في وصايا سورة الاسراء (١٧ : ٣٦ ولا تقف ما ليس لك به علم) قال الراغب : اي لا تحكم بالقيافة والظن . وقال البيضاوي ما ملخصه : ولا تتبع ما لم يتعلق به علمك تقليداً او رجما بالغيب، ومنه قوله في العلم المأثور في التاريخ (ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) ومنه قوله تعالى في علوم

البشر المادية (٣٠ : ٦ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٧ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) الخ وقوله فيهادون العلم الروحي (١٧: ٨٥ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

وقوله في العلم العقلي (٢٢: ٨ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) الظاهر ان المراد بالعلم فيه العلم النظري بدليل مقابلته بالهدى والكتاب المنير وهو هدى الدين. وقوله في العلم الطبيعي (٣٠ : ٢٢ ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين) بكسر اللام أي علماء الكون ومثله قوله بعد ذكر اخراج الثمرات المختلف ألوانها من ماء المطر واختلاف ألوان الطرائق في الجبال وألوان الناس والدواب (٣٥ : ٢٨ انما يخشى الله من عباده العلماء) الآية فالمراد بالعلماء هنا الذين يعلمون أسرار الكون وأسباب اختلاف أجناسه وأنواعه وألوانها وآيات الله وحكمه فيها

عظم القرآن شأن العلم تعظيما لا تعلوه عظمة أخرى بقوله تعالى (٣: ١٨ شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) الآية ، فبدأ عز وجل بنفسه وثنى بملائكته ، وجعل أولي العلم في المرتبة الثالثة، ويدخل فيها الانبياء والحكماء ومن دونهم من أهل الدرجات في قوله (٥٨: ١١ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وأمر أكرم رسله وأعلمهم بأن يدعوه بقوله (وقل رب زدني علما)

ويؤيد الآيات المنزلة في مدح العلم والحث عليه ماورد في ذم اتباع الظن كقوله تعالى (١٠ : ٣٦ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، ان الظن لا يغني من الحق شيئا) ومثله (٥٣ : ٢٧ وما لهم به علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا) وقوله في قول النصارى بصلب المسيح (٤: ١٥٦ مالهم به من علم الا إتباع الظن)

وبلغ من تعظيمه لشأن العلم والبرهان ان قيد به الحكم بمنع الشرك بالله تعالى والنهي عنه وهو أكبر الكبائر وأقصى الكفر فقال (٧ : ٣٢ قل انما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) السلطان البرهان :

وقال في بر الوالدين الكافرين (٢٩ : ٨ ووصينا الانسان بوالديه حسناً ،

وان جاهداك على ان تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما) ومعلوم من الدين بالضرورة أن الشرك بالله لايكون بعلم ولا ببرهان ، لانه ضروري البطلان . وترى تفصيل هذا فيما بعده من تعظيم أمر الحجة والدليل وما يليه من ذم التقليد

وأما الحكمة فقد قال تعالى في تعظيم شأنها المطلق (٢٦٩:٢ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الالباب) وقال تعالى في بيان مراده من بعثة محمد خاتم النبيين (٦٢ : ٢ هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وفي معناها آيتان في سورتي البقرة وآل عمران . وقال لرسوله ممتناً عليه (٤ : ١١٢ وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) وقال له (١٢٥:١٦ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وقال له في خاتمة الوصايا بأمهات الفضائل والنهي عن كبائر الرذائل ، مع بيان عللها وما لها من العواقب (٣٩:١٧ ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة) وقال لنسائه رضي الله عنهن (٣٤:٢٣ واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة)

وقد آتى الله جميع أنبيائه ورسله الحكمة ، ولكن أضاعها أقوامهم من بعدهم بالتقاليد والرياسة الدينية ، ونسخها بولس من النصرانية بنص صريح . قال الله تعالى في اليهود(٥٤:٤ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) فالكتاب أعلى مايؤتيه تعالى لعباده من نعمه ويليه الحكمة ويليها الملك . وقال في نبيه داود عليه السلام(٢٥١:٢ وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) وقال لنبيه عيسى عليه السلام (٦ : ١١٣ وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) وقال (٣١ : ١٢ ولقد آتينا لقمان الحكمة) وذكر من حكمته وصاياه لابنه بالفضائل ومنافعها ونهيه عن الرذائل معللة بمضارها . فالحكمة أخص من العلم ، هي العلم بالشيء على حقيقته وبمافيه من الفائدة والمنفعة الباعثة على العمل ، فهي بمعنى الفلسفة العملية كعلم النفس والاخلاق وأسرار الخلق ، ويدل عليه قوله تعالى بعد وصايا سورة الاسراء (ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة) ولولا اقتران تلك الوصايا بحكمها وعللها ومنافعها لما سميت حكمة . ألا ترى انه سمى

فيها المبذرين للمال « إخوان الشياطين » لانهم يفسدون نظام المعيشة باسرافهم ، ويكفرون النعمة بعدم حفظها ووضعها في مواضعها بالاعتدال ، ولذلك قال عقبه (وكان الشيطان لربه كفوراً) ثم قال (٢٩ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً) فعلل الاسراف في الانفاق بأن عاقبة فاعله أن يكون ملوما من الناس ومحسوراً في نفسه ، والمحسور من حسر عنه ستره فانكشف منه المغطى ويطلق على من انحسرت قوته وانكشفت عن عجزه ، والمحسور المغموم أيضاً . وكل هذه المعاني تصح فى وصف المسرف في النفقة يوقعه إسرافه في العدم والفقر الخ وحسير البصر كليله وقصيره

ويكثر في القرآن ذكر الفقه وهو الفهم الدقيق للحقائق الذي يكون به العالم حكيما

(٤) الاسلام دين الحجة والبرهان

قال تعالى (٤ : ٧٣ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً)وقال(٢٣ : ١١٧ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به عند ربه فانما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون) قيد الوعيد على الشرك بكونه لا برهان لصاحبه يحتج به عند ربه مع العلم بأنه لا يكون إلا كذلك تعظيما لشأن البرهان ، وذلك انه تعالى يبعث الامم مع رسلهم وورثتهم الذين يشهدون عليهم ويطالبهم بحضرتهم بالبرهان على ما خالفوهم فيه كما قال (٢٨ : ٧٥ ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم ، فعلموا ان الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون)

وأقام البرهان العقلي على بطلان الشرك بقوله بعد ذكر السموات والارض من سورة الانبياء (٢١ : ٢٢ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ..) ثم قفى عليه بمطالبة المشركين بالبرهان على ما اتخذوه من الآلهة من دونه مطالبة تعجيز فقال (٢٤ أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم) الآية ، ومثله في سورة النمل (٢٧ : ٦٤ أم من يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)

وقال في سياق محاجة ابراهيم لقومه وإقامة البراهين العلمية لهم على بطلان

شركهم (٦ : ٨١ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) ثم قال في آخره (٨٣ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم) فالدرجات هنا درجات الحجة والبرهان العقلي على العلم ولذلك قدم فيه ذكر الحكمة على العلم ، وتقدم في الكلام على العلم آية رفع الدرجات فيه

ومما جاء فيه البرهان بلفظ السلطان قوله تعالى (٤٠ : ٣٥ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا) الآية ، وفي معناها من هذه السورة (٥٦ ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ان في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه) الآية ، وفي عدة سور انه تعالى أرسل موسى إلى فرعون بآياته (وسلطان مبين)

(٥) الاسلام دين القلب والوجدان والضمير

قال الفيومي في المصباح : ضمير الانسان قلبه وباطنه والجمع ضمائر ، وقال والقلب من الفؤاد معروف - يعني انه ضميره ووجدانه الباطن (قال) ويطلق على العقل . اه وقد شرحنا معناه هذا وطرق استعماله في تفسير آية الاعراف (١) وقد ذكر في القرآن الكريم في مائة آية وبضع عشرة آية

منها قوله تعالى في سورة ق (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) وقوله في سورة الشعراء (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) ومدحه لخليله ابراهيم ﷺ بقوله (إذ جاء ربه بقلب سليم) وقوله حكاية عنه (ولكن ليطمئن قلبي) وقوله في صفة المؤمنين (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وقوله في صفات الذين اتبعوا عيسى عليه السلام (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها) ووصف قلوب المؤمنين بالخشوع والاخبات لله وتمحيصها من الشوائب وقلوب الكفار والمنافقين بالرجس والمرض والقسوة والزيغ ، وعبر عن فقدها للاستعداد للحق والخير بالطبع والختم والرين عليها اي انها كالمختوم عليه فلا يدخله شيء جديد

(١) راجع صفحة ٤١٩ من جزء التفسير التاسع

وإذ كان الاسلام دين العقل والبرهان، وحرية الضمير والوجدان، منع ما كان عليه النصارى وغيرهم من الاكراه في الدين والاجبار عليه والفتنة والاضطهاد لمخالفيهم فيه، والآيات في ذلك كثيرة بيناها في محالها، ومن دلائلها ذم القرآن التقليد وتضليل أهله

(٦) منع التقليد والجمود على اتباع الآباء والاجدود

كل ما نزل من الآيات في مدح العلم وفضله واستقلال العقل والفكر وحرية الوجدان يدل على ذم التقليد ، وقد ورد في ذمه والنعي على أهله آيات كثيرة كقوله (٢ : ١٧٠ واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) وقوله تعالى (٥ : ١٠٤ واذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) ذمهم من ناحيتين (إحداهما) الجمود على ما كان عليه آباؤهم والاكتفاء به عن الترقي في العلم والعمل ، وليس هذا من شأن الانسان الحي العاقل فان الحياة تقتضي النمو والتوالد، والعقل يطلب المزيد والتجديد (والثانية) انهم باتباعهم لآبائهم قد فقدوا مزية البشر في التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر ، والحسن والقبيح ، بطريق العقل والعلم ، وطريق الاهتداء في العمل ويؤيده قوله (٧ : ٢٨ واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون) وقال تعالى في عبادة العرب للملائكة (٤٣ : ٢٠ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم، ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون ٢١ أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ٢٢ بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون ٢٣ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) وقد وردت الشواهد على هذا في قصة ابراهيم مع قومه في سور الانبياء والشعراء والصافات .

فالقرآن قد جاء يهدي جميع متبعي الملل والاديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمائرهم للوصول الى العلم والهدى في الدين، وألا يكتفوا بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من ذلك، فان هذا جناية على الفطرة البشرية والعقل والفكر

والقلب التي امتاز بها البشر ، وبهذا العلم والهدى امتاز الاسلام ودخل فيه العقلاء من جميع الامم أفواجا ، ثم نكس المسلمون على رءوسهم ، واتبعوا سنن من قبلهم من أهل الكتاب وغيرهم في التقليد لآبائهم ومشايخهم المنسوبين إلى بعض أئمة علمائهم، الذين نهوهم عن التقليد ولم يأمروهم به، فأبطلوا بذلك حجة الله تعالى على الأمم وصاروا حجة على دينهم، حتى ان أدعياء العلم الرسمي فيهم ينكرون أشد الانكار على من يدعونهم الى اتباع كتاب الله وهدي رسوله وسيرة السلف الصالح من أهله، ونحن معهم في بلاء وعناء، نقاسي منهم ماشاء الجهل والجمود من استهزاء، وطعن وبذاء ، وتهكم بلقب « المجتهد » الذي احتكره الجهل لبعض المتقدمين من العلماء

ولو كان فينا علماء كثيرون يظهرون الاسلام في صورته الحقيقية العلمية العقلية لدخل الناس المستقلون في العقل والعلم أفواجا حتى يعم الدنيا . لان التعليم العصري في جميع مدارس الارض يجري على طريقة الاستقلال في الفهم واتباع الدليل في جميع بلاد الافرنج والبلاد المقلدة لهم . ولكن أكثر هؤلاء يرون جميع الاديان تقليدية ويعتمدونها نظما أدبية واجتماعية للأمم، فلهذا يرون الاولى بحفظ نظامهم اتباع دينهم التقليدي ، وبهذا يعسر علينا أن نقنعهم بامتياز الاسلام على دينهم ، لانه يقل فينا من يقدر على إظهار الاسلام في صورته التي خصه بها القرآن، وما بينه من سنة خاتم النبيين ﷺ وسيرة خلفائه الراشدين والسلف الصالحين، رضوان الله عليهم أجمعين

دحض شبهة ، وإقامة حجة

يتوهم بعض المقلدين ان دعوة المسلمين إلى الاهتداء بالكتاب والسنة والاستقلال في فهمها التي اشتهر المنار في عصرنا بها، هي التي جرأت بعض الجاهلين على دعوى الاجتهاد في الشريعة والاستغناء عن تقليد الائمة والانتقاد عليهم وعلى اتباعهم بما هو ابتداع جديد ، واستبدال للفوضى بالتقليد . وهو وهم سببه الجهل بالدين وبالتاريخ ، فمذاهب الابتداع والالحاد قديمة ، قد نجمت قرونها في خير القرون وعهد أكبر الأئمة، وكان أشدها إفسادا للدين الدعوة الى اتباع الائمة المعصومين، الذين لا يسئلون عن الدليل ، على خلاف ما كان عليه أئمة السنة من تحريم اتباع أحد لذاته في الدين بعد

محمد المعصوم الذي لا معصوم بعده ﷺ ولكن المقلدين لهؤلاء المحرمين للتقليد قد اتبعوا القائلين بعصمة أئمتهم حتى ملاحدة الباطنية منهم، فهم يردون نصوص الكتاب والسنة بأقوال أئمتهم بل بأقوال كل من ينتمي اليهم من أدعياء العلم . وانما تروج البدع في سوق التقليد الذي يتبع أهله كل ناعق ، لا في سوق الاستقلال والأخذ بالدلائل – ومن باب التقليد دخل أكثر الخرافات على المسلمين لانتساب جميع الدجالين من أهل الطرائق وغيرهم إلى أئمة المذاهب المجتهدين، وهم في دعوى اتباعهم من الكاذبين، ونحن دعاة العلم الصحيح والاهتداء بالكتاب والسنة أحق منهم باتباع الائمة

ان في كتب التفسير والفقه والتصوف وشروح الاحاديث للعلماء المنسوبين إلى الائمة كثيراً من البدع والخرافات التي يتبرأ منها أئمة الهدى، وترى علماء الرسوم الجامدين يحتجون بذكرها في هذه الكتب على شرعيتها وعلى رد نصوص الكتاب والسنة الصحيحة بها، وصاحب المنار قد انفرد دون علماء مصر بالرد على هؤلاء وعلى البابية والبهائية والقاديانية والتيجانية والقبوريين وسائر مبتدعة عصرنا، ولله الحمد والمنة

(٧) الحرية الشخصية في الدين بمنع الاكراه والاضطهاد ورياسة السيطرة

هذه المزية من مزايا الاسلام هي نتيجة المزايا التي بينا بها كونه دين الفطرة فأما منع الاكراه فيه وعليه فالاصل فيه قوله تعالى لرسوله ﷺ بمكة (١٠: ٩٩ ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟ ١٠٠ وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ١٠١ قل انظروا ماذا في السموات والارض ،وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) علم الله تعالى رسوله بهذه الآيات أن من سننه في البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم في فهم الدين وتتفاوت أنظارهم في الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض، فما كان يتمناه ﷺ من إيمان جميع الناس مخالف لمقتضى مشيئته تعالى في اختلاف استعداد الناس للايمان وهو منوط باستعمال عقولهم وأنظارهم في آيات الله في خلقه ،والتمييز بين هداية الدين وضلالة الكفر

ثم قوله تعالى له عند ما أراد أصحابه أخذ من كان عند بني النضير من أولادهم

عند إجلائهم عن الحجاز وكان قد تهود بعضهم (٢:٢٥٦لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) الآية — فأمرهم ﷺ أن يخيروهم فمن اختار اليهودية أجلي مع اليهود ولا يكره على الاسلام، ومن اختار الاسلام بقي مع المسلمين كما بيناه في تفسير الاية

وأما منع الفتنة وهي اضطهاد الناس لاجل دينهم حتى يتركوه فهو السبب الاول لشرعية القتال في الاسلام كما بيناه في تفسير قوله تعالى (٢:١٩١ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله) من سورة البقرة . ثم في تفسير آية ٣٩ من سورة الانفال التي بلفظها مع زيادة (كله) فراجع تفسير هذه الآية في ص٦٦٥ ج٩ تفسير

وأما منع رياسة السيطرة الدينية كالمعهود عند النصارى ففيها آيات مبينة في القرآن، وهي معلومة بالضرورة من سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وقد بيناها في الكلام على وظائف الرسل عليهم السلام، وحسبك منها قوله عز وجل لرسوله ﷺ خاتم النبيين (ص) ٨٨ : ٢١ فذكر إنما أنت مذكر ٢٢ لست عليهم بمسيطر)

المقصد الرابع من مقاصد القرآن

(الاصلاح الاجتماعي الانساني والسياسي الذي يتحقق بالوحدات الثمان)

وحدة الامة ــ وحدة الجنس البشري ــ وحدة الدين ــ وحدة التشريع بالمساواة في العدل ــ وحدة الاخوة الروحية والمساواة في التعبد ــ وحدة الجنسية السياسية الدولية ــ وحدة القضاء ــ وحدة اللغة

جاء الاسلام والبشر أجناس متفرقون، يتعادون في الانساب والالوان، واللغات والاوطان والاديان، والمذاهب والمشارب، والشعوب والقبائل، والحكومات والسياسات، يقاتل كل فريق منهم مخالفه في شيء من هذه الروابط البشرية وإن وافقه في البعض الآخر، فصاح الاسلام بهم صيحة واحدة دعاهم بها إلى الوحدة الانسانية العامة الجامعة وفرضها عليهم، ونهاهم عن التفرق والتعادي وحرمه عليهم، وبيان هذا التفرق ومضاره بالشواهد التاريخية، وبيان أصول الكتاب الالهي وسنة

خاتم النبيين في الجامعة الانسانية ، لا يمكن بسطها إلا بمصنف كبير ، فنكتفي في هذه الخلاصة الاستطرادية في اثبات الوحي المحمدي ، بسرد الاصول الجامعة في هذا الاصلاح الانساني الداعي إلى جعل الناس ملة واحدة ، ودين واحد ، وشرع واحد ، وحكم واحد ، ولسان واحد ، كما ان جنسهم واحد ، وربهم واحد

ونبدأ بالاصل الجامع في هذا ونقفي عليه بالاصول والشواهد المفصلة له

﴿ الاصل الاول للجامعة الاسلامية الانسانية وحدة الامة ﴾

قال الله تعالى في سورة الانبياء مخاطبا أمة الاسلام (٢١ : ٩٢ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)

ثم بين لنا في سورة المؤمنين أنه خاطب جميع النبيين بهذه الوحدة للامة فقال (٢٣ : ٥١ يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم (٥٢) وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) ولكن كان لكل نبي أمة من الناس هم قومه ، وأما خاتم النبيين فأمته جميع الناس ، وقد فرض الله عليهم الايمان بجميع رسله وعدم التفرقة بينهم كما تقدم ، فالايمان بخاتمهم كالايمان باولهم ومن بينهما ، فمثلهم كمثل الملوك أو الولاة في الدولة الواحدة ، ومثل اختلاف شرائعهم بنسخ المتأخر منها لما قبله كمثل تعديل القوانين في الدولة الواحدة أيضاً الى ان كمل الدين

(الاصل الثاني) الوحدة الانسانية بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم وشاهده العام قوله تعالى (٤٩ : ١٣ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقد بلغ النبي ذلك للامة يوم العيد الاكبر بمنى في حجة الوداع . وهذه الوحدة الانسانية تتضمن الدعوة الى التآلف بالتعارف ، والى ترك التعادي بالتخالف .

(الاصل الثالث) وحدة الدين باتباع رسول واحد جاء باصول الدين الفطري الذى جاء به غيره من الرسل وأكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر ، وشاهده الاعم قوله تعالى (٧ : ١٦٨ قل يأيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا) ولما كان الاسلام دين الفطرة وحرية الاعتقاد والوجدان جعل الدين اختياريا بقوله تعالى (٢ : ٢٥٦ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)

(الاصل الرابع) وحدة التشريع بالمساواة بين الخاضعين لأحكام الاسلام في الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والملك والسوقة ، والغني والفقير ، والقوى والضعيف ، وسنذكر بعض شواهده في إصلاح التشريع فيه

(الاصل الخامس) الوحدة الدينية بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين في اخوته الروحية وعباداته وفي الاجتماع الاجتماعي منها كالصلاة ومناسك الحج ، فملوك المسلمين وأمراؤهم وكبار علمائهم يختلطون بالفقراء والعوام في صفوف الصلاة والطواف بالكعبة المشرفة والوقوف بعرفات وسائر مواطن الحج ، ولا تجد شعوب الافرنج المنتسبين إلى النصرانية يرضون بمثل هـذه المساواة المعلومة من دين الاسلام بالضرورة للعمل بها من أول الاسلام الى اليوم قال تعالى (٤٩ : ١٠ انما المؤمنون إخوة) وقال في سياق الكلام عن المشركين المحاربين (٩ : ١١ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين)

(الاصل السادس) وحدة الجنسية السياسية الدولية بان تكون جميع البلاد الخاضعة للحكم الاسـلامي متساوية في الحقوق العامة إلا حق الاقامة في جزيرة العرب أو الحجاز فانه خاص بالمسلمين لان للحرمين وسياجهما من الجزيرة حكم المعابد والمساجد ، وحكم الاسلام في معابد الملل كلها أنها خاصة بأهلها ولها حرمتها لايجوز لغير أهلها دخولها بغير إذن منهم ، المسلمون وغيرهم في هذا سواء

(الاصل السابع) وحدة القضاء واستقلاله ومساواة الناس فيها أمام الشريعة العادلة إلا انه يستثنى منه الاحكام الشخصية الدينية فان الاسلام يراعي فيها حرية العقيدة والوجدان بناء على أساسه في ذلك . فهو يسمح لغير المسلمين في أمور الزوجية ونحوها أن يتحاكموا إلى علماء ملتهم ، واذا تحاكموا الينا فاننا نحكم بينهم بعدل شريعتنا الناسخة لشرائعهم ، والاصل فيه قوله تعالى (٥ : ٤٢ فان جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) وقوله بعد آيات (٤٩ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق)

(الاصل الثامن) وحدة اللغة ولا يمكن أن يتم الاتحاد والاخاء بين الناس وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة إلا بوحدة اللغة . وما زال الحكماء الباحثون في مصالح البشر العامة يتمنون لو يكون لهم لغة واحدة مشتركة يتعاونون بها على التعارف والتآلف ومناهج التعليم والآداب والاشتراك في العلوم والفنون والمعاملات الدنيوية ، وهذه الامنية قد حققها الاسلام بجعل لغة الدين والتشريع والحكم لغة لجميع المؤمنين به والخاضعين لشريعته ، إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم ووجدانهم الى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله لفهمهما والتعبد بهما والاتحاد باخوتهم فيهما ، وهما مناط سيادتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، ولذلك كرر في القرآن بيان كونه كتابا عربيا وحكما عربيا وكرر الامر بتدبره والتفقه فيه والاتعاظ والتأدب به ، وأما غير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذي يخضعون لحكمه ، والحكومة التي يتبعونها لمصالحهم الدنيوية كما هي عادة البشر في ذلك ، وكذلك كان الامر في الفتوحات الاسلامية العربية كلها

وقد بينت من قبل وجوب تعلم اللغة العربية في دين الاسلام وكونه مجمعا عليه بين المسلمين كما قرره الامام الشافعي (رض) في رسالته وقد جرى عليه العمل في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ثم خلفاء الامويين والعباسيين الى أن كثر الاعاجم وقل العلم وغلب الجهل فصاروا يكتفون من لغة الدين بما فرضه في العبادات من القرآن والاذكار (فراجع ذلك في ص ٣١٠ من جزء التفسير التاسع)

ولقد كان النبي ﷺ ينكر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرق الذي ينافي وحدتهم وجعلهم أمة واحدة كالجسد الواحد كما شبههم بقوله « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه الامام أحمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير (رض) وكان يخص بمقته وإنكاره التفرق في الجنس النسبي أو اللغة ، أما الاول فمشهور وأما الثاني فيجمعه مع الاول الشاهد الآتي

روى الحافظ ابن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال جاء قيس بن مطاطية الى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال

الحبشي فقال : هذا الاوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا ؟
(يعني هذا المنافق بالرجل النبي ﷺ وان الاوس والخزرج من قومه العرب ينصرونه لانهم من قومه ، فما الذي يدعو الفارسي والرومي والحبشي إلى نصره ؟)

فقام اليه معاذ بن جبل (رض) فأخذ بتلبيبه (أي بما على لبيه ونحره من الثياب) ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بمقالته ، فقام النبي ﷺ مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد ثم نودي : ان الصلاة جامعة — وقال ﷺ

« يا أيها النـاس ان الرب واحد ، والاب واحد ، وان الدين واحـد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي » فقام معاذ ، فقال فما تأمرني بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال « دعه إلى النار » فكان قيس ممن ارتد في الردة فقتل

أرأيت لو ظل المسلمون على هذه التربية المحمدية أكان وقع بينهم من الشقاق والحروب باختلاف الجنس واللغة كل ما وقع وأدى بهم إلى هذا الضعف العام ؟ أرأيت لو حافظوا على هذه الاخوة الاسلامية أكانت هذه الفئة من ملاحدة الترك تجد سبيلا لاجتثاث هذه الدوحة الباسقة من جنة حكم الاسلام ، وامتلاخ هذا السيف الصارم من غمده ، والحيلولة بينه وبين كتاب الله المعصوم المنزل من عند الله باللغة العربية ، وسنة رسوله المصلح لشعوب البشر وهي بالعربية ، لاجل تكوين هذا الشعب وما أدغم ويدغم فيه من الشعوب تكوينا جديداً ، برابطة لغة تخلق خلقا جديداً ، لاجل أن يلحق بالشعوب الاوربية دعياء كما يلصق الولد بغير أبيه إلصاقاً فرياً ، فيقال ان رجلا عظيما جدد أو أوجد شعبا ولغة ودولة ودينا ؟ هيهات هيهات لما يبغون

لقد كان هذا الشعب (الترك) قائما باسم الاسلام على رياسة روحية يدين لها أو يها زهاء اربعمائة مليون من البشر ، ولو أوتي من العلم والحكمة ما يحسن به القيامة ، ومن الحزم والعزم ما يعزز به القيادة ، ومن النظام ما يحكم به السياسة ، لأ مكنه أن يسوس بها الشرق ، ثم يسود بنفوذها الغرب ، كما كان يقصد نابليون الكبير لو تم له البقاء في مصر

يعترض بعض أولي النظر القصير والبصر الكليل على توحيد اللغة في الشعوب المختلفة بأنه خلاف طبيعة البشر ، ويرد عليهم بان توحيد الدين أبعد من توحيد اللغة عن طبيعة

البشر، ان اريد بالبشر جميع أفرادهم، وان الحكماء مازالوا يسمون لجمع البشر على لغة واحدة مشتركة مع علمهم أن ترقى بعض اللغات بترقي أهلها في العلوم والفنون والسياسة والقوة يستحيل معه أن يرغبوا عنها إلى غيرها، ولم يسع أحد منهم لجمعهم على دين واحد، وان القرآن الذي شرع توحيد الدين مع شرعه ولغته لجميع البشر قد علمنا أن حكمة الله تعالى في خلق الانسان تأبى أن يكون الناس كلهم أمة واحدة تدين بدين واحد (١١ : ١١٨ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) وإنما دعاهم إلى هذه الرحمة ليقل الشقاء الذي يثيره الخلاف فيهم — هذا الخلاف الذي جعل أعلم شعوب الارض وأرقاهم في العمران يبذلون في هذا العهد أكثر ماتستغله شعوبهم من ثروة العالم في سبيل الحروب التي تنذر عمرانهم الخراب والدمار

دعا الاسلام البشر كلهم الى دين واحد يتضمن توحيد اللغة وغيرها من مقومات الامم فكانوا يدخلون فيه أفواجا حتى امتد في قرن واحد ما بين المحيط الغربي إلى الهند ولولا ما طرأ عليه من الابتداع ، وعلى حكوماته من الظلم والاستبداد ، وعلى شعوبه من الجهل والفساد ، والتفرق بالاختلاف، لدخل فيه أكثر البشر، ولصارت لغته لغة لكل من دخل في حظيرته من الامم ، فمن غرائزهم اختيار الافضل إذا عرفوه

قال أحد كبار علماء الالمان في الاستانة لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة : انه ينبغي لنا أن نقيم تمثالا من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا (برلين) قيل له لماذا؟ قال لانه هو الذي حول نظام الحكم الاسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب ، ولولا ذلك لعم الاسلام العالم كله ولكنا نحن الالمان وسائر شعوب أوربة عربا مسلمين

فهل يعقل أن يكون تقرير هذه الاصول التي توحد الامم والشعوب وتؤلف بينها بما يجمع كلمتهم عليها بالوازع النفسي من الوحي النفسي الذي نبع من نفس محمد ﷺ الامي في سن الكهولة ففاق بها جميع الانبياء والحكماء أم الاقرب إلى العقل ان تكون بوحي الله تعالى أفاضه عليه ؟؟

المقصد الخامس من مقاصد القرآن

(تقرير مزايا الاسلام العامة في التكاليف الشخصية من العبادات والمحظورات)

(ونلخص اهمها بالاجمال في عشر جمل)

(١) كونه وسطا جامعا لحقوق الروح والجسد ومصالح الدنيا والآخرة قال تعالى (١٤٣:٢ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) الآية وقد بينا في تفسيرها ان المسلمين وسط بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية والمنافع المادية كاليهود، والذين تغلب عليهم التعاليم الروحية، وتعذيب الجسد وإذلال النفس والزهد كالهندوس والنصارى وإن خالف هذه التعاليم أكثرهم

(٢) كون غايته الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بتزكية النفس بالايمان الصحيح ومعرفة الله والعمل الصالح ومكارم الاخلاق، ومحاسن الاعمال، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال، ولا بالشفاعات وخوارق العادات، وتقدم بيانه

(٣) كون الغرض منه التعارف والتأليف بين البشر لا زيادة التفريق والاختلاف وتقدمت شواهده في كونه عاما مكملا ومتمما لدين الله على ألسنة رسله في الكلام على آية القرآن وعموم بعثة محمد ﷺ وفي الكلام على الرسل من المقصد الثاني . وإنما تفصيل أصوله في تلك الوحدات الثمان التي بيناها في المقصد الرابع

(٤) كونه يسراً لا حرج فيه ولا عسر ولا إرهاق ولا إعنات، قال الله عز وجل (٢٨٦:٢ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وقال بلغت حكمته (٢٢٠:٢ ولو شاء الله لأعنتكم) وقال عظمت رأفته (١٨٥:٢ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال جلت منته (٢٧:٢٢ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج) وقال عمت رحمته (٧:٥ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج)

ومن فروع هذا الاصل ان الواجب الذي يشق على المكلف أداؤه ويحرجه يسقط عنه إلى بدل أو مطلقا كالمريض الذي يرجى برؤه والذي لا يرجى برؤه ومثله الشيخ الهرم — الاول يسقط عنه الصيام ويقضيه كالمسافر، والثاني لا يقضي

بل يكفر باطعام مسكين إذا قدر . وأما المحرم فيباح للضرورة بنص القرآن ، وإن كان تحريمه أو النهي عنه لسد ذريعة الفساد فيباح للحاجة كما بيناه في تفسير آيات الربا وآيات الصيام ، وآية محرمات الطعام

وقد بينا مسألة يسر الاسلام العام بالتفصيل في تفسير (٥:١٠٤ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) من الجزء السابع وجمع في رسالة خاصة.

(٥) منع الغلو في الدين وإبطال جعله تعذيباً للنفس بإباحة الطيبات والزينة بدون إسراف ولا كبرياء وقد فصلنا ذلك في تفسير الآيات الواردة في الأمر بالأكل من الطيبات في سورة البقرة وسورة المائدة وفي تفسير (٣١:٧ يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ٣٢ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) وقال تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم) وهو في (٥ : ١٧١) و (٦ : ٧٧) وفي هذا النهي اعتبار المسلمين لأنهم أولى بالانتهاء عن الغلو بأن دينهم دين الرحمة واليسر . والاحاديث الصحيحة في نهي المسلمين عن الغلو في العبادة وعن ترك الطيبات وعن الرهبانية والخصاء مبينة لهذه الآيات وهي مصداق تسمية النبي ﷺ له بالحنيفية السمحة

(٦) قلة تكاليفه وسهولة فهمها وقد كان الاعرابي يجيء النبي ﷺ من البادية فيسلم فيعلمه ما أوجب الله وما حرم عليه في مجلس واحد فيعاهده على العمل به فيقول «أفلح الاعرابي إن صدق» وكان هذا أعظم أسباب قبول الناس له. ولكن الفقهاء أكثروا التكاليف بآرائهم الاجتهادية حتى صار العلم بها متعسراً ، والعمل بها متعذراً

(٧) انقسام التكليف إلى عزائم ورخص ، وكان ابن عباس يرجح جانب الرخص وابن عمر يرجح العزائم . والناس درجات في التقصير والتشمير

والاعتدال، فيوافق البدوي الساذج والفيلسوف الحكيم وما بينهما من الطبقات، قال الله تعالى (٣٥: ٣٢ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا: فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير)

(٨) نصوص الكتاب وهدي السنة مراعى فيهما درجات البشر في العقل والفهم وعلو الهمة وضعفها، فالقطعي منها هو العام، وغير القطعي تتفاوت فيه الافهام، فيأخذ كل أحد منه بما أداه اليه اجتهاده، ولذلك كان ﷺ يقر كل أحد من أصحابه فيه على اجتهاده كما فعل عند ما نزلت آية البقرة في الخمر والميسر الدالة على تحريمها دلالة ظنية فتركهما بعضهم دون بعض، وأقر كلا على اجتهاده الى أن نزلت آيتا المائدة بالتحريم القطعي. قال تعالى (٢٩: ٤٣ وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وبيان ذلك أن الفرائض الدينية العامة فيه والمحرمات الدينية العامة لا يثبتان إلا بنص قطعي يفهمه كل أحد، والاول مذهب الحنفية وأما الثاني وهو التحريم فهو مذهب جمهور السلف أيضاً، وأما الآيات الظنية الدلالة والاحاديث الآحادية الظنية الرواية أو الدلالة فهي موكولة إلى اجتهاد من تثبت عنده في العبادات والاعمال الشخصية، وإلى اجتهاد أولي الامر في الاحكام القضائية والمسائل السياسية. وقد بينا هذا في مواضع من التفسير والمنار

(٩) معاملة الناس بظواهرهم وجعل البواطن موكولة إلى الله تعالى فليس لاحد من الحكام ولا الرؤساء الرسميين ولا الخليفة المسلمين أن يعاقب أحداً ولا أن يحاسبه على ما يعتقد أو يضمر في قلبه وانما العقوبات على المخالفات العملية للأحكام العامة المتعلقة بحقوق الناس ومصالحهم، وقد فصلنا هذا في خلاصة تفسير سورة براءة - التوبة

(١٠) مدار العبادات كلها على اتباع ما جاء به النبي ﷺ في الظاهر فليس لاحد فيها رأي شخصي ولا رياسة، ومدارها في الباطن على الاخلاص لله تعالى وصحة النية، والآيات والاحاديث في الامرين كثيرة

المقصد السادس من مقاصد القرآن

(بيان حكم الاسلام السياسي الدولي : نوعه وأساسه وأصوله العامة)

الاسلام دين هداية وسيادة وسياسة وحكم لان ماجاء به من إصلاح البشر في جميع شؤونهم الدينية ومصالحهم الاجتماعية والقضائية يتوقف على السيادة والقوة والحكم بالعدل ، وإقامة الحق ، والاستعداد لحماية الدين والدولة، وفيه أصول وقواعد

(القاعدة الاساسية الاولى للحكم الاسلامي)

الحكم في الاسلام للامة ، وشكله شوري، ورئيسه الامام الاعظم أو (الخليفة) منفذ لشرعه، والامة هي التي تملك نصبه وعزله ، قال الله تعالى في صفات المؤمنين (٤٢:٣٨ وأمرهم شورى بينهم) وقال لرسوله ﷺ (٣:١٥٩ وشاورهم في الامر) وكان ﷺ يشاور أصحابه في المصالح العامة من سياسية وحربية ومالية مما لا نص فيه في كتاب الله تعالى وقد بينت في تفسيرها حكمة ترك الشورى لاجتهاد الامة (١)

وقال تعالى (٤:٥٨ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وأولوا الامر هم أهل الحل والعقد والرأي الحصيف في مصالحها الذين تثق بهم الامة وتتبعهم فيما يقررونه بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية من سورتها (٨٣ وإذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه الى الرسول وإلى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فأولو الامر الذين كانوا مع الرسول وكان الامر يرد اليه واليهم في الشؤون العامة للأمة من الامن والخوف وغيرهما هم الذين كان ﷺ يستشيرهم في الامور الدقيقة والسرية المهمة . وكان يستشير جمهور المسلمين فيما لهم به علاقة عامة ويعمل برأي الاكثر وإن خالف رأيه كاستشارتهم في غزوة أحد في أحد الامرين : الحصار في المدينة أو

(١) راجع ص ١٩٩ جزء رابع تفسير

الخروج إلى أحد للقاء المشركين فيه . وكان رأيه ورأي بعض كبار الامة الاول ورأي الجمهور الثاني فنفذ رأي الاكثر ، ولكنه استشار في مسألة أسرى بدر خواص أولي الامر وعمل برأي أبي بكر ، كما فصلناه في تفسير سورة الانفال

وقد بينت في تفسير الآية الاولى (٥٨:٥) ماتدل عليه من قواعد الحكم الاسلامي وكونه أفضل من الحكم النيابي الذي عليه دول هذا العصر (١)

ومن الدلائل الكثيرة على أن التشريع القضائي والسياسي هو حق الامة المعبر عنها في الحديث بالجماعة أن القرآن يخاطب بها جماعة المؤمنين في هاتين الآيتين الخاصتين بالحكم العام والدولة وفي سائر الاحكام العامة كقوله (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) وما يليها من الآيات المتعلقة بالمعاهدات والحرب والصلح ، وما في معناها من سورة الانفال والبقرة وآل عمران ومثل قوله تعالى (٩:٤٩ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) وكذلك خطابه لهم في أحكام الاموال كالغنائم وتخميسها وقسمتها وأحكام النساء وغيرها (وقد بينا هذا كله في مواضعه من التفسير)

وقد صرح كبار النظار من علماء الاصول بان السلطة في الاسلام للأمة يتولاها أهل الحل والعقد الذين ينصبون عليها الخلفاء والأئمة ويعزلونهم اذا اقتضت المصلحة عزلهم ، قال الامام الرازي في تعريف الخلافة : هي رئاسة عامة في الدين والدنيا لشخص واحد من الاشخاص . وقال في القيد الاخير (الذي زاده على من قبله) هو احتراز عن كل الامة اذا عزلوا الامام لفسقه . قال العلامة السعد التفتازاني في شرح المقاصد عند ذكر هذا التعريف وما علل به القيد الاخير : وكأنه أراد بكل الامة أهل الحل والعقد واعتبر رئاستهم على من عداهم أو على كل من آحاد الامة اه وقد فصلنا مسألة سلطة الامة في كتابنا (الخلافة أو الامامة العظمى)

فهذه القاعدة الاساسية لدولة الاسلام أعظم إصلاح سياسي للبشر قررها

---

(١) راجع ص ١٨٠-٢٢٢ ج٥ تفسير

القرآن في عصر كانت فيه جميع الامم مرهقة بحكومات استبدادية استعبدتها في أمور دينها ودنياها ، وكان أول منفذ لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن يقطع بأمر من أمور السياسة والادارة العامة للأمة إلا باستشارة أهل الرأي والمكانة في الامة ، ليكون قدوة لمن بعده

وثم جرى على ذلك الخلفاء الراشدون فقال الخليفة الاول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) في أول خطبة خطبها على منبر رسول الله ﷺ عقب مبايعته: أما بعد فقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فاذا استقمت فأعينوني ، واذا زغت فقوموني . وقال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) من رأى منكم في عوجا فليقوّمه . فقال له اعرابي لو رأينا فيك عوجا اقومناه بسيوفنا ، فقال الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه . وكان يجمع أهل العلم والرأي من الصحابة ويستشيرهم في كل مسألة ليس فيها نص من كتاب الله ولا سنة أو قضاء من رسوله ﷺ وقال الثالث عثمان (رض) أمري لأمركم تبع . وكذلك كان عمل الخليفة الرابع علي المرتضى رضي الله عنه وكرم وجهه ولا أذكر له كلمة مختصرة مثل هذه الكلمات على المنبر .

وإذا أوجب الله المشاورة على رسوله فغيره أولى ، ولا يصح أن يكون حكم الاسلام ادنى من حكم ملكة سبأ العربية فقد كانت مقيدة بالشورى ، ووجد ذلك في أمم أخرى ، وان جهل ذلك من جهله من الفقهاء

ولكن ملوك المسلمين زاغوا بعد ذلك عن هذا الصراط المستقيم إلا قليلا منهم ، وشايعهم علماء الرسوم المنافقون ، وخطباء الفتنة الجاهلون ، حتى صار المسلمون يجهلون هذه القاعدة الاساسية لحكومة دينهم ، وكان من حسن حظ الافرنج في حربهم الصليبية أن كان سلطان المسلمين الذي نصره الله عليهم يقتفي في حكمه اثر الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز وهو صلاح الدين الايوبي (رح) الذي قال لأحد رجاله المتميزين عنده وقد استعداه على رجل غشه « ماعسى ان أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيه ممتثلة ، وإنما انا عبد الشرع وشحنته ، فالحق يقضي لك او عليك » ومعنى عبارة السلطان انه ليس إلا

منفذاً لحكم الشرع ـ كالشحنة وهو صاحب الشرطة ـ وأن القضاة مستقلون بالحكم لانهم يحكمون بالشرع العادل المساوي بين الناس. وقد اقتبس الصليبيون منه طريقة حكمه ثم درسوا تاريخ الاسلام فعرفوا منه ما جهله أكثر المسلمين المتأخرين حتى أسسوا حكم دولهم على قاعدة سلطة الامة التي جاء بها الاسلام، وصاروا يدعونها لانفسهم، ويعيبون الحكومات الاسلامية باستبدادها، ثم بجمل الاسلام نفسه سبب هذا الاستبداد والحكم الشخصي، وصار المسلمون يصدقونهم ويري المشتغلون بالسياسة وعلم الحقوق منهم انه لا صلاح لحكوماتهم إلا بتقليدهم، فكان هذا من أسباب ضياع اعظم مزايا الاسلام السياسية التشريعية وذهاب أكثر ملكه

(أصول التشريع في الاسلام)

المعروف عند جمهور أهل السنة ان أصول التشريع الاساسية أربعة (١) القرآن المجيد، والمشهور عند علماء الاصول ان آيات الاحكام العملية فيه من دينية وقضائية وسياسية لا تبلغ عشر آياته، وعدها بعضهم خمسمائة آية للعبادات والمعاملات، والظاهر أنهم يعنون الصريح منها وأكثرها في الامور الدينية لان أكثر أمور الدنيا موكولة إلى عرف الناس واجتهادهم (٢) ماسنه رسول الله ﷺ للعمل والقضاء به من بيان لكتاب الله تعالى وقالوا أيضا ان أحاديث الاحكام الاصول خمسمائة حديث تمدها أربعة آلاف فيما أذكر (٣) إجماع الامة واتفق الائمة على الاحتجاج باجماع الصحابة في الدينيات، وفي إجماع المجتهدين بعدهم تفصيل (٤) اجتهاد الأئمة والامراء والقضاة والقواد في الامور القضائية والسياسية والادارية والحربية، وخصه بعض الفقهاء بالقياس وأنكر بعضهم القياس وقيده آخرون كما فصلنا ذلك في تفسير آية (٥: ١٠١)

وورد في هذا الترتيب أحاديث وآثار تدل على العمل به في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين (منها) حديث معاذ أن النبي ﷺ لما أرسله إلى اليمن قال له «كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟» قال أقضي بما في كتاب الله، قال «فان لم يكن في كتاب الله؟» قال فبسنة رسول الله ﷺ قال «فان لم يكن في سنة رسول الله» قال أجتهد رأيي لا آلو. قال معاذ: فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم

قال « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله (ص) رواه أبو داود والترمذي من طريق الحارث بن عمرو وفيه مقال وله شواهد ، وأما العمل بهذا الترتيب فهو معروف عن الخلفاء الراشدين وقد بيناه في محله وبه أمر عمر (رض) قاضيه شريح في كتابه المشهور في القضاء ولكن الفقهاء يقدمون الاجماع حتى العرفي عند علماء الاصول ـ وهو مختلف فيه ـ على النص.

والاصل في شرعية اجتهاد الرأي للحكام حديث « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد » رواه الجماعة كلهم بل كان النبي ﷺ يعطي أمراء الجيوش والسرايا حق الحكم بما يرون فيه المصلحة بقوله للواحد منهم « وإذا حاصرت أهل حصن فارادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فانك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا » رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه من حديث بريدة . وقال مثل ذلك في إنزالهم على ذمة الامير دون ذمة الله ورسوله لئلا يخفرها.

(قواعد الاجتهاد من النصوص)

أحكام الكتاب والسنة منها أحكام خاصة بالاعمال والوقائع ومنها قواعد عامة للتشريع، والاحكام الخاصة منها ماهو قطعي الرواية والدلالة لا مجال للاجتهاد فيه ولا معدل عن الحكم به إلا لمانع شرعي من فوات شرط كدرء حد بشبهة أو عذر ضرورة، وقد أمر عمر (رض) في المجاعة ألا يحد سارق. ومنها ماهو غير قطعي يعمل فيه باجتهاد من يناط به الحكم والتنفيذ من أمير أو قاض أو قائد جيش كما تقدم قريبا في العبادات والمحرمات .

وأما القواعد العامة فهي ما تجب مراعاته في الاحكام المختلفة، وأهمها في الاسلام تحري الحق والعدل المطلق العام ، والمساواة في الحقوق والشهادات والاحكام ، وتقرير المصالح ، ودرء المفاسد ، ومراعاة العرف بشرطه ، ودرء الحدود بالشبهات وكون الضرورات تبيح المحظورات ، وتقدير الضرورة بقدرها. ودوران المعاملات على اكتساب الفضائل ، واجتناب الرذائل ، ونكتفي بالشواهد في العدل والظلم

(نصوص القرآن في ايجاب العدل المطلق والمساواة فيه وحظر الظلم)

لما كان العدل أساس الاحكام وميزان التشريع وقسطاسه المستقيم أكد الله تعالى الامر به والمساواة فيه بين الناس في السور المكية والمدنية . قال تعالى (١٦ : ٩٠ ان الله يأمر بالعدل والاحسان) وقال (٤:٥٧ ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) وقال (٥:١٣٥ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً)

أمر تعالى المؤمنين بالمبالغة في القيام بالقسط وهو العدل فان القوام (بتشديد الواو) صيغة مبالغة للفاعل بالقيام بالامر وعدم التهاون والتقصير فيه، وبأن تكون شهادتهم في المحاكمات وغيرها لله عز وجل لا لهوى ولا لمصلحة احد ، ولو كانت على انفسهم أو والديهم والاقربين منهم ، وأن لا يحابوا فيها غنياً لغناه تقرباً اليه أو تكريماً له ، ولا فقيراً لفقره رحمة به وشفقة عليه ، ونهاهم عن اتباع الهوى في الحكم او الشهادة كراهة ان لا يعدلوا فيها لمراعاة من ذكر من الناس، وأنذرهم عقابه إن لووا ومالوا عن الحق أو أعرضوا عنه .

وقال تعالى (٥:٨ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) فهذه الآية متممة لما قبلها فهناك يأمر بالمساواة في العدل والشهادة بين النفس وغيرها ، وبين القريب والبعيد ، وبين الغني والفقير ، وههنا يأمر بالمساواة فيها بين الانسان وأعدائه مهما يكن سبب عداوتهم لا فرق فيها بين ديني ودنيوي، فالشنآن البغض والعداوة وقيل مع الاحتقار وقد قال (ولا يجرمنكم

شنآن قوم على أن لا تعدلوا) لا يحملنكم بغضهم وعداوتهم لكم او بغضكم وعداوتكم لهم على ترك العدل فيهم ، فالعدل بالمساواة اقرب الى تقوى الله ، وأنذر تارك العدل للشنآن بمثل ما انذر به تاركه للمحاباة ، أنذر كلا منهما بأن الله خبير بما يعمله لا يخفى عليه منه شيء ، فهو يحاسبه على عمله وعلى نيته وقصده منه ، فيثيبه او يعاقبه على ما يعلم من امره .

فالعدل هو الميزان في قوله تعالى (٤٢ : ١٧ الله الذي انزل الكتاب بالحق والميزان) وقوله (٥٧ : ٢٥ لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس) الآية : فخير الناس من يصدهم عن الظلم والعدوان هداية القرآن ، ويليهم من يصدهم العدل الذي يقيمه السلطان ، وشرهم من لا علاج له إلا السيف والسنان ، وهو المراد بالحديد

فقوام صلاح العالم بالايمان بالكتاب الذي يحرم الظلم وسائر المفاسد فيجتنبها المؤمن خوفا من عذاب الله في الدنيا والآخرة ورجاء في ثوابه فيهما ، وبالعدل في الاحكام الذي يردع الناس عن الظلم بعقاب السلطان

ويؤيد قاعدة إقامة العدل ماورد في تحريم الظلم والوعيد الشديد عليه . فقد ذكر الظلم في مئات من آيات القرآن اسوأ الذكر ، وقرن في بعضها بأسوأ العواقب في الدنيا والآخرة ، وان الجزاء عليه فيهما اثر لازم له لزوم المعلول للعلة والمسبب للسبب ، و ن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم (ولا يظلم ربك احداً) ومن اثره وعاقبته في الدنيا انه مهلك الامم ومخرب العمران . قال تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) اي ما كان من شأنه ولا من سنته في نظام الاجتماع ان يهلك الامم بظلم منه لهم ، او بشرك به يقع منهم ، وهم مصلحون في سيرتهم وأعمالهم ، وإنما يهلكهم بظلمهم وإفسادهم ، كما قال (وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) وقال في الاحكام (ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون) ورد هذا في حكم القصاص ،

(قواعد مراعاة الفضائل في الاحكام والمعاملات)

من استقرأ الاحكام الشرعية في الكتاب والسنة بأنواعها من شخصية ومدنية وسياسية وحربية يرى أن الغرض منها كلها قاعدة مراعاة الفضائل فيها من الحق والعدل والوفاء بالعهود والعقود ، والرحمة والحبة والمواساة والبر والاحسان ، واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والعقود والكذب والخيانة والقسوة والغش والخداع وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والسحت وشره التجارة بالدين والخرافات . وسيأتي الكلام في الاصلاح الحربي

والعبرة في كل هذه القواعد التي فضل بها الاسلام جميع شرائع الانبياء وقوانين الحكماء والعلماء أنها قد جاءت على لسان نبي أمي نشأ بين أميين ، فهل كانت بوحي نبع بعد الكهولة من نفسه ، أم هو كما بلغنا وحي من ربه ؟

المقصد السابع من فقه القرآن

(الارشاد إلى الاصلاح المالي)

(تمهيد) بينا مقاصد القرآن أو أصول فقهه في إصلاح البشر من طريق التدين والايمان، والعمل والاذعان ، ومن طريق العقل والبرهان والفكر والوجدان، ومن طريق الحكم العادل والسلطان ، وما يتعلق منه بالافراد ، وما يتعلق منه بوحدة الانسانية والاجناس ، وبقي ما يتعلق بفقهه في إصلاح المفاسد الاجتماعية الكبرى الذي يتوقف كماله على ما تقدم كله وهي :— (١) طغيان الثروة ودولتها (٢) عدوان الحرب وقسوتها (٣) ظلم المرأة واستباحتها (٤) ظلم الضعفة والاسرى وسلب حريتها، وهو الرق المطلق — ذلك بان جميع حظوظ الدنيا منوطة بها ، ولا يتم الاصلاح فيها إلا بتعاون الدين والعقل ، والعلم والحكمة والحكم ، وإننا نتكلم عليها بالاجمال ، مبتدئين بالمال ، والآيات فيه تدور على سبعة أقطاب ، فنقول :

(١ـــ القاعدة العامة في المال كونه فتنة واختباراً في الخير والشر)

القاعدة الاساسية للقرآن في المـال انه فتنة أي اختبار وامتحان للبشر في حياتهم الدنيوية من معايش ومصالح إذ هو الوسيلة إلى الاصلاح والافساد، والخير والشر ، والبر والفجور ، وهومثار التنازع والتنافس في كسبه وإنفاقه ، وكنزه واحتكاره ، وجعله دُولة بين الاغنياء ، وتداوله في المصالح والمنافع بين الناس

قال الله عز وجل (٣ : ١٨٦ لتبلون في أموالكم وأنفسكم) وقال حكاية عن نبيه سليمان عليه السلام حين رأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده (٢٧ : ٤٠ هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر) الآية. وقال (٣٤ : ٣٧ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا) الآية وقال [٣٠: ٣٩ وما آتيتم من ربا ليربو في اموال الناس فلا يربو عند الله، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون] وقال [٣: ١٤ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة] الآية وقال تعالى [٨ : ٢٨ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم] ومثلها في سورة التغابن [٦٤ : ١٥] ويليها الترغيب في الانفاق وقصر الفلاح على الوقاية من شح النفس . وقال تعالى [١٨ : ٤٦ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا] انظر هذا مع قوله تعالى في اول هذه السورة وهي الكهف [٧ إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم احسن عملا] والمراد من العمل مايتعلق بما على الارض من العمران وأحسنه أنفعه للناس وأرضاه لله بشكره، ثم ماضرب به من المثل بصاحبي الجنتين ، والمثل للحياة الدنيا بنبات الارض .

وقال تعالى في تعليل قسمة الفيء بين مستحقيه [٥٩ : ٧ كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم] والدولة بضم الدال المال المتداول أي لئلا يكون المال محصوراً

في الاغنياء متداولا بينهم وحدهم . وقال تعالى [٩:٣٤ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) الخ الكنز هو المنع من التداول الذي يكون به المال نافعاً للناس

والشواهد في فتنة المال في القرآن كثيرة تجد الكلام عليها في مواضع من هذا التفسير ولا سيما الجزء العاشر منه[1] فمن الآيات في ارتباط السعادة والفلاح بانفاق المال والشقاء بمنعه ما هو للترهيب وما هو للترغيب ، وجمع بين الترغيب والترهيب في قوله [٢ ، ١٩٥ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة] الآية (٢) أي ان منع انفاق المال في سبيل الله من أسباب التهلكة . ثم قال في الترغيب (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) وكذا قوله تعالى من سورة الليل [٩٢ ، ٦ـ ١١ ويؤيد ذلك شواهد القطب الثاني من آيات المال وهي :

(٢ ـ الآيات في ذم طغيان المال وغروره وصده عن الحق والخير)

قال تعالى في سورة العلق [كلا إن الانسان ليطغى*أن رآه استغنى] أي حقاً ان الانسان ليتجاوز حدود الحق والعدل والفضيلة برؤية نفسه غنياً بالمال . وقد نزلت هذه وما بعدها في أبي جهل أشد أعداء النبي ﷺ والاسلام في أول ظهوره وهي أول ما نزل في ذلك . ومثلها سورة [تبت يدا أبي لهب وتب* ما أغنى عنه ماله وما كسب] الخ ومثلها سورة الهمزة [الذي جمع ما لا وعدده*يحسب أن ماله أخلده] الخ وفي معناها آيات من سورتي المدثر والقلم وغيرهما

(٣ ـ ذم البخل بالمال والكبرياء به والرياء في انفاقه)

قال تعالى (٣:١٨٠ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) وقال (٢ : ٢٦٠ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) الآية . فسروا الفحشاء بالبخل أي الشيطان

(١) راجع في فهرسه كلمة المال فتنته (٢) ص ١٣ ج ٢ تفسير . طبعة ثانية

يصدكم عن الانفاق في سبيل الله بتخويفكم من الفقر ويأمركم بالبخل الذي تخش شره وضرره . وقال بعد الامر بالاحسان بالوالدين وبذي القربي واليتامى والمساكين والجيران (٤ : ٣٥ والله لايحب كل مختال فخور ٣٦ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) ومن الشواهد آيات ٩ : ٧٧و ٧٨وآية ٤٧ ، ٣٨ وآية ١٩:٤ وآية ٢ : ١٨٨ وآية ٤ :١٦١ وآية ٤ :١٩ وآية ٩ ، ٣٤ و ٣٥

(٤ـ مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه على الايمان والعمل الصالح)

قال تعالى في سورة نوح عليه السلام حكاية عنه [فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا] وفي معناه ما حكاه عن هود عليه السلام في سورته [١١ : ٥٢] وفي معناه قوله تعالى من سورة الجن [٧٢ : ١٣ — ١٧] والاصل في ذلك كله بيان نعمته على آدم وحواء وذريتهما بهداية الدين في آخر قصته من سورة طه [٢٠ : ١٢٢ و ١٢٣] الآيات.

ومن الشواهد على هذه الحقيقة التي غفل عنها المفسرون وغيرهم قوله تعالى عطفاً على الامر بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام (٩: ٢٨ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) أي وإن خفتم فقراً يعرض لكم بحرمان مكة مما كان ينفقه فيها المشركون في موسم الحج وغيره فسوف يغنيكم الله تعالى بالاسلام وفتوحه وغنائمه [1] وكذا قوله للذين أعطوا الفداء من أسرى بدر [٨: ١٠٠ إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيرا مما أخذ منكم] وكذلك كان ، فقد أغنى الله العرب الفقراء عامة ومن أسلم من أولئك الاسرى بالاسلام ، فجعلهم أغنى الامم والاقوام [2]

وقد امتن الله تعالى على نبيه الاعظم بقوله (ووجدك عائلا فأغنى) وامتن على قومه بتوفيقهم للتجارة الواسعة برحلة الشتاء والصيف في سورة خاصة بذلك ، وسمى المال الكثير خيراً بقوله في صفات الانسان (وانه لحب الخير لشديد) وقال (٢ : ١٨٠ إن ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين) الآية

(١) راجع تفسير الآية في ص ٢٧٧ ج ١٠ تفسير (٢) راجع ص ١٠٠ منه

﴿ ٥ — ما أوجب الله من حفظ المال من الضياع والاقتصاد فيه ﴾

قال تعالى (٤: ٥ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) قيام الشيء وقوامه (بالكسر والفتح) مايستقيم به ويحفظ ويثبت ، أي جعلها قوام معايشكم ومصالحكم ، والسفهاء هم المسرفون المبذرون لها لصغر سنهم دون الرشد أو لفساد أخلاقهم وضعف عقولهم وقال تعالى في صفات المؤمنين (٢٥: ٦٧ والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) الاسراف التبذير والافراط والقتر والقتور والاقتار الاقلال والتضييق في النفقة

(٦ — إنفاق المال آية الايمان والوسيلة لحياة الامة وعزة الدولة)

هذا هو القطب الاعظم من أقطاب الآيات المنزلة في المال وأكثرها فيه ، وما ذكر قبله وسائل له ، ومابعده بيان للعمل به ، وأظهر الشواهد فيه ان الله تعالى جعله هو الفصل بين الاسلام الصحيح المقترن بالاذعان ، المبني على اساس الايمان ، وأن دعوى الايمان بدون شهادته باطلة ، وإن كانت دعوى الاسلام تقبل مطلقا لان أحكامه العملية تبنى على الظواهر ، والله تعالى هو الذي يحاسب على السرائر ، والاصل في هذه المسألة قوله تعالى (٤٩ : ١٤ و١٥) قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) الآيتين فقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في تحقيق صحة الايمان . ويلي هذا الشاهد آية البر الناطقة بان بذل المال على حبه بالاختيار ، أول آيات الايمان ، (٢: ١٧٧ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) الخ

ومن الآيات في تفضيل المؤمنين المنفقين على غيرهم وتفاوتهم في ذلك قوله تعالى (٤ : ٩٥ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى) اقرأ تتمة الآية وما بعدها . وقال تعالى (٥٧: ١٠ وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والارض ، لا يستوي منكم ن أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد

وقاتلوا ، وكلاً وعد الله الحسنى)والآيات في هذا الموضوع كثيرة ، ويراجع تفصيلها في تفسير الجزء الثاني والجزء العاشر وهذا الجزء [١١] من التفسير

ومن الآيات البليغة في الترغيب فيه ومضاعفة ثوابه، وبيان آدابه ، عشرون آية من أواخر سورة البقرة هي من أواخر ما نزل من القرآن يتخللها الوعيد الشديد على أكل الربا فراجعها من آية ٢٦١ – ٢٨١ مع تفسيرها من جزء التفسير الثالث

ثم راجع في فهرس الجزء العاشر كلمة (المال: الجهاد به اقوى آيات الايمان وقوام الدين والدولة) يرشدك الى عشر صفحات متفرقة فصلنا فيها هذه المسألة

﴿ ٧ الحقوق المفروضة والمندوبة في المال والاصلاح المالي في الاسلام ﴾

قد عقدت لتفسير قوله تعالى (٩ : ١٠٣ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فصلا « في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والاصلاح المالي للبشر وامتياز الاسلام بذلك على جميع الاديان» ولخصت أصول هذا الاصلاح في أربعة عشر أصلا ، فراجعها فما هي منك ببعيد (ص ٢٧)

وموضوع بحثنا في هذا الاستطراد وهو دلائل الوحي المحمدي انه لا يعقل أن يكون محمد النبي الامي الذي عرفنا خلاصة تاريخه قد اهتدى بعقله أو بوحي من نفسه لنفسه إلى هذه الحقائق التي فاقت وعلت جميع الكتب الالهية والبشرية في أرقى عصور العلم والحكمة والقوانين ، وانما المعقول ان يكون هذا بوحي منه عز وجل أفاضه على خاتم النبيين فلا يحتاجون بعده إلى وحي آخر

المقصد الثامن من فقه القرآن

﴿ اصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على ما فيه الخير للبشر ﴾

التنازع بين الاحياء في مرافق المعيشة ووسائل المال والجاه غريزة من غرائز الحياة ، وإفضاء التنازع إلى التعادي والاقتتال بين الجماعات والاقوام، سنة من سنن الاجتماع ، وضرورة من ضروراته، قد تكون وسيلة من وسائل العمران، فان كان

التنازع بين الحق والباطل كان الفلج للحق ، وإن كان بين العلم والجهل كان الظفر للعلم ، وإن كان بين النظام والاختلال كان النصر للنظام ، وإن كان بين الصلاح والفساد كان الغلب للصلاح ، كما قال تعالى في الحق والباطل (٢١ : ١٨ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) وقال في بيان نتيجة المثل الذي ضربه لها (١٣ : ١٧ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض)

وأما التنازع والتعادي والتقاتل على الشهوات الباطلة ، والسلطة الظالمة ، واستعباد القوي للضعيف ، والاستكبار والعلو في الارض ، فان ضرره كبير ، وشره مستطير ، يزيد ضراوة البشر بسفك الدماء ، ويورثهم الحقد ويؤرث بينهم العداوة والبغضاء ، وقد اشتدت هذه المفاسد في هذا الزمان ، حتى خيف أن تقضي على هذا العمران العظيم في وقت قصير ، بما استحدثه العلم الواسع من وسائل التخريب والتدمير ، كالغازات السامة ومواد الهدم والتحريق تقذفها الطيارات المحلقة في جو السماء ، على المدائن المكتظة بالالوف من الرجال والنساء والاطفال ، فتقتلهم في ساعة واحدة أو ساعات معدودة

وقد حارت الدول الحربية في تلافي هذا الخطر ، وترى دهاقين السياسة في كل منها يتفاوضون مع أقرانهم لوضع نظام لتقرير السلام ، ودرء مفاسد الخصام ، بمعاهدات يعقدونها ، وأيمان يتقاسمونها ، ثم ينقضون خائنين ، أو ينقضون ما أبرموا متأولين ، ويعودون إلى مثله مخادعين

وقد بين الله تعالى في كتابه سبب هذه الخيبة بما وجدنا مصداقه في هذه الدول بأظهر مما كان في عرب الجاهلية الذين نزل هذا البيان في عهدهم ، كأنه نزل في هؤلاء الافرنج دون غيرهم ، وهو من عجائب القرآن في لفظه ومعناه. وذلك قوله تعالى بعد الامر بالايفاء بعهده ، والنهي عن نقضه (١٦ : ٩٢ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة) والمعنى لا تكونوا في نقض عهودكم والعود إلى تجديدها كالمرأة الحمقاء التي تنقض غزلها من بعد قوة إبرامه نقض أنكاث (وهو جمع نكث بالكسر ما نقض ليغزل مرة أخرى) حال كونكم تتخذون عهودكم دخلا بينكم

(والدخل بالتحريك الفساد والغش الخفي الذي يدخل في الشيء وما هو منه) لاجل ان تكون أمة أربى من أمة أخرى رجالا ، وأكثر ربحا ومالا ، وأقوى اسنة ونصالا

والمراد ان معاهدات الصلح والاتفاق بين الامم يجب أن يقصد بها الاصلاح والعدل والمساواة فتبنى على الاخلاص دون الدخل والدغل الذي يقصد به ما ذكر

ولو طلبوا المخرج والسلامة من هذا الخطر لوجدوهما في دين الاسلام ، فهو هو دين الحق والعدل والسلام ، وهاك بعض الشواهد على هذا من قواعد الحرب والسلم في آيات القرآن.

(أهم قواعد الحرب والسلام في دين الاسلام والشواهد عليها من آيات القرآن)

قد استنبطنا من آيات سورة الانفال ٢٨ قاعدة من القواعد الحربية العسكرية والسياسية في القتال والصلح والمعاهدات أجملناها في الباب السابع من خلاصة تفسير السورة (ص١٣٩ – ١٤٤ من جزء التفسير العاشر) وأحلنا في تفصيلها على تفسير الآيات المستنبطة منها ، ثم استنبطنا من آيات سورة التوبة ١٣ قاعدة حربية أكثرها في المعاهدات ووجوب الوفاء بها وشرط نبذها وفي الهدنة وتأمين الحربي للدخول في دار الاسلام – و ٢٠ حكما من أحكام الحرب والجزية سردناها في خلاصة تفسير هذه السورة(*) ثم أتينا ببضع قواعد منهما ومن غيرهما من السور فيما أفردناه من هذا البحث ، لان المقام مقام إيراد الشواهد المجملة على أنواع الاصلاح الاسلامي من القرآن للاستدلال بها على ان جملة هذه العلوم لا يعقل أن تكون كلها من آراء محمد النبي الامي الذي عاش قبل النبوة عيشة العزلة والانفراد ، إلا قليلا من رعي الغنم في الصبا والتجارة في الشباب. وقد قصرت عن كل نوع منها كتب الاديان الالهية ، وكتب الحكمة والقوانين البشرية

(*) تراجع في ص ١٢٣ – ١٢٨ ج ١٠ من التفسير

﴿ القاعدة الاولى في الحرب المفروضة شرعا ﴾

ورد الامر بقتال المعتدين لما سيأتي من درء المفاسد وتوطيد المصالح مقترنا بالنهي عن قتال الاعتداء والبغي والظلم ، والشاهد عليه قوله تعالى (٢ : ١٩٠ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين) وتعليل النهي عن قتال الاعتداء بأن الله تعالى لايحب المعتدين مطلقا دليل على أن هذا النهي محكم غير قابل للنسخ ، ومن ثم بينا في تفسير هذه الآية من جزء التفسير الثاني أن حروب النبي ﷺ للكفار كانت كلها دفاعا ليس فيها شيء من العدوان ،

﴿ القاعدة الثانية في الغرض من الحرب ونتيجتها ﴾

وهي أن تكون الغاية الايجابية من القتال — بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن — حماية الاديان كلها ، وعبادة المسلمين لله وحده ، ومصلحة البشر ، وإسداء الخير اليهم ، لا الاستعلاء عليهم والظلم لهم ، والشاهد الاول عليه قوله تعالى بعد الاذن الاول بالقتال الدفاعي المظلومين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق لاجل عبادة الله وحده (٢٢ : ٤٠ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ٤١ الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور)

ذكر في تعليل اذنه لهم بالقتال المذكور ثلاثة أمور (أولها) كونهم مظلومين معتدى عليهم في أنفسهم ، ومخرجين نفيا من أوطانهم وأموالهم لاجل دينهم وإيمانهم ، وهذا سبب خاص بهم بقسميه الشخصي والوطني ، أو الديني والدنيوي (ثانيها) انه لولا إذن الله للناس بمثل هذا الدفاع لهدمت جميع المعابد التي يذكر فيها اسم الله تعالى أتباع الانبياء كصوامع العباد وبيع النصارى وصلوات اليهود

(كنائسهما) ومساجد المسلمين بظلم عباد الاصنام ومنكري البعث والجزاء ، وهذا سبب ديني عام صريح في حرية الدين في الاسلام وحماية المسلمين لها ولمعابد أهلها وكذلك كان

(ثالثها) أن يكون غرضهم من التمكن في الارض والحكم فيها إقامة الصلاة المزكية للانفس بنهيها عن الفحشاء والمنكر كما وصفها تعالى ، والمربية للانفس على مراقبة الله وخشيته ومحبته – وإيتاء الزكاة المصلحة للامور الاجتماعية والاقتصادية – والامر بالمعروف الشامل لكل خير ونفع للناس – والنهي عن المنكر الشامل لكل شر وضر يلحق صاحبه او غيره من الناس

(القاعدة الثالثة — إيثار السلم على الحرب)

هذه القاعدة مبنية على القاعدتين اللتين قبلها اذ علم بهما أن الحرب ضرورة يقتضيها ما ذكر فيهما من المصالح ودفع المفاسد ، وان السلم هي الاصل التي يجب أن يكون عليها الناس ، فلهذا أمرنا الله بإيثارها على الحرب اذا جنح العدو لها ، ورضي بها ، والشاهد عليه قوله تعالى (٨ : ٦١ وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) فراجع تفسيرها في ص ٦٩ و ١٤٠ من جزء التفسير العاشر

(القاعدة الرابعة الاستعداد التام للحرب لأجل الارهاب المانع منها)

إن الذي يجب أن تكون عليه الدولة قبل الحرب هو إعداد الامة كل ما تستطيع من أنواع القوة الحربية ورباط الخيل في كل زمان بحسبه على أن يكون القصد الاول من ذلك إرهاب الاعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على بلاد الامة أو مصالحها ، أو على أفراد منها أو متاع لها حتى في غير بلادها ، لاجل أن تكون آمنة في عقر دارها ، مطمئنة على أهلها ومصالحها وأموالها ، وهذا ما يسمى في

عرف هذا العصر بالسلم المسلحة أو التسليح السلمي ، وتدعيه الدول العسكرية فيه زوراً وخداعا فتكذبها أعمالها ، ولكن الاسلام امتاز على الشرائع كلها بأن جعله دينا مفروضا ، فقيد به الامر باعداد القوى والمرابطة للقتال ، وذلك قوله عز وجل (٨ : ٦٠ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)

(القاعدة الخامسة الرحمة في الحرب)

إذا كان الغلب والرجحان في القتال للمسلمين المعبر بالاثخان في الاعداء وأمنوا على أنفسهم ظهور العدو عليهم فالله تعالى يأمرهم أن يكفوا عن القتل ، ويكتفوا بالاسر ، ثم يخيرهم في الاسارى إما بالمن عليهم باطلاقهم بغير مقابل ، وإما بأخذ الفداء عنهم ، وذلك نص قوله تعالى في سورة محمد ﷺ (٤٧ : ٤ فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض) الآية وقد أوردناها وبينا معناها (في تفسير ٨ : ٦٧ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض الآية (راجع تفسيرها في الجزء العاشر)

(القاعدة السادسة الوفاء بالمعاهدات وتحريم الخيانة فيها)

وجوب الوفاء بالعهود في الحرب والسلم وتحريم الخيانة فيهما سرا او جهرا ، كتحريم الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية ، كلاهما من أحكام الاسلام القطعية ، والآيات في ذلك متعددة محكمة لا تدع مجالا لاباحة نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة ، وعده قصاصة ورق عند إمكان نقضه بالحيلة (منها) والآيات فيها كثيرة تقدم أهمها في الجزء العاشر من التفسير [1]

---

(١) راجع صفحة ٤٩ — ٦٠ و ١٠٨ و ١٤٠ و ١٥٠ و ١٨١ منه

﴿ القاعدة السابعة الجزية وكونها غاية للقتال لا علة ﴾

قلت في تفسير قوله تعالى في قتال أهل الكتاب من آية الجزية (٩: ٢٩ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) مانصه :

هذه غاية للأمر بقتال أهل الكتاب ينتهي بها اذا كان الغلب لنا ، أي قاتلوا من ذكر عند وجود مايقتضي وجوب القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم أو تهديد أمنكم وسلامتكم كما فعل الروم فكان سبباً لغزوة تبوك ، حتى تأمنوا عدوانهم باعطائكم الجزية في الحالين اللذين قيدت بهما (ثم قلت)

هذا ــ وان الجزية في الاسلام لم تكن كالضرائب التي يضعها الفاتحون على من يتغلبون عليهم فضلا عن المغارم التي يرهقونهم بها ؛ وإنما هي جزاء قليل على ماتلتزمه الحكومة الاسلامية من الدفاع عن أهل الذمة وإعانة للجند الذي يمنعهم أي يحميهم ممن يعتدي عليهم كما يعلم من سيرة أصحاب رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة وأعدلهم في تنفيذها . والشواهد على ذلك كثيرة أوردنا طائفة منها في تفسير الآية بعد ماتقدم آنفاً(١)

ومن تأمل هذه القواعد رأى انه لم يسبق الاسلام إلى مثلها دين من الاديان ، ولا قانون دولي ، ولا إرشاد فلسفي أو أدبي ، ولا تبعته بها أمة بتشريع ولا عمل . أفليس هذا وحده دليلا واضحاً لدى من يؤمن بوجود رب للبشر عليم حكيم ، بان محمداً العربي الامي قد استمدها بوحي منه عز وجل ، وان عقله وذكاءه لم يكن ليبلغ هذه الدرجة من العلم والحكمة في هذه المعضلات الاجتماعية بدون هذا الوحي؟ فكيف إذا أضفنا اليها ماتقدم وما يأتي من المعارف الالهية والادبية والاجتماعية والأنباء الغيبية وغير ذلك من دلائل نبوته ﷺ ؟

---

(١) راجع ذلك في ص ١٨١ — ٣٠٥ ج ١٠

المقصد التاسع من فقه القرآن

﴿ إعطاء النساء جميع الحقوق الانسانية والدينية والمدنية ﴾

كان النساء قبل الاسلام مظلومات ممتهنات مستعبدات عند جميع الامم وفي جميع شرائعها وقوانينها ، حتى عند أهل الكتاب ، حتى جاء الاسلام، وأكمل الله دينه ببعثة خاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فأعطى الله النساء بكتابه الذي انزله عليه ، وبسنته التي بين بها كتاب الله تعالى بالقول والعمل ، جميع الحقوق التي اعطاها للرجال ، إلا ما يقتضيه اختلاف طبيعة المرأة ووظائفها النسوية من الاحكام، مع مراعاة تكريمها والرحمة بها والعطف عليها، حتى كان النبي ﷺ يقول «ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم» رواه ابن عساكر من حديث علي (ع.م)

واني أشير هنا الى أهم أصول الاصلاح النسوي التي بسطتها بكتاب وسيط في حقوق النساء في الاسلام بينت في مقدمته حالهن قبل البعثة المحمدية عند أمم الارض اجمالا بقولي :

« كانت المرأة تشترى وتباع ، كالبهيمة والمتاع ، وكانت تكره على الزواج وعلى البغاء ، وكانت تورث ولا ترث، وكانت تُملَك ولا تملِك ، وكان اكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل، وكانوا يرون للزوج الحق في التصرف بمالها من دونها ، وقد اختلف الرجال في بعض البلاد في كونها انسانا ذا نفس وروح خالدة كالرجل ام لا؟ وفي كونها تلقن الدين وتصح منها العبادة أم لا ؟ وفي كونها تدخل الجنة أو الملكوت في الآخرة ام لا ؟ فقرر أحد المجامع في رومية أنها حيوان نجس لا روح له ولا خلود ، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة، وأن يكم فمها كالبعير والكلب العقور لمنعها من الضحك والكلام، لانها احبولة الشيطان ، وكانت اعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته ، وكان بعض العرب يرون ان للاب الحق في قتل بنته بل في وأدها «دفنها حية» ايضاً . وكان منهم من يرى انه لا قصاص على الرجل في قتل المرأة ولا دية »

وكتبت في مقدمة الكلام على حقوق النساء المالية في الاسلام ما مختصره

«قد أبطل الاسلام كل ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من التملك أو التضييق عليهن في التصرف بما يملكن ، واستبداد ازواج المتزوجات منهن بأموالهن ، فأثبت لهن حق الملك بانواعه والتصرف بانواعه المشروعة ، فشرع الوصية والارث لهن كالرجال ، وزادهن مافرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة على المرأة وأولادها وإن كانت غنية ، وأعطاهن حق البيع والشراء والاجارة والهبة والصدقة وغير ذلك . ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضي وغيره من الاعمال المشروعة ، وان المرأة الفرنسية لاتزال إلى اليوم مقيدة بارادة زوجها في جميع التصرفات المالية ، والعقود القضائية»

واني ألخص من ذلك الكتاب المسائل الآتية بالايجاز

(١) كان بعض البشر من الافرنج وغيرهم يعدون المرأة من الحيوان الاعجم أو من الشياطين لا من نوع الانسان وبعضهم يشك في ذلك فجاء محمد ﷺ يتلو عليهم قول الله تعالى (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) الآية وقوله (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) وما في معناهما

(٢) كان بعض البشر في أوربة وغيرها يرون أن المرأة لا يصح أن يكون لها دين حتى كانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسمياً فجاء الاسلام يخاطب بالتكاليف الدينية الرجال والنساء معا بلقب المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات .

كان أول من آمن بمحمد خاتم النبيين ﷺ امرأة وهي زوجه خديجة بنت خويلد (رض) وقد ذكر الله تعالى مبايعته ﷺ للنساء في نص القرآن ثم بايع الرجال بما جاء فيها – ولما جمع القرآن في مصحف واحد جمعا رسمياً وضع عند امرأة هي حفصة أم المؤمنين وظل عندها من عهد الخليفة الاول أبي بكر الصديق الى عهد الخليفة الثالث عثمان (رضي الله عنهم) فأخذ من عندها واعتمدوا عليه في نسخ المصاحف الرسمية التي كتبت وأرسلت إلى الامصار لاجل النسخ عنها والاعتماد عليها

(٣) كان بعض البشر يزعمون ان المرأة ليس لها روح خالدة فتكون مع الرجال المؤمنين في جنة النعيم في الآخرة — وهذا الزعم أصل لعدم تدينها —

فنزل القرآن يقول (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب : من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) ويقول (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض) الآية وفيها الوعد الصريح بدخول الفريقين جنات تجري من تحتها الانهار

(٤) كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلا للاشتراك مع الرجال في المعابد الدينية والمحافل الادبية ، ولا في غيرهما من الامور الاجتماعية والسياسية والارشادات الاصلاحية، فنزل القرآن يصارحهم بقوله تعالى (٩: ٧١ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) الآية ثم قال (٧٢ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم) فراجع تفسيرهما في ص ٥٤١ من جزء التفسير العاشر

(٥) كان بعض البشر يحرمون النساء من حق الميراث وغيره من التملك وبعضهم يضيق عليهن حق التصرف فيما يملكن ، فأبطل الاسلام هذا الظلم وأثبت لهن حق التملك والتصرف بأنفسهن في دائرة الشرع ، قال الله تعالى (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضا) وقال (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن)

ونحن نرى أن دولة الولايات المتحدة الاميريكية لم تمنح النساء حق التملك والتصرف إلا من عهد قريب في عصرنا هذا ، وأن المرأة الفرنسية لا تزال مقيدة بارادة زوجها في التصرفات المالية والعقود القضائية، وقد منحت المرأة المسلمة هذه الحقوق منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن

(٦) كان الزواج في قبائل البدو وشعوب الحضارة ضربا من استرقاق الرجال للنساء فجعله الاسلام عقداً دينياً مدنياً لقضاء حق الفطرة بسكون النفس من اضطرابها الجنسي بالحب بين الزوجين وتوسيع دائرة المودة والالفة بين العشيرتين واكتمال عاطفة الرحمة الانسانية وانتشارها من الوالدين إلى الاولاد ، على ما أرشد

اليه قوله تعالى (ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

(٧) القرآن ساوى بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل لانه أقدر على النفقة والحماية بقول الله عز وجل في الزوجات (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) وقد بين هذه الدرجة بقوله تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) فجعل من واجبات هذه القيامة على الزوج نفقة الزوجة والاولاد لا تكلف الزوجة منه شيئا ولو كانت أغنى منه ، وزادها المهر فالمسلم يدفع لامرأته مهراً عاجلا مفروضاً عليه بمقتضى العقد حتى اذا لم يذكر فيه لزمه فيه مهر مثلها في الهيئة الاجتماعية ، ولها أن يؤجلا بعضه بالتراضي ، على حين نرى بقية الامم حتى اليوم تكلف المرأة دفع المهر للرجل

وكان أولياء المرأة يجبرونها على التزوج بمن تكره او يعضلونها بالمنع منه مطلقا وإن كان زوجها وطلقها فحرم الاسلام ذلك ، والنصوص في هذا معروفة في كلام الله وكلام رسوله وسنته وتقدم بيانها في الجزء الثاني من التفسير

(٨) كان الرجال من العرب وبني اسرائيل وغيرهم من الامم يتخذون من الازواج ماشاؤا غير مقيدين بعدد ، ولا مشترط عليهم فيه العدل، فقيدهم الاسلام بان لا يزيدوا على أربع ، وان من خاف على نفسه ان لا يعدل بين اثنتين وجب عليه الاقتصار على واحدة ، وانما أباح الزيادة لمحتاجها القادر على النفقة والاحصان لانها قد تكون ضرورة من ضرورات الاجتماع ولاسيما حيث يقل الرجال ويكثر النساء

وقد فصلنا ذلك في تفسير آية التعدد من سورة النساء ثم زدنا عليه في كتاب (حقوق النساء في الاسلام) ماهو مقنع لكل عاقل منصف بان ماشرعه الاسلام في التعدد هو عين الحق والعدل ومصلحة البشر

(٩) الطلاق قد يكون ضرورة من ضروريات الحياة الزوجية إذا تعذر على الزوجين القيام بحقوق الزوجية من إقامة حدود الله وحقوق الاحصان والنفقة

والمعاشرة بالمعروف، وكان مشروعا عند أهل الكتاب والوثنيين من العرب وغيرهم، وكان يقع على النساء منه وفيه ظلم كثير وغبن يشق احتماله فجاء الاسلام فيه بالاصلاح الذي لم يسبقه اليه شرع ولم يلحقه بمثله قانون ، وكان الافرنج يحرمونه ويعيبون الاسلام به، ثم اضطروا إلى إباحته، فاسرفوا فيه اسرافا منذراً بفوضى الحياة الزوجية وانحلال روابط الاسرة والعشيرة

جعل الاسلام عقدة النكاح بيد الرجل ويتبعه حق الطلاق لانهم احرص على بقاء الزوجية بما تكلفهم من النفقات في عقدها وحلها وكونهم اثبت من النساء جأشا واشد صبرا على ما يكرهون ، وقد أوصاهم الله تعالى على هذا بما يزيدهم قوة على ضبط النفس وحبسها على مايكرهون من نسائهم فقال(وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) على ان الشريعة تعطي المرأة حق اشتراط جعل عصمتها بيدها لتطلق نفسها اذا شاءت واعطتها حق طلب فسخ عقد الزواج من القاضي اذا وجد سببه من العيوب الخلقية او المرضية كالرجل وكذا اذا عجز الزوج عن النفقة . وجعلت للمطلقة عليه حق النفقة مدة العدة التي لا يحل لها فيها الزواج ، وذم النبي ﷺ الطلاق بأن الله يبغضه للتنفير عنه — إلى غير ذلك من الاحكام التي بيناها في تفسير الآيات المنزلة فيها وفي كتابنا الجديد في حقوق النساء في الاسلام

(١٠) بالغ الاسلام في الوصية ببر الوالدين فقرنه بعبادة الله تعالى، واكد النبي ﷺ فيه حق الأم فجعل برها مقدما على بر الأب ، ثم بالغ في الوصية بتربية البنات وكفالة الاخوات ، بأخص مما وصى به من صلة الارحام ، بل جعل لكل امرأة قيما شرعيا يتولى كفايتها والعناية بها ، ومن ليس لها ولي من أقاربها وجب على أولي الأمر من حكام المسلمين أن يتولوا أمرها

وجملة القول انه ما وجد دين ولا شرع ولا قانون في أمة من الامم اعطى النساء ماأعطاهن الاسلام من الحقوق والعناية والكرامة ، أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحي الله العليم الحكيم الرحيم لمحمد النبي الامي المبعوث في الاميين؟ بلى وانا على ذلك من الشاهدين المبرهنين ، والحمد لله رب العالمين

المقصد العاشر من فقه القرآن تحرير الرقبة

ان استرقاق الاقوياء للضعفاء قديم في شعوب البشر ، بل هو معهود في الحشرات التي تعيش عيشة الاجتماع والتعاون أيضا كالنمل ، فاذا حاربت قرية منه أخرى فظفرت بها وانتصرت عليها فانها تأسر ماسلم من القتال وتستعبده في خدمة الظافر من البناء وجمع المؤونة وخزنها في مخازنها وغير ذلك

كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه في أشق الاعمال ، وتعامله بمنتهى القسوة والظلم ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية ، وظل الرقيق مشروعا عند الافرنج إلى أن حررت الولايات الاميريكية المتحدة رقيقها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وتلتها انكلترة باتخاذ الوسائل لمنعه من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يكن عمل كل منها خالصاً لمصلحة البشر وجنوحا للمساواة بينهم ، فان الاولى لاتزال تفضل الجنس الابيض الاوربي المتغلب على الجنس الاحمر الوطني الاصلي بما يقرب من الاستعباد السياسي المباح عند جميع الافرنج للشعوب ، كما ان انكلترة تحتقر الهنود وتستذلهم ، ولكن النهضة الهندية في هذا العهد قد خفضت من غلوائهم ، وطأمنت من إشفاق كبريائهم .

فلما ظهر الاسلام ، وأشرق نوره الماحي لكل ظلام ، كان مما أصلحه من افساد الامم إبطال ظلم الرقيق وإرهاقه ، ووضع الاحكام لابطال الرق بالتدريج السريع ، إذ كان ابطاله دفعة واحدة متعذراً في نظام الاجتماع البشري من الناحيتين: ناحية مصالح السادة المسترقين ، وناحية معيشة الارقاء المستعبدين

فان الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب في الارض يلتمس وسيلة الرزق فلا يجدها فيحور الى سادته يرجو منهم العود إلى خدمتهم كما كان

وكذلك جرى في السودان المصري ، فقد جرب الحكام من الانكليز أن يجدوا لهم رزقا بعمل يعملونه مستقلين فيه مكتفين به فلم يمكن ، فاضطروا إلى الاذن لهم بالرجوع إلى خدمة الرق السابقة ، بيد انها أن لاتسمح للمخدومين ببيعهم والاتجار بهم

هداية الاسلام في تحرير الرقيق وأحكامه

قد شرع الله تعالى لابطال الرق طريقتين: عدم تجديد الاسترقاق في المستقبل، وتحرير الرقيق القديم بالتدريج الذي لاضرر ولا ضرار فيه

(الطريقة الأولى) منع الاسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الاقوياء للضعفاء إلا استرقاق الاسرى والسبايا في الحرب التي اشترط فيها ما تقدم بيانه من دفع المفاسد وتقرير المصالح ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة [١] وهي شروط لم تكن قبله مشروعة عند المليين، ولا عند أهل الحضارة فضلا عن المشركين الذين لا شرع لهم ولا قانون، ولست أعني بالاستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا النوع من الاسترقاق كل ما كانت الامم تفعله معاملة لهم بالمثل، بل شرع لأولي الامر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر في امضائه أو إبطاله بأن خيرهم في أسرى الحرب الشرعية بين المنّ عليهم بالحرية والفداء بهم، وهو نوعان فداء المال وفداء الانفس، اذا كان لنا أسارى أو سبي عند قومهم، وذلك قوله تعالى الذي أوردناه في قواعد الحرب (فشدّوا الوثاق فاما منا بعدُ وإما فداء) [٢] ولما كنا مخيرين فيهم بين إطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم، جاز أن يعد هذا أصلا شرعيا لابطال إستئناف الاسترقاق في الاسلام، فان ظاهر التخيير بين هذين الامرين أن الامر الثالث الذي هو الاسترقاق غير جائز، لو لم يعارضه أنه هو الاصل المتبع عند جميع الامم، فمن أكبر المفاسد والضرر أن يسترقوا أسرانا ونطلق أسراهم ونحن ارحم بهم واعدل كما يعلم مما يأتي. ولكن الآية ليست نصا في الحصر، ولا صريحة في النهي عن الاصل، فكانت دلالتها على تحريم الاسترقاق مطلقا غير قطعية، فبقي حكمه محل اجتهاد أولي الامر، اذا وجدوا المصلحة في إبقائه أبقوه، واذا وجدوا المصلحة في ترجيح المن عليهم بالحرية وهو ابطال اختياري له أو الفداء بهم عملوا به

---

(١) راجع المقصد الثامن من فقه القرآن ص ٢٧٦ (٢) ص ١٥٣

﴿ الطريقة الثانية ماشرعه لتحرير الرقيق الموجود وجوبا وندبا وهو أربعة أنواع ﴾

(النوع الاول من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازمة وفيه عشر مسائل)

(١) إن الاصل في الانسان هو الحرية ويترتب عليه أحكام (٢) تحريم الاسترقاق وبطلانه غير ما تقدم بشرطه (٣) الكتابة وهي شراء المملوك نفسه من سيده بمال يكسبه وقد أمر الله بها لمن يبتغيها وأمر بمساعدته عليه بالمال من المالك نفسه (٤) اذا خرج الارقاء من دار الكفر إلى دار الاسلام يصيرون أحراراً . (٥) من أعتق بعض عبده عتق كله عليه وإن كان البعض الآخر لغيره فله أحكام (٦) من عذب مملوكه أو مثّل به كأن خصاه أوجبه عتق عليه وزال ملكه عنه (٧) من آذى مملوكه بما دون التمثيل والعذاب الشديد فكفارة ذنبه أن يعتقه (٨) التدبير عتق لازم وهو أن يعتق مملوكه بعد موته فله أن يستخدمه مدة حياته ولكن ليس له أن يبيعه لأنه صار حراً بعد موته (٩) اذا ولدت الجارية لسيدها ولداً منه حرم عليه بيعها وهبتها لغيره وتصير حرة بموته لاتورث عنه (١٠) من ملك أحد أقاربه عتق عليه وقد بينا الآيات والاحاديث الدالة على هذه الاحكام في كتاب (الوحي المحمدي) الذي بسطنا به هذا البحث من التفسير

﴿ النوع الثاني من وسائل تحرير الرقيق الموجود الكفارات ﴾

والمراد بها القربات التي تمحو الذنوب وأعظمها عتق الرقاب وهي ثلاثة أقسام (أحدها) واجب حتم على القادر على العتق بملك الرقبة او ثمنها ككفارة قتل النفس خطأ ، وكفارة الظهار وهو تشبيه الرجل زوجه بأمه وكان طلاقا في الجاهلية ، وكفارة إفساد الصيام عمداً بشرطه وقيده المعروفين في الفقه

(ثانيها) واجب مخير فيه وهو كفارة اليمين فمن حلف يمينا وحنث فيها فكفارته اطعام عشرة مساكين او كسوتهم او تحرير رقبة كما قال الله تعالى وحكمة التخيير ظاهرة

(ثالثها) مندوب وهو العتق لتكفير الذنوب غير المعينة وهو من أعظم مكفراتها

﴿ النوع الثالث من وسائل إلغاء الرق الموجود ﴾

جعل سهم من مصارف الزكاة الشرعية المفروضة (في الرقاب) بنص القرآن، هو يشمل العتق والاعانة على شراء المملوك نفسه (الكتابة) ومن المعلوم ان زكاة الامة الاسلامية قد تبلغ مئات الالوف وألوف الالوف من الدراهم والدنانير، فلو نفذت أحكام الاسلام فيها وحدها لأمكن تحرير جميع الرقيق في دار الاسلام

﴿ النوع الرابع منها العتق الاختياري لوجه الله تعالى أي ابتغاء مرضاته ﴾

قد ورد في الكتاب والسنة وآثار السلف من الترغيب في العتق ما يدخل تدوينه في سفر كبير ، ومما يدل على انه من أعظم العبادات وأصول البر آية البر من سورة البقرة (٢ : ١٧٦)

ومن أشهر أحاديث الترغيب في العتق قوله ﷺ « أيما رجل أعتق امرءاً مسلما [١] استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار » متفق عليه من حديث ابي هريرة ، وفي رواية « عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه » وحديث ابي ذر قال سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال « إيمان بالله وجهاد في سبيله » قلت فأي الرقاب أفضل ؟ قال « اغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها » الحديث.

ومنها حديث أبي موسى الاشعري الذي رواه الجماعة كلهم الا مالك « أيما رجل كانت له جارية أدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها وأعتقها وتزوجها فله أجران » وفي الصحيح ان أبا هريرة لما روى قوله ﷺ « للمملوك الصالح أجران » قال والذي نفسي بيده لولا الجهاد والحج وبر أمي لأحببت ان أموت وانا مملوك

﴿ الوصية بالمماليك ﴾

أضف الى هذا وصايا الله ورسوله بالمماليك ومنها تخفيف الواجبات عليهم وجعل حد المملوك في العقوبات نصف حد الحر ، وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والاقربين ، ونهى النبي ﷺ عن قول السيد « عبدي وأمتي » وأمره ان

(١) اتفق العلماء على شرعية عتق الكافر وانه قربة وانما اختلفوا في عتقه في الكفارة

يقول « فتاي وفتاتي وغلامي » وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون، ويعينوهم على خدمتهم ان كلفوهم مايغلبهم كما في حديث ابي ذر في الصحيحين وغيرهما وكان يوصي بالنساء وماملكت الايمان حتى في مرض موته الى أن التحق بالرفيق الاعلى ﷺ وسأله ابن عمر كم أعفو عن الخادم ؟ قال « اعف عنه كل يوم سبعين مرة » وهذا مبالغة أي كلما أذنب

ولهذا كان المسلمون في الصدر الاول يبالغون في تكريم الرقيق ومعاملتهم بالحلم حتى صاروا يقصرون في الخدمة . ولعمر الحق ان العبد المملوك في حكم الاسلام الاول كان أعز نفساً وأطيب عيشاً من جميع الاحرار الذين بتلوا في هذه العصور بحكم دول الافرنج من غيرهم أو نفوذهم ، وان حكومة الولايات المتحدة لتعامل الجنس الاحمر من سكان البلاد الاصليين الذين تمن عليهم بالحرية بغير الاحكام التي تعامل بها الجنس الابيض حتى ان من اعتدى منهم على امرأة بيضاء يقتل شر قتلة — ان لم تقتله الحكومة قتله الشعب — بخلاف العكس، ولا يتسع هذا المقام لتفصيل ذلك والشواهد عليه

خلاصة البحث

راجع ما تقدم من الكلام على الوحي والنبوة وآيات الانبياء عندنا وعند النصارى ومن الكلام في تفنيد شبهة الوحي النفسي ، والكلام في اعجاز القرآن اللغوي والعلمي . وما أحدثه من الانقلاب البشري من كل وجه ، ثم أضف اليها هذه العشرة الانواع من مقاصد القرآن ، في إصلاح البشر وتكميل نوع الانسان، من جميع نواحي التشريع الروحي والادبي والاجتماعي والمالي والسياسي ، وهي التي اشتدت حاجة الشعوب والدول في هذا العصر اليها موضحة بأصول وقواعد هي أصح وأكمل وأكفل المصالح العامة ، ودفع المفاسد القديمة والطارئة ، من كل ما سبقها من تعاليم الانبياء ، وفلسفة الحكماء ، وقوانين الملوك والحكام ، على اختلاف الاعصار، مع العلم القطعي من تاريخ محمد ﷺ انه كان أميا يؤثر بطبعه عيشة العزلة فلم يتفق له الاطلاع على كتب الانبياء ولا غيرها من الكتب والقوانين،

وانه لم يعرف عنه انه كان يبحث في شيء من العلوم ، ولا انه نطق بشيء من مسائلها . والعلم بأنه انما جاء بها في هذا القرآن بعد استكمال سن الاربعين — وهي سن لم يعرف في استعداد أنفس البشر ومدركات عقولهم ولا في تاريخهم ان صاحبها يأتنف مثلها ائتنافا لم يسبق له البدء بشيء منه في أنف عمره ، وآنفة شبابه وشرخه ، راجع هذا كله وتأمله جملة واحدة تجد عقلك مضطراً الى الجزم بأن هذا كله فوق استعداد بشر أمي أو متعلم وانه وحي من الله تعالى

فاذا فرضنا انه يحتمل أن يكون قد تسرب الى ذهنه بعض مسائلها من أفواه عقلاء قومه أو غيرهم ممن لقي في أسفاره القليلة ، أو انه فكر في حاجة البشر الى مثلها مما أدركه بذكائه الفطري من سوء حالهم ، فهل يعقل أن تكون تلك الفلتات الشاردة ، وهذه الخطرات الواردة ، تبلغ هذا الحد من التحقيق والوفاء بحاجة الامم كلها ، وان تظل كلها مكتومة من سن الصبا وعهد حب الظهور الى أن تظهر في سن الكهولة ، بهذه الروعة من البيان ، وسلطان البلاغة على القلوب ، وقوة البرهان في العقول ، فتحدث هذه الثورة في الامة العربية المغيرة لطباعها ، المبدلة لأوضاعها ، بحيث تسود بها شعوب المدنية كلها ، ويتلو ذلك ما قصه التاريخ من الانقلاب في العالم كله ؟ وأعجب من هذا كله ان يظهر في هذا العصر ان أمم العلم والحضارة العجيبة أشد حاجة اليها ممن قبلهم ؟ كلا ان هذا لم يعرف مثله في البشر

واذ قد ثبت هذا فلواجب على كل من بلغه من البشر ان يتبعه ويهتدي به لتكميل انسانيته واعدادها لسعادة الدنيا والآخرة . فان اعترضته شبهة عليه فليبحث عنها أو لينبذها ، فما كان لعاقل ثبت عنده نفع علم الطب أن يترك مراعاته في حفظ صحته أو مداواة مرضه لشبهة في بعض مسائله أو خيبة الاطباء في بعض معالجاتهم للمرضى وان حاجة البشر الى طب الارواح والاجتماع ، لاشد من حاجتهم الى طب الابدان

قل ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الانعام ٦ : ١٤٩)

« رضيت بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا »

﴿ ونعود الى نسق التفسير باسم الله وحمده ﴾

(٣) إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوٰتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ، ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ؟

افتتح السورة بذكر آيات الكتاب ، الناطق بالحكمة وفصل الخطاب ، وأنكر على الناس عجبهم أن يوحي ربهم الى رجل منهم أن يعلمهم به ما لا يعلمون من الدين الذي فيه سعادتهم ، منذرا من كفر بالعقاب ، ومبشرا من آمن بالثواب ، وحكى عن الكافرين وصفهم لهذا الكتاب الحكيم والرسول الذي جاء به بالسحر ، إذ كان كل منهما من خوارق العادات ، وقد وجد في البشر مشعوذون ودجالون يأتون ببعض الخوارق التي لا يعرف الجماهير أسبابها ، فرأوا أن هذا الكتاب المعجز للبشر بأسلوبه وبلاغته ، وبعلمه وحكمته ، وبتأثيره في العقول والقلوب ، يصح أن يكون أو يوصف بأنه من هذا السحر المعهود وجوده ، المجهول سببه ، وان هذا الرجل الذي جاء به ولم يعرف عنه قبله شيء من بلاغة القول ، ولا من حكمة التشريع والعلم ، يصح أن يعد منتحلا للسحر ، ولكن السحر لم يكن في يوم من الأيام حقائق علمية ولا هداية نافعة كما تقدم ، والسحرة لم يكونوا إلا اناسا من المكتسبين باطلاع الناس على غرائبهم المجهولة لهم ، فأين هذا وذاك من القرآن ومن جاء به ، من حقائق ساطعة وهو لا يسأل عليها أجرا ، ولا يبتغي بها لنفسه نفعا هي باقية بنفسها وبآثارها النافعة ، والسحر باطل لابقاء له ؟ فالمتعين عند العقل أن يكون ما فيها من العلو على كلام البشر ، والاعجاز الذي قامت به الحجة بالتحدي ، وحيا من رب العالمين ، ونعمة منه عليهم بهداية الدين ، الذي هو لجملتهم ، كالعقل لافرادهم ، ووجب على كل من يؤمن بهذا الرب العليم الحكيم ، البر الرحيم ، أن يؤمن بأن هذا من حكمة ربوبيته ورحمته بالعالمين ، وإلا كانت صفاته ناقصة بحرمان هذا الانسان ، من هذا النوع الأعلى من العرفان ، والبينات من الهدى والفرقان ، ولذلك ففي حكاية عجبهم وما عللوه به ، من التذكير بالحجة التي تنقضه من أساسه ، فقال عز وجل

﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر ﴾ هذه الآية دليل على تفنيدهم في عجبهم من وحي القرآن، وبيان للربوبية التي يقتضي كمالها ثبوته وبطلان الشرك، والخطاب فيها للناس الذين عجبوا أن يوحى الى رجل منهم ما فيه هدايتهم بأسلوب الالتفات المنبه للذهن، يقول لهم إن ربكم هو الله الذي خلق العوالم السماوية التي فوقكم وهذه الارض التي تعيشون عليها في ستة أزمنة ثم في كل يوم منها طور من أطوارها، فان اليوم في اللغة هو الوقت الذي يحده حدث يحدث فيه، وان كان ألوف السنين من أيام هذه الارض الفلكية التي وجدت بعد خلقها، أي أوجدها كلها بمقادير قدرها فان الخلق في اللغة التقدير، ثم استوى على عرشه الذي جعله مركز التدبير لهذا الملك الكبير، استواء يليق بعظمته وجلاله، وتنزيهه وكماله، يدبر أمر ملكه، بما اقتضاه علمه من النظام، وحكمته من الاحكام، فالاستواء على العرش بعد خلقهما، وهو مخلوق له من قبلهما، شأن من شؤونه فيما لا نعلم كنهه ولا صفته من تدبير هذا الملك، وكل يوم هو في شان، لا يدرك كنه شؤونه إنس ولا جان،

والتدبير في أصل اللغة التوفيق بين أوائل الامور ومباديها، وأدبارها وعواقبها، بحيث تكون المبادي مؤدية الى ما يريد من غاياتها، كما أن تدبر الامر أو القول هو التفكر في دبره وهو ما وراءه وما يراد منه وينتهي اليه. ووجه دلالة هذه الجملة على ماذكر أن الرب الخالق المدبر لجميع أمور الخلق لا يستنكر من تربيته لعباده وتدبيره لأمورهم أن يفيض ماشاء من علمه على من اصطفى من خلقه، مايهديهم به لما فيه كمالهم وسعادتهم من عبادته وشكره وصلاح أنفسهم، بل يجب على العاقل العالم بهذا التدبير والتقدير الذي تشهد به آياته تعالى في السموات والارض، أن يؤمن بأن هذا الوحي منه عز وجل، إذ هو من كمال تقديره وتدبيره، ولا يقدر عليه غيره. وقد ذكرنا في تفسير آية الاعراف التي بمعنى هذه الآية (٧: ٥٤) الاختلاف بين علماء الكلام المبتدع وأئمة السلف وأتباعهم من علماء الاثر في مسألة الاستواء على العرش وأشباهها من آيات علو الخالق تعالى فوق خلقه وسائر صفاته وحققنا أن مذهب السلف هو الحق الجامع بين النقل والعقل

ثم قال ﴿ مامن شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ وهذه الجملة حجة ثانية على منكري الوحي ، في ضمن حقيقة ناقضة لعقيدة الشرك ، ذلك ان مشركي العرب وغيرهم ومقلدتهم من أهل الكتاب كانوا يعتقدون ان معبوداتهم من أولياء الله تعالى وعباده المقربين من الملائكة والبشر يشفعون لهم عند الله تعالى بما يدفع عنهم الضر ويجلب لهم النفع في الدنيا ، والذين يؤمنون بالآخرة من الفريقين يثبتون لهم الشفاعة في الآخرة بالاولى ، ويسمون الاصنام التي وضعت لذكرى أولئك الاولياء شفعاء أيضا بالتبع ، وسيأتي في (الآية ١٨) من هذه السورة حكاية ما يقولونه في هذه الشفاعة . ويقال في بيان وجه الحجة عليهم فيها : إنكم اذا كنتم تؤمنون بأن لله شفعاء من أوليائه وعباده المقربين يشفعون لكم عنده بما يقربكم اليه زلفى ويدفع عنكم الضر ويجلب لكم النفع ، وهو قول منكم على الله تعالى بغير علم ، فما لكم تنكرون وتعجبون أن يوحي تعالى الى من يشاء ويصطفي من هؤلاء العباد من يعلمكم من العلم ما يهديكم الى العمل الموصل الى كل ماتطلبونه من هؤلاء الشفعاء باستحقاق بدون عمل منكم ولا استحقاق لما تطلبون منهم ؟

وأما الحقيقة الناقضة لعقيدة الشرك في الشفاعة فهي انه لايمكن أن يوجد شفيع يشفع لأحد عنده تعالى الا من بعد اذنه ، كما قال في سورة البقرة (٢٥٥:٢ من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه؟) وليس لاحد حق في الاخبار عنه تعالى عن يشفع عنده ومن يقبل شفاعته الا باعلام منه، وذلك لايكون إلا بوحي منه . وقد ثبت في وحي هذا القرآن أنه لايشفع أحد عنده باذنه الا من ارتضاه للشفاعة (١٠٩:٢٠ يومئذ لاتنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) وان هؤلاء المأذون لهم بالشفاعة لايشفعون الا لمن كان الله تعالى راضيا عنه بايمانه وعمله الصالح كما قال (٢٨:٢١ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) مصداقا لقوله (قل لله الشفاعة جميعا)

﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ احتجاج بما يؤمنون به من وحدانية الربوبية ، على شركهم في وحدانية الالوهية ، أي ذلك الموصوف بالخلق والتقدير ، والحكمة والتدبير ، والتصرف في أمر الشفاعة يأذن بها لمن شاء فيما شاء هو الله ربكم ، ومتولي أمور العالم ومنها أموركم ، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ، ولا معه

أحدا ، لا لأجل الشفاعة ولا لأجل مطالب آخر من مطالبكم ، فالشفعاء لا يملكون لكم من دونه نفعا ولا ضرا ، وانما يملك ذلك ربكم وحده ، وقد هداكم الى أسباب الضر والنفع الكسبية بعقولكم ومشاعركم وسخرها لكم ، وهداكم الى أسباب النفع والضر الغيبية بوحيه وأقدركم عليها ، وكل ما يطلب من المنافع والمضار فانما يطلب من أسبابه التي سخرها تعالى وبينها لكم ، وما عجز عنه العبد أو جهله من ذلك فالواجب عليه أن يدعو الله تعالى وحده فيه ، وهذا هو الركن الاول للدين الالهي . ﴿ أفلا تذكرون ؟ ﴾ أي أتجهلون هذا الحق المبين فلا تتذكرون ان الذي خلق السموات والارض وحده ، واستوى على عرش الملك يدبر الامر وحده ، ولا يمكن أن يشفع أحد عنده إلا باذنه ، هو ربكم الذي يجب أن تعبدوه ، والا تعبدوا غيره ؟ وهو مقتضى الفطرة ، وما انكاره الا ضرب من الغفلة علاجها التذكير

هذا الاستفهام التعجبي من غفلة المشركين منكري الوحي عن هذه الحقيقة وهي انه لا يستحق العبادة من الخلق أحد إلا ربهم وخالقهم ومدبر أمورهم يوجه بالاولى الى المؤمنين بالقرآن من القبوريين وعباد الصالحين كيف لا يتذكرون هذه الآيات وأمثالها كلما شعروا بالحاجة الى ما عجزوا عنه بكسبهم من دفع ضر أو جلب نفع؟ اذ نراهم يوجهون وجوههم الى قبور المشهورين من الصالحين في بلادهم ، ويشدون الرحال الى ما بعد منها عنهم ، ويتقربون اليها بالنذور ويطوفون بها كما يطوف الحجاج ببيت الله عز وجل ، داعين متضرعين مستغيثين خاشعين ، وهذا مخ العبادة وروحها وأجلى مظاهرها ، ولا ترى مثله من أحد ممن يصلي منهم في صلاة الجماعة ولا صلاته منفردا في بيته ، على أن أكثرهم لا يصلون ولا يعتقدون أن الصلاة تنفعهم كهذه القبور ، ذلك بأن أكثرهم يجهلون هذه الآيات وأمثالها من القرآن وإنما يتلقون عقائد دينهم بالعمل والقول من آبائهم وأمهاتهم ومعاشريهم ، وهم قبوريون لا يعرفون ملجأ ولا ملتحدا عند الشدائد والشعور بالحاجة الى السلطان الرباني الغيبي الا هذه القبور ، وأقلهم يتلقون بعض كتب العقائد الكلامية الجافة ممن ألفوا عبادة القبور قبل أن يقرءوها ، وأكثرهم يتأولون لانفسهم وللعوام تلك العبادة ويسمونها بغير اسمها كالتوسل والاستشفاع ، وحجتهم عليها نفس حجة المشركين وأهل الكتاب ، لا فرق الا في بعض الالفاظ وأسماء الاشخاص

(٤) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ بِالْقِسْطِ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

هذه الآية بيان للركن الثاني من أركان الدين وهو البعث بعد الموت والجزاء على الاعمال يقول تعالى ﴿ اليه مرجعكم جميعا ﴾ أي الى ربكم دون غيره من معبوداتكم وشفعائكم وأوليائكم ترجعون جميعا بعد الموت وفناء هذا العالم الذي أنتم فيه لا يتخلف منكم أحد ﴿ وعد الله حقا ﴾ أي وعد الله هذا وعدا حقا لا يخلف ﴿ انه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ هذا بيان لمتعلق الوعد المؤكد مرتين بدليله، أي ان شأنه تعالى ان يبدأ الخلق وينشأه عند التكوين ثم يعيده في نشأة أخرى بعد انحلاله وفنائه فالتعبير بفعل المستقبل (يبدأ) لتصوير الشأن وهو يشمل الماضي والمستقبل ، ولفظ الخلق عام يراد به الخاص أولا وبالذات ، بدليل ما قبله وما بعده من السياق ، وقد أجمع علماء الكون الماديون منهم والروحيون على أن الارض وجميع الاجرام السماوية ما يرى منها بالابصار والآلات المقربة للابعاد وما لا يرى كلها قد وجدت بعد أن لم تكن ، وان كانوا لا يزالون يبحثون في نشأة تكوينها والقوة الازلية المتصرفة في أصل مادتها ، كأنهم متفقون على توقع خراب هذه الارض والكواكب المرتبطة معها في هذا النظام الشمسي الجامع لها ، وعلى ان أقرب الاسباب الموافقة لاصول العلم الثابتة ان تصيب الارض قارعة من الاجرام السماوية فتبسها بسا ، حتى تكون هباء منبثا ، كما تشير اليه سورة القارعة والواقعة وغيرهما

فأما بدؤه فقد حصل بالفعل وأما اعادته فدليلها ان القادر على البدء يكون قادرا على الاعادة بالطريق الاولى ، كما قال في سورة الروم (٣٠ : ٢٧ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) الآية ومن المسائل المتفق عليها عند علماء الكون في هذا العصر — وهي تقرب الى العقول عقيدة البعث — ان هذه الاجساد الحية

ينحل منها في كل وقت مايتبخر في الهواء وما يموت في داخل الجسم ثم يخرج منه، ويحل محل كل مايزول ويندثر مواد حية جديدة حتى يفنى جسد كل حيوان، فهو يزول في سنين قليلة ويتجدد غيره، فالبدء والاعادة في كل جسد دائمان مادام حيا ، وقد فصلنا مسألة البعث بالبيان العلمي في تفسير سورة الانعام (ص ٤٧٠ـ ٤٨١ ج ٨)

﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ هذا تعليل للاعادة أي يعيده لاجل جزائهم، والقسط العدل وقال الراغب النصيب من العدل أي ليجزيهم بعدله وهو عبارة عن إعطاء كل عامل حقه من الثواب الذي جعله الله لعمله بمعنى انه لا يظلم منه شيئا كما قال في سورة الانبياء (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا) الآية . ولا يمنع ذلك أن يزيدهم ويضاعف لهم كما وعد في آيات أخرى منها قوله (٤: ١٧٢ فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) وقوله في هذه السورة (٢٦ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فالحسنى هي الجزاء بالقسط المضاد للجور والظلم . والزيادة فضل منه عز وجل . وسيأتي فيها أيضا قوله (٤٧ و ٥٤ وقضي بينهم بالقسط) وقيل ان المراد يجزيهم بما كانوا عليه من القيام بالقسط وهو الحق والعدل في الامور كلها الذي هو مقتضى الايمان في قوله تعالى (٥٧: ٢٥ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وقوله (٧: ٢٨ قل أمر ربي بالقسط) على أن القسط في الآيتين عام شامل لأمور الدين كلها ، وقيل بل المراد منه الايمان أو التوحيد المقابل لظلم الشرك في قوله تعالى (ان الشرك لظلم عظيم) والمتبادر الموافق لسائر الآيات الصريحة هو الاول ولا يصح ارادة الثاني الا بالتبع للاول أو الجمع بين المعنيين على القول بأن كل مايحتمله اللفظ من المعاني المشتركة فيه أو حقيقته ومجازه بمقتضى اللغة من غير مانع من الشرع يكون مرادا منه

﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ الحميم الماء الحارّ أو الشديد الحرارة الذي يستحم به والعرق، يقال استحم الفرس اذا عرق ، والحمام الذي هو مكان الاستحمام من الاول أو من الثاني . والجملة بيان لجزاء الكافرين في مقابلة جزاء المؤمنين الصالحين على منهج القرآن في الجمع بينهما . والمعنى ان الكافرين لهم من الجزاء شراب من ماء حميم يقطع أمعاءهم

وعذاب شديد الألم (وهذا من عطف العام على الخاص) ونكتة هذا الخاص ان العرب الذين خوطبوا به أولا ونزل بلغتهم ولا سيما عرب الحجاز يشعرون بما لا يشعر غيرهم من انوعيد بشرب الماء الحميم والحرمان من الماء البارد — وانما كان لهم هذا الجزاء بسبب ما كانوا يعملون من أعمال الكفر المستمرة الى الموت كدعاء غير الله تعالى والنذر لغيره وذبح القرابين لغيره وسائر الاعمال السيئة التي يزينها لهم الكفر ويصد عنها الايمان ، فقوله (والذين كفروا) مقابل لقوله (الذين آمنوا) وقوله (بما كانوا يكفرون) مقابل لقوله (وعملوا الصالحات) لان الذي يتجدد من الكفر أعماله لاعقيدته . على ان العمل بمقتضى العقيدة هو أثرها يزيدها قوة ورسوخا واستمرارا ، وسيعاد ذكر جزاء الفريقين بعد آيتين بتفصيل آخر لعملهما

ولعل نكتة اختلاف النظم أو الاسلوب — في جزاء الفريقين وتعليل الرجوع اليه تعالى هنا — هي إفادة ان المقصود بالذات من الرجوع الى الله تعالى هو جزاء المؤمنين الصالحين لانه هو الذي يكون به منتهى كمال الارتقاء البشري الذين زكوا أنفسهم في الدنيا بما يكون لهم في الجنة من غلبة سلطان الارواح على الاجساد ، وجعلها تابعة لها في الجمع بين خصائص المادة والروح الذي هو حقيقة الانسانية ، فيلقى الانسان الكامل هنالك من النعيم المادي الخالي من الشوائب والتنغيص الذي عهده في الدنيا ، ومن النعيم الروحاني المعبر عنه برضوان الله الاكبر كما تقدم في آية سورة التوبة (٧٢) ما يتحقق به فضل الانسانية الجامعة ، على الروحانية الخالصة ، وما أعده تعالى لصاحبها مما لا يعلم كنهه في هذه الحياة أحد كما قال تعالى في سورة ألم السجدة [فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين] وما فسرت به في الحديث القدسي « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » رواه البخاري وأعلاه مقام رؤية الله عز وجل كما شرحناه في تفسير آية سورة الاعراف (٧: ١٤٣) وادناه ماسيأتي قريبا في الآية العاشرة

وأما جزاء الكافرين المفسدين الظالمين لأنفسهم وللناس على تدسيتهم وتدنيسهم لانفسهم بالكفر والخطايا — وهي لها كأعراض الامراض التي سببها مخالفة سنة الله في حفظ الابدان وصحتها — فليس من المقاصد التي اقتضتها الحكمة

الالهية في خلق الانسان، ولكنها مقتضى العدل في الظالم والحقوق، ومقتضى اطراد السنن الحكيمة في ارتباط الاسباب بالمسببات ، والعلل بالمعلولات، فهو جزاء كما صرح به في آيات أخرى ولكنه ليس المقصود بالذات من الرجوع الى الله عز وجل.

وقد سألني رجل من أذكياء الانكليز : هل يليق بعظمة الله أن يعذب هذا الانسان الضعيف على ذنوبه التي هي مقتضى ضعفه؟ قلت أن الشرك بالله والكفر بنعمه واقتراف الخطايا المخالفة لشرائعه والوجدان الفطري في الانسان تدنس نفس فاعلها وتفسدها بما يجعلها غير أهل للنعيم الروحاني الخاص بالانفس الزكية ، فيكون العقاب في الآخرة أثراً طبيعيا لهذا الفساد ، كما يكون المرض أثراً طبيعيا لمخالفة قوانين الصحة ووصايا الطبيب . فقال اذا كان سبب العذاب من الداخل لا من الخارج فهو معقول

---

(٥) هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٦) إِنَّ فِي اخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ

في هاتين الآيتين المنزلتين إرشاد إلى أنواع كثيرة من آيات الله الكونية الدالة على قدرته على البعث والجزاء وكونه من مقتضى حكمته ، واطراد النظام التام في جميع خلقه ، وهذه الآيات تفصيل لما أجمل في الآية الثالثة في خلق السموات والارض ، واستواء الخالق على عرشه يدبر الامر ، ويقيم النظام في الخلق ، التي سيقت للاستدلال على التوحيد وحقية الوحي

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ﴾ الضياء اسم مصدر من أضاء يضيء ، وجمع ضوء ، كسياط وسوط وحياض وحوض ، وقرأ ابن كثير (ضئاء) على القلب بتقديم لام الكلمة على عينها . قال في القاموس وشرحه : (الضوء) هو (النور ويضم) وهما مترادفان عند أئمة اللغة ، وقيل الضوء أقوى من النور قاله الزمخشري ولذا شبه الله هداه بالنور دون الضوء وإلا لما ضل أحد وتبعه

الطيبي واستدل بقوله تعالى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وأنكره صاحب الفلك الدائر وسوى بينهما ابن السكيت ، وحقق في الكشف أن الضوء فرع النور وهو الشعاع المنتشر ، وجزم القاضي زكريا بترادفهما لغـة بحسب الوضع ، وان الضوء أبلغ بحسب الاستعمال ، وقيل الضوء لما بالذات كالشمس والنار ، والنور لما بالعرض والاكتساب من الغير ، هذا حاصل ما قاله شيخنا رحمه الله تعالى . وجمعه أضواء (كالضواء والضياء بكسرهما) لكن في نسخة لسان العرب ضبط الاول بالفتح والثاني بالكسر ، وفي التهذيب عن الليث الضوء والضياء ما أضاء لك ، ونقل شيخنا عن المحكم أن الضياء يكون جمعا أيضاً ، قلت هو قول الزجاج في تفسيره عند قوله تعالى (كلما أضاء لهم مشوا فيه) اهـ

وأقول : يدل على التفرقة بين الشمس والقمر في نورهما قوله تعالى (٧١:١٦ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا) وقوله (٢٥:٦١ وجعل فيها سراجا وقمراً منيراً) والسراج ما كان نوره من ذاته . واستبعد بعض المفسرين قول الزجاج إن الضياء في الآية جمع ضوء لان المناسب لكون القمر نوراً أن يكون الضياء مفرداً مثله . وجهل هذا المستبعد وأمثاله مايعلمه الله تعالى من أن شعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التي يراها الناس في قوس السحاب فهو سبعة أضواء لاضوء واحد ، فهذا التعبير من مفردات القرآن الكثيرة التي كشف لنا ترقي العلوم الطبيعية والفلكية من المعنى فيها ما كان الناس أو العرب يجهلونه في عصر التنزيل كتعبيره عن كل نوع من النبات بأنه موزون ، وتقدم بيانه في مباحث الوحي .

﴿ وقدره منازل ﴾ التقدير جعل الشيء أو الاشياء على مقادير مخصوصة في الزمان أو المكان أو الذوات أو الصفات ، قال تعالى (والله يقدر الليل والنهار) وقال في القرى التي كانت بين سبأ والشام (وقدرنا فيها السير) وقال في المقادير العامة (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) والمنازل أماكن النزول جمع منزل ، والضمير للقمر كما قال في سورة يس (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) أي قدر له أو قدر سيره في فلكه في منازل ينزل في كل ليلة في واحد منها لايخطئه ولا يتخطاه وهي ثمانية

وعشرون منزلا معروفة تسميها العرب بأسماء نجومها المحاذية لها وهي: الشرَطان. البُطين. الثُّريّا. الدَّبَران. الهقْعة. الهنْعة. الذِّراعُ. النَّثْرة. الطَّرْف. الجبْهة. الزُّبْرة. الصَّرْفة. العوَّاء. السِّماك الاعزل. الغَفْر. الزُّبانَى. الإكليل. القَلْب. الشَّوْلة. النَّعائم. البَلْدة. سَعْد الذَّابح. سعْد بُلَع. سَعْد السُّعود. سعْد الأخبية. فَرْغُ الدَّلو المقدم. فرغ الدَّلو المؤخر. (ويسميان الفرغ الاول والفرغ الثاني) الرِّشاء. ويراجع مسميات هذه الاسماء في معاجم اللغة وكتب الفلك من شاء. فهذه المنازل هي التي يرى فيها القمر بالابصار، ويبقى من الشهر ليلة إن كان ٢٩ وليلتان إن كان ٣٠ يوما يحتجب فيهما فلا يرى. ﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ أي لأجل أن تعلموا بما ذكر من صفة النيرين وتقدير المنازل حساب الاوقات من الاشهر والايام لضبط عباداتكم ومعاملاتكم الدينية والمالية والمدنية، فلولا هذا النظام المشاهد لتعذر على الاميين من أهل البدو والحضر العلم بذلك. لان حساب السنين والشهور الشمسية فن لا يعلم إلا بالدراسة، ولذلك جعل الشرع الاسلامي العام للبدو والحضر شهر الصيام وأشهر الحج وعدة الطلاق ومدة الايلاء وغير ذلك بالحساب القمري الذي يعرفه كل أحد بالمشاهدة، فلا يتوقف على علم فني لا يكاد يوجد إلا في بلاد الحضارة. ولعبادتي الصيام والحج حكمة أخرى وهي دورانهما في جميع الفصول، فيعبد المسلمون ربهم في جميع الاوقات من حارة وباردة ومعتدلة. وهذا لا يمنع أهل العلم من الانتفاع بالحساب الشمسي وله فوائد أخرى، وقد أرشدهم اليه في سورة الرحمن (الشمس والقمر بحسبان) وفي سورة الاسراء (١٧: ١٢ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) وفي هذه الآيات ترغيب في علم الهيئة والجغرافية الفلكية. وقد برع فيهما أجدادنا بارشادها

ثم قال ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ أي ما خلق الله الشمس ذات ضياء

تفيض أشعتها على كواكبها التابعة انظامها فتبث الحرارة والحياة في جميع الاحياء فيهن ، وجعل لكل ضوء منها من الخواص ماليس للآخر . ويبصر الناس فيها جميع المبصرات فيقومون بأمور معايشهم وسائر شؤونهم ، وما خلق القمر ذا نور مستمد من الشمس تنتفع به السيارة في سراهم وغيرهم ، وقدره منازل يعرف بها جميع الناس السنين والشهور — ما خلق ذلك إلا متلبسا ومقترنا بالحق ، الذي تقتضيه الحكمة العامة لحياة الخلق ، ونظام معايشهم ومنافعهم ، فليس فيه عبث ولا خلل بل ظهر للبشر في هذا العصر من أسرار الضوء وحكمه ما صار به علما واسعا تحار العقول في نظمه وحكمه ، من أصغر ذراته الى أعظم مجامع نيراته ، فكيف يعقل من هذا الخالق الحكيم ، أن يخلق هذا الانسان في أحسن تقويم ، ويعلمه البيان ، ويعطيه مالم يعط غيره في عالمه ؛ من الاستعداد لاظهار مالا يحصى من حكمه ، وخواص خلقه ، وسننه في عباده ، ويجعل مدار سعادته وشقائه على ماأعطاه من علم وإرادة ، ثم يتركه بعد ذلك سدى ، يموت ويفنى ، ثم لا يبعث ولا يعود ، ليجزى المرتقون منه في معارج الكمال من المعارف الالهية والفضائل النفسية والاعمال الصالحة بإيمانهم وصفاتهم وأعمالهم ، وليجزى المشركون الخرافيون ، والظالمون المجرمون ، بكفرهم وجرائمهم ومفاسدهم ، وأننا نرى كثيراً منهم أنعم في الدنيا معيشة من الصالحين المصلحين ؟ (٦٨ : ٣٥ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ٣٦ مالكم كيف تحكمون ؟) (٣٨ : ٢٨ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟)

﴿نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ استئناف لبيان المنتفعين بهذه الحجج أي نبين الدلائل من حكم خلقنا ، على ماأوحيناه إلى رسولنا من أصول العقائد وأحكام الشرائع ، مفصلة منوعة من كونية وعقلية لقوم يعلمون وجوه دلالة الدلائل ، والفرق بين الحق والباطل ، باستعمال عقولهم في فهم هذه الآيات ، فيجزمون بأن من خلق هذين النيرين وما فيهما من النظام بالحق ، لا يمكن أن يكون خلقه لهذا الانسان العجيب عبثا ، ولا أن يتركه سدى ، وفي الآية تنويه بفضل العلم وكون

الاسلام دينا علميا لا تقليديا ، ولذلك قفى على هذه الآيات السماوية في الشمس والقمر بآية مذكرة بسائر الآيات السماوية والارضية فقال

﴿ إن في اختلاف الليل والنهار ﴾ في حدوثهما وتعاقبهما في طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الارض من الشمس والنظام الدقيق لهما بحركتيها اليومية والسنوية ، وطبيعة كل منهما وما يصلح فيه من نوم وسكون وعمل ديني ودنيوي

﴿ وما خلق الله في السموات والارض ﴾ من أنواع الجماد والنبات والحيوان ﴿ لآيات لقوم يتقون ﴾ أي أنواعا من الدلائل والبينات على سننه في النظام، وحكمه في الابداع والاتقان، وفي تشريع العقائد والاحكام، لقوم يتقون عواقب مخالفة سننه في التكوين ، وسننه في التشريع ، فالافراد الذين يخالفون سنن الصحة البدنية يمرضون ، والشعوب التي تخالف سنن الاجتماع والعمران تخرب بلادها ، وتضعف دولها ، ويغير الله تعالى ما بها بتغييرها ما في أنفسها ، كذلك الافراد الذين يخالفون هدايته الشرعية في تزكية الانفس فيدنسونها بالشرك والخرافات ، ويفسدونها بالفواحش والمنكرات ، يجزون على ذلك كله في الآخرة ، ويجزى بعضهم على بعضها في الدنيا (كما بينا ذلك في مواضع أخرى)

(٧) إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَٰتِنَا غَٰفِلُونَ (٨) أُولَٰئِكَ مَأْوَىٰهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ النَّعِيمِ (١٠) دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَآخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ

هذه الآيات بيان لحال منكري البعث والغافلين وحال المؤمنين الصالحين

في الدنيا وجزائهما في الآخرة ، فيه تفصيل لما سبق في الآية الرابعة . قال :

﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾ قال الفيومي في المصباح : رجوته أرجوه رجوا — على فعول — أملته أو أردته ، قال تعالى (لا يرجون نكاحا) أي لا يريدونه والاسم الرجاء بالمد ، ورجيته أرجيه من باب رمى لغة ، ويستعمل بمعنى الخوف، لان الراجي يخاف أنه لا يدرك ما يترجاه اه وقال الراغب : الرجاء ظن يقتضي حصول مافيه مسرة ، وقوله تعالى (مالكم لا ترجون لله وقاراً ؟) قيل مالكم لا تخافون؟ ومثل الزمخشري في الاساس لحقيقة الرجاء بالمغفرة من الله ، والرشد في الولد والاحسان من أهل الاحسان ثم قال : ومن المجاز استعمال الرجاء في معنى الخوف والاكتراث يقال : لقيت هولا مارجوته وما ارتجيته . ومثل له بشعر . والتحقيق أن الرجاء الامل والتوقع لما فيه خير ونفع ، وأن الخوف توقع مافيه شر وضر ، فهما متقابلان كما قال تعالى (١٧ : ويرجون رحمته ويخافون عذابه) وما في هذه الآية والآيتين ١١ و ١٥ من هذه السورة والآية ٢١ من سورة الفرقان من رجاء لقاء الله منفياً يحتمل الرجاء والخوف جميعا لأن لقاء الله تعالى في يوم الحساب مظنة الخوف لقوم والرجاء لآخرين ، ولذلك قال في الكافرين (٧٨ : ٢٧ إنهم كانوا لا يرجون حسابا) وفسر بعض المحققين الرجاء هنا بمجرد التوقع الذي يشمل مايسر وما يسوء . واللقاء الاستقبال والمواجهة

والمعنى ان الذين لا يتوقعون لقاءنا في الآخرة للحساب ، ومايتلوه من الجزاء على الاعمال ، لانكارهم البعث ، ويلزمه أنهم لا يؤملون لقاءه الخاص بالمتقين في دار الكرامة ، وخصه بعضهم بلقاء الرؤية ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ بدلا من الآخرة فصار كل همهم من الحياة محصوراً فيها وكل عملهم لها كما قال في المتثاقلين عن النفير للجهاد (١٠ : ٣٨ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟) الآية ﴿واطمأنوا بها﴾ بسكون نفوسهم وارتياح قلوبهم بشهواتها ولذاتها وزينتها ليأسهم من غيرها ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ فلا يتدبرون المنزلة منها على رسولنا وما فيها من المواعظ والعبر ، والمعارف والحكم ، ولا يتفكرون في الكونية وما تدل عليه

من حكمته وسننه في خلقه ، وما يقتضيه كل منهما من الجهاد وصالح الاعمال ، فكانوا بهذه الغفلة كالفريق الاول الذي لا يرجو لقاءنا ، في أن كلا منهما تشغله دنياه عن آخرته فلا يستعد لحسابنا له وما يتلوه من نعيم مقيم أو عذاب أليم

﴿ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ الاشارة باولئك إلى الفريقين أي مأواهم في الآخرة دار العذاب (النار) بما كانوا يكسبون مدة حياتهم الدنيا من الخطايا والذنوب المدنسة لأنفسهم بخرافات الوثنية ، وأعمال الشهوات الحيوانية ، وظلمات المظالم الوحشية ، واستمرارهم عليها الذي دنس أنفسهم وأحاط بها ، فلم يعد لنور الحق والخير مكان فيها . والمأوى في أصل اللغة الملجأ الذي يأوي اليه المتعب أو الخائف أو المحتاج من مكان آمن أو انسان نافع ، كما ترى في استعمال أفعاله في جميع الآيات كقوله تعالى (ألم يجدك يتيما فآوى * إذ أوى الفتية إلى الكهف * والذين آووا ونصروا * آوى اليه أخاه * أو آوي إلى ركن شديد) الخ إلا لفظ المأوى فانه أطلق على الجنة في ثلاث آيات وعلى النار في بضع عشرة آية منها آية يونس هذه ، وفي تسمية دار العذاب مأوى معنى دقيق في البلاغة دخيل في أعماقها ، فائض من جميع أرجائها ، يشعرك بأن أولئك المطمئنين بالشهوات ، والغافلين عن الآيات ، ليس لهم مصير يلجؤون اليه بعد هول الحساب ، إلا جهنم دار العذاب ، فويل لمن كانت هذه الدار له كالملجأ والموئل ، إذ لا مأوى له يلجأ اليه بعدها .

هذا بيان لجزاء الفريق الاول من المكلفين بقسميه والقاري ، والسامع له تستشرف نفسه لجزاء الفريق الآخر والعلم بسببه وقد بينه بقوله ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ أي يهديهم بسبب إيمانهم به صراطه المستقيم في كل عمل من أعمالهم التي تزكي أنفسهم وتهذب أخلاقهم ، وصفهم أولا بالايمان والعمل الصالح الذي هو لازم الايمان ومغذيه ومكمله بصيغة الماضي لبيان صنفهم وفريقهم المقابل للفريق الذي ذكر قبلهم ، وأخبر بهداية إيمانهم لهم بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار والتجدد ، كما أخبر عن كسب الكفار بهذه الصيغة ، وجعل الايمان وحده سبب هذه الهداية لأنه هو الباعث النفسي لها ، والمعنى أنه يهديهم الصراط

المستقيم الذي ينتهي بهم الى دار الجزاء التي قال في بيان حالهم فيها ﴿تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم﴾ أي تجري من تحت مقاعدهم من غرفات تلك الجنات ومن تحت أشجارها ، وتقدم لفظ « جنات النعيم » في سورة المائدة (٥: ٦٨) ولفظ (تجري من تحتهم الانهار) في سورة الاعراف (٧: ٤٢) وأما (تجري من تحتها الانهار) يعني الجنة فقد تقدم مكرراً في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والتوبة . والآية صريحة في معنى الآيات الكثيرة الناطقة بأن دخول الجنة بالايمان والعمل الصالح معا ، لان الايمان الصحيح بدون الاسلام وهو العمل لا يوجد الا في حال من يموت عقب إيمانه قبل ان يتمكن من العمل ، ودخول مثل هذا الجنة لا يعارض هذه النصوص العامة للاحوال العادية الغالبة .

﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ في هذه الآية بيان لكلمات ثلاث تمثل حياة أهل الجنة الروحانية في عامة أحوالهم من مبادي دعاء ربهم وتنزيهه ، وما يدعونه أي يطلبونه من فضله وكرامته ، ومن تحيته تعالى وتحية ملائكته لهم ، ومن تحيتهم فيما بينهم عند تزاورهم أو تلاقيهم ، ومن حمدهم له في خواتيم أقوالهم وأفعالهم ، وهي خير الكلم وأخصره وأعذبه . الدعوى في اللغة الدعاء بمعانيه والدعاوة في الشيء والادعاء للشيء ، فالدعاء للناس هو النداء والطلب المعتاد بينهم في دائرة الاسباب المسخرة لهم ، والدعاء التعبدي لله نداؤه وسؤاله والرغبة فيما عنده الصادر عن الشعور بالحاجة اليه والضراعة له فيما لا يقدر عليه أحد من خلقه ، ولا سيما دفع الضر وجلب النفع مما يعجز عنه العبد من طريق الاسباب ، للايمان بأنه سبحانه هو المسخر لها والهادي اليها ، والقادر على تصريفها ، وعلى المن بها من غير طريقها ، والدعوى للشيء تشمل في اللغة تمنيه وقوله وطلبه من مالكه ، وادعاء ملكيته ، وهذه المعاني كلها للفظ الدعوى تصح إرادتها من أهل الجنة إلا الاخير منها . وقول بعض المفسرين وغيرهم إن من معاني الدعاء العبادة لا يصح على إطلاقه في العبادة الشرعية التكليفية فان الصيام لا يسمى دعاء لغة ولا شرعا ، وانما الدعاء هو مخ العبادة الفطرية ، وأعظم أركان التكليفية

منها ، كما ورد في الحديث ، فكل دعاء شرعي عبادة وما كل عبادة شرعية دعاء . والتسبيح تنزيه الله تعالى وتقديسه ، وكلمة (اللهم) نداء له عز وجل أصله ياألله

والمعنى أنهم يبدؤن كل دعاء وثناء يناجون به الله عز وجل وهو النعيم الروحاني ، وكل طلب لكرامة أو لذة من لذات الجنة وهو النعيم الجسماني ، بهذه الكلمة : سبحانك اللهم ، أي تنزيها وتقديسالك ياالله ، قيل أو بما تدل عليه وإن كان بلفظ آخر ، وأن تحيتهم فيها كلمة (سلام) الدالة على السلامة من النقص والآثام ، وهي تحية المؤمنين في الدنيا ، وهذه التحية تكون منه عز وجل لهم كما قال في سورة الاحزاب (٣٣ : ٤٤ تحيتهم يوم يلقونه سلام) وفي سورة يس (٣٦ : ٥٨ سلام قولا من رب رحيم) وتكون من الملائكة لهم عند دخول الجنة كما قال في سورة الزمر (٣٩ : ٧٣ وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) ومثله في سورة النحل (١٦ : ٣٢ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وفي كل وقت يدخلون فيه عليهم كما قال في سورة الرعد (١٣ : ٢٣ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (٢٤) سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) وتكون منهم بعضهم لبعض وهو المتبادر من قوله تعالى في سورة مريم (١٩ : ٦٢ لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاما) وفي سورة الواقعة (٥٦ : ٢٥ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما ٢٦ إلا قيلا سلاما سلاما) فان اللغو والتأثيم من شأن كلام البشر فلما نفى وقوعهما منهم في الجنة واستدرك على نفيه باستثناء كلمة « سلام » استثناء منقطعا ترجح أن يكون المراد به سلام بعضهم على بعض أو عاما يشمله . والجملة في آيتنا (وتحيتهم فيها سلام) تشمل الانواع كلها وانه لايجاز بليغ غفل عنه من نعرف من المفسرين لغفلتهم عن هذه الانواع

وأما قوله (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) فمعناه ان الحمد له جل ثناؤه هو آخر كل حال من أحوال أهل الجنة من دعاء يناجون به الله تعالى، ومطلب يطلبونه من إحسانه وإكرامه ، كما أنه أول ثنائهم عليه عند دخولها كما قال في آخر سورة الزمر بعد آية السلام عليهم من الملائكة (٧٤ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) وآخر كلام الملائكة

أيضا وهو قوله بعده (٧٥) وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقضي بينهم بالحق . وقيل الحمد لله رب العالمين)

فعلى كل قارىء لهذه الآية الجامعة ـ وقد فسرناها لهذا بما في معناها من الآيات في السور الاخرى ـ أن يمثل لنفسه حالة أهل الجنة في هذه الكلمات الثلاث المبينة لنعيمهم الروحاني بلقاء الله عز وجل ومناجاته في جميع أطوارهم ، ولما يكون بينهم وبين ملائكته وبين بعضهم مع بعض ، ومنه يعلمون أن معظم نعيم الجنة روحاني فعليهم أن يستعدوا لها بتزكية أنفسهم ، وترقية أرواحهم ، وأن يعلموا أنهم لن يكونوا أهلا لهـا بالاتكال على التوسلات بأشخاص الاولياء والتمني لشفاعاتهم (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا)

ومن التفسير المأثور في الآية ما أخرجه ابن مردويه عن أبي بن كعب مرفوعا عن أهل الجنة « اذا قالوا : سبحانك اللهم ـ أتاهم مااشتهوا من الجنة » وروي مثله عن بعض التابعين فالكلمة علامة بين أهل الجنة وخدمهم في إحضار الطعام وغيره فاذا أكلوا حمدوا الله تعالى . وهذا ممـا يدخل في عموم ما تقـدم سواء أصحت الرواية أم لا ؟

---

(١١) وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ، فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٢) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ . كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

هاتان الآيتان في بيان شأن من شؤون البشر وغرائزهم فيما يعرض لهم في حياتهم الدنيا من خير وشر، ونفع وضر، وشعورهم فيه بالحاجة إلى الله تعالى والالتجاء إلى دعائه لأنفسهم وعليها، واستعجالهم الامور قبل أوانها، وهو تعريض بالمشركين وحجة على ما يأتون من شرك، وما ينكرون من أمر البعث، متمم لما قبله ولذلك عطفه عليه

تعجيل الشيء تقديمه على أوانه المضروب أو المقدر له أو الموعود به، والاستعجال به طلب التعجيل، والعجل من غرائز الانسان القابلة للتأديب والتثقيف كي لا تطغى به فتورده الموارد. قال تعالى (١٧ : ١١ ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا) وقال تعالى (٢١:٣٧ خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون) فأما استعجاله بالخير والحسنة فلشدة حرصه على منافعه وقلة صبره عنها، وأما استعجاله بالضر والسيئة فلا يكون لذاته بل لسبب عارض كالغضب والجهل والعناد والاستهزاء والتعجيز، وقلما يكون مقصوداً بنفسه إلا للنجاة مما هو شر منه، كما يفعل اليائسون من الحياة، أو النجاة من ذل وخزي أو ألم لا يطاق إذ يقتحمون المهالك أو يبخعون أنفسهم انتحاراً.

قال تعالى ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ﴾ الذي يستعجلونه به كاستعجال مشركي مكة رسول الله ﷺ بالعذاب الذي أنذرهم نزوله بهم إجمالا بما قصه عليهم في هذه السورة وغيرها من سنة الله تعالى في أقوام الرسل المعاندين وهو عذاب الاستئصال، وفيما دونه من عذاب الدنيا كخزيهم والتنكيل بهم ونصره عليهم، أو قيام الساعة، وعذاب الآخرة. وقد حكى الله تعالى كل ذلك عنهم كقوله (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات) الآية (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة) وتقدم قوله (٨:١٢ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وقال في الساعة (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) وفي العذاب (يستعجلونك

بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين) وكل هذه الضروب من الاستعجال كانوا يقصدون بها تعجيز الرسول (ص) مبالغة في التكذيب، واستهزاء بالوعيد، وقوله ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ معناه كاستعجالهم بالخير الذي يطلبونه لذاته بدعاء الله تعالى أو بمحاولة الاسباب التي يظنون أنها قد تأتي به قبل أوانه ﴿ لقضي اليهم أجلهم ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب الجملة بالبناء للفاعل أي لقضى الله اليهم أجلهم، وقرأها الجمهور بالبناء للمفعول للعلم بالفاعل. وقضاء الاجل اليهم انتهاؤه اليهم باهلاكهم قبل وقته الطبيعي [1] كما هلك الذين كذبوا الرسل واستعجلوهم بالعذاب من قبلهم . ولكن الله تعالى أرحم بهم من أنفسهم ، وقد بعث رسوله محمداً خاتم النبيين رحمة للعالمين ، بالهداية الدائمة إلى يوم الدين ، وقضى بأن يؤمن به قومه من العرب ، ويحملوا دينه إلى جميع أمم العجم ، وأن يعاقب المعاندين من قومه في الدنيا بما يكون تأديبا لسائرهم ، بما بينه بقوله (٩ : ١٤ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم) الآية ، ويؤخر سائر الكافرين منهم ومن غيرهم إلى يوم القيامة ، فهو لا يقضي اليهم أجلهم باهلاكهم واستئصالهم ، لان هذا العذاب اذا نزل يكون عاما بل يذرهم وما هم فيه إلى نهاية آجالهم وذلك قوله ﴿ فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ﴾ الطغيان مجاوزة الحد في الشر من كفر وظلم وعدوان . هذا هو الاصل وطغيان السيل والبحر والدم مستعار منه والعمه (كالتعب) التردد والتحير في الامر أو في الشر ، والمعنى فنترك الذين لا يرجون لقاءنا ممن تقدم ذكرهم فيما هم فيه من طغيان في الكفر والتكذيب ، يترددون فيه متحيرين لا يهتدون سبيلا للخروج منه لا نعجل لهم العذاب في الدنيا باستئصالهم ، حتى يأتي أمر الله تعالى في جماعتهم بنصر رسوله عليهم ، وفي أفرادهم بقتل بعضهم وموت بعض ، ومأواهم النار وبئس المصير ، الا من تاب وآمن منهم ، أي هذه سنتنا فيهم لا نعجل شيئا قبل أوانه المقدر له بمقتضى علمنا وحكمتنا .

(١) راجع تفسير (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) في أول سورة الانعام (ج ٧ تفسير

وفي الآية وجه عام غير خاص بالكافرين تقديره : ولو يعجل الله للناس الشر الذي يستعجلونه بذنوبهم المقتضية له من ظلم وفساد في الارض وفسوق لأهلكهم كما قال في آية أخرى (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) الآية ويدخل في المعنى هنا دعاؤهم على أنفسهم عند اليأس ودعاء بعضهم على بعض عند الغضب ، لو يعجله الله لهم لاهلكهم أيضاً (وما دعاء الكافرين) ربهم أو بنعمه عليهم فيما يخالف شرعه وسننه في خلقه (إلا في ضلال) أي ضياع لا يستجيبه الله لهم ، لحلمه ورحمته بهم .

﴿ واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ﴾ هذا بيان لغريزة الانسان العامة وشأنه فيما يمسه من الضر ، يعلم منه أن استعجال أولئك الناس بالشر تعجيزاً لنبيهم ومبالغة في تكذيبه انما هو من طغيانهم الذي خرجوا فيه عن مقتضى طبيعتهم ، فهو يقول ان الانسان اذا أصابه من الضر ما يشعر بشدة ألمه أو خطره من إشراف على غرق وغيره من أنواع التهلكة ، أو شدة مسغبة ، أو إعضال داء ، دعانا ملحا في كشفه عنه في كل حال يكون عليه : دعانا مضطجعا لجنبه ، أو قاعداً في كسر بيته ، أو قائماً على قدميه حائراً في أمره ، فهو لا ينسى حاجته إلى رحمة ربه ، مادام يشعر بمس الضر ولذعه له ، ويعلم من نفسه العجز عن النجاة منه ، قدم من هذه الحالات الثلاث ما يكون الانسان فيها أشد عجزاً وأقوى شعوراً بالحاجة إلى ربه فالتي تليها فالتي تليها ، وثم حالة رابعة هي سعيه لدفع الضر من طريق الاسباب فلم تذكر لان الانسان غير المؤمن قلما يتذكر ما أودع في فطرته من الايمان بربه ذي السلطان الغيبي الذي هو فوق جميع الاسباب ويشعر بحاجته إلى اللجوء اليه ، ودعائه والاستغاثة به ، إلا عند عجزه عن الاسباب المسخرة له ، والمشركون بالله تعالى أقل الناس تذكراً لذلك ، لانهم عند عجزهم عن الاسباب العامة المعلومة ، يلجؤن إلى مظنة الاسباب الموهومة ، وهي المخلوقات المعبودة التي يعتقدون أن لها سلطاناً غيبياً فوق الاسباب من جنس سلطان الرب الخالق عز وجل ، إما لذاتها وإما بما لها من المكانة عند الله ، والمثل مضروب هنا لهؤلاء

﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ كان الظاهر أن

يقال « فاذا كشفنا عنه ضره » إذ هو المناسب للشرط في أول الآية وهو في جنس الانسان ومقتضى طبعه لا في فرد من أفراده ، ونكتة هذا التعبير أن يتصور القاريء والسامع للآية كشف الضر بعد الدعاء واقعا مشاهداً من شخص معين ويرى مايفعل بعده لانه أبلغ في العبرة . أي فلما كشفنا عنه ضره الذي دعانا له في حال شعوره بعجزه عن كشفه بنفسه وبغيره من الاسباب ، مرَّ ومضى في شؤونه على ما كان من طريقته في الغفلة عن ربه والكفر به ، كأن الحال لم تتغير عليه ، فلم يدعنا إلى ضر مسه ، ولم نكشف عنه ضره ﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ أي كهذا النحو من معرفة الله والاخلاص في دعائه وحده في الشدة ونسيانه والكفر به بعد كشفها زين للمسرفين من طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشرك، حتى بلغ من عنادهم للرسول واستهزائهم بما أنذرهم من عذاب أن استعجلوه بالعذاب ، والاسراف رديف الطغيان وأخوه ، وسيأتي مثل هذه الآية بعد عشر آيات ببيان أبلغ. وقد أسند التزيين هنا إلى المفعول لانه المقصود بالعبرة دون فاعله. وسبق مثله في آل عمران (٣:١٤) والانعام (٦:٢٢) والتوبة (٩:٣٨) وقد أسند إلى الشيطان في سورة الانعام والانفال ، وأسند إلى الله تعالى في الانعام أيضاً بقوله (١٠٨ زينا لكل أمة عملهم) وبينا في تفسير هذه نكتة اختلاف الاسناد في كل موضع (راجع ص ٦٦٨ ج ٨ تفسير الطبعة الثانية)

(١٣) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٤) ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰئِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

بين الله تعالى في الآيتين السابقتين شأنه في الناس وشأنهم معه بمقتضى الطبع البشري وطغيان الشرك والكفر ليعتبر به مشركو مكة وغيرهم ممن يعقله إذ هو من العلم الصحيح المستمد من طبع الانسان وسيرته ، وقفى عليه في هاتين

الآيتين بمصداقه من سيرة الامم الماضية وسنته تعالى فيهم فقال عاطفا له على ما قبله ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾ الخطاب لأمة الدعوة المحمدية وجه أولا وبالذات إلى قوم النبي ﷺ وأهل وطنه مكة إذ أنزلت السورة فيها فهو التفات يفيد مزيد التنبيه وتوجيه أذهان المخاطبين لموضوعه ، والقرون الامم وهو جمع قرن بالفتح ومعناه القوم المقترنون في زمن واحد ، وقد ذكر اهلاك القرون في آيات عديدة من السور المكية ، وبدأ هذه بتأكيد القسم المدلول عليه باللام (ولقد) وصرح بأن سبب هلاكهم وقوع الظلم منهم كما قال في سورة الكهف (١٧ : ٦٠ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) و « لما » ظرف يدل على وقوع فعل لوقوع غيره مما هو سبب له ، والمراد بالقرى الامم والقرون كما تقدم مرارا ، وقال في سورة هود (١١ : ١٠٢ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) وقد بعث الله الرسل في أهل الحضارة دون الهمج

واهلاك الله الامم بالظلم نوعان (أحدهما) هو مقتضى سنته في نظام الاجتماع البشري وهي أن الظلم سبب لفساد العمران وضعف الامم ، ولاستيلاء القوية منها على الضعيفة استيلاء موقتاً إن كان إفساد الظلم لها عارضاً لم يجهز على استعدادها للحياة واستعدادها للاستقلال ، كما تقدم في تفسير (فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) من سورة البقرة [1] أو دائماً إن كانت غير صالحة للحياة حتى تنقرض أو تدغم في الغالبة . كما قال في سورة الانبياء (٢١ : ١١ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين) الآيات – وهذا النوع أثر طبيعي للظلم بحسب سنن الله في البشر ، وهو قسمان ظلم الافراد لانفسهم بالفسوق والاسراف في الشهوات المضعفة للابدان المفسدة للاخلاق ، وظلم الحكام الذي يفسد بأس الامة في جملتها ، وهذه السنة دائمة في الامم ، ولها حدود ومواقيت تختلف باختلاف أحوالها وأحوال أعدائها هي آجالها المشار اليها في الآية (٤٩) الآتية وأمثالها

(ثانيهما) عذاب الاستئصال للاقوام التي بعث الله تعالى فيها رسلا لهدايتها بالايمان والعمل الصالح وأعظم أركانه العدل ، فعاندوا الرسل فأنذروهم عاقبة

(١) راجع ص ٤٥٤ جزء ٢ تفسير طبعة ثانية

الجحود والعناد بعد مجيء الآيات وهو مابينه تعالى بقوله ﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ الدالة على صدقهم فيما جاؤهم به ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ أي وما كان من شأنهم ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا لانهم مرنوا على الكفر واطمأنوا به ، وصارت لذاتهم ومصالحهم القومية من الجاه والرياسة والسياسة مقترنة بأعماله الاجرامية من ظلم وفسق وفجور ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ تذييل لانذار مشركي مكة لانهم كانوا مجرمين وتقديره كالذي مر قبله في المسرفين ، وراجع تفسير (٧ : ٣٩ وكذلك نجزي المجرمين) وتفسير (٨٣ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) من سورة الاعراف

﴿ ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم ﴾ الخطاب معطوف على الذي قبله أي ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعد أولئك الاقوام كلهم بما آتيناكم في هذا الدين من أسباب الملك والحكم وقدرناه لكم باتباعه ، إذ كان الرسول الذي به جاءكم هو خاتم النبيين فلا يوجد بعد أمته أمة أخرى لنبي آخر ، والخلائف جمع خليفة وهو من يخلف غيره في الشيء أي يكون خلفه فيه ، ولقد كان لتلك الامم دول وحكم في الارض ، كملك النصارى واليهود والمجوس، والوثنيين من قبلهم كالفراعنة والهنود ، فالله يبشر قوم محمد وأمة محمد بأنها ستخلفهم في الارض اذا آمنت به واتبعت النور الذي أنزل معه، كما صرح بذلك في قوله (٢٤ : ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية، وقد علل هذا الاستخلاف عند الاخبار الاول به هنا بقوله ﴿ لننظر كيف تعملون ﴾ أي لنرى ونشاهد أي عمل تعملون في خلافتكم فنجازيكم به بمقتضى سنتنا فيمن قبلكم، فان هذه الخلافة انما جعلها لكم لاقامة الحق والعدل في الارض، وتطهيرها من رجس الشرك والفسق ، لا لمجرد التمتع بلذة الملك، كما قال في أول آيات الاذن لهم بالقتال (٢٢ : ٤١ الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) فأعلمهم سبحانه بأن أمر بقاء خلافتهم منوط بأعمالهم ، وانه تعالى يكون ناظراً إلى هذه الاعمال لايغفل عنهم فيها ، حتى لايغتروا بما سينالونه ويظنوا انه

طاق لهم لذاتهم أو لنسبتهم إلى نبيه ﷺ وانهم يتفلتون من سنته في الظالمين وقد بيناها لهم آنفا وقال في سورة الاعراف (٧: ١٠٠ أو لم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) الآية ، وقد قص علينا فيها ما حذربه قوم موسى عند ماوعدهم على لسانه بارث الارض التي وعد بها آباءهم في إثر ما شكوا اليه من إيذاء قوم فرعون لهم قبل مجيئه وبعده وذلك قوله تعالى حكاية عنه (١٢٩ قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون)

وليراجع القارئ تفسير آية الاعراف في الجزء التاسع ، وتفسير قوله تعالى في استخلاف الامم العام من آخر سورة الانعام (وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم)الآية (ص٢٤٩ ج ٨) وقد صدق الله وعده ووعيده المسلمين كغيرهم بما تبين به إعجاز كتابه وصدق رسوله ﷺ وكونه ربى أمته بما علمه ربه من هداية الدين وطبائع العمران وسنن الاجتماع التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه الاميون ، بل لم تصر علماً مدوناً إلا من بعد نزول القرآن بعدة قرون، لغفلة علماء المسلمين عما فيه من أصولها وقواعدها الصريحة كهذه الآيات . وقد كان أول من دونها المؤرخ الفقيه عبد الرحمن بن خلدون في مقدمة تاريخه مؤملا أن يعنى بها من بعده من العلماء فيأتوا بتوسيع ما بدأ به من مباحثها ، ولكن العلم والحكم في دولة الاسلام ، كان داخلا في طور الانحطاط والاضمحلال ، ثم ارتقى الافرنج فيهما فترجموا تلك المقدمة بلغاتهم العلمية كلها وأخذوا منها عدة علوم في سنن العمران ، ونحن نأخذها اليوم عنهم غافلين عن هداية القرآن ، لان علماء السوء المقلدين حجبونا عن هدايته بل حرموها على المسلمين استغناء عنه بكتب مذاهبهم ، فأخذهم الله بذنوبهم ، ولن يكشف عنهم انتقامه حتى يعودوا إلى هدايته التي استخلف بها سلفهم في الارض ، ولئن عادوا اليها باقامة سنن القرآن ،ليتمن لهم وعده بخلافة الارض إلى آخر الزمان. فبقدر اقامة هذه السنن يكون الملك والسلطان. فمن ذا الذي يقيمها؟

(١٥) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٦) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٧) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ

بدئت السورة بالكتاب الحكيم (القرآن) وانكار المشركين للوحي بشبهتهم المعروفة وسيقت بعدها الآيات في إقامة الحجج عليهم من خلق العالم علويه وسفليه ومن طبيعة الانسان وتاريخه متضمنة لاثبات أهم أركان الدين وهو الوحي والتوحيد والبعث ، وجاءت هذه الآيات الثلاث بعد ذلك في شأن الكتاب نفسه وتفنيد مااقترحه المشركون على الرسول فيه وحجته البالغة عليهم في كونه وحيا من الله تعالى

﴿ واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ في الآية التفات عن خطاب هؤلاء الموعوظين إلى الغيبة عنهم وتوجيه له إلى الرسول ﷺ وأسلوب الالتفات في القرآن كثير جداً وفائدته العامة تلوين الكلام بما يجدد الانتباه له والتأمل فيه، وفي كل التفات فائدة خاصة لو أردنا بيان مانفهمه منها لطال بنا بحث البلاغة الكلامية، عما يشغل القراء عن الهداية المقصودة بالذات من تفسيرنا . ويظهر في هذه الآية ان نكتة حكاية هذا الاقتراح السخيف بأسلوب الاخبار عن قوم غائبين افادة أمرين (أحدهما) اظهار الاعراض عنهم كأنهم غير حاضرين لانهم لايستحقون الخطاب به من الله تعالى (ثانيهما) تلقينه ﷺ الجواب عنه بما ترى من العبارة البليغة التأثير ، والمعنى واذا تتلى على أولئك القوم آياتنا المنزلة حالة كونها بارزة في أعلى معارض البيان، وأظهر مقدمات الوحي والبرهان ﴿ قال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾

وهم من تقدم ذكرهم قريبا ـ وأعاده واضعاً إياه موضع الضمير للاشعار بعلة القول ـ أي قالوا لمن يتلوها عليهم وهو الرسول ﷺ ﴿ ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴾ الاظهر في سبب قولهم هذا انه ﷺ بلغهم أن هذا القرآن من عند الله أوحاه اليه لينذرهم به ، وتحداهم بالاتيان بمثله او بسورة من مثله فعجزوا ، وكانوا في ريب من كونه وحياً من الله لبشر مثلهم كما تقدم في أول السورة ، وفي ريب من كونه من عند محمد ﷺ وهو لم يكن يفوقهم في الفصاحة والبلاغة ولا في شيء من العلم ، بل كانوا يرونه دون كبار فصحائهم من بلغاء الشعراء ومصاقع الخطباء ، فأرادوا أن يمتحنوه بمطالبته بالاتيان بقرآن غيره في جملة مابلغهم من سوره في أسلوبها ونظمها ودعوتها ، أو بالتصرف فيه بالتغيير والتبديل لما يكرهونه منه كتحقير آلهتهم وتكفير آبائهم ، حتى اذا فعل هذا أو ذاك كانت دعواه انه كلام الله أوحاه اليه منقوضة من أساسها ، وكان قصارى أمره أنه امتاز عليهم بهذا النوع من البيان بقوة نفسية فيه كانت خفية عنهم كأسباب السحر لا بوحي الله اليه ، وهو مايزعمه بعض الافرنج ومقلدتهم في عصرنا وقد فندناه في تفسير الآية الاولى من هذه السورة

﴿ قل مايكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ﴾ أي قل لهم أيها الرسول إنه ليس من شأني ولا مما تبيحه لي رسالتي أن أبدله من تلقاء نفسي أي بمحض رأيي ومقتضى اجتهادي ، وكلمة تلقاء بكسر التاء مصدر من اللقاء كتبيان من البيان وكسر التاء فيهما سماعي والقياس في هذا المصدر فتحها كالتكرار والتطواف والتجوال ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ أي ما اتبع فيه إلا تبليغ ما يوحى إلي والاهتداء به ، فان بدل الله تعالى منه شيئاً بنسخه بلّغته عنه ، وما علي إلا البلاغ المحض ، وأقول اذا كان الله لم يعط رسوله الحق في تبديل القرآن فما حكمه تعالى فيمن يبدلونه بأعمالهم المنافية لصدق وعده لاهله وهم يدعون أنهم أهله كالذين قال فيهم (٤٨ : ١٥ يريدون ان يبدلوا كلام الله) أو بترك أحكامه لمذاهبهم كالذين قال فيهم (فمن بدله بعد ماسمعه فانما إثمه على الذين يبدلونه) ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ هذا تعليل لمضمون ما قبله ، الذي هو بيان لنفي الشأن الذي قبله . أي إني أخاف

إن عصيت ربي أي عصيان كان ، عذاب يوم عظيم الشان ، وهو يوم القيامة ، فكيف اذا عصيته بتبديل كلامه اتباعا لاهوائكم ؟ وقوله (إن عصيت) من باب الفرض ، إذ الشرطية المبدوءة بان يعبر بها عما شأنه ألا يقع . وهذا جواب عن الشق الثاني من اقتراحهم

ثم لقنه الجواب عن الشق الاول مفصولا لاهميته بقوله ﴿ قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ﴾ أي لو شاء الله تعالى أن لا أتلو عليكم هذا القرآن ماتلوته عليكم فانما أتلوه بأمره تنفيذاً لمشيئته ﴿ ولا أدراكم به ﴾ أي ولو شاء أن لا يدريكم ويعلمكم به بارسالي اليكم لما ارسلني ولما أدراكم به ،ولكنه شاء أن يمن عليكم بهذا العلم الاعلى لتدروه فتهتدوا به وتكونوا بهدايته خلائف الارض ،وقد علم أن هذا انما يكون به لا بقرآن آخر كما قال (٤ :١٦٦ لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه) وقال (٧ : ٥٢ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون) [راجع تفسير هذه وما بعدها في ج٨ تفسير] فهو قد أنزله عالما بأن فيه كل مايحتاجون اليه من الهداية وأسباب السعادة ، وأمرني بتبليغه اليكم ولم يكن لي علم بشيء من ذلك قبله ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ﴾ أي فقد مكثت فيما بين ظهرانيكم عمراً طويلا من قبله وهو أربعون سنة لم أتل عليكم فيه سورة من مثله ، ولا آية تشبه آياته ، لافي العلم والعرفان ،ولا في البلاغة وروعة البيان ﴿ أفلا تعقلون؟ ﴾ ان من عاش أربعين سنة لم يقرأ فيها كتابا ،ولم يلقن من أحد علما ، ولم يتقلد ديناً ،ولم يعرف تشريعاً ،ولم يمارس أساليب البيان ، في أفانين الكلام ، من شعر ونثر ،ولا خطابة وفخر ، ولا علم وحكم ، لا يمكنه أن يأتي من تلقاء نفسه بمثل هذا القرآن المعجز لكم بل هو يعجز جميع الخلق حتى الدارسين لكتب الاديان والحكمة والتاريخ أن يأتوا بمثله ؟ فكيف تقترحون عليّ اذاً أن آتي بقرآن غيره ؟ وسيتحداهم في الآية ٣٨ بسورة مثله

ومما يمتاز به الوحي المحمدي على ما كان قبله أن أكثر أنبياء بني اسرائيل كانوا قبل نبوتهم على شيء من العلم الكسبي كما بيناه في مباحث الوحي القريبة ، وفاتنا فيها

التذكير بما أوتي بعضهم من العلم والحكم الوهبي قبلها أيضاً . قال تعالى في موسى (٢٨ : ١٤ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما) وبلوغ الاشد يكون في استكمال الثلاثين وذكر بعد هذا خروجه إلى مدين ونزول الوحي عليه في أثناء عودته منها. وكان موسى على علم بشرائع المصريين ومعارفهم أيضاً ، وقال تعالى في يوسف (١٢ : ٢٢ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) ولم يقل واستوى فالظاهر انه قبل النبوة أيضاً ، وكان العلم الذي امتاز به يوسف تأويل الاحاديث والرؤى أي الاخبار بمآلها. وقال في يحيى (وآتيناه الحكم صبياً) ولم ينقل عن نبينا ﷺ قبل النبوة علم ولا حكم في الامور الاهم إلا حكمه في تنازع زعماء قريش عند بنائهم الكعبة أيهم يضع الحجر الاسود في مكانه من الركن وكادوا يقتتلون فطلع عليهم فقالوا هذا الامين نحكمه ونرضى بحكمه أي لأنه أمين صادق لا يحابي. فحكم بوضعه في ثوب يأخذ سيد كل قبيلة ناحية منه ثم ارتقى هو الى موضعه من الركن فرفعوه اليه فوضعه فيه. والخبر من مراسيل السير لم يرد مرفوعا وأخرجه البيهقي عن ابن شهاب الزهري وقد عبر عنه بكلمة غلام وفي السيرة الحلبية ان سنه ﷺ كانت عند بناء الكعبة خمسا وثلاثين سنة

هذه حجة عقلية ناهضة ، على بطلان شبهتهم الداحضة ، التي بنوا عليها مطالبة محمد ﷺ بالاتيان بقرآن غير هذا القرآن ، وقد ظهر لعلماء هذا العصر ماأيد دلالتها العلمية فانهم بما حذقوا علم النفس وأخلاق البشر وطباعهم ، وما عرفوا من درجات استعدادهم العلمي والعقلي باستقراء تاريخهم ، قد حققوا أن استعداد الانسان العقلي للعلوم ، واستعداده النفسي للنهوض بالاعمال القومية أو العالمية ، يظهر كل من الاستعدادين فيه من أوائل نشأته ، ويكون في منتهى القوة والظهور بالفعل عند استكمال نموه في العقدين الثاني والثالث من عمره ، فاذا بلغ الخامسة والثلاثين ولم يظهر نبوغه في علم من العلوم التي سبق اشتغاله بها ، ولا النهوض بعمل من الاعمال العامة التي كان استشرف لها ، فان من المحال أن يظهر منه

شيء من هذا أو ذاك من بعدها جديداً أنفا [١] ويكون فيه نابغاً ناجحاً ، وقد قدمنا في مباحث اثبات (الوحي المحمدي) أن هذا القرآن مشتمل على تمحيص الحقائق في جميع العلوم والمعارف الدينية والتشريعية التي يتوقف عليها اصلاح جميع البشر ، وأن الرسول الذي أنزله الله عليه قام بتنفيذ هذا الاصلاح بما غير وجه الارض ، وقلب أحوال اكثر أممها فحولها إلى خير منها ، وأن ذلك كله كان بعد أربعين سنة قضاها في الامية . فهذا العلم الجديد الذي أيد حجة القرآن العقلية في هذا العصر له في علوم القرآن نظائر أشرنا الى بعضها آنفاً ، وبينا كثيراً منها في تفسيرنا هذا ، وهو مما يمتاز به على جميع التفاسير بفضل الله تعالى ، وإن كان أكثر المسلمين غافلين عنه تبعاً لغفلتهم عن القرآن نفسه ، وعدم شعورهم بالحاجة إلى هدايته ، بصد دعاة التقليد المعممين إياهم عنه ، ومن الغريب أن ترى أساطين المفسرين لم يفهموا من الآية أن فيها جوابا عن الشق الاول من اقتراح المشركين وهو الاتيان بقرآن آخر ، وقد هدانا الله تعالى اليه مع برهانه بفضله ، و كم ترك الاول للآخر !!

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ﴾ هذه تتمة الرد على اقتراح المشركين فانه رد عليهم أولا ببيان حقيقة الامر الواقع ، وهو أن تبديل القرآن ليس من شأن الرسول في نفسه ، ولا مما أذن الله له به ، بل يعاقبه عليه أشد العقاب في الآخرة إن فرض وقوعه منه - لانه كلامه الخاص به - وثانياً باقامة الحجة العقلية على أنه كلام الله وأنه ليس في استطاعته [ص] الاتيان بمثله ، ثم عزز هاتين الحجتين بثالثة أدبية وهي ان شر أنواع الظلم والاجرام في البشر شيئان أحدهما افتراء الكذب على الله ، وهو ما اقترحوه عليه بجحودهم ، وثانيهما التكذيب بآيات الله ، وهو ما اجترحوه باجرامهم ، وقد بين هذا بصيغة الاستفهام الانكاري ، أي لا أحد أظلم عند الله وأجدر بغضبه وعقابه من هذين الفريقين

---

(١) الانف بضمتين من قولهم روضة أنف أي جديدة النبت لم ترع . وعبر به القدرية عن مذهبهم في خلق الله الاشياء عندما يبدو لله كل شيء منها بدون تقدير سابق ، فقالوا الامر أنف ومنه يعلم مرادنا من الكلمة هنا

من الظالمين ، وأنا أنهى عليكم الثاني منهما فكيف أرضى لنفسي بالاول وهو شر منه ؟ وأي فائدة لي من هذا الاجرام العظيم وأنا أريد الاصلاح وأدعو اليه وأحتمل المشاق في سبيله ، وأعلم ﴿ انه لايفلح المجرمون ﴾ أي لايفوزون بمطلوبهم الذي يتوسلون اليه بالكذب والزور .

وقد تقدم مثل هذا الاستفهام في ثلاث آيات من سورة الانعام (٦: ٢١و٣٩و١٤٤) وفي آية من سورة الاعراف(٧: ٣٧) فراجع تفسيرهن في ج ٨ تفسير)

(١٨) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ، قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ

هذه الآية في دحض شبهتهم على عبادة غير الله تعالى وهي الشفاعة وتقدم في الآية الثالثة بطلانها وإقامة الحجة على وجوب عبادة الرب الخالق المدبر وحده ، وصرح هنا باسناد هذا الشرك اليهم وباحتجاجهم عليه بالشفاعة ثم لقن رسوله الحجة على بطلان هذا الاحتجاج فقال

﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ الكلام معطوف على ماقبله من بيان شركهم وسخافتهم فيه ، ومكابرتهم في جحود الحق الذي دعاهم اليه الوحي ، أي ويعبدون مالا يملك لهم ضراً ولا نفعا من الاصنام وغيرها من دون الله أي غير الله ، والمعنى أنهم يعبدونها حال كونهم متجاوزين مايجب من عبادته وحده ، لا أنهم يعبدونها وحدها فما معنى كونهم مشركين إلا أنهم يعبدونه ويعبدون غيره (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وفي وصفها بأنها لا تضرهم ولا تنفعهم إيذان بسبب عبادتها وضلالهم فيه وتذكير بأنه هو القادر على نفع من يعبده وضر من يكفره ويشرك بعبادته غيره في الدنيا والآخرة ، وأصل غريزة العبادة الفطرية في البشر في سذاجتهم التي لا تلقين فيها لحق ولا

باطل هي الشعور الباطن بأن في الوجود قوة غيبية وسلطانا علويا على التصرف في الخلق بالنفع لمن شاء وإيقاع الضر على من شاء ، وكشفه بعد وقوعه عمن شاء ، غير مقيد في ذلك بسبب من الاسباب المسخرة للناس، فمن اطلع على تواريخ البشر في كل طور من أطوار حياتهم البدوية والحضرية يظهر له أن هذا هو أصل التدين الغريزي فيهم ، وأما صور التعبد وتسمية المعبودات فمنها ما هو من اجتهادهم ، ومنها ماهو من تلقين دعاة الدين فيهم من الانبياء وغيرهم ، فكل ماعبد من دون الله بالرأي والاجتهاد فانما عبده من عبده لشبهة فهم منها قدرته على النفع والضر بسلطان له فوق الاسباب ، وقد بينا ذلك في مواضع أخرى أولها تفسير العبادة من سورة الفاتحة وأوسطها وأبسطها تفسير قصة ابراهيم ﷺ مع أبيه آزر من سورة الانعام ، ومن آخرها في تفسير هذه السورة ما جاء في بيان الركن الاول من أركان الدين وفي الكلام على الخوارق من بحث الوحي الاستطرادي

فليس المراد من كون هذه المعبودات لا تضرهم ولا تنفعهم — هو بيان عجزها عن النفع والضر لانها إما جمادات مصنوعة كالاوثان المتخذة من الحجارة أو الخشب والاصنام المتخذة من المعادن وكذا الحجارة، أو غير مصنوعة كاللات وهي صخرة كانت بالطائف يلت عليها السويق ثم عظمت حتى عبدت ، وإما أشجار كالعزى معبودة قريش والشجرة التي قطعها الشيخ محمد عبد الوهاب في نجد وشجرة المنضورة التي يقصدها النساء في مصر لاجل الحبل، فان أكثر الاوثان والاصنام قد وضعت ذكرى لبعض الصالحين من البشر كما رواه البخاري عن ابن عباس (رض) في أصنام قوم نوح ثم انتقلت عبادتهم إلى العرب ، وكانوا يعتقدون أن فيها أرواحا من الجن كما روي في حديث قطع شجرة العزى أو شجراتها الثلاث اذ ظهرت عند قطعها لخالد ابن الوليد امرأة سوداء عريانة ناشرة شعرها ، كانوا يزعمون انها جنية، فأرادت أن تواثبه وتخيفه فقتلها ، فهي كالقبور التي تشرف وتجصص ويوضع عليها الستور وتبنى عليها القباب لمثل السبب الذي وضعوا له تماثيل الاوثان ، وعبدة هذه القبور يعتقدون أن المدفونين فيها أحياء يقضون حاجات من يدعونهم ويستغيثونهم ، وعلماء الخرافات يقولون لهم ان عملهم هذا شرعي

نعم ليس المراد هنا من نفي ضرها ونفعها أنها جمادات لا عمل لها فقط كما قيل وإن كانت الحجة على عبادة هذه الاصنام أظهر من الحجة على عبادة الثعابين والبقر والقرود — ولا يزال لها بقية في الهند — وعلى عبادة البشر التي هي أساس النصرانية الآرية التي وضعها الامبراطور قسطنطين ، ومن اتبع سنن النصارى والهنود من جهلة المسلمين، وانما المراد المقصود بالذات بيان بطلان الشرك بالالوهية وهو عبادة غير الله مهما يكن المعبود ، وبطلان الشرك بالربوبية وهو قسمان ادعاء وساطتهم في الخلق والتدبير ، واحتجاجهم عليه بشفاعتهم عند الله ، وهو كذب في التشريع الذي هو حق الرب وحده ولا يعلم إلا بوحيه . بيان الاول ان كل ما عبد ومن عبد من دون الله حتى الجن والملائكة لا يملكون لعابديهم النفع والضر بالقدرة الذاتية الغيبية التي هي فوق الاسباب التي منحها الخالق للمخلوقات على اختلاف أنواعها ، لا بذواتهم وكراماتهم ولا بتأثير خاص لهم عند الخالق يحملونه به على نفع من شاؤا أو ضر من شاؤا أو كشف الضر عنه ، كما يعتقد عباد الانبياء والاولياء من البشر إلى هذا اليوم ، ولهذا أمر الله تعالى رسوله أن يحتج على النصارى في عبادتهم للمسيح عليه السلام بقوله (٥:٧٦ قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم) وهذه حجة على عبدة القبور وعلى أصحاب العمائم الذين يتأولون لهم عبادتهم بما يظنون أنه يبعدهم عن عباد الاصنام، بقولهم إن هؤلاء الاولياء أحياء عند ربهم كالشهداء فهم يضرون وينفعون لا كالأصنام، ولكن الله تعالى يقول للنصارى إن المسيح لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً بعبادتهم له على ما آتاه من المعجزات ، وإن هؤلاء الدجالين من الشيوخ يؤمنون بأن المسيح أفضل من البدوي والحسين والسيدة زينب وغيرهم ممن يزعمون أنهم يملكون الضر والنفع لمن يطلبه منهم ، وحياته لا تزال في اعتقادهم حياة عنصرية وحياتهم برزخية ، ومعجزاته قطعية وكراماتهم غير قطعية

كذلك أمر الله تعالى رسوله خاتم النبيين وأفضلهم أن يخبر الناس بنفي ملكه لضر الناس ونفعهم وهو حي كما يأتي في الآية (٤٩) من هذه السورة . وسبق مثلها في سورة الاعراف (٧:١٨٨)

﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ أي ويقولون في سبب عبادتهم لهم مع اعتقادهم أنهم لا يملكون الضر والنفع بأنفسهم لايمانهم بأن الرب الخالق هو الله تعالى : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فنحن نعبدهم بتعظيم هياكلهم وتطييبها بالعطر والطواف بها ، وبتقديم النذور لهم ، والاهلال عند ذبح القرابين بأسمائهم ، وبدعائهم والاستغاثة بهم ، لأنهم شفعاؤنا عند الله يقربوننا اليه زلفى فيدفع بجاههم عنا البلاء ، ويعطينا مانطلب من النعماء ، هذا مايقوله منكرو البعث منهم وهم الذين لا يرجون لقاء الله تعالى في الآخرة ، على أنهم اذا فرضوا وجودها زعم مجرموهم أنهم يكونون فيها كما كانوا في الدنيا كما حكى الله تعالى عنهم بقوله (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين) وقوله في الانسان الكافر (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربي إن لي عنده للحسنى) وروي عن عكرمة أن النضر بن الحارث من كبار مجرميهم قال : اذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى . وكذلك كل من يؤمن بالآخرة ممن يعبدون غير الله يعتقدون ان معبوديهم يشفعون لهم فيها كما يشفعون لهم في الدنيا ، فان أساس عقيدة الشرك أن جميع ما يطلبونه من الله لابد أن يكون بوساطة المقربين عنده ، لأنهم لا يمكنهم القرب من الله والحظوة عنده بأنفسهم لأنها مدنسة بالمعاصي ، بخلاف دين التوحيد فانه يوجب على العاصي أن يتوجه إلى الله وحده تائبا اليه طالبا مغفرته ورحمته

﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض ﴾ أي قل لهم أيها الرسول منكراً عليهم جهالتهم وافتراءهم على ربهم : أتخبرون الله تعالى وتعلمونه بشيء لا يعلمه من أمر هؤلاء الشفعاء في السموات من ملائكته ولا في الارض من خواص خلقه ، فانه لو كان فيهما شفعاء يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم ، فانه لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء ، فكيف يخفى عليه من لهم من المكانة عنده أن جعلهم وسطاء بينه وبين خلقه في قضاء حاجهم من نفع وضر وفي تقريبهم اليه زلفى كالوسطاء عند ملوك البشر الجاهلين بأمور رعيتهم والعاجزين

عن تنفيذ مشيئتهم فيهم بدون وساطة الوزراء والحجاب والقواد ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ أي تنزيهاً له وتعالى علواً كبيراً عما يشركون به من الشفعاء والوسطاء . وما يفترونه عليه بجعلهم هذا ديناً يتقرب به اليه. فهذا تذييل للجواب مبين لما في هذا الشرك من إهانة مقام الربوبية والالوهية ، وتشبيه رب العالمين، بعبيده من الملوك الجاهلين العاجزين، وقرأ حمزة والكسائي (تشركون) بتاء الخطاب ، على انه تتمة للجواب . وحكمة القراءتين تنزيهه تعالى عن شرك الجميع من غائب محكي عنه وحاضر مخاطب .

وفي هذا الجواب من أصول الدين ان شؤون الرب وسائر مافي عالم الغيب توقيفي لايعلم الا بخبر الوحي، ومنه اتخاذ الوسطاء عند الله ما ذكر وانه عين الشرك. ولكن من علماء الازهر من يثبتون هذه الوساطة بالرأي . ويحرفون ما ينقضها من الآيات المحكمات والاحاديث المتفق عليها كأنها هي الاصل ، حتى انهم يبيحون دعاء الموتى واستغاثتهم عند قبورهم ، ويحتجون على ذلك بأنهم أحياء فيها ، وبأن الافرنج أثبتوا وجود الارواح وعلاقتها بالناس، ولكن الذين قالوا بهذا من علمائهم وهم أقلهم، لم يقولوا انها تنفعهم وتضرهم، أو تشفع عند الله لهم ، ولو قالوا هذا لما كان لنا ان نتخذ قولهم حجة نعارض بها نصوص ديننا او نتأولها لتوافقها، ولمشيخة الازهر الرسمية مجلة تنشر باسمها هذه البدع والخرافات في جميع بلاد المسلمين . وتطعن على المعتصمين بالسنة وسيرة السلف الصالحين ، وعلى المعتصمين بالقرآن أيضا وهو حبل الله المتين ، لزعمهم ان الواجب عليهم هو أخذ الدين كله عن كتب مقلدة الفقهاء والمتكلمين ، حتى المتأخرين منهم دون الائمة المجتهدين

---

(١٩) وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

تقدم في هذا السياق من أول السورة إلى هنا ان أهل مكة لم يكن دأبهم في تكذيبهم للوحي المحمدي إلا كدأب من قبلهم من الاقوام الذين كذبوا رسلهم.

ولم يكونوا في استعجال نبيهم العذاب إلا كالذين استعجلوا رسلهم العذاب أيضاً وتقدم فيه بيان بعض طباع البشر ولا سيما الكفار في الرعونة والعجلة ، وفي الضراعة إلى الله والاخلاص له عند الشدة ونسيانه عند الرخاء ، وفي الاشراك بالله بدعوى انهم شفعاء عند الله يدفعون عنهم الضر ويجلبون لهم النفع بوجاهتهم عنده ، ثم جاءت هذه الآية في بيان ما كان عليه الناس من الوحدة ، وما صاروا عليه من الاختلاف والفرقة ، فالتناسب بينها وبين ماقبلها في غاية القوة .

﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾ قيل إن المراد بالناس هنا العرب فانهم كانوا حنفاء على ملة ابراهيم إلى أن ظهر فيهم عمرو بن لحيّ الذي ابتدع لهم عبادة غير الله وصنع لهم الاصنام - كما ثبت في صحيح البخاري - فاختلفوا بأن أشرك بعضهم وثبت على الحنيفية آخرون .(١)

وقيل وهو المختار ان المراد الجنس البشري في جملته فانهم كانوا أمة واحدة على الفطرة ، إذ كانوا يعيشون عيشة السذاجة والوحدة كأسرة واحدة ، حتى كثروا وتفرقوا فصاروا عشائر فقبائل فشعوبا تختلف حاجاتها وتتعارض منافعها ، فتتعادى وتتقاتل في التنازع فيها ، فبعث الله فيهم النبيين والمرسلين لهدايتهم ، وإزالة الاختلاف بكتاب الله ووحيه ، ثم اختلفوا في الكتاب نفسه أيضاً بغياً بينهم واتباعا لاهوائهم ، وتقدم تفصيل هذا في تفسير (٢ : ٢١٣) وأقوال المفسرين في المسألة والترجيح بينها

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون ﴾ أي ولولا كلمة حق فاصلة سبقت من ربك في جعل جزاء الناس العام في الآخرة لعجله لهم في الدنيا باهلاك المبطلين الباغين منهم ، فالمراد من الكلمة قوله تعالى في هذه السورة (٩٣ إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) ومثله في سور أخرى

والآية تتضمن الوعيد على اختلاف الناس المفضي إلى الشقاق والعدوان ولا سيما الاختلاف في كتاب الله الذي أنزله لازالة الشقاق بحكمه ، وإدالة الوحدة

(١) بينا تاريخ وثنية العرب في فصل عقدناه عقب تفسير الآية ١٤٤ من سورة الانعام ومنه هذه المسألة فيراجع في الجزء الثامن من التفسير

والوفاق منه ، وتقدم بيانه وحكمته في تفسير آية البقرة (٢١٣) وفي غيرها وسنعود إلى بيان حكمته وحكمة خلق الانسان مستعداً للاختلاف في تفسير آية سورة هود (١١ : ١١٧ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) الخ

(٢٠) وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ

الكلام في منكري الوحي من المشركين المنكرين للبعث ، حكى عنهم عجبهم من الوحي إلى بشر مثلهم ورد عليهم بأنواع الحجج المتقدمة المتضمنة لبطلان شركهم وانكارهم للبعث ، ثم حكى عنهم مطالبة الرسول صلى الله عليه وسلم بالاتيان بقرآن غير هذا القرآن الدال بأسلوبه ونظمه وعلومه وهدايته على أنه وحي من كلام الله عز وجل أو تبديله ، ورد عليهم بما علمت . ثم حكى عنهم في هذه الآية الاحتجاج على إنكار نبوته بعدم إنزال ربه عليه آية كونية غير هذا القرآن وما فيه من الآيات العلمية والعقلية على النبوة والرسالة مع الرد عليها . والجملة معطوفة على جملة ماقبلها من حكايات أقوال المشركين وأعمالهم في جحود الرسالة ، ومن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد والايمان بالبعث ، لا على آخر ماحكاه عنهم في قوله (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا) خاصة لقربه وكون كل منهما بلفظ المضارع ، فان المحكي هنا غير مشارك للمحكي قبله في خاصة موضوعه أو مايناسبه ، ولا على ماحكاه عنهم من طلب الاتيان بقرآن غير هذا أو تبديله خاصة وإن كانا في موضوع واحد ، لبعده والاختلاف بينهما في حكاية ذلك بالماضي وهو (قال الذين لايرجون لقاءنا) وحكاية هذا بالمضارع الخ

وقال الزمخشري في الكشاف في ترجيحه إن المضارع هنا بمعنى الماضي هنالك وانما آثر المضارع على الماضي ليدل على استمرار هذه المقالة وانها من دأبهم وعادتهم مع مافي ذلك من استحضار صورتها الشنيعة إه وقد أخطأ في الترجيح وباعده وإن سدد في التعليل وقارب ، والتحقيق ان المعنى الجامع بين الجمل المتعاطفة في هذا

السياق حكاية أنواع جحودهم في جملتها ، وان التعبير بالمضارع في هذه وما قبلها وفيما سيأتي من قوله (أم يقولون افتراه) وقوله (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) انما هو لما يتكرر من أقوالهم في الجحود ، فان اقتراح نزول آية كونية عليه قد تكرر منهم وذكر في سور منها ما نزل قبل هذه السورة (يونس) ومنها ما نزل بعدها كما سنوضحه بشواهده ، فمعنى الآية هكذا :

﴿ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ أي قد قالوا ولا يزالون يقولون هلا أنزل على محمد ﷺ آية كونية كآيات الانبياء الذين يحدثنا عنهم ، حكى سبحانه عنهم هذا الاقتراح هنا مجملا وأجاب عنه جوابا مجملا لان كلا منهما قد سبق مفصلا في سور أخرى ، وقد جهل هـذا كفار الافرنج وتلاميذهم من ملاحدة مصر ، فقالوا في مثله ان النبي ﷺ كان في مكة يفر من مناظرة المشركين

﴿ قل إنما الغيب لله ﴾ والآيات من عالم الغيب عند الله تعالى وبيده وحده لانها خوارق فوق قدرة البشر ، وانما أنا بشر والغيب لله لا يعلمه غيره ، فان كان قدر إنزال آية علي فهو يعلم وقتهـا وينزلها فيـه وأنا لا أعلم إلا ما أوحاه إلي

﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ لما يفعله بي وبكم كما قال تعالى بعد حكاية رميه ﷺ بافتراء القرآن (٤٦ : ٩ قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين) ويفسر ما ينتظره وينتظرونه منه قوله في أواخر هذه السورة (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين) وفيه إنذار لهم بالعذاب وهو قسمان: عذاب الاستئصال لمن أوتوا ما اقترحوا على رسلهم من الآيات فأصروا على الجحود والعناد ، وعذاب من لم يؤتوا ذلك وهو خـذلانهم ونصر الرسل عليهم في الدنيا وما وراءه من عذاب الآخرة

حكى الله تعالى عنهم اقتراح آية أو آيات مبهمة في بعض السور ، واقتراح آيات معينة في سور أخرى منها ما نزل بعد هذه السورة وهي الحجر (١٥ : ٦ — ٨) فالانعام (٦ : ٨ و ٩ و ٣٩ ـ ٤١ و ١٠٩ ـ ١١١ فالانبياء (٢١ : ٥) فالعنكبوت

(٢٩ : ٥) فالرعد (١٢ : ٨ و ٢٨) وفيها أجوبة أخرى فأما الانعام ففيها تفصيل الكون الآيات لاتزيدهم إلا عناداً واصراراً على الجحود فتحق عليهم كلمة عذاب الاستئصال ، وتنافي مراد الله تعالى من بعثة خاتم النبيين ، وتقدم تفسيرها في الجزءين ٧ و ٨ من تفسيرنا هذا فيراجع ، ثم أجمل ذلك في سورة الانبياء فقال (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون) ثم أجاب عنها في سورة العنكبوت بقوله (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟)

لكنه كان قد فصل مقترحاتهم مع الرد عليها في السور التي أنزلت قبل ذلك كله كقوله تعالى في سورة الفرقان (٢٥ : ٧ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا (٨) أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ؟) ثم حكى عنهم في سورة بني اسرائيل (١٧) انهم طالبوه صلى الله عليه وسلم بواحدة من بضع آيات وعلقوا إيمانهم على إجابة طلبهم فقال بعد بيان عجز الانس والجن عن الاتيان بمثل هذا القرآن ، وما صرف فيه للناس من جميع ضروب الامثال ، (٩٠ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا) الخ الآيات الاربع ثم لقن رسوله صلى الله عليه وسلم الرد عليهم بقوله (٩٣ قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا ٩٤ وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا أبعث الله بشرا رسولا ٩٥ قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) أي سبح ربك في جوابهم ، تسبيح التعجب من قولهم ، وذكرهم بأنك بشر مثلهم ، وليس في قدرة البشر أن يأتوا بالآيات الخارقة لسنن الكون ، وان آفتهم هي آفة من كان قبلهم من الاقوام الذين لم يعقلوا ما جاء به الرسل من الهدى وانه متى تبين وجب على العاقل اتباعه لذاته ، فاحتقروا الرسل الذين جاؤهم به لانهم بشر مثلهم ، واقترحوا أن تجيئهم به الملائكة ، وانه لو كان في الارض ملائكة يمشون فيها كالبشر يمكنهم التلقي عنهم لنزل عليهم ملكا ، ثم بين لهم انه اذا نزل الملك فهو لاينزل إلا بالعذاب ، إلا أن يجعل بشراً ، واذاً لاحتجوا عليهم بأنه مثلهم ، كما قال في سورة الحجر حكاية لخطابهم للذي نزل عليه الذكر (١٥ : ٧ لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين ٨ ما ننزل الملائكة

ألا بالحق . وما كانوا إذاً منظرين) وقال في الانعام (٦ : ٨ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضي الامر ثم لاينظرون (٩) ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون)

ولقنه في هذه السورة (بني اسرائيل) حجة أخرى في حكمة عدم نزول الآيات الكونية عليه أو سببه وهي قوله (٦٠ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الاولون) أي وما صرفنا عن ارسال الآيات اللاتي اقترحتها قريش الا تكذيب الاولين الذين هم أمثالهم في الطبع والعادة كعاد وثمود وانها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك واستوجبوا عذاب الاستئصال على ما مضت به سنتنا . وقد قضينا أن لا نستأصلهم لانهم أمة خاتم النبيين الباقية ، وأنه هو رحمته العامة الشاملة ، ولأن فيهم من يؤمن أو يولد لهم من يؤمن . ثم ذكر بعض الامم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فنذكره مع عبارة البيضاوي الوجيزة في تفسيره وهو : (وآتينا ثمود الناقة) اسؤالهم (مبصرة) بينة ذات إبصار او بصائر او جاعلتهم ذوي بصائر (فظلموا بها) اي فكفروا وظلموا أنفسهم بسبب عقرها (وما نرسل بالآيات) أي المقترحة (الا تخويفا) من نزول العذاب المستأصل فان لم يخافوا نزل اهـ

وفي سورة القصص وقد نزلت بعد الفرقان وقبل بني اسرائيل تفصيل لقصة موسى في مولده ونشأته وفراره من فرعون الى مدين وبعثته في طور سيناء الخ وقد صرح في آخرها انها تدل على رسالته ﷺ لانه لم يكن يعلم من أمرها شيئا فهي من علم الغيب كما تراه في الآيات (٢٨ : ٤٤ — ٤٥) منها وقد تقدم نصها (في مباحث الوحي ص ١٨٧ ج ١١ تفسير) ثم قال (٤٧ ولولا ان تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ٤٨ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ؟ أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ؟ قالوا سحران تظاهرا . وقالوا إنا بكل كافرون) الخ

فجملة ماورد في اقتراح الآيات الكونية من مجمل ومفصل يفسر بعضه بعضا وهو مقرر لما علم بالقطع من دين الاسلام ان الله تعالى جعل حجته على رسالة خاتم النبيين هذا القرآن المشتمل على كثير من الآيات العقلية والعلمية والاصلاحية

واخبار الغيب واعجاز الاسلوب والنظم والتأثير في الهداية الخ ما فصلناه في الفصل الاستطرادي الذي عقدناه لاثبات الوحي في أول تفسير السورة (ص ١٩٥ ج ١١) وقد آتى الله رسوله خاتم النبيين آيات اخرى علمية وكونية ولكنه لم يجعلها حجة على رسالته ولا امره بالتحدي بها وانما كانت تكون لضرورات اشتدت حاجة الامة اليها كاستجابة بعض ادعيته ﷺ وتقدم بيانه (ص ١٥٩ منه)

ويؤيد هذه القاعدة المأخوذة من هذه الآيات كلها مارواه الشيخان والترمذي والنسائي من حديث ابي هريرة مرفوعا « مامن نبي من الانبياء إلا أعطي مامثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو ان أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » وقد يعارضه آية انشقاق القمر مع ماورد في أحاديث الصحيحين وغيرهما من ان قريشاً سألوا النبي ﷺ آية على نبوته فانشق القمر فكان فرقتين ، ولكن في الاحاديث الواردة في انشقاقه عللا في متنها وأسانيدها واشكالات علمية وعقلية وتاريخية فصلناها في المجلد الثلاثين من المنار [1] وبينا ان ماتدل عليه الآيات القرآنيــة المؤيدة بحديث الصحيحين الصريح في حصر معجزة نبوته ﷺ في القرآن وكون الآيات المقترحة تقتضي إجابة مقترحيها عذاب الاستئصال، هو الحق الذي لا ينهض لمعارضته شيء، وسنعود اليها في تفسير سورة القمر إن أحيانا الله تعالى ووفقنا لاتمام التفسير بفضله

---

(٢١) وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ، قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢٢) هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ

---

[1] (١) تراجع المسألة في باب الفتاوى من ج ٤و٥ منه

عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ
دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ
مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٣) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

لما كان الجواب عن اقتراحهم الآية الكونية للدلالة على النبوة يتضمن بمعونة مايفصله من الآيات ان أولئك المشركين المعاندين لايقتنعون بالآيات ، وانهم اذا رأوها بأعينهم يكابرون حسهم ولايؤمنون، ضرب الله تعالى مثلا له في آياته الكونية الدالة على وحدانيته في أفعاله وحكمه فيها وما لهؤلاء المشركين المعاندين من المكر فيها وكونها لاتزيدهم إلا ضلالا فقال

﴿ واذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ﴾ هذه الشرطية منتظمة مع أختيها في الآيتين ١٢ و ١٥ في نسق واحد، والذوق في أصل اللغة إدراك الطعم بالفم ، والمدرك له عصب خاص في اللسان ، واستعمل مجازاً في إدراك غيره من الملائمات كالرحمة والنعمة ، والمؤلمات كالعذاب والنقمة ، والضراء الحالة من الضر المقابل للنفع ، ويقابلها السراء من السرور ، أي واذا كشفنا ضراء مس الناس وألمها برحمة منا أذقناهم لذتها على أتمها ، لان الشعور بها عقب زوال ضدها يكون أتم وأكمل ﴿ اذا هم مكر في آياتنا ﴾ اذ هذه تسمى الفجائية والجملة جواب الشرط.

أي ما كان منهم إلا انهم بادروا الى المكر ، وأسرعوا بالمفاجأة به في مقام الشكر ، فاذا كانت الرحمة مطراً أحيا الارض ، وأنبت الزرع ، ودر به الضرع ، بعد جدب وقحط أهلك الحرث والنسل ، قالوا مطرنا بالانواء ، واذا كانت نجاة من هلكة وأعوزتهم اسبابها ، عللوها بالمصادفات ، واذا كان سببها دعاء نبيهم أنكروا

إكرام الله له وتأييده بها ، كما فعل فرعون وقومه عقب آيات موسى ، وكما فعل مشركو مكة إثر القحط الذي اصابهم بدعاء رسول الله ﷺ عليهم ، ثم رفع عنهم بدعائه فما زادهم ذلك إلا كفراً وجحوداً ، ومكراً وكنوداً .

أخرج الشيخان من حديث عبدالله بن مسعود[رض]ان قريشاً لما استعصوا على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد ، حتى جعل احدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع ، فأنزل الله تعالى (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم) فأتي رسول الله ﷺ فقيل له يارسول الله استسق لمضر فانها قد هلكت فقال «مضر؟» متعجبا ،وفي رواية فجاءه ابو سفيان فقال يامحمد انك جئت تأمرنا بصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله ،فدعا لهم فكشف الله عنهم العذاب ومطروا،فعادوا الى حالهم ومكرهم الاول الذي تقدم فيه قوله تعالى (٨: ٣٠ وإذ يمكر بك الذين كفروا) الآية ، وقد بينا في تفسيرها وتفسير آية (٧: ٩٨) وآية(٣: ٥٤) معنى المكر في اللغة وكونه حسناً وسيئاً ومعنى اسناده الى الله تعالى . وخلاصته ان المكر عبارة عن التدبير الخفي الذي يفضي بالممكور به الى مالا يحتسبه ولا يتوقعه ،وان مكره تعالى وهو تدبيره الذي يخفى على الناس انما يكون باقامة سننه واتمام حكمه في نظام العالم وكله حق وعدل وحسن، ولكن مايسوء الناس منه يسمونه شراً وسوءاً، وإن كان جزاء عدلا، ويراجع تحقيقه في الجزأين ٣و ٩ من التفسير ﴿ قل الله أسرع مكراً ﴾ اي قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يسرعون في المكر كما دلت عليه المفاجأة : ان الله تعالى اسرع مكراً منكم ، إذ سبق في تدبيره لأمور العالم وتقديره للجزاء على الاعمال قبل وقوعها ان يعاقبكم على مكركم في الدنيا قبل الآخرة ، وهو عالم به لايخفى عليه شيء منه ، وأكد هذا بقوله ﴿ إن رسلنا يكتبون ماتمكرون ﴾ يعني الحفظة من الملائكة الذين وكلهم الله تعالى باحصاء أعمال الناس وكتبها للحساب عليها في الآخرة . وكتابة المكر عبارة عن كتابة متعلقه من الاعمال اللاتي كان هو الباعث عليها، ويجوز ان تكتب نيتها وهي المعنى

المصدري المكر. والجملة تتمة الجواب الذي لقنه الله لنبيه ﷺ بناء على أنه يبلغه عنه عز وجل بلفظه الموحى اليه لا بمعناه، ولذلك يدخل في التبليغ لفظ (قل) وهو خطاب الله له ﷺ مع مقوله الخاص بهم كقوله (قل يا أيها الكافرون) وأمثاله الكثيرة في القرآن، بل أقول انه ﷺ بلغهم الآية برمتها: ماحكاه تعالى عنهم وما أمره ان يجيبهم به، وقد يكون ذلك في ضمن السورة كلها لاوحده، ومثل هذا يقال في أمثاله.

فعلم بهذا أنه ليس المراد ان يقول ﷺ لهم كلمة « الله اسرع مكراً » من قبل نفسه فيستشكل الالتفات فيها عن الغيبة إلى التكلم في « ان رسلنا » بل هو جار على سنة القرآن فيه، وهو أبلغ في تصوير تسخير الله تعالى للملائكة في كتابة الاعمال من التعبير بضمير الغيبة (ان رسله يكتبون) الخ لان في ضمير الجمع من تصوير العظمة في هذا التدبير العظيم، والنظام الدقيق، مايشعر به كل من له ذوق في هذه اللغة سيدة اللغات، التي اعترف علماء اللغات من الافرنج بأنها تفوق جميع لغاتهم، في التعبير عن صفات الله تعالى وكماله وعظمته [١] ومثل هذا الالتفات فيها قوله تعالى في آخر سورة الكهف (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) وقرأ نافع ويعقوب [يمكرون] بالمثناة التحتية وفائدته الاعلام بأن ذلك شامل للغائبين كالحاضرين

وقد فصلنا القول في كتابة الملائكة الحفظة لاعمال الناس وحكمتها في تفسير (٦: ٦١ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) من سورة الانعام وشرحنا قبلها مسألة كتابة مقادير الخلق كلها في تفسير الاية (٥٩ وعنده مفاتح الغيب) منها فيراجع الموضوع كله في جزء التفسير السابع من شاء، ومن اكتفى بالاجمال فحسبه الايمان بأن الملائكه تكتب الاعمال كتابة غيبية لم يكلفنا الله تعالى معرفة صفتها، وانما كلفنا أن نؤمن بأن له نظاما حكيما في إحصائها، لاجل مراقبتنا له فيها، لنلتزم الحق والعدل والخير ونجتنب اضدادها

---

(١) تراجع الشواهد على هذا في مقدمة كتابنا (الوحي المحمدي)

ومن مباحث اللفظ في الآية ان اسم التفضيل [اسرع] فيها على أصله من الفعل الثلاثي : سرع كضخم وحسن سرعا وسرعة فهو سرع وسريع وسراع والمستعمل بكثرة الرباعي أسرع ، وفي اللسان ان سيبويه فرق بينهما فقال: اسرع طلب ذلك من نفسه وتكلفه كأنه اسرع المشي اي عجله ، واما سرع فكأنها غريزة ، وان ابن جني استعمل اسرع متعديا ، اهـ وجوز بعض النحاة كون اسم التفضيل من مثل أسرع مطلقا ، أو إذا لم تكن همزته للتعدية

ثم ضرب الله تعالى مثلا لهؤلاء الناس هو من أبلغ أمثال القرآن فقال :

﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ﴾ السير المضي والانتقال من مكان إلى آخر والتسيير جعل الشيء أو الشخص يسير بتسخيره أو إعطائه مايسير عليه من دابة أو مركبة أو سفينة ، اي ان الله تعالى هو الذي يسيركم أيها الناس في البر والبحر بما وهبكم من القدرة على السير ، وما سخر لكم من الابل والدواب والفلك التي تجري في البحر (وزادنا في هذا العصر القطارات والسيارات البخارية والطيارات التي تسير في الجواء) ﴿ حتى اذا كنتم في الفلك ﴾ اي حتى اذا كنتم في إحدى حوادث سيركم البحري راكبين في الفلك التي سخرها لكم ، والفلك بالضم اسم للسفينة المفردة وجمعها وهو السفن والسفائن [مفرده وجمعه واحد] والمراد به هنا الجمع إذ قال ﴿ وجرين بهم بريح طيبة ﴾ أي وجرت هذه الفلك بمن فيها بسبب ريح طيبة اي رخاء مواتية لهم في جهة سيرهم ، والطيب من كل شيء مايوافق الغرض والمنفعة ، يقال رزق طيب ونفس طيبة ، وبلدة طيبة وشجرة طيبة . وفي قوله [بهم] التفات عن الخطاب إلى الغيبة فائدته كما قال الزمخشري المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الانكار والتقبيح لها ، اي لما وصفهم به بعد ذلك من كفر النعمة ﴿ وفرحوا بها ﴾ لما يكون لهم في هذه الحالة من الراحة والانتعاش والامن من دوار البحر والتمتع بمنظره الجميل ، في ذلك الهواء العليل ﴿ جاءتها ريح عاصف ﴾

اي جاءت الفلك أو الريح الطيبة اي لاقتها ريح شديدة قوية يقال عصفت الريح فهي عاصف وعاصفة اي تعصف الاشياء وتكسرها فتكون كعصف النبات وهو الحطام المتكسرة منه ﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ اي واضطرب البحر وتموج سطحه كله فتلقاهم موجه من جميع الجوانب والنواحي بتأثير الريح ، فهي أنواع منها مايهب من ناحية واحدة كالرياح الاربع ، ومنها النكباء وهي المنحرفة التي تقع بين ريحين مختلفتين ، ومنها المتناوحة التي تهب من جميع النواحي ، ومنها الإعصار وهي التي تدور فتكون عمودية فيرتفع بها ماتدور عليه من التراب والحصى من الارض ، و الماء من سطح البحر بما عليه وما فيه من سمك وغيره ثم يلقى في مكان آخر ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ اي اعتقدوا اعتقاداً راجحا انهم هالكوا باحاطة الموج من كل جانب ، كما يحيط العدو المحارب بعدوه إذ يطوقه بما يقطع عليه سبل النجاة . ذلك بأن فعل العاصف يهبط بهم في لجج البحر تارة كأنهم سقطوا في هاوية سحيقة ، ولا يلبث ان يثب بهم الى أعلى غوارب الموج كأنهم في قنة جبل شاهق اصابه رجفة زلزلة شديدة ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ هذا جواب لما تضمنه قوله تعالى (حتى اذا كنتم في الفلك) الخ ، اي حتى اذا مانزل بهم كل ذلك من نذر العذاب ، وتقطعت بهم دون النجاة جميع الاسباب ، دعوا الله في كشفه عنهم مخلصين له الدين ، لا يتوجهون معه الى ولي ولا شفيع ، ولا ند ولا شريك ، ممن كانوا يتوسلون بهم اليه في حال الرخاء عازمين على طاعته قائلين ﴿ لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ اي نقسم لك ياربنا لئن أنجيتنا من هذه التهلكة أو العاصفة لنكونن لك من جماعة المؤمنين الشاكرين لنعمائك لا نكفر منها شيئا ، ولا نشرك بك أحداً ، ولا ندعو من دونك ولياً ولا شفيعاً ، ولا نتوجه في تفريج كروبنا وقضاء حاجنا إلى وثن ولا صنم ، ولا الى ولي ولا نبي ولا ملاك ، وفي هذه الآية وأمثالها بيان صريح لكون المشركين كانوا لايدعون في أوقات الشدائد وتقطع الاسباب بهم الا الله ربهم ، ولكن من لا يحصى عددهم من مسلمي هذا الزمان نزعمهم لايدعون عند أشد الضيق الا معبوديهم من الميتين كالبدوي والرفاعي والدسوقي

والجيلاني والمتبولي وابي سريع وغيرهم ممن لا يحصى عددهم، ونجد من حملة العمائم الازهريين وغيرهم ولا سيما سدنة المشاهد المعبودة الذين يتمتعون باوقافها ونذورها من يغريهم بشركهم ويتأوله لهم بتسميته بغير اسمه في اللغة العربية كالتوسل وغيره

وقد سمعت من كثير من الناس في مصر وسورية حكاية يتناقلونها ربما تكررت في القطرين لتشابه أهلهما وأكثر مسلمي هذا العصر في خرافاتهم وملخصها ان جماعة ركبوا البحر فهاج بهم حتى أشرفوا على الغرق فصاروا يستغيثون معتقديهم فبعضهم يقول ياسيد يابدوي وبعضهم يصيح يارفاعي وآخر يهتف ياعبد القادر ياجيلاني ... الخ وكان فيهم رجل موحد ضاق بهم ذرعا فقال: يارب اغرق اغرق ما بقي أحد يعرفك.

وفي هذا المعنى قال السيد حسن صديق الهندي في الكلام على الآية من تفسيره فتح الرحمن:

«وفي هذا دليل على ان الخلق جبلوا على الرجوع الى الله في الشدائد، وان المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً، وفي هذه الآية بيان ان هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون الى أصنامهم في هذه الحالة وما شابهها، فياعجبا لما حدث في الاسلام من طوائف يعتقدون في الاموات، فاذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الاموات ولم يخلصوا الدعاء لله كما فعله المشركون كما تواتر ذلك الينا تواتراً يحصل به القطع، فانظر هداك الله مافعلت هذه الاعتقادات الشيطانية؟ وأين وصل بها أهلها؟ والى أين رمى بهم الشيطان؟ وكيف اقتادهم وتسلط عليهم حتى انقادوا له انقياداً ماكان يطمع في مثله ولا في بعضه من عباد الاصنام، فانا لله وانا اليه راجعون».

وقال السيد محمود الالوسي العراقي في تفسيرها من روح المعاني مانصه:

أي دعوه تعالى من غير اشراك لرجوعهم من شدة الخوف الى الفطرة التي جبل عليها كل أحد من التوحيد وانه لامتصرف إلا الله سبحانه المركوز في طبائع العالم. وروي ذلك عن ابن عباس، ومن حديث أخرجه ابو داود والنسائي

وغيرهما عن سعد بن ابي وقاص قال : لما كان يوم الفتح فر عكرمة بن ابي جهل فركب البحر فأصابتهم عاصف فقال أصحاب السفينة لاهل السفينة أخلصوا فان آلهتكم لاتغني عنكم شيئا ، فقال عكرمة لئن لم ينجني في البحر الا الاخلاص ماينجيني في البر غيره ، اللهم ان لك عهداً ان أنت عافيتني مما أنا فيه ان آتي محمداً حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفواً كريما ، قال فجاء فأسلم ، وفي رواية ابن سعد عن ابي مليكة ان عكرمة لما ركب السفينة وأخذتهم الريح فجعلوا يدعون الله تعالى ويوحدونه قال ماهذا ؟ فقالوا هذا مكان لاينفع فيه إلا الله تعالى ،قال فهذا إله محمد ﷺ الذي يدعونا اليه فارجعوا بنا فرجع وأسلم .وظاهر الآية انه ليس المراد تخصيص الدعاء فقط به سبحانه ، بل تخصيص العبادة به تعالى أيضاً (١) لانهم بمجرد ذلك لايكونون مخلصين له الدين ، وأيا ما كان فالاية دالة على ان المشركين لايدعون غيره تعالى في تلك الحال ، وأنت خبير بأن الناس اليوم اذا اعتراهم أمر خطير ،وخطب جسيم ،في بر او بحر ،دعوا من لايضر ولا ينفع،ولا يرى ولا يسمع ، فمنهم من يدعو الخضر والياس ، ومنهم من ينادي أبا الخميس والعباس ، ومنهم من يستغيث بأحد الائمة ، ومنهم من يضرع الى شيخ من مشايخ الامة ، ولا ترى فيهم أحداً يخص مولاه ، بتضرعه ودعاه ، ولا يكاد يمر له ببال ،انه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الاهوال، فبالله تعالى عليك قل لي أي الفريقين من هذه الحيثية أهدى سبيلا ، وأي الداعيين أقوم قيلا، والى الله تعالى المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة ، وتلاطمت أمواج الضلالة ، وخرقت سفينة الشريعة، واتخذت الاستغاثة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة،وتعذر على العارفين الامر بالمعروف ، وحالت دون النهي عن المنكر صنوف الحتوف اه

أقول يعني الشهاب الآلوسي رحمه الله إن فشو هذا الشرك في الناس عامتهم وشيوخ البدع من علمائهم ، والمنافقين من حكامهم ، جعل نهي العارفين عنه ، وأمرهم بالتوحيد المحض، من الامور المتعذرة ، التي يخشى على الجاهر بها الحتوف

(١) الدعاء مخ العبادة فكان ينبغي ان يقول : بل تخصيص كل عبادة به ايضا

والملكة . ونحن ما أمكننا هذه المجاهرة في مصر الا بما رسخ فيها من الحرية المطلقة بتفرنج الحكومة . ولما جهرت بها أول مرة في درس عام بالمسجد الحسيني سنة ١٣١٦ هاج على الناس هيجة شؤمى ، وحاول بعضهم أن يقتلني جهرا ، فما يقول شيخ الازهر ومحررو مجلة المشيخة (نور الاسلام) في السيد الآلوسي وفي السيد حسن صديق ؟ لا يبعد أن تطعن هذه المجلة في دينهما وعقيدتهما كما طعنت على دين الامام الشوكاني في جزئها الذي صدر أثناء كتابتنا لتفسير هذه الآية .

﴿ اهتداء بارج انكليزي بهذه الآية وأمثالها ﴾

ساق الله تعالى نسخة من ترجمة القرآن العظيم باللغة الانكليزية الى بارج من ربابين البواخر الكبرى التي تمخر البحار بين انكلترة والهند فرأى فيها ترجمة هذه الآية فراعته بلاغة وصفها لطغيان البحر واصطخابه وما تفعله الرياح الوسمية العاتية بالبواخر والبوارج العظيمة في المحيط الهندي في فصل الصيف ، فطفق يتأمل سائر الآيات في وصف البحر ، والسفائن الكبرى فيه التي وجدت في هذا العصر ولم يكن لها نظير في عصر النبي ﷺ كقوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * وله الجوار المنشآت في البحر كالاعلام) ورأى ان المترجم الانكليزي ينقل عن أشهر تفاسير القرآن لبعض علماء المسلمين التي ألفت بعد افتتاح العرب للممالك واستيلائهم على البحار انهم لم يكونوا يعرفون ماعرفه الانكليز وغيرهم من بعدهم ان اللؤلؤ والمرجان يخرج من البحار الحلوة كما يخرج من البحار المالحة فتأولوا قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) بأنه يخرج من مجتمعهما الصادق بأحدهما لأنه بزعمهم يخرج من البحر الملح فقط ، غافلين عن قوله تعالى (ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها) ونبه نظره تشبيه الجواري المنشآت بالاعلام في هذه الآية وفي قوله تعالى (٤٢ : ٣٢ ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام * إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره) والعلم الجبل ، وأصلها أعلام الطريق العالية التي تعرف بها المسالك ، أطال الفكر هذا

الربان الانكليزي في هذه الآيات فتعمد أن يعرف بعض المسلمين في بعض ثغور الهند ، فسألهم أتعلمون ان نبيكم محمداً ﷺ سافر في البحار ؟ قالوا لا انه لم يرو عنه انه سافر في البحر قط ، فاعتقد ان ما في القرآن مما ذكر لم يكن إلا بوحي من الله تعالى لهذا النبي العظيم ، وأعظم منه ما فيه من آيات التوحيد والتشريع والتهذيب ، التي هي أكمل وأقرب الى العقل والفكرة من كل ما في التوراة والانجيل ، فأسلم عن علم وبصيرة ، وظل زمنا طويلا يتعبد بما يفهمه من ترجمة القرآن ، حتى أتيح له ترك عمله في البحار ، فأقام في مصر وتعلم العربية وعاشر فضلاء المصريين ، وهو مستر عبد الله براون رحمه الله تعالى ، وأنا قد أدركته وعرفته ، ولا يزال في مصر من يعرفه ، وقد ضرب الاستاذ الامام به المثل في صلاته التي كان يصليها في البحر بقدر ما يفهم من القرآن بكل خشوع وتوجه إلى الله تعالى ، في كلام له في روح الصلاة ومغزاها ، وصورتها وأركانها ، قال قد كانت تلك الصلاة أقرب الى مرضاة الله تعالى وقبوله من الصلاة الصورية التقليدية التي يمثلها من لا يخطر في قلوبهم فيها أنهم متوجهون الى الله ومناجون له مع استشعار عظمته ووحدانيته الخ

قال تعالى في وصف أولئك القوم ﴿ فلما أنجاهم اذا هم يبغون في الارض ﴾ أي اذا هم يفاجئون الناس في الارض التي يهبطون اليها بالبغي عليهم وهو الظلم والعدوان والافساد يمعنون في ذلك ويصرون عليه ، وأصل البغي طلب ما زاد على القصد والاعتدال ، إلى الافراط المفضي الى الفساد والاختلال ، من بغى الجرح اذا زاد حتى ترامى إلى الفساد ، ومنه قولهم : بغت السماء ، اذا تجاوزت في المطر الحد المحتاج اليه للزرع والشجر وامداد الينابيع ، وبغت المرأة اذا تجاوزت في بضعها الحق الخاص بالزوج الى الفجور ، والاصل فيه أن يكون كما وصفه ﴿ بغير الحق ﴾ فتكون الصفة كاشفة للواقع للتذكير بقبحه وسوء حال أهله ، وقد يكون البغي وهو تجاوز حد الاعتدال بحق اذا كان عقابا على مثله أو ما هو شر منه كما يقع في الحروب وقتال البغاة من اضطرار أهل الحق والمعتدى عليهم ، الى تجاوز الحدود في أثناء الدفاع عن أنفسهم ، وقد قال تعالى (٤٢ : ٣٧ والذين اذا أصابهم

البغي هم ينتصرون — الى قوله — انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق) وقال في بيان أصول الجرائم (٧:٣٢ قل انما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق) الخ

﴿ ياأيها الناس انما بغيكم على أنفسكم ﴾ هذا التفات عن حكاية المثل الى مخاطبة البغاة أينما كانوا ، وفي أي زمان وجدوا ، مبدوءاً بالنداء الذي يصيح به الواعظ المنذر بالبعيد في مكانه ، أو الغافل الذي يشبه الغائب في حاجته الى من يصيح به لينبهه ، يقول ياأيها الضالون عن رشدهم ، الغافلون عن أنفسهم ،حسبكم بغياً على المستضعفين منكم ، وغروراً بكبريائكم وقوتكم ، إنما بغيكم في الحقيقة على أنفسكم ، لان عاقبة وباله عائدة عليكم ، أو لان من تبغون عليهم من قومكم او من أبناء جنسكم ، كقوله (ولا تقتلوا أنفسكم) المراد به ولا يقتل بعضكم بعضا ، والشر داعية الشر ، ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ اي حال كون بغيكم او تتمتعون ببغيكم متاع الحياة الدنيا الفانية الزائلة ، فهو ينقضي وعقابه باقية ، وأقلها توبيخ الوجدان ، وقرأ الجمهور « متاع » بالرفع على انه خبر لما قبله وفيه وجهان ، أو على تقدير هو متاع الحياة الدنيا ﴿ ثم الينا مرجعكم ﴾ أي ثم انكم بعد هذا التمتع القليل ترجعون الينا وحدنا ﴿ فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ دائما من الظلم والبغي والتمتع بالباطل مصرين فنجازيكم به

دلت الآية على ان البغي يجازى أصحابه عليه في الدنيا والآخرة ، فاما في الآخرة فهو مادل عليه انذار أهله الرجوع الى الله وانباؤه إياهم بما كانوا يعملونه ، إذ المراد به لازمه وهو الجزاء به ، وقد تكرر مثله في التنزيل . واما في الدنيا فهو قوله تعالى (إنما بغيكم على أنفسكم) ويؤيده قوله ﷺ « ما من ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » رواه أحمد والبخاري في الادب المفرد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث ابي بكر (رض) وأخرج ابن عدي وابن النجار من حديث علي (رض) مرفوعا « احذروا البغي فانه ليس من عقوبة هي أحضر من عقوبة البغي !! والترمذي

وابن ماجه عن عائشة « أسرع الخير ثوابا البر وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم » وأخرج البخاري في الادب المفرد عن ابن عباس موقوفا « لو بغي جبل على جبل لدك الباغي » ورواه ابن مردويه مرفوعا وموقوفا والموقوف أصح كما قال ابن ابي حاتم وفي الجامع الصغير عن ابي هريرة بزيادة « لدك الباغي منهما » أخرجه ابن لال بسند ضعيف .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم والخطيب في تاريخه والديلمي في مسند الفردوس عن أنس (رض) قال قال رسول الله ﷺ « ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر والنكث والبغي » ثم تلا رسول الله ﷺ (ياأيها الناس انما بغيكم على أنفسكم * ولا يحيق المكر السيء الا بأهله * ومن نكث فانما ينكث على نفسه) والمراد نكث العهود مع الله أو مع الناس وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الايمان عن أبي بكرة قال قال رسول الله ﷺ « لاتبغ ولا تكن باغيا فان الله يقول (إنما بغيكم على انفسكم) واخرج ابن أبي حاتم مثله عن الزهري .

وأقول انه يجب علينا ان نرجع في تحقيق الحق في هذا الموضوع الى سنن الله تعالى في العمران وطبائع الاجتماع البشري التي تثبتها وقائع التاريخ ، فهي التي تفسر لنا ان البغي - وهو من أخص ضروب الظلم للناس - يرجع على فاعله ، ذلك بأنه سبب من أقوى أسباب العداوة والبغضاء بين الافراد ، وإيقاد نيران الفتن والثورات في الاقوام ، فالفرد الذي يبغي على مثله يخلق له بغيه عدواً أو أعداء ممن يبغي عليهم ، وممن يكرهون البغي وأهله ، فوجود الاعداء والمبغضين ضرب من ضروب العقوبة وإن لم يستطيعوا إيذاء الباغي لعجزهم ، فكيف اذا قدروا وفعلوا وهو الغالب ؟ وأما بغي الملوك والحكام على الاقوام والشعوب فأهون عقبته عداوتهم والطعن عليهم ، وقد تفضي الى اغتيال اشخاصهم ، أو الى ثل عروشهم والقضاء على حكمهم ، إما بثورة من الشعب تستبدل بها عرشاً بعرش ، او نوعا من الحكم بنوع آخر ، وإما باغارة دولة قوية على الدولة التي يضعفها البغي تسلبها استقلالها ، وتستولي على بلادها ، ولا تنس ما تكرر عليك في هذا التفسير من ان ذنوب الافراد من بغي وظلم وغيرهما لا يطرد العقاب عليها في الدنيا بخلاف ذنوب الامم

والدول ، فان عقابها اثر طبيعي لظلمها وفسادها . وانما يوفى كل أحد جزاءه في الآخرة

(فان قيل) إن الارض كلها تستغيث ربها من بغي دول أوربة وظلمها ، فما لنا لا نرى بغيها يعود وباله عليها ، وما لنا لا نرى وعيده تعالى للظالمين نازلا بها ، ومديلا للشعوب الشرقية المظلومة منها ومن شعوبها المؤيدة لها

(قلنا) ان هذا السؤال ماجاء إلا من الغفلة عن الامر الواقع ، والجهل بسنن الله في العمران ، فان في بلاد هذه الدول من المصائب والنوائب والجوائح والفقر ما هو أشد مما في بعض بلاد الشرق ، وانها قد قتلت من رجالها في الحرب الاخيرة العامة أضعاف من قتلتهم بغياً وعدوانا من أهل الشرق منذ اعتدت عليهم الى اليوم ، وانها قد خربت من عمرانها أكثر مما خربت في الشرق ، وانها قد خسرت من أموالها في أربع سنين أضعاف ما ربحت من الشرق في مائة سنة ، وان مابين شعوبها بعضها لبعض من الاحقاد والاضغان ، وتربص الدوائر الوثبان ، والفتك بالارواح وتدمير العمران ، لأشد مما في قلوب شعوب الشرق لظالميهم ومستذليهم منهم — فهذا بعض انتقام العدل الالهي المشاهد

فأما الجوائح السماوية فلا يعتبرون بها ، لانهم يسندونها الى أسبابها ما صح منها وما لم يصح ، فكرهم في آياته أشد من مكر من قبلهم . وأما المصائب الكسبية فيتوخون تخفيفها ، وتلافي شرورها ، بالمفاوضات والمؤتمرات ، وهيهات هيهات .

وأما ماتمنناه من الادالة لشعوبنا منهم فلا تزال غير أهل له لما هي عليه من الجهل وفساد الاخلاق ، والتقاطع والتخاذل ، وترك كل ماهداها الله اليه في كتابه من أسباب السيادة والاستخلاف في الارض كما نبهنا اليه آنفاً ، وشرحناه في تفسيرنا هذا لآيات كتابه مراراً ، ومن المكابرة للحس ان ننكر ان أكثر ما في بلادنا من عمران فهو من عملهم ، وإن كان جله لمصلحتهم ، وان من يستخدمون من ملوكنا وأمرائنا وحكامنا هم شر علينا منهم ، بل لم يسودونا ويغلبونا في قطر من أقطارنا ، إلا بمساعدة سادتنا وكبرائنا إياهم علينا (٨:٥٣ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم) فراجع تفسيره في ص ٣٦—٤٧ من جزء التفسير العاشر) تعلم اننا اذا غيرنا مابأنفسنا الآن ، بما كان عليه سلفنا من إيمان وأخلاق

تتبعها الاعمال ، وأولها الجهاد بالنفس والمال ، فان كل ما سلب منا يرجع الينا ، ونزاد عليه بالسيادة على غيرنا ، ولو اتبعوا هم كتابنا كله لاصلحوا الارض كلها .

ضرب الله هذا المثل هنا للكافرين بنعمه من الباغين في الارض والظالمين للناس ، فذكر من اخلاصهم في دعائه عند الشدة أنهم يقسمون له لئن أنجاهم منها ليكونن من الشاكرين له عليها ، وضربه في أواخر سورة العنكبوت للمشركين في عبادته ، من المؤمنين بربوبيته ، فقال (٢٩ : ٦٥ فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر اذا هم يشركون) وضربه في أواخر سورة لقمان لجميع أصناف الناس فقال (٣١ : ٣١ ألم تر ان الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ٣٢ واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم الى البر فنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) الختار الكفور هنا ضد مقابل للصبار الشكور فيما قبله ، والختر الغدر الذي يحمل عليه ضعف الارادة

والعبرة في هذه الآيات كلها انه تعالى أخبر عن المشركين به ، وعن الكافرين بنعمه ، وعن الختارين الفاقدين لفضيلتي الصبر والشكر ، انهم كلهم يدعونه في شدة الضيق ومساورة خطر البحر لهم مخلصين له الدين ، لا يتوجهون إلى غيره ممن اتخذوهم شركاء لله تعالى بعبادتهم لهم وتوسلهم بهم واتخاذهم وسطاء عنده ، وانهم انما يقترفون هذا الشرك وما يناسبه من البغي والظلم وكفر النعمة بعدم اسنادها إلى المنعم الحقيقي في أوقات التمتع بها والسلامة من منغصاتها ، وان الذين يثبتون على توحيده وشكره هم المقتصدون أي المعتدلون في عقائدهم وأخلاقهم فلا تقنطهم الشدة ، ولا تبطرهم النعمة

ولكن يوجد في زماننا من هم أشد شركا وكفراً بالنعم والمنعم وهم قوم يدعون غيره من دونه في أشد أوقات الضيق والخطر ، ويدعون مع ذلك انهم مسلمون موحدون لأنهم ينطقون بكلمة التوحيد الموروثة بألسنتهم وهم لا يعقلون معناها والله تعالى يقول (فاعلم انه لا إله إلا الله) ولا حول ولا قوة إلا بالله

(٢٤) إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

لما كان سبب ماذكر من البغي في الارض وافساد العمران هو الافراط في حب التمتع بما في الدنيا من الزينة واللذات ضرب لها مثلا بليغا يصرف العاقل عن الغرور بها ، ويهديه إلى القصد والاعتدال فيها ، واجتناب التوسل اليها بالبغي والظلم ، وحب العلو والفساد في الارض ، وهو عبارة عن تشبيه زينتها ونعيمها في افتتان الناس بهما وسرعة زوالها بعد تمكنهم من الاستمتاع بها ، بحال الارض يسوق الله اليها المطر فتنبت أنواع النبات الذي يسر الناظرين ببهجته ، فلا يلبث أن تنزل به جائحة تحسه وتستأصله قبيل بدو صلاحه والانتفاع به ، قال عز وجل

﴿ انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ﴾ أي لا شبه لها في صورتها ومآلها إلا ماء المطر في جملة حاله الآتية ﴿ فاختلط به نبات الارض ﴾ أي فأنبتت الارض أزواجا شتى من النبات تشابكت بسببه واختلط بعضها ببعض في تجاورها وتقاربها ، على كثرتها واختلاف انواعها ﴿ مما يأكل الناس والانعام ﴾ بيان لأزواج النبات وكونها شتى كافية للناس في أقواتهم ومراعي انعامهم ، وكل مرامي آمالهم ﴿ حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت ﴾ أي حتى كانت الارض بها في خضرة زروعها السندسية ، وألوان أزهارها الربيعية ، كالعروس اذا أخذت حليها من الذهب والجواهر ، وحللها من الحرير الملون بالالوان المختلفة ذات البهجة ، فتحلت وازينت بها استعدادا للقاء الزوج — ولا نغفل عن حسن

الاستعارة في أخذ الارض زينتها ، حتى كأن استكمال جمالها ، كأنه فعل عاقل حريص على منتهى الابداع والاتقان فيها (صنع الله الذي أتقن كل شيء) ﴿ وظن أهلها أنهم قادرون عليها ﴾ متمكنون من التمتع بثمراتها ، وادخار غلاتها ، ﴿ أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً ﴾ أي نزل بها في هذا الحال أمرنا المقدر لاهلاكها بجائحة سماوية ليلا وهم نائمون ، أو نهاراً وهم غافلون ﴿ فجعلناها حصيداً ﴾ أي كالارض المحصودة التي قطعت واستؤصل زرعها ، فالحصيد يشبه به الهالك من الاحياء كما قال في أهل القرية الظالمة المهلكة (فجعلناهم حصيداً خامدين) ويشبه هذا الهلاك في نزوله في وقت لايتوقعه فيه أهله قوله (أفأمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * او أمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) ﴿ كأن لم تغن بالامس ﴾ اي هلكت فجأة فلم يبق من زروعها شيء ، حتى كأنها لم تنبت ولم تمكث قائمة نضرة بالامس ، يقال غني في المكان اذا أقام به طويلا كأنه استغنى به عن غيره ، قال تعالى في الاقوام الهالكين في أرضهم (كأن لم يغنوا فيها) والامس الوقت الماضي ، وقال الزمخشري في الكشاف : والامس مثل في الوقت القريب كأنه قيل : كأن لم تغن آنفا اه وأما أمس غير معرف فهو اسم لليوم الذى قبل يومك ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ اى كهذا المثل في جلائه وتمثيله لحقيقة حال الحياة الدنيا وغرور الناس فيها وسرعة زوالها ، عند تعلق الآمال بنوالها ، نفصل الآيات في حقائق التوحيد وأصول التشريع وامثال الوعظ والتهذيب وكل ما فيه صلاح الناس في عقائدهم وأنفسهم وأخلاقهم ومعاشهم ، واستعدادهم لمعادهم ، لقوم يستعملون عقولهم وأفكارهم فيها ، ويزنون أعمالهم بموازينها ، فيتبينون ربحها وخسرانها

والعبرة لمسلمي عصرنا في هذه الآيات البينات المنزلة وامثالها التي اهتدى بها الشعب العربي فخرج من شركه وخرافاته وأميته وبداوته الى نور التوحيد والعلم والحكمة والحضارة ، ثم اهتدى بدعوته اليها الملايين من شعوب العجم ، فشاركته في هذه السعادة والنعم ، انه لم يبق لهم حظ منها الا ترتيلها بالنغمات في بعض المواسم

والمآثم، ولا يخطر لهم ببال انه يجب عليهم التفكر فيها للاهتداء بها، ولو تفكروا لاهتدوا واذا لعلموا ان كل مايشكو منه البشر من الشقاء بالامراض الاجتماعية و الروحية، والرذائل النفسية، والعداوات القومية، والحروب الدولية، فانما سببه التنافس في متاع هذه الحياة الدنيا، وان من تفكر في هذا وكان على بصيرة منه، فهو جدير بأن يلتزم القصد والاعتدال في حياته الدنيوية المادية، ويصرف جل ماله وهمته في اعلاء كلمة الله وعزة اهل ملته، وقوة دولته، والاستعداد لآخرته، فيكون من أهل سعادة الدارين

وما صرف الناس عن هذا الاهتداء بكتاب الله، وهو أعلى وأكمل ما أنزله الله، إلا علماء السوء المقلدون الجامدون، وزعمهم الباطل انه لم يبق في البشر أحد أهلا للاهتداء به وبيان الرسول ﷺ له، لأن هذا يتوقف على ما يسمونه الاجتهاد، ويزعمون انه أصبح ضربا من المحال، وقد أنشأت مشيخة الازهر في هذا العهد وهي أكبر المعاهد الدينية الاسلامية مجلة رسمية شهرية باسم (نور الاسلام) تصرح بهذه الجهالة، وتطعن على الدعاة الى هذه الهداية، والى ترك البدع، واتباع السنن، وانها لدركة من عداوة الله ورسوله لم يبلغوا قعرها إلا بخذلان من الله

---

(٢٥) وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٦) لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٢٧) وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ

لما بين عز وجل غرور المشركين الجاهلين بمتاع الحياة الدنيا قفى عليه ببيان مايدعو اليه من سعادة الآخرة ووصف حال المحسنين والمسيئين فيها فقال

﴿ والله يدعو الى دار السلام ﴾ الجملة عطف على محذوف يدل عليه السياق

وقرينة المقابلة،اي ذاك الايثار لمتاع الدنيا والاسراف والبغي فيه، هو مايدعو اليه الشيطان ، فيسوق متبعيه الى النار ، دار الخزي والنكال ، والله يدعو عباده الى دار السلام وهي الجنة ، وفي المراد بالسلام الذي أضيفت اليه الدار وجوه يصح ان تراد كلها (أولها) انه السلامة من جميع الشوائب والمصائب والمعايب ،والنقائص والاكدار ، والعداوة والخصام (الثاني) انه تحية الله وملائكته لاهلها وتحية بعضهم لبعض الدالة على تحابهم وتوادهم وقد تقدم شرحه قريبا (ثالثها) ان السلام من أسمائه عز وجل وأضيفت دار النعيم اليه تعظيما لشأنها ، وهو مصدر وصف به المبالغة كالعدل ، ويدل على كمال التنزيه والسلامة من كل مالا يليق برب العالمين الرحمن الرحيم ، وفي بعض الاحاديث إضافة هذه الدار الى ضمير الذات (داري)

﴿ ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ عطف على ماقبله اي يدعو كل أحد الى دخول دار السلام ، ويهدي من يشاء الى الطريق الموصل اليها من غير تعويق لانه مستقيم لاعوج فيه ولا التواء ، وهو الاسلام عقائده وفضائله وعباداته وأحكامه ، والهداية في الاصل الدلالة بلطف ، وتكون بالتشريع وهو بيانه ، وهي عامة ، وبالتوفيق للسير عليه والاستقامة الموصلة الى الغاية وهي خاصة بالمستعدين لذلك كما فصلناه في تفسير سورة الفاتحة ، وهي المرادة هنا ولذلك قيدها بالمشيئة

﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ هذا بيان لصفة الذين هداهم الى صراط الاسلام، فوصلوا بالسير عليه الى غايته وهي دار السلام ، أي الذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا المثوبة الحسنى أي التي تزيد في الحسن على احسانهم وهي مضاعفتها بعشرة امثالها أو أكثر ، كما قال في سورة النجم (ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) ولهم زيادة على هذه الحسنى ، هي فوق ما يستحقونه على أعمالهم بعد مضاعفتها التي هي من جزائها معها تكن حسنة كما قال (٤: ١٧٢ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) وقد ورد في الاحاديث الكثيرة من الطرق العديدة ان هذه الزيادة هي النظر الى وجه الله الكريم وهو أعلى مراتب الكمال الروحاني الذي لايصل اليه المتقون المحسنون العارفون إلا في الآخرة. وقد فصلنا القول فيه في تفسير سورة الاعراف (ص ١٢٨ ج ٩) بما يقربه

من العقل والعلم العصري ، ويدحض شبهات المعتزلة المنكرين له بزعمهم انه محال عقلاً .
وما هذا المحال إلا نظريات عقولهم التي تقيس عالم الغيب على عالم الشهادة ، وقد ظهر في هذا العصر من علوم المادة مالم يكن يقبله عقل من العقول المقيدة بتلك النظريات المتولدة من الفلسفة اليونانية والكلام الجهمي فكيف يكون عالم الغيب الالهي مقيداً بها ؟

وثم وراء العقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة

﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ رهق الرجل الشيء (كتعب) أدركه .
ورهقه الشيء كالدين والذل غشيه ، وغلب عليه حتى غطاه وحجبه (ولا ترهقني من أمري عسراً) لا تكلفني ما يعسر علي ، والقتر الدخان الساطع من الشواء والحطب وكل غبرة فيها سواد . أي لا يغشي وجوههم في الآخرة شيء مما يغشى وجوه الكفرة الفجرة من الكسوف والظلمة والذلة ، كما يأتي قريباً في المقابلة بين الفريقين ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أولئك الموصوفون بما ذكر أصحاب الجنة دار السلام والاكرام ، خالدون مقيمون فيها لا يبرحونها

﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها﴾ جزاء وفاقاً لا يزادون على ما يستحقون بسيئاتهم من العذاب شيئاً ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ اي تغشاهم ذلة الفضيحة وكسوف الخزي بما يظهره حسابهم من شرك وظلم وزور وفجور ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ ما لهم من أحد ولا من شيء يعصمهم ويمنعهم من عذاب الله ، كالذين اتخذوهم في الدنيا من الشركاء ، وزعموهم من الاولياء والشفعاء ، وانتحلوهم من الوسائل والوسطاء ، لانه اليوم الذي تنقطع فيه الاسباب التي مضت بها سنن الله تعالى في الدنيا ، فلا تفيد فيه المزاعم الشركية الوهمية (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والامر يومئذ لله) أو ما لهم من عند الله ومن فضله من عاصم يحفظهم من عذابه كعفوه ومغفرته ، فانه لا يغفر ان يشرك به ، كالشفعاء الذين يشفعون باذنه لمن ارتضى من عباده اظهاراً لكرامتهم ، لان هذه الشفاعة الخاصة لا نصيب فيها لمنتحلي الشفاعة الشركية الذين كانوا يزعمون في الدنيا أن لشفعائهم تأثيراً في مشيئة الله وأفعاله حتى يحملوه على فعل مالم يكن يفعله لولا شفاعتهم ، فيجعلون ذاته وصفاته وأفعاله معلولة تابعة لما يطلبونه منه ، وأما

شفاعة الايمان الصحيحة فهي تابعة لمشيئته ولمرضاته (ولا يشفعون الا لمن ارتضى)

﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما ﴾ أي كأنما قدّ لوجوههم قطع من أديم الليل حالة كونه حالكا مظلما، ليس فيه بصيص من نور قمر طالع، ولا نجم ثاقب، فأغشيتها قطعة بعد قطعة، فصارت ظلمات بعضها فوق بعض، وانه لتشبيه عظيم في بلاغة المبالغة في خذلانهم وفضيحتهم التي تكسف نور الفطرة، والظاهر

ان سواد وجوههم حقيقي ومجازي ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر هم أصحاب النار خالدون فيها لا يبرحونها لأنه ليس لهم مأوى سواها كما تقدم في آية أخرى، وقد يدخلها بعض عصاة المؤمنين فيعاقبون على ما اجترحوا من السيئات ثم يخرجون منها

هذا الوصف لاهل الجنة وأهل النار له نظير في آخر سورة الاعمى (وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة) وفي سورة القيامة (وجوه يومئذ ناضرة * الى ربها ناظرة * ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة) وهذه المقابلة في سورة القيامة ترجح ان الزيادة على الحسنى في آية يونس هي مرتبة النظر الى الرب، فنسأله تعالى أن يجعلنا وأولادنا واهل بيتنا واخواننا الصادقين من أهلها

(٢٨) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ، وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٩) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٣٠) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

هذا لون آخر من ألوان البيان لعقيدة البعث والجزاء وقد بينا حكمة هذا

التكرار المختلف الاساليب والالوان وأمثاله في الكلام على أسلوب القرآن واعجازه

﴿ ويوم نحشرهم جميعا ﴾ أي واذكر أيها الرسول لفريقي الناس الذين ضربنا لهم ماسبق من الامثال ، وبينا مايعملون من الاعمال ، يوم نحشرهم جميعا في موقف الحساب لا يتخلف منهم أحد، أو الظرف متعلق بقوله تعالى في الآية التالية (هنالك تبلو كل نفس ما اسلفت) وفي بعض الآيات (ويوم نحشرهم وما يعبدون)

﴿ ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم ﴾ اي ثم نقول للمشركين منهم بعد وقوف طويل لا يخاطب فيه احد بشيء كما تدل عليه بعض الآيات : الزموا مكانكم لاتبرحوه حتى تنظروا ما يفعل بكم ﴿ أنتم وشركاؤكم ﴾ اي الزموه أنتم وشركاؤكم اي الذين جعلتموهم شركاء لله لنفصل بينكم فيما كان من سبب عبادتكم لهم وما يقول كل منكم فيها ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ اي فرقنا بين الشركاء ومن أشركوهم مع الله وميزنا بعضهم من بعض كما يميز بين الخصوم عند الحساب ، والتزييل من زاله يزاله كناله يناله بمعنى نحاه (وهو يائي) وزايلته فارقته وتزيلوا تميزوا بافتراق بعضهم من بعض ، ومنه قوله في أهل مكة واختلاط مؤمنيهم بكفارهم قبل الفتح (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) أو المراد من التزييل والتفريق تقطيع ما كان بينهم في الدنيا من الصلات ، وما للمشركين في الشركاء من الآمال ، وكل من المعنيين صحيح ، والعبادة الشركية أنواع ، والعبودات والمعبودون أنواع يصح في بعضهم مالا يصح في الآخر ، ولذلك تكرر معنى حشر الفريقين وحسابهم في سور أخرى بعضها في عبادة الملائكة وعبادة الجن ، وبعضها في عبادة البشر ، وما اتخذ لهم من التماثيل والصور ، ومثلها القبور المعظمة وسنشير الى شواهده

﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ اي ما كنتم تخصوننا بالعبادة وانما كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم وشياطينكم المغوية لكم ، وتتخذون أسماءنا وتماثيلنا هياكل ومواسم لمنافعكم ومصالحكم ، وليس هذا شأن العبودية الصادقة للمعبود الحق ، الذي يطاع ويعبد لانه صاحب السلطان الاعلى على الخلق ، وبيده تدبير الامر ، ومصادر النفع والضر . والمراد انهم يتبرؤن منهم كما صرح به في آيات أخرى

﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴾ اي فكفى الله شهيداً وحكما بيننا وبينكم فهو العليم بحالنا وحالكم ﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ اي اننا كنا في غفلة عن عبادتكم لانظر اليها ولا نفكر فيها ، وقيل ان المراد بالغفلة عنها عدم الرضا بها

﴿ هنالك تبلو كل نفس ماأسلفت ﴾ اي في ذلك المكان وهو موقف الحساب او في ذلك الوقت أو اليوم تختبر كل نفس من عابدة ومعبودة ومؤمنة وجاحدة، وشاكرة وكافرة ، ماقدمت في حياتها الدنيا من عمل ، وما كان لكسبها في صفاتها من أثر ، من خير وشر ، ونفع وضر ، بما ترى من الجزاء عليه ، وكونه ثمرة طبيعية له ، لاشأن فيه لولي ولا شفيع ، ولا معبود ولا شريك . وهنالك مواقف وأوقات أخرى لاسؤال فيها ولا جدال ، تغني فيها دلالة الحال عن المقال ، ولكل مقام مقال

﴿ وردوا الى الله مولاهم الحق ﴾ اي أرجعوا الى الله الذي هو مولاهم الحق دون ما اتخذوا من دونه بالباطل من الاولياء والشفعاء ، والانداد والشركاء ، على اختلاف الاسماء ، كما ثبت في الآيات الكثيرة كقوله (الى الله مرجعكم ، الى ربكم مرجعكم ، الى ربهم مرجعهم ، والى الله المصير ، واليه المصير) ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ اي وضاع وذهب عنهم ما كانوا يفترونه عليه من الشفعاء والاولياء ، فلم يجدوا أحداً ينصرهم ولا ينقذهم (يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله)

هذه الآيات في موقف المشركين مع الشركاء ، والمرءوسين مع الرؤساء ، والمتكبرين مع الضعفاء ، والمضلين مع الضالين ، والغاوين مع المغوين ، قد تكرر بيانها في سور أخرى مجملا مبهما ، وفي بعضها مفصلا ومبينا ، فمنها ما يسأل الله فيه العابدين ، ومنها ما يسأل فيه المعبودين ، من غير تعيين ، ومنها ما عين فيه اسم الملائكة والجن والشياطين ، وفي كل منها يتبرأ الضالون من الضالين ، فتراجع فيها سورة الفرقان ٢٥ : ١٧ ـ ١٩ وسورة الانعام ٦ : ٢٢ ـ ٢٤ وسورة سبأ ٣٤ : ٤٠ ـ ٤٢ وسورة القصص ٢٨ : ٦٢ ـ ٦٤ ومنها مايتناقش فيها الفريقان فراجع سورة ابراهيم ١٤ : ٢١ و ٢٢ وسورة الصافات ٣٧ : ٢٢ ـ ٢٣ فبمراجعة هذه الآيات كلها وما في معناها كآيات سورة البقرة (٢ : ١٦٦ و ١٦٧ ومع تفسيرنا لهاتين (ج ٢) يتبين لك ما يفسر به بعضها بعضا ، وقد بينا حكمة هذا التكرار في موضعه الذي دللنا عليه آنفاً

(٣١) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ
وَٱلْأَبْصَٰرَ، وَمَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ
ٱلْحَيِّ، وَمَنْ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ *
(٣٢) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ؛ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ؟
فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٣) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا
أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

هذا نوع آخر من أسلوب اقامة الحجج على المشركين في إثبات التوحيد والبعث وهو أسلوب السؤال والجواب، ويليه اثبات النبوة والرسالة والقرآن

﴿قل من يرزقكم من السماء والارض﴾ اي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المعاندين من أهل مكة: من يرزقكم من السماء بما ينزله من المطر، ومن الارض بما ينبته فيها من أنواع النبات نجمه وشجره مما تأكلون وتأكل أنعامكم؟

﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ بل قل لهم أيضاً من يملك ماتتمتعون به أنتم وغيركم من حواس السمع والابصار التي لولاها لم تكونوا تعلمون من أمر العالم شيئاً، بل تكون الانعام والحشرات وكذا الشجر خيراً منكم باستغنائها عمن يقوم بضرورات معاشها، من يملك خلق هذه الحواس وهبتها للناس، وحفظها من الآفات؟ وخص هاتين الحاستين بالذكر لان عليهما مدار الحياة الحيوانية وكمال البشرية، وتحصيل العلوم الاولية، يشعر بذلك المسئولون بمجرد إلقاء السؤال، وكلما ازدادوا فيه تفكراً ازدادوا علما وإعجابا وإكباراً لانعام الله تعالى بهما، وإيمانا بانه لايقدر غيره عليهما، ولا سيما إدراك الكلام بحاسة السمع، وما يرسمه صوت المتكلم في الهواء من معلوماته التي يدلي بها الى غيره، فتتكيف بها كل ذرة من ذراته (أي الهواء) فتقرع به طبلة كل أذن من آذان السامعين وإن كثروا،

فينقلها العصب المتصل بها الى مركز إدراك الكلام من دماغه ، فيدرك معناها المدلول عليه بها بأقوى مما يدركه من قرأها مخطوطة في كتاب ، لما لجرس الصوت من التأثير الخاص ، فمن ذا الذي خلق هذه الآلات ؟ ومن ذا الذي ألهمها إيداع هذه المعاني في الاصوات ؟ ومن ذا الذي وضع هذا النظام في الهواء؟

ثم اذا ازداد علماً بإدراك البصر للمبصرات ، وما لها من المقادير والالوان والصفات ، وما للعين الباصرة من الشكل المحدب ، وما لها من الطبقات والرطوبات ، الموافقة لسنن الله في النور الذي تدرك به المرئيات ، مما هو مبسوط في الاسفار وموجز في المختصرات ، ازداد يقينا بان ذلك من آيات الله الدالة على علمه وحكمته في الكائنات ، وإن غفل عنها المشغولون عن عظمة الصانع بعظمة المصنوعات ، وقد وحد السمع لأن إدراكه لجنس واحد هو الاصوات ، وجمع البصر لتعدد أجناس المبصرات ،

﴿ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ أي ومن ذا الذي يملك الحياة والموت في العالم كله فيخرج الأحياء والاموات بعضها من بعض فيما تعرفون من المخلوقات التي تحدث وتتجدد وفيما لا تعرفون؟ فما كانوا يعرفون ان النبات يخرج من الارض الميتة بعد إحياء الله تعالى إياها بماء المطر النازل عليها من السماء أو النابع منها بعد ان سلكه الله تعالى فيها كما قال (٣٩ : ٢١ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه) الآية .

بل كانت الحياة المعروفة عندهم قسمين حياة النبات وآيتها النمو ، وحياة الحيوان وآيتها النمو والاحساس والحركة بالارادة ، وكانوا يعدون وصف الارض بالحياة مجازا ، ولم يكونوا يصفون أصول الاحياء بالحياة كالحب والنوى وبيض الحيوان ومنيه ، ولذلك فسر بعض المفسرين اخراج الحي من الميت والميت من الحي بخروج النخلة من النواة والطائر من البيضة وعكسهما وما يشابههما ، وهو تفسير صحيح عند أهل اللغة غير صحيح عند علماء الحياة النباتية والحيوانية ، وتحصل به الدلالة المقصودة من الآية على قدرة الله وحكمته وتدبيره ورحمته عند المخاطبين ، وليس المراد به وضع قواعد فنية للحياة وأنواعها وتحديد وظائفها ، على أنه يمكن تفسيرها بما يتفق وقواعد الفنون وتجارب العلوم التي تزداد عصرا بعد عصر ، فاذا كان أهلها

يثبتون ان في أصول النبات من بزر ونوى وبيض ومني حياة ، فهم يثبتون أيضا أن أصول الاحياء في الارض كلها خرجت من مادة ميتة فان الارض عندهم كانت كتلة نارية ملتهبة انفصلت من الشمس ثم صارت ماء ثم نبتت اليابسة في الماء ثم تكون من الماء النبات والحيوان في أطوار سبق الكلام فيها ، ويثبتون أيضا أن الغذاء من الطعام الميت الذي يحرق بالنار يتولد منه دم ومن هذا الدم يكون البيض والمني المشتملان على مادة الحياة ، ويثبتون أيضا ان بعض مواد البدن الحية تموت وتخرج منه مع البخار والعرق وغيرهما مما يفرزه البدن ويلفظه ، ويتجدد فيه مواد حية جديدة تحل محل ما اندثر وخرج منه ، والمراد من الآية إثبات قدرة الخالق وتدبيره ونعمه على عباده ، وهو عام لا يتوقف على الفن ومحدثات العلم بل تزيده كمالا للمؤمن المعتبر ، وقد تكون حجابا لغيره تحجبه عن ربه ، فالقاعدة عند علماء الحياة ان الحي لا يخرج إلا من حي ، فتعين أن تكون الحياة الاولى من خلق الله الحي بذاته المحيي لغيره

وورد في التفسير المأثور تفسير الحياة والموت في مثل هذه الآية بالمعنويين منهما كخروج المؤمن من سلالة الكافر والعالم من الجاهل والبر من الفاجر وعكسها ، وقد قدمناه في تفسير آية آل عمران (٣: ٢٧) الوارد فيها لانه المناسب لسياقها . وهناك رواه ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن البصري وسعيد بن منصور ورواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الاسماء والصفات وأبو الشيخ في العظمة عن سلمان (رض) وكذا ابن مردويه عنه وعن ابن مسعود (رض) فراجعه في تفسيرها من الدر المنثور (*) وسياق هذه الآيات هنا يناسب ما فسرناها به من الحياة والموت في العالم كله ويؤيده قوله تعالى :

﴿ ومن يدبر الامر ﴾ في الخليقة كلها بما أودعه في كل منها من السنن وقدره من النظام ، وتقدم تفسير التدبير عند ذكره في أول هذه السورة ﴿ فسيقولون الله ﴾ أي فسيكون جوابهم عن هذه الاستفهامات الخمس ان فاعل ذلك كله هو الله رب

(*) انما ذكرت الرواية هنا لان مجلة مشيخة الازهر (نور الاسلام) طعنت في هذا التفسير وعدته من جهل بعض المعاصرين وانما هو جهل مفتيها بالمأثور وغيره

كل شيء وملكه ، إذ لا جواب غيره وهم لا يجهلونه ، فالاستفهام عنه لحملهم على الاقرار به ليترتب عليه قوله ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ أي فقل لهم أيها الرسول أتعلمون هذا وتقرون به فلا تتقون سخط الله وعقابه لكم بشرككم به وعبادتكم لغيره ممن لا يملك لكم من تلك الامور شيئا ، وهو المالك لها كلها ؟

﴿ فذلكم الله ربكم الحق ﴾ هذه فذلكة ماتقدم ، أي فذلكم الذي يفعل ماذكر الله ربكم ، أي المربي لكم بنعمه والمدبر لاموركم ، الحق الثابت بذاته ، لانه هو الحي القيوم ، الحي بذاته ، المحيي لغيره ، القائم بنفسه ، المقيم لغيره ، واذا كان هو ربكم الحق الذي لا ريب فيه ، المستحق للعبادة دون سواه ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ الاستفهام إنكاري ، وفي الجملة إدماج بما يسمونه الاحتباك ، أي فماذا بعد الحق الا الباطل ؟ وماذا بعد الهدى الا الضلال ؟ والواسطة بين الطرفين المتضادين المتناقضين ممنوعة كالعقائد ، فالذي يفعل تلك الامور هو الرب الحق فالقول بربوبية ما سواه باطل ، وهو الإله الذي يعبد بحق ، وعبادته وحده هي الهدى ، فما سواها من عبادة الشركاء والوسطاء ضلال ، فكل من يعبد غيره معه فهو مشرك مبطل ضال ﴿ فأنى تصرفون ﴾ أي فكيف تصرفون وتتحولون عن الحق الى الباطل ، وعن الهدى الى الضلال ، بعد العلم والاقرار بما كان به الله هو الرب الحق ، وانما الاله الحق ، الذي يعبد بالحق ، هو الرب الحق ، فما بالكم تقرون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية ؟ فتتخذون مع الله آلهة أخرى ولا تتحقق الألوهية الا بتحقق الربوبية ؟

فالآية تقرر أن التوحيد لا يصح مع الفصل بين الربوبية والالوهية كما كانوا يفعلون ، وقد جهل هذا بعض علماء الازهر في هذا الزمان ، الذين أخذوا عقيدتهم من بعض الكتب الكلامية المبتدعة وجهلوا عقائد القرآن ، فلم يفرقوا بين مفهومي الرب والاله في اللغة العربية ، وما كان عليه أهلها في الجاهلية ، على ان الاسلام انما وحد بينهما في الماصدق الشرعي ، لا في المفهوم اللغوي ، واحتج بهذا على المشركين هنا وفي آيات كثيرة كما صرح به الحافظ ابن كثير في تفسيره وغيره من قبله ومن بعده ،

وفي الآية من قواعد العقائد الدينية وأصول التشريع والعلم ان الحق والباطل فيهما ضدان لا يجتمعان ، وأن الهدى والضلال ضدان لايجتمعان ، ولهذا الاصل فروع كثيرة في الدين والعلم العقلي . وفيها من حسنات الايجاز في التعبير مايسميه علماء البديع بالاحتباك ، وهو ان يحذف من كل من المتقابلين ما يدل عليه مقابله في الآخر ، وهو ظاهر في الآية أتم الظهور ، وان غفل عنه الجمهور

﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا ﴾ أي مثل ذلك الذي حقت به كلمة ربك أيها الرسول في وحدة الربوبية والالوهية ، وكون الحق ليس بعده لتاركه إلا الباطل ، والهدى ليس وراءه للناكب عنه إلا الضلال ، حقت كلمة ربك أي سنته أو وعيده على الذين فسقوا أي خرجوا من حظيرة الحق وهو توحيد الالوهية والربوبية وهداية الدين الحق . ففي كلمة الرب وجهان ، لكل منهما أصل في القرآن ، أحدهما أنها كلمة التكوين وهي سنته في الفاسقين الخارجين من نور الفطرة واستقلال العقل الذين لايتوجهون الى التمييز بين الحق والباطل والتفرقة بين الهدى والضلال لرسوخهم في الكفر واطمئنانهم به بالتقليد والعمل فقوله ﴿ انهم لايؤمنون ﴾ على هذا بيان للكلمة أو بدل منها ، أي اقتضت سنته في غرائز البشر وأخلاقهم أنهم لايؤمنون بما يدعوهم اليه رسلنا من التوحيد والهدى مهما تكن آياتهم بينة ، وحججهم قوية ظاهرة ، وليس معناه انه تعالى يمنعهم من الايمان منعا قهريا مستأنفا بمحض قدرته ، بل معناه انهم يمتنعون منه باختيارهم ترجيحا للكفر عليه . ويؤيد هذا الوجه قوله تعالى في هذه السورة (٩٦ ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ٩٧ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم)

والوجه الثاني انها كلمة خطاب التكليف بوعيد الفاسقين الكافرين بعذاب الآخرة كقوله في سورة ألم السجدة (٣٢ : ٢٠ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار) وقوله في سورة غافر (٤٠ : ٦ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) ويكون قوله (أنهم لايؤمنون) على هذا تعليلا لما قبله بحذف حرف الجر أي لانهم أو بأنهم لايؤمنون . وكل من الوجهين حق ظاهر والاول أظهر هنا

وقرأ نافع وابن عامر (كلمة) في آيتي يونس وآية غافر بالجمع (كلمات) ولأجل ذلك رسمت في المصحف الامام بالتاء المبسوطة (كلمت) ووجه قراءة الجمع ان هذا المعنى بوجهيه قد تعدد وتكرر في آيات الكتاب

---

(٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٥) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ؟ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ؟ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى؟ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟ (٣٦) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ

﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ لم يعطف هذا الامر ولا مابعده على ماقبله من تلقين النبي ﷺ الاحتجاج على المشركين لان حكم البلاغة فيه الفصل كأمثاله مما يسرد سردا من جنس واحد من المفردات والجمل . أي قل لهم أيها الرسول : هل أحد من شركائكم الذين عبدتموهم مع الله أو من دون الله من له هذا الشأن في الكون وهو بدء الخلق في طور ثم إعادته في طور آخر، سواء كان من الاصنام المنصوبة، أو من الارواح التي تزعمون انها حالة فيها، أو من الكواكب السماوية أو غيرها من الاحياء كالجن والملائكة؟ ولما كان هذا السؤال مما لايجيبون عنه كما أجابوا عن أسئلة الخطاب الاول لانكارهم البعث والمعاد – لا لاعتقادهم ان شركاءهم تفعل ذلك – لقن الله رسوله الجواب ﴿ قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ فأدمج إثبات البعث في توحيد الربوبية لانه يقتضيه ويستلزمه فان الرب القادر على بدء الخلق يكون قادرا على اعادته بالاولى على أن الذي ينكرونه هو إعادته تعالى للاحياء

الحيوانية دون مادونها من الاحياء النباتية ، فهم يشاهدون بدء خلق النبات في الارض عند مايصيبها ماء المطر في فصل الشتاء ، وموته بجفافها في فصل الصيف والخريف ثم إعادته بمثل مابدأه به مرة بعد أخرى ، ويقرون بأن الله هو الذي يفعل هذا البدء والاعادة ، لانهم يشاهدون كلا منهما ، فهم أسرى الحس والعيان ، ثم ينكرون قدرته على إعادة خلق الناس ، لانهم لم يشاهدوا أحدا منهم حيي بعد موته وقد فقدوا العلم ببرهان القياس ، وانما لانزال نرى أمثالا لهم في جاهليتهم ممن تعلموا المنطق وطرق الاستدلال ، وعرفوا مالم يكونوا يعرفون من سلطان الارواح في عالم الاجسام ، وقد أمر الله رسوله أن يرشدهم الى جهلهم بأنفسهم وينبههم للتفكير في أمرهم بقوله ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تصرفون عن ذلك وهو من دواعي الفطرة وخاصة العقل في التفكير ، للعلم بالحقائق والبحث عن المصير ؟

﴿ قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق ؟ ﴾ هذا سؤال عن شأن آخر من شؤون الربوبية ، المقتضية لاستحقاق الالوهية ، وتوحيد العبادة الاعتقادية والعملية ، وهو الهداية التي تتم بها حكمة الخلق كما يدل عليه ذكرها عقبه في آيات أخرى كقوله تعالى (الذي خلقني فهو يهدين * ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى) وهي أنواع هداية الفطرة والغريزة ، وهداية الحواس ، وهداية العقل ، وهداية التفكر والاستدلال بكل ذلك ، وهداية الدين ، وهو للنوع البشري في جملته كالعقل لأفراده ، وهداية التوفيق الموصل بالفعل الى الغاية بتوجيه النفس الى طلب الحق وتسهيل سبيله ومنع الصوارف عنه . ولما كان لايمكنهم أن يدعوا ان أحدا من أولئك الذي أشركوهم في عبادة الله تعالى بادعاء التقريب اليه والشفاعة عنده يهدي الى الحق من ناحية الخلق والتكوين ، ولا من ناحية التشريع ، لقن الله رسوله الجواب بقوله ﴿ قل الله يهدي للحق ﴾ فعل الهدى يتعدى بنفسه كقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم * ويهديك صراطا مستقيما * لنهدينهم سبلنا) ويتعدى بالى كقوله (وهديناهم الى صراط مستقيم * ويهدي الى صراط مستقيم * يهدي الى الرشد * واهدنا الى سواء الصراط) وباللام كقوله

﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا * ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم * بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان .. ﴾ فتعديته بنفسه تفيد اتصال الهداية بمتعلقها مباشرة ، وتعديته باللام تفيد التقوية أو العلة والسببية ، وبالى للغاية التي تنتهي إليها الهداية ، فهي تشمل مقدماتها وأسبابها ، من حيث كونها موصلة إلى المنتهى المقصود وللهادي السائق إليها ، وقد يكون قصده مجهولا لمطيعه كقوله تعالى في الشيطان (كتب عليه أنه من تولاه فانه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) وكل من هذه الثلاث مستعمل في التنزيل في موضعه اللائق به ، يعلم ذلك من له ذوق سليم في هذه اللغة الدقيقة العالية . وقد جمع في هذه الآية بين التعدية بالحرفين وبين ترك التعدية وهو حذف المتعلق الدال على العموم وكل منها وقع في موقعه الذي تقتضيه البلاغة فيها كلها فلم نر أحدا بينه

أما الاول فقد عداه بالى في حيز الاستفهام الانكاري للايذان بأنه لا أحد من هؤلاء الشركاء المتخذين بالباطل يدل الناس على الطريق الذي ينتهي سالكه إلى الحق من علم وعمل وهو التشريع فهو ينفي المقدمات ونتائجها ، والاسباب ومسبباتها ، ولو عداه بنفسه لما أفاد إلا إنكار هداية الايصال إلى الحق بالفعل ، دون هداية التشريع الموصلة إليه ، ولو عداه باللام لكان بمعنى تعديته بنفسه إن كانت اللام للتقوية ، أو لانكار هداية يقصد بها الحق إن كانت للتعليل ، والاول أعم وأبلغ كما هو ظاهر

وأما الثاني وهو تعديته باللام فهو يستلزم الاول ، واذا جرينا على جواز استعمال اللام بمعنييها على مذهبنا الذي اتبعنا فيه الامامين الشافعي وابن جرير يكون معناه قل الله يهدي لما هو الحق لاجل أن يكون المهتدون به على الحق.

وأما الثالث أي حذف المتعلق فهو في الشق الثاني من قوله ﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى ﴾ قرأ (يهدي) يعقوب وحفص بكسر الهاء وتشديد الدال وأصله يهتدي كما سيأتي في بحث لغة الكلمة ، وقرأها حمزة والكسائي بالتخفيف كيرمي ، ومعنى القراءتين مع ماقبلهما نصاً واقتضاء : أفمن يهدي إلى الحق ويهدي له ويهديه وهو الله تعالى أحق أن يتبع فيما يشرعه أم من لا يهدي غيره ولا هو يهتدي بنفسه ممن عبد من دونه إلا أن يهديه غيره أي الله تعالى

إذ لاهادي غيره ؛ وهـذا استثناء مفرغ من أعم الاحوال ، لان من نفى عنهم الهداية ممن اتخذوا شركاء لله تعالى يشمل المسيح عيسى بن مريم وعزيراً والملائكة عليهم السلام وهؤلاء كانوا يهدون إلى الحق بهداية الله ووحيه كما قال تعالى في الانبياء من سورتهم (٢١ : ٧٣ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) وقال النحاس الاستثناء منقطع كما تقول : فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع ، أي لكنه يحتاج أن يسمع ، فمعنى (إلا أن يهدى) لكنه يحتاج أن يهدى اهـ فيالله العجب من هذه البلاغة التي يظهر للمدققين في تعبير القرآن من بدائعها في كل عصر مافات أساطين بلغاء المفسرين فيما قبله

﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ هذا تعجيب من حالهم في جعلهم من هذه حالهم من العجز المطلق شركاء مع القادر على كل شيء ، أورده باستفهامين تقريعيين متواليين، والمعنى: أي شيء أصابكم وماذا حل بكم حتى اتخذتم شركاء هذه حالهم وصفتهم فجعلتموهم وسطاء بينكم وبين ربكم الذي لا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا هادي لكم ولا لأحد منهم سواه ؟ كيف تحكمون بجواز عبادتهم، وبما زعمتم من وساطتهم وشفاعتهم عنده بدون اذنه ؟

ومن القراءات اللفظية التي لايختلف بها المعنى قراءة يهدي المشددة الدال بفتح الياء والهاء بنقل حركة التاء في أصلها (يهتدى) إلى الهاء وادغامها فيها ، وقراءتها بكسرهما معا فالهاء لالتقاء الساكنين والياء لمناسبتها لها ، وقراءتها بفتح الياء وكسر الهاء لمناسبة الدال وهي قراءة حفص التي عليها أهل بلادنا

﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ﴾ هذا بيان لحال المشركين الاعتقادية ، في إثر إقامة أنواع الحجج على توحيد الربوبية والالهية، بأسلوب الاسئلة والاجوبة المفيدة للعلم ، الهادية إلى الحق ، ومنها أنه ليس في شركائهم من يهدي إلى الحق المطلوب في العقائد الدال على ارتقاء العقل وعلو النفس، وهو ان أكثرهم لايتبعون في شركهم وعبادتهم لغير ربهم ، ولا في إنكارهم للبعث، وتكذيبهم للرسول ﷺ إلا ضربا من ضروب الظن قد يكون ضعيفا كما يشير إليه تنكيره ، وذلك كاستبعاد غير

المألوف ، وقياس الغائب والمجهول، على الحاضر والمعروف،وتقليد الآ باءثقة بهم، وتعظيما لشأنهم ، أن يكونوا على باطل في اعتقادهم ، وضلال في أعمالهم ،وأما غير الاكثر فكانوا يعلمون ان ماجاءهم به الرسول هو الحق والهدى ، وان أصنامهم وغيرها مما عبدوا لاتنفع ولا تشفع ، ولكنهم يجحدون بآ يات الله ويكذبون رسوله عناداً واستكباراً في الارض،وضناً برياستهم وزعامتهم ان يهبطوا منها إلى اتباع من دونهم ثروة وقوة ومكانة في قومهم،ويجوز أن يكون التعبير بالاكثر جاء على سنة القرآن في الحكم على الامم والشعوب بالحق والعدل، فانه تارة يحكم على أكثرهم ،وتارة يستثني من الاستغراق والاطلاق القليل منهم ، كما تقدم نظائره من قبل . فيكون الحكم على الاكثر للاشارة الى انه يقل فيهم ذو العلم، فان قيل: وما حكم الله في الظن ? فالجواب

﴿ إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ من الاغناء ولو قليلا ، أي لا يجعل صاحبه غنياً بعلم اليقين في الحق فيكون أي الظن بدلا من اليقين في شيء مما يطلب فيه اليقين كالدين ، فان الحق هو الامر الثابت المتحقق الذي لاريب في ثبوته وتحققه ، والمظنون وإن كان راجحاً عند صاحبه عرضة للشك يتزلزل و يزول اذا عصفت به أي عاصفة من الشبهات ، والاغناء يتعدى بعن كقوله (ما أغنى عنكم جمعكم * ما أغنى عني ماليه * فما أغنت عنهم آلهتهم) وقد عدي هنا بمن ، وفي مثله من سورة النجم ، وفي قوله في ظل دخان النار (لا ظليل ولا يغني من اللهب) وقوله في الضريع من طعام أهلها (لا يسمن ولا يغني من جوع) فعدي بمن لافادة القلة أو لتضمنه معنى البدل ، أي إن ظل دخان النار لا وارف يمنع الحر ولا يغني من اللهب بأن يقلله أو يزيله ويكون بدلا منه ، وإن الضريع الذي هو طعام أهل النار لايسمن البدن بالتغذية الكافية ولا يقلل الجوع أو يزيله فيكون بدلا من الطعام الرديء التغذية

واستدل العلماء بهذه الآ ية هنا وفي سورة النجم على ان العلم اليقيني واجب في الاعتقاديات ، وان إيمان المقلد غير صحيح ، ويدخل في الاعتقاديات الايمان بوجوب أركان الاسلام وغيرها من الفرائض والواجبات القطعية والايمان بتحريم المحظورات القطعية كذلك ، وقد بينا من قبل أن اليقين المشروط في صحة الايمان

شرعا هو اليقين اللغوي وهو الاعتقاد الصحيح الذى لاشك معه — لا المصطلح عليه عند نظار الفلسفة والمنطق المؤلف من علمين [أحدهما] ان الشيء كذا [والثاني] أنه لا يمكن أن يكون إلا كذا . وأما قولهم إن الاحكام العملية يكفي فيها الدليل الظني ففيه أن الدليل الظني لا يثبت به الايمان بالمظنون ، بل التصديق بالمظنون لا يسمى إيمانا . وانما يعمل في الاجتهاديات خروجا من الحيرة والترجيح بهوى النفس

﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ هذه قضية ثانية مستأنفة خاصة بالعمل شأنها أن يسئل عنها بعد القضية التي قبلها في الاعتقاد ، فهو يقول ان الله عليم بما كانوا يفعلون بمقتضى اعتقاداتهم الظنية والقطعية ، فهو يحاسبهم ويجازيهم على كل عمل منها بحسبه ، فالجزاء على مخالفة الاعتقاد القطعي بصدق الرسول من تكذيب وجحود أشد أنواع الجزاء ، ويليه التكذيب باتباع الظن كالتقليد ، ومن تلك الافعال الصد عن الايمان وإيذاء الرسول ﷺ والمؤمنين بأنواعه ومنها سائر الشرور والمعاصي الشخصية والاجتماعية كالقتل والفاحشة والسكر والربا الخ

والعبرة للمؤمن بالقرآن في هذه الآية والتي قبلها وهما من آياته المحكمات في أصول الايمان والاسلام أن يكون غرضه من حياته تزكية نفسه وتكميلها باتباع الحق في كل اعتقاد ، والهدى وهو الصلاح في كل عمل ، وبناؤهما على أساس العلم ، دون الظن ومادونه من الخرص والوهم ، فالعلم المفيد للحق والمبين للهدي في الدين هو ما كان قطعي الرواية والدلالة من الكتاب والسنة الذي قامت به الجماعة الاولى ، وهو الشرع العام الذي لا يجوز للمسلمين التفرق والاختلاف فيه ، فهو مناط وحدتهم ، ورابطة جامعتهم ، وما دونه مما لا يفيد إلا الظن فلا يؤخذ به في الاعتقاد ، وهو متروك للاجتهاد في الاعمال ، اجتهاد الافراد في الاعمال الشخصية ، واجتهاد أولي الامر في القضاء والادارة والسياسة ، مع تقييدهم فيه بالشورى في استبانة العدل والمساواة والمصالح العامة ، كما فصلناه من قبل في مواضعه .

وقد غفل عن هذه القواعد بعض أئمة الفقه فحكم بتحريم بعض العادات المباحة في الاصل كلعب الشطرنج ، وكذا المستحبة كملاعبة الرجل لزوجه وسماع الغناء بشبهة أنها من الباطل أو من الضلال ، ولا يثبت تحريم شيء من ذلك بدليل ظني

فضلا عن قطعي ، وفاقا للقاضي أبي بكر بن العربي المالكي المخالف فيه للرواية عن إمامه ، وأما المقلدون من المنتمين في الفقه الى كل مذهب فقد حرموا على الناس مالا يحصى بالرأي والاقيسة الوهمية ، التي هي دون الادلة الظنية ، وهدي النبي صلى الله عليه وسلم في الشبهات الاحتياط كما صرح به في حديث « الحلال بين والحرام بين » المتفق عليه واستفتاء (الوجدان) لحديث « استفت نفسك » رواه البخاري في التاريخ

وانما الباطل من الاعمال ماثبت بطلانه بدليل شرعي قطعي ، كما أن الحق فيها ماثبتت حقيته بدليل قطعي ، وبينهما واسطة هي مالا دليل فيه بخلاف الاعتقاد فانه ليس فيه واسطة بين الحق والباطل ، ومن الاشياء العملية ما الاصل فيه الاباحة وهو النافع ، ومنه ما سكت الشارع عن فرضه وعن تحريمه وعن قواعد حدوده كما قال صلى الله عليه وسلم « وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » كما في حديث أبي ثعلبة في الاربعين النووية وقد حققنا هذا البحث في تفسير (٥ : ١٠١ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) من جزء التفسير السادس

والذي أريد أن أذكر به كل مسلم هنا أنه لايوجد الآن في الارض دين متبع ، ولا قانون دولي منفذ ، ولا نظام حزبي ولا جماعي ملتزم ، يفرض على الناس الحق والهدى فرضاً دينياً ، والاعتماد في استبانتهما على العلم الصحيح ، وحصر الاجتهاد والترجيح فيما سواهما ، والاعتماد فيه على الوجدان في الشخصيات ، والشورى في المصالح العامة . ولن يصلح حال البشر الفردي ولا الاجتماعي والدولي إلا بهذه الأصول التي فرضها الاسلام ، وجعلها ديناً يدان الله به ليس لاحد تجاوزه ، وقد عجزت علوم البشر على اتساعها ، وعقولهم على ارتقائها ، عن الاستغناء عنها بغيرها ، فهم كلما ازدادوا علماً يزدادون باطلا وضلالا وبغياً ، خلافاً للدعاة حضارتهم الكاذبين .

قال شيخ فلاسفة الاخلاق وعلم الاجتماع في هذا القرن (وهو هربرت سبنسر الانكليزي) لحكيم الاسلام ، شيخنا الاستاذ الامام ، ان فكرة الحق قد زالت من عقول أمم أوربة البتة ، فلا يعرفون حقا إلا للقوة ، وإن الافكار المادية قد أفسدت أخلاقهم ، وانه لا يرى من سبيل إلى علاجهم ، وإنه لا يزال بعضهم يختبط ببعض ـ ولعله ذكر الحرب ـ ليتبين أيهم الاقوى ليسود العالم

وقد وقع ماتوقعه هذا الحكيم في سنة ١٩٠٣ م بالحرب الكبرى مدة أربع سنين (من ٩١٤ - ٩١٨) فازدادت الامم والدول شقاء وفساداً وطغيانا وإباحة ، حتى جزم كثير من عقلائهم بأنه لاعلاج لهذا الفساد في البشر إلا الهداية الروحية الدينية ، وسيعقدون لذلك مؤتمراً عاما في الولايات المتحدة الاميركانية ، ولن يجدوا العلاج المطلوب إلا في هذه الاصول من القرآن ، وما فصلناها به في مباحث (الوحي المحمدي) من هذا التفسير ، ثم جمعناه في كتاب مستقل مع زيادة في تفصيله ، فعسى أن يسبقهم المسلمون إلى العمل به ونشره .

(٣٧) وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٣٨) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٣٩) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ

بعد ماتقدم من إقامة البرهان على ان القرآن من عند الله وان محمدا ﷺ كان عاجزا كغيره عن الاتيان بمثله في هدايته وفي علمه ولغته - وما تلاه من إقامة الحجج على بطلان شركهم - وما بعده من بيان حالهم في اتباع أكثرهم لأدنى الظن وأضعفه في عقائدهم وتكذيبهم - عاد الى تفنيد رأيهم الافين في الطعن على القرآن بمقتضى الظن الضعيف من الاكثرين ، والجحود المنادي من الاقلين ، كالزعماء المستكبرين ،

فقال ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ النفي هنا للشأن الذي هو أبلغ وآكد من نفي الشيء مباشرة كما تقدم مرارا ، وإن غفل عن ذلك من أعرب إعرابا آخر لقصر نظره على ظاهر اللفظ ، دون ما يقتضيه المقام من المبالغة

في الرد ، أي وما كان هذا القرآن العظيم في علو شأنه، المجلي له في أسلوبه ونظمه، وعلومه العالية ، وحكمته السامية ، وتشريعه العادل ، وآدابه المثلى ، وتمحيصه للحقائق الالهية والاجتماعية ، وإنبائه بالغيوب الماضية والآتية ، وجعل المقصد من اصلاحه مابينه آنفا من اتباع الحق والهدى ، واجتناب الضلال باتباع الهوى ، والاعتماد فيهما على العلم الصحيح — ماكان وما صح ولا يعقل أن يفتريه أحد على الله من دونه ويسنده اليه ، إذ لا يقدر غيره عز وجل عليه ، فان فرض أن بشراً يستطيع الاتيان بمثله فلن يكون الا بشراً أرقى وأكمل من جميع الحكماء والانبياء وكذا الملائكة ومثله ان يفتري على الله ، بل قال أشد الكفار عنادا وعداوة لمحمد ﷺ وهو أبو جهل لعنه الله: ان محمدا لم يكذب على بشر قط أفيكذب على الله؟

﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أي ولكن كان تصديق الذي سبقه من الوحي لرسل الله تعالى بالاجمال كنوح وابراهيم وموسى وعيسى (ص) بدعوته الى أصول دين الله الاسلام التي دعوا اليها من الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، بعد أن نسي بعض ذلك بقايا اتباعهم وضلوا عن بعض، وشوهوه بالتقاليد المبتدعة مما لم يكن يعلمه محمد الامي ﷺ أو تصديق ذلك بكونه جاء وفاقا لما دعا به ابراهيم لاهل حرم الله، ولما بشر به موسى وعيسى والنبيون كما بيناه بالتفصيل، في تفسير قوله تعالى (٧ : ١٥٧ الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) من جزء التفسير التاسع، ويجوز الجمع بين المعنيين

﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ الالهي أي جنسه وهو ماشرعه الله تعالى ليكتب ويهتدي به جميع البشر من العقائد والشرائع والعبر والمواعظ وشؤون الاجتماع وسنن الله في خلقه ﴿ لاريب فيه ﴾ هو لاريب فيه أو حال كونه لاريب فيه أي ليس فيه مثار للشك ولا موضع للريب ، لانه الحق والهدى ﴿ من رب العالمين ﴾ من وحيه لا يقدر عليه غيره (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً)

﴿ أم يقولون افتراه ﴾ انتقال من بيان كونه أجل وأعلى من ان يفترى لعجز الخلق عن الاتيان بمثله ، إلى حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعاندين أن محمداً ﷺ افتراه ،

والاستفهام فيه للانكار والتعجيب ، أو التمهيد به إلى الرد عليه بتحدي التعجيز وهو ﴿ قل فأتوا بسورة مثله ﴾ في أسلوبه ونظمه وتأثيره وهدايته وعلمه مفتراة في

موضوعها ، لا تلتزمون أن تكون حقاً في أخبارها ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ واطلبوا الاظاهرة لكم والاعانة على ذلك من استطعتم دعاءهم من دون الله فان جميع الخلق يعجزون عن ذلك مثلكم ، فهذا كقوله تعالى (١٧ : ٨٨ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)

وهذه الآية في سورة الاسراء وقد نزلت قبل يونس ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في زعمكم أني افتريته . والجمهور على أن لفظ سورة هنا يصدق بالقصيرة كالطويلة وبينا وجهه في تفسير آية التحدي من سورة البقرة (٢ : ٢٣) وهو المتبادر من تنكير السورة إلا أن يقال إن التنكير للتعظيم أو لنوع من السور يدل عليه دليل كالسور التي فيها قصص الانبياء وأخبار وعيد الدنيا والآخرة لأن الافتراء تتعلق تهمته بالاخبار لا بالانشاء من أمر ونهي كما أشرت اليه في تفسير سورة البقرة وزجح بعضهم أن المراد السورة الطويلة أي مثل هذه السورة نفسها (يونس) في اشتمالها على أصول الدين والوعد والوعيد كما يطلق لفظ الكتاب او كتاب أحياناً ويراد به السورة الواحدة التي يذكر فيها ، كقول من قال في أول سورة الاعراف (ألمص ، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه) أي هذه السورة كتاب الخ ومن تنكير لفظ سورة المراد بها النوع دون الوحدة قوله تعالى (٤٧ : ٢٠ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة) أي يفرض فيها القتال بدليل قوله بعده (فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال) الآية . وسنعود الى هذا البحث في تفسير التحدي بعشر سور مثله مفتريات من سورة هود إن شاء الله تعالى

ومن المعلوم بالبداهة أنه ما كان لعاقل مثله ﷺ أن يتحداهم هذا التحدي لو لم يكن عالماً موقناً بأنه لا يستطيع الانس والجن الاتيان بمثل هذا القرآن في جملته ولا بسورة مثله لا أفراد العلماء والبلغاء منهم ولا جماعاتهم ولا جملتهم إن

فرض إمكان اجتماعهم وتعاونهم ومظاهرة بعضهم لبعض. فلو كان هو الذي أنشأه وألفه لمصلحة الناس برأيه كما ارتأى بعض المعجبين بعقله وذكائه وعلو أفكاره من الفلاسفة المتقدمين ، وعلماء الماديين المتأخرين ـ لكان عقله وذكاؤه وعلو فكره ما نعات له من هذا الجزم بعجز عقلاء الخلق من العوالم الظاهرة (الانس) والخفية (الجن) عن الاتيان بسورة مثل ما أتى هو به، فان كل عاقل متوسط الذكاء والفكر يعلم أن كل ما أمكنه من الامر فهو يمكن غيره ، بل لا يأمن أن يوجد من هو أقدر عليه منه ، فهذه آية بينة للعقل على ان النبي ﷺ كان موقنا بأنه من عند الله تعالى وانه هو كغيره لا يقدر على الاتيان بسورة مثله ، وهي احدى حجج الذين قالوا انه لا يعقل أن يكون كاذبا مفتريا له (فان قيـل) إنه يمكن أن يعتقد عجز نفسه وغيره في حال كونه وحيا من نفسه ، معتقداً أنه من ربه (قلنا أولا) إن دعوى الوحي النفسي باطلة بأدلة كثيرة كما تقدم (وثانياً) ان عجز غيره ممن كانوا أفصح منه دليل على عجزه بطريق الاولى

ثم إن أكثر المتكلمين ومن على مذاهبهم من المفسرين يعتمدون في إقامة الحجة على نبوته ورسالته ﷺ على تحديه للعرب بالقرآن أن يأتوا بمثله إجمالا أو بحديث مثله فبعشر سور مثله مفتريات فبسورة مثله فبسورة من مثل محمد ﷺ أي في أميته، وبما ظهر من عجز العرب وغيرهم عن ذلك ، إذ لو قدر أحد على الاتيان بسورة مثله أو قريب منه لفعلوا لتوفر الدواعي من أعدائه على تكذيب دعواه ولاسيما بعد استفحال قوته ، واضطرارهم الى بذل أموالهم وأنفسهم في مكافحته ، وبهذا يعلم الفرق الواضح بين تحديه ﷺ بالقرآن وتحدي بعض الدجالين المغرورين ببعض ماهذوا به من نثر ونظم وسموه وحياً كالباب والبهاء والقادياني ، فانه كان سخرية للعلماء والبلغاء ، وقد اخفى البهائيون كتابه (الاقدس) عن الناس

ثم ان أكثرهم على أن تحدي العرب انما كان بما امتاز به من الفصاحة والبلاغة اللغوية . وقد صنفوا في بيان إعجاز القرآن بها كتباً مستقلة ، ولم يوفوه حقه من ناحيتها ولا سيما نظمه العجيب بله النواحي المعنوية (وقالوا) ان وجه الدلالة في ذلك على صدقه ﷺ في دعوى النبوة وانه من عند الله هو انه يتضمن تصديقه

تعالى له كأنه قال « صدق عبدي فيما يبلغه عني » ولذلك رجحوا ان هذه الدلالة وضعية كدلالة الكلام الالهي وقيل انها عقلية وتقدم بسط ذلك في تفسير آية البقرة

وهذا الذي قالوه في اعجازه بالبلاغة قد اعترض عليه بعض الناس حتى المتقدمين الذين كانوا أقرب إلى فهمه وامتيازه بها من أهل عصرنا. قال الفريقان: إن لكل بليغ من فصحاء كل أمة أسلوباً يمتاز به ، وأنتم أيها المسلمون تقولون إن محمدا ﷺ كان أفصح قريش وهم أفصح العرب فلا غرو أن يمتاز فيهم بهذا الاسلوب والنظم القرآني كما امتاز بعض شعراء الجاهلية والاسلام بأسلوب خاص، وكما امتاز شكسبير في شعراء الانكليز وفيكتور هيغو في شعراء الفرنسيس، فعجز العرب عن الاتيان بمثل القرآن في بلاغته لا يدل على أنه من الله عز وجل

(ونقول) إن هذا الاعتراض يذوب فيزول اذا عرض على الاشعة التي اقتبسناها من ضياء شمس القرآن في إعجازيه اللفظي والمعنوي في أول تفسير هذه السورة ثم في تفسير الآيتين (١٥ و ١٦) منها . وأما قولهم في إحدى مقدماته إن محمداً ﷺ كان أفصح قريش وأبلغهم في لغته، فقد بينا بالنقل الثابت أنه ﷺ لم يكن قبل نزول القرآن عليه يذكر في فحول فصحائهم ولا في وسطهم بل لم يكن يعد منهم ، وانما صار كلامه ممتازاً بالفصاحة والبلاغة بما استفاده من وحي القرآن كما استفاد من دونه منه، على أنه ظل ككلام غيره من البشر في البعد عن مشابهة نظم القرآن وأسلوبه وتأثيره ، وهذا التفاوت لا نظير له في كلام بلغاء البشر

(فان قيل) ان ما يظهر في السور الطويلة من روعة البلاغة وبراعة النظم لا يظهر في السور القصيرة (قلنا) لكن الناس عجزوا عن معارضة السور القصار كغيرها ، ولخفاء وجه الاعجاز فيها على بعضهم قال من قال منهم ان عجزهم كان بصرف الله تعالى لقدرهم عن المعارضة، وقال بعضهم ان التحدي إنما كان بسورة طويلة كما نقلناه آنفا عن الرازي ووجهناه بأظهر ما وجهه به، وهو أن تكون مما أرادوه من تهمة افترائه

وبيانه انه اذا كان التحدي بسورة مثله مفتراة خاصا بالسور التي فيها قصص الرسل مع أقوامهم بالتفصيل فهذه كلها من السور الطويلة كالاعراف ويونس وهود والحجر وطه والمؤمنين والطواسين والعنكبوت . وإن كان يعم السور

المشتملة على نذر أولئك الاقوام المكذبين لرسلهم من غير تفصيل لدعوتهم لهم فيدخل في عمومه بعض سور المفصل أيضاً كالذاريات والنجم والقمر والحاقة والفجر ولا يدخل فيه على كل من التقديرين شيء من السور القصيرة لانه ليس فيها شيء من ذلك . والتحدي في هذه السورة وسورة هود وسورة الطور مبني على تهمة الافتراء والتكذيب كما ترى إيضاحه في آية (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) التي تلي هذا

ومن تأمل ما في هذه السور من المفصل من التعبير عن المعنى الواحد بالعبارات العديدة مع تعدد أساليبها ، واختلاف نظمها ، وأنواع فواصلها ، وألوان بيانها ، وقوارع نذرها ، وصوادع وعيدها ، وقابليتها للترتيل بالنغمات المؤثرة اللائقة بكل منها ، فأجدر به إن كان قد أوتي حظا من بيان هذه اللغة والشعور الذوقي ببلاغتها أن يقتنع بأن اعجازها اللغوي كاعجاز قصص السور الطويلة أو اظهر، بصرف النظر عن كون موضوعها حقا موحى به من الله تعالى أم لا ؟ وأن يش... سمر تأثيرها العجيب في أولئك المكذبين من بلغاء قريش وغيرهم الذي عبر عنه الوليد بن المغيرة المخزومي وهو في الذروة العليا منهم بعبارته المشهورة ومنها قوله : « وانه ليعلو ولا يعلى ، وانه ليحطم ماتحته » وغير ذلك مما بيناه في مباحث الوحي ، وان يعلم صدق الامام عبد القاهر في قوله : « أسال عليهم الوادي عجزاً ، وأخذ عليهم منافذ القول أخذاً » علما ذوقيا وجدانيا

وأما من لا يعرف من بلاغة هذه اللغة إلا القواعد الفنية وأمثلتها الجزئية المدونة في مثل مختصر السعد التفتازاني ومطوله من كتب المعاني والبيان ، فأجدر به أن يطبقها على كل كلام ، وناهيك به اذا عد منها ماذكره المتنطعون من المتأخرين فيما يسمونه المحسنات البديعية ، وشروط الفصاحة وعيوبها ، وقد سمعت ان بعضهم مج ذوقه بعض فواصل سورة القمر ، فكان بعض المستشرقين أصح منه فهما وذوقا إذ قال إنها من أبلغ سور القرآن أو أبلغها كلها بلا استثناء

(فان قيل) ان التحدي في السور الثلاث (يونس وهود والطور) جاء ردا على تهمة الافتراء والتقول كما قلتم ، فيظهر فيه أن يختص بالسور التي تظهر فيها تهمة الافتراء كما قررتم ، ولكن التحدي في آية سورة البقرة ليس كذلك (قلنا) لكنه

جواب للمرتابين فيه وهم المكذبون فهو تأكيد لماقبله ، لانه نزل بعده . وهي مدنية وهن مكيات . فان منعنا هذا وقلنا ان التنكير فيها يصدق باصغر سورة وهي الكوثر ، وسلمنا أنه لا يظهر فيها اعجاز النظم والاسلوب (قلنا) انها معجزة بما فيها من الايجاز وخبري الغيب في أولها وآخرها كما شرحناه في تفسير الآية من الجزء الاول . وفي الجلالين مايؤيد هذا فقد قال في آية البقرة : هي مثله في البلاغة وحسن النظم والاخبار عن الغيب اه وقال في آية يونس : هي مثله في الفصاحة والبلاغة على وجه الافتراء اه وإعجاز السور الصغيرة المعنوي بالهدى والنور وإصلاح القلوب ، لا يكابر فيه الا الجهول المحجوب .

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ هذا إضراب عن بعض ما يتضمنه قولهم (افتراه) وما يستلزمه كونهم يعتقدون أن محمداً ﷺ كان يكذب ، أو ان القرآن في جملته افتراء منه ، وقد ثبت أنهم كانوا يعلمون تحريه الصدق في كل مايقوله ، وانتقال إلى بيان موضوع تكذيبهم بظنهم انه محال في نفسه ، وهو ما أنذرهم من عذاب الله لهم في الدنيا والآخرة إن لم يؤمنوا له ويتبعوه ، وقد وصفهم بعدم احاطتهم بعلمه أي لم يعلموه من جميع وجوهه ونواحيه ، وبأنه لما يأتهم تأويله أي مصداقه إلى ذلك الوقت مع توقع إتيانه ، وبتشبيه تكذيبهم إياه بتكذيب الذين من قبلهم بمثله ، فبين ما كذبوا به بهذه الصفات الثلاث

فالوصف (الاول) لما كذبوا به أنه مالم يحيطوا بعلمه فيكون تكذيبهم صحيحا وانما ظنوا ظنا ، والظن لا يغني من الحق شيئا (والثاني) قوله ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ أي ولم يأتهم الى الآن مايؤول اليه ويكون مصداقاله بالفعل ، واتيانه متوقع بل آت لابد منه ، وقد خبط المفسرون الفنيون في معنى هذا التأويل منذ القرون الوسطى ، لانهم لم يفهموا القرآن بلغته الحرة الفصحى ، بل بلغة اصطلاحاتهم الفنية ولا سيما أصول الفقه والكلام . فقال بعضهم إنهم كذبوا بما لم يفهموا معناه ، وقال بعضهم إنهم كذبوا بما لم يظهر لهم وجه الاعجاز فيه ، ولو صح هذا أو ذاك لكانوا معذورين بالتكذيب طبعاً ، وسبب مثل هذا الغلط جعلهم التأويل تارة بمعناه عند بعض المفسرين وهو رديف التفسير ، وتارة بمعناه عند المتكلمين والاصوليين ، وهو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى

يحتمله في اللغة بشرط موافقته للشرع ، لتخرج تأويلات الباطنية وغلاة الصوفية

وقد جمع الرازي كعادته كل ما رآه محتملا من هـذا التكذيب في خمسة وجوه (١) تكذيب قصص القرآن وذكر لها ثلاث صور (٢) حروف التهجي في أوائل بعض السور إذ لم يفهموا منها شيئاً ، وزعم أن الله أجاب عنها بآية آل عمران في المحكمات والمتشابهات (٣) ظهور القرآن منجما شيئاً فشيئاً (٤) أخبار الحشر والنشر (٥) العبادات قالوا ان الله مستغن عن عبادتنا . وكل هذه الوجوه باطلة لا يحتمل ارادة شيء منها إلا الرابع ، وفسر عدم إتيانهم تأويلها بجهلهم حقيقتها وحكمها ، وهو باطل وناهيك بحملها على الحروف المفردة في أول السور وهي ليست بكلام فيكذب أو يصدق . ثم قال : « قال أهل التحقيق قوله (ولما يأتهم تأويله) يدل على أن من كان غير عارف بالتأويلات وقع في الكفر والبدعة لان ظواهر النصوص قد يوجد فيها ماتكون متعارضة فاذا لم يعرف الانسان وجه التأويل فيها وقع في قلبه أن هذا الكتاب ليس بحق . أما اذا عرف وجه التأويل طبق التنزيل على التأويل ، فيصير نوراً على نور يهدي الله لنوره من يشاء » اهـ

وهذا القول الذي عزاه إلى أهل التحقيق باطل بعيد عن الحق ، وحكم على كتاب الله بما عابه من اتباع الظن ، وما أهل التحقيق في عرفه إلا نظار علم الكلام المبتدع وهو ظلمات بعضها على بعض ، ماولدالبدع المضلة إلا الاشتغال به ، وهذا التأويل الذي قال فيه ماقال لا يصح في اللغة ولا أصل له في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ ولا في المأثور عن أصحابه [رض] ولا عن أئمة سلف الامة كما ستراه قريبا

واما التأويل في لغة القرآن فله معنى واحد لامعنى له سواه وهو عاقبة الشيء ومآله الذي يؤول إليه من بيان مصداقه المراد منه بالفعل كما قلنا آنفا وبيناه بالتفصيل في تفسير آية المحكمات والمتشابهات من سورة آل عمران التي أطال الرازي في الكلام عليها فأخطأ محجة الصواب ، وحرم الحكمة وفصل الخطاب ، فكان أجدر بالخطأ هنا وقد التزم الاختصار ، وأوضح الادلة على ذلك بعد ماعلمت من حمله التأويل على المعنى الاصطلاحي غفلته عن نفي إتيانه بحرف لما الدال على توقعه ، إذ معناه أن تأويله لم يأتهم إلى الآن وإتيانه متوقع بعده ، وغفلته عن تشبيه تكذيبهم بتكذيب من

قبلهم في الجملة الآتية. والتبادر منه أنه وعيد الله إياهم على تكذيبهم لرسوله ﷺ بالعذاب في الدنيا قبل الآخرة ونصره عليهم، وهو ما فسر الآية به أمام المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري قال:

«يقول تعالى ذكره: ما بهؤلاء المشركين يا محمد تكذيبك ولكن بهم التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه مما أنزل الله عليك في هذا القرآن من وعيدهم على كفرهم بربهم (ولما يأتهم تأويله) يقول ولما يأتهم بعد بيان ما يؤول ذلك الوعيد الذي توعدهم الله في هذا القرآن (كذلك كذب الذين من قبلهم) يقول تعالى ذكره كما كذب هؤلاء المشركون يا محمد بوعيد الله، كذلك كذب الامم التي خلت قبلهم بوعيد الله إياهم على تكذيبهم رسلهم وكفرهم بربهم» اه وكذلك قال البغوي في تفسير التأويل لانه محدث فقيه غير متكلم وتبعهما الجلال هنا وفي آية الاعراف الآتي ذكرها

الوصف الثالث التشبيه الذي ذكرناه في الاجمال وهو قوله تعالى ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ شبه تكذيب مشركي مكة لمحمد ﷺ بتكذيب من قبلهم من مشركي الامم لرسلهم بما لم يحيطوا بعلمه قبل أن يأتيهم تأويله من عذاب الله الذي أوعدهم به، كما ترى في قصصهم المفسرة في السور العديدة ولا سيما سورة الشعراء المبدوءة فيها بقوله (٢٦: ١٠٥ كذبت قوم نوح المرسلين * كذبت عاد المرسلين * كذبت ثمود المرسلين) ثم ذكر لفظ التكذيب في وعيدهم كقول هود لقومه (١٣٥: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم - إلى قوله - فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية) الخ وقول صالح لقومه بعدهم إذ أتتهم آية الناقة (١٥٦ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ١٥٧ فعقروها فأصبحوا نادمين ١٥٨ فأخذهم العذاب) الخ فهذا تأويله المراد من قوله هنا ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ أي فانظر أيها الرسول أو العاقل المعتبر كيف كان عاقبة الظالمين لانفسهم بتكذيب رسلهم، وهو تأويل وعيدهم لهم، لتعلم مصير الظالمين من بعدهم، وهذه العاقبة مبينة بالاجمال في قوله (٢٩: ٤٠ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا

أنفسهم يظلمون) وسيأتي ما يؤيد ماقررناه كله قريبا في الآيات (٤٦ — ٥٥)

وقد أنذر الله قوم محمد ﷺ مانزل بالامم قبلهم في الدنيا بهذه الآية وغيرها من هذه السورة وفي سور كثيرة كما أنذرهم عذاب الآخرة، وكذبه المعاندون المقلدون في كل منهما ظانين أنه لا يقع، لاغير فاهمين لمعناه أو لاعجازه، ولكن قضت حكمته تعالى حفظ قومه من تكذيب أكثرهم، ومايقتضيه من أخذ عذاب الاستئصال لهم. وارجع إلى قوله تعالى في سورة الاعراف (٥٢:٧ هل ينظرون إلا تأويله ؟ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) الخ تعلم علم اليقين أن ماقررناه هو حق اليقين الذي لا تقبل غيره لغة القرآن، وانه هو الذي يتفق مع سائر الآيات، وأن ما قرره الرازي هو الباطل والضلال المبين، الذي تدحضه الآية ومافي معناها مما ذكرنا بعضه وأشرنا إلى بعض، فعسى ان يكون قد استجاب الله دعاء شيخنا رحمه الله فينا اذ قال:

ويخرج وحي الله للناس عاريا من الرأي والتأويل يهدي ويلهم

﴿ استطراد في المتكلمين وتفسير الامام الرازي ﴾

اعلم ان الفخر الرازي كان إمام نظار المتكلمين والاصوليين في عصره، وأن علماء النظر اعترفوا له بهذه الامامة من بعده، ولكنه كان من أقلهم حظا من علم السنة وآثار الصحابة والتابعين، وأئمة السلف من المفسرين والمحدثين، بل وصفه الحافظ الذهبي امام علم الرجال في عصره بالجهل بالحديث، فلم يجد التاج السبكي مايدافع به عنه لأنه من أئمة الاشعرية الشافعية إلا الاعتراف بأنه لم يشتغل بهذا العلم وليس من أهله فلا معنى للطعن عليه بجهله ولا بذكره في رجاله المجروحين ولا المعدول،

أما علمه بالكلام فقد قال بعض العارفين في وصف كتابه (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، من الفلاسفة والمتكلمين) ماينبئك بحقيقته عند المحققين، وهو:

محصل في أصول الدين حاصله من بعد تحصيله علم بلا دين
رأس الغواية في العقل السقيم فما فيه فأكثره وحي الشياطين

ولشيخ الاسلام ابن تيمية مصنف مستقل في نقض (كتابه أساس التقديس) فيه

ولولا أن تصدى لاحياء شبهاته في هذا العهد اثنان من مكثري النشر في

الصحف للمباحث الدينية، أحدهما شيخ أزهري، وثانيهما كاتب مدني، لما أبدينا وأعدنا في تفنيد بدعه الكلامية المخالفة لنصوص الكتاب والسنة التي يجهلانها، لان بضاعة الاول نظريات متكلمي القرون الوسطى على قلة من يفهمها منهم اليوم، وبضاعة الثاني نظريات بعض الافرنج، ولما رأيا نظرية الرازي في التأويل تؤيد فهمهما الباطل أراد الثاني ترويجها في سوق العامة بتسميته امام المفسرين، وما كان إلا إمام المتكلمين.

وأما تفسيره فقد اشتهر قول بعض العلماء فيه: إن فيه كل شيء إلا التفسير كما في كتاب الاتقان. والحق أن هذه مبالغة في الانكار على ما هو الغرض الذي امتاز به تفسيره وهو نقل آراء الفلاسفة والمتكلمين، وحجج المعتزلة والاشاعرة.

فلينظر القاريء المستقل الفهم كيف فعل تقليد المسلمين لهؤلاء المتكلمين في دينهم: ينقل لهم متكلم مفسر عن متكلم مجهول زعم أنه من أهل التحقيق أن هذه الآية من القرآن التي لم يعرف لغتها ولا معناها الناقل ولا المنقول عنه «تدل على أن من كان غير عارف بالتأويلات (التي ابتدعوها) وقع في الكفر والبدعة» وعلل ذلك بما هو باطل من وجوه نكتفي منها بما لا يخفى على عامي ذكي ولا بليد، وهو أن المؤمن بالنصوص اذا رأى فيها ما هو متعارض فانه إما أن يبحث عن وجوه الترجيح بين المتعارضات بمقتضى القواعد التي وضعها علماء الاصول في (كتاب التعارض والترجيح) اذا رأى أنه أهل لذلك وفي حاجة إليه، وإما أن يترك هذا البحث إلى أهله معتقداً أنهم أعرف به، ولا يكون هذا التعارض الصوري سبباً لشكه في القرآن أو انه ليس بحق مما يكون به مبتدعا أو كافراً، ولو صح قول هذا القائل لوجب تحريم قراءة كتاب الله وكتب السنة على كل من لم يأخذ بقاعدتهم هذه ويتعلم علم الكلام وعلم أصول الفقه قبل تلاوته لاجلها، وان كان عالما بهدي السلف وأقوال أئمته، وهذا تقييد لكتاب الله تعالى وصد عنه بتأويلاتهم المبتدعة بعد عصر النور الاول لهذه الامة، ولزم به أن يحكموا على أكثر من يقرءونه بالكفر والبدعة، والحق أن هذه التأويلات التي فتنوا بها هي المثار الاكبر للشكوك والبدع التي هي بريد الكفر، وأن كتاب الله كله هدى ونور، وأصح بيان له سنة النبي ﷺ وخير المهتدين بها سلف الامة وحفاظ السنة

وجملة القول ان مذهب السلف الصالح وجوب الايمان بكل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه وما صح من وصف رسوله ﷺ له على ظاهره من غير تعطيل للمعنى اللغوي بجعله كاللغو ، ولا تمثيل بتشبيه الله بخلقه يعد من النقص ، ولا تأويل يخرج الظاهر المتبادر عن معناه بمحض الرأي .

واعلم أيها القارىء أن الخواطر التي تعرض لبعض الناس مما لا يليق به تعالى لا تنقض إيمان الموقن بكتابه وصدق رسوله المتبع لهما ، كما ورد في الاحاديث الصحيحة فيمن يوسوس له الشيطان : من خلق الله؟ وفيمن اوصى بحرق جثته لئلا يبعثه الله ويعذبه . قال عبدالله بن مسعود (رض) سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة فقالوا ان أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة (اي فحمة) او يخر من السماء الى الارض احب اليه من أن يتكلم به ؟ قال «ذلك محض الايمان» رواه مسلم ، يعني ان الوسوسة لا يسلم أحد منها وان كراهة المؤمن لها دليل على إيمانه المحض الخالص

هذا وان أكثر كبار النظار من المتكلمين قد رجعوا إلى مذهب السلف في الايمان بظاهر النصوص وفي مقدمتهم إمام الحرمين كما نقله عنه الحافظ ابن حجر في شرحه للبخاري (من كتاب التوحيد) ومن قبله والده الامام الجويني الذي نقل السبكي في ترجمته أن علماء عصره قالوا لو بعث الله تعالى نبياً في هذا العصر لكان الجويني ، ومن بعدهما أبو حامد الغزالي في آخر عمره ، ونقل مثل هذا عن الفخر الرازي أيضاً رحمهم الله ورحمنا ، وعفا عنهم وعنا ، وقد صرح الغزالي من قبل رجوعه الى مذهب السلف أن علم الكلام ليس من علوم الدين وانما هو لحراسة العقيدة كالحرس للحاج (وأقول) انما راجت كتبه في عصرهم ، لأنها وضعت للرد على ملاحدتهم ومبتدعتهم ، ولا تنفع في الرد على ملاحدة هذا العصر ولا مبتدعته كما بيناه مراراً ،

وأما تلقين المسلمين أنفسهم للعقائد وقواعد الاسلام فيجب أن يعتمد فيها على آيات القرآن والمأثور في الاحاديث وسيرة الصحابة وعلماء التابعين وأئمة الهدى قبل ظهور البدع ، ومن أكبر الضلال أن يعتمد فيها على أقوال المتكلمين ، فتجعل أصلا ترد إليها آيات القرآن المبين ، إيثارا لبيانهم على بيانه ،

وإن تعجب فعجب جعلهم عقيدة السنوسية الصغرى الاساس الاول لتعليم

التوحيد في الازهر وغيره وانما هي نظريات كلامية غير شرعية وقد أخطأ محشوها وشراحها في جعل التوحيد عبارة عن نفي الكم المتصل والكم المنفصل في ذات الله وصفاته وأفعاله ، أو المنفصل في افعاله فقط ، وهي فلسفة مبتدعة لا يعرفها الشرع ولا تدل عليها اللغة . كما اخطأ مؤلفها في تفسير كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » بلازم من لوازمها لا يتضمن معناها الذي لأجله جعلت عنوان الدعوة إلى الاسلام ، وتحكم في صفات الله بالظن الذي ذمه الله بأنه لا يغني من الحق شيئاً ، فزعم أن السمع والبصر يتعلقان بجميع الموجودات ، يعني أنه تعالى يسمع ذوات الجواهر وأعراضها كالالوان والصفات ، ويرى الاصوات ويبصر اللغات . غافلا عن ذلك وعن قوله (وان تقولوا على الله مالا تعلمون) ومع هذا زعم بعض علماء الازهر أن ابراهيم خليل الرحمن ﷺ يقرأ هذه العقيدة في الآخرة لاولاد المسلمين ، وهو إمام الموحدين ، الذي آتاه حجته في الدنيا على قومه وهم علماء عصره وعلى سائر العالمين ، واطمئنان القلب بكيفية احيائه تعالى للميتين ، فكيف يحتاج بعد كشف الحجب في الآخرة إلى نظريات السنوسي ومن فوقه من نظار المتكلمين ؟؟

وقد صرح السيد الآلوسي تبعاً لغيره من المحققين العارفين ، بما حققناه هنا في علم الكلام والمتكلمين ، عند الكلام على آية الظن في باب الاشارة من هذا السياق فقال ما نصه :

(وما يتبع أكثرهم إلا ظناً) ذم لهم بعدم العلم بما يجب لمولاهم وما يمتنع وما يجوز ، ولا يكاد ينجو من هذا الذم إلا قليل ، ومنهم الذين عرفوه جل شأنه به لا بالفكر ، بل يكاد يقصر العلم عليهم ، فان أدلة أهل الرسوم من المتكلمين وغيرهم متعارضة ، وكلماتهم متجاذبة ، فلا تكاد ترى دليلا سالما من قيل وقال ، ونزاع وجدال ، والوقوف على علم من ذلك مع ذلك أمر أبعد من العيوق ، وأعز من بيض الانوق .

لقد طفت في تلك المعاهد كلها   وسرحت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر   على ذقن أو قارعا سن نادم

فمن أراد النجاة فليفعل مافعل القوم ليحصل له ما حصل لهم ، أولا فليتبع السلف الصالح فيما كانوا عليه في أمر دينهم ، غير مكترث بمقالات الفلاسفة ومن حذا حذوهم من المتكلمين التي لا تزيد طالب الحق إلا شكا » اه

(٤٠) وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤١) وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ

لما بين تعالى في الآيات السابقة حال مشركي قريش في اتهام النبي ﷺ بافتراء القرآن وبتكذيبهم بوعيده لهم ، بين في هاتين الآيتين أقسام هؤلاء القوم في تكذيبهم ومستقبل أمرهم أو حالهم ومستقبلهم في الايمان ، وفي عمل المكذبين بمقتضى تكذيبهم ، وعمل النبي ﷺ بمقتضى رسالته إلى أن يأتي أمر الله فيهم فقال :

﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لايؤمن به ﴾ يقول تعالى لرسوله خاتم النبيين ﷺ ان قومك لن يكونوا كأولئك الظالمين من قبلهم الذي كذبوا رسلهم الا قليلا منهم فكان عاقبتهم عذاب الاستئصال بل سيكون قومك قسمين : قسم سيؤمن بهذا القرآن وقسم لايؤمن به أبدا ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ في الارض بالشرك والظلم والبغي لفساد فطرتهم وفقدهم الاستعداد للايمان وهم الذين يعذبهم في الدنيا فيخزيهم وينصرك عليهم ويجزيهم في الآخرة بفسادهم . وقيل ان الآية في بيان حالهم عند نزول هذه السورة وهي ان بعضهم يؤمن به في الباطن وانما يكذبه في الظاهر عناداً واستكباراً ، ومنهم من لا يؤمن به جهلا وتقليدا ، ومن هذا الفريق من فقد الاستعداد للايمان وهم الاقلون وسيأتي وصف حالهم في الآيات ٤٢ ـ ٤٤ قريبا وله وجه . وأما الذي ليس له وجه صحيح فهو قول من فسروا التأويل بالمعنى الاصطلاحي الذي بينا فساده : ان هذا بيان لحالهم بعد إتيان التأويل المتوقع أي سيكون منهم حينئذ مؤمن وكافر ، لما بيناه من انه غير مراد ولامعنى لاتيانه ، وانه متى جاء تأويله المراد وهو وقوع العذاب يكون الايمان به اضطراريا عاما وهو المنصوص في قوله تعالى (٧ : ٥٢ يوم يأتي تأويله يقول

الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) وتأويله بعذاب الاستئصال أو بقيام الساعة سواء في أنه لا ينفعهم معه لايمان إذ لا يقبل منهم بل يقال لهم حينئذ (آلآن وقد كنتم به تستعجلون) كما يأتي في الآية (٥١) وانظر تفصيله في آخر سورة المؤمن (٤٠ . ٨٢ ـ ٨٥) وسنبين في تفسير الآية (٤٦) عدم وقوع عذاب الاستئصال على هذه الامة. وفي الآية تسلية له ﷺ يؤكدها مابعدها وهو :

﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم ﴾ أي وان أصروا على تكذيبهم فقل لهم لي عملي بمقتضى رسالتي وهو البلاغ المبين. والانذار والتبشير، وما يستلزمه من العبادة والاصلاح ، وما أنا عليكم بمسيطر ولا بجبار، ولكم عملكم، بمقتضى تكذيبكم وشرككم ، وهو الظلم والفساد، الذي تجزون به يوم الحساب، ويقال لكم (هل تجزون الا بما كنتم تكسبون) كما يأتي في الآية (٥٢) من هذا السياق، وهذا كقوله تعالى (١٧ : ٨٤ قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا)
﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ فلا يؤاخذ الله أحداً منا بعمل الآخر . وهذا كقوله (١١ : ٣٥ أم يقولون افتراه قل ان افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون) وقوله (٢٦ : ٢١٦ فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون)

---

(٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٣) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٤) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

لما أنبأ الله رسوله بان من قومه من لا يؤمن بهذا القرآن حالا ولا استقبالا إذ لا ينفعهم البيان مهما يكن ناصعاً ، ولا يقنعهم البرهان وإن كان قاطعاً ، وان الذي عليه المصرين على تكذيبه منهم بعد ماجاءهم به من الآيات ، التي دمغتهم

بالحجج البينات ، ان يتبرأ منهم ، وينتظر أمر الله فيهم ، كان من شأن هذا النبأ أن يثير عجبه لغرابته في نفسه ، وأن يسوءه لما يشير إليه من انتقام الله منهم ، بين له مثل الذين فقدوا الاستعداد للايمان ، وعلمه مالم يكن يعلمه من سنة الله تعالى فيهم ، وكون مصيبتهم من أنفسهم ، فلا حول له ولا قوة على هدايتهم ، فقال :

﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ أي يصيخون بأسماعهم مصغين إليك اذا قرأت القرآن ، أو بينت مافيه من أصول الايمان والاحكام ، ولكنهم لايسمعون إذ يستمعون ، إذ لا يتدبرون القول ولا يعقلون ما يراد به ، ولا يفقهون ما يرمى إليه ، لان الاستماع إليك مقصود عندهم لذاته لا لما يراد به ، وهي بلاغته في غرابة نظمه ، وجرس الصوت بترتيله ، كمن يستمع الى طائر يغرد على فننه ، ليستمتع بصوته لا ليفهم منه ، كما قال (٢١ : ٢ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ٣ لاهية قلوبهم) أو كالبهائم يصيح بها الراعي فترفع رءوسها لاستماع صوته الذي راعها فصرفها عن رعيها ، كما قال (٢ : ١٧١ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء . صم بكم عمي فهم لايعقلون) أو كما قال (٦ : ٢٥ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً) والقاعدة الطبيعية الشرعية ان الامور بمقاصدها . ونحن نرى كثيراً من الناس يقصدون قراء القرآن في ليالي رمضان أوفي المآتم ليستمعوا الى فلان القاريء الحسن الصوت لغرض التلذذ بترتيله وتوقيع صوته ، أو بلاغته ولا أحد منهم ينتفع بشيء من مواعظ القرآن ونذره ، وحكمه وعبره ، ولا عقائده وأحكامه ، ومنهم المسلمون وغير المسلمين ، بل سمعت بأذني من غير المسلمين من يستمع القرآن ويعجب من شدة تأثيره وتغلغله في أعماق القلب وهو لا يؤمن به ، ولهذا قال تعالى

﴿ أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون ﴾ هذا الاستفهام للانكار ، يعني ان السماع النافع المستمع هو ماعقل به مايسمعه وفقهه وعمل بمقتضاه ، فمن فقد هذا كان كالاصم الذي لايسمع ، وأنت أيها الرسول لم تؤت القدرة على إسماع الصم أي فاقدي حاسة السمع حقيقة ، فكذلك لا تستطيع الاسماع النافع للصم مجازاً وهم الذين لايعقلون

مايسمعون ولا يفقهون معناه فيهتدوا به. والبلاغة في ظاهر تعبير الآية وصفهم بفقد السمع والعقل معا، وهو مجاز قطعا، لان من فقد الحس والعقل حقيقة لا يكون مكلفا. واذ كان المراد بالعقل المنفي هنا عقل الكلام وفقهه فهو يقتضي ثبوت السماع ونفي الصمم الحقيقيين.

﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ أي يوجه أشعة بصره اليك عند ماتقرأ القرآن ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الايمان ، وهيبة الخشوع للديان، وكمال الخلق والخلق ، وأمارات الهدى والحق، وآيات التزام الصدق، التي عبر عنها أحد أولي البصيرة بقوله عند مارأى النبي ﷺ : والله ماهذا بوجه كذاب، وقال فيه آخر

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تنبيك بالخبر

وقال حكيم افرنجي : كان محمد يقرأ القرآن في حالة وله وتأثر وتأثير فيجذب به الى الايمان أضعاف من جذبتهم آيات موسى وعيسى (عليهم السلام)

ومن فقد البصيرة العقلية والقلبية فيما يراه ببصره، فجمع بين وجود النظر الحسي بالعينين ، وعدم النظر المعنوي بالعقل ، فهو محروم من هداية البصر وهي البصيرة التي يمتاز بها الانسان عن بصر الحيوان ، فكأنه أعمى العينين ﴿ أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لايبصرون ﴾ أي انك أيها الرسول لست بقادر على هداية العمي بدلائل البصر الحسية، فكذلك لا تقدر على هدايتهم بدلائله العقلية، ولو كانوا فاقدين لنعمة البصيرة التي تدركها ؟ وقد أسند فعل الاستماع الى الجمع لكثرة تفاوت المستمعين واختلاف أحوالهم فيه وأسند فعل النظر الى المفرد لانه جنس واحد، ولكنه أفرد السمع وجمع الابصار في بضع آيات منها ٣١ من هذه السورة لما ذكرناه في تفسيرها

والمراد من الآيتين أن هداية الدين كهداية الحس، لا تكون الا للمستعد لها بهداية العقل ، وأن هداية العقل لاتحصل الا بتوجه النفس وصحة القصد ، وهذا الصنف من الكفار قد انصرفت أنفسهم عن استعمال عقولهم في الدلائل البصرية والسمعية لادراك مطالب من المطالب مما وراء شهواتهم وتقاليدهم، وليس المراد أنهم فقدوا نعمة العقل الغريزي، ولا نعمة الحواس بل استعمالها النافع — كما قال في سورة الاعراف (٧ : ١٧٩ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ،

ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) فراجع تفسيرها للاعتبار والاتعاظ - وقد بين ذلك بيانا مستأنفا عما يبطل القول بالجبر فقال

﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ﴾ أي ان الله تعالى لم يكن من شأنه ولا من سنته في خلق الناس ان ينقصهم شيئا من الاسباب التي يهتدون باستعمالها الى مافيه خيرهم ومنافعهم من الاعمال الاختيارية الموصلة الى سعادة الدنيا والآخرة وهي الحواس والعقل وسائر القوى ، فالظلم هنا بمعناه اللغوي الاصلي وهو نقص ماتقتضي الخلقة الكاملة وجوده كقوله تعالى (كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا)

﴿ ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ أي يظلمونها وحدها لان عقاب ظلمهم واقع عليهم دون غيرهم ، فهم يجنون عليها بكفرهم بما أنعم الله عليهم من هدايات المشاعر والعقل والدين ، وهو عدم استعمالها فيما منحهم إياها لأجله من اتباع الحق في الاعتقاد والهدى في الاعمال ، وهو الصراط المستقيم الموصل الى سعادة الدارين ، المنجي من عذابهما وقرأ حمزة والكسائي (ولكن) بتخفيف النون و(الناس) بالرفع .

وقد وضع الاسم الظاهر موضع الضمير إذ قال «ولكن الناس» ولم يقل «ولكنهم» للاشارة الى ان هذا الظلم خاص بهم دون سائر أنواع الحيوان فانها لا تعدو في استعمال مشاعرها وقواها ماخلقت لاجله من حفظ حياتها الشخصية والنوعية ، أما الناس فقد يستعملونها فيما يضرهم في حياتهم الحيوانية الدنيوية ، وفي حياتهم الروحية الاخروية ، كما قال (أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا) وقدم المفعول (أنفسهم) على عامله لافادة قصر هذا الظلم على أنفسهم دون غيرهم أو دون ربهم الذي كفروا بنعمه ، كما قال تعالى في بني اسرائيل من سورة البقرة (٢: ٥٤) وسورة الاعراف (٧: ١٥٩ وماظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

هذا هو المتبادر في هذا المقام من نفي ظلم الناس عن الله تعالى وقصره على أنفسهم ، ويحتمل أن يراد به انه تعالى لا يظلمهم بعقابه لهم شيئا بأن يعاقبهم على غير ذنب أو يزيد على قدر الذنب ، ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بذنوبهم دون غيرهم ، على قاعدة (٦ : ١٦٤ ولا تكسب كل نفس الا عليها) الآية فراجع

تفسيرها مع ماهنا، وحاسب نفسك، وذكر غيرك، ولا تجعلوا هذه الحكم البليغة حكاية للتسلية بهجو الكفار، فانما هي حقائق هادية للموعظة والاستبصار

(٤٥) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

هذه الآية للتذكير بمقدار ظلم المشركين لانفسهم وخسارتهم لها في الآخرة بتكذيبهم النبي ﷺ وكفرهم بالقرآن ووعيده لهم وغرورهم بدنياهم الحقيرة مصداقا للآية التي قبلها، قال

﴿ ويوم يحشرهم ﴾ أي واذكر أيها الرسول لهم أو أنذرهم يوم يحشرهم الله ـ وهذه قراءة حمزة عن عاصم وقرأها الباقون (نحشرهم) بالنون أي نجمعهم بعثهم بعد موتهم ونسوقهم الى مواقف الحساب والجزاء ﴿ كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾ أي كأنهم لم يمكثوا في الدنيا إلا مدة قليلة من النهار ريثما يعرف فيها بعضهم بعضاً كأولي القربى والجيران ثم زالت، فان الساعة يضرب بها المثل في قلة المدة. فالتشبيه بيان لحالهم في تذكرهم للدنيا. يعني ان هذه الحياة الدنيا التي غرتهم بمتاعها الحقير الزائل قصيرة ستزول بعذابهم أو موتهم، وسيقدرون يوم القيامة قصرها بساعة من النهار لاتسع أكثر من التعارف القليل، كما قال في آخر سورة الاحقاف (٤٦ : ٣٥ كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) وفي سورة الروم (٣٠ : ٥٥ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون) وفي معناها قوله تعالى في آخر النازعات (٧٩) عن الساعة (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وفي آيات أخرى أن أهل الموقف يختلفون في هذا التقدير أي بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك

اليوم فانه تعالى قال بعد آية سورة الروم (٥٦ وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث . فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) وفي سورة المؤمنون (٢٣ : ١١٢ قال كم لبثتم في الارض عدد سنين ؟ ١١٣ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين ١١٤ قال إن لبثتم إلا قليلا لو انكم كنتم تعلمون) وفي سورة طه يختلفون بين اليوم والعشر . وقيل إن المعنى انهم يتعارفون بينهم يوم يحشرون كأنهم لم يتفارقوا لقصر مدة الفراق ، وثم أقوال أخرى في التشبيه يبطلها ما أوردنا من الآيات في شواهده

﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ﴾ اي خسروا السعادة الابدية إذ لم يستعدوا لها بالايمان وعمل الصالحات المزكية للنفس، المرقية للروح، بما تكون أهلا لكرامته ومثوبته، ورضوانه الاكبر في جناته، فآثروا عليها حياة الدنيا القصيرة الحقيرة، المنغصة بالأكدار، السريعة الزوال، التي يقدرونها يوم الحشر بساعة من نهار والجملة بيان مستأنف منه تعالى لخسران الذين كذبوا بلقاء الله من أهل مكة وغيرهم، ولذلك

ذكرهم بصفتهم المقتضية له وهي التكذيب وعطف عليه ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ فيما اختاروه لأنفسهم من إيثار الخسيس الفاني ، على النفيس الخالد الباقي، أو هي معطوفة على جملة « قد خسر » أي خسروا تجارتهم وأنفسهم، وما كانوا مهتدين الى أسباب النجاة والربح من الاعمال الصالحة التي هي ثمرات الايمان كما قال (٢ : ١٦ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) وقد تقدم ذكر الذين لا يرجون لقاء الله تعالى في الآيات ٧ و ١١ و ١٥ من هذه السورة، وتقدم ذكر خسرانهم في سورة الانعام (٧ : ٣١)،

---

(٤٦) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٧) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٩) قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا

وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (٥٠) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ (٥١) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ ؟ ءَآلْئَـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥٢) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٣) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ؟ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٤) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٥٥) أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٥٦) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

هذه الآيات تتمة الرد على المشركين في تكذيب مالم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله من العقاب الذي سبق في الآية ٣٩ وما بعدها

﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ هذه جملة شرطية زيدت (ما) في حرف الشرط (إن) ونون التوكيد في فعله فكان توكيده مزدوجا . والمراد بالآية تأكيد وقوع ما وعد الله هؤلاء المشركين من العقاب في الدنيا والآخرة بشرطه فيها لا يتخلف منها شيء في جملتها ، سواء أرى الله النبي ﷺ بعض القسم الاول منه وشاهده ، أم توفاه قبل إراءته إياه . فإبهام الله تعالى إياه للحكمة المقتضية له في أوائل البعثة من جهة قربه أو بعده ، ورؤيته ﷺ له وعدم رؤيته ،

لا يفيدهم شيئا ، وسنبين هذه الحكمة في إبهامه . فالمعنى وإن نرينك أيها الرسول بعض الذي نعدهم من العقاب في الدنيا فذاك — وفيه اشارة الى أنه سيريه بعضه لا كله ﴿ أو نتوفينك ﴾ بقبضك إلينا قبل إراءتك إياه ﴿ فالينا مرجعهم ﴾ وعلينا حسابهم ، حيث يكون القسم الثاني منه وهو عقاب الآخرة ، ويجوز ان يجعل هذا جواب الشرط بقسميه ، والمعنى فالينا وحدنا يرجع أمرهم في الحالين ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ بعدك أو مطلقا فيجزيهم به على علم وشهادة حق ، والمراد أنه لا فائدة لهم مما حكاه تعالى عنهم في تربصهم موت النبي ﷺ واستراحتهم من دعوته ونذره بموته كما تراه في سورة الطور وآخر سورة طه ، فالعذاب واقع ماله من دافع

وقد ورد بمعنى هذه الآية قوله تعالى (٤٠ : ٧٧ فاصبر إن وعد الله حق فاما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فالينا يرجعون) ويليها آية بمعنى الآية التي تلي هذه ذكر فيها الرسل وكون آياتهم باذن الله لا من كسبهم ، والقضاء على أقوامهم بالهلاك بعدها ، ومنها قوله بعد آية في إرسال الرسل وكون آياتهم انما هي باذن الله ولكل أجل كتاب (١٣ : ٤٠ وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وما بعدها في معنى السياق الذي هنا . وقوله (٤٣ : ٤١ فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون ٤٢ أو نرينك الذي وعدناهم فانا عليهم مقتدرون) وقبلها (أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين) وهو بمعنى ما قبل هذه أيضا .

وقد أبهم أمر عذاب الدنيا في كل هذه الآيات وآيات اخرى فلم يصرح بأنه سيقع بهم ما وقع بالأمم التي كذبت الرسل من قبلهم وهو عذاب الاستئصال ولكنه أشار اليه في قوله (٢٣ : ٩٣ قل رب إما تريني ما يوعدون ٩٤ رب فلا تجعلني في القوم الظالمين) أي كما هي سنتك في رسلك الاولين ، وقد أجاب الله دعاءه فقال (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم)

وحكمة هذا الابهام التخويف من جميع أنواع الوعيد مع علمه تعالى ان عذاب الاستئصال لن يقع على قومه ﷺ لان شرطه أن يجيئهم ما اقترحوا من آية كونية

ويصروا بعده التكذيب ولن يقع ، ولكن في آية يونس هذه إشارة الى ان الله تعالى سيري رسوله بعد نزولها بعض الذي يعدهم لا كله ، وقد أنجز له ذلك فأراه ما نزل بهم من القحط والمجاعة بدعائه عليهم ، ونصره عليهم أعظم النصر في أول معركة هاجمه بها رؤساؤهم وصناديدهم وهي غزوة بدر وفي غيرها الى فتح عاصمتهم الكبرى أم القرى واكمال الدين ودخول الناس فيه أفواجا ، وقد تقدم بيان ذلك كله في مواضعه

﴿ ولكل أمة رسول ﴾ أي انه تعالى جعل لكل أمة من الامم الخالية رسولا بعثه فيها في وقت الحاجة اليه يبين لهم أصول دينه الثلاث : الايمان بالله ، واليوم الآخر ، والعمل الصالح المناسب لحال زمنهم ﴿ فاذا جاء رسولهم ﴾ وقامت الحجة عليهم ﴿ قضي بينهم بالقسط ﴾ أي قضى الله بينه وبينهم بالعدل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ في قضائه تعالى كما تقدم وسيأتي تأكيده قريبا .

﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ أي ويقول كفار قريش للنبي ومن اتبعه من المؤمنين : متى يقع هذا الوعد الذي تعدوننا به ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في قولكم ان الله تعالى سينتقم لكم منا وينصركم علينا ، أي في مثل قوله (١٩ : ٧٥ حتى اذا رأوا مايوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جنداً) وقوله (١٩ : ٧٥ حتى اذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً * قل إن أدري أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربي أمداً * عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً) الخ

وههنا لقن الله رسوله ﷺ الجواب بقوله ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعا ﴾ أي اني بشر رسول لا أملك لنفسي فضلا عن غيرها شيئاً من التصرف في الضر فأدفعه عنها ولا النفع فأجلبه لها ، من غير طريق الاسباب التي يقدر غيري عليها ، وليس منها إنزال العذاب بالكفار المعاندين ، ولا هبة النصر للمؤمنين ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ أي لكن ماشاء الله من ذلك كان متى شاء لا شأن لي فيه لأنه خاص بالربوبية دون الرسالة التي وظيفتها التبليغ لا التكوين . هكذا قال جمهور المفسرين ان الاستثناء هنا منقطع وله أمثال تقدم بعضها كقوله تعالى وهو من أظهرها الصريح في هذا

المقام (٧ : ١٨٨ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضراً الا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، إن أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون) والاختلاف بين الآيتين في تقديم ذكر الضر على النفع وتأخيره لاختلاف المقام ، فقد قدم الضر في آية يونس لأنها جواب للمشركين عن ميعاد العذاب الذي أنذروا به ، وهو من الضر ، وقدم النفع في آية الاعراف لان المقام بيان الحقيقة في نفسها ، وهو ان الرسول لا يملك لنفسه شيئا من التصرف في الكون بغير الاسباب العامة فضلا عن ملكه لغيره ، والمناسب في هذا تقديم النفع لأنه هو المقصود بالذات من تصرف الانسان وسعيه لنفسه . وقيل ان الاستثناء متصل وحينئذ يكون المنفي المستثنى منه عاما لما يملكه الانسان بالاسباب العادية فيكون المعنى إلا ماشاء الله تعالى ان أملكه بما أعطاني من الكسب الاختياري مع تيسير أسبابه لي ، وأما الآيات الخارقة للعادة فهي لله وحده ، لاىما يملكه رسله

وقد أجاب سبحانه عن هذا السؤال بقوله ﴿ لكل أمة أجل ﴾ لبقائها وهلاكها علمه الله وقدره لها لا يعلمه ولا يقدر عليه غيره ﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ أي فلا يملك رسولهم من دونه تعالى أن يقدمه ولا أن يؤخره ساعة عن الزمان المقدر له وإن قلّت ، ولا أن يطلب ذلك منه تعالى ، وهو معنى ما تدل عليه السين والتاء في الاصل ــ وقد حققنا معنى هذا النص في آية سورة الاعراف (٧ : ٣٤) بلفظه فاستغرق أربع ورقات من جزء التفسير الثامن فليراجعه من شاء ، إلا أنه قال هنالك (فاذا جاء أجلهم لا يستاخرون) الخ وقال هنا (اذا جاء أجلهم فلا يستاخرون) الخ والفرق بينهما ان ماهنا أبلغ في نفي تاخير الوعيد لانه تفنيد لاستعجالهم به ، وذلك أنه جعل الجملة الشرطية وصفا للأجل مرتبطا به مباشرة لا يتخلف عنه ، وماهنالك إخبار بآجال الامم مبتدأ وما بعده تفريع عليه ، فهو لا يدل على لزومه له بلا مهلة كالذي هنا . وقد تكرر هذا السؤال من المشركين مع جوابه في سور أخرى ، وأشبهه بما هنا سياق سورة النمل وأجيب فيها بقوله

(٢٧ . ٧٢ قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون) وهو من ردفه اذا لحقه وتبعه ، وعدي باللام لتأكيده أو تضمينه معنى يناسبه

وقد بلغ من جهل الخرافيين من المسلمين بتوحيد الله أن مثل هذه النصوص من آيات التوحيد لم تصد الجاهلين به منهم عن دعوى قدرة الانبياء والصالحين حتى الميتين منهم على كل شيء من التصرف في نفعهم وضرهم مما لم يجعله الله تعالى من الكسب المقدور لهم بمقتضى سننه في الاسباب ، بل يعتقدون أن منهم من يتصرفون في الكون كله ، كالذين يسمونهم الاقطاب الاربعة . وان بعض كبار علماء الازهر في هذا العصر يكتب هذا حتى في مجلة الازهر الرسمية (نور الاسلام) فيفتي بجواز دعاء غير الله من الموتى والاستغاثة بهم في كل ما يعجزون عنه من جلب نفع ودفع ضر ، وألف بعضهم كتابا في إثبات ذلك وكون الميتين من الصالحين ينفعون ويضرون بانفسهم ، ويخرجون من قبورهم فيقضون حوائج من يدعونهم ويستغيثون بهم . قال في فتح البيان بعد نقله القول الاول في الاستثناء عن أئمة المفسرين وترجيحه ما نصه :

«وفي هذا أعظم وازع وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيراه المناداة لرسول الله ﷺ أو الاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه. وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ مالا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه ، فان هذا مقام رب العالمين ، الذي خلق الانبياء والصالحين وجميع المخلوقين ، ورزقهم وأحياهم ويميتهم ، فكيف يطلب من نبي من الانبياء أو ملك من الملائكة او صالح من الصالحين ماهو عاجز عنه غير قادر عليه ؟ ويترك الطلب لرب الارباب القادر على كل شيء الخالق الرازق المعطي المانع ؟ وحسبك بما في هذه الآية من موعظة فان هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بان يقول لعباده (لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعا) فكيف يملكه لغيره ؟ وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ومنزلته لا تبلغ الى منزلته لنفسه ، فضلا عن أن يملكه لغيره ؟

«فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الاموات الذين قد صاروا تحت اطباق الثرى ، ويطلبون منهم من الحوائج مالا يقدر عليه إلا الله عز وجل ؟ كيف لا يتيقظون لما

وقعوا فيه من الشرك ، ولا ينتبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا إله الا الله ، ومدلول (قل هو الله أحد) « وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم، ولا يحولون بينهم و بين الرجوع الى الجاهلية الاولى، بل الى ماهو أشد منها . فان أولئك يعترفون بان الله سبحانه هو الخالق الرازق، المحيي المميت ، الضار النافع ،وانما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقربين لهم اليه ، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع، وينادونهم تارة على الاستقلال، وتارة مع ذي الجلال ، وكفاك من شر سماعه ، والله ناصر دينه،ومطهر شريعته من أوضار الشرك وأدناس الكفر . ولقد توسل الشيطان أخزاه الله بهذه الذريعة الى ما تقر به عينه ويثلج به صدره من كفر كثير من هذه الامة المباركة (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) انا لله وانا اليه راجعون » اهـ

﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهاراً ﴾ أي قل لهم أيها الرسول أخبروني عن حالكم وما يمكنكم فعله ان أتاكم عذابه الذي تستعجلون به في وقت مبيتكم في الليل أو وقت اشتغالكم بلهوكم ولعبكم أو أمور معاشكم بالنهار ،وهو لا يعدوهما (كما تقدم في الآيات ٤ و ٩٧ و ٩٨ من سورة الاعراف ٧)

﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ أي شيء أو أي نوع يستعجل منه المجرمون المكذبون الآن؟أعذاب الدنيا أم قيام الساعة؟ أيا ما استعجلوا فهو حماقة وجهالة، وقيل ان المعنى ماذا يستعجل منه المجرمون منكم إن أتاكم،أي ان جملة الاستفهام جواب للشرط فيا قبلها، وفيه بحث للنحاة الذين أوجبوا اقتران مثل هذا الجواب بالفاء وخالفهم غيرهم لا نعرض له ، وقد تقدم في سورة الانعام (٦ : ٤٧ قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟) وتقدم في تفسيرها وتفسير ماقبلها ان الاستفهام في (أرأيتم) و (أرأيتكم) مستعمل في اللغة بمعنى أخبروني عن حالكم وما يكون من عملكم ان أتاكم ذلك ؟

﴿ أثم اذا ماوقع آمنتم به ﴾ قرأ الجمهور (ثم) بالضم وهو حرف عطف يدل على الترتيب والتأخر والتراخي ، وقرىء بالفتح وهو اسم إشارة بمعنى هنالك .

قال ابن جرير الطبري ومعنى قوله (أثم) في هذا الموضع أهنالك؟ وليس «ثم» ههنا التي تأتي بمعنى العطف اهـ ولم يضبطها بفتح الثاء فظاهر قوله ان المضمومة تأتي ظرفا أيضاً وهذا لم يرو عن أحد من العرب، بل قال ابن هشام في المغني وقد نقله عنه: وهذا وهم اشتبه عليه ثم المضمومة الثاء بالمفتوحتها اهـ

وأما على قراءة الجمهور فهذا استفهام آخر معطوف على فعل مقدر بعد الهمزة علم مما قبله من إنكار استعجال مجرميهم بالعذاب، كما يقدر مثله بعد حرف الاستفهام الداخل في مثل قوله (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم ؟) وقوله (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ؟) وتقدير الكلام، أيستعجل بالعذاب مجرموكم الذين هم أحق بالخوف منه بدلا من الايمان الذي يدفعه عنهم وعنكم، ثم اذا وقع بالفعل آمنتم به إذ لا ينفع الايمان، لانه صار ضروريا بالمشاهدة والعيان، لا تصديقا للرسول عليه السلام، وقيل لكم حينئذ من قبل الله تعالى تقريعاً وتوبيخا ﴿ آلآن ﴾ آمنتم به اضطراراً

﴿ وقد كنتم به تستعجلون ﴾ تكذيبا به واستكباراً ؟ وقرأ نافع (آلان) بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام، والجملة حالية، والاستعجال يتضمن المبالغة في التكذيب المقابل للايمان، وسيأتي في هذه السورة إيمان فرعون عند ادراك الغرق إياه وأنه يقال له (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين)

﴿ ثم قيل للذين ظلموا ﴾ (قيل) هذه معطوفة على قيل المقدرة قبل (آلآن وقد كنتم به تستعجلون) أي ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالرسالة والوعد والوعيد، وما يترتب عليه من الفساد والضلال البعيد ﴿ ذوقوا عذاب الخلد ﴾ الخلد كالخلود مصدر خلد الشيء اذا بقي على حالة واحدة لا يتغير، وخلد الشخص في المكان اذا طال مكثه فيه، لا يرحل ولا هو بصدد التحول عنه. وظاهر اضافة العذاب الى الخلد أن المراد به البقاء على حالة واحدة مؤلمة، ويحتمل إرادة العذاب الخالد الدائم وهو الموافق للآيات الكثيرة المطلقة في الاكثر والمقيدة بمشيئة الله تعالى في سورة الانعام (٦:١٢٨) وقد تقدم تفسيرها، وفي سورة هود وسيأتي

﴿ هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾ أي لا تجزون إلا بما كنتم تكسبونه باختياركم من الكفر والظلم والفساد في الارض ، والعزم على الثبات عليه وعدم التحول عنه، وليس فيه شيء من الظلم ، لانه أثر لازم لتدسية النفس وافسادها بالظلم ، حتى لم تعد أهلا لجوار الرب عز وجل وليس عذابا أنفاً من خارجها ، وتقدم بيانه في تفسير قوله تعالى (٦ : ١٣٩ سيجزيهم وصفهم)

﴿ ويستنبؤنك أحق هو ؟ ﴾ النبأ الخبر المهم ذو الفائدة العظيمة والاستنباء طلبه، وهذا إخبار عن بعض الكفار والمكذبين فانهم لم يكونوا على يقين من تكذيبهم وانما كانوا ظانين مستبعدين، بين معاندين ومقلدين، وقد تقدم في هذا السياق قوله تعالى (وما يتبع أكثرهم إلا ظنا) والمعنى ويسألونك أيها الرسول أن تنبئهم عن هذا العذاب الذي تعدهم به في الدنيا والآخرة أحق هو سيقع بالفعل ؟ أم هو إرهاب وتخويف ؟ ﴿ قل إي وربي انه لحق ﴾ إي بكسر الهمزة وسكون الياء الخفيفة حرف جواب وتصديق بمعنى نعم ، وإنما يستعمل مع القسم ، أي نعم أقسم لكم بربي انه لحق واقع ، كما قال في أول سورة الطور بعد القسم (ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع)، فقد أكده هنا بالقسم وبان مع الجملة الاسمية ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ لله تعالى عن إنزاله بكم ، ولا بفائتيه هربا منه ، وقد علم مؤمنوا الجن ما جهلتم إذ قالوا كما حكى الله عنهم (وأنا ظننا ان لن نعجز الله في الارض ولن نعجزه هربا)

وقد استشكل بعض المفسرين السؤال باستبعاد أن يكون الاستفهام حقيقياً من المكذبين ، والجواب بزعمهم ان تأكيده بالقسم وغيره من المؤكدات اللفظية لايقنع السائلين ، ومن عرف أخلاق العرب في زمن البعثة لم يستشكل السؤال إلا أن يكون السائلون من المعاندين للرسول ﷺ فحينئذ يكون الاستفهام للتهكم والاستهزاء، أو كما قيل انما سألوا أهو جد أم هزل ، فأرادوا من الحق لازمه وهو الجد لا مقابل الباطل، والمعروف من أخلاق العرب في ذلك العهد أنه كان يقل فيهم الكذب لعزة أنفسهم ، وعدم خضوعهم لرياسة استبدادية تضطرهم إليه ، وكانوا

يهابون الايمان الباطلة ويخافونها، ومن المنقول عنهم ان الايمان الفاجرة تدع الديار بلاقع ، وناهيك بما اشتهر به النبي صلى الله عليه وسلم منذ صغره من الصدق والامانة حتى لقبوه بالامين ، وقد ثبت في الاحاديث الصحيحة أن بعضهم كان يسأله عن نبوته وعن الشرائع ويستحلفه فاذا حلف اطمأن لصدقه واتبعه ، وإن صدق عرب الجاهلية ليقل مثله في رجال الدين وغيرهم من اهل هذا العصر حتى المسلمين منهم

روى احمد والشيخان وأصحاب السنن الثلاثة واللفظ للبخاري عن أنس قال بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد إذ دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال: أيكم محمد؟ قلنا هذا الرجل الابيض المتكيء فقال: ابنَ عبد المطلب فقال النبي صلى الله عليه وسلم « قد أجبتك » فقال إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك ، قال « سل عما بدا لك » فقال أسألك بربك ورب من قبلك آلله أرسلك الى الناس كلهم؟ قال « اللهم نعم » قال أنشدك بالله آلله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟ قال « اللهم نعم » قال أنشدك بالله آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة ؟ قال « اللهم نعم » قال أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ قال « اللهم نعم » قال آمنت بما جئت به ، وأنا رسول من ورائي قومي ، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر . ولفظ مسلم عنه : قال أنس نهينا في القرآن أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء [1] فكان يعجبنا أن يجيء الرجل العاقل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية فقال يا محمد ، أتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال « صدق » قال فمن خلق السماء ؟ قال « الله » قال فمن خلق الارض ؟ قال « الله » قال فمن نصب هذه الجبال فجعل فيها ما جعل ؟ قال « الله» قال فبالذي خلق السماء وخلق الارض ونصب الجبال آلله أرسلك ؟ قال « نعم » (ثم سأله بالذي أرسله عن كل من الصلوات والزكاة وصيام رمضان والحج

(١) يعني في قوله تعالى (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) أي لئلا تكثر التكاليف عليهم وراجع تفسيرها في أواخر تفسير المائدة من الجزء السادس

فأجاب بنعم) ثم ولى وقال ، والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن ، فقال النبي ﷺ « لئن صدق ليدخلن الجنة »

وزاد الامام احمد انه قال له أيضاً : آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده ولا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الانداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال « اللهم نعم » وأنه كان أشعر ذا غديرتين ، وان النبي ﷺ قال « إن صدق ذو العقيصتين يدخل الجنة » وذكر أنه خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ماتكلم به أن قال بئست اللات والعزى ، قالوا مَهْ ياضمام ، اتق البرص والجذام ، اتق الجنون قال ويلكم انهما والله مايضران ولا ينفعان ، إن الله تعالى قد بعث إليكم رسولا وأنزل كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ، واني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد ان محمداً عبده ورسوله ، قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ، فوالله ما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما

وأقول ان فائدة السؤال عن خلق السموات والارض والجبال وما فيها ثم ذكره في القسم ان استحضار ذلك فيه يكون أحرى أن يلتزم في الجواب الصدق وتعظيم القسم والخوف من عاقبة الحنث ، وقد خفي هذا كله على المفسرين لانهم اعتادوا إثبات العقائد الدينية بالادلة النظرية الجدلية التي وضعت للجاحدين المجادلين بالباطل ، وجهل هذه الحقائق أعداء الاسلام من الافرنج ولا سيما السياسيين رجال الكنيسة الكاثوليكية ودعاة التنصير البروتستنتي المطبوعين على الكذب والكسب به والاخذ بقول رؤسائهم « ان الغاية تبرر الواسطة » يعنون أن اقتراف الكذب وسائر الرذائل لاجل مصلحة الكنيسة فضيلة — جهل هؤلاء أن عباد الاصنام في الجاهلية كانوا أشد منهم احتراما للصدق — فضلا عن الاسلام وكتابه ونبيه ، فأباحوا لأنفسهم من افتراء الكذب على الله ، وكتابه وخاتم رسله ، ما لم يخطر مثله في بال الشيطان قبلهم فيوسوس به لغيرهم

لقد كذبوا على الاسلام كذبا ‌ ‌ ‌ تزول الشم منه مزلزلات

اما المسلمون فان الله يقول في كتابه (١٦ : ١٥ انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله واولئك هم الكاذبون) والنبي ﷺ يقول في هديه « يطبع

المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والـكذب » رواه البيهقي في شعب الايمان عن ابن عمرو رضي الله عنهما

﴿ ولو أن لـكل نفس ظلمت مافي الارض لافتدت به ﴾ أي لو أن لـكل نفس تلبست بهذا الظلم جميع مافي الارض من أنواع الملك والزينة وصنوف النعيم وأمكنها أن تفتدي به أي تجعله فداءلها من ذلك العذاب الذي قيل لهم ذو قوة ينقذها منه بذلها له ، لافتدت به كله لا تدخر منه شيئا ﴿ وأسروا الندامة ﴾ إسرار الشيء إخفاؤه وكتمانه ، وإسرار الحديث والـكلام خفض الصوت به ، فهو ضد اعلانه والجهر به ومنه (وأسروا قولـكم أو اجهروا به ، إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون) واستعمل بمعنى الجهر مطلقا فهو ضد وأنكره بعضهم ، والندم والندامة ما يجده الانسان في نفسه من الالم والحسرة عقب كل فعل يظهر له ضرره ، وقد يجهر به بالـكلام كقوله « ياحسرتا على ما فرطت » أو بالتوبة والاستغفار ، وقد يخفيه ويكتمه لعدم الفائدة من اعلانه أو اتقاء للشماتة او الاهانة به ، أي وأسر أولئك الذين ظلموا ندامتهم وحسرتهم فيما بينهم وبين ربهم أو كتموها في قلوبهم ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أي رأوا مباديه عيانا بأبصارهم لما برزت الجحيم وأيقنوا أنهم مواقعوها لامصرف لهم عنها ، وقد يعبر برؤيته عن وقوعه والظاهر الاول لقوله ﴿ وقضي بينهم بالقسط ﴾ أي وقضى الله بينهم وبين خصومهم بالعدل والحق ، فاذا أريد بالظلم الـكفر والتكذيب ومايلزمه من الايذاء فخصومهم الرسل والمؤمنون بهم ، وكذا من أضلوهم وظلموهم من المرءوسين والضعفاء الذين كانوا يغرونهم بالـكفر ويصدونهم عن الايمان وهو ظاهر السياق هنا وفي سورة سبأ بعد حكاية مجادلة الظالمين والمظلومين يوم القيامة (٣٤: ٣٣ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال في أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) وإن أريد بالظلم مايعم ظلمهم للناس في الاحكام وهضم الحقوق كان كل مظلوم خصما لظالمه

﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يظلمهم الله كما ظلموا أنفسهم وظلموا أتباعهم ومقلديهم، بل هم الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم . والآيات في ندم الظالمين يوم القيامة

معروفة كقوله في آخر سورة النبأ (٧٨ انا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) وقوله (٢٥ : ٢٧ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ٢٨ ياويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا) وغير ذلك

ثم قفى على ذلك بالدليل على قدرته على انفاذ حكمه وانجاز وعده وكون هؤلاء الظالمين لايعجزونه ، ولا يستطيعون الافتداء من عذابه، فقال ﴿ ألا إن لله مافي السموات والارض ﴾ قلنا مراراً ان السموات والارض عبارة عن جميع العالم ، وهو تعالى مالك السموات والارض وملكهما ،وله كل من فيهما من العقلاء، وما فيهما من غير العقلاء ، وقد نطقت الآيات بهذا كله ولكل مقام مقال ، فهنا غلب غير العقلاء بمناسبة مافي الآية السابقة من الاشارة الى غرور الكافرين والظالمين بما كانوا يتمتعون به ، وتعذر الافتداء بشيء منه ، وسيأتي تغليب العقلاء في الآية ٦٦ من هذه السورة لاقتضاء المناسبة له . وصدر الجملة بحرف التنبيه « ألا » الذي يفتتح به الكلام لتنبيه الغافلين عن هذه الحقيقة وإن كانوا يعرفونها لكثرة ذهول الناس عن تذكر امثالها، والمعنى ليتذكر الناسي وليتنبه الغافل وليعلم الجاهل ان لله وحده مافي العوالم العلوية وعالم الارض يتصرف فيها حيث يشاء ، فيعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء ، ولا يملك أحد من دونه شيئاً من التصرف والفداء ،في يوم البعث والجزاء ﴿ ألا ان وعد الله حق ﴾ أعاد فيه حرف التنبيه تأكيداً وتذكيراً لتمييزه بهذا التنبيه عما سبقه لانه المقصود هنا بذاته وانما ذكر قبله للاستدلال عليه ، أي كل ماوعد به على لسان رسله حق واقع لاريب فيه ، لأنه وعد المالك القادر على انجاز ما وعد لايعجزه منه شيء ﴿ ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾ يعني بأكثرهم الكفار منكري البعث والجزاء ، أي لايعلمون أمر الآخرة لامن طريق النظر والاستدلال ،ولا من طريق الايمان بما جاء به الرسل عليهم السلام

﴿ هو يحيي ويميت ﴾ بقدرته كما يدل عليه النظر والاستدلال وقد بسطناه

في تفسير الآيتين ٣١ و ٣٤ ﴿ واليه ترجعون ﴾ عندما يحييكم بعد موتكم ويحشركم ليحاسبكم ويجزيكم باعمالكم فهذه الآية بيان مستأنف لما قبله بالايجاز ، وجملة هذه الآيات خاتمة هذا السياق .

(٥٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٨) قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ

هاتان الآيتان في موضوع تشريع القرآن العملي التهذيبي جاء بعد بيان عقائده الثلاث (التوحيد والرساله والبعث) وتأييدها بالاستدلال على كونه من الله تعالى ، وعلى صدق وعده ووعيده ، والرد على مكذبيه ، وقد اجمل في الآية الاولى جميع مقاصد هذا التشريع واصلاحه للناس بما يظهر به للعاقل انه حق وخير وصلاح بذاته لا يصح لعاقل ان يماري فيه ، ولا ان يحتاج للاستدلال عليه فقال

﴿ ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ أي قد جاءكم كتاب جامع لكل ما تحتاجون اليه من موعظة حسنة لاصلاح أخلاقكم وأعمالكم الظاهرة ، وحكمة بالغة لاصلاح خفايا أنفسكم وشفاء أمراضها الباطنة ، وهداية واضحة للصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، ورحمة خاصة للمؤمنين ، هي شجنة من رحمة رب العالمين ، العامة للخلق أجمعين ، يتراحمون بها فيما بينهم ، فيكمل بها رحمته تعالى لهم ، ورحمته للعالمين برسوله اليهم وبهم ، وقد عرف هذا من تاريخهم أشهر فلاسفة التاريخ من الافرنج [1] فقال « ماعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » فكأن الله تعالى يقول للناس ، بعد بيان هذه المقاصد الاربعة للقرآن . فما بالكم أيها الناس تكذبون بما لم تحيطوا به علما من أخبار هذا الكتاب ، التي هي من علم الغيب عن المآل والمآب ، ولا تفكرون .

(١) هو الحكيم الاجتماعي المؤرخ الدكتور غوستاف لوبون الفرنسي

في آدابه ومواعظه، وأحكامه وحكمه، وهداية نواميسه وسننه، وما فيها من المنافع والمصالح، التي لا يماري فيها عالم ولا يكابر فيها عاقل؟ حتى ان أشد أعداء الرسول إيذاء له وصدا عن دعوته في أول ظهورها لم يستطيعوا الطعن على مادعا اليه من الفضائل والخير والبر، وما نهى عنه من الرذائل والشرور والفجور، كأبي سفيان عند ماسأله هرقل قيصر الروم، وعمرو بن العاص عند ماسأله أصحمة نجاشي الحبشة، فان كان ذلك قد خفي على بعض الجاحدين والمقلدين لهم من المشركين قبل تعميم نشر القرآن فيهم، وقبل ظهور ما كان له من التأثير العظيم بعد انتشار الاسلام في العرب، ومن الاصلاح الديني والمدني في شعوب العجم، أفليس من العجب العجاب أن يماري به أحد بعد ذلك ويصدق ما يفتريه عليه دعاة الكنيسة ورجال السياسة من الافرنج وتلاميذهم وهم أكذب البشر؟

أجملت الآية الحكيمة هذا الاصلاح القرآني لأنفس البشر في أربع قضايا أو مسائل فكرن في اللفظ لتعظيم أمرهن، أو لبيان انهن نوع خاص لم يعهد الناس مثلهن، في كمالهن المعنوي وبيانهن اللفظي، وقوله (من ربكم) للتذكير بما يزيدها تعظيما، ووجوب الاتعاظ بها إيمانا وتسليما، لأنها من مالك أمر الناس ومربيهم بفضله ورحمته، وعلمه وحكمته

(الاولى الموعظة الحسنة) وهي اسم من الوعظ أي الوصية بالحق والخير، واجتناب الباطل والشر، بأساليب الترغيب والترهيب التي يرق لها القلب، فتبعث على الفعل والترك، وقد تقدم في حقوق النساء من سورة البقرة (٢ : ١٣١ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به) الآية، وفي التي بعدها (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر، ذلكم أزكى لكم وأطهر، والله يعلم وأنتم لاتعلمون) وتقدم في سورة آل عمران بعد النهي عن أكل الربا والامر بطاعة الله ورسوله والترغيب في الانفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس، وما أعده الله على ذلك من الجزاء (٣ : ١٣٦ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) ويليه الكلام في الجهاد وغزوة أحد، وفي سورة

النساء (٤ : ٥٨ إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ان الله نعما يعظكم به) الآية ، وتقدم غير ذلك من أمثلة الوعظ وسيأتي غيره مما يفسر مراده تعالى من موعظته الربانية ، فهل يمكن أن يتمارى عاقلان في حسنها ومنفعتها للعباد في أعمالهم وأحكامهم ؟ كلا انها مما يتوقف عليه صلاح العباد في كل زمان ومكان

(الثانية شفاء ما في الصدور) أي شفاء جميع ما في القلوب من أدواء الشرك والكفر والنفاق ، وسائر الامراض النفسية التي يشعر صاحبها ذو الضمير الحي بضيق الصدر ، من شك في الايمان ، ومخالفة للوجدان ، واضمار للحقد والحسد والبغي والعدوان ، وحب للباطل والظلم والشر ، وبغض للحق والعدل والخير

قال الراغب: قال بعض الحكماء حيثما ذكر الله القلب فإشارة إلى العقل والعلم نحو (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) وحيثما ذكر الصدر فاشارة الى ذلك وإلى سائر القوى من الشهوة والهوى والغضب ونحوها ، وقوله (رب اشرح لي صدري) فسؤال لإصلاح قواه ، وكذلك قوله (ويشف صدور قوم مؤمنين) اشارة الى اشتفائهم . وقوله (فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) أي العقول التي هي مندسة فيما بين سائر القوى وليست مهتدية والله أعلم بذلك اهـ والتحقيق أن الصدر يطلق مجازاً على القلب الحسي الذي فيه وعلاقته ظاهرة وعلى القلب المعنوي الذي هو للنفس كالقلب الحسي للبدن لانه لبها ، ومركز شعور مداركها وانفعالاتها ، دون الدماغ فان النفس لا تشعر بما ينطبع فيه من المدركات من انشراح وبسط ، ولا حرج وضيق وقبض ، فجميع الادراكات العلمية والوجدانية توصف بها القلوب حقيقة والصدور مجازاً ، وتكون فاعلة ومفعولة وصفات للأفعال العاملة فيهما . وأما العقل في اللغة فهو الحكم الصحيح في بعض الادراكات ولوازمها من حسن وقبح وصلاح وفساد ، ونفع وضر ، ومركزه الدماغ قطعاً . فأمراض الصدور والقلوب تشمل الجهل وسوء الظن ، والشك في الايمان ، والنفاق ، والحقد والضغن والحسد ، وسوء النية وخبث الطوية ، وفساد السريرة ، وغير ذلك مما تقدم آنفا ، والشواهد على هذا في القرآن كثيرة

وذهب بعضهم إلى أن الشفاء في الآية يشمل شفاء الامراض البدنية واستدلوا بما أخرجه ابن المنذر وابن مردويه عن ابي سعيد الخدري (رض) قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال إني أشتكي صدري فقال « اقرأ القرآن يقول الله (شفاء لما في الصدور) وفيه أن ضيق الصدر في الغالب ألم نفسي لابدني قد يكون سببه دينياً وقد يكون دنيويا كالخوف والحاجة ، وقراءة المؤمن للقرآن تنفع في كل منهما ومن الاول قوله (٦ : ١٢٥ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعّد في السماء) وقوله في آخر سورة الحجر (١٥ : ٩٧ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) والتسبيح بحمد الله والسجود له وعبادته بالصلاة وتلاوة القرآن أعظم أسباب انشراح الصدر ، كما قال ٣٩ . ٢٢ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) الآية

واستدلوا أيضاً بما أخرجه البيهقي في شعب الايمان عن واثلة بن الاسقع (رض) أن رجلا شكا إلى النبي ﷺ وجع حلقه قال « عليك بقراءة القرآن والعسل ، فالقرآن شفاء لما في الصدور ، والعسل شفاء من كل داء » وهو على ضعفه لا يدل على ماقيل إذ معناه اقرأ القرآن ، تعلم منه مايفيدك ، إذ فيه أن القرآن شفاء لامراض الصدور ، والعسل شفاء لأمراض البدن ، فهو كوصفه ﷺ العسل لمن شكا له استطلاق بطن ابن أخيه في الحديث الصحيح . وقد ثبت في الطب الحديث أن العسل مطهر طبي ومضاد للفساد ، واستطلاق البطن يكون من فساد في الامعاء ، وكذا وجع الحلق بالتهاب اللوزتين ونحوه ، والعسل مطهر لكل منهما ، وقد روى أبو الشيخ عن الحسن البصري أنه قال : ان الله تعالى جعل القرآن شفاء لما في الصدور ولم يجعله شفاء لأمراضكم . وقال بعض المفسرين ان تنكير الشفاء في آية العسل يدل على الخصوص لا العموم . على أن الرقية بالفاتحة وغيرها قد تفيد في شفاء بعض الامراض ولا سيما اذا كان الراقي قوي الايمان والمرقي حسن الاعتقاد ، وليس هذا مما تدل عليه الآية

(الثالثة الهدى) وهو بيان الحق المنقذ من الضلال في الاعتقاد بالبرهان ،

وفي العمل ببيان الحكم والمصالح في أحكام الاعمال ، وهو ما فصلناه تفصيلا في هذا التفسير وبينا أنواعه في مقاصد القرآن من مباحث الوحي في أول تفسير هذه السورة بأنواعها الدينية والعقلية والاجتماعية ، وتقدم الكلام على معناه اللغوي وانواعه في تفسير الفاتحة وأول سورة البقرة.

(الرابعة الرحمة للمؤمنين) وهي ماتثمره لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم من رحمة ربهم الخاصة وهي صفة كمال من آثارها اغاثة الملهوف، وبذل المعروف، وكف الظلم، ومنع التعدي والبغي ، وغير ذلك من أعمال الخير والبر ، ومقاومة الشر ، وقد وصف الله المؤمنين بقوله (رحماء بينهم) وبقوله (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة)

وهذه الصفات الاربع مرتبة على سنة الفطرة البشرية فالموعظة التعاليم التي تشعر النفس بنقصها وخطر أمراضها الاعتقادية والخلقية، وتزعجها إلى مداواتها وطلب الشفاء منها ، والشفاء تخلية يتبعها طلب التحلية بالصحة الكاملة ، والعافية التامة ، وهو الهدى ، ومن ثمراته هذه الرحمة التي لاتوجد على كمالها إلا في المؤمنين المهتدين ، ولايحرمها إلا الكافرون الماديون ، حتى قال بعضهم إنها ضعف في القلب ، يجعل صاحبه كالمضطر إلى الاحسان والعطف ، وما هذا القول إلا من فساد الفطرة ، وقسوة القلب وفلسفة الكفر ، فلقد كان أشجع الناس وأقواهم بدنا وقلبا ، أرحم الناس وأشدهم عطفاً ، وهو سيد ولد آدم محمد رسول الله وخاتم النبيين، الذي وصفه ربه بما وصف به نفسه من قوله (بالمؤمنين رؤف رحيم) بل جعله عين الرحمة في قوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وكذلك كان أصحابه (رض) حتى كان من يوصف بالشدة والقسوة كعمر بن الخطاب [رض] صار من أرحم الناس وسيرته في ذلك معروفة

وقد قال ﷺ « لاتنزع الرحمة الا من شقي » رواه ابو داود والترمذي واللفظ له عن ابي هريرة (رض) وقد صح عنه ﷺ انه كان اذا سمع وهو في الصلاة بكاء طفل تجوز في صلاته ، اي اختصر وخفف رحمة به وبأمه، وروى ابن اسحاق ان بلالا [رض] مرّ بصفية وبابنة عم لها على قتلى قومها اليهود بعد انتهاء غزوة قريظة فصكت ابنة عمها وجهها وحثت عليه التراب وهي تصيح وتبكي فقال ﷺ له « أنزعت الرحمة من قلبك حتى مررت بالمرأتين على قتلاهما » وجاء اعرابي

إليه ﷺ فقال انكم تقبلون أولادكم وما نقبلهم فقال « أو املك لك ان نزع الله الرحمة من قلبك » رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة [رض]

بل كان ﷺ شديد الرحمة بالبهائم والطير والحشرات وطالما أوصى بها ولا سيما صغارها وامهاتها . جاءه مرة رجل وعليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه فقال يارسول الله اني لما رأيتك أقبلت فمررت بغيطة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن في كسائي فجاءت امهن فاستدارت على رأسي وكشفت لها عنهن فوقعت عليهن فلففتها معهن بكسائي فهن أولاء معي، فقال « ضعهن » (قال) ففعلت فأبت أمهن إلا لزومهن فقال ﷺ « أتعجبون لرحمة ام الافراخ بفراخها ؟ قالوا نعم ، قال « والذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الافراخ بفراخها ، ارجع بهن حتى تضعهن حيث أخذتهن ، وأمهن معهن » فرجع بهن . رواه ابو داود عن ابي هريرة [رض] وروى مالك والبخاري ومسلم وابو داود من حديثه مرفوعا حديثين خلاصتهما ان الله غفر لرجل ولا مرأة بغي لان كلا منهما رأى كلبا قد اشتد به العطش فرحمه واخرج له الماء من البئر بخفه فسقاه . قالوا له يارسول الله إن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال « في كل كبد رطبة أجر » ورواه مالك واحمد عن غيره بلفظ « في كل ذات كبد حرّى أجر » .

وقال ﷺ « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » رواه الترمذي وابو داود من حديث عبد الله بن عمرو [رض] ورويناه مسلسلا بالاولية من طريق أستاذنا الشيخ محمد أبي المحاسن القاوقجي . وقال ﷺ « ان لله مائة رحمة انزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام ، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحوش على ولدها » وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة » ـ وفي رواية ـ ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل ماعند الله من العذاب لم يأمن من النار » رواه البخاري ومسلم والترمذي ، والله تعالى يقول (١٥، ٤٥ نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ، وان عذابي هو العذاب الاليم) ويقول (انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون) ويقول (٧:٩٨ أفأمنوا مكر الله؟ فلا

يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) وما دام المؤمن حياً فالواجب عليه أن يخاف الله خوفاً يرهبه ويزجره عن معاصيه، وأن يرجوه رجاء يرغبه في ثوابه وما يرضيه، وما عند الله مجهول لنا ، وما أحسن قول ابي الحسن الشاذلي قدس الله سره « وقد أبهمت الامر علينا لنرجو ونخاف ، فآمن من خوفنا ، ولا تخيب رجاءنا » اللهم آمين

خاطب الله تعالى بما تقدم كله أمة الدعوة المحمدية وهم جميع الناس فموعظة القرآن وما فيه من شفاء من أمراض الكفر والنفاق والرذائل ، وهداه الى الحق والفضائل موجهات الى الجميع ، وخص المؤمنين بما تثمره الثلاث من الرحمة لانهم هم الذين ينتفعون بها ، ثم خاطب رسوله ﷺ بأن يبلغ هؤلاء المؤمنين أنه يحق لهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم بنعمة الايمان والاسلام وبهذه الرحمة الخاصة بهم لاستجماعهم كل ما ذكر قبلها من مقاصد تشريعه فقال :

﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ فضل الله على جميع عباده عظيم وهو على المؤمنين منهم أعظم ، ورحمته العامة لهم وبهم واسعة ، ورحمته الخاصة بالمؤمنين أوسع ، وبكل من النوعين نطق القرآن ، وقد من تعالى عليهم بالجمع لهم بين الفضل والرحمة في آيات، وبكل منهما في آيات، وقال بعد الجمع بينهما في آيتين من سورة النور (٢٤ . ٢١ ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكا منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم) وان دخول الباء على كل من الفضل والرحمة هنا يدل على استقلال كل منهما بالفرح به ، فهو يرد ماروي عن مجاهد من ان المراد بهما واحد وهو القرآن ، ويرده أيضاً ماروي من المأثور في تفسير كل منهما بمعنى ، ومنه ماروواه أبو الشيخ وابن مردويه من حديث أنس مرفوعاً « فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله » وروي عن البراء وابي سعيد الخدري موقوفاً . وعن ابن عباس روايتان (احداهما) ان فضل الله القرآن ورحمته الاسلام (والثانية) ان الفضل العلم والرحمة محمد ﷺ وعن الحسن والضحاك وقتادة ومجاهد في الرواية الثانية عنه، فضل الله الايمان ورحمته القرآن ، وكل هذه المعاني صحيحة في نفسها لا في روايتها. وأظهرها في الآية وهو المناسب لما قبلها ، والجامع لمعاني الروايات كلها، ان فضل الله توفيقه إياهم لتزكية أنفسهم بالموعظة

والشفاء والهدى التي امتاز بها القرآن ، ورحمته ثمرتها التي فضلوا بها جميع الناس فكانوا أرحمهم ، بعد أن كانوا أعدلهم وأبرهم بهم ، فقد أمرهم هذا القرآن بالبر والعدل واقامة القسط في المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، وأمرهم بالرحمة حتى في المحاربين لهم بقدر مايدفع شرهم كما فصلناه في المقصد الثامن من مقاصد القرآن في مباحث الوحي ، ولولا مراعاة هذا التناسب لقلت أن المراد بفضله تعالى على هذه الامة هو قوله تعالى (٢. ١٤٣ وكذلك جعلناكم أمة وسطا) الآية ، وقوله (٣. ١١٠ كنتم خير أمة أخرجت للناس) الآية ولكن ما قلته يدخل في معناه ويوافقه ولكل مقام مقال

والفرح كالسرور انفعال نفسي بنعمة حسية أو معنوية يلذ القلب ويشرح الصدر ، وضدهما الاسى والحزن ، وهما من الوجدان الطبيعي لا يمدحان ولا يذمان لذاتهما ، بل حكمهما حكم سببهما أو أثرهما في النفس والعمل ، خلافا لبعض الناس من الصوفية وغيرهم فيهما ، فقد أمر الله تعالى هنا بالفرح بفضله ورحمته ، ومدح المؤمنين بالفرح في قوله (٣٠: ٤ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) وهذا فرح بأمر ديني دنيوي ثم قال فيها (٣٦ واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) وقال في أهل الكتاب الذين يؤمنون به ﷺ ويهتدون بالقرآن (١٣ : ٣٦ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) الآية .

وذم سبحانه الفرح بالباطل وفرح البطر والغرور بالمال ومتاع الدنيا وشهواتها في عدة آيات معروفة . وجعل الاعتدال بين الفرح والاسى والحزن من صفات المؤمنين فقال بعد ذكر تربيتهم بالمصائب المقدرة في كتاب الله (٥٧: ٢٣ لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم. والله لايحب كل مختال فخور)وتقدم تحقيق الكلام في الحزن في تفسير سورة براءة (١٠: ٤٠ ٢٤٠ ص ٤٢٦ ج ١٠ تفسير)

والتعبير في الآية في غاية البلاغة لما فيها من التأكيد والمبالغة في التقرير ، فان أصل المعنى بدونهما : قل ليفرحوا بفضل الله وبرحمته ، فأخر الامر وقدم عليه متعلقه لافادة الاختصاص كأنه قال إن كان في الدنيا شيء يستحق أن يفرح به فهو فضل الله ورحمته ، وأدخل عليه الفاء لافادة معنى السببية فصار فبهما فليفرحوا دون

مايجمعون من متاع الدنيا المبين في آخر الآية، ثم ادخل على الامر (فبذلك) لزيادة التأكيد والتقرير ، وتفصيل مباحثه في الاعراب أكثر مما قلنا ، وبسطه يشغل عن المعنى والاعتبار به ، وهو خروج عن منهجنا في هذا التفسير

ثم قال ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ اي ان الفرح بفضله وبرحمته أفضل وأنفع لهم مما يجمعونه من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث وسائر متاع الحياة الدنيا ، مع تقدمهما، لا لأنه سبب سعادة الآخرة الباقية ، المفضلة على الحياة الدنيا الفانية ، كما اشتهر فيما خطته الاقلام ولاكته الالسنة ، بل لانه هو الذى يجمع بين سعادة الدارين كما حصل بالفعل ، إذ كانت هداية الاسلام بفضل الله ورحمته سببا لما ناله المسلمون في العصور الاولى من الملك الواسع ، والمال الكثير ، مع الصلاح والاصلاح ، والعدل والاحسان ، والعلم والعرفان ، والعز الكبير ، فلما صار جمع المال ومتاع الدنيا وفرح البطر به هو المقصود لهم بالذات ، وتركوا هداية الدين في انفاقه والشكر عليه ، ذهبت دنياهم من أيديهم إلى أيدي أعدائهم كما شرحناه مراراً

(٥٩) قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا، قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ (٦٠) وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ؟ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

هاتان الآيتان في إقامة الحجة على منكري الوحي من المشركين بفعل من أفعالهم لاينكرونه ولا يجادلون فيه ، تعزيزاً لما تقدم من أنواع الحجج العقلية على إثباته ، ودفع شبهاتهم عليه ، وهذه الحجة مبنية على قاعدة كون التشريع العملي في التحريم والتحليل هو حق الله تعالى وحده، وقاعدة كون الاصل في الارزاق وسائر الاشياء التي ينتفع بها الخلق الإباحة ، وقاعدة كون انتحال العبيد حق التشريع

الخاص بربهم افتراء عليه وكفراً به، يستحق فاعلوه أشد عقابه، وهو يتضمن الشهادة على صدق رسوله ﷺ في كونه مبلغاً لهذا القرآن عنه تعالى، مؤكداً لما تقدم من الحجج على صدقه، وعلى كون القرآن كلام الله المعجز لجميع خلقه. قال عز وجل لنبيه ﷺ ﴿ قل أرأيتم ﴾ أي أخبروني أيها الجاحدون للوحي والتشريع الالهي ﴿ ما أنزل الله لكم من رزق ﴾ أي هذا الذي أفاضه الله عليكم من سماء فضله وإحسانه من رزق تعيشون به من نبات وحيوان، وكل عطاء منه تعالى يعبر عنه بالانزال كقوله (٣٩: ٦ وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج) وقوله (٥٧: ٢٥ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) - ﴿ فجعلتم منه حراما وحلالا ﴾ أي فترتب على انزاله لمنفعتكم ان جعلتم بعضه حراما وبعضه حلالا. وقد تقدم تفصيل هذا في سورة الانعام من قوله تعالى (٦: ١٣٦ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا - إلى قوله - ١٥٠ قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا) الآيات (١) وفي معناها قوله من سورة المائدة (٥: ١٠٣ ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) أي يفترون عليه بتحريم مالم يحرمه (٢) وقال هنا وهو المراد من الاستخبار ﴿ قل آلله أذن لكم ﴾ هذا الاستفهام للتقرير ومدت همزته لدخولها على الف اسم الجلالة. اي انه ليس لأحد حق أن يحرم على الناس ويحل لهم إلا ربهم الله، فهل الله هو الذي أذن لكم بذلك بوحي أنزله إليكم؟ ﴿ أم على الله تفترون ﴾ بزعمكم انه حرمها عليكم؟ أي لا مندوحة لكم عن الاقرار بأحد الامرين: إما دعوى الاذن من الله لكم بالتحليل والتحريم، وهو اعتراف بالوحي وأنتم تنكرونه وتلحون وتلجون في الانكار، وتزعمون انه محال عليه تعالى أن يوحي إلي احد من الناس، وإما الافتراء على الله؟ وهو الذي يلزمكم بانكار الاول إذ لا واسطة بينهما، ويحتمل أن يكون الاستفهام للانكار وأم متصلة،

(١) راجع تفسيرها في ص ١٢٢ ج ٨ تفسير

(٢) راجع تفسيرها في ص ٢٠٢ ج ٧ تفسير

فيكون المعنى ان الله لم يأذن لكم بل أنتم تفترون على الله تعالى، والغاية واحدة، وأصل الفري قطع الجلد لمصلحة والافتراء تكلفه وغلب في تعمد الكذب

قال الكرخي في هذا الاستفهام: وكفى به زاجرا لمن أفتى بغير إتقان، كبعض فقهاء هذا الزمان، وقال العماد ابن كثير في تفسيره: وقد أنكر الله على من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والاهواء التي لا مستند لها، ولا دليل عليها اه ونحن نقول: وكفى به زاجراً لمن يحرمون على الناس ما لم يحرمه الله تعالى بنص كتابه كالتحريم بالرأي والقياس، أو بدليل ظني من الكتاب والحديث غير قطعي الرواية والدلالة، وهو مخالف لهذه الآية وأمثالها، والمروي عن السلف ان التحريم لا يكون إلا بنص قطعي، وهو أصل مذهب الحنفية والكرخي منهم، وقد تقدم بيان هذا مراراً في هذا التفسير ومنه قول القاضي أبي يوسف لم يكونوا يقولون في شيء انه حرام إلا ما كان بيناً في كتاب الله بلا تفسير (١)

وفي هذه الآية قواعد أشرنا إلى ثلاث منها (القاعدة الاولى) ان الاصل في كل ما خلقه الله تعالى للناس من الارزاق نباتها وحيوانها الاباحة، وهو يتضمن بطلان قول من يحرمون أكل اللحوم، ولهم على هذا شبهتان أولاهما قديمة وهي زعمهم ان أكل لحم الحيوان يتوقف على تذكيته بالذبح وغيره وهو تعذيب مستقبح عقلا، وجوابه ان هذا القول جهل فان التذكية الشرعية ليست تعذيباً وربما كانت أهون من موته بسبب آخر من أسباب الموت كافتراس سبع أو ترد من مكان عال، أو انخناق بين شجرتين مثلا، أو نطاح، أو وقذ راع قاس أو معتد آخر (٢) وقد حرم الله في آية المائدة (٥:٣) أكل ما مات بسبب من هذه الاسباب كالذي يموت حتف أنفه. ونهى الشرع عن تعذيب أي ذي روح وحث على رحمته كما تقدم قريباً في تفسير الرحمة (ص ٤٠٤) وقال نبي الرحمة ﷺ « ان الله كتب الاحسان على كل شيء فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة، واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته » رواه مسلم من حديث شداد بن ثابت (رض) والذبح بهذه الصفة لا يؤلم

(١) راجع صفحة ٣٧١ ج ١٠ تفسير (٢) الوقذ الضرب الشديد بالعصا وغيرها.

الحيوان إلا لحظة قصيرة ، والحيوانات لاتشعر بالالم بقدر ما يشعر به البشر كما قرره بعض علماء هذا الشأن

(الشبهة الثانية) حادثة وهي مازعمه النباتيون الذين يفضلون الاغذية النباتية على الحيوانية من كون أكل اللحوم ضارا للناس، وجوابنا عنها أنهم إن زعموا ان أكل اللحم يضر كل آكل منهم مطلقا فهذا زعم تبطله التجارب وينكره أكثر أطباء العالم، وإن قالوا انه يضر بعضهم كأصحاب أمراض الترف وضعف المعدة (كالرثية والنقرس) فهذا لايقتضي تحريمه عليهم كلهم بالاطلاق . وحكم الشرع في المضار الحظر ومنه عام وخاص

(القاعدة الثانية والثالثة) أن تشريع التحريم والتحليل الديني هو حق الله تعالى وحده ، وأن جعله لغيره شرك به ، وقد بسطنا هذا في مواضع من هذا التفسير بدلالة الآيات والسنة والآثار(١)

(القاعدة الرابعة) ان ماخلقه الله وسخره لنا من سائر منافع الكون فالاصل فيه الاباحة كالرزق ويؤخذ من هذه الآية بالفحوى، وبناء المنة فيه على كونه منه تعالى، وهو صريح قوله (٢٩:٢ هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعا)

﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ سجل عليهم جريمة افتراء الكذب على الله وهو اختلاقه، وقفى عليه بالوعيد عليه مشيراً إلى مايكون من سوء حالهم وشدة عقابهم يوم القيامة . والمعنى أي شيء ظنهم في ذلك اليوم الذي تجزى فيه كل نفس ماعملت؟ أيظنون انهم يتركون بغير عقاب على جريمة افتراء الكذب على الله وهو تعمده في حق خاص بربوبيته، فهو نزاع له فيها وشرك به، كما قال (٤٢ : ٢١ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) الآية . فويل للمعممين من جهلاء المقلدين ، الذين يحرمون على الناس ويحلون لهم بتقليد بعض المؤلفين ، أو باتباع الهوى والرأي في الدين ، وهم يتلون قوله (١٦ : ١١٦ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب — إلى قوله — ولهم عذاب أليم)

---

(١) راجع ص ٣٦٤ — ٣٨٢ ج ١٠ تفسير

﴿ ان الله لذو فضل على الناس ﴾ هذه الآية بيان مستأنف يتضمن بمفهومه تعليلا لما فهم مما قبلها من عقاب المفترين على الله بكونه عدلا استحقوه بظلمهم لانفسهم لا ظلما منه ، وهو اثبات فضله على الناس بهذه الجملة المؤكدة أشد التوكيد ، فأفاد ان صاحب هذا الفضل العظيم عليهم لمجرد احسانه اليهم ، ليس من شأنه أن يكون ظالما لهم اذا قابلوا أكبر فضله ونعمه ، بأشد الكفر وأنكره ، وهذا المعنى المفهوم من الآيتين من أغرب ايجاز القرآن المعجز للبشر . والمعنى : تالله ان الله لذو فضل عظيم على الناس في كل ما خلقه لهم من الرزق ، وكل ما شرعه لهم من الدين ، ومنه انه جعل الاصل فيما أنزله اليهم من الرزق الاباحة ، وجعل حق التحريم والتحليل له وحده عز وجل ، لكيلا يتحكم فيهم أمثالهم من عباده ، كالذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، كما تقدم في تفسير سورة التوبة ـ براءة ـ (١) وهو لم يحرم عليهم إلا ما هو ضار بهم ، ولهذا أباح لهم ما حرمه عليهم اذا اضطروا اليه وكان تركه أضر من تناوله ، وحصر أصول محرمات الطعام في قوله (٦ : ١٤٥ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا او لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم) وفصل انواع الميتة المحرمة في أول سورة المائدة (٥ : ٣) فراجع تفسير الآيتين (٢)

﴿ ولكن اكثر الناس لا يشكرون ﴾ فضله عليهم كما يجب ، كما قال (وقليل من عبادي الشكور) فيجنون على انفسهم بتحريم مالم يحرمه عليهم ، وبغير ذلك من كفر نعمه المادية والمعنوية ، كالغلو في الزهد ، وترك الزينة والطيبات من الرزق ، وفي ضد ذلك من الاسراف في الاكل والشرب ، وزينة اللباس ، ابتغاء الشهرة والخيلاء والتكبر على الناس ، وشر من ذلك كله تحريمه تعبدا والاسلام يأمر بالوسط والاعتدال (٦٥ : ٧ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) الآية

أخرج الامام احمد من طرق عن ابي الاحوص وهو عوف بن مالك بن نضلة

(١) راجع صفحة ٣٦٣ ج ١٠ تفسير
(٢) الاولى في ص ١٤٨ ج ٧ والاخرى في ص ١٣٣ ج ٦

يحدث عن أبيه قال أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيئة فقال «هل لك مال ؟» قلت نعم ، قال «من أي المال؟ قلت من كل المال من الابل والرقيق والخيل والغنم فقال «اذا آتاك الله مالا فلير عليك» الحديث وفي رواية أصحاب السنن الثلاثة عنه «إذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته» وأخرج البخاري في التاريخ والطبراني والضياء بسند صحيح عن زهير بن أبي علقمة مرفوعا «إذا آتاك الله مالا فلير عليك فان الله يحب أن يرى أثره على عبده حسنا، ولا يحب البؤس ولا التباؤس» والشكر نصف الايمان، بحسب متعلقاته من الاعمال والاحوال، وهي ما يجب على العبد لربه ولعباده من استعمال نعمه عليه فيما يرضيه من أحكام شرعه ، وموافقة سننه وحكمته في خلقه ، والنصف الآخر الصبر وهو ما يجب في حال وقوع المكاره والابتلاء من عمل بدني ونفسي. ويضاد الشكر الكفر وهو قسمان، كفر النعم وكفر المنعم، وأنصح للقارئ أن يطالع كتاب الصبر والشكر في المجلد الرابع من إحياء العلوم للغزالي.

---

(٦١) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ

لما ذكر تعالى عباده بفضله ، وما يجب عليهم من شكره ، وبكون أكثرهم لا يشكرونه كما يجب عليهم — عطف على ذلك تذكيرهم باحاطة علمه بشؤونهم وأعمالهم كلها : صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيرها ، وبكل ما في العوالم علوها وسفليها ، ليحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم في ذكره وشكره وعبادته، وبدأ بخطاب أعظمهم شأنا في أعظم شؤونه فقال

﴿ وماتكون ﴾ أيها الرسول ﴿ في شأن ﴾ اي أمر من أمورك المهمة الخاصة.

بك أو العامة التي تعالج بها أمر الامة ، في الدعوة إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، انذارا وتبشيراً ، وتعليما وعملا ﴿ وما تتلو منه من قرآن ﴾ أي وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن أنزل عليك ، تعبداً به أو تبليغاً له ، فمن الاولى للتعليل والثانية للتبعيض ، أو الضمير في منه للكتاب لان السياق بل السورة كلها فيه ، واضماره قبل الذكر ثم بيانه تفخيم له ـ وقيل لله لذكره في الآية قبلها . والتعبير في خطابه ﷺ بالشأن وهو الامر العظيم أو ذو البال يدل على أن جميع أموره وأعماله ﷺ كانت عظيمة حتى العادات منها ، لأنه كان قدوة صالحة فيها كلها ﴿ ولا تعملون من عمل ﴾ هذا خطاب عام للامة كلها في كل شؤونها وأعمالها ، بعد خطاب رأسها وسيدها في أخص شؤونه وأعلاها ، فتذكرك الآية في أخصر الالفاظ وأقصرها بأفضل ما آتاك الله من هداية ونعمة، وتنتقل بك إلى كل عمل تعمله من شكر وكفر وإن كان كمثقال ذرة، فان مجيء (عمل) نكرة منفية يفيد العموم ، ودخول (من) التبعيضية عليه يؤكد هذا العموم ، فيشمل أدق الاعمال وأحقرها ، وهو في معنى قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ﴿ إلا كنا عليكم شهوداً ﴾ اي رقباء مطلعين عليكم ﴿ إذ تفيضون فيه ﴾ اي تخوضون وتندفعون فيه، فنحفظه عليكم لنجزيكم به، وأصل الافاضة في الشيء أو من المكان الاندفاع فيه بقوة او بكثرة كما تقدم في (أفضتم من عرفات) ﴿ ومايعزب عن ربك ﴾ اي وما يبعد عنه ولا يغيب عن علمه ولا يخفى عليه ، قرأ الجمهور يعزب بضم الزاي والكسائي بكسرها وهما لغتان فيها ـ وأصله من قولهم عزب الرجل يعزب بابله، أي يبعد ويغيب في طلب الكلأ العازب وهو ما يكون بفلاة بعيدة حيث لا زرع ، ويقال رجل عزب بفتحتين أي منفرد ، ومنه رجل وامرأة عزب أي منفرد لا زوج له أو لها ، ويقال امرأة عزبة ، واختلف في أعزب وعزباء ، ونفي عزوب الشيء عن الرب تعالى أخص وأبلغ من نفي الغيبة أو الخفاء عنه . كما أن الافاضة في العمل أخص من إتيانه مطلقا . وحكمة تخصيصها بالذكر دون اللفظ الاعم منها ، هي أن ما يفيض فيه الانسان مهتما به مندفعاً فيه جدير بأن

لا ينسى أو يغفل عن مراقبة ربه فيه واطلاعه عليه ، فاللفظ يذكره به تذكيراً منبهاً مؤثراً . وكذلك لفظ (يعزب) الدال على الخفاء والبعد معاً ، فكأنه يقول ان ما شأنه أن يبعد ويخفى عليكم من أعمالكم لا يغيب عن علم ربكم فانه لا يعزب عنه ﴿ من مثقال ذرة ﴾ اي اقل شيء يبلغ وزنه ثقل ذرة وهي النملة الصغيرة يضرب بها المثل في الصغر والخفة ، ويطلق على الدقيقة من الهباء وهو الغبار الذي لا يرى إلا في ضوء الشمس الداخل من الكوى إلى البيوت ﴿ في الارض ولا في السماء ﴾ أي في الوجود سفليه وعلويه ، وقدم ذكر الارض لان الكلام مع أهلها ، واخره في آية سبأ (٣:٣٤) وقدم السماء لانها في سياق ثنائه تعالى على نفسه ووصفه باحاطة علمه فناسب تقديم السماء لانها أعظم فان فيها من الشموس وعوالمها ما يبعد بعضه عن بعض مسافة ألوف الالوف من السنين التي تقدر ابعادها بسرعة النور ، كما ثبت في علم هذا العصر

﴿ ولا اصغر من ذلك ولا أكبر ﴾ هذا كلام مستقل بنفسه قائم برأسه ، مؤكد لما قبله بتعبير ادق وأشمل ، و(لا) فيه نافية للجنس على قراءة الجمهور ، اي ولا شيء أصغر من الذرة وهو ما لا تبصرونه من دقائق الكون كما قال (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) ولا أكبر منها وإن عظم مقداره كعرشه عز وجل ، وقرأ حمزة ويعقوب أصغر بالرفع على الابتداء والخبر ، ولا يخفى توجيهه في الاعراب على أهله . قدم ذكر الاصغر لانه هو الاهم في سياق العلم بالخفي ، وعطف عليه الاكبر لافادة الاحاطة وكون الاكبر لا يكبر عليه كما أن الاصغر لا يعزب عنه .

﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ أي إلا وهو معلوم ومحصي عنده ومرقوم في كتاب عظيم الشأن تام البيان ، وهو الكتاب الذي كتب فيه مقادير الموجودات كلها ، كما للانظام ، وقد بينا ما ورد في هذا الكتاب المبين في تفسير (٥٩:٦ وعنده مفاتح الغيب) الآية من سورة الانعام فراجعه في (ص ٤٥٧ و ٤٦٩) من الجزء السادس من هذا التفسير . وفي الآية إشارة إلى ما في الوجود من أشياء لا تدركها الابصار ، وقد رؤي كثير منها في هذا العصر بالآلات التي تكبر المرئيات اضعافا كثيرة ، ولم يكن هذا مما يخطر في البال في عصر التنزيل ، فهو من دقائق تعبير القرآن ، التي تظهر حكمتها

للناس آنا بعد آن ، وتقدم التذكير بما هنا من الأمثال التي هي من أنواع الإعجاز.

---

(٦٢) أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

(٦٣) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ (٦٤) لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ

لما بين تعالى لعباده سعة علمه ، ومراقبته لعباده ، وإحصاءه أعمالهم عليهم ، وجزاءهم عليها ، وذكرهم بفضله ، وما يجب عليهم من شكره ، بين لهم في هذه الآيات الثلاث حال الشاكرين المتقين ، الذين لهم أحسن الجزاء في يوم الدين ، فقال ﴿ ألا إن أولياء الله ﴾ فتحت هذه الجملة بكلمة (ألا) للتنبيه وتوجيه الفكر لها ، والأولياء جمع ولي وهو وصف من الولاء والتوالي ، ومن الولاية والتولي ، فيطلق على القريب بالنسب وبالمكانة والصداقة ، وعلى النصير ، والمتولي للأمر والحكم ، أو على اليتيم والقاصر المدبر لشؤونه ، ويوصف به العبد والرب تعالى كما تقدم في قوله تعالى (٢ : ٢٥٧ الله ولي الذين آمنوا) وفصلنا الكلام في تفسيره بما بينا به ولاية الله العامة والخاصة لعباده ، وولايتهم له ، وأولياء الشيطان والطاغوت ، وولاية بعضهم لبعض ، وضلال بعضهم بجعل ولاية الله الخاصة به لبعض عباده ، وهم الذين يسمونهم أولياء الله بما يسلبهم استحقاق هذا اللقب ، وذكرنا في شواهد ذلك التفسير هذه الآية .

أولياء الله أضداد أعدائه المشركين به ، الكافرين بنعمه ، فهم المؤمنون المتقون كما نطقت به الآية ، وهم درجات أعلاهم درجة هم الذين يتولونه بإخلاص العبادة له وحده ، والتوكل عليه ، وحبه والحب فيه ، والولاية له ، فلا يتخذون له أنداداً يحبونهم من نوع حبه ، ولا يتخذون من دونه ولياً ولا شفيعاً يقربهم إليه زلفى ، ولا وكيلا ولا نصيراً فيما يخرج عن توفيقهم لإقامة سننه في الأسباب والمسببات ، ويتولون رسوله والمؤمنين بما أمرهم به ، قال تعالى (٦ : ٥١ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون) وقال

(٣٢ : ٤ مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون) وقال(٣٣: ١٧ قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ؟ ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا)وقال في آيتين أخريين منها ٢ و٤٨ وكفى بالله وكيلا) والآيات كثيرة في توليهم له بالطاعة ، وتوليه لهم بالهداية والعناية والاعانة والنصر والتوفيق .

وحسبنا هنا ما نفاه عنهم وما وصفهم به ثم ما زفه اليهم من البشارة فأما ما نفاه مخبرا به عنهم فقوله ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وهو ما نفاه عن جميع المؤمنين الصالحين والمصلحين والمتقين في الآيات الكثيرة (راجع ٢: ٦٢ و ٥: ٧٢ و٦: ٤٨ و ٧: ٤٣ و٤٩ وقد تقدم تفسيرها)فأما في الآخرة حيث يتحقق هذا على أتم وجه وهو المقصود بالذات فلا خوف يقع عليهم ويرهقون به مما يخاف الكفار والفساق والظالمون من أهوال الموقف وعذاب الآخرة ، كما قال تعالى بعد ذكر إبعادهم عن جهنم (٢: ١٠٣ لا يحزنهم الفزع الأكبر) الآية،ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم وأما في الدنيا فلا يخافون مما يخاف غيرهم من الكفار وضعفاء الايمان وعبيد الدنيا من مكروه يتوقع كلقاء العدو قال (٣: ١٧٥ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) أو بخس في الحقوق أو رهق يغشاهم بالظلم والذل ، قال (٧٢ : ١٣ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقا) ولا هم يحزنون من مكروه أو ذهاب محبوب وقع بالفعل كما قال (٥٧ لكيلا تأسوا على ما فاتكم) والمراد أنهم لا يخافون في الدنيا كخوف الكفار ولا يحزنون كحزنهم،وسنذكر نفي الخوف والحزن عنهم عند الموت. وأما أصل الخوف والحزن فهو من الاعراض البشرية التي لا يسلم منها احد في الدنيا ، وإنما يكون المؤمنون الصالحون أصبر الناس وأرضاهم بسنن الله اعتقاداً وعلماً بأنه إذا ابتلاهم بشيء مما يخيف أو يحزن فانما يربيهم بذلك لتكميل نفوسهم وتمحيصها بالجهاد في سبيله الذي يزداد به أجرهم كما صرحت بذلك الآيات الكثيرة .

وأما ما وصفهم وعرفهم به فقوله ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فهذا استئناف لبيان حال هؤلاء الاولياء النفسية العلمية والعملية ، اي هم الذين جمعوا بين الايمان الصحيح بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وملكة التقوى له عز

وجل ، وما تقتضيه من عمل ، وعبر عن إيمانهم بالفعل الماضي لبيان أنه كان كاملا باليقين ، لم يزلزله شك ولم يحصل بالتدريج ، وعن تقواهم بالفعل الذي يدل على الحال والاستقبال لان التقوى تتجدد دائما بحسب متعلقاتها : من كسب وحرب ، وشهوة وغضب ، والمعنى الجامع فيها انها اتقاء كل مالا يرضي الله تعالى من ترك واجب ومندوب ، وفعل محرم ومكروه ، واتقاء مخالفة سنن الله تعالى في خلقه من أسباب الصحة والقوة والنصر والعزة وسيادة الامة . وقد فصلنا هذا في مواضع من أهمها تفسير قوله تعالى (٨ : ٢٩ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم)

وأما البشرى التي زفها اليهم فهي قوله ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ البشرى الخبر السار الذي تنبسط به بشرة الوجه فيتهلل وتبرق أساريره . وهذه البشرى مبينة في مواضع من كتاب الله تعالى ، وقد يراد بها متعلقها الذي يبشرون به ولم يذكر هنا ليشمل كل ما بشروا به في كتاب الله تعالى وعلى لسان رسوله ﷺ ، فأما البشرى في الحياة الدنيا فأهمها البشارة بالنصر ، وبحسن العاقبة في كل أمر ، وباستخلافهم في الارض ، ما أقاموا شرع الله وسننه ، ونصروا دينه وأعلوا كلمته ، وأما في الآخرة فمن أكملها وأجمعها لمعاني الآية لأ كلها قوله (٤١ : ٣٠ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ٣١ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ٣٢ نزلا من غفور رحيم) المشهور في تنزل الملائكة عليهم أنه يكون عند البعث ، وكذا عند الموت ، ولا مانع من شموله لما في الدنيا من تثبيت قلوبهم ، وتقوية إلهام الحق والخير فيهم ، كما قال تعالى في الملائكة الذين أمد بهم أصحاب رسوله ﷺ في غزوة بدر (٨ : ١٠ وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن به قلوبكم) الآية ثم قال (١٢ اذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا) وقد يكون منه إلهام الحق والخير كما ورد في حديث ابن مسعود مرفوعا عند

الترمذي والنسائي « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله فليحمد الله، ومن وجد الاخرى فليتعوذ بالله من الشيطان »

﴿ لاتبديل لكلمات الله ﴾ أي لاتغيير ولا خلف في مواعيد الله عز وجل ، ومنها هذه البشارات وما في معناها من الآيات ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ أي ذلك الذي ذكر من البشرى بسعادة الدارين هو الفوز العظيم الذي لا يعلوه فوز ، وانما هو ثمرة الايمان الحق ، والتقوى العامة في حقوق الله وحقوق الخلق

ماورد من الاخبار والآثار في الاولياء

ذكر بعض المفسرين في تفسير الآية بعض الاخبار النبوية ولا يصح منها حديث مرفوع متصل الاسناد ، وأقرب ما رووه في تفسيرها إلى اصطلاحهم في الاولياء حديث ابي هريرة المرفوع « ان من عباد الله عباداً يغبطهم الانبياء والشهداء » قيل من هم يا رسول الله ؟ قال « هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس » ثم قرأ (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون) أخرجه ابن جرير من طريق شيخه أبي هشام الرفاعي وهو محمد بن يزيد بن كثير العجلي الكوفي ، قال البخاري رأيتهم مجمعين على ضعفه . ورواه أبو داود من حديث عمر بن الخطاب بمثل سند ابن جرير عن أبي زرعة بن عمرو ابن جرير عنه الا انه منقطع بين أبي زرعة وعمرو وقال بعضهم وأخرجه الحاكم وصححه ولم أره في تفسير السورة من المستدرك وما كل ماصححه الحاكم بصحيح. ومتن هذا الحديث مشكل لانه يدل على تفضيل الاولياء على الانبياء وهو مخالف لاجماع علماء المسلمين ، موافق لقول بعض أولياء الشياطين: ان الولي أفضل من النبي ، من حيث ان ولاية النبي أفضل من نبوته ، وهو تأويل شيطاني

ومثله حديث أبي مالك الاشعري مرفوعا « يأتي من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا في الله، وتصافوا في الله ، يضع

الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها ، يفزع الناس ولا يفزعون ،وهم أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون » والحديث مطول أخرجه الامام أحمد من طريق شهر بن حوشب وفيه مقال لهم أهونه ما اكتفى به الحافظ في التقريب وهو انه صدوق كثير الارسال والاوهام ، وذكر في تهذيب التهذيب : ان مما قيل فيه انه يروي المنكرات عن الثقات ، وقال ابن حزم هو ساقط ،وقال ابن عدي ضعيف جداً

وورد عدة روايات مرفوعة وآثار في تفسير البشرى في الدنيا بالرؤيا الصالحة يراها المسلم أو المؤمن أو ترى له. وعليه ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس من الصحابة ، ومجاهد وعروة بن الزبير ويحيى بن أبي كثير وابراهيم النخعي وعطاء ابن أبي رباح من التابعين وغيرهم، وفسرها بعضهم بآية حم السجدة التي أوردناها آنفا مع تفسيرها . وروي عن ابن عباس وغيره أن الاولياء هم الذين اذا رؤوا ذكر الله لرؤيتهم ورواه بعضهم مرفوعا وهو ضعيف، وروي عن أبي حنيفة والشافعي انهما قالا : اذا لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله تعالى ولي . قال النووي والمراد بهم العلماء العاملون . فهذه خلاصة الروايات في الآية .

واننا لم نر في الاحاديث الصحيحة في الاولياء ماهو أقرب إلى كلام الصوفية منه الى كلام الله عز وجل الا حديث «من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب» الخ وقد انفرد به البخاري وفي سنده غرابة كمتنه . قال الحافظ ابن رجب : هذا الحديث تفرد باخراجه البخاري دون بقية أصحاب الكتب ، خرجه عن محمد بن عثمان بن كرامة عن خالد بن مخلد — إلى أن قال — وهو من غرائب الصحيح تفرد به ابن كرامة عن خالد وليس في مسند أحمد مع ان خالد بن مخلد القطواني تكلم فيه الامام احمد وغيره وقالوا له مناكير (ثم قال) وقد روي من وجوه أخر لاتخلو كلها من مقال . وذكر الحافظ في تهذيب التهذيب اختلاف أئمة الجرح والتعديل في خالد ، ومنه تصريح جماعة بروايته للمناكير ومنه : في الميزان للذهبي قال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به ، وقال الازدي في حديثه بعض المناكير وهو عندنا في عداد أهل الصدق ، ومنه قول ابن سعد كان منكر الحديث متشيعاً

مفرطا في التشيع وكتبوا عنه للضرورة . وذكر بعض هذا الجرح وغيره في مقدمة فتح الباري وأجاب عنه بما حاصله أن التشيع لا يضر مثله ، وأما المناكير فقد تتبعها أبو أحمد بن عدي من حديثه وأوردها في كامله وليس فيها شيء مما أخرجه له البخاري (قال) بل لم أر له عنده من افراده سوى حديث واحد وهو حديث أبي هريرة « من عادى لي ولياً » الحديث اه

(أقول) وأما الغرابة في متن هذا الحديث فهو قوله تعالى « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به » الخ الذي استدلوا به على الحلول والاتحاد ، وقد أوله العلماء وبينت أمثل تأويل له عندي في الكلام على حب الله تعالى من تفسير (٩ : ٢٤ ص ٢٣٩ ج ١٠ تفسير) فراجعه يغنك عن ذكره كله هنا

﴿ أولياء الخيال وأولياء الطاغوت والشيطان ﴾

ذلك ما فسرنا به الآيتين بشواهد مما في معناهما من الآيات ، والقرآن خير ما يفسر به القرآن وأصحه ، وكل ما خالفه وخرج عنه فهو باطل ، وعززناه بأمثل ما روي من الاخبار والآثار فيهما ، فأولياء الله الذين يشهد لهم كتابه بالولاية لهم المؤمنون الصالحون المتقون ، ولكن اشتهر بين المسلمين بعد عصر السلف ما يدل على أن الاولياء عالم خيالي غير معقول ، لهم من الخصائص في عالم الغيب ، والتصرف في ملكوت السموات والارض ، فوق كل ما ورد في كتاب الله وأخبار رسوله الصادقة في أنبياء الله المرسلين ، بل فوق كل ما وصف به جميع الوثنيين آلهتهم وأربابهم التي اتخذوها من دون الله ، وينقلون مثل هذه الدعاوى عن بعض من اشتهروا بالولاية ممن لهم ذكر في التاريخ ، ومن لا ذكر لهم إلا في كتب الادعياء الذين فتنوا المسلمين والمسلمات بهم ، ممن يسمون بالمتصوفة وأهل الطريق ، ينقلون عنهم ما يؤيدون به مزاعمهم الخرافية الشركية كما ترى فيما ننقله من الشواهد الآتية

ولئن أنكر عليهم منكر ، واحتج عليهم بكتاب ربهم وحديث نبيهم مفسر أو محدث ، ليقولن هذا ضال مضل منكر للكرامات ، مخالف للقرآن ، وقرأوا عليه (ألا إن اولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون) وهل هذه الآية الا كقوله تعالى (إن الذين

آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وغيره مما اوردنا من الشواهد آنفاً نعم ان هؤلاء المؤمنين الصالحين درجات اشرنا آنفاً الى ادناها وأعلاها، وفصلنا القول فيهم في الكلام على حب الله ورسوله من تفسير (١٠: ٢٤)

هذه الولاية الخيالية المبتدعة من محدثات الصوفية ألبسوها أولا ثوب الشريعة، وجعلوا للشريعة مقابلا سموه الحقيقة، ثم صاروا يلبسونها عليها لبساً ، ويبعدون بها عنها معنى وحساً بقدر ما يبعدون عن الاتباع ، ويوغلون في الابتداع ، واعتبر في ذلك بسيرة سلفهم الاولين كالحارث المحاسبي والسري السقطي ومنصور ابن عمار والجنيد والشبلي وجمهور رجال رسالة القشيري، ومثل أبي إسماعيل الهروي وسيرة من بعدهم، فان أكثر أولئك قد رووا الحديث وتفقهوا في الدين ، وكانوا يتحرون الاعتصام بالكتاب والسنة ، ويحذرون ويحذرون اتباعهم من البدع ، ويحثون على اتباع السلف ، من الصحابة والتابعين وأئمة آل البيت وحفاظ السنة وعلماء الامصار كالاربعة وطبقتهم ، ولولا هذا لكان بينهم وبين غلاة متصوفة القرون الوسطى ومن بعدهم من المبتدعة والدجالين أصحاب الدعاوى العريضة والخرافات الشنيعة مثل ما بين صوفية البرهمية والاسلام، وكتابهم (الفيدا) وكتابه القرآن

أمرر ببصرك على طبقات الشعراني الكبرى فانك لا ترى فيها فرقا كبيراً بين سيرة أئمة الحديث والفقه وأئمة التصوف في العبادة والتقوى والعلم والحكمة ، ثم انظر في سيرة من بعدهم من صوفية القرون الوسطى ثم قرن المؤلف وهو العاشر وتأمل ووازن تر في أولياء الشعراني المجانين والمجان والقذرين الذين تتناثر الحشرات من رءوسهم ولحاهم وثيابهم التي لا يغسلونها حتى تبلى أو في السنة مرة واحدة ، تجد ذلك البون الشاسع فيهم ، وهم مع ذلك يفضلون أنفسهم على الانبياء ، ومنهم من يدعي الاتحاد بالله أو الالوهية

تأمل ما كتبه في ترجمة الذين يسمونهم الاقطاب الاربعة فانك لا تجد فيه لأحد منهم أنه كان ينفع الناس بعلوم الشرع إلا الشيخ عبد القادر الجيلاني ، وتجد أن الشيخ احمد الرفاعي كان يوبخه علماء عصره ويخاطبونه بلقب الدجال ويرمونه

بالجمع بين النساء والرجال ، وأما الدسوقي فكتب عنه انه كان يتكلم بالعجمي والسرياني والعبراني والزنجي وسائر لغات الطيور والوحوش ، ونقل عنه كتابا من هذه اللغات أرسله إلى أحد مريديه ، وهو خلط مخترع ليس منها في شيء ، وسلامامثله أرسله مع أحد الحجاج إلى رسول الله ﷺ منه قوله « موز الرموز ، عموز النهوز ، سلاحات أفق ، فردنانية امق ، شوامق اليرامق ، حيد وفرقيد ، وفرغاط الاسباط » الخ فما معنى هذا وأي فائدة للناس فيه ؟

ونقل عنه كلاما من المعهود من امثاله الصوفية منه النافع والضار ، فمن الحق النافع ماسمعناه انه لولم تغلب عليهم الاحوال لما قالوا في التفسير الا صحيح المأثور ، ومن الضار الذي أفسد على المصدقين بولاية هؤلاء الناس دينهم وهو مما نحن فيه قوله : وكان (رض) يقول: أنا موسى عليه السلام في مناجاته ، أنا علي (رض) في حملاته ، أنا كل ولي في الارض خلقته بيدي ، ألبس منهم من شئت ، أنا في السماء شاهدت ربي وعلى الكرسي خاطبته ، أنا بيدي أبواب النار غلقتها ، وبيدي جنة الفردوس فتحتها ، من زارني أسكنته جنة الفردوس » الخ وقوله وهو في تفسير الآية :

« واعلم ياولدي أن أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون متصلون بالله ، وما كان ولي متصل بالله إلا وهو يناجي ربه كما كان موسى عليه السلام يناجي ربه ، وما من ولي إلا وهو يحمل على الكفار كما كان علي (رض) يحمل ، وقد كنت أنا وأولياء الله أشياخا في الازل ، بين يدي قديم الازل ، وبين يدي رسول الله ﷺ وان الله عز وجل خلقني من نور رسول الله ﷺ وأمرني أن أخلع على جميع الاولياء بيدي فخلعت عليهم بيدي ، وقال لي رسول الله ﷺ ياابراهيم أنت نقيب عليهم ، فكنت أنا ورسول الله ﷺ وأخي عبد القادر خلفي وابن الرفاعي خلف عبد القادر ، ثم التفت إلي رسول الله ﷺ وقال لي « يا ابراهيم سر الى مالك وقل له يغلق النيران ، وسر الى رضوان وقل له يفتح الجنان ، ففعل مالك ما أمر به ، ورضوان ماأمر به » الخ وله ماهو أغرب منه

وذكر الشعراني انه أطال في هذا الكلام وهو من مقام الاستطالة تعطي

الرتبة صاحبها أن ينطق بما ينطق به ، وقد سبقه إلى نحو ذلك الشيخ عبد القادر الجيلي (رض) وغيره فلا ينبغي مخالفته إلا بنص صريح اهـ

ونقول، ان مثبت هذه الدعاوى المنكرة في عالم الغيب من شؤون رب العالمين وملائكته وأكرم رسله وجنته وناره هو الذي يحتاج في إثباته إلى النص الصريح دون منكره فانه يتبع الاصل، والاجماع على ان شيئا من ذلك لا يثبت إلا بنص قطعي، وسنذكر ما انتهت اليه هذه الدعاوى في افساد الدين، واضلال الملايين من المسلمين .

جاء في كتب الرفاعية ان الشيخ احمد الرفاعي مس بيده سمكة فأرادوا شيها بالنار فلم تؤثر فيها النار فذكروا له ذلك فقال : وعدني العزيز ان كل ما مسته يد هذا اللاش حميد لا تحرقه النار في الدنيا ولا في الآخرة ، وجاء فيها : ان سيدي احمد الرفاعي كان يميت ويحيي ، ويسعد ويشقي، ويفقر ويغني، وانه وصل إلى مقام صارت السموات السبع في رجله كالخلخال . وفي البهجة الرفاعية ان سيدهم أحمد الرفاعي باع بستانا في الجنة لبعض الناس وذكر له حدودا أربعة. وقد نقلت هذا وما قبله في كتابي (الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية)

وجاء في بعض كتب مناقب الشيخ عبدالقادر الجيلي انه مات بعض مريديه فشكت اليه أمه وبكت فرقها فطار وراء ملك الموت في المساء وهو صاعد الى السماء يحمل في زنبيل ماقبض من الارواح في ذلك اليوم فطلب منه أن يعطيه روح مريده أو أن يردها اليه فامتنع ، فجذب الزنبيل منه فأفلت فسقط جميع ما كان فيه من الارواح فذهبت كل روح الى جسدها، فصعد ملك الموت الى ربه وشكا له مافعله عبدالقادر فأجابه الرب سبحانه بما امتنعنا من نقله إذ نقلنا هذه الخرافة في الجزء الاول من المجلد التاسع من المنار تنزيها وأدبا مع ربنا عز وجل

ونقلنا ثم أن خطيبا خطب المسلمين في الهند ذاكراً مناقب الشيخ عبدالقادر فقال: ان حدأة خطفت قطعة لحم مما ذبح للشيخ عبدالقادر في مولده — كما كانوا يذبحون للاصنام — فوقعت عظمتها في مقبرة فغفر الله تعالى لجميع من دفن فيها كرامة للشيخ عبد القادر، وياويل من ينكر أمثال هذه الخرافات فيستهدف لرميه بمخالفة قوله تعالى

(ألا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) وإنكار الكرامات وقول اللقاني

وأثبتن للاوليا الكرامه   ومن نفاها فانبذن كلامه

ومن هذه الكرامات بزعمهم ادعاء الوحي ولا ينافيها عندهم معارضة القرآن، وعبادة الشيطان ،وعلم الغيب، وملك النفع والضر ،وتدبير الامر ، وترك الفرائض وارتكاب الفواحش، لانها لاتكون من أوليائهم إلا صورية لمصلحة ، وكذا الكفر الصريح كما ترى في الشواهد الآتية :

﴿ الشاهد الاول كرامات ولي شيطاني موحد ألوهية ابليس ﴾

قال الشعراني في ترجمة الشيخ محمد الحضري « كان من أصحاب جدي رضي الله عنهما » و كان يتكلم بالغرائب والعجائب من دقائق العلوم والمعارف مادام صاحياً، فاذا قوي عليه الحال تكلم بألفاظ لايطيق أحد سماعها في حق الانبياء وغيرهم، وكان يرى في كذا كذا بلداً في وقت واحد وأخبرني الشيخ أبو الفضل السرسي انه جاءهم يوم الجمعة فسألوه الخطبة فقال بسم الله فطلع المنبر فحمد الله وأثنى عليه ومجده ثم قال : وأشهد أن لا إله لكم إلا ابليس عليه الصلاة والسلام. فقال الناس كفر، فسل السيف ونزل فهرب الناس كلهم من الجامع فجلس عند المنبر الى أذان العصر، وما تجرأ أحد أن يدخل الجامع ،ثم جاء بعض أهل البلاد المجاورة فأخبر أهل كل بلد انه خطب عندهم وصلى بهم ، قال فعددنا له ذلك اليوم ثلاثين خطبة هذا ونحن نراه جالسا عندنا في بلدنا

« وأخبرني الشيخ أحمد القلعي ان السلطان قايتباي كان اذا رآه قاصداً له تحول ودخل البيت خوفا أن يبطش به بحضرة الناس . وكان اذا أمسك أحداً يمسكه من لحيته ويصير يبصق على وجهه ويصفعه حتى يبدو له اطلاقه، وكان لايستطيع أكثر الناس أن يذهب حتى يفرغ من ضربه ، وكان يقول لايكمل الرجل حتى يكون مقامه تحت العرش على الدوام ، وكان يقول : الارض بين يدي كالاناء الذي آكل منه ، وأجساد الخلائق كالقوارير أرى ما في بواطنهم . توفى رضي الله عنه سنة سبع وتسعين وثمانمائة (رض) اهـ ص ٩٤ ج ٢ طبقات

(أقول) لولا ان سلطان هؤلاء القوم مجنون بالخرافات مثلهم لما كان لمثل هذا المجنون مأوى إلا البيمارستان يكف كفره وشره عنهم

﴿ الشاهد الثاني كرامة ولي العاهرات والزناة الفاعل بالأتان ﴾

قال في ترجمة من سماه (سيدي علي وحيش من مجاذيب النحارية) « كان (رض) من أعيان المجاذيب أرباب الاحوال، وكان يأتي مصر والمحلة وغيرهما من البلاد، وله كرامات وخوارق ، واجتمعت به يوما في خط بين القصرين فقال لي : ودّيني للزلباني فوديته له فدعا لي وقال الله يصبرك على مابين يديك من البلوى . وأخبرني الشيخ محمد الطنيخي رحمه الله تعالى قال : كان الشيخ وحيش (رض) يقيم عندنا في المحلة في خان بنات الخطا (أي العاهرات) وكان كل من خرج يقول له قف حتى أشفع فيك عند الله قبل أن تخرج ، فيشفع فيه ، وكان يحبس بعضهم اليوم واليومين ولا يمكنه أن يخرج حتى يجاب في شفاعتـه ، وقال يوما لبنات الخطا أخرجوا (؟) فان الخان رائح يطبق عليكم ، فما سمع منهن إلا واحدة فخرجت ووقع على الباقي فمتن كلهن ، وكان اذا رأى شيخ بلد أوغيره ينزله من على الحمارة ويقول له أمسك رأسها حتى أفعل فيها ، فان أبى شيخ البلد تسمر في الارض لايستطيع يمشي خطوة ، وإن سمع حصل له خجل عظيم والناس يمرون عليه ، وكان له أحوال غريبة وقد أخبرت عنه سيدي محمد بن عنان (رض) فقال هؤلاء يخيلون للناس هذه الافعال وليس لها حقيقة » اه (ص ١٢٩ منه) وولاية هذا المجنون انه قواد العاهرات بضمانه المغفرة لمن يفجر بهن بشفاعته ، وأضل منه علماء الخرافات المدعون لكرامته

﴿ الشاهد الثالث ولاية مجنون معارض للقرآن بالكفر والهذيان ﴾

قال في ترجمة الشيخ شعبان المجذوب انه كان من أهل التصريف بمصر المحروسة ونقل عن شيخه علي الخواص ان الله تعالى كان يطلعه على جميع مايقع في السنة عند رؤية هلالها ، وانه كان يسأله عما يشكل عليه (ثم قال) وكان يقرأ سوراً غير السور التي في القرآن على كراسي المساجد يوم الجمعة وغيرها فلاينكر عليه أحد ، وكان العامي يظن انها من القرآن لشبهها بالآيات في الفواصل

« وقد سمعته مرة يقرأ على باب دار على طريقة الفقهاء الذين يقرءون في البيوت فصغيت إلى مايقول فسمعته يقول : وما أنتم في تصديق هود بصادقين ، ولقد أرسل الله لنا قوما بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا وما لنا من ناصرين . ثم قال : اللهم

اجعل ثواب ماقرأناه من الكلام العزيز في صحائف فلان وفلان ـ إلى آخر ماقال »

ثم ذكر انه كان عريانا دائما الا انه يستر سوأتيه بقطعة جلد اوبساط اوحصير لأنه كان يحرم كل ما عدا ذلك من زينة الدنيا قال « وكانت الخلائق تعتقده اعتقاداً زائدا لم أسمع قط ان أحدا ينكر عليه شيئاً من حاله، بل يعدون رؤيته عيداً عندهم تحنينا عليه من الله تعالى (رض) مات (رض) سنة نيف وتسعمائة» اهص ١٦٠ منه

(أقول) اذا كان الشعراني من أكبر علماء الازهر ومؤلفيه يعد هذا المجنون من أولياء الله ويترضى عنه كلما ذكره وإن تكرر ذكره في سطر واحد، وكان شيخه علي الخواص يتلقى عنه حل مشكلات المعارف الالهية ويعتمد على كشفه ، فهل نكون مخطئين اذا قلنا إن جميع من شهد لهم بالولاية والكرامة كانوا خرافيين مجانين مثله ، وأي قيمة كانت في عصره للعقل والعلم والدين ، وهل يوجد دليل على ان ذلك الجنون كان تخبطا شيطانياً لاجذبا إلهيا أقوى من معارضة صاحبه للقرآن بمثل مانقله الشعراني مما سمعه ورآه منه ورواه عنه من الهذيان ؟

﴿ شواهد أخرى عن المعروف بالتجاني تابعة لما قبلها ﴾

كان من فساد هذا التصوف الذي بثه الشعراني وأمثاله في المسلمين أن وجد في المغرب الاقصى في القرن الثالث عشر للهجرة شيخ اسمه الشيخ أبو العباس احمد التجاني صار له طريقة من أشهر الطرق امتدت من المغرب الاقصى إلى السودان الفرنسي والجزائر فتونس فمصر ، وصار لها مئات الالوف من الأتباع لما فيها من الغلو في الدعاوى والخرافات والابتداع ، وتفضيل شيخها نفسه على جميع من سبقه من أقطاب الاولياء وكذا الانبياء بأمور منها ضمان النبي ﷺ له ولاصوله وفروعه وأتباعه ولكل من يكرمه ويحسن إليه ولو بالطعام أعلى منازل الجنة مع رسول الله ﷺ بغير حساب ولا عقاب لأن جميع معاصيهم وتبعاتهم تغفر لهم لاجله الخ كأن الغرض من طريقته أكل أموال الناس وطعامهم والجاه عندهم خلافا لجميع صوفية العالم، وقد ألف احد أتباعه كتاباً كبيراً في مناقبه وكراماته وأوراده تلقاها من لسانه وقلمه، هدم بها هدى كتاب الله وسنة رسوله مدعيا أنه تلقاها منه ﷺ وسماه (جواهر المعاني) وهاك بعض الشواهد منه

﴿الشاهد الرابع ضمان دخول الجنة لكل من له علاقة بالتجاني بلا حساب ولا عقاب﴾

قال المؤلف في الفصل الثاني من الباب الاول

« قال (رض) أخبرني سيد الوجود يقظة لا مناما قال لي انت من الآمنين وكل من رآك من الآمنين إن مات على الايمان ، وكل من أحسن اليك بخدمة أو غيرها ، وكل من أطعمك (!!) يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب

(ثم قال) فلما رأيت ماصدر لي منه ﷺ من المحبة وصرح لي بها تذكرت الاحباب ومن وصلني إحسانهم ، ومن تعلق بي بخدمة ، وأنا أسمع أكثرهم يقولون لي نحاسبك بين يدي الله إن دخلنا النار وأنت ترى ، فأقول لهم لا أقدر على شيء ، فلما رأيت منه ﷺ هذه المحبة سألته لكل من أحبني ولم يعادني بعدها ، ولكل من أحسن إلي بشيء من مثقال ذرة فأكثر ولم يعادني (؟) بعدها ، وآكد ذلك من أطعمني طعامه (!!) قال كلهم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب

« قال وسألته ﷺ لكل من أخذ عني ذكراً أن تغفر لهم جميع ذنوبهم ماتقدم منها وماتأخر ، وأن تؤدي عنهم تبعاتهم من خزائن فضل الله لا من حسناتهم ، وأن يرفع الله عنهم محاسبته على كل شيء ، وأن يكونوا آمنين من عذاب الله من الموت إلى دخول الجنة ، وأن يدخلوا الجنة بلا حساب ولا عقاب في أول الزمرة الاولى ، وأن يكونوا كلهم معي في عليين في جوار النبي ﷺ ، فقال لي ﷺ ضمنت لهم هذا كله ضمانة لا تنقطع حتى تجاورني أنت وهم في عليين

(قال المؤلف) ثم اعلم اني بعد ما كتبت هذا من سماعه وإملائه علينا (رض) من حفظه و لفظه اطلعت على ما أرسمه من خطه ، ونصه :

« أسأل من فضل سيدنا رسول الله ﷺ أن يضمن لي دخول الجنة بلا حساب ولا عقاب أنا وكل أب وأم ولدني من أبوي إلى أول أب وأم لي في الاسلام من جهة أبي ومن جهة أمي ، وجميع ماولد آبائي وأمهاتي من أبوي إلى الجد الحادي عشر والجدة الحادية عشر (؟) من جهة أبي ومن جهة أمي من كل ماتناسل منهم (؟) من وقتهم إلى أن يموت سيدنا عيسى بن مريم من جميع الذكور والاناث ، والصغار

والكبار ، وكل من أحسن إلي باحسان من مثقال ذرة فأكثر ، من خروجي من بطن أمي إلى موتي ، وكل من له علي مشيخة في علم أو ذكر أو سر من كل من لم يعادني من جميع هؤلاء . وأما من عاداني أو أبغضني فلا ، وكل من أحبني ولم يعادني (؟) وكل من والاني واتخذني شيخا أو أخذ عني ذكراً ، وكل من زارني وكل من خدمني أو قضى لي حاجة أو دعالي ، كل هؤلاء من خروجي من بطن أمي الى موتي وآبائهم (؟) وأمهاتهم وأولادهم وبناتهم وأزواجهم ووالدي أزواجهم يضمن لي سيدنا رسول الله ولكل واحد من هؤلاء أن أموت أنا وكل حي منهم على الايمان والاسلام ، وأن يؤمننا الله وجميعهم من جميع عذابه وعقابه وتهويله وتخويفه ورعبه وجميع الشرور من الموت إلى المستقر في الجنة ، وأن تغفر لي ولجميعهم جميع الذنوب ماتقدم منها وماتأخر وأن تؤدى عني وعنهم جميع تبعاتنا وتبعاتهم ، وجميع مظالمنا ومظالمهم من خزائن فضل الله لا من حسناتنا ، وأن يؤمنني الله وجميعهم من جميع محاسبته ومناقشته وسؤاله عن القليل والكثير يوم القيامة ، وأن يظلني الله وجميعهم في ظل عرشه يوم القيامة ، وأن يجيزني ربي أنا وكل واحد من المذكورين على الصراط أسرع من طرفة العين على كواهل الملائكة ، وأن يسقيني الله وجميعهم من حوض سيدنا محمد يوم القيامة ، وأن يدخلني ربي وجميعهم جنته بلاحساب ولا عقاب في أول الزمرة الاولى ، وأن يجعلني ربي وجميعهم مستقرين في الجنة في عليين من جنة الفردوس ومن جنة عدن . أسأل سيدنا رسول الله بالله أن يضمن لي ولجميع الذين ذكرتهم في هذا الكتاب كل ماطلبته من الله لي ولهم في هذا الكتاب بكماله كله ضمانا يوصلني وجميع الذين ذكرتهم في هذا الكتاب الى كل ماطلبته من الله لي ولهم [كذا بهذا التكرار] فأجاب رسول الله ﷺ بقوله الشريف: كل ما في هذا الكتاب ضمنته لك ضمانة لاتتخلف عنك وعنهم أبداً إلى أن تكون أنت وجميع ماذكرت في جواري في أعلى عليين ، وضمنت لك جميع ما طلبت منا ضمانة لا يخلف عليك الوعد فيها والسلام اهـ بحروفه ولحنه وتكراره من ص ٩١ و٩٢ ج ١ — قال المؤلف

ثم قال (رض) وكل هذا وقع يقظة لا مناما . ثم قال وأنتم وجميع الاحباب لاتحتاجون إلى رؤيتي انما يحتاج إلى رؤيتي من لم يكن حبيباً يعني تابعاً ولا آخذاً

عني ذكراً ولا أكلت طعامه. وأما هؤلاء فقد ضمنهم لي بلا شرط رؤية مع زيادة انهم معي في عليين» ولو روي هذا عنه في حياته لاجمع العلماء على انه مفترى عليه ﷺ

ثم قال التجاني : وأما من رآني فقط غايته يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب ولا مطمع له في عليين إلا أن يكون ممن ذكرتهم وهم أحبابنا ومن أحسن الينا ومن أخذ عنا ذكراً فانه يستقر في عليين معنا وقد ضمن لنا هذا بوعد صادق لا خلف فيه الا اني استثنيت من عاداني بعد المحبة والاحسان فلا مطمع له في ذلك ، فان كنتم متمسكين بمحبتنا فابشروا بما أخبرتكم به فانه واقع لجميع الاحباب قطعاً اه

وههنا ذكر مؤلف الكتاب ان هذه الكرامة العظيمة المقدار وهي دخول الجنة بلا حساب ولا عقاب لمن ذكرهم لم تقع لأحد من الاولياء قبله الخ . ونزيد عليه ان النبي ﷺ لم يضمن مثل هذا في حياته لاحد من أهل بيته ولا خواص أصحابه من المهاجرين والانصار (رض) حتى العدد القليل الذين بشرهم بالجنة كالعشرة لم يضمن لهم مازعم التجاني انه ضمنه لمن لايحصى عدداً من أصوله وفروعه وأتباعه، ولا يوجد في شريعته مايدل على ان الله تعالى أذن له بمثل هذا ، بل قاعدة دينه وشريعته ان الغرم بالغنم ، فمن تضاعف حسناتهم تضاعف سيئاتهم كما صرح به الكتاب العزيز في خطاب نسائه ﷺ من سورة الاحزاب

وصح عنه ﷺ انه لما نزل عليه (وأنذر عشيرتك الاقربين) جمعهم وكان مما قاله لهم « اعملوا، لا أغني عنكم من الله شيئا » قال هذا لعمه وعمته (رض) ولابنته السيدة فاطمة سيدة النساء عليها السلام فكلام التجاني صريح في ان جميع أتباعه وأقاربه ومحبيه والمحسنين اليه يكونون في عليين فوق اتباع جميع الانبياء ومحبيهم وإلا لما بقي للجنات السبع أحد يسكنهن وهو افتراء لم يتجرأ عليه أحد من المجازفين قبله

(س عنه تفضيل أوراده المتبدعة على جميع العبادات المأثورة)

ذكر مؤلف هذا الكتاب صلاة عليه ﷺ يسمونها صلاة الفاتح وغلا فيما زعمه من أمر النبي ﷺ له يقظة بها والغلو في ثوابها وهذا نصها :

« اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق ، والهادي

إلى صراطك المستقيم، صلى الله عليه وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم» ذكر أن شيخه التجاني كان يقرؤها ثم تركها لصلاة أخرى المرة الواحدة منها بسبعين الف ختمة من دلائل الخيرات فأمره النبي ﷺ بالرجوع اليها وقال في ص ٩٦ من الجزء الاول مانصه

« فلما أمرني عليه السلام بقراءتها سألته عن فضلها فأخبرني أولا بأن المرة الواحدة تعدل من القرآن ست مرات ، ثم أخبرني ثانياً ان المرة الواحدة منها تعدل من كل تسبيح وقع في الكون ومن كل ذكر ومن كل دعاء صغير أو كبير ومن القرآن ستة آلاف مرة لانه من الاذكار

(قال) « ومن جملة الادعياء (كذا) دعاء السيفي، ففي المرة الواحدة منه ثواب صوم رمضان وقيام ليلة القدر وعبادة سنة كما أخبرني به سيدنا عن سيد الوجود

«وأعظم من دعاء السيفي دعاء: يامن أظهر الجميل الخ وانه هدية من جبريل للنبي ﷺ وأخبره انه لو اجتمعت ملائكة سبع سموات على أن يصفوه لما وصفوه إلى يوم القيامة. وكل واحد يصف ما لا يصفه الآخر فلا يقدرون عليه . ومن جملة ذلك ان الله يقول فيه «أعطيه من الثواب بقدر ماخلقت في سبع سموات وفي الجنة والنار ، وفي العرش والكرسي وعدد القطر والمطر والبحار ، وعدد الحصى والرمل» ومن جملتها أيضا ان الله يعطيه ثواب جميع الخلائق، ومن جملتها ان الله يعطيه ثواب سبعين نبياً كلهم بلغوا الرسالة إلى غير ذلك (قال) وهذا حديث صحيح ثابت في صحيفة عمر ابن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ وصححه الحاكم الخ

وصرح المؤلف بأن هذا الكذب أملاه شيخه التجاني . ثم قال عن شيخه:

« وأما صلاة الفاتح لما أغلق فاني سألته (ص) عنها فأخبرني أولا انها بستمائة الف صلاة فقلت له هل في جميع تلك الصلوات أجر من صلى بصلاة مفردة فقال ﷺ مامعناه نعم يحصل في كل مرة منها أجر من صلى بستمائة الف صلاة مفردة وسألته هل يقوم منها طائر الذي له سبعون الف جناح الخ الحديث أم يقوم منها في كل مرة ستمائة الف طائر على تلك الصفة وثواب تسبيحهم لقارئها ؟ فقال بل يقوم منها في كل مرة ستمائة الف طائر على تلك الصفة في كل مرة

وقال في ص ٩٧ فسألته ﷺ عن حديث ان الصلاة عليه تعدل أربعمائة غزوة

كل غزوة تعدل أربعمائة حجة صحيح أم لا؟ فقال ﷺ بل صحيح فسألته ﷺ عن عدد هذه الغزوات هل يقوم من صلاة الفاتح لما أغلق الخ مرة أربعمائة غزوة أم يقوم أربعمائة غزوة صلاة من الستمائة الف صلاة وكل صلاة على انفرادها أربعمائة الف غزوة؟ فقال ﷺ ما معناه ان صلاة الفاتح لما أغلق بستمائة الف صلاة وكل صلاة من الستمائة الف بأربعمائة غزوة. ثم قال بعده ﷺ ان من صلى بها أي بالفاتح لما أغلق الخ مرة حصل له ثواب ماإذا صلى بكل صلاة وقعت في العالم من كل جن وإنس وملك ستمائة الف صلاة من أول العالم إلى وقت تلفظ الذاكر بها أي كأنه صلى بكل صلاة ستمائة الف صلاة من جميع صلاة المصلين عموما: ملكا وجنا وإنسا وكل صلاة من ذلك بأربعمائة غزوة وكل صلاة من ذلك بزوجة من الحور ومحو عشر سيئات وثبوت عشر حسنات ورفع عشر درجات، وان الله وملائكته يصلون على صاحبها عشر مرات (قال الشيخ «رض») فإذا تأملت هذا بقلبك علمت ان هذه الصلاة لا تقوم لها عبادة في مرة واحدة فكيف من صلى بها مرات ماذا لها من الفضل عند الله وهذا حاصل في كل مرة منها اهـ

ثم انه ذكر ماهو فوق ذلك من المبالغات الجنونية التي لا يعقلها دماغه، وصرح بأنه لا مدخل فيها للعقول، ومنها ما عده من ثواب ملايين الامم والملائكة، ولم يفضل عليها الا الدعاء بالاسم الاعظم وهو هذا بزعمهم (اهم سقك حلع يص)

قال المؤلف في ص١٠٢ مانصه: (فائدة) قال الشيخ (رض) عدد ألسنة الطائر الذي يخلقه الله من الصلاة على النبي ﷺ الذي له سبعون ألف جناح الخ الحديث الف الف الف الف الف الف الف الف إلى أن تعد ثمانية مراتب وستمائة وثمانون الف الف الف الف الف الف إلى أن تعد سبع مراتب وسبعمائة الف الف الف الف الف إلى أن تعد خمس مراتب فهذا مجموع عدد ألسنته وكل لسان يسبح الله تعالى بسبعين الف لغة في كل لحظة وكل ثوابها للمصلي على النبي ﷺ في كل مرة، هذا في غير الياقوتة الفريدة وهي الفاتح لما أغلق الخ وأما فيها فانه يخلق في كل مرة ستمائة الف طائر على الصفة المذكورة كما تقدم. فسبحان المتفضل على من يشاء من عباده من غير منة ولا علة اهـ من خط سيدنا وحبيبنا وخازن سر سيدنا أبي عبد الله سيدي محمد بن المشري حفظه الله. اهـ

﴿ الشاهد السادس عن التجاني دعواه موت من يكرهه كافرا ﴾

وفي هذا الكتاب من العقائد الزائغة المخالفة لعقائد جميع السلف وحفاظ السنن وأئمة الفقه والمفسرين وعلماء الكلام ما نعهد مثله عن الباطنية وأهل الوحدة والاتحاد وسائر غلاة الصوفية، ولم التجاني وأمثاله أن كل من له إلمام بالضروريات من عقائد الاسلام ينكر عليهم جعلوا من أصول طريقتهم التسليم لهم ظاهراً وباطناً

وقد بالغ التجاني فيما يلقنه لأتباعه من النهي عن الاعتراض والانكار عليه حتى زعم ان من أنكر عليه وكره عمله أو طعن فيه أو أبغضه يموت كافراً قطعاً، وهذه الدعوى باطلة كدعوى دخول أتباعه وأصوله وفروعه الجنة قطعاً ، لان كلا منهما من عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى . وقد اتفق العلماء على عدم جواز القطع لشخص معين بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا بنص من الشارع . وإنما القطعي ان من مات على الايمان الصحيح فهو من اهل الجنة ، ومن مات على الشرك والكفر فهو من اهل النار، وان الخواتيم لا يعلمها الا الله تعالى

ولولا أن له أتباعا في مصر وبلاد المغرب لما سودنا صحائف هذا التفسير بذكر خرافاته وضلالاته ، وقد استفتاني بعض المنكرين لدعواهم تلقي شيخهم لأوراده عن النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة وحضوره صلى الله عليه وسلم لمجالس حضرتهم عن دعوى رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة والتلقي عنه فأفتيت في المنار ببطلانها فلجأ بعضهم إلى مجلة مشيخة الازهر (نور الاسلام) فاستفتوها في ذلك فأفتاهم مفتيها الدجوي الدجال بما يتخذونه حجة على كل ما افتراه على النبي صلى الله عليه وسلم محتجا بأن الارض لا تأكل أجساد الانبياء عليهم السلام وانهم أحياء في قبورهم يردون السلام على من سلم عليهم، والحق ان كل ما ورد في حياة الشهداء والانبياء بعد الموت فهو من أخبار الغيب التي لا يقاس عليها ولا يتعدى فيها ما صح منها عن المعصوم باجماع علماء المسلمين

هذا وإني لا أجهل أن للتجانية في المغرب والسودان الفرنسي ، حسنات في مقاومة التنصير والاستعمار المعادي للاسلام كالقادرية والسنوسية، ولكن كتابهم جواهر المعاني قد فضحهم فضائح لا يقبلها مسلم يعرف ضروريات الاسلام، وستعلم قيمة حسناتهم وغيرها مما سننقله في كرامات امثالهم عن شيخ الاسلام .

(تقليد الباب والبهاء والقادياني لغلاة الصوفية)

(في دعوى الوحي والنبوة والالوهية)

قد جرأ هؤلاء الغلاة من الصوفية اخوانهم في الابتداع على دعوى الوحي والتلقي عن الله تعالى كالانبياء حتى ادعى بعضهم النبوة نفسها ، بل ادعى بعضهم الالوهية ، وانك لتجد من كلام الباب مؤسس فرقة البابية ، والبهاء مؤسس ديانة البهائية على أنقاض البابية ، وغلام احمد القادياني مسيح الهند الدجال — أنهم كلهم قد ادعوا الوحي من الله لهم ، وتجد كلامهم في الغلو في أنفسهم ممزوجا باصطلاحات الصوفية ، فلم يفسد الاسلام على أهله بدعة ولا فلسفة ولا رواية ولا رأي ، كما أفسد أدعياء الولاية والكشف ، فان أصل هذا الدين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ باجماع أهله وبداهة العقل أيضاً ، فأما البابية فقد انحصروا في البهائية ، وهؤلاء كان لهم رجل من أكبر الدهاة يسوسهم فمات فانحط شأنهم ، ووقع الشقاق بينهم على الزعامة ، وظهر للمسلمين تلبيسهم الباطني فقلما ينخدع بدعوتهم أحد بعده ، وزعيمهم الوارث له قد تربى تربية انكليزية مفضوحة ، فهو عاجز عن تأويلات عباس أفندي الصوفية الفلسفية الباطنية

وأما القاديانية فقد نشطوا للدعاية وهم يؤملون أن يوجدوا في بقية المسلمين ما أوجدت المسيحية في اليهود ، أعني احداث ملة جديدة تسمى المسيحية الاحمدية ، وسيفتضحون ، لان زعيمهم ومسيحهم رجل مجنون ، والعصر يطلب تجديداً للاسلام لا تقديس فيه إلا لله ، وجميع كتب مسيحهم غلام أحمد تدور على تقديس نفسه كالبهاء ، ولكنه لم يخلفه رجل داهية كعباس عبد البهاء ، يخفي كتبه عن العقلاء ، ويتصرف في التأويل لدعوته بمثل ذلك الدهاء ، وكيف يتسنى لهم اخفاء كتبه ، وقد طبعها ونشرها في عصره ، وفيها أقوى الحجج على ضلاله واضلاله ، وخزيه ونكاله؟

وجملة القول ان الصوفية ثلاث فرق : صوفية الاخلاق المهتدين بالكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح وهم من خيار أولياء هذه الامة ، وصوفية الفلسفة

الهندية الذين يسمون أنفسهم صوفية الحقائق، وغلاتهم كغلاة الشيعة الباطنية شر المبتدعة الهادمين للدين ، وصوفية التقليد وهم أهل الطرائق والزوايا الكسالى ، وان هم الا صوفية أكل واحتفالات ، وبدع وخرافات ، إلا قليلا منهم ، وهاك ما وعدنا به من رأي شيخ الاسلام ، في أولياء الله وأولياء الشيطان ، ونقفي عليه بشواهد في هذا الزمان .

(كتاب الفرقان لشيخ الاسلام)

(استمتاع البشر والجن والشياطين بعضهم ببعض، وتمثلهم بصور الاولياء والقديسين)

هـذا الكتاب لشيخ الاسلام احمد تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعـالى بين فيه تحقيق الحق في أولياء الرحمن وأوليـاء الشيطان ، ومن أهم مباحثه ملابسة الجن والشياطين للناس وتلبيسهم عليهم واستمتاع كل منهما بالآخر وظهور بعضهم لبعض الناس في صور مشايخهم وغـيرهم من الاولياء والخضر والانبياء عليهم السلام ، والايحاء إلى بعضهم فيما يضلهم ويغويهم ، وظهور بعض المؤمنين منهم فيما هو نافع ، ومن ذلك ماوقع له هو نفسه . وفي هـذا الكتاب من مباحث التفسير وهدي السنة والتفرقة بين المعجزات والكرامات وبين السحر والكهانة واستخدام الجن والتأويل الباطل ووجوب الاتباع مالا يوجد في غيره ، وحكايات استخدام الجن كثيرة في قديم الامم كلها وحديثها ، وأكثر الذين يدعونها أو كلهم دجالون محتالون على أكل اموال الناس بالباطل ، وأكثر من يتمثلون لهم لايعلمون انهم منهم ، وشيخ الاسلام محقق وصديق لايرمي القول على عواهنه

ومما قاله في هـذا الكتاب انه قد تواتر عن كثير من المسلمين واليهود والنصارى رؤية من يقول لهم انه الخضر وانهم صادقون في قولهم ، ولكن الذي يتراءى لهم ويقول هذا القول شيطان لا الخضر الذي ثبت عند المحدثين انه قد مات، ومثل ذلك ظهور المسيح عليه السلام لكثير من النصارى عقب رفعه وبعده إلى الآن ثم قال :

« وأصحاب الحلاج لما قتل كان يأتيهم من يقول أنا الحلاج فيرونه في صورته

وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقي(١) بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة، وأراني صادق من أصحابه الكتاب الذي أرسله فرأيته بخط الجن ، وقد رأيت خط الجن غير مرة — وفيه كلام من الجن، وذاك المعتقد يعتقد ان الشيخ حي، وكان يقول انتقل ثم مات، وكذلك شيخ آخر كان بالمشرق وكان له خوارق من الجن ، وقيل كان بعد هذا يأتي خواص أصحابه في صورته فيعتقدون انه هو . والذين كانوا يعتقدون بقاء علي أو بقاء محمد بن الحنفية قد كان يأتي الى بعض أصحابهم جني في صورته ، وهكذا منتظر الرافضة (٢) قد تراه أحدهم أحيانا ويكون المرئي جنياً

«فهذا باب واسع واقع كثيراً ، وكلما كان القوم أجهل كان عندهم أكثر ،ففي المشركين أكثر مما في النصارى ،وهو في النصارى كما هو في الداخلين في الاسلام ، وهذه الامور يسلم بسببها ناس ويتوب بسببها ناس يكونون أضل من أصحابها فينتقلون بسببها إلى ما هو خير مما كانوا عليه، كالشيخ الذي فيه كذب وفجور من الانس قد يأتيه قوم كفار فيدعوهم إلى الاسلام فيسلمون ويصيرون خيراً مما كانوا وإن كان قصد ذلك الرجل فاسداً، وقد قال النبي ﷺ «ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم » (٣) وهذا كان كالحجج والادلة التي يذكرها كثير من أهل الكلام والرأي فانه ينقطع بها كثير من أهل الباطل، ويقوى بها قلوب كثير من أهل الحق، وإن كانت في نفسها باطلة فغيرها أبطل منها ،والخير والشر درجات ، فينتفع بها أقوام ينتقلون مما كانوا عليه إلى ما هو خير منه

«وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين ، وهو

(١) الشيخ ابراهيم الدسوقي كان في عصر شيخ الاسلام ابن تيمية
(٢) بفتح الظاء المعجمة يعني المهدي الذي يقولون انه اختفى في السرداب
(٣) الجملة الاولى في أثناء حديث من الصحيح والجملة الثانية باللفظ وبالمعنى في غير الصحاح

خير من أن يكونوا كفاراً (١) وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزوا يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثما بذلك، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاروا مسلمين، وذاك كان شراً بالنسبة إلى القائم بالواجب، وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير، وكذلك كثير من الاحاديث الضعيفة في الترغيب والترهيب والفضائل والاحكام والقصص قد يسمعها أقوام فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه وإن كانت كذبا (٢) وهذا كالرجل يسلم رغبة في الدنيا ورهبة من السيف، ثم إذا أسلم وطال مكثه بين المسلمين دخل الايمان في قلبه، فنفس ذل الكفر الذي كان عليه وانقهاره ودخوله في حكم المسلمين خير من أن يبقى كافراً فانتقل إلى خير مما كان عليه وخف الشر الذي كان فيه، ثم إذا أراد الله هدايته أدخل الايمان في قلبه، والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، والنبي ﷺ دعا الخلق بغاية الامكان، ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الامكان، (ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون) وأكثر المتكلمين يردون باطلا بباطل وبدعة ببدعة، لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهي بدعة أهل السنة (٣) وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع. اه المراد منه

(أقول) كل المشاهدات التي نقل خبرها شيخ الاسلام هنا مشهورة عن أهل عصره وأهل عصرنا، وقد نقل عن الشيعة انهم يستفتون المهدي المنتظر في بعض المشكلات فيضعون ورقة الاستفتاء في شجرة ثم يجدون الفتوى مكتوبة عليها، وانها عندهم من أقوى الحجج أو أقواها، وقد بينا هذا في المنار، ومن هذا ما يكون من حيل شياطين الناس وتزويرهم، ومنهم من هم شر من شياطين الجن

(١) يشبه هذا دعاة القاديانية الملقبين بالاحمدية الى الاسلام في اوربة وغيرها فهم فريقان منهم من يقول إن القادياني مصلح مجدد لا نبي فهم مبتدعون، ومنهم من يقول انه نبي كان يوحى اليه من الله وهم كفار مرتدون

(٢) أي والواضع لها والداعي اليها والمحتج بها كلهم آثمون اذا علموا ذلك

(٣) أي الذين يدعون أو يلقبون بأهل السنة فما من أتباع مذهب منهم إلا وقد فتن بعضهم بالبدع، وقد بين ذلك شيخ الاسلام في مواضع من كتبه ومنها هذا الكتاب

(بعض حكايات النصارى المعاصرين في رؤية المسيح ومريم عليهما السلام)

إن الذين يتراءى لهم المسيح أو أمه عليهما السلام أو غيرهما من القديسين عندهم كثيرون ومن الرجال المشهورين بهذا في هذا الزمان رشيد بك مطران وهو وجيه سوري من بعلبك مشهور يقيم في أوربة ويكون غالبا في (باريس) فهو يرى أو يتراءى له مثال السيدة مريم العذراء في اليقظة كثيراً ويسألها عن كثير مما يشكل عليه فتجيبه . وحدثني الامير شكيب ارسلان عنه انه سألها مرة عن نبينا (ص) فأجابته مثنية عليه ﷺ ثناء عظيما لم أحفظه

وقرأت في جريدة مرآة الغرب العربية التي صدرت في (نيويورك) في مارس سنة ١٩٣٣ رسالة من عمان عاصمة إمارة شرق الاردن كتبت في ٢٦ من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٣ (الموافق ٢٩ رمضان سنة ١٣٥١) ملخصها ان امرأة نصرانية في عمان اسمها حنة بنت الياس غابي الملقب صهر الله متزوجة ولها أولاد وأخ فقيرة مشهورة بالتقوى عرض لها منذ سنة ونصف نزيف دموي عقب الولادة وأريد عمل عملية جراحية لها فأرشدت إلى التوجه أولا إلى الطبيب السماوي فدعت يسوع ليلا ثم ذهبت إلى الكنيسة بعد منتصف الليل لتصلي وهي في حال غيبوبة أو عقب رؤيا فرأت الكنيسة خالية وشاهدت في الهيكل شخصاً يحيط به نور عظيم فاشتد خوفها ورعبها ، فدعاها وقال لها لاتخافي أنا المسيح فركعت على قدميه وقالت له اشفني ياسيد، فقال لها حسب إيمانك يكون لك ، فبرئت وقرر الاطباء بعد فحصها انه لم تبق حاجة إلى العملية الجراحية فازدادت عبادة وتقوى

«ولما كان اليوم الرابع من هذا الشهر ك ٢ من «يناير» شعرت في منتصف الساعة الثالثة بعد نصف الليل بيد تهزها من الكتف ففتحت عينيها فاذا نور عظيم في الغرفة وفي وسط النور شخص ملاك يقول لها سيحدث ضيق عظيم في العالم، ولكن لاتخافوا وستكون لكم هذه العلامة - وكان بيده كأس فغمس اليد الاخرى في الكأس وبأصابعه الثلاث وضع على جبينها علامة ثم تركها وقال اعطوا مجد الله . فقامت وصارت تمجد الله بصوت عال، فهب أهلها وقالوا لها ماذا جرى لك؟ فقالت

ألم تروا النور وتسمعوا الصوت ؟ قالوا لا ،قالت جيئوني بالضوء ، فلما أحضروا القنديل رأوا في جبينها علامة طائر يشبه النسر صافا جناحيه ممتداً على طول جبينها وعرضه (أي جبهتها) وليس ماساً للحاجبين ولا شعر الرأس ولونه عنابي كالدم ورسمه متقن كأنه رسم فنان عظيم»

وقالت كاتبة الرسالة ان أهل عمان لما علموا بهذه الحادثة أقبل الناس من وطنيين وأجانب على اختلاف أديانهم فشاهدوا هذا الرسم وعني الاطباء بإزالته فعجزوا وان الذين شاهدوها يعدون بالمئات،ثم نقلت عن قسيس معروف جاء من نابلس وكتب عنها ما يأتي ملخصا :

«قالت انه ظهر لها الملاك مرة ثانية في ليلة السبت السابعة من الشهر نفسه (يناير) ووضع يده على جبينها فزالت العلامة ، فقالت له يارب ارفع الضيق عن العالم ،فقال « سيرون أعمال الله » قالت ارحمنا يارب، قال « تكفيكم نعمتي » وفي ثاني ليلة أفاق أهلها فوجدوها واقفة تتكلم بالعبراني فكتبوا ماقالته وترجموه بالنهار فاذا هو تسبيح وتمجيد لله ، ثم تكرر ذلك منها في الليالي التالية باللغات الالمانية والفرنسية والطليانية وفي الخامسة وثلث بالعربي واليوناني،وكانت ترتيلة العربي من نظمها وقولها « اصفح عن ذنبي ياربي،خذني ياربي،خذني الى أورشليم» ثم لم يحدث شيء.إلا ان الملاك ظهر لها ليلة ١٧ من الشهر ووضع عليها العلامة وقال « لتكن هذه العلامة مباركة ثم اختفى،ثم ظهر بعد يومين ومحا العلامة» اه باختصار وبلفظه إلا تصحيح كلمات قليلة

(أقول) سئل بعض أدباء المسلمين في عمان كتابة عن هذه الحكاية وعما روي في بعض الجرائد من رؤية موتى من الصحابة لم تبل أجسادهم ولا لفائفهم فأنكرها . وقد سبق لي تحقيق لامثال هذه الحكايات ملخصه ان منها ماهو كذب محض ، ومنها ماهو تخيل ولدته الاوهام ، يشبه الرؤى والاحلام ، ومنها ماهو رؤية لشيء موجود في الخارج من عالم الارواح التي تتمثل بأجسام لطيفة جداً لايدركها إلا بعض الناس في أحوال خاصة قريبة من التجرد من كثافة الحس ، ومنها مايتمثل بصورة مادية كثيفة كما صح من رؤية بعض الصحابة (رض) الملك

وللجن ، والمشتغلون من الافرنج بمعالجة رؤية الارواح يسمون صاحب الاستعداد الخاص لرؤية الارواح ومخاطبتها بالوسيط، والراجح عندنا ان أكثر المدعين لذلك أولو كذب وحيل وتلبيس، وان أقلهم يرون بعض الشياطين من جند ابليس، ولاسيما شياطين الموتى وقرنائهم العارفين بأحوالهم ، وشيخ الاسلام يقول ماقرأت آنفا وهذا الذي يقوله لاينكر أحد من الصوفية وقوعه لكبار شيوخهم ، بل أثبتوا ان الشيطان يتراءى لهم ويلقنهم كلاما مدعياً انه ربهم كما حكاه الشعراني وغيره عن الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي اتفقوا على انه كان القطب الغوث الاكبر

وملخصه انه رأى نورا عظيما ملأ الافق وسمع منه صوتا يخاطبه بانه ربه وقد أحل له المحرمات ، فقال له : اخسأ يالعين ، فتحول النور ظلاما ودخانا ، وقال له قد نجوت مني بفقهك الخ وانه فتن بهذا كثيرين من كبار الشيوخ . ومن المعلوم أن جميع غلاة الصوفية قد ادعوا أن الله خاطبهم بالحقائق وكشف لهم منها مالم يكشفه لغيرهم كما تقدم وهم يتمارضون في دعاويهم الشيطانية كما تقدم

وللشيخ عبد الوهاب الشعراني كتاب صغير سماه (الانوار القدسية ، في بيان آداب العبودية) مطبوع مع كتابه الطبقات ذكر في أوله انه سمع وهو في حالة بين النائم واليقظان هاتفا يسمع صوته ولا يرى شخصه يقول له على لسان الحق سبحانه وتعالى كلاما ذكره قال « فما استتم هذا الكلام وبقي عندي شهوة نفس لمقام من مقام الاولياء لافي الدنيا ولا في الآخرة » ثم بسط الكلام على مرادهم بالهاتف وعلله بقوله « خوفا أن يتوهم أحد من القاصرين الذين لا معرفة عندهم بمراتب الوحي ان ذلك وحي كوحي الانبياء عليهم الصلاة والسلام فأقول

«اعلم ان الهاتف المذكور لايخلو إما أن يكون ملكا أو ولياً أو من صالحي الجن او هو الخضر عليه السلام أو غير ذلك ، لان الخضر عليه السلام حي باق لم يمت وقد اجتمعنا بمن اجتمع به وبالمهدي وأخذ عنهما طريق القوم الخ

ثم انه جعل الوحي أقساما وضروبا كثيرة وذكر منها الكهانة والزجر — اي وهو أسفلها — ووحي التشريع الديني الخاص بالانبياء (ع.م) وما بينهما .

ثم ذكر ان بعض الفقراء من الاخوان سأله أن يملي على إلقاء الهاتف الذي سمعه جملة

مما فهمه من آداب العبودية وآداب طلب العلم وآداب الفقراء عموما وخصوصاً

« ومايدخل على كل طائفة من الدسائس في مقاصدهم لان الشيطان لهم بالمرصاد ولا ينجو منه الا القليل من عباد الله » وهذا محل الشاهد.

وأقول ان هاتفه الذي جعله الاصل لهذا التأليف هو من دسائس الشيطان أيضا لانه غير موافق للشرع المعصوم بل في هذا الكتاب كثير من المخالفة له، وكذا كتابه لطبقات فهي من اشد الكتب إفساداً للدين أصوله وفروعه وآدابه بما فيها من وحي الشياطين، فقد أصبح الملايين من المسلمين مشركين بالله تعالى بعبادة هؤلاء الذين يسمونهم الاولياء، وقبول ما نقل عنهم من وحي الشياطين، وهم يتبعون الدجالين ومدعي علم الغيب وقضاء الحوائج بالكرامات أو استخدام الجن، وهؤلاء الدجالون يسلبون أموالهم، ويهتكون أعراضهم، وفي نص كتاب الله تعالى ان الجن لا يعلمون الغيب، وأصبح فريق آخر من المسلمين الذين تلقوا العلوم العصرية وتربوا تربية استقلالية، يعتقدون ان الاسلام دين خرافي كغيره من الاديان

على أن من دعاة الاديان والنحل الجديدة المتولدة من التصوف من ألبسوا دعايتهم ثوب المدنية العصرية، وهم يبثونها في بلاد الافرنج كالبهائية والقاديانية الاحمدية، وكل خلابتهم مستمدة من تأويلات الصوفية الذين ادعوا الوحي وادعوا الالوهية من طريق وحدة الوجود وغيره كما تقدم آنفا.

والامة الاسلامية قد جعلها الله وسطا بين الغالين والمقصرين، من المعطلين والمشركين، فهي لا تعبد إلا الله، ولا تؤمن بوحي ولا نبوة لأحد بعد محمد خاتم النبيين، ولا بتشريع ديني الا ماجاء به عن الله، ولا بولاية إلا ما تقدم بيانه في كتاب الله، وقد صار المعتصمون بهذا في أمثال هذه البلاد، التي انتشر فيها ذلك الفساد، جماعات قليلة الافراد، فان لم ينصرها الله ضاع فيها الاسلام

استطراد ، في أصل الاسلام ، وما طرأ عليه من الفساد

﴿ من طريق السياسة والفلسفة والتصوف ﴾

أيها القارئ لهذا التفسير قد آن أن أصارحك بمسائل مختصرة هي ثمرة علم وعمل وعبادة ورياضة وتصوف وتعليم و تصنيف ومناظرات ومحاجة في مدة نصف قرن كامل ، لم يشغلني عنها من حظوظ الدنيا شاغل ، وانها الكلمات في حقيقة دين الله وعلمائه وعباده صادرة عن بصيرة وتجربة ، فتأملها باخلاص واستقلال فكر ، ولا يصدنك عن النظر فيها لذاتها والاعتماد في ثبوتها على مصادرها ، حرمان المعاصرة ، واحتقار الاحياء ، وتقديس شهرة الاموات ، و اتهام قائلها بالغرور والدعوى ، فان عرض لك ريب أو شبهة في شيء منها فارجع الى مصادرها ودلائلها ، أو ارجع الى كاتبها فاسأله عنها ، بشرط أن يكون غرضك معرفة الحق لذاته ، دون التعصب والجدل ، أو التحرف لمذهب أو التحيز الى فئة

(المسألة الاولى) ان هذا الدين (الاسلام) وحي إلهي الى نبي أمي ظهر في أمة أمية جاهلية ، ليعلمها الكتاب والحكمة ، ويزكيها بالعلم والعدل والفضيلة ، فيجعلها به معلمة وهادية لجميع شعوب التعطيل والاديان والفلسفة والحضارة ، وأن الله تعالى قد شهد في كتابه بأنه أكمل هذا الدين لعباده في آخر عمر نبيه ليس لاحد ان يزيد فيه بعده عقيدة ولا عبادة ولا تحريما دينيا مطلقا ، ولا تشريعا مدنيا ، الا ما أذن به لاولي الامر من الاجتهاد على أساس [illegible] اعده ، فكان أع[illegible] الناس وأفقههم به وأصحهم دعوة اليه بالعلم والعمل ، والحكم بين الناس بالحق والعدل ، أولئك الاميون الذين تلقوه عن ذلك النبي الامي صلوات الله وسلامه عليه ، وهم خلفاؤه وأصحابه (رض) فهذه احدى معجزاته إذ لو كان هذا الدين وضعا بشريا لكان كسائر العلوم والاعمال البشرية التي تظهر مبادئها الاولى ناقصة ثم تنمي (وفي لغة ضعيفة اشتهرت تنمو) وتتكامل بالتدريج ، فهذه سنة من السنن المطردة في علوم البشر

(المسألة الثانية) من البراهين العلمية الثابتة بالشواهد العملية ، على ان هذا الدين من عند الله تعالى ، ان المسلمين قد اهتدوا بارشاده إلى البحث والنظر في جميع أمور العالم السماوي والارضي ولا سيما نوع الانسان وعلومه وفلسفته واديانه ونظمه وتشريعه وآداب شعوبه فازدادوا بكل من ذلك علما بحقية المسألة الاولى ، وظهر للراسخين في علمه ان ما أجمع عليه أولئك الاميون الاولون او أكثرهم هو الحق ، وأن كل ما خالف نصوصه القطعية من العقائد والآراء والافكار البشرية فهو باطل ، ومنه جميع نظريات المتكلمين العقلية ، وكشف فلسفة الصوفية الروحية ، وإن المصلحة للمسلمين وللبشر كافة أن يقصروا هداية الدين على نصوص القرآن المنزلة ، وما بينه من سنة الرسول المتبعة ، وسيرة خلفائه وجمهور عترته وأصحابه قبل فشو الابتداع والتفرق في الملة ، ثم ما أجمع عليه علماء الامصار من مجتهدي الامة ، وأن يعذر بعضهم بعضا فيما لا يخرج عن هذه الاصول من المسائل غير القطعية في الدين فلا يجعلوه سببا للتفرق والشقاق ، بالتعصب للمذاهب والشيع والاحزاب ، لئلا يكونوا ممن قال الله تعالى لرسوله فيهم (٦ : ١٥٩ ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) فاستحقوا وعيد قوله (٦ : ١٦٥ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون) وقوله (٣ : ١٠٥ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم)

(المسألة الثالثة) ان البدع التي فرقت الامة في أصول دينها وجعلتها شيعا تؤثر كل شيعة اتباع زعمائها ومذاهبها على كتاب الله وسنة رسوله وهدي سلفه الصالح بالتأويل ، من حيث تدعي أن أئمتها أعلم من مخالفيهم بتأويل الكتاب والحديث ، وأن بعضهم مؤيد بالكشف وبعضهم بالعصمة ، فهم أحق بأن يقلدوا ويتبعوا ، ولكن الاعلم انما يعلم بالدليل لا بالتقليد ، وإنما نفهم النصوص بقواعد اللغة والسنة العملية لا بما اصطلحوا عليه من التأويل ، ولهذه البدع المفرقة ثلاث مثارات من أركان حضارة الامم الثلاثة وهي السياسة والسلطان ، والعلم العقلي والعرفان ،

وفلسفة التعبد والوجدان ، وما يتبعه من دعوى علم الغيب المسمى بالكشف ، والكرامات الشاملة لدعوى التصرف في الكون ، ونقول في كل منها كلة

(١) السياسة الدولية وكان مثارها الاول ماشجر بين الصحابة (رض) ثم كان أشدها إفسادا ما كان بين أهل السنة والشيعة، وقد زالت الخلافة وضاعت سيادة الامة من أكثر العالم ، ومفاسدها لاتزال ماثلة ، بما للزعماء المستغلين لها من المنافع الدنيوية الزائلة ،وانها لعصبية قضتها السياسة، وستقضي عليها السياسة، وقد زالت السلطة الدينية من بعض ممالك المسلمين وبقي لها بقية في بعض ، وبعضها مذبذبة بين بين، ولا محل لبسط ذلك هنا ولا فائدة في هذا الوقت . إلا التذكير بأن المنتمين إلي مذاهب السنة قد غلبهم جهلة الاعاجم على خلافتهم بعد أن جعلوها عصبية وراثية فلم يعملوا أي عمل لتقويتها بعد ضعفها ،ولا لإحيائها بعد موتها ،ولم يضعوا نظاما للاستعداد لذلك عند سنوح الفرصة كما فعل الكاثوليك بنظام الفاتيكان البابوي ، وكانت الزيدية من الشيعة المعتدلة أشد حزما واعتصاما منهم بنصب إمام بعد إمام لهم في جبال اليمن يتولونه ويقاتلون معه . بيد أنهم قصروا في وضع نظام لتعميم الدعوة ، والاستعداد له بالعلم والمال والقوة .

ولكن غلاة الشيعة نقضوا أركان الاسلام من أساسه بدعاية عصمة الأئمة، وتأويل نصوص الكتاب والسنة ،فكان هذا أصل كل ابتداع مخرج من الملة ، اذ انتهى بأهله الى ادعاء الوحي وادعاء الالوهية ، فخرجوا من الملة سرا فعلانية

(٢) النظريات العقلية ، وتحكيمها في النصوص النقلية ، وكان أضرها وشرها ذلك التنازع بين أئمة الاتباع وعلى رأسهم الامام احمد بن حنبل ، ودعاة الابتداع من متكلمي نظار المعتزلة والجهمية ، ولولا تدخل سلطان العباسيين في نصر فريق على فريق ، لما وصلت إلى ذلك الحد من الشقاق والتفريق ، وقد ضعفت في هذا العصر في أكثر الامصار الاسلامية لانه ليس لها دول تنصر بعض اهلها على بعض ، ومتى توطدت حرية العلم كان النصر والفلج لاهل الحق، وسيموت ما بقي من علم الكلام بموت الفلسفة اليونانية التي بني على قواعدها

ونظرياتها ، بل هي قد ماتت وصارت من مواريث التاريخ العلمية ، ومات هو وإن بقيت له بقية تقليدية في بعض المدارس الاسلامية ، وسيخلفه علم آخر في حراسة العقائد من شبهات العلم وفلسفة هذا العصر ، مع ابقاء الخلاط بينهما وبين عقائد الدين ومحاولة تحكيم كل منهما في الآخر ، كما فعل نظارنا المتقدمون فجنوا على كل منهما بما أضعف سلطان الدين في أداء وظيفته وهي تزكية النفس ، بما يوقفها عند حدود الحق والعدل ، والفضيلة وعمل البر ، وأضعف سلطان العلم في أداء وظيفته وهي اظهار سنن الله في العالم وتسخير قوى الطبيعة لمنافع الناس ، وفاقا لما أرشدهم اليه القرآن ، وقول النبي ﷺ « أنتم اعلم بأمور دنياكم » رواه مسلم

ولو بقينا على تأويل المتكلمين لهان الامر ، لأنهم يجرون فيه على قواعد اللغة وأصول الفقه ومصطلح الحديث ، ولكن نبتت نابتة ودعاية لتحكيم نظريات العلم العصري والنظريات العقلية في نصوص الكتاب والسنة ، لا بتأويل يوافق اللغة وأصول الشرع كما يقول المتكلمون ، بل بترك مدلولات الكتاب والسنة بأنها غير مرادة ولا يمكن العلم بالمراد منها ، ولبعض الدعاة الى هذا الالحاد في مصر كتب تطبع ومقالات تنشر في الصحف مصرحة بهذا ، ومشيخة الأزهر تقرها لانها لا تفهمها

(٣) دعوى الكرامات والكشف ، وتحكيمه في عقائد الدين وعباداته وآدابه وتفسير نصوصه ، وفي أحكام المعاملات والحلال والحرام ، وقد نجمت البدع من هذه الناحية صغيرة كقرون المعز ثم كبرت فصارت كقرون الوعول التي تناطح الصخور ، هاجمها علماء المنقول والمعقول يؤيدهم الخلفاء والملوك فانهزمت أمامهم ، حتى اذا ما ضعف العلم فصار تقليديا ، وضعف الحكم فصار إرثا جهليا ، وصار صوفية علماء الازهر مثل الشعراني ، وسلاطين مصر مثل قايتباي ، خضعت رقاب المسلمين لولاية مثل الشيخ محمد الحضري الذي يصعد المنبر في يوم الجمعة فيخطبهم فيقول « اشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام » ثم ينزل فيسل السيف فيهرب جميع المسلمين من المسجد فلم يتجرأ أحد على دخوله الى وقت العصر ، ويزعم الشعراني ان هذا الولي الشيطاني نفسه قد خطب خطبة الجمعة يومئذ في

ثلاثين مسجداً من مساجد القطر المصري ، بناء على قاعدتهم ان الولي قد يتمثل بالصور الكثيرة في الامكنة المختلفة ، كالشياطين والملائكة . وهم لا يفرقون بينهما

ومثله ذلك الولي الذي كان يعارض القرآن بالهذيان، والولي الذي كان يسكن في ماخور المومسات ، ليشفع لكل من يأتيهن عند الله ، ويمسكه عندهن الى ان يخبره كشفه الشيطاني بقبول شفاعته فيه ومغفرة الله له ، وكان من كراماته إتيان الأتان — فهذا الكفر والشرك والالحاد ، ومعارضة القرآن ، واجتراح كبائر الفسوق والعصيان ، كله عنده وعند أمثاله من كرامات أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ويطيع أمرهم رضوان خازن الجنان ، ومالك خازن النار ، كما نقله الشعراني عن الدسوقي ، وجملة القول انهم يتصرفون في أمور الدنيا والآخرة احياء وأمواتا ، وقد رسخت هذه الخرافات في قلوب الملايين من مسلمي مصر وأمثالها من الاقطار فهم يعتمدون على هؤلاء الاولياء في أمور دنياهم وآخرتهم

وانك لتجد أكثرهم يحتج على ذلك بالآية الكريمة التي ذكرنا هذا البيان في صدد تفسيرها وبقوله تعالى (لهم ما يشاؤن عند ربهم) فهم يزعمون انه لهؤلاء الاولياء الخياليين ، وان الله تعالى يعطيهم كل ما أرادوا لانفسهم ولغيرهم في الدنيا والآخرة ، كما يزعم الذين يقولون ان منهم أقطابا متصرفين (اومدركين) بالكون كله ، وهذا افتراء على الله وتحريف لكتابه العزيز بما هو شرك به سبحانه ، وانما وردت هذه الجملة في عدة سور في جزاء اهل الجنة في الجنة لا في أولياء الخيال الخرافي المزعوم راجع سورة النحل (١٦ : ٣٠ ـ ٣٣ وسورة الفرقان (٢٥ : ١٥ و ١٦) وسورة الزمر (٣٩ : ٣٢ و ٣٣ : ٢٠) وسورة الشورى (٤٢ : ٢٠) وسورة ق (٥٠ : ٣١ ـ ٣٥)

وجملة القول ان جميع هذه الفتن المضلة لكثير من الناس عن الاعتصام بكتاب الله تعالى وسنة رسوله المبينة له على النهج الذي اهتدى به سلف هذه الامة الصالح لا يقوم لشيء منها حجة عقلية ظاهرة ولا كشفية باطنة ولو صح أنها من الاسلام لكان ما جاء الرسول ناقصا ثم كمل بها

(بطلان تأويل النصوص للنظريات العقلية والعلمية ، بَلْهَ الباطنية)

أما النظريات العقلية التي يتأول النصوص لاجلها علماء الكلام فقد ظهر بطلانها و بطلان الفلسفة التي بنيت عليها لعلماء هذا العصر وفلاسفته وقد أجمع هؤلاء على ان جميع النظريات العقلية الفلسفية والعلمية المسلمة اليوم لأنها أرجح من غيرها في بابها ، ليس فيها شيء يعد من الحقائق القطعية العلمية الثابتة التي لا يمكن نقضها ، بل كلها قابلة للنقض والبطلان كما ثبت بطلان مثلها من مسلمات القرون الماضية إلى السنين الاخيرة من هذا القرن العشرين الميلادي التي ترجح فيها أن كل ما عرف في هذا الكون من مظاهر المادة والقوة هو مظهر لتركيب خاص مجهول لجزئي الكهرباء الايجابي والسلبي المعبر عنهما بكلمتي (البروتون والالكترون) فبطلت بهذا جميع النظريات العلمية في المادة والقوة ، فكيف يجوز إذن تأويل نص ديني قطعي الرواية والدلالة في خبر عن عالم الغيب من الوحي الالهي ، لنظرية ظنية في عالم الشهادة من الرأي البشري ؟

واذا بطل تأويل علماء الكلام المتقدمين المبني على قواعد النظر العقلي ومراعاة مدلولات اللغة ، واشتراط عدم المخالفة لاصل من قواعد الشرع ، وبطل تأويل المعاصرين لما يخالف العلوم العصرية ، فأجدر بتأويلات الباطنية ان تكون أشد بطلانا لانها تحكم في اللغة بما لاتدل عليه مفرداتها ، ولا قواعد نحوها وبيانها ، وناقضة لاصول الشرع وقواعده القطعية الثابتة بالاجماع المتواتر ، والعمل الذي لا مجال للتأويل ولا للتحريف فيه ، كتأويل الاسماعيلية القرامطة السابقين ، والبهائية والقاديانية اللاحقين ، البهائية الذين يدعون الى ألوهية البهاء ، والقاديانية الذين يدعون الى نبوة ميرزا غلام أحمد ، وكل منهما يستدل بتأويل القرآن والحديث مخالفا للغتهما على دينه الجديد الذي غايته أن يتبعه الناس ويقدسو .

بطلان الاخذ بالكشف في الدين

وأما الكشف فهو ضرب من إدراك النفس الناطقة غير ثابت ولا مطرد فليس بدليل عقلي ولا شرعي، وانما هو ادراكات ناقصة تخطئ وتصيب، وقد عرفت أسبابه الطبيعية وأن منها ما هو فطري، ومنها ما هو كسبي وصناعي، كالتنويم المغناطيسي المعروف في هذا العصر، ومايسمونه قراءة الأفكار ومراسلة الأفكار، ويشبهونه بنقل الأخبار بخطوط الاسلاك الكهربائية وبدونها، وهو يقع للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، ويعترف به صوفية المسلمين لصوفية الهندوس وغيرهم، كما يعترفون بتلبيس الشياطين عليهم فيه، وقلة من يميز بين الكشف الشيطاني والكشف الحقيقي منهم، ولا يصح أن يسمى حقيقيا الا ما وافق نصا قطعيا

ومن دلائل الخطأ والتلبيس والتخيلات في الكشف الذي يسمونه النوراني تعارض أهله وتناقضهم فيه، وما يذكرونه فيه من معلوماتهم المختلفة باختلاف معلوماتهم الفنية والخرافية والشرعية، فترى بعضهم يذكر في كشفه جبل قاف المحيط بالارض والحية المحيطة به كما تراه في ترجمة الشعراني للشيخ أبي مدين وهو من الخرافات التي لا حقيقة لها، ومنهم من يذكر في كشفه الافلاك وكواكبها على الطريقة اليونانية الباطلة أيضا. وأكثرهم يذكرون في كشفهم الاحاديث الموضوعة، فان اعترض عليهم أو على المفتونين بكشفهم علماء الحديث قالوا ان الحديث قد صح في كشفنا وان لم يصح في رواياتكم، وكشفنا أصح لانه من علم اليقين وعلمكم ظني. والحاصل ان كشفنا هذا شأنه وشأن أهله إن صح ان يصدق فيما لا يخالف نصوص الشرع وعقائده وأحكامه فلا يصح لمن يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله ان يصدق منه ما يخالفهما وان يثبت من أمر عالم الغيب مالم يثبت بهما، وما أغنانا عن هذا كله، وفي جمع الجوامع أن الالهام — وهو الكشف الصحيح عندهم « ليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوما بخواطره خلافا لبعض الصوفية » أي ولا يعتد بخلافهم لانهم خالفوا به الاصول كما خالفوا النصوص .

الكرامات لا تدل على الولاية فضلا عن العصمة

وأما الكرامات فهي نوع من خوارق العادات التي تروى عن جميع الامم المختلفة الاديان والملل ، وقد قال علماء الكلام انها تقع للمؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والنبي والساحر ، ويختلف اسمها باختلاف من ظهرت على يديه فتسمى معجزة للنبي المرسل اذا تحدى بها وكرامة للرجل الصالح المتبع للرسول ومعونة لمن دونه من المؤمنين واستدراجا للكافر والفاسق

وصحت الاحاديث بأن الدجال يظهر على يديه من الخوارق الكبرى ماقلما كان مثله في المعجزات حتى احياء الموتى . وقال أئمة الصوفية العارفون اذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تمتدوا به (او كلمة بهذا المعنى) حتى تروه عند الامر والنهي الشرعيين ، وقال مثل ذلك الخلاطون منهم ، ففي الباب الثالث من كتاب (الانوار القدسية) للشعراني « وظهور الكرامات ليس بشرط في الولاية وانما يشترط امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ، فيكون أمره مضبوطا على الكتاب والسنة فمن كان كذلك فالقرآن يشهد بولايته وان لم يعتقد فيه أحد » الخ وهذا عين ماحققناه في تفسير الآية .

ومن خلطه أن أكثر ماذكره من كلامهم في طبقاتهم مخالف لشرطه فهو يبطل ولاية أكثر رجال أهلها من العقلاء فضلا عن المجاذيب المجانين ، فانهم لا يعدون من الاولياء العارفين ، لانهم غير مكلفين .

ومنه وفي الباب الاول منه « فلو رأينا الصوفي يتربع في الهواء لا يعبأ به الا اذا امتثل أمر الله واجتنب نهيه في المحرمات الواردة في الكتاب والسنة مخاطبا بتركها كل الخلق المكلفين لا يخرج عن ذلك أحد منهم ، ومن ادعى ان بينه وبين الله تعالى حالة أسقطت عنه التكاليف الشرعية من غير ظهور امارة تصدقه على دعواه فهو كاذب ، كمن يشطح من شهود في حضرة خيالية على الله وعلى أهل الله ولا يرفع بالاحكام الشرعية رأسا ولا يقف عند حدود الله تعالى مع وجود عقل التكليف عنده فهذا مطرود عن باب الحق ، مبعد عن مقعد الصدق ، وحرام على الفقيه وغيره ان يسلم لمثل هذا » اه وهو يخالف هذا الحق في مواضع أخرى

ثم قال (في آخر ص ٨ منه) واعلم ان طريق القوم على وفق الكتاب والسنة فمن خالفهما خرج عن الصراط المستقيم كما قال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد (رض) فلا تظن أنهم كانوا كحال غالب المنسوبين الى التصوف في هذا الزمان فتسيء الظن بهم، انما كانوا رضي الله عنهم عالمين بأسرار الشريعة قائمين صائمين زاهدين ورعين خائفين وجلين كما يعلم ذلك من تراجمهم وطبقاتهم ، وانما أنكر من أنكر على المتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين ست مرات منهم، فكل قرن منهم بالنسبة لمن قبله يصح عليه الانكار اذ ادعى أنه على طريقة من كان قبله لان الناس لم يزالوا راجعين القهقرى واليه الاشارة بقوله ﷺ « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الحديث اه

أقول ان هذا التصوف قد ذر قرنه في أواخر القرن الثاني وظهر الشذوذ في المنتحلين له في القرن الثالث . وقد قال الامام الشافعي الذي توفي سنة ٢٠٢ اذا تصوف الرجل في الصباح لا يأتي المساء أوقال العصر إلا وهو مجنون. وأنكر الامام أحمد الذي توفي سنة ٢٤١ بعده على خيارهم ونهى عن قراءة كتب الحارث المحاسبي على التزامه الكتاب والسنة علما وعملا كما بيناه في تفسير سورة براءة، وقد توفي الحارث في سنة ٢٤٣ وهو أستاذ أكابر البغداديين وممن أخذ عنه سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد . فاذا قلنا إن الشعراني يعد أهل قرنه العاشر في الدرجة السادسة من المتشبهين بالصوفية فالظاهر أنه يعد أهل القرن الخامس أول المتشبهين الذين ينكر عليهم. وقد أنكر الغزالي في كتاب الغرور من الاحياء على المتشبهين بهم وعد منهم فرقا من أهل المكاشفات ، وكان ذلك في أواخر القرن الخامس فان الغزالى توفي سنة ٥٠٥ وكان قد تاب الى الله من علوم التصوف والكلام وانقطع الى علم السنة ،ثم ان ابن الحاج المالكي المتوفي سنة ٧٣٧ تكلم في كتابه المدخل على هؤلاء المتشبهين بالمشايخ من أهل عصره في القرن الثامن وبين مالهم من المنكرات ، وفند مايدعونه من الكرامات . وقام في هذا القرن أيضا شيخ الاسلام ، مدره السنة الاكبر ،وقامع البدع الاقهر ، أحمد بن تيمية فبذ من قبله، وأغنى عن جاء بعده، وعلى كتبه وكتب تلميذه ابن القيم المعول

تفضيل أهل الحديث على غيرهم

وبما كتبه الشعراني في كتابه هذا من الحق بين الاباطيل قوله في الباب الثاني من كتابه المذكور ـ وهو في طلب العلم ـ ما نصه :

« واعلم أنه ما مت بالارث للانبياء عليهم السلام على الحقيقة الا المحدثون الذين رووا الاحاديث باسند المتصل الى النبي ﷺ كما قاله شيخنا فلهم حظ في الرسالة لأنهم نقلة الوحي وهم ورثة الانبياء في التبليغ ، والفقهاء بلا معرفة دليلهم ليس لهم هذه الدرجة فلا يحشرون مع الرسل انما يحشرون في عامة الناس ، فلا ينطبق اسم العلماء حقيقة الا على أهل الحديث . وكذلك العباد والزهاد وغيرهم من أهل الآخرة اذا لم يكونوا من أهل الحديث حكمهم حكم الفقهاء الذين ليسوا من أهل الحديث ، فيحشرون مع عموم الناس ويتميزون عنهم بأعمالهم الصالحة لا غير ، كما ان الفقهاء يميزون عن العامة في الدنيا ، لاغير » اهـ ولكن بعض من يسمون كبار العلماء في زماننا يفضلون خرافات المتشبهين بالمتصوفة في الدرجة السادسة الى العاشرة وآراء مقلدي الفقهاء في الدرجة الخامسة — وهي السفلى — على علماء الحديث وفقهائه وحكمائه ، ويطعنون في المحدثين وكل من يهتدي بالحديث قولا وكتابة ، بل صرح بعضهم بأن من يعمل بالحديث فهو زنديق !!

اقرار متقدمي الصوفية ومتأخريهم بوجوب اتباع السلف

تواتر عن شيوخ الصوفية المتقدمين ان أصل طريقهم اتباع الكتاب والسنة وموافقة السلف كما تقدم آنفا ، وتجد مثل هذا في كلام الصوفية الشاذين الذين خلطوا البدع بالسنن وزعموا أنهم يأخذون علومهم عن الله الحي الذي لا يموت مباشرة وان علماء التفسير والحديث يأخذون علومهم عن الميتين كالفقهاء والمتكلمين ، وهذا أساس الابتداع بل المروق من الدين. وبما نقله الشعراني عن الشيخ ابراهيم الدسوقي من الخلط بين الحق والباطل ما نصه :

« وكان (رض) يقول اسلم التفسير ما كان مرويا عن السلف ، وأنكره ما فتح به على القلوب في كل عصر ، ولولا محرك يحرك قلوبنا لما نطقت الا بما

ورد عن السلف فاذا حرك قلوبنا وارد استفتحنا باب ربنا وسألناه الفهم في كلامه فنتكلم في ذلك الوقت بقدر مايفتحه على قلوبنا ، فسلوا لنا تسلموا ، فاننا تجارة فارغة ، والعلم علم الله تعالى » اه

أقول من أين نعلم أو يعلمون هم أن خواطرهم التي يسمونها الواردات من الالهام الالهي لا من الوسواس الشيطاني، وكيف نسلم لهم مالا نعلم ، والالهام الصحيح ليس بحجة كما تقدم ؟ ثم كيف لا ننكر عليهم مانراه مخالفا للكتاب والسنة وآثار السلف ، وموافقا لالحاد الباطنية أو بدع الخلف ، وانا وإياهم متفقون على انه هو الحق الذي لا يصح الخلاف فيه ؟

فثبت اذاً ان أولياء الله تعالى الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، هم من عرفهم تعالى بقوله الحق (الذين آمنوا وكانوا يتقون) وانهم درجات كما بينها الله تعالى في قوله (٣٥: ٣٢ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير) فالظالم لنفسه من يقصر في اتباع الكتاب ولو بترك بعض الفضائل، والمقتصد من يترك مانهي عنه ، ويفعل ما أمر به من الواجبات القاصرة على نفسه، والسابق بالخيرات من يزيد على ذلك التقرب بالنوافل ، والتكمل بالفضائل ، والجمع بين التعلم والتعليم والتأدب والتأديب ، حتى يكون إماما للمتقين ، فهذه درجة المقربين من شهداء الله والصديقين، وما قبلها درجة الصالحين من الابرار أصحاب اليمين، فراجع سورتي الواقعة والمطففين ، ففيهما بيان لقوله تعالى (٤ : ٦٩ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) وهي تفسير لدعائك في كل ركعة بقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم*صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)

وبهذا تقوم حجة الله على العالمين ، بان هذا الدين تنزيل من رب العالمين ، وقد أكمله لنا قبل أن يقبض الله رسوله محمدا خاتم النبيين ﷺ وإنه لو صح شيء مما ابتدعه الناس فيه بفلسفتهم العقلية أو النفسية او بما ادعوه من الكشف لما صحت شهادة الله باكماله ، ولا أنه من عنده لامن عند أحد من خلقه ، وهذا كل غرضنا من هذا البحث ، وقد ظهر به الحق ولله الحمد

(٦٥) وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
(٦٦) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَتَّبِعُ
الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ
مُبْصِرًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

بعد ان بين الله تعالى لرسوله حال أوليائه وصفتهم وما بشرهم به في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وكونه لاتبديل لكلماته فيما بشرهم ووعدهم كما انه لاتبديل لها فيما أوعد به أعداءه المشركين، وكان هذا يتضمن الوعد بنصره ونصر من آمن اه وهم أولياء الله وأنصار دينه على ضعفهم وفقرهم، وكانت العزة أي القوة والغلبة في مكة لاتزال للمشركين بكثرتهم التي يعبرون عنها بقولهم : وإنما العزة للكاثر، وكانوا لغرورهم بكثرتهم وثروتهم يكذبون بوعد الله وكان ذلك يحزنه ﷺ بالطبع كما قال (٦: ٣٣ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فانهم لايكذبونك) الآية قال تعالى مسليا له ومؤكداً وعده له ولاوليائه، ووعيده لأعدائهم وأعدائه :

٦٥ ﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ نهاه عن الحزن والغم من قولهم الذي يقولونه في تكذيبه الذي تقدم مفصلا في هذه السورة فحذف مقول القول للعلم به وبين له سبب هذا النهي بقوله ﴿ إن العزة لله جميعا ﴾ أي ان الغلبة والقوة والمنعة لله جميعها لا يملك أحد من دونه شيئا منها، فهو يهبها لمن يشاء ويحرمها من يشاء، وليست للكثرة دائما كما يدعون، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، وقد وعد بها رسله والذين آمنوا بهم واتبعوهم من أوليائه، كما قال (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز * إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد * ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فعزته تعالى ذاتية له، وعزة رسوله

والمؤمنين به ومنه عز وجل ، كما قال (وتعز من تشاء وتذل من تشاء) وقرأ نافع (يحزنك) بضم الياء من أحزنه وهي لغة، وقرئ (أن العزة) بفتح همزة ان لحذف لامها وهي للتعليل الذي تدل عليه قراءة الجمهور بالكسر على الاستئناف البياني.

﴿ هو السميع ﴾ لما يقولون من تكذيب بالحق وادعاء للشرك ﴿ العليم ﴾ بما يعملون من إيذاء وكيد ومكر ، فهو يذلهم ويحبط أعمالهم ، وهذا استئناف آخر في تقرير مضمون الاول وهو تسليته ﷺ وتأكيد وعده بالعزة ووعيد تكذيبه. ثم استدل على كون العزة له جميعا والجزاء بيده بقوله مستأنفا أيضا ومفتتحا بأداة التنبيه

٦٦ ﴿ألا إن لله من في السموات ومن في الارض﴾ من عابد ومعبود فهو ربهم ومالكهم وهم عبيده المربوبون المملوكون له ﴿ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ له في ربوبيته وملكه ، أي ان هؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله بدعائهم في الشدائد ، واستغاثتهم في النوازل ، والتقرب اليهم بالنذور والقرابين والوسائل ، لايتبعون شركاء له في تدبير امور عباده ينفعونهم أو يكشفون الضر عنهم اذلا شركاء له ، ﴿ ان يتبعون إلا الظن ﴾ أي مايتبعون في الحقيقة إلا ظنهم أن هؤلاء الذين يدعونهم أولياء لله وشفعاء عنده ، فهم يتوسلون بهم وبتماثيلهم اليه ، لانهم يقيسونه على ملوكهم الظالمين المتكبرين، الذين لايصل اليهم أحد من رعاياهم إلا بوسائل حجابه ووسائطه ووزرائه ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾ أي وما هم في اتباع هذا الظن الذي لا يغني من الحق شيئا ، إلا يخرصون خرصا، أي يحزرون حزرا ، أو يكذبون كذبا ، أصل الخرص الحزر والتقدير للشيء الذي لا يجري على قياس من وزن أو كيل أو ذرع ، بل هو كخرص الثمر على الشجر والحب في الزرع ، ولكثرة الخطأ فيه أطلق على لازمه الغالب وهو الكذب ، فالظن الذي يبنى عليه يكون من أضعف الظن وأبعده عن الحق ، مثاله ماذكرناه آنفا من قياس الرب في تدبير أمور عباده على الملوك، وهذا قياس شيطاني سمعته من جميع طبقات الجاهلين لعقائد الاسلام، وتوحيد الرحمن ، حتى من يلقبون بالعلماء وبالباشوات ، ومثله قولهم في وسائلهم الذين يسمونهم الاولياء : ان الله يحبهم ، وكل من يحب أحدا فانه يقبل وساطته

وشفاعته ، فيقيسون تأثير عباد الله الصالحين عنده تعالى ، على تأثير أصدقاء الملوك والوجهاء ومعشوقيهم في قبولهم منهم جميع ما يطلبونه ، ويجهلون ان أفعال الله تعالى انما تجري بمقتضى مشيئته الازلية على وفق علمه الذاتي المحيط وحكمته البالغة العادلة ، وان صفاته تعالى كاملة أزلية لاتؤثر فيها الحوادث ، وان جميع أوليائه وأنبيائه وملائكته عبيد مملوكون له (١٧ : ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا) أي ان أقرب أولئك الذين يدعونهم ويتوسلون اليه تعالى بهم كالمسيح والملائكة ومن دونهم ، هم يتوسلون اليه راجين خائفين ، لا كأعوان الملوك الذين لايقوم أمر ملكهم بدونهم ، ومعشوقيهم الذين لايتم تمتعهم الشهواني إلا بهم

٦٧ ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾ هذا استدلال على مضمون ما قبله من نفي وجود شركاء له في الخلق والتقدير ، ولا بالشفاعة عنده في التصرف والتدبير ، أي هو الذي جعل لكم الوقت قسمين بمقتضى علمه ومشيئته بدون مساعد ولا شفيع ، بل بمحض الحكمة البالغة والرحمة الشاملة : أحدهما الليل جعله مظلما لاجل أن تسكنوا فيه بعد طول الحركة والتقلب في الارض ، وتستريحوا من التعب في طلب الرزق ، وثانيهما النهار جعله مضيئا ذا إبصار لتنتشروا في الارض ، وتقوموا بجميع أعمال العمران والكسب ، والشكر للرب ، فالمبصر هنا معطي الابصار سببه حسيا كان أو معنويا ، فالاول قوله تعالى (١٧ : ١٢ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم) الآية — والثاني قوله في هذه السورة أيضا (٥٩ وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أي آية مفيدة للبصيرة والحجة على صدق رسولهم ، ومثله قوله في سورة النمل (٢٧ : ١٣ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين)

وقال قطرب : تقول العرب : أظلم الليل وأبصر النهار وأضاء بمعنى صار ذا ظلمة وذا إبصار وذا ضياء اهـ وقد تكرر التذكير في التنزيل بآيات الله في الليل والنهار من خلقهما وتقديرهما ومنافع الناس فيهما ، وفي هذه الآية احتباك وهو انه حذف من كل من آيتي الليل والنهار ما أثبت مقابله في الاخرى والعكس . وفي قوله

تعالى ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ مثله ، أي ان فيما ذكر لدلائل بينات، وآيات أي آيات،على وحدانيته في الذات والصفات،لقوم يسمعون مايتلى عليهم من التذكير بحكمه تعالى ونعمه فيها سماع فقه وتدبر ، ويبصرون مافي الكائنات من السنن الحكيمة إبصار تأمل ، ، ذكر الآيات السمعية المناسبة لليل الذي قدم ذكره ، وهي تدل على الآيات البصرية المناسبة للنهار وتذكر بها ، وهو أبلغ الايجاز ، وقد جمع بينهما في مقام الاطناب من سورة القصص بقوله (٢٨ : ٧١ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة - من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون؟ ٧٢ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون؟ ٧٣ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) وأحسن بذلك الاطناب تفسيراً لما هنا من الايجاز ، ولكل منهما موقعه من بلاغة الاعجاز

---

(٦٨) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٩) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٧٠) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

هذه الآيات حكاية لنوع آخر من الكفر بالله تعالى قريب من كفر اتخاذ الشركاء له، وهو زعمهم انه اتخذ ولدا ، وقد اشترك فيه عباد الاصنام والاوثان وبعض أهل الكتاب، فحكاه عنهم مفصولا لانه نوع مستقل وتعقبه بالابطال

٦٨ ﴿ قالوا اتخذ الله ولدا ﴾ فزعم المشركون أن الملائكة بنات الله، وقالت

النصارى : المسيح ابن الله ، وقال بعض اليهود : عزير ابن الله، وتقدم في سورة التوبة (ويرى بعض المؤرخين أن عزير هو أوزيروس أحد آلهة قدماء المصريين)

﴿ سبحانه ﴾ كلمة التسبيح معناها التنزيه والتقديس أي تسبيحا له عز وجل عن كل مالايليق بربوبيته وألوهيته ، وتقال في مقام التعجب ، ويصح هنا جمع المعنيين كليهما . وقفى على هـذا التنزيه والتعجب بما يدل على بطلان قولهم بأفواههم

ماليس لهم به علم فقال ﴿ هو الغني له مافي السموات وما في الارض ﴾ أي هو الغني بذاته عن الولد، لأن كل مافي الوجود من العالم العلوي والسفلي ملك وعبيد له لايحتاج منها الى شيء ، ويحتاج اليه كل شيء، ولا يشبهه أو يجانسه منها شيء ، فالانسان يحتاج الى الولد لامور منها بقاء ذكره به وبذريته، ومنها انه قوة وعصبة له يعتز به هو وعشيرته ، ومنها ان وجوده زينة له في داره يلهو به في صغره، ويفاخر به أقرانه في كبره ، ومنها أنه قد يحتاج اليه لقضاء مصالحه وتنمية ثروته ، وقد يحتاج الى رفده وبره ، عند عجزه أو فقره ، والله تعالى لا يحتاج الى شيء من هذه

المنافع لانه هو الغني عن كل شيء بذاته لذاته أزلا وأبدا ﴿ إن عندكم من سلطان بهذا ﴾ « إن » هنا نافية و « من » مؤكدة لهذا النفي مفيدة لعمومه ، والسلطان الحجة والبرهان . والجملة تجهيل لهم ورد عليهم ، أي ماعندكم أي نوع من أنواع الدليل والبرهان متعلق بهذا القول الذي تقولونه من غير عقل ولا علم ولا وحي إلهي ، تعارضون به هذا البرهان العقلي ، وهو تنزيه الله وغناه المطلق عن الولد وغيره، وكونه

المالك لكل شيء مما في السموات والارض ﴿ أتقولون على الله مالاتعلمون ﴾ هذا استفهام تبكيت وتوبيخ على أقبح الجهل والكفر ، وهو قولهم على الله تعالى ماليس لهم به علم ، ولا سيما بعد مجيء ماينقضه من العلم البرهاني والوحي الالهي ، قال البيضاوي وغيره : وفيه دليل على ان كل قول لادليل عليه فهو جهالة ، وان العقائد لابد لها من قاطع ، وان التقليد فيها غير سائغ اهـ وقد تقدم حكاية اتخاذ الولد عن الكفار عامة وعن النصارى خاصة في سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام ، وسيأتي في سور أخرى مع ابطاله وتفنيده بالادلة ووجوه

الحجة المختلفة الاساليب ، أو التقريع والتأنيب، والانذار والوعيد(١)

٦٩﴿ قل ان الذين يفترون على الله الكذب ﴾ باتخاذهم الشركاء له، أو بزعمهم اتخاذه ولدا لنفسه ، أو بغير ذلك من التحليل والتحريم ، وغيرهما من مسائل التشريع ، أو بدعوى ولايتهم وإطلاعه إياهم على أسرار خلقه وتصريفهم في ملكه ، وقد تقدم بعضه في هذه السورة كالآيات ١٧ و ٥٩ و ٦٠ ﴿ لا يفلحون ﴾ أي لا يفوزون بما يؤملون من النجاة من عذاب الآخرة والتمتع بنعيمها بشفاعة الولد أو الشركاء الذين اتخذوهم له تعالى أو فدائهم لهم من عذاب النار

٧٠﴿ متاع في الدنيا ﴾ هذا جواب لسؤال مقدر قدير دعلى نفي فلاحهم بالاطلاق الذي يدخل فيه منافع الدنيا ، والمفترون على الله بكل نوع من أنواع الافتراء المقبولة عند الجاهلين ، لهم كثير من المنافع المادية والمعنوية من هؤلاء الساكين ، وأكثر البشر لا يزالون جاهلين يخضعون لهؤلاء الزعماء الملبسين، فهو يقول هذا متاع قليل – أو لهم متاع في الدنيا حقير ، يتلهون به في حياة قصيرة فأما قلته وحقارته فيدل عليها تنكيره مع القرينة ، وأما قصر الحياة التي يكون في بعضها فمعلوم بالاختبار ، فهما يبلغ هذا المتاع من كثرة المال وعظمة الجاه في هذه الحياة، ولا يكون الا قليلا بالنسبة الى ما عند الله في الآخرة للصادقين المتقين كما صرحت به الآيات الكثيرة ، وبالنسبة الى مالهم من ضد ذلك كما صرح به في قوله ﴿ ثم الينا مرجعهم ﴾ بالبعث بعد الموت ، وما فيه من أهوال الحشر والحساب والعرض ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ بآياتنا ونعمنا، وبالافتراء علينا ، وتكذيب رسلنا ، او الكذب عليهم بعد ان تقوم عليهم الحجة في الحساب بأنهم يستحقونه بظلمهم لانفسهم واننا لا نظلمهم شيئا ، وتقدم ذكر الرجوع اليه تعالى وما يليه من الجزاء في هذه السورة وغيرها

---

(١) راجع سورة مريم (١٩ : ٨٨ – ٩٥) وسورة الانبياء (٢١ : ٢٦ – ٢٩).

(٧١) وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧٢) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٧٣) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا، فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ

هذا سياق جديد متصل بما سبق من مقاصد هذه السورة أتم الاتصال، بتفصيله لبعض ما فيها من اجمال، وهو الاحتجاج على مشركي مكة وما حولها وسائر من تبلغهم الدعوة من المكذبين، بأن الله تعالى سيخذلهم وينصر رسوله عليهم كما نصر من قبله من الرسل على أقوامهم المجرمين، فأهلكهم وأنجى المؤمنين، فقد تقدم في أوائلها قوله (١٣ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا) الى آخر الآية ١٤ ثم قال في الرد على تكذيبهم إياه بما وعدهم من العذاب (٣٩ كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) ثم قال (٤٧ ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) جاء هذا في سياق اقامة الحجج العقلية على صدق الرسول ﷺ في دعوى الوحي وكون القرآن من عند الله لا من عنده ورأيه وكلامه، والحجج على مضمون الدعوى من التوحيد والرسالة والبعث والجزاء والتفنن فيها، والتكرار البليغ لمقاصدها، وانذار اولئك المكذبين بها فناسب ان يفصل لهم شيئا من ذلك الاجمال من هذا الوجه فجاء به معطوفا لانه مرتبط به متمم له، بخلاف سرد قصص الرسل في سورة الاعراف حيث بدأه بقوله (٧ : ٥٩ لقد أرسلنا نوحا الى قومه) لان هذه القصص أوردت هناك مستقلة،

لا تفسيرا ولا تفصيلا لمجمل قبلها وأما مناسبة هذه الآيات لما قبلها مباشرة بكونها من جنس موضوعها العام فلا تدل على هذه الخصوصية العلمية التي بها كانت البلاغة فلسفة عقلية نفسية .قال عز وجل :

٧١ ﴿ واتل عليهم نبأ نوح ﴾ أي واقرأ ايها الرسول على هؤلاء المشركين المكذبين لك من قومك، فيما أوعدتهم من عقاب الله لهم على سابق سنته في المكذبين لرسله من قبلك، خبر نوح ذي الشأن العظيم ﴿ إذ قال لقومه ياقوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله ﴾ أي نبأه حين قال لهم هذا القول فكذبوه فأغرقناهم ونجيناه هو ومن آمن معه وجعلناهم خلائف الارض — لاجميع أنباء قصته معهم (المفصلة في سورة هود التي نزلت قبل هذه السورة ووضعت بعدها في المصحف) ليعلموا من هذا النبأ الخاص سنته تعالى في نصر رسله على المكذبين من قبلهم، وانه كذلك ينصرك عليهم، فيهلك المكذبين لك المغرورين بكثرتهم وقوتهم ، وقلة من اتبعك وضعفهم، وان هؤلاء الضعفاء سيكونون خلائف الارض في قومهم وغير قومهم من سكان الارض ، قال نوح عليه السلام لقومه بعد ان طال مكثه فيهم يدعوهم الى توحيد الله وعبادته وحده والاصلاح في الارض فملوا مقامه، وسئموا وعظه وائتمروا به : يا قومي ان كان قد كبر أي شق وعظم عليكم قيامي فيكم، أو مكاني من القيام بما أقوم به من دعوتكم الى عبادة ربكم، وتذكيري اياكم بآياته الدالة على وحدانيته ، ووجوب عبادته وشكره ، والرجاء في ثوابه للمؤمنين المتقين ، او الخوف من عقابه للمشركين المجرمين ــ التذكير يطلق على الاعلام بالآيات والدلائل في أنفس الناس وفي الآفاق فيدركها العقل وتقتضيها الفطرة، حتى يكون بيانها تذكيرا أو كالتذكير لمن فقهها بشيء كان يعرفه بالقوة ، فعرفه بالفعل ، ويطلق على الوعظ والنصح المشتمل على عواقب الأمور ، وسيأتي في السورة التالية قوله لهم (١١ : ٣٤ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم) الآية

﴿ فعلى الله توكلت ﴾ دون غيره من المؤمنين الذين تستضعفونهم ، أي ان كان كبر عليكم ذلك وأردتم التفصي منه بالايقاع بي فانني قد وكلت أمري إلى

الله الذي أرسلني واعتمدت عليه وحده بعد أن أديت رسالته بقدر طاقتي ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ من أجمع الامر كالسفر والصيام وغيرهما وأجمع عليه اذا عزم عليه عزما لا تردد فيه قيل أصله جمع ماتفرق من أسبابه ومقدماته، وأجمع القوم على الشيء اتفقوا عليه كلهم لم يشذ أحد منهم ، أي أجمعوا ما تريدون من أمركم مع شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله لاتتفرقوا فيه ،وقيل التقدير وادعوا شركاءكم ليعينوكم كما تزعمون كما أدعو ربي وأتوكل عليه ﴿ ثم لايكن أمركم ﴾ الذي تعتزمونه ﴿ عليكم غمة ﴾ أي خفيا فيه شيء من الحيرة او اللبس الذي يقتضي التردد في الانفاذ بعد العزم والاجماع ، بل كونوا على علم وبصيرة فيه لكيلا تتحولوا عنه بظهور الخطأ أو التردد في كونه هو الصواب ﴿ ثم اقضوا إلي ﴾ ذلك الامر بعد اجماعه واعتزامه وبعد استبانته التامة التي لاغمة فيها ولا التباس بان تنفذوه بالفعل ، فالقضاء يطلق بمعنى أداء الشيء وتنفيذه واتمامه ومنه (فلما قضى موسى الاجل * فنهم من قضى نحبه * فلما قضى زيد منها وطرا) وتعديته بالى لافادة ابلاغه وإيصاله الى متعلقه بالفعل كما قال في أوائل السورة (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم) ويطلق بمعنى الحكم بالشيء واذا عدي هذا بالى يفيد تبليغ خبره كقوله تعالى (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب) الخ وقوله (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) ﴿ ولا تنظرون ﴾ أي لا تمهلوني بتأخير هذا القضاء وتنفيذه بعد استيفاء تلك المقدمات كلها

هذه الآية من أبلغ آيات القرآن عبارة وأجمعها على إيجازها للمعاني الكثيرة من علم النفس، ودرجة إيمان الانبياء المرسلين وثقتهم بالله عز وجل، وشجاعتهم واحتقارهم لكل مافي الحياة الدنيا من أسباب الخوف من غيره والرجاء فيما سواه، وبيان خاتمهم لسنته تعالى فيهم وفي أقوامهم، وحسن وعظه لهم بوحي ربه تعالى، فهو يضرب لحاله ومقامه معهم مثل نوح مع قومه في غرور كل منهم بكثرتهم وقوتهم وتكذيبهم واحتقارهم لرسوله ولمن آمن معه من الضعفاء والفقراء ، ولملا

تتميز به كل من الرسولين من التوكل على الله والاعتماد عليه في النصر والعزة وحسن العاقبة ، والجزم باهلاك المصرين على تكذيبه ونجاة المؤمنين المتبعين له بجعلهم خلائف الارض وأصحاب السلطان فيها

صورت الآية لاهل مكة البلغاء هذه المعاني بمطالبة نوح عليه السلام لقومه على كثرتهم وقوتهم -المشهور في تواريخ الامم وظواهر الكتب المقدسة أنهم جميع أهل الارض- بأن يفعلوا ما استطاعوا من الايقاع به واكتفاء أمره ، والاستراحة من دعوته ، مطالبة القوي العزيز المدل بيأسه ، المعتصم بايمانه بوعد ربه وتوكله عليه ، للضعيف العاجز عن تنفيذ مراده مهما يكن من استيفائه لجميع أسبابه الطبيعية والكسبية ، اذ أمرهم في المرتبة الاولى باجماع أمرهم بالعزيمة الصادقة وقوة الارادة الجازمة حتى لا يكون شيء من موجباتها متفرقا بينهم ، وان يضموا الى هذه القوة النفسية الكسبية قوة الايمان المعنوية بشركائهم وآلهتهم ، ولما كانت العزيمة الصادقة المجمعة قد يعرض لها الوهن أو الملل المقتضية للفسخ قبل التنفيذ نهاهم أن يكون في أمرهم الذي أجمعوا شيء من الغمة والخفاء الذي يقتضي ذلك

(فان قيل) ان إجماع العزم في الامر لا يكون بعد الجزم بالعلم بالمقتضي له الباعث عليه ، اذ لو كان الامر غمة امتنع إجماعه كما يمتنع إجماع الصيام من الليل في أول رمضان اذا غم الهلال في ليلة الثلاثين من شعبان ولهذا قال ﷺ «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فان غم عليكم فأكملوا شعبان ثلاثين» رواه الشيخان والترمذي عن أبي هريرة ورواه غيرهم عن غيره ، فالامر باجماع الامر يغني عن النهي ان يكون غمة فما حكمة ذكره بعده وعطفه عليه بثم الدالة على تأخره عنه في الرتبة ؟ (قلت) يكفي في إجماع الامر على الايقاع بنوح عليه السلام ان يعتقدوا انه مصلحة لهم غير معارضة بمفسدة أرجح منها ، وهذا لا يمنع ان يعرض لهم قبل تنفيذه شيء من الغمة والحيرة المقتضية للفسخ أو التردد ، فمن ثم اقتضت المبالغة في أمر التعجيز المذكور ان يؤكد بهذا النهي عن الغمة في المستقبل واقتضت البلاغة ان يعطف بثم لان مرتبته متأخرة عن مرتبة ذلك الامر وما يستلزمه من العلم بالمقتضي له ، كما ان مرتبة قضاء ذلك الامر وتنفيذه متأخرة عن مرتبة الامر

الاول والنهي كلتيها ولذلك عطفا عليها معا بثم، وأكد هذا الامر الثاني بالنهي عن الانظار معطوفا بالواو التي تفيد مطلق الجمع لا تحاد زمنهما ورتبتهما فلا ترتيب بينهما

وقرأ نافع (فاجمعوا أمركم) بوصل الهمزة وفتح الميم من الجمع أي اجمعوا ماتفرق منه ، و على هذا يكون قوله (وشركاءكم) مفعولا به معطوفا عليه . لامفعولا معه ، وقرأ الحسن وابن أبي اسحق وأبو عبد الرحمن السلمي وعيسى الثقفي (وشركاؤكم) بالرفع أي أنتم وشركاؤكم . وهذه القراءة شاذة مخالفة لخط المصحف الامام فلا تتلى في الصلاة وقرئ «أفضوا الي» من الافضاء الى الشيء وهو الوصول والانتهاء اليه مباشرة ، والظاهر أنها تصحيف وان كان المعنى المراد واحدا لا يختلف

٧٢ ﴿فان توليتم﴾ أي انصرفتم عني مصرين على إعراضكم عن تذكيري ﴿فما سألتكم من أجر﴾ أي فما سألتكم على هذا التذكير ولا على غيره من مسائل الدعوة والنصح أدنى شيء من الاجر والمكافآت فتتولوا اثقله عليكم ، او فيضرني أن يفوت علي وأحرمه فأبالي بتوليكم . ﴿ان أجري إلا على الله﴾ أي ما أجري وثوابي على دعوتكم وتذكيركم إلا على الله الذي أرسلني اليكم ، فهو يوفينيإياه سواء آمنتم أو توليتم ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي المنقادين المذعنين بالفعل لما أدعوكم إليه أسلمتم أم كفرتم ، فلا أترك شيئا مما أمرتكم به (وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه)

٧٣ ﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك﴾ أي فأصروا على تكذيبه بعد أن أقام لهم الحجة بقوله وعمله على حقية دعوته ، وبراءته من كل خوف منهم اذا كذبوا ، ورجاء فيهم اذا آمنوا ، فنجيناه هو ومن آمن معه في السفينة التي كان يصنعها بأمرنا لاجل ذلك . ولفظ الفلك هنا مفرد وهو السفينة كما عبر به في سورة العنكبوت . وهو يطلق على الجمع أيضا كما قال [وترى الفلك مواخر فيه] ويفرق بينهما بالقرائن ، ان لم توصف بالجمع كالمواخر ﴿وجعلناهم خلائف﴾ يخلفون المكذبين في الارض كلها على قلتهم ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ بعد أن أنذرهم وأوعدهم العذاب أي وأغرقناهم لانهم كذبوا بآياتنا ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾

أي فانظر أيها الرسول بعين بصيرتك وعقلك كيف كانت عاقبة القوم الذين أنذرهم رسولهم وقوع عذاب الله عليهم فأصروا على تكذيبه ، فكذا تكون عاقبة من يصرون على تكذيبك من قومك ، وكذلك تكون عاقبة المؤمنين المتبعين لك ،

قدم ذكر تنجية المؤمنين واستخلافهم على إغراق المكذبين وقطع دابرهم، لانه هو الاهم في سياق صدق الوعد والوعيد من وجهين : أولهما تقديم مصداق الوعد لتسلية النبي ﷺ وتسرية حزنه على قومه ومنهم، وثانيهما كونه هو الاظهر في الحجة على أنهما (أي الوعد والوعيد) من الله تعالى القادر على ايقاعهما على خلاف مايعتقد المشركون المكذبون المغرورون بكثرتهم وقلة أتباع النبي ﷺ وخلاف الاصل المعهود في المصائب العامة في العادة وهو أنها تصيب الصالح والطالح على سواء ، فلا تمييز فيها ولا استثناء ، ولكنه هو الذي جرت به سنة الله تعالى في مكذبي الرسل من بعد نوح فكان آية لهم ، فلولا أن الامر بيد الله على وفق وعده ووعيده لما هلك الالوف الكثيرون ، ونجا أفراد قليلون لهم صفة خاصة أخرجهم منهم تصديقا لخبر رسولهم، وما سيق هذا النبأ هنا الا لتقرير هذا المعنى، وغفل عنه الباحثون عن نكتة البلاغة في العدول عن الضمير الى الاسم الموصول فقالوا انها تعجيل المسرة للمؤمنين والايذان بأن الرحمة مقدمة على العذاب ، ولكن ماقلناه هو المقصود الاول لذاته الذي يقتضيه السياق والحمد لله ملهم الصوب

---

(٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ

بين الله تعالى في هذه الآية عبرة أخرى من عبر مكذبي الرسل وسنة من سننه فيهم تكملة لما بينه في حال قوم نوح مع رسولهم عسى أن يعتبر بها أهل مكة فيعلموا كيف يتقون عاقبة المكذبين من قوم نوح وغيرهم، فان كل سوء وضر علم سببه أمكن اتقاؤه باتقاء سببه اذا كان من عمل الناس الاختياري كالكفر والاعتداء والظلم

---

٧٤ ﴿ ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم ﴾ أي بعثنا من بعد نوح رسلا مثله

الى أقوامهم الذين كانوا مثل قومه فيما يأتي من خبرهم معهم ولهذا أفرد كلة قومهم فيما يظهر لنا منه والمراد أرسلنا كل رسول منهم الى قومه كهود الى عاد وصالح الى ثمود ، ولم يرسل رسول منهم الى كل الاقوام الذين كانوا في زمانه الا شعيبا أرسل الى قومه أهل مدين والى جيرانهم أصحاب المؤتفكة لاتحادهما في اللغة والوطن، وانما أرسل محمد وحده الى الناس كافة ﴿ فجاءوهم بالبينات ﴾ أي فجاء كل رسول منهم قومه بالبينات الدالة على رسالته وصحة مادعاهم اليه بحسب أفهامهم وأحوالهم العقلية ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ أي فما كان من شأنهم أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل ممن كان مثله في سبب كفره وهو استكبار الرؤساء، وتقليد الدهماء للآباء والاجداد ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ أي مثل هذا الطبع وعلى غرار هذه السنة التي اطردت فيهم نطبع على قلوب المعتدين مثلهم في كل قوم كقومك أيها الرسول اذا كانوا مثلهم (ولا تجد لسنتنا تحويلا * ولن تجد لسنة الله تبديلا) فأما الطبع على القلوب فهو عبارة عن عدم قبولها شيئا غير مارسخ فيها واستحوذ عليها مما يخالفه، كقبول الجاهل المقلد الدليل العلمي على بطلان اعتقاده التقليدي، ورجوع المعاند عن عناده وكبره النفسي [وقد تقدم تفصيله في تفسير ماسبق فيه من الآيات في سور النساء والاعراف والتوبة ، ومثله تفسير (ختم الله على قلوبهم في أوائل سورة البقرة] وأما الاعتداء الذي صار وصفا ثابتا لهؤلاء (المعتدين) فمعناه تجاوز حدود الحق والعدل اتباعا لهوى النفس وشهواتها ، فالطبع المذكور أثر طبعي للحالة النفسية التي عبر عنها بوصف الاعتداء، وليس عقابا أنفا (بضمتين أي جديدا) خلقه الله لمنعهم من الايمان، إذ لو كان كذلك لكانوا معذورين بكفرهم ، ولما كان فيه عبرة لغيرهم ، بل لكان حجة لهم، وقد فهمت قريش وسائر العرب مالم يفهمه متكلموا الجبرية من هذه الآية وأمثالها، وهو أنها وصف للعلة والمعلول، والسبب و المسبب ، وسنته تعالى في دوام كل منهما بدوام الآخر، لابذاته وكونه خلقيا لامفر منه، بل المفر أمر اختياري ممكن، وهو ترك المعاند لعناده والمقلد لتقليده، إيثارا للحق الذي يقوم عليه الدليل، فهموا هذا فاهتدى الاكثرون بالتدريج ، وهلك الذين استحبوا العمى على الهدى في غزوة بدر وغيرها

(٧٥) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِآيَٰتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٦) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٧) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا ؟ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٨) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ؟

هذه قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وملئه ملخصة هنا في ١٩ آية مفصلة مرتبة كما نبينه في تفسيرها . وهذه الاربع منها في استكبار فرعون وملئه عن الايمان وزعمهم أن آيات الله لموسى من السحر ، وتعليل تكذيبهم له بأمرين أحدهما أن اتباعه تحويل لهم عن التقاليد الموروثة عن الآباء ، والثاني أنه يسلب سلطانهم منهم وينفرد هو وأخوه بما يتمتعون به من الكبرياء في الارض ، وهذا بمعنى ماتقدم من قصة نوح المختصرة في هذه السورة . وهاك تفسيرهن بالاختصار

٧٥ ـ ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملائه ﴾ أي ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل الذين بعثناهم إلى أقوامهم موسى وهارون الى فرعون مصر واشراف قومه الذين هم أركان دولته وإلى قومهم القبط بالتبع لهم لانهم كانوا مستعبدين لهم يكفرون بكفرهم ، ويؤمنون بايمانهم إن آمنوا ﴿بآياتنا﴾ أي بعثناهما مؤيدين بآياتنا التسع المفصلة في سورة الاعراف وغيرها ﴿ فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ أي فاستكبر فرعون وملؤه أي اعرضوا عن الايمان كبرا وعلوا مع علمهم بأن ما جاء به هو الحق ، لما كانوا عليه من سعة العلم وصناعة السحر ، وكانوا

قوما راسخين في الاجرام وهو الظلم والفساد في الارض ، كما قال تعالى في سورة النمل (٢٧ : ١٤ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)

٧٦ـ ﴿ فلما جاءهم الحق ﴾ وهو آياتنا الدالة على الربوبية والالوهية ﴿ من عندنا ﴾ ووحينا الى موسى كما هو مفصل في أول سورة الشعراء وغيرها المبطل لادعاء فرعون لهما بقوله (أنا ربكم الأعلى) وقوله (ما علمت لكم من إله غيري) ﴿ قالوا إن هذا لسحر مبين ﴾ أي أقسموا إن هذا الذي جاء به موسى من الآيات الدالة على صدقه ، إنما هو سحر بين ظاهر ، وإنما السحر صناعة باطلة هم أحذق الناس بها ، فكيف يتبعون من جاء ينازعهم سلطانهم بها ، فماذا قال لهم موسى ؟

٧٧ — ﴿ قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم ﴾ أي قال لهم متعجبا من قولهم : أتقولون هذا الذي قلتم للحق الظاهر ، الذي هو أبعد الاشياء عن كيد السحر الباطل ، لما جاءكم وعرفتموه واستيقنته أنفسكم ، حذف مقول القول لدلالة ما قبله عليه وهو قولهم « إن هذا لسحر مبين » وكذا ما بعده وهو قوله منكرا له متعجبا منه ﴿ أسحر هذا ﴾ أي ان هذا الذي ترونه من آيات الله بأعينكم ، وترجف من عظمته قلوبكم ، لا يمكن أن يكون سحرا من جنس ما تصنعه أيديكم ، ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ أي والحال المعروف عندكم ان الساحرين لا يفوزون في أمور الجد العملية من دعوة دين وتأسيس ملك وقلب نظام ، وهو ما تتهمونني به على ضعفي وقوتكم ، لان السحر أمور شعوذة وتخييل ، لا تلبث أن تفتضح وتزول ، يدل على هذا جوابهم له :

٧٨ـ ﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا(١) وتكون لكما الكبرياء في الارض ﴾ هذا استفهام توريط وتقرير ، تجاه ما أورده موسى من استفهام الانكار والتعجيب ، فحواه أتقر وتعترف بأنك جئتنا لتصرفنا وتحولنا عما وجدنا عليه

---

(١) فعل لفت يتعدى بعن وتعديته بالى مخالف لما في هذه الآية وغيرها وهو خطأ مشهور في عصرنا ، فهو ليس كفعل صرف يتعدى بعن والى

آباءنا وأجدادنا من الدين القومي الوطني لنتبع دينك وتكون لك ولأخيك كبرياء الرياسة الدينية ، وما يتبعها من كبرياء الملك والعظمة الدنيوية التابعة لها في أرض مصر كلها ؛ يعنون أنه لا غرض لك من دعوتك إلا هذا! وان لم تعترف به اعترافا ، جعلوا الخطاب الخاص بالدعوة والغرض منها لموسى لأنه هو الداعي لهم بالذات وأشركوا معه أخاه في ثمرة الدعوة وفائدتها لانها تكون مشتركة بينهما بالضرورة ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ أي وما نحن بمتبعين لكما اتباع إيمان واذعان فيما يخرجنا من دين آبائنا الذي تقلده عامتنا، ويسلبنا ملكنا الذي تتمتع بكبريائه خاصتنا ـ وهم الملك وأركان دولته وبطانته وحواشيه ـ وهذان الامران هما اللذان كانا يمنعان جميع الاقوام من اتباع الانبياء والمصلحين في كل زمان .

(٧٩) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٨٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨١) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨٢) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ

هذه الآيات الاربع في خلاصة ماقاوم به فرعون دعوة موسى لتأييد ادعائه أنه ساحر وصرف قومه عن اتباعه لعدم تمييزهم بين السحر وآيات الله له

٧٩ ـ ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم ﴾ أي ذاك ماقاله ملأ فرعون لموسى وأخيه بحضرته. وقال فرعون لملئه بعد مارأوا من اصرار موسى على دعوته، وعدم مبالاته بالتصريح له بما يدعون او يظنون من مراده : ائتوني بكل ساحر واسع العلم راسخ فيه متقن للسحر بالعمل كما عبر عنه في آية أخرى « بكل سحار عليم »

٨٠ ـ ﴿ فلما جاء السحرة ﴾ المطلوبون الموصوفون بما ذكر ﴿ قال لهم موسى ﴾ بعد أن خيروه بين أن يلقي ماعنده أولا أو يلقوا هم ماعندهم كما هو مبين في سورتي

الاعراف وطه ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ ليترتب عليه إبطال الباطل وإظهار الحق

٨١ - ﴿ فلما ألقوا ﴾ ما ألقوه من حبالهم وعصيهم الصناعية السحرية ﴿ قال موسى : ماجئتم به السحر ﴾ أي هذا الذي جئتم به وألقيتموه أمامنا هو السحر لا ماجئت به من آيات الله تعالى وسماه فرعون وملؤه سحراً ﴿ إن الله سيبطله ﴾ أي سيظهر بطلانه للناس وانه صناعة خادعة، لا آية خارقة صادعة، فالجملة استئنافية لبيان مايوقن به موسى من مآل هذا السحر، ويجوز أن تكون خبراً لما قبلها ويكون التقدير : ماجئتم به الذي هو السحر، ان الله سيبطله بما جئت به من الحق، وعلل حكمه بقوله ﴿ إن الله لايصلح عمل المفسدين ﴾ وهو قاعدة عامة مبينة لسنة الله في تنازع الحق والباطل، والصلاح والفساد، ويدخل فيها سحرهم فانه باطل وفساد أي لا يجعل عمل المفسدين صالحا، والسحر من عمل فرعون وقومه المفسدين

٨٢ - ﴿ ويحق الله الحق بكلماته ﴾ أي يثبت الحق الذي فيه صلاح الخلق وينصره على ما يعارضه من الباطل بكلماته التكوينية وهي مقتضى إرادته، وكلماته التشريعية التي يوحيها إلى رسله، ومنها وعده بنصري على فرعون وانقاذ قومي من عبوديته وظلمه ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ كفرعون وقومه. وقد سبق تفسير مثل هذه الآية في سورة الانفال (٨ : ٧و٨)

---

(٨٣) فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٨٤) وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٥) فَقَالُوا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٦) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ

(٨٧) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

هذه الآيات الخمس في بيان ما كان من شأن موسى مع قومه بني اسرائيل الذين أرسله الله ليخرجهم من مصر ، في إثر ما كان من شأنه مع فرعون وملئه

٨٣ ـ ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ﴾ المتبادر إلى فهمي ان عطف هذه الجملة على ما قبلها بالفاء لافادة السببية أو التفريع ، أي ان إصرار فرعون وقومه على الكفر بموسى بعد خيبة السحرة وظهور حقه على باطلهم ، ثم عزمه على قتله كما أنبأ الله تعالى بقوله (٤٠ : ٢٦ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه. إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الارض الفساد) يعني بالفساد الثورة والخروج على السلطان ـ كما قتل من آمن به من السحرة. كل هذا أوقع الخوف والرعب في قلوب بني إسرائيل قوم موسى فما آمن له إلا ذرية من قومه وهم الاحداث من المراهقين والشبان ، وقيل قوم فرعون ولكن من آمن به منهم كان يكتم إيمانه ولا يقال آمن له إلا من اتبعه مؤمنا ، ولم يكونوا صغارا . والذرية في اللغة الصغار من الاولاد ، قال الراغب وان كان يقع على الصغار والكبار معا في التعارف ، ويستعمل للواحد والجمع وأصله الجمع . ﴿ على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ﴾ أي آمنوا على خوف من فرعون وملئهم أي أشراف قومهم الجبناء المرائين الذين هم عرفاؤهم عند فرعون فيما يطلب هو منهم ، فان الملوك يستذلون الشعوب ويستعبدونهم برؤساء وعرفاء منهم ، وقيل ملأ فرعون وجمع ضميره للتعظيم على خوف منه أن يفتنهم عن الايمان لموسى واتباع دينه بالتعذيب والارهاق . الفتون الابتلاء والاختبار الشديد للحمل على الشيء أو على تركه ، واستعمل في الاضطهاد والتعذيب للارتداد عن الدين بكثرة كما تقدم في تفسير (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) ﴿ وإن فرعون لعال في الارض ﴾ أي والحال أن فرعون عات شديد العتو مستبد غالب قوي القهر في أرض مصر فهو جدير بأن يخاف منه . فالمراد بعلوه قهره واستبداده كما حكى الله عنه بقوله

(٧ : ١٢٧ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض ويذرك وآلهتك ؟ قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون)

﴿ وانه لمن المسرفين ﴾ أي المتجاوزين حدود الرحمة والعدل، إلى الظلم والقتل، والعدوان والبغي، وغمط الحق واحتقار الخلق (وهو معنى الكبرياء)

٨٤ - ﴿ وقال موسى ﴾ لمن آمن من قومه وقد رأى خوفهم من الفتنة والاضطهاد

مرشداً ومثبتاً لهم ﴿ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ أي إن كنتم آمنتم بالله حق الايمان فعليه توكلوا، وبوعده فثقوا، ان كنتم في ايمانكم مستسلمين مذعنين بالفعل، وانما يكون الايمان يقينا اذا صدقه العمل وهو الاسلام، وهذا لا يدل على ايمان جميع قومه كما قيل، فلا ايمان بالله غير الايمان لموسى المتضمن لمعنى الاسلام والاتباع المشار اليه بقوله (إن كنتم مسلمين) وهم قد طلبوا منه بعد نجاتهم ان يجعل لهم آلهة من الاصنام، ثم اتخذوا العجل المصنوع وعبدوه

٨٥ ﴿ فقالوا على الله توكلنا، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ أي فامتثلوا الامر، اذ علموا انه يتوقف عليه إنجاز الوعد، وصرحوا به في القول، مع الدعاء بأن يحفظهم الله من فتنة القوم الظالمين بالفعل، فان التوكل على الله الذي هو أكبر مقامات الايمان لا يكمل الا بالصبر على الشدائد، والدعاء لا يصح ولا يقبل فيستجاب، الا اذا كان مسبوقا أو مقارنا لاتخاذ الاسباب، وهو أن تعمل ما تستطيع، وتطلب من الله أن يسخر لك ما لا تستطيع . ولفظ « فتنة » هنا يحتمل معنى الفاتن والمفتون. فكأنهم قالوا ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا، ولا تفتنا بهم فنتولى عن اتباع نبينا، أو نضعف فيه فراراً من شدة ظلمهم لنا، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً وظلماً بظهورهم علينا، ويظنوا أنهم على الحق واننا على الباطل. ومن المعقول والثابت بالتجارب ان سوء حال المؤمنين وأهل الحق في أي حال من ضعف أو فقر أو عمل مذموم يجعلهم موضعا أو موضوعاً لافتتان الكفار وأهل الباطل بهم، باعتقاد انهم هم خير منهم، كما قال تعالى (٦ : ٥٣ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا

أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟) وقال (٢٥ : ٢٠ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ؟) فكيف اذا خذل أهل الحق حقهم ، و كفروا نعمة ربهم ؟

٨٦ ﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ أي نجنا من سلطانهم وحكمهم لان حكم الكافر لا يطاق . ومثل هذا الدعاء في جملته قوله تعالى في سياق التأسي بابراهيم والذين آمنوا معه في أقوالهم لقومهم وأفعالهم وتوكلهم (٦٠ : ٤ ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير (٥) ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك انت العزيز الحكيم) وما أجدر المسلمين اليوم بهذه الاسوة ، وتجديد الانابة ، وتكرار هذا الدعاء خاشعين معتبرين مستمرين ، فقد أصبحوا فتنة للقوم الكافرين

٨٧ ﴿ وأوحينا الى موسى وأخيه ان تبوءا لقومكما بمصر بيوتا ﴾ يقال تبوأ الدار : اتخذها مبوءا او مباءة أي مسكنا ثابتا وملجأ يبوء اليه أي يرجع كلما فارقه لحاجة وبوأها غيره . وقوله (أن تبوءا) تفسير لأوحينا لانه بمعنى قلنا لهما : اتخذا لقومكما بيوتا في مصر تكون مساكن وملاجئ يبوءون اليها ويعتصمون بها . ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أي متقابلة في وجهة واحدة فالقبلة في اللغة مايقابل الانسان ويكون تلقاء وجهه ومنه قبلة الصلاة وهي أخص ويصح الجمع هنا بين المعنيين العام والخاص بقرينة قوله ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أي فيها متوجهين الى وجهة واحدة لان الاتحاد في الاتجاه يساعد على اتحاد القلوب كما قال النبي ﷺ في حكمة تسوية الصفوف في الصلاة « ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم » وحكمة هذا ان يكونوا مستعدين لتبليغهما إياهم مايهمهم ويعنيهم مما بعثا لاجله وهو انجاؤهم من عذاب فرعون باخراجهم من بلاده واختلف المفسرون في الجهة التي أمروا باستقبالها والتوجه اليها في الصلاة وهي لا تعلم إلا بنص ولا نص ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ بحفظ الله إياهم من فتنة فرعون وملئه الظالمين لهم وتنجيتهم من ظلمهم . خص الله موسى بهذا الامر (التبشير) لانه من أمر الوحي والتبليغ المنوط به ، وأشرك هارون معه في الامر الذي قبله لانه تدبير عملي هو وزيره المساعد له على تنفيذه

(٨٨) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا، رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٩) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

هاتان الآيتان هما الرابطتان بين سيرة موسى وهارون مع فرعون وقومه في مصر، وبين ما انتهت إليه من نصر الله له عليه وإنجاء بني إسرائيل من ظلمه، وإهلاكه عقابا له كما وقع لنوح مع قومه

٨٨ ﴿وقال موسى﴾ بعد أن أعد بني إسرائيل للخروج من مصر إعدادا دينيا دنيويا، متوجها إلى الله تعالى في إتمام الامر، بعد قيامه بما يقدر عليه هو وبنو إسرائيل من الاسباب ﴿ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ﴾ أي إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم دون دهمائهم ـ من الصناع والزراع والجند والخدم ـ زينة من الحلي والحلل والآنية والماعون والاثاث والرياش، وأموالا كثيرة الانواع والمقادير، يتمتعون بها وينفقون منها في حظوظ الدنيا من العظمة الباطلة والشهوات البدنية بدون حساب، ﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾ أي لتكون عاقبة هذا العطاء إضلال عبادك عن سبيلك الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل والعمل الصالح، ذلك بأن الزينة سبب الكبر والخيلاء والطغيان على الناس، وكثرة الاموال تمكنهم من ذلك وتخضع رقاب الناس لهم، كما قال تعالى (إن الانسان ليطغى * أن رآه استغنى) وذلك دأب فراعنة مصر به تشهد آثارهم وركازهم التي لا تزال تستخرج

من برابيهم[1] ونواويس قبورهم الى يومنا هذا الذي أكتب فيه تفسير هذه الآيات. وتحفظ في دار الآثار المصرية ، ويوجد مثلها دور أخرى في عواصم بلاد الافرنج ملأى بامثالها . فاللام في قوله (ليضلوا) تسمى لام العاقبة والصيرورة وهي الدالة على أن ما بعدها أثر وغاية فعلية لمتعلقها يترتب عليه بالفعل لا بالسببية ولا بقصد فاعل الفعل الذي تتعلق به كقوله تعالى في موسى عليه السلام (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) وعيز بينها و بين لام كي الدالة على علة الفعل بالقرينة. وجعلها بعضهم هنا منها. وحملوها على الاستدراج أي آتيتهم ذلك لكي يضلوا الناس فيستحقوا العقاب، وقد يعززه قوله ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ يقال طمس الاثر وطمسته الريح اذا زال حتى لا يرى اولا يعرف (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فانى يبصرون) وهو يصدق بالعمى وبعدم الانتفاع بها كما سبق قريبا في قوله (ومنهم من ينظر اليك افأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون) واتفقوا على ان المراد بالعمى هنا عمى البصيرة لا البصر، والمعنى هنا ربنا امحق أموالهم بالآفات التي تصيب حرثهم وأنعامهم وتنقص مكاسبهم وثمراتهم وغلاتهم فيذوقوا ذل الحاجة ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ أي اطبع عليها ، وزدها قساوة وإصراراً وعناداً ، حتى يستحقوا تعجيل عقابك فتعاقبهم ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ﴾ هذا جواب للدعاء أو دعاء آخر بلفظ النهي متمم له . وقد روي أن موسى دعا بهذا الدعاء ، وأمن هارون عليهما السلام كما هو المعتاد ، فاستجاب الله تعالى لهما بقوله

٨٩ ﴿ قال قد أجيبت دعوتكما ﴾ أي قبلت ، وإذا قبلت نفذت ﴿ فاستقيما ﴾ على ما أنتما عليه من دعوة فرعون وقومه إلى الحق ، ومن إعداد بني اسرائيل للخروج من مصر . وعن ابن عباس (رض) فامضيا لأمري وهو الاستقامة ﴿ ولا تتبعان

(١) البرابي مباني بشكل غريب جمع بربى بالفتح والقصر وقد تكتب بربا ، وهي كلمة قبطية معناها المعبد والهيكل ، والنواويس صناديق من الحجارة توضع فيها جثث الموتى . والركاز الاموال التي كان الاقدمون يدفنونها في الارض من ركزه اذا أثبته فهو ككتاب بمعنى مكتوب

سبيل الذين لا يعلمون ﴾ أي ولا تسلكان طريق الذين لا يعلمون سنتي في خلقي ، وإنجاز وعدي لرسلي ، فتستعجلا الامر قبل أوانه، وتستبطئا وقوعه في إبانه

هذا ـ وان في قصة موسى وفرعون في سفر الخروج مايفسر استجابة هذا الدعاء بما يوافق ماقلناه هنا من إرسال الله النوازل على مصر وأهلها ، ولجوء فرعون وآله الى موسى عند كل نازلة منها ليدعو ربه فيكشفها عنهم فيؤمنوا به حتى اذا ما كشفها قسّى الرب قلب فرعون فأصر على كفره . وقد فصلنا هذا في تفسير قوله (٧: ١٣٣ ـ ١٣٥)من سورة الاعراف (١) ومنه تعلم ان كل ماخالفها من أقوال المفسرين في معنى الطمس على أموالهم فهو من أباطيل الروايات الاسرائيلية التي كان من مقاصد كعب الاحبار وأمثاله منها (كما نرى) صد اليهود عن الاسلام بما يرونه في تفسير المسلمين للقرآن مخالفا لما هو متفق عليه عندهم وعند غيرهم من المؤرخين في وقائع عملية وأمور حسية

---

(٩٠) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَاءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ، حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَاءِيلَ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩١) ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٩٢) فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ

هذه الآيات الثلاث في بيان العبرة بآخر القصة وما كان من عاقبة تأييد الله لموسى وأخيه الضعيفين بأنفسهما ، على فرعون وقومه أعظم أهل الارض قوة ودولة

« ١ » راجع صفحة ٨٩ ج ٩ تفسير

٩٠ ـ ﴿وجاوزنا ببني اسرائيل البحر﴾ يقال جاز المكان وجاوزه وتجاوزه إذا ذهب فيه وقطعه حتى خلفه وراءه . وأصله من جوز الطريق ونحوه وهو وسطه ، وتسمية الجوزاء مأخوذة من تعرضها في جوز السماء أي وسطها ، ومجاوزة الله البحر بهم عبارة عن كونهم جاوزوه بمعونته تعالى وقدرته وحفظه، اذ كان آية من آياته لنبيه موسى عليه السلام بفرقه تعالى بهم البحر وانفلاقه لهم كما تقدم في سورة البقرة والأعراف ﴿فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدوا﴾ أي لحقهم فأدركهم ظلما وعدوانا عليهم ليفتك بهم أو يعيدهم الى مصر حيث يتعبدهم ويسومهم سوء العذاب ﴿حتى اذا ادركه الغرق﴾ أي خاض البحر وراءهم حتى اذا وصل الى حد الغرق قال ﴿آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل﴾ اي قال قبل أن يغرق وهو يدل على أن البحر لم يطبق عليه دفعة واحدة : آمنت انه لا اله بالحق الا الرب الذي آمنت به جماعة بني اسرائيل بدعوة موسى ﴿وأنا من المسلمين﴾ أي وأنا فرد من جماعة المذعنين له المنقادين لأمره ، بعد ما كان من كفر الجحود بآياته والعناد لرسوله. يعني انه جمع بين الايمان الذي هو التصديق بالقلب، والاسلام الذي هو الاذعان والخضوع بالفعل ، بدون امتياز لعظمة الملك ، وكان من قبل جاحداً ، أي مصدقا غير مذعن ولا خاضع ، بدليل قوله تعالى فيه وفي آله (٢٧ : ١٤ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) يعني آيات موسى . وهذه هي العاقبة، وقد أجيب فيها فرعون عن دعواه بقوله تعالى الذي يعرف بلسان الحال أو بقول جبريل (ع . م) .

٩١ ﴿آلآن ؟ وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ اي أتسلم الآن أو تدعي الاسلام واذعان الطاعة والانقياد ، حيث لا محل له ولا امكان، بما حال دونه من الهلاك ، وقد عصيت قبله وكنت من المفسدين في الارض الظالمين للعباد، والمراد ان دعوى الاسلام الآن باطلة ، والايمان بدون الاسلام مع إمكانه لا يقبل

فكيف يقبل وقد صار اضطرارا لامعنى لقبوله ، لانه انفعال لافعل لصاحبه ، وجملة القول ان إسلامه كان كما قال الشاعر

أنت وحياض الموت بيني وبينها وجادت بوصل حين لاينفع الوصل

وقد تقدم مثل هذا الاستفهام الانكاري في هذه السورة وهو قوله تعالى في المكذبين بوعد الله تعالى ووعيده بما كان يحملهم على استعجال عذابه (٥١ أثم اذا ماوقع آمنتم به؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون) وسيأتي بعد بضع آيات منها ان الايمان لاينفع عند وقوع عذاب الاستئصال الذي هو نهاية أجل القوم، كما انه لاينفع عند موت الشخص ، كما تقدم في قوله تعالى (٤ : ١٨ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار)ومن البديهي ان التوبة من الكفر والمعصية انما تنفع بالرجوع الى الطاعة. على أن اليائس من الشيء بالفعل، لايعقل أن يكون صادقا في ادعائه اياه أو طلبه له بالقول . ولعل فرعون أراد بقوله حينئذ انه من جماعة المسلمين انه موطن نفسه على أن يكون منهم إن نجاه الله تعالى، وأنه كان يرجو بهذا أن ينجيه الله تعالى كما نجاه وقومه من كل نازلة من عذاب الله حلت به وبقومه اذ كان يقول لموسى (ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل) ولكن تلك النوازل انما كانت لاجل إرسال بني اسرائيل مع موسى فهي غايتها ولم تكن عقابا على الاصرار على كفر الجحود والعناد الذي هو شر أنواع الكفر وأدلها على خبث طوية صاحبه ، كهذا العقاب الاخير بعد نجاة بني اسرائيل منه رغم أنفه

٥٢ـ ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾قال أبوجعفر ابن جرير الطبري يقول تعالى ذكره لفرعون فاليوم نجعلك على نجوة من الارض ببدنك ينظر اليك من كذب بهلاكك (لتكون لمن خلفك آية) يقول لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك فينزجرون عن معصية الله والكفر به ، والسعي في أرضه بالفساد . والنجوة الموضع المرتفع من الارض . ومنه قول أوس بن حجر :

فمن بعقوته كمن بنجوته والمستكن كمن يمشي بقرواح (١)

ثم ذكر رواته عمن قال بهذا القول . وقال أهل اللغة : سمي المكان المرتفع نجوة ونجاة ـ وزاد بعضهم : منجى ـ لأن من عليه ينجو من السيل، وانما دفعه ودفعهم الى تفسير الآية بهذا الوجه من اللغة أن إنجاء الانسان من الغرق انما يكون بخروجه حيا ببدنه ونفسه كما تقدم قريبا في إنجاء نوح ومن معه في الفلك، وكل استعماله في القرآن بمعنى النجاة من العذاب كانجاء بني اسرائيل من فرعون وآله ، وقال بعضهم ان التعبير بالتنجية تهكم به، وان الحكمة بذكر البدن انه يخرج جسده سالما ليعرف ، وقيل إن المراد بالبدن الدرع فهو من أسمائها في اللغة ، وانما محل العبرة أن يلفظه البحر ببدنه ليعرف فيعتبر بنو اسرائيل الذين قيل انهم شكوا في غرقه ويعتبر القبط الذين عبدوه، ولذلك قيل ان درعه كانت معروفة وانها من الذهب أو كان له فوق درع الزرد درع أخرى من الذهب، ولكن الدروع تقتضي رسوب الغريق في البحر الا ان يجرفه الموج . وأما العبرة لمن بعده فهي أعم : هي ماسيقت القصة لأجله من كونها شاهداً كالتي قبلها على صدق وعد الله لرسله ووعيده لأعدائهم كطغاة مكة التي أنزلت هذه الآيات بل هذه السورة كلها لاقامة حجج الله عليهم في هذه المسألة قبل غيرهم ، لانهم أول من بلغته الدعوة ، وقوله تعالى ﴿ وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ تعريض بهم وأكده هذا التأكيد لما تقتضيه شدة الغفلة من قوة التنبيه أي إنهم لشديدو الغفلة عنها على شدة ظهورها، فلا يتفكرون في أسبابها ونتائجها وحكم الله فيها ، ولا يعتبرون بها ، وانما يمرون عليها معرضين كما يمرون على مسارح الانعام ، وفيه ذم للغفلة وعدم التفكر في أسباب الحوادث وعواقبها واستبانة سنن الله فيها ، للاعتبار والاتعاظ بها. ومن العجيب ان يكون أهل القرآن منهم ، كلا إنه حجة على الغافلين بريء منهم

«١» البيت من قصيدة في وصف المطر نسبت لغير أوس هذا. والعقوة الساحة وما حول الدار، والقرواح بالكسر المكان البارز للشمس والذي لا يمسك الماء

(٩٣) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

هذه الآية خاتمة هذه القصة ومنتهى العبرة فيها لمكذبي محمد ﷺ والجاحدين من قومه المغرورين بقوتهم و كثرتهم وثروتهم، في موسى والجاحدين لآياته من فرعون وقومه، وقد كانوا أكثر منهم عدداً، وأشد قوة، وأعظم زينة وأوفر ثروة، وسنة الله في موسى ومن قبله واحدة، وقصته كقصة نوح في العاقبة، وأما نصر الله لمحمد نبي الرحمة والانجاز وعده له، قد جرى على وجه أتم وأكمل في غايته، وان لم يكن غريبا في صورته، وهو ان الله تعالى أهلك أكثر زعماء أعدائه المشركين، وأخضع له الآخرين، وجعل العاقبة لأتباعه المؤمنين، وأعطاهم أعظم ملك في العالمين، ومنه ما كان أعطى موسى من قبل وهو فلسطين. قال

٩٣ـ ﴿ ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق ﴾ قلنا آنفا ان المبوأ مكان الاقامة الامين. وأضيف إلى الصدق لدلالته على صدق وعد الله تعالى لهم به وهو منزلهم من بلاد الشام الجنوبية المعروفة بفلسطين ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ فيه، وهي التي أشير اليها في وصف أرضها من كتبهم بانها تفيض لبنا وعسلا، وما فيها من الغلات والثمرات والانعام، وكذا صيد البر والبحر، وقد بينا من قبل ما كان من وعد الله لهم بهذه الارض المباركة على لسان ابراهيم واسحاق ويعقوب (١) ومن أيلولة هذه الارض من بعدهم لذرية ابراهيم من العرب بعد حرمان اليهود منه تصديقا لوعيد أنبيائهم لهم على كفرهم بنعم الله تعالى أولا ثم بكفرهم بعيسى، ثم بمحمد رسول الله النبي الأمي الذي وعدهم به على لسانه ولسان من قبله كما تقدم تفصيله في تفسير سورة الاعراف (٢) وأشير إليه هنا بقوله ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾

(١) راجع ص ٩٨ ـ ١١٣ ج ٩ تفسير (٢) راجع ص ٢٢٤ ج ٩ تفسير

على قول بعض المفسرين إن المراد بالعلم هنا محمد ﷺ أو رسالته أو القرآن الذي هو أكمل وأتم ما أنزل الله من علم الدين وقوله تعالى في سياق الرد على أهل الكتاب (لكن الله يعلم بما أنزل إليك أنزله بعلمه) وقوله (فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) وقوله (بكتاب فصلناه على علم) فقد كانوا متفقين على بشارة أنبيائهم به قبل بعثته فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به .

وقال آخرون وهو الاظهر : إن المراد هنا علم الدين مطلقا ، وقد اختلفوا فيه كغيرهم ممن أوتوا الكتب من وجوه فصلناها في تفسير الآية العامة في الاختلاف

وهي (٢١٣:٢) وفي الآية ١٩ من هذه السورة وما هي ببعيد ﴿إن ربك يقضي

بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ إذ جعلوا الدواء عين الداء في أمر الدين بعد إذ أنزل عليهم الكتاب ليحكم بينهم فاختلفوا في الكتاب بغيا بينهم

---

(٩٤) فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (٩٥) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٩٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٧) وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ

هذه الآيات الاربع فذلكة هذا السياق الذي كان ذكر قصص الانبياء شواهد فيه، وهي تقرير صدق القرآن في دعوته ووعده ووعيده، وكونه لا مجال للامتراء فيه ، وبيان الداعية النفسية للمكذبين بآياته ، وتوجيه الاعتبار إلى أهل مكة مقرونا بالانذار ، بأسلوب التعريض والتلطف في العبارة ، على حد : إياك أعني واسمعي ياجاره .

---

٩٤ ـ ﴿ فان كنت في شك مما أنزلنا إليك ﴾ أي فان كنت أيها الرسول في

شك مما أنزلنا اليك في هذه الشواهد من قصة موسى ونوح وغيرهما على سبيل الفرض والتقدير، الذي ذكر على عادة العرب في تقدير الشك في الشيء ليبني عليه ماينفي احتمال وقوعه أو ثبوته أمراً أو نهياً أو خبراً ، كقول أحدهم لابنه: إن كنت ابني فكن شجاعا أو فلا تكن بخيلا ، أو فانك ستكون أو ستفعل كذا - بل يفرضون سؤال الديار والاطلال أيضا ومنه قول المسيح في جواب سؤال الله تعالى إياه (١١٦:٥ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك مايكون لي أن أقول ماليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته) وهذه الجملة الشرطية محل الشاهد ، فهو عليه السلام يعلم انه لم يقل ذلك ، ولكنه يفرضه ليستدل عليه بأنه لو قاله لعلمه الله منه

وبعض العلماء يجري على هذا الاسلوب فيشكك تلميذه أو مناظره فيما لاشك فيه عندهما ليبني عليه حكما آخر . ويجب في مثل هذا أن يكون فعل الشرط بان التي وضعت للدلالة على عدم وقوعه أو تنزيله منزلة مالا يقع ، دون اذا الدالة على ان الاصل في فعل شرطها الوقوع ﴿ فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾ هذا جواب الشرط المقدر قال ابن عباس لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل ، وروي مثله عن سعيد بن جبير والحسن البصري قالاه فهما لغويا ، وروي عن قتادة خبراً قال : ذكر لنا ان رسول الله ﷺ قال « لا أشك ولا أسأل » ولم يسم الصحابي الذي ذكره فهو مرسل ، والمراد بالكتاب جنسه ، أي فاسأل الذين يقرءون كتب الانبياء كاليهود والنصارى فانهم يعلمون أن ماأنزلناه اليك من الشواهد حق لايستطيعون إنكاره ، وقال بعض المفسرين ان المراد سؤال من آمن منهم كعبد الله بن سلام من علماء اليهود وتميم الداري من علماء النصارى ولا حاجة اليه ، والآية بل السورة نزلت في مكة ولم يكن أحد من أهل الكتاب آمن . ومما يؤكد كون السؤال مفروضا فرضا قوله ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾ فهذه الشهادة المؤكدة بالقسم من ربه ، تجتث احتمال إرادة الشك والسؤال بالفعل من أصله ، ويزيدها تأكيداً قوله تعالى ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ أي من فريق

الشاكين الذين يحتاجون إلى السؤال ، وهذا النهي والذي بعده يدلان على أن فرض وقوع الشك والسؤال فيما قبلهما عنه تعريض بالشاكين والممترين والمكذبين له ﷺ من قومه

٩٥ - ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ﴾ يعني أن كل من كان من المكذبين فهو من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بالحرمان من الايمان وما يتبعه من سعادة الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين ، وإن فرض أنه أول المؤمنين، محمد رسول الله وخاتم النبيين، ورحمته للعالمين، وان الممترين الشاكين فيما أنزل اليك كالمكذبين بآيات الله جحوداً بها وعناداً ، كلاهما سواء في الخسران المذكور لحرمان الجميع من الاهتداء بها وماله من ربح سعادة الدنيا والآخرة . وهذا النوع من الامر والنهي للمؤتمر المنتهي والمراد غيره على سبيل التعريض أبلغ من قوله تعالى (٣٤ : ٢٤ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين * قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون) ولكل منهما موقع وتأثير خاص في استمالة الكافرين الى التأمل والتفكر في مضمون الدعوة

٩٦ - ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ﴾ أي إن الذين ثبتت عليهم كلمة العذاب من ربك وهي كلمة التكوين الدالة على سنته فيمن فقدوا الاستعداد للاهتداء ، لا يؤمنون لرسوخهم في الكفر والطغيان ، واحاطة خطاياهم وجهالاتهم بهم من كل مكان ، وإعراضهم عن آيات الايمان ، هذا معنى قوله (لا يؤمنون) لا أنه تعالى منعهم من الايمان منعا خلقيا قهريا لا كسب لهم فيه ولا اختيار . وهذا بمعنى الآية ٣٣ من هذه السورة فراجع تفسيرها

٩٧ - ﴿ ولو جاءتهم كل آية ﴾ من الآيات الكونية كآيات موسى التي اقترحوها عليك أيها الرسول ، والآيات المنزلة كآيات هذا القرآن العلمية العقلية الدالة باعجازها على كونها من عند الله ، وعلى حقية ما تدعوهم اليه وتنذرهم إياه ، ﴿ حتى يروا العذاب الاليم ﴾ بأعينهم ، ويذوقوه بوقوعه بهم ، وحينئذ يكون إيمانهم اضطراريا لا يعد فعلا من أفعالهم ،

ولا يترتب عليه عمل يطهرهم ويزكي أنفسهم ، بل يقال لهم (آلآن وقد كنتم به تستعجلون) كما قيل لفرعون (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين)

(٩٨) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٩) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (١٠٠) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ

هذه الآيات الثلاث تفريع على اللواتي قبلهن وتكميل لهن في بيان سنة الله في الامم مع رسلهم ، وفي خلق البشر مستعدين للأمور المتضادة من الايمان والكفر ، وفي تعلق مشيئة الله وحكمته بأفعاله وأفعال عباده ووقوعها على وفقها

٩٨ـ ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها ﴾ لولا هذه للتحضيض كما قال أئمة اللغة والنحو . والمراد بالقرية أهلها وهم أقوام الانبياء فانهم كلهم بعثوا في أهل الحضارة والعمران دون البادية . أي فهلا كان أهل قرية من قرى أقوام أولئك الرسل آمنت بدعوتهم وإقامة الحجة عليهم ، فنفعها إيمانها قبل وقوع العذاب الذي أنذروا به ، أي انه لم يؤمن قوم منهم برمتهم ، فان التحضيض يستلزم الجحد ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا ﴾ قبل وقوع العذاب بهم بالفعل ، وكانوا علموا بقربه من خروج نبيهم من بينهم ، وروي أنهم رأوا علاماته ، ويجوز في هذا الاستثناء الاتصال والانفصال ﴿ كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ﴾ أي صرفنا عنهم عذاب الذل والهوان في الدنيا لان نبيهم خرج بدون إذن الله تعالى له فلم تتم عليهم الحجة ، ولا حقت عليهم كلمة العذاب ، وقد استدلوا بذهابه مغاضباً لهم على قرب وقوع العذاب

كما أنذرهم فتابوا وآمنوا فكشفناه عنهم ﴿ ومتعناهم إلى حين ﴾ أي ومتعناهم بمنافعها الى زمن معلوم هو عمرهم الطبيعي الذي يعيشه كل منهم بحسب سنته تعالى في استعداد بنيته ومعيشته . وقد فصلنا الكلام في الاجل الذي يسمى الطبيعي وغيره في تفسير (٢:٦ ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) من سورة الانعام [١] ولا محل للبحث عن تعذيبهم في الآخرة كما فعل بعض المفسرين فان شهادة الله تعالى لهم بالايمان النافع ظاهرة في قبوله منهم صريحة ، في أنه لا يعذبهم في الآخرة على سابق كفرهم ، وانما يجزون بغيره من أعمالهم بعد الايمان

هذا الذي فسرنا به الآية هو المتبادر من عبارتها والموافق للسياق ولسنة الله تعالى في أقوام الانبياء عليهم السلام . وفيه تعريض بأهل مكة وإنذار لهم وحض على أن يكونوا كقوم يونس الذين استحقوا عذاب الخزي بعنادهم حتى إذا أنذرهم نبيهم قرب وقوعه وخرج من بينهم اعتبروا وآمنوا قبل اليأس ، وحلول البأس ، وسيأتي ان شاء الله تعالى ما ثبت من خبره عليه السلام في تفسير سورتي الانبياء والصافات ، وهو موافق في جملته لما عند أهل الكتاب

٩٩ ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً ﴾ أي ولو شاء ربك - أيها الرسول الحريص على إيمان الناس - أن يؤمن أهل الارض كلهم جميعاً لا يشذ احد منهم لآمنوا ، بأن يلجئهم الى الايمان إلجاء ، ويوجره في قلوبهم إيجاراً ، ولو شاء لخلقهم مؤمنين طائعين كالملائكة ، لا استعداد في فطرتهم لغير الايمان ، وفي معنى هذا قوله تعالى (ولو شاء الله ما أشركوا) وقوله (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) والمعنى الجامع في هذه الآيات انه لو شاء الله ألا يخلق هذا النوع المسمى بالانسان المستعد بفطرته للايمان والكفر ، والخير والشر ، الذي يرجح أحد الامور الممكنة المستطاعة له على ما يقابله ويخالفه بارادته واختياره ، لفعل ذلك ، ولما وجد الانسان في الارض ، ولكن اقتضت حكمته أن يخلق هذا النوع العجيب

(١) ص ٢٩٦ ج ٧ تفسير

ويجعله خليفة في الارض ، كما تقدم بيانه في قصة آدم من سورة البقرة وفي آيات أخرى ، هكذا خلق الله الانسان منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به كما تقدم

﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ اي ان هذا ليس في استطاعتك أيها الرسول ولا من وظائف الرسالة التي بعثت بها أنت وسائر الرسل (إن عليك الا البلاغ * وما أنت عليهم بجبار) وهذه أول آية نزلت في أن الدين لا يكون بالاكراه ، أي لا يمكن للبشر ولا يستطاع، ثم نزل عند التنفيذ (٢: ٢٥٦ لا إكراه في الدين) أي لا يجوز ولا يصح به ، وذكرنا في تفسيرها سبب نزولها وهو عزم بعض المسلمين على منع اولادهم كانوا اتهودوا من الجلاء مع بني النضير من الحجاز ، فأمرهم النبي ﷺ بأن يخيروهم، وأجمع علماء المسلمين على أن ايمان المكره باطل لا يصح . لكن نصارى الافرنج ومقلديهم من اهل الشرق لا يستحون من افتراء الكذب على الاسلام والمسلمين ،ومنه رميهم بأنهم كانوا يكرهون النـاس على الاسلام ويخيرونهم بينه وبين السيف يقط رقابهم ، على حد المثل « رمتني بدائها وانسلت »

١٠٠ ـ ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ﴾ أي وما كان لنفس ولا من شأنها فيما أشير اليه من استقلالها في أفعالها، ولا مما أعطاها الله من الاختيار فيما هداها من النجدين ، وما ألهمها من فجورها وتقواها الفطريين ، أن تؤمن إلا بارادة الله ومقتضى سنته في استطاعة الترجيح بين المتعارضين، فهي مختارة في دائرة الاسباب والمسببات ، ولكنها غير مستقلة في اختيارها أتم الاستقلال ، بل مقيدة بنظام السنن والاقدار، فالمنفي هو استطاعة الخروج عن هذا النظام العام ، لا الاستطاعة الخاصة الموافقة له، ومثله قوله تعالى(٣: ١٤٥ وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله) أي إلا بمشيئته الموافقة لحكمته وسننه في أسباب الموت ، فكم من انسان يعرض نفسه للموت شهيداً أو منتحراً بما يتراءى له من أسبابه، ثم لا يموت بها لنقصها أو لمعارض مناف لها في نظام القدر الذي لا يحيط به علماً إلا الله تعالى، ومعنى الاذن في اللغة الاعلام بالرخصة في الامر اي تسهيله وعدم المانع منه

﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ هذا عطف على محذوف يدل عليه المذكور دلالة الضد على الضد أو النقيض على النقيض ، أي وإذ كان كل شيء باذنه وتيسيره ومشيئته التي تجري بقدره وسننه ، فهو يجعل الاذن وتيسير الايمان للذين يعقلون آياته في كتابه وفي خلقه، ويوازنون بين الامور فيختارون خير الاعمال على شرها، ويرجحون نفعها على ضرها، باذنه وتيسيره، ويجعل الرجس أي الخذلان والخزي المرجح للكفر والفجور ، على الذين لا يعقلون ولا يتدبرون ، فهم لأفن رأيهم، واتباع أهوائهم ، يختارون الكفر على الايمان والفجور على التقوى . وتقدم في تفسير آيات الخمر والميسر من سورة المائدة وفي الكلام على المنافقين من أواخر سورة التوبة، ان الرجس لفظ يعبر به عن أقبح الخبث المعنوي الذي هو مبعث الشر والاثم

---

(١٠١) قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الآيٰتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠٢) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٣) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ

هذه الآيات الثلاث إرشاد للعقلاء الذين يفهمون مما قبلها أن سنة الله تعالى في نوع الانسان، ان خلقه مستعداً للايمان والكفر ، والخير والشر ، وله الاختيار لنفسه، وان الرسول الحريص على إيمان الناس لا يقدر على جعلهم مؤمنين ، لان الله القادر على ذلك لم يشأ أن يجعلهم أمة واحدة على الايمان وحده ولا على الكفر وحده، وإنما جعل مدار سعادتهم على حسن استعمال عقولهم باختيارهم في التمييز بين الكفر والايمان، وما الرسول إلا بشير

ونذير يبين الطريق المستقيم للعقل المستنير ، فالدين مساعد العقل على حسن الاختيار إذا أحسن النظر والتفكير ، والله تعالى يأمر بهما بمثل قوله:

١٠١ ﴿قل انظروا ماذا في السموات والارض﴾ أي قل أيها الرسول لقومك الذين تحرص على هداهم: انظروا بعيون أبصاركم وبصائركم ماذا في السموات والارض من آيات الله البينات والنظام الدقيق العجيب في شمسها وقمرها، وكواكبها ونجومها، وبروجها ومنازلها، وليلها ونهارها، وسحابها ومطرها، وهوائها ومائها، وبحارها وأنهارها، وأشجارها وثمارها، وأنواع حيواناتها البرية والبحرية، ففي كل من هذه الاشياء التي تبصرون آيات كثيرة تدل على علم خالقها وقدرته، ومشيئته وحكمته، ووحدة النظام في جملتها وفي كل نوع منها هو الآية الكبرى على وحدانيته في ربوبيته وألوهيته، ثم انظروا ماذا في أنفسكم منها كما قال (وفي الارض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون) إنه يريكم كل هذه الآيات ثم أنتم تشركون

﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون﴾ يجوز في هذه الجملة النفي والاستفهام، والنذر فيها جمع نذير أو إنذار: والمعنى ان الآيات الكونية على ظهور دلالتها، والنذر التشريعية على بلاغة حجتها، لافائدة فيهما ولا غنى لقوم لايؤمنون بالله عن الايمان الذي يهديهم إلى الاعتبار بالآيات، والاستدلال بها على ما تدل عليه أكمل الدلالة من وحدانية الله وقدرته، ومشيئته وحكمته، وفضله ورحمته، والاعتبار بسننه في خلقه، ففائدة الايمان الاولى توجيه عقل الانسان إلى حسن القصد في نظره في الآيات، والاستفادة منها فيما يزكي نفسه بالعلم والايمان، ويرفعها عن أرجاس الامور وسفسافها، وبهذا تفهم معنى جعل الرجس على الذين لايعقلون، فليس المراد بالذين لا يعقلون المجانين الفاقدين لغريزة العقل، بل المراد به الذين لا يستعملون العقل في أفضل ما هو مستعد له من المعرفة بالله وتوحيده وعبادته، التي تجعلهم أهلا لاتمام نعمه عليهم وكرامته، بالتزام الحق والعدل، وإيثار الخير على الشر

١٠٢ ـ ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ أي إذا كان الامر كما قصصنا عليك أيها الرسول من سنتنا في الخلق وما أرسلنا قبلك من الرسل، فهل ينتظر هؤلاء الكافرون من قومك إلا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم اي وقائعهم مع رسلهم مما بلغهم مبدؤه وغايته، أي ما ثم شيء آخر ينتظر ﴿ قل فانتظروا أني معكم من المنتظرين ﴾ أي قل لهم منذراً ومهدداً : إذاً فانتظروا ما سيكون من عاقبتكم إني معكم من المنتظرين ، على بينة مما وعد الله وصدق وعده للمرسلين، وان الذين يصرون على الجحود والعناد سيكونون كمانديهم من الهالكين

١٠٣ ـ ﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا ﴾ هـذا التعبير من أعجب ايجاز القرآن المعجز الذي انفرد به في العطف على محذوف، وهو ذكر شيء يدل دلالة واضحة على أمر عام كسنة اجتماعية تستنبط من قصة أو قصص واقعة ،ثم يأتي بجملة معطوفة لا يصح عطفها على ما قبلها من الجمل فيتبادر الى الذهن وجوب عطفها على ذلك الامر العام ،بحرف العطف المناسب للمقام، بحيث يستغنى به عن ذكره ،وتقديره هنا: تلك سنتنا في رسلنا مع قومهم :يبلغونهم الدعوة ،ويقيمون عليهم الحجة ، وينذرونهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب ، فيؤمن بعض ويصر الآخرون،فنهلك المكذبين، ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا بهم ﴿ كذلك حقا علينا ننج المؤمنين ﴾ أي كذلك الانجاء ننجي المؤمنين معك أيها الرسول ونهلك المصرين على تكذيبك ،وعداً حقا علينا لانخلفه (سنة من أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا) وقد صدق وعده كما قال

قرأ الجمهور (ننجي رسلنا) بالتشديد من التنجية إلا في رواية عن يعقوب بالتخفيف مختلف فيها . وقرأ الكسائي وحفص ويعقوب (ننجي المؤمنين) بالتخفيف من الانجاء ، والباقون بالتشديد والمعنى واحد إلا أن التشديد يدل على المبالغة او التكرار ، وهو الأنسب في الاولى لكثرة الاقوام

(١٠٤) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٥) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

هذه الآيات الاربع والآيتان اللتان بعدها ختم للسورة بالنداء العام، في الدعوة الى عقيدة الاسلام، أجملت أمراونهيا وخبرا في خاتمتها، كما فصلت في جملتها . قال تعالى

١٠٤ ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني﴾ اي إن كنتم في شك من صحة ديني الذي دعوتكم اليه ، أو من ثباتي واستقامتي عليه ، وترجون تحويلي عنه ﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ أي فلا أعبد في وقت من الاوقات ، ولا حال من الاحوال، أحداً من الذين تعبدونهم غير الله، من ملك أو بشر، أو كوكب أو شجر أو حجر، مما اتخذتم من الاصنام والاوثان ﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ أي يقبضكم اليه بالموت ثم يبعثكم فيحاسبكم ويجزيكم ، ولا يفعل أحد غيره هذا ولا يقدر عليه . وإنما قال (إن كنتم في شك من ديني) وشرطه يدل على الشك في شكهم وهو ﷺ لا يشك فيه، لانه نزل دينه منزلة مالا ينبغي أن يشكوا فيه لشدة ظهوره ، وتألق نوره ، كما بينا مثله في تفسير (٢: ٢٣ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على

عبدنا فأتوا بسورة من مثله)الآية وما بعدها . ووصف الله بتوفيهم دون غيره من صفاته وأفعاله لتذكير كل منهم بما لا يشك فيه من عاقبة أمره وانه سيكون كما وعده في الدنيا والآخرة ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ الذين وعدهم الله بالنجاة من عذابه، وينصرهم على أعدائهم وأعدائه ، واستخلافهم في أرضه ، وانه لا يجاز بليغ

١٠٥ـ ﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفا ﴾ أي أمرت بأن أكون من المؤمنين وبأن أقيم وجهي للدين القيم الذي لا عوج فيه حالة كوني حنيفاً أي مائلا عن غيره من الشرك والباطل ، ولكن اختير هنا صيغة الطلب وفيما قبله الخبر ،ذلك بأن الخبر هو المناسب لملاقة هذا الامر بالماضي وهو أن يكون من جماعة المؤمنين، الموعودين بما تقدم من سنة الله في النبيين، والطلب هو المناسب لملاقته هو وما عطف عليه من النهي بالحال والاستقبال، من دعوة هذا الدين الموجهة إلى أهل مكة وسائر الناس (ولا فرق بينهما في الاعراب كما حققه سيبويه وغيره) وإقامة الوجه للدين هنا وفي سورة الروم (٣٠:٤٣) عبارة عن التوجه فيه إلى الله تعالى وحده في الدعاء وغيره بدون التفات إلى غيره ، والمراد به توجه القلب ، وفي معناه (٦:٧٩ اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا) ومثله إسلام الوجه لله في سور البقرة(٢:١١٢) وآل عمران (٣:٢٠) والنساء (٤:١٢٤) وإسلامه إلى الله في سورة لقمان(٣١:٢٢) وكذا توجيه الوجه الحسي إلى القبلة في آياتها وهو الاصل في اللغة ، والمراد به وجهة الانسان ، فمن توجه قلبه في عبادة من العبادات (ولا سيما مخ العبادة وروحها وهو الدعاء)الى غير الله فهو عابد له مشرك بالله، وأكده بالنهي عن ضده معطوفا عليه فقال ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ أصحاب الديانات الوثنية الباطلة الذين يجعلون بينهم وبين الله تعالى حجابا من الوسطاء والاولياء والشفعاء يوجهون قلوبهم اليهم عند الشدة تصيبهم ، والحاجة التي تستعصي على كسبهم ، ووجوههم وجملتهم إلى صورهم وتماثيلهم في هياكلهم ، أو قبورهم في معابدهم ، ويدعونهم لقضاء حوائجهم إما بأنفسهم وإما بشفاعتهم ووساطتهم عند ربهم ، ثم بين هذا بالاشارة إلى سببه عند المشركين والنهي عن مثله معطوفا عليه فقال

١٠٧ - ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾ أي ولا تدع غيره تعالى (دعاء عبادة وهو ما فيه معنى القربة والجري على غير المعتاد في طلب الناس بعضهم من بعض) لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك بوساطة الشفعاء - ما لا ينفعك إن دعوته لا بنفسه ولا بوساطته ولا يضرك إن تركت دعاءه ولا إن دعوت غيره ﴿ فان فعلت فانك إذاً من الظالمين ﴾ اي فان فعلت هذا بأن دعوت غيره فانك أيها الفاعل في هذه الحال من طغامة الظالمين لأنفسهم الظلم الأكبر وهو الشرك الذي فسر به النبي ﷺ قوله تعالى (ان الشرك لظلم عظيم) فانه لما كان دعاء الله وحده هو أعظم العبادة ومخها - كما ورد في الحديث - كان دعاء غيره هو معظم الشرك ومخه، كما كررنا التصريح به بتكرار تفسير الآيات الناهية عنه، ومنها في هذه السورة قوله تعالى (١٨ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقوله (٤٩ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً الا ماشاء الله) وقوله قبلهما (١٢ فاذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائما) وقوله في أهل الفلك (السفينة) المشركين عند إحاطة الخطر بهم (٢٢ دعوا الله مخلصين له الدين)

والآيات في هذا المعنى كثيرة متفرقة في السور، كررت لأجل انتزاع هذا الشرك الاكبر من قلوب الجمهور الاكبر . وقد انتزع من قلوب الذين أخذوا دينهم من القرآن، وكان جل عبادتهم تكرار تلاوته بالغدو والآصال، والليل والنهار، ثم عاد بقضه وقضيضه إلى الذين هجروا تدبر القرآن وهم يدعون الاسلام، وأكثرهم يتلقون عقائدهم من الآباء والامهات والمعاشرين، وأكثر هؤلاء من الخرافيين الاميين الجاهلين، وأكثر القارئين منهم على قلتهم يأخذونها من كتب مقلدة متأخري المتكلمين الجدلية والمتصوفة الخرافية، ولا يكاد مسجد من مساجدهم يخلو من قبر مشرف مشيد، توقد عليه السرج والمصابيح وقد لعن الرسول ﷺ فاعليها، ويتوجه اليه الرجال والنساء، في كل صباح ومساء، يدعون من دون الله من يعتقدون أنهم احياء يقيمون فيها، ويتقربون اليهم بالهدايا والنذور من الاميين، وبعرائض

الاستغاثة والدعاء من المتملقين، ليكشفوا عنهم الضر، ويهبوا لهم مايرجون من النفع ، ومن أمامهم ووراءهم عمائم مكورة ، ولحى طويلة أو مقصرة ، يسمون شركهم الاكبر توسلا ، واستغاثتهم استشفاعاً ، ونذورهم لغير الله صدقات مشروعة ، وطوافهم بالقبور المعبودة زيارات مقبولة ، ويتأولون هذه الآيات الكثيرة بل يحرفونها عن مواضعها، بزعمهم انها خاصة بعبادة الاصنام ، والنذور للاوثان ، والتعظيم للصلبان ، كأن الاشراك بالله جائز من بعض الناس ببعض المخلوقات دون بعض ، ومن البلاء الاكبر على الاسلام والمسلمين بمصر أن أصدرت لهم مشيخة الازهر الرسمية في هذا العصر مجلة رسمية دينية، تفتيهم بشرعية كل هذه البدع الشركية القبورية، سمتها نور الاسلام وألف لهم أحد خطباء الفتنة كتابا في هذا واطأه عليه وأمضاه له سبعون عالما من علماء الازهر بزعمه، بل طبع في طرته خواتم بعضهم وتواقيع آخرين منهم بخطوطهم وذكر جميع أسمائهم، ولا حول ولا قوة الا بالله وبه وحده المستعان لانقاذ الاسلام من هذا الطغيان . ومنهم من يحتج على نفع هذا الدعاء لغير الله بالتجارب كما يحتج الهنود الوثنيون والنصارى فهو مشترك الالزام وقد أبطله الله بقوله

---

١٠٧ ـ ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو﴾ هذه الآية مؤكدة لما قبلها داحضة لشبهة الذين يدعون غير الله بأنهم طالما استفادوا من دعائهم والاستغاثة بهم فشفيت أمراضهم ، وكبتت أعداؤهم ، وكشف الضر عنهم ، وأسدي الخير اليهم، يقول تعالى لكل مخاطب بهذه الدعوة إلى توحيد الاسلام ، بكلام الله وتبليغ محمد عليه أفضل الصلاة والسلام : وإن يمسسك الله أيها الانسان بضر كمرض يصيبك بمخالفة سننه في حفظ الصحة، أو نقص من الاموال والثمرات بأسباب هلك فيه عبرة ، أو ظلم يقع عليك من الحكام المستبدين، أوغيرهم من الاعداء المعتدين ، فلا كاشف له إلا هو، وقد جعل لكل شيء سبباً يعرفه خلقه بتجاربهم ، ككشف الامراض بمعرفة أسبابها ، وخواص العقاقير التي تداوى بها، وتجارب الاعمال الجراحية التي يزاولها أهلها ، فعليك أن تطلبها من أسبابها ، وتكل أعمالها إلى أربابها ، وتأتي سائر البيوت من أبوابها، مع الايمان والشكر لمسخرها ، فان جهلت الاسباب أو أعياك أمرها ، فتوجه إلى الله وحده ، وادعه مخلصاً له

الدين متوكلا عليه وحده، يسخر لك ماشاء أو من شاء من خلقه، أو يشفك من مرضك بمحض فضله، كما ضرب لك الامثال في هذه السورة وغيرها من كتابه ﴿ وإن يردك بخير ﴾ يهبه بتسخير أسبابه لك، و بغير سبب ولا سعي منك ﴿ فلا راد لفضله ﴾ أي فلا أحد ولا شيء يرد فضله الذي تتعلق به إرادته، فما شاء كان حتما، فلا ترج الخير والنفع إلا من فضله، ولا تخف رد ما يريده لك من أحد غيره ﴿ يصيب به من يشاء من عباده ﴾ يصيب بالخير من يشاء من عباده بكسب وبغير كسب، وبسبب مما قدره في السنن العامة وبغير سبب، ففضله تعالى على عباده عام بعموم رحمته، بخلاف الضر فانه لايقع إلا بسبب من الاسباب الخاصة بكسب العبد، أو العامة في نظام الخلق، فالاول معلوم كالامراض التي تعرض بترك أسباب الصحة والوقاية جهلا أو تقصيراً، وفساد العمران وسقوط الدول الذي يقع بترك العدل، و كثرة الفسق والظلم، والثاني كالضرر الذي يعرض من كثرة الامطار، وطغيان البحار والانهار، وزلازل الارض وصواعق السماء ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ ولولا مغفرته الواسعة ورحمته العامة، لأهلك جميع الناس بذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير * ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة)

(١٠٨) قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٩) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ

هذا النداء خاتمة البلاغ للناس كافة، بمقتضى بعثة الرسول العامة، وهو إجمال لما فصل في هذه السورة وسائر السور المباركة

١٠٨ - ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ﴾ أي قل أيها الرسول مخاطباً لجميع البشر، من حضر منهم فسمع هذه الدعوة منك، ومن ستبلغه عنك، قد

جاءكم الحق المبين لحقيقة الدين من ربكم، بوحيه إلى رجل منكم، وهو الذي افتتحت هذه السورة به، وقد كان هذا الحق مجهولا خفياً عنكم، بما جهل بعضكم من دعوة الرسل الاقدمين، وما حرف بعضكم وجهل وبدل وتأول من كتب الانبياء المتأخرين، وفصله لكم هذا الكتاب العربي المبين ﴿ فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ﴾ أي فمن اهتدى بما جاء به هذا الرسول في هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فانما فائدة اهتدائه لنفسه، لأنه ينال به السعادة في دنياه ودينه، دون عمل غيره، ولا فدائه ولا تأثيره ﴿ ومن ضل فانما يضل عليها ﴾ أي ومن ضل عن هذا الحق باعراضه عن آياته في هذا القرآن، وحججه فيه بآياته في الانفس والآفاق، فانما وبال ضلاله على نفسه بما يفوته من فوائد الاهتداء في الدنيا، وما يصيبه من العذاب على كفره وجرائمه في الآخرة ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ أي وما أنا بموكل من عند الله بأموركم ولا مسيطر عليكم فأكرهكم على الايمان، وأمنعكم بقوتي من الكفر والعصيان، وليس عليّ هداكم، ولا أملك نفعكم ولا ضركم، وانما أنا بشير لمن اهتدى، ونذير لمن ضل وغوى، وقد أعذر من أنذر

١٠٩ـ ﴿ واتبع ما يوحى اليك ﴾ في هذا القرآن علماً وعملا وتعليما ﴿ واصبر ﴾ كما صبر أولو العزم من الرسل على ما يصيبك من الاذى في ذات الله، والجهاد به في سبيل الله ﴿ حتى يحكم الله ﴾ بينك وبين المكذبين لك، وينجز لك ما وعدك، ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ اي كل من يقع منهم حكم، لانه لا يحكم الا بالحق، وغيره قد يحكم بالباطل لجهله الحق أو لمخالفته له باتباع الهوى. وقد امتثل ﷺ أمر ربه، وصبر حتى حكم الله بينه وبين قومه، وأنجز وعده له ولمن اتبعه من المؤمنين، فاستخلفهم في الأرض وجعلهم الائمة الوارثين، مدة إقامتهم لهذا الدين، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جزى نبياً عن قومه، وجعلنا من المهتدين بما جاء به من كتاب ربه، وسنته المبينة له، علما وعملا، وارشادا وتعليما، وصلى الله عليه وعلى آله وصحابته ومن اتبعه وسلم تسليما

(تم تفسير سورة يونس بفضل الله وتوفيقه تفصيلا)

ويليه بيان ما فيها من العقائد والقواعد إجمالا

الخلاصة الاجمالية لسورة يونس عليه السلام

وفيها ستة أبواب

(جميع آيات هذه السورة في أصول عقائد الاسلام التي كان ينكرها مشركو العرب وهي توحيد الله تعالى ، والوحي والرسالة ، والبعث والجزاء ، وما يناسب هذه الثلاث وبعدها من صفاته تعالى وأفعاله وتنزيهه وآياته وسننه في خلقه ، وشئون البشر في صفاتهم وعاداتهم وأعمالهم ، ومحاجة مشركي مكة في ذلك كله ، ولاسيما هداية القرآن والرسول ﷺ والعبرة بأحوال الرسل مع أقوامهم فهي كسورة الانعام في السور المكية إلا أنها أكثر منها ومن سائر السور إثباتا للوحي والرسالة ، وتحديا بالقرآن وبيانا لاعجازه وحقيته وصدق وعده ووعيده ، وهذه المقاصد والعقائد مكررة فيها بالاسلوب البديع ، والنظم البليغ ، بحيث يحدث في نفس سامعها وقارئها أروع الاقناع والتأثير ، من حيث لا يشعر بما فيه من التكرير ، وانني أوجز في تلخيص هذه الاصول في أبوابها لما سبق في هذا الجزء من بسطها في مباحث الوحي من تفسير أول السورة ولا سيما مسائل إعجاز القرآن ، وإثبات نبوة محمد ﷺ التي امتازت بها على سائر السور).

الباب الاول

(في توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وصفات عظمته وعلوه ، وتدبيره لامور عباده ، وتصرفه فيهم وفضله عليهم ورحمته بهم ، وعلمه بشئونهم ، وتنزيهه عن ظلمهم ، وعما لا يليق به من أوهامهم ، وفي آياته الدالة على ماذكر كله وفيه ثلاثة فصول)

(الفصل الاول في توحيد الربوبية والألوهية)

أجمع الآيات في هذا التوحيد الآية الثالثة من هذه السورة التي خاطبت الناس بأن ربهم هو الذي خلق السموات والارض أطواراً في ستة أيام أي أزمنة ، تم فيها خلقها وتكوينها فكانت ملكا عظيما ، ثم استوى على عرش هذا الملك الاستواء اللائق به ، الدال على علوه المطلق على جميع خلقه ، وإحاطته به بعلمه وقدرته ، وتدبير

الامر فيه بمشيئته وحكمته ورحمته، بغير حد ولا تشبيه، ولا شريك له في الخلق والتقدير، ولا في التصرف والتدبير، ما من شفيع عنده إلا من بعد اذنه، فلله وحده الامر، وبيده النفع والضر

بعد تقرير هذه الحقيقة في توحيد الربوبية قال تعالى محتجاً بها على توحيد الالوهية (ذلكم الله ربكم فاعبدوه) أي فاعبدوه وحده ولا تعبدوا معه غيره بطلب شفاعة ولا دعاء ولا مادونهما من مظاهر العبادة، إذ لا رب لكم غيره، وإنما تجب العبادة لرب العباد دون غيره . واستدل على توحيد الربوبية بما في الآيات ٤ — ٦ من الآيات (الدلائل) الكونية

ثم عاد إلى توحيد الالوهية وهو العبادة الخاصة في الآية (١٨ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) ودحض هذا القول منزهاً نفسه عن هذا الشرك

ثم احتج على بطلان شركهم هذا بما في الآيتين ٢٢ و٢٣ من ضرب مثل لهم يعرفونه بالتجربة، لوقوعه لكثير منهم في أزمنة مختلفة، وهو أنهم إذا ركبوا في الفلك وعصفت بهم الريح، وهاج بهم البحر وأشرفوا على الهلاك، يدعون الله وحده مخلصين له الدين وينسون عند شدة الخطر ما كانوا يشركون به من الشفعاء والاولياء

ثم عاد إلى التذكير بالآيات الكونية على وحدانية الربوبية في الآيات ٣١ـ٣٦ وإلى توحيد الالوهية في الآية (٤٩ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله)

ثم عاد إلى التذكير بتوحيد الربوبية في سياق آخر فبين في الآية ٥٦ أن لله ما في السموات وما في الارض. وفي الآية ٦٦ ان لله من في السموات ومن في الارض وان الذين يدعون من دون الله لا يتبعون شركاء لله إذ لا شركاء له، ما يتبعون إلا الظن والخرص

ثم بين في الآيتين ٧١ و٨٥ أن كمال التوحيد في التوكل على الله وحده

ومن شئون الرب وحقه على عباده التشريع الديني وقد بين في الآية ١٥ والآية ١٠٧ ان الرسول متبع لما يوحى اليه عملا وتبليغا، لا مشترع مستقل فيه ولا متحول عنه

وفي الآيتين ٥٩ و ٦٠ أن جميع ما أنزله الله تعالى لعباده وأنعم به عليهم من أنواع الرزق فهو حلال لهم ليس لأحد منهم حق أن يحرمه عليهم لذاته تحريما دينيا . وان من تحكم فيه بالتحريم والتحليل فهو معتد على حقه تعالى مفتر عليه

(الفصل الثاني في صفات الذات من العلم والمشيئة والعزة والرحمة)

أما العلم فحسبك من هذه السورة قوله تعالى (١١ وماتكون في شأن)الخ فراجع تفسيرها وتأمل عجائب بلاغتها ، وإحاطتها بعظائم الامور وصغائرها ، وظواهر الاعمال وخفاياها ، وذرات الوجود قريبها وبعيدها جليها وخفيها ، وما تدركه المشاعر وما لاتدركه من خلايا مركباتها ودقائق بسائطها . وتدبر تعلق علم الله تعالى بها كلها ، وكتابته لها من قبل إيجادها ، وشهوده إياك في كل ما تكون فيه منها ، تجده رافعاً لك إلى أعلى درجات الايمان والاسلام والاحسان

ثم تأمل قوله تعالى في الذين يشركون بالله غيره بما يرجون من نفعهم لهم ، وكشفهم الضر عنهم بشفاعتهم عنده تعالى من الآية (٤٩ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض) تعلم مقدار جهل الانسان وجنايته على نفسه، بما يقوله على الله تعالى بغير علم، من تصغير أمر الربوبية والشرك في الالوهية، بالتوجه في الدعاء والرجاء والخوف إلى غيره تعالى بما هو عين الشرك به كما تقدم آنفا

وأما صفة المشيئة فتأمل فيها أمره تعالى لرسوله الاعظم في الآية (١٦ قل لو شاء الله ماتلوته عليكم) الخ وفي الآية (٤٩ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ماشاء الله) تعلم منه قدر إيمانه ﷺ بمشيئة ربه عز وجل، ثم انظر قوله تعالى له (٩٩ ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً) تعلم منه كيف شاء الله تعالى أن يخلق المكلفين في هذه الارض مختلفي الاستعداد للايمان والكفر والخير والشر ، وان ماوهبه من المشيئة والاستطاعة لأعظمهم قدراً وفضلا لا يمكن أن يخرج عن مقتضى مشيئته وسننه في نظام خلقه، ويؤكده قوله تعالى بعده (١٠٠ وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله) وهو بيان لسنته التي اقتضتها مشيئته في اختيارهم للكل من الايمان والكفر ، وما يستلزمان من عمل الخير والشر . وفي معناه قوله فيما يصيبهم من ضر ونفع وخير وشر، وكون كل منهما بالاسباب المقيدة بسننه في الخلق بمقتضى ارادته (١٠٧ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو) الآية فلا يقدر الاولياء ومن يسمونهم الشفعاء على النفع ولا على الضر من غير أسبابهما المشتركة من جميع الناس ، وانما يقدر على ذلك واضع السنن والاسباب وحده

والمراد من كل هذه الآيات سد ذرائع الشرك وإعتاق البشر من رقه، باعتمادهم في أمورهم على ما وهبهم من القوى، وطلب كل شيء من أسبابه التي سخرها الله لهم، والتوجه اليه وحده في تسخير ما يعجزون عنه، ومع هذا كله نرى من سرت اليهم عدوى الوثنية من أهلها يتوجهون الى غيره تعالى من الاحياء والاموات المتقدين فيما لا يقدرون عليه بكسبهم وفيما هو من كسبهم أيضا. ولكنهم يجهلون قدرتهم أو قدرة أمثالهم كالاطباء عليه، ويظنون أن معتقديهم المتصرفين في الكون بزعمهم أقرب منالا، كما بسطناه في تفسير كل هذه الآيات وأمثالها مكررا اتباعا لكتابه تعالى

وأما صفة العزة فليس في هذه السورة ذكرها إلا قوله تعالى (٦٥ ولا يحزنك قولهم: أن العزة لله جميعاً هو السميع العليم) ومعناها المنعة والقوة التي شأنها أن يَغلب صاحبها ولا يُغلب على أمره، ويذل من خصمه ولا ينال خصمه منه. وكان المشركون يعتزون بكثرتهم وقوتهم وثروتهم، تجاه قلة المؤمنين وضعفهم وفقرهم، فيطعنون في الرسول وفي الاسلام وأهله فيحزنه ﷺ مايقولون، فنهاه عز وجل عن هذا الحزن وعلله بأن العزة الحق هي لله وحده، فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء، وقد كتبها لرسوله وللمؤمنين كما بيناه في تفسير الآية، وفي هذه الآية ذكر السمع والعلم، لتذكيره ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين بسمعه تعالى لأقوالهم، كاحاطته علما بأعمالهم، فهو قدير على اعزازه واذلالهم

وأما صفة الرحمة فقد جاءت مقترنة بالمغفرة في فاصلة الآية ١٠٧ الناطقة بانفراده تعالى بكشف الضر وارادة الخير كما تقدم

وذكرت الرحمة بآثارها ومتعلقاتها في الرزق من الآية ٢١ – وفي خصائص القرآن التشريعية من الآية ٥٧ وفيما يعمهما من الآية ٥٨ وفي التنجية من الظلم وحكم الكافرين في الآية ٨٦ فنسأله تعالى أن يعمنا بأنواع رحمته كلها ويجعلنا من الشاكرين

***

(الفصل الثالث في تقديسه تعالى وتنزيهه وغناه عن كل ما سواه)

نزه الله تعالى نفسه في هذه السورة في مواضع (أولها) أن يكون عنده شفعاء يتفعون من يشفعون لهم أو يكشفون الضر عنهم فيكون لتأثيرهم شرك في أفعاله تعالى.

وهذه شبهة شرك العرب وغيرهم، وقد فشا في أكثر النصارى وكذا جهلاء المسلمين كما بيناه تكراراً وهو نص قوله في الآية ١٨ (سبحانه وتعالى عما يشركون)

ونزه نفسه عن اتخاذ الولد وهو ضرب من الشرك أيضا بقوله (٦٨ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني) الآيه

ونزه نفسه عن ظلم عباده في الدنيا والآخرة وبين انهم هم الذين يظلمون أنفسهم في الآيات ٤٤ و٤٨ و٥٢ و ٥٤

﴿ الفصل الرابع في أفعاله تعالى وآياته في التقدير والتدبير والرزق ﴾

ومجملها في عشرين مسألة

[١] خلق السموات والارض في ستة أيام أي أزمنة يحدد كلا منها طور من أطوار التكوين

[٢] استواؤه تعالى بعد هذا الخلق على عرشه يدبر أمر ملكه والمراد بهذه الآية في هذا الباب أن للعالم في جملته عرشا هو مركز التدبير والنظام العام له [راجع تفسير الآية الثالثة في بيانهما وما نحيل عليه في معناهما]

[٣] بدء الخلق ثم إعادته في الآيتين ٤ و٣٤

[٤ — ٦] جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل وحكمة ذلك في الآية الخامسة

[٧] اختلاف الليل والنهار في الآية السادسة وبيان حكمة ذلك في الآية ٦٧

[٨] مثل الحياة الدنيا في زينتها وغرور الناس بها وزوالها في الآية ٢٤

[٩] إنزال الرزق من السماء والارض في الآيتين ٣١ و ٩٥

(١٠) ملك السمع والابصار في ٣١ أيضا

[١١] اخراج الحي من الميت والميت من الحي فيها

[١٢] تدبير أمر الخلق في الآيتين ٣ و ٣١

(١٣) كون خلقه للشمس والقمر ضياء ونورا وحسبانا بالحق لا عبثا في الآية ٣

[١٤] هدايته تعالى الى الحق ويؤيده ان الظن لا يغني من الحق في الآيتين ٣٥ و ٣٦ وانه ليس بعد الحق إلا الضلال في (٣٢) وانه يحق الحق بكلماته في (٨٢)

[١٥] لله ما في السماوات وما في الارض أي من غير العقلاء في الآية ٥٦

[١٦] لله من في السماوات ومن في الارض من العقلاء في الآية ٦٦

[١٧] الامر بنظر ما في السماوات والارض والاعتبار بهما في الآية ١٠١

[١٨] سرعة مكره تعالى من إحباط مكر الماكرين ، والاملاء للظالمين ، في الآية ٢١

[١٩ و ٢٠] تسييره تعالى للناس في البر والبحر ، وانجاؤهم من الغرق بعد اليأس في الآيتين ٢٢ و ٢٣

فهذه الآيات المنزلة ، المرشدة الى النظر في الآيات المكونة ، تدل على عناية هذا الدين بالعلم بكل ما خلق الله ، وما أودع فيه من الحكم والمنافع للناس، ليزدادوا في كل يوم علما بدنياهم، وعرفانا وإيمانا بربهم، كما رتلوا كتابه، وتدبروا آياته (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب) فنسأله تعالى أن يجعلنا من خيارهم وأبرارهم

الباب الثاني

في الوحي المحمدى وهو القرآن (*

القرآن من كلام الله تعالى وانما فتحنا له بابا خاصا ولم نذكره في صفاته عز وجل من الباب الاول لان ما ورد فيه من الآيات ليس من ناحية كونه صفة له ، بل من ناحية كونه كتابا منزلا من عنده لهداية خلقه . وعقيدة الايمان بكتبه تعالى في المرتبة الثانية بين الايمان به والايمان برسله ، وملخص ما يختص بالقرآن من هذه السورة في عشر مسائل

(١) افتتح الله هذه السورة بالاشارة الى كتابه الحكيم في الآية الاولى منها ، وثنى في التي تليها بالانكار على الناس عجبهم من وحيه الى بشر منهم أن يكون هاديا لهم نذيرا وبشيرا . وقد بينا في تفسير هذه الآية دلائل هذا الوحي باعجاز القرآن اللفظي والمعنوي وتفنيد شبهات الذين زعموا انه وحي فاض من نفس محمد ﷺ

*) انما فسرنا بالقرآن لان الله تعالى أوحى اليه غير القرآن أيضا

وعقله الباطن على لسانه باسهاب واطناب فكان ذلك مصنفا مستقلا مستنبطا من جملة القرآن وعلومه وتأثيره في العالم ، فنشير الى ما في هذه السورة منه بالايجاز

(٢) في الآية الخامسة عشرة منها اقتراح المشركين على النبي ﷺ أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن أو ان يبدله ، وما أمره الله تعالى أن يجيبهم به من عجزه عن تبديله أو الاتيان بغيره ، وكونه لا يملك من أمره فيه الا اتباع ما يوحى اليه من تبليغه والعمل به ، (ومثله في آخر السورة)

(٣و٤) في الآية السادسة عشرة انه ﷺ ما بلغهم هذا القرآن إلا بمشيئة الله تعالى وتسخيره ، فلو شاء تعالى ان لا يتلوه عليهم لما تلاه ، ولو شاء تعالى ان لا يدريهم ولا يعلمهم به لما أدراهم ، فهو الذي أقرأه بعد ان لم يكن قارئا (اقرأ باسم ربك ... سنقرئك فلا تنسى) وهو الذي علمه وجعله معلما (وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم * ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا) الخ

(٥) أنه أيد هذا بالحجة العقلية القاطعة ، وهو أنه قد لبث فيهم عمرا طويلا من قبله وهو سن الادراك والصبا فالشباب حتى بلغ أشده واستوى وبلغ أربعين سنة ، لا يقرأ ولا يقرئ ، ولا يتعلم ولا يعلّم ، وقد بينا في تفسيرها (أي الآية ١٦) انه ثبت عند حكماء التاريخ بالتجارب والاستقراء ان جميع معارف البشر الكسبية واستعدادهم للعلم والعمل ، انما يظهران ويبلغان أوج قوتهما من النشأة الاولى الى منتصف العشر الثالث من العمر ، ولا يكون بعده الا التمحيص والتكميل ، ومحمد ﷺ لم يظهر منه علم ولا بيان ولا عمل إصلاحي عام ديني أو دنيوي إلا بهذا الوحي الذي فوجئ به بعد استكمال الاربعين

ويليها في الآية ١٧ أن أشد الناس ظلما لنفسه من افترى على الله كذبا أو كذب بآيات الله ، وانه من المجرمين الذين لا يفلحون ، فهل يرتكب هذا الظلم من يعلم هذا ؟ ولماذا يرتكبه ؟ وقد عرف قبحه كبيرا ، بعد أن نشأ على التزام الصدق صغيرا ، واشتهر به وبالوفاء عند المعاشرين ، حتى لقبوه بالامين ؟

(٦) في الآية الثامنة والثلاثين حكاية عن المشركين (أم يقولون افتراه)

وأمره تعالى لنبيه بتحديهم بالاتيان بسورة مثله، ودعوة من استطاعوا من دون الله الذي أنزله بعلمه ، ولا يقدر عليه أحد من خلقه ، والا كانوا كاذبين في زعمهم انه افتراه ، اذ لا يعقل أن يفتري الانسان ما هو عاجز كغيره عنه ، وقد بينا في تفسيرها معنى التحدي والعجز وموضوع الاعجاز اللفظي والمعنوي وهل يدخل فيه قصار السور مطلقا أو مقيدا ؟ (راجع تفسيرها تجد فيه مالا تجده في غيره)

(٧ و ٨) في الآية ٣٩ ذكر إضرابهم عن التكذيب المطلق الذي يتضمنه ذلك القول الى التكذيب المقيد بما لم يحيطوا بعلمه ، وفي الآية ٤٠ كونهم فريقين منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، وفي تفسير الاولى منهما تحقيق معنى تأويل القرآن وخطأ أكثر المفسرين الذين اطلعنا على كتبهم في فهم التأويل بحمله على التأويل الاصطلاحي عند علماء الكلام والاصول، حاش الامام محمد بن جرير الطبري

(٩) في الآية ٥٧ بيان انواع ارشاد القرآن وإصلاحه للبشر وهو قوله (يا ايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين)

(١٠) في الآيتين ١٠٨ و١٠٩ وهما خاتمة السورة خلاصة تبليغ الدعوة وموضوع الاولى في خطاب الناس كافة انه قد جاءهم الحق من ربهم وهم مختارون في الاهتداء به والضلال عنه ، وموضوع الثانية أمر الرسول باتباع ما يوحى اليه تبليغا وعملا ، كما تقدم في المسألة الثانية

الباب الثالث

في النبوة والرسالة وفيه فصلان

(الفصل الاول في الرسالة العامة والرسل الاولين وفيه سبع مسائل)

(١) في الآية الثانية من السورة إثبات وحي الرسالة وأن الرسل رجال من الناس وأن وظيفتهم الانذار والتبشير، وأن الكفار كانوا ينكرون أن يكون البشر رسلا لله تعالى ، وكانوا يسمون آيات الرسول اليهم سحراً ويسمونه ساحراً

(٢) في الآية ١٣ ان الله تعالى أهلك القرون [الامم] القديمة لما ظلموا أنفسهم

بالشرك والاجرام وجاءتهم رسلهم بالبينات الدالة على صدقهم في التبليغ عن الله تعالى ولم يؤمنوا لجزامهم باجرامهم

(٣) في الآية ٤٩ ان الرسول لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا فضلا عن غيره لان هذا لله وحده ، والرسل فيه كغيرهم كما ترى في آيات توحيده

(٤) في الآية ٤٧ ان الله تعالى جعل لكل أمة رسولا ، فليست الرسالة خاصة ببني اسرائيل كما يدعون ، ولا بهم وبالعرب كما توهم آخرون ، والشبهة على هذه الكلية ان أكثر أمم الارض وثنية وتواريخها عريقة في ذلك ، كقدماء المصريين والكلدانيين والاشوريين والفرس والهند والصين وشعوب الافرنج القديمة وكذا قدماء أمريكة . وجوابها ان جميع هذه الامم لها أديان قائمة على الاركان الثلاثة التي بعث بها جميع الرسل الاولون . وهي الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، وقد طرأت على كل منها التقاليد الوثنية طروءاً كما بيناه في مباحث الوحي وشواهد ذلك ظاهرة في آخر هذه الامم حتى المسلمين

(٥) في هذه الآية أيضا ان كل رسول عانده قومه قضى الله بينه وبينهم بالقسط ، والآيات التي بعدها في تكذيب قوم نبينا ﷺ له وستذكر في الفصل الثاني

(٦) من الشواهد على هذا قصة نوح مع قومه في خلاصة دعوته لهم وإصرارهم على تكذيبه ، وإهلاك الله إياهم بالغرق ، وانجاء نوح ومن آمن معه في الفلك ، وجعلهم خلائف في الارض ، وهي في ثلاث آيات من ٧١—٧٣ ويليها آية واحدة في الرسل الذين بعثوا بعده اجمالا ، ويليها قصة موسى مع فرعون وملئه ، وغايتها انه تعالى أهلك فرعون ومن أتبع بني اسرائيل معه بالغرق ، وأنجى موسى وبني اسرائيل وجعلهم خلائف في الارض المقدسة الى حين ، وهي في الآيات ٧٥ — ٩٣ وسنبين ما في هاتين القصتين من الفوائد والعبر في قصص الرسل من تفسير سورة هود (ع . م)

(٧) في الآية ٩٨ العبرة لأهل مكة بقوم يونس بأنهم استحقوا عذاب الخزي والاستئصال بعنادهم لمحمد رسول الله وخاتم النبيين كما استحقه قوم يونس ، وأنهم اذا آمنوا قبل وقوع هذا العذاب ينفعهم إيمانهم كما نفع قوم يونس عليهما السلام

﴿ الفصل الثاني في رسالة محمد نبينا ﷺ ﴾

وسيرته مع قومه وعاصمة بلاده و مجمل آياته في احد عشر نوعا

(١) في الآية الثانية ان الكافرين أنكروا دعوة نبوته وعجبوا منها أن كان رجلا منهم يوحى اليه ، وسموا آيته سحراً ونبزوه بلقب ساحر مبين ، كما تقدم في الكلام على الوحي وعلى الرسالة العامة في أول الفصل الاول ، والآية نزلت فيه ﷺ وشبهة السحر لا تُخيل (أي لا تشتبه من أخال الامر اذا أشكل واشتبه) في القرآن كالآيات الكونية وانما قالوه تكلفا وعنادا .

(٢) في الآية ١٥ أنهم اقترحوا عليه أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن الذي أعجزهم أمره أو ان يبدله ، وفي الآية ١٦ الرد عليهم بما تقدم مفصلا ، ويليها تأييد الرد

(٣) في الآية ٢٠ اقتراحهم عليه ﷺ أن يأتيهم بآية كونية وجوابه لهم وفي الآيتين ٩٦ و ٩٧ أن الذين حقت عليهم كلمة الله بفقدهم الاستعداد للايمان لا يؤمنون ولو جاءهم كل آية كونية مما اقترحوا ومما لم يقترحوا

(٤) في الآية ٣٧ بيان ان هذا القرآن لا يمكن أن يكون مفترى من دون الله ، إذ لا يقدر على مثله أحد من خلق الله ، وانه تصديق لما تقدمه من دعوة الرسل ، وتفصيل لما أجمل فيما قبله من الكتب ، فهو من رب العالمين لا ريب فيه ، لان محمداً ﷺ ما كان يدري شيئا مما نزل فيه

(٥) في الآية ٣٨ تحدي المشركين الذي قالوا افتراه وهو مطالبتهم بالاتيان بسورة مثله ، واستعانتهم على ذلك بمن يستطيعون استعانتهم من دون الله تعالى

(٦) في الآية ٣٩ الاضراب عن التكذيب المطلق إلى التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله وهو ما وعدهم به من العذاب بقسميه الدنيوي والاخروي

(٧) في الايات ٤٠ — ٥٤ ان من أولئك المشركين من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، ومناقشة المكذبين ، ووصف حال من فقدوا الاستعداد للايمان بحيث لا يعقلون الدلائل السمعية ولا البصرية ، وإبهام أمر ما وعدوا به من العذاب هل يقع في حياته ﷺ أو بعد وفاته ، وحكمة هذا الابهام له واستعجالهم به ،

وكونهم يؤمنون به عند وقوعه فلا ينفعهم إيمانهم يومئذ — وسؤالهم أحق هو ؟ وجوابهم بالقسم إنه لحق، لأن وعد الله كله حق، وفي تفسيرنا له بيان قلة الكذب في العرب ، واحترام القسم بالله تعالى ، واشتهار النبي ﷺ بالصدق والامانة فيهم من صغره

(٨) بعد أن أيد الله دعوته ﷺ بقصتي نوح وموسى بالايجاز مفصلة، وذكر من بينهما بالاشارة المجملة ، أخبره ان الذين يقرءون الكتاب من قبله عندهم علم من ذلك ، فلو انه كان في شك منه وسألهم لأجابوا إنه الحق من ربه ، وهذا تأكيد لكونه لا موضع للامتراء به

(٩) كان ﷺ يحزنه تكذيب قومه له وكفرهم بما جاء به فنهاه الله عن ذلك في الآية ٦٥ وكان يتمنى إيمانهم كلهم فجاءه في الآيات ٩٦—١٠١ بيان سنة الله في اختلاف استعداد الناس للايمان والكفر، وانه لو شاء لجعلهم كلهم مؤمنين، ولكانوا غير هذا النوع من خلق الله، ولكنه لم يشاء، واذن لا يقدر الرسول ولا غيره على إكراههم على الايمان، وأن الآيات لا تنفع إلا المستعدين للايمان والصلاح، وان النجاة لرسل الله ومن آمن بهم بمقتضى سنته تعالى في خلقه

(١٠) ختم السورة من الآية ١٠٤ — ١٠٩ بتجديد الدعوة الى تجريد التوحيد والعبودية المحض ، وكون الحق قد تبين فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فعليها، وإنما الرسول ﷺ مبلغ لا وكيل لله متصرف في أمر عباده، فعليه أن ينتظر حكمه وهو خير الحاكمين .

(١١) إعلامه تعالى هذه الامة في الآية ١٤ بأنه جعلهم خلائف في الارض كلها بعد إهلاك أكثر القرون الاولى من أقوام الانبياء المعاندين لرسلهم ، وتحريف آخرين لأديانهم ونسخه تعالى لما بقي منها ببعثة خاتم النبيين ﷺ وانه يختبرهم بهذه الخلافة فيجزيهم بما يعملون فيها ، وأخرنا هذا لانه ثمرة اجابة الدعوة في الدنيا كما وعدهم، وأنجز وعدهم لهم بشرطه في الآية (٢٤ : ٥٤) من سورة النور

الباب الرابع

في البعث والجزاء ، وتلخص آياته في بضعة أنواع

(١) في الآية الرابعة ذكر رجوع الناس جميعا الى الله ربهم الذي يبدأ الخلق بأجناسه وأنواعه المختلفة ، ثم يعيده ليجزي المؤمنين الصالحين بالقسط ، والكافرين بما ذكره إجمالا ، وبينا في تفسيرها كونه بالقسط أيضا كما ترى بيانه في النوع (٤) وكون جزاء المؤمنين يضاعف كما ذكر في غيرها

(٢) في الآيات ٧ — ١١ تفصيل لجزاء الفريقين مع تعليل طبيعي عقلي لتأثير الايمان والكفر في الانفس ، وفاقا للقاعدة التي قررناها مراراً من أن جزاء الآخرة أثر لازم لسيرتها في الدنيا ، بجعلها أهلا بطبعها وصفاتها لجوار الله ورضوانه أو لسخطه

(٣) في الآيات ٢٣ — ٣٠ تفصيل آخر موضح بضرب المثل فيه تصريح بالزيادة في جزاء المحسنين عما يستحقون ، وكون جزاء المسيئين بالمثل ، وكون كل نفس تبلو في الآخرة ما أسلفت في الدنيا ، لا ينفع أحد أحداً بنفسه ولا بعمله

(٤) في الآيات ٤٥ - ٥٦ سياق رابع مفتتح بالتذكير بيوم الحشر وتقدير الناس لمدة لبثهم في الدنيا بساعة من النهار ، وخسران المكذبين بلقاء الله ، وتأكيد وعد الله به ، واستبطائهم له ، واستعجالهم به ، واستنبائهم الرسول : أحق هو؟ وحالهم عند وقوعه ، وتمنيهم الافتداء منه بكل ما في الارض ، واسرارهم الندامة عند رؤية العذاب ، والقضاء بينهم بالقسط (وهم لا يظلمون) وهذا الاخير في الآيتين ٤٧ و ٥٤

(٥) في الآيات ٦٢ — ٦٤ ذكر أولياء الله وهم المؤمنون المتقون وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وان لهم البشرى في الدنيا والآخرة

(٦) في الآيتين ٦٩ و ٧٠ ذكر المفترين على الله وكونهم لا يفلحون ، لهم متاع قليل في الدنيا ، ثم ان مرجعهم الى الله فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون

(٧) في الآية ٩٣ عقب قصة موسى مع فرعون وملئه ونجاة بني اسرائيل

بعد هلاكهم ان بني اسرائيل ما اختلفوا حتى جاءهم العلم ، وان الله يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون

اذا عددت هذه الآيات التي أشرنا اليها في البعث والجزاء وجدتها تبلغ زهاء الثلث من هذه السورة ، ولكنك لا تشعر عند ماتقرأ السورة أنك تكرر معنى واحداً فيها يبلغ هذا القدر منها، وانما يستقر هذا المعنى في قلبك ويملؤه إيمانا بلقاء الله تعالى والخوف من حسابه وعقابه ، والرجاء في عفوه ورحمته وثوابه، وما كان التكرار إلا لأجل هذا ، فهل يستطيع أبلغ البشر أن يأتي بكلام كهذا ؟ لا لا

الباب الخامس

في صفات البشر وخلائقهم وعاداتهم وما يترتب عليها من أعمالهم وسنن الله فيها وهي نوعان

﴿ النوع الاول الصفات الذميمة التي يجب معالجتها بالتهذيب الديني ﴾

(الاولى العجل والاستعجال) قال الله تعالى [٢١ : ٣٧ خلق الانسان من عجل] وقال [١٧ : ١١ وكان الانسان عجولا] ومن شواهد هذه الغريزة في هذه السورة قوله تعالى [١١ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم] ومنها استعجالهم بالعذاب الذي وعدهم الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ كما تراه في سياقه من الآيتين ٥٠ و ٥١

(الثانية الظلم) قال تعالى [١٤ : ٣٤ إن الانسان لظلوم كفار] وقال في آية الامانة [٣٣ : ٧٢ وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا] ومن الشواهد على هذه الخليقة أو الشيمة في هذه السورة ماتراه في الآيات ٤٤ و ٨٥ و ١٠٦

(الثالثة الكفر بالله وبنعمه) قال تعالى في وصف الانسان من سورته سورة الدهر [٧٦ : ٣ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً] ووصفه بالكفور في سور الاسراء والحج والشورى، وبالكفار (بالفتح للمبالغة) في سورة ابراهيم وذكرت آنفا. ولكن ذكر الكفر بلفظه ومشتقاته في هذه السورة قليل . ذكر في الآية الثانية الكافرون بالوحي والرسالة ، وفي الآية الرابعة جزاء الذين كفروا في الآخرة

بكفرهم ، وذكر في الآية ٨٦ في دعاء بني إسرائيل بالنجاة من حكم الكافرين

وأما ذكره بالمعنى فهو كثير فيها فمنه ماهو بلفظ التكذيب وعدم الرجاء بلقاء الله، وما هو بلازمه من الفسق والاجرام والبغي والطغيان والاستكبار ، وكذا الظلم الذي خصصناه بالذكر

(الرابعة الشرك بالله تعالى) وهو عادة سارت وراثية في الامم ، وذكر في الآيات ١٨ و ٢٨ و ٣٤ و ٣٥ و ٦٦ و ٧١ وهو أخص من كل ماتقدم

(الخامسة الجهل واتباع الظن والخرص) الاصل في هذه الخليقة أن الله تعالى خلق الانسان جاهلا لا يعلم شيئا من ضروريات حياته حتى ان غرائزه الخلقية أضعف من غرائز الحشرات والعجماوات ، وجعل عماد أمره على التربية والتعلم التدريجي، ونصوص القرآن في هذا معروفة كقوله [١٦ : ٧٨ والله أخرجكم من بيوت أمهاتكم لا تعلمون شيئا] وآية الامانة وتقدم ذكرها في الظلم. والنص الصريح في هذه السورة قوله تعالى [٣٦ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لايغني من الحق شيئا] وقوله [٦٦ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون]

(السادسة الطبع على القلوب) والاعراض عن آيات الله في خلقه مما يدرك بالسمع والابصار، حتى لا تعود تقبل ما يخالف تقاليدها الموروثة والراسخة بمقتضى العمل وهو نص قوله تعالى [٧٤ كذلك نطبع على قلوب المعتدين] فهو صريح في كونه نتيجة معلولة لاعتداء حدود الفطرة السليمة كما تراه مفصلا في تفسيرها لا كما يفهمه الكثيرون من الجبرية والقدرية الصرحاء والمتأولين . وغاية هذه النتيجة القلبية النفسية في الدنيا الحرمان من الايمان بمقتضى كلمة الله في نظام التكوين ، وما يبنيه من كلمة التكليف ، لعدم الانتفاع بالآيات المرشدة للفطرة الى الهداية ، وهو ما تراه في الآيات ٣٣ و٦٦ — ١٠١

(السابعة الغرور والبطر بالرخاء والنعم) فهم في أثنائها يمكرون في آيات الله ويشركون به ويبغون في الارض حتى اذا أصابتهم الشدائد تذكروا واخلصوا في دعائه فاذا كشفها عنهم عادوا الى شركهم وفسادهم ، كما تراه في الآيات ٢١ — ٢٣ و ٨٨

(النوع الثاني. الغرائز والصفات المحمودة)

نزلت هذه السورة في أوائل ظهور الاسلام بمكة وأكثر أهلها مشركون معاندون كافرون ظالمون مجرمون جاهلون، مستكبرة رؤساؤهم،مقلدة دهاؤهم، فكان مقتضى هذا تقديم الانذار فيها على التبشير كما تراه في أولها، ولهذا كان أكثرها في بيان الصفات والخلائق والعادات القبيحة الضارة وهو النوع الاول في هذا الباب، وكان النوع الثاني مما يعلم أكثره بالاستنباط، وكون أصل غرائز الانسان الاستعداد للحق والباطل والخير والشر، وكونه مختاراً في كل منهما، وكونه فطر على ترجيح ما يثبت عنده أنه خير له بالدلائل العقلية، أو التجارب العملية،وكون الدين مؤيداً للعقل، حتى لايغلب عليه الهوى والجهل

فتأمل الاصل في تكوين الامم ووحدتها في فطرتها ثم طروء الاختلاف عليها في الآية ١٩ — ثم انظر في مقدمة الدعوة العامة الى الناس كافة في آخر السورة من الآية ٩٩-١٠٣ وهي صريحة في استعدادهم المذكور، وكونه اختياريا لا إكراه فيه، وتعبيره عن سنة الله في ترجيحهم الرجس على تزكيـة النفس بجعله على الذين لا يعقلون، ولا يهتدون بآيات الله في السموات والارض، ولا يعتبرون بسنته فيمن قبلهم من أقوام الرسل،وكيف كانت عاقبتهم وعاقبة الرسل ومن آمن معهم

ثم تأمل خلاصة هذه الدعوة من خطاب الناس في الآية ١٠٤ الى آخر السورة من إقامة الحجة على المشركين الشاكين في دين الرسول ﷺ وكون الشك جهلا، وكونهم انما يعبدون وهما، وكون مايدعوهم اليه هو مقتضى الفطرة الحنيفية، وكونهم يعبدون من لا يملك لهم نفعا ولا ضراً، وكون ما جاءهم به هو الحق، وكونهم مختارين في الاهتداء والضلال،وكون ما يختارونه إما لأنفسهم وإما عليها، وكونه ﷺ ليس موكلا بهدايتهم ولا مسيطراً عليهم

وهذه الخلاصة اجمال لما تقدم تفصيله في هذه السورة وغيرها، فارجع الى تذكيرهم بالدلائل الكونية في الآية الثالثة التي تشير الى أنها مغروسة في أعماق أنفسهم، وبالدلائل العقلية بقوله في الخامسة [يفصل الآيات لقوم يعلمون] وفي السادسة

[لقوم يتقون] وخطابه في الآية السادسة للعقل بقوله [أفلا تعقلون] وفي الحادية عشرة للفكر بقوله (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) ثم ارجع الى قوله بعد إقامة طائفة من الدلائل العلمية الكونية (٣٥ قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق — ٣٩) ثم الى بيانه لهم مافي القرآن من أصول التزكية والتهذيب الاربعة في الآية ٥٧ وما بعدها — وقد تقدم تفصيل ذلك وما في معناه في الفصول السابقة

الباب السادس

في الاعمال الصالحات التي هي الركن الثالث مما جاء به الرسل (ع . م) وما يقابلها من الأعمال العامة ، وأخرناه لانه الثمرة والنتيجة وهو قسمان

﴿القسم الاول الاعمال الصالحة﴾

(١) قوله تعالى في الآية الرابعة (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) والصالحات ماتصلح به أنفس الافراد ونظام الاجتماع في البيوت والامة والدولة هذا هو الركن الثالث مما جاء به جميع رسل الله مجملا ، وفصل في كل ملة بحسب ما كان من الاستعداد فيها ، وكل عمل من العبادات الدينية أو المعاملات المدنية والسياسية لا يؤدي الى الصلاح أو الاصلاح فهو غير صالح ، فاما فاسد في أصله، وإما أدّي على غير وجهه

(٢) قوله تعالى (٩ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم) وقد بينا في تفسيرها علاقة الايمان بالعمل الصالح وكون كل منهما يمد الآخر ويستمد منه، ومن لم يفقه هذا ويتوخه لم يفقه في دينه ، ولم يكن به صالحا يستحق الجزاء الذي وعد الله به في هذه الآية وما قبلها، وفي أمثالها من طولى السور ومثينها ومفصلها حتى أقصرها (وهي سورة والعصر) ويؤيد هذا اتحاد الايمان والاسلام في الماصدق وان اختلفا في المفهوم كما ترى في الآيتين ٨٤ و ٩٠ فمفهوم الايمان التصديق الاذعاني الجازم بما جاء به النبي ﷺ من الدين وهو يستلزم العمل به

ومفهوم الاسلام التسليم والانقياد بالفعل وهو العمل بمقتضى الايمان ولا يصح فيكون اسلاما الا به»

(٣) قوله تعالى (٢٦ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ظاهر في دلالة الزيادة على ما ورد في القرآن من مضاعفة هذا الجزاء

(٤) قوله تعالى في التعريف بأوليائه (٦٣ الذين آمنوا و كانوا يتقون) فالتقوى جماع الاعمال الصالحة الحسنة مع اتقاء الاعمال الفاسدة السيئة كما فصلناه في مواضع من هذا التفسير أبسطها وأظهرها تفسير قوله تعالى (٨: ٢٩ ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) الآية

(٥) قوله حكاية لوصية موسى لقومه (٨٧ وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين)

﴿القسم الثاني في السيئات وفي الاعمال المطلقة بقسميها﴾

(٦) قوله تعالى في منكري البعث والجزاء الراضين المطمئنين بالحياة الدنيا وحدها غافلين عن آيات الله فيها (٨ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون)

(٧) قوله فيمن يعبد الله على حرف فيدعونه في الضراء وينسونه في السراء (١٧ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون)

(٨) قوله بعد بيان بغي الناس في السراء وغرورهم بمتاع الحياة الدنيا وكون وباله على أنفسهم في الآيات ٢١ — ١٣ وهي بمعنى ماقبلها (٢٣ ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون)

(٩) قوله (١٥ إن أتبع إلا مايوحى الي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم)

(١٠) قوله (٢٧ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها) الآية

(١١) قوله في الآية (٥٢ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الا بما كنتم تكسبون)

(١٢) قوله في الآية (٨١ ان الله لا يصلح عمل المفسدين)

(١٣) قوله تعالى في الاعمال المطلقة بقسميها (١٤ ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون)

(١٤) قوله تعالى بمعنى ما قبله أيضا (٤١ وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم انتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون)

(١٥) قوله تعالى بمعنى ماقبله أيضا (٦١ ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه)

(١٦) قوله في الوصية العامة من الدعوة العامة من خاتمة السورة (١٠٨ فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل)

فنسأل الله عز وجل أن يصلح أعمالنا ، ويجعل خيرها خواتيمها،

وهذا آخر ما نختم به خلاصة هذه السورة البليغة، ونضرع اليه عز وجل أن يوفقنا لاتمام تفسير كتابه الحكيم مطولا ومختصرا ، مفصلا ومجملا ، كما يحب ويرضى من بيان الحق، وهداية الخلق ، وله الحمد والشكر في كل فاتحة وخاتمة

وصلى الله وسلم على نبي الرحمة وآله وصحبه ، والمهتدين به من خلقه

قد جعلنا آخر هذه السورة آخر الجزء الحادي عشر

وقد تم طبعه في شهر المحرم سنة ١٣٥٣ للهجرة الشريفة

الجزء الحادي عشر

من

تفسير القرآن الحكيم

الشهير بتفسير المنار

الطبعة الاولى صدرت سنة ١٣٥٣

مطبعة المنار بمصر

تنبيهات

للمراجعين في هذا الفهرس

(١) قد روعي الترتيب الهجائي في حروف الكلمة الاولى وفي الكلمة الثانية والثالثة اذا كانت حروفها مماثلة للكلمة التي قبلها ، وأهملت حروف الجر والعطف والتعريف

(٢) ان ترتيب الكلمات، هو على حسب النطق لا المادة وجعلنا للمعاني المهمة عدة ألفاظ تدل عليها كـكلمات الدعاء والشفاعة والاولياء في عبادة غير الله تعالى

(٣) اننا وضعنا للآيات المفسرة في الجزء فهرسا خاصا جعلنا فيه عن يمين كل آية عددها من السورة وعن يسارها رقم الصفحة التي بدئ فيها بتفسيرها للاستغناء عن بيان عدد الصفحات كلما أحلنا القارئ اليها لمراجعتها

(٤) اننا نعتمد في عدد الآيات على المصحف الرسمي لوزارة المعارف المصرية فمن رأى في مصحف آخر أو كتاب عدد آية مخالفا له وأراد مراجعتها في تفسيرنا فليعتمد على عددها عندنا

وقع في السطور ١٥ و ١٦ و ١٧ من الصفحة ٦٢ خطأ فتصحح كما يأتي :

ويؤخذ من هذا قاعدة هي ان أحكام الاسلام العامة التي عليها مدار الجزاء في الآخرة ويكلف العمل بها كل من بلغته إن كانت من الاحكام الشخصية التي خوطب بها أفراد الامة كلهم، وينفذها أئمتها وأمراؤها فيها ، هي ما كانت قطعية الدلالة ببيان من الله الخ

﴿الفهرس الاول الأبجدى لمواد الجزء الحادى عشر من تفسير المنار﴾

صفحة

ر — ز

صفحة

س

﴿ الفهرس الثاني للآيات المفسرة في هذا الجزء ﴾

﴿ بقية آيات سورة التوبة ﴾

سورة يونس

﴿ تصويب خطأ الطبع بذكر الصواب وحده ﴾

ص٣س١ جنوح واثمان ص١٥س٨ فيها أبداً ص١٩س٤ يخرج الله ص٣٢س١٤ من المستحقين إياها ص٣٣س٢١ مناهيه ص٣٦س٢٢ حتى كان ص٣٦س٢٤ وما يريبهم ص٣٧س٥ لمن ص٤٩س٨ عليها ص٥٨س١ وأبو جهل وعبد الله بها وادانه ص٥٨ س٢ انه على ص٦٢س٥ عذاب عظيم ص٦٢س١٥ قاعدة هي ص٦٢س١٦ بها كل من بلغته ان كانت من الاحكام الشخصية التي تأخذ س١٧ وينفذها (وفيه) فأثبتت بنص قطعي ص٦٥س١٤ رجعها ص٨٠س٢٢ وأوحي إلي ص٨٩س١ يدعوهم ص٩٠س ١٦ في الآية ص٩٧س٧ في آخر ص٩٩س١٠ سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ص١٠٥ س٢٠ ورسوله ص١٢٤س١٧ فمن ص١٣١س٢ ولا ذمة ص٢٣٦س٢٢ من دون الله ص٢٤٩س٩ وأنزل الله ص٢٤٩س١٨ وآتاه الله الملك ص٢٥٠س١٢ له بناءا ٢٥٧ س٢٣ أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ص٣٣٦س٢٢ مراقبتنا ص٣٧٢س١١ يتجلى له ص٤٨٧س١٧ من قد أرسلنا ص٥٠٠س١٠ وأنزل الله